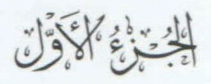




السجل العلمي

لمؤتمر الشيخ العلامة
عبدالرحمن بن ناصر السعدي
آثاره العلمية والدعوية



الأربعاء والخميس
٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤١

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الباحثون في مؤتمر الشيخ عبدالرحمن السعدي

السجل العلمي لمؤتمر الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، آثاره العلمية والدعوية. / الباحثون في مؤتمر الشيخ عبدالرحمن السعدي.- بريدة، ١٤٤١هـ

٤ مجلدات

ردمك: ٨ - ٨١ - ٨١٧٦ - ٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٥ - ٨٢ - ٨١٧٦ - ٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، ت ١٣٧٦هـ ٢- الدعوة الإسلامية - السعودية أ. العنوان

ديوي ٩٢٢،١١٧ ١٤٤١/٢٦٢٠

رقم الإيداع: ١٤٤١/٢٦٢٠

ردمك: ٨- ٨١- ٨١٧٦- ٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٥ - ٨٢ - ٨١٧٦ - ٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

تقديم

تضطلـع الجامعات بـدور مهمّ في التعريـف بالعلمـاء المبرزين في مجال العلم الشـرعي والفكري، والعلوم التجريبية، ومن هذا المنطلق قررت جامعة القصيـم ممثلـة بكلية العلـوم والآداب بمحافظة عنيزة، وكرسـي الشـيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية تنظيم مؤتمر بعنوان: (الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، آثاره العلمية والدعوية)، ويهدف المؤتمر إلى تناول جهود الشـيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله- وتسـليط الضوء على تراثه العلمي والإضافات التي تفرد بها.

وقـد تناولت محـاور المؤتمر جوانب مهمة في منهجية الشـيخ السـعدي العلمية في خدمة القرآن الكريم، والسـنة النبوية، وكذلك منهجه في التعامل مع المخالفيـن، وآثاره في الفقه وأصولـه، وأعماله في الدعوة والتربية وعلوم اللغة العربيـة، واجتهاده في الأحكام والنوازل، إضافة إلى ترجمة ضافية عن الشـيخ السـعدي، ودوره في العلوم الشرعية في منطقة القصيم، وذلك من خلال (٥٢) بحثًا كتبها مجموعة من المتخصصين من داخل المملكة وخارجها.

ويطيـب لي أن أقدم الشـكر والتقدير للزملاء والزميـلات في كلية العلوم والآداب في عنيزة، وللزملاء في كرسـي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية بالجامعـة علـى الجهـود التي بذلوهـا للإعداد لهـذا المؤتمر، والشـكر أيضًا للباحثين الذين أثروا المؤتمر بأبحاثهم ودراسـاتهم العلمية، سائلًا الله أن يعين الجميـع ويوفقنـا لخدمة هـذا الوطن الغالي بقيـادة خادم الحرمين الشـريفين

الملك سلمان بن عبدالعزيز، وسمو ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز حفظهما الله، وبالمتابعة والدعم اللذين تحظى بهما أنشطة الجامعة ومؤتمراتها من قبل سمو أمير المنطقة صاحب السمو الملكي الأمير د.فيصل بن مشعل بن سعود بن عبدالعزيز، وسمو نائبه صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن تركي بن فيصل بن تركي بن عبدالعزيز حفظهما الله.

أدام الله على بلادنا نعمة الأمن والرخاء والاستقرار، والله ولي التوفيق.

أ.د.عبدالرحمن بن حمد الداود

مدير الجامعة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن العناية بتراث أهل العلم والفكر، جمعًا وحفظًا وتوثيقًا ودراسة ونشرًا، لَمن الواجب المتأكد على طلابهم والذين يلونهم ممن جاء بعدهم، فبذلك يتصل العلم، ويتواتر نقله، وينشر خيره، ويعرف اللاحقُ فضل السابق.

والشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ - ١٣٧٦هـ) -رحمه الله تعالى- من أبرز علماء القرن الرابع عشر، في علوم الشريعة، وخاصة التفسير والفقه والعقيدة، فقد كتب ما طار صيته وبلغ الآفاق، وتتلمذ على يديه علماء بارزون، بلغوا من الشهرة ما بلغ، وإذا تجاوزنا الإنشاء إلى الإحصاء، فإن الأطروحات العلمية التي تناولت تراثه العلمي عدت بالعشرات.

وحري بمن بلغ هذا المبلغ من الأثر، أن يعنى به عن قرب، وأن يتناول تراثه بالتفصيل، من خلال جهات متعددة، لينشر ما لم ينشر، وليسلط الضوء على ما لم يجد بعد العناية اللائقة بمقداره كمًّا وعمقًا وأثرًا.

ولأجل هذا فقد نظمت كلية العلوم والآداب بعنيزة، بالتعاون مع كرسي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية هذا المؤتمر، سعيًا لتحقيق عدد من الأهداف، يجمعها العناية بتراث الشيخ عبد الرحمن السعدي والإفادة منه.

وتقسمت محاور المؤتمر على العلوم التي اشتغل بها، فألّف ودرّس، كالتفسير، والعقيدة، والفقه وأصوله، والدعوة والتربية، وعلوم اللغة، كما أفرد ما تميز به الشيخ من الاجتهاد والتجديد بمحور خاص، فقد سبق عصره، واتسعت دائرة نظره للمستقبل، فكانت فتاواه مراعى فيها هذا النظر.

ولقربه رحمه الله، زمانًا ومكانًا، ما زال الناس يتناقلون عنه الروايات والأخبار، فكان حقها أن تفرد بمحور خاص، لتوثّق وتدرس.

ولقد وجد هذا المؤتمر إقبالاً من الباحثين، وتوالت طلبات المشاركة فيه، حتى وصل إلى المؤتمر خلال فترة وجيزة أكثر من مئة فكرة بحثية، قبل منها ١٠٨، وبعد تحكيم البحوث وأوراق العمل قبل منها ٥٢ بحثًا وورقة عمل.

وإننا في هذا المقام، لنحمد الله تعالى ونشكره أن يسر هذا العمل العلمي، حول هذه الشخصية المباركة، ونشكر شركاءنا في هذا العمل، كرسي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية، الذي كان شريكًا أساسيًا، اضطلع بالمهام العلمية، فأبلى الزملاء فيه بلاء حسنًا، كما أشكر زملائي في كلية العلوم والآداب بعنيزة، الذين تحملوا المسؤولية وكانوا خير من عمل فأبدع، وأخص بالشكر أيضًا الإدارات المعنية في الجامعة، التي كانت الرافد الرئيس في إنجاح هذا المؤتمر.

والشكر كل الشكر لهذه الجامعة التي نتفيأ ظلالها جميعًا، ممثلة بمعالي مديرها أ.د. عبدالرحمن بن حمد الداود، وسعادة وكلاء الجامعة، الذين ما زال دعمهم ممتدًا.

أسأل الله العلي القدير أن يبارك في الجهود، وأن يسدد الخطى، وأن يحفظ هذه البلاد التي كان دأبها وما زال، رعاية العلم والعلماء، في ظل حكومتها الرشيدة، بقيادة خادم الحرمين الشريفين، الملك سلمان بن عبد العزيز، وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز، فما فتئت تبذل كل شيء لخدمة هذا الوطن المبارك، والأمة من ورائه.

أ.د. فريد بن عبدالعزيز الزامل السليم

رئيس اللجنة التنظيمية بالمؤتمر

وعميد كلية العلوم والآداب بعنيزة

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على محمد بن عبدالله، خير معلم، أرسله الله بالهدى ودين الحق، ليبين للناس ما نزل إليهم على صراط مستقيم ومنهج قويم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد:

فإن أشرف ما صرفت فيه الأوقات طلب العلم الشرعي، لما يقود طالب العلم إلى خشية الله والالتزام بأوامره، قال تعالى:﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر (٢٨)]، ومن أهم وسائل العلم الشرعي الدراسات البحثية، لذا سعت الكراسي البحثية للإسهام في بناء مجتمع المعرفة، من خلال المؤتمرات والأبحاث العلمية.

ومن هنا أصبح كرسي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية يسعى لإعداد أبحاث علمية شرعية ترقى بالمجتمع نحو المعرفة المتخصصة، محققاً أهدافه من خلال العناية بتراث الشيخ محمد بن صالح العثيمين والدراسات التي تعنى به، ودعم البحوث الشرعية المتميزة في شتى التخصصات الشرعية، وتزويد المجتمع بالحلول العلمية لكافة المشكلات التي يواجهها، وتدريب الباحثين على وسائل البحث العلمي المنهجي مما كان له أثر علمي على المستفيدين.

ولما للشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله من أثر علمي بالغ على الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله، حيث يقول: «ولقد كنا نقتدي بشيخنا عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله ..... لأننا نعتقد أنه شيخنا وإمامنا فنعتبره قدوة لنا» = كان هذا المؤتمر العلمي **(مؤتمر الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، آثاره العلمية والدعوية)** مشاركة من كرسي الشيخ ابن عثيمين

للدراسات الشرعية بالتعاون مع كلية العلوم والآداب بعنيزة، وذلك من خلال اختصاص الكرسي في الجانب العلمي في الإشراف على البحوث وتحكيمها وطباعتها ضمن أعمال اللجنة العلمية بالمؤتمر. شاملة اثنين وخمسين بحثا علميا عن آثار هذا الإمام المتفنن - ابن سعدي رحمه الله - في شتى الفنون من علوم القرآن، والسنة، والفقه وأصوله، والعقيدة ومنهجه في الرد على المخالفين، واللغة، والدعوة، ومعالم التجديد والاجتهاد في تراث الشيخ رحمه الله، إضافة لجوانب مهمة في إبراز سيرته الشخصية وأثرها في النهضة العلمية.

شاكرا الله عز وجل على تيسيره وتسديده في أعمال هذا المؤتمر، فله الحمد كله والثناء أبلغه والشكر أتمه .

ثم أثني بالشكر للجامعة المعطاء جامعة القصيم ممثلة بمعالي مدير الجامعة أ.د. عبدالرحمن بن حمد الداود، ووكلاء الجامعة، وأمانة الكراسي البحثية على دعمهم ومؤازرتهم.

كما أخص بالشكر الجزيل كلية العلوم والآداب بعنيزة التي شرف الكرسي بمشاركتها في هذا المؤتمر، فكانوا نعم الشريك، والقائد في المسيرة التنظيمية لهذا المؤتمر.

ولا أنسى أعضاء اللجنة العلمية في هذا المؤتمر، وأعضاء اللجنة العلمية بالكرسي، فالشكر والعرفان يسدى لهم لقاء جهودهم الكبيرة والفعالة، والعمل الدؤوب .

وأختم بالشكر والعرفان لليد المعطاء داعم كرسي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية سعادة الدكتور: ناصر بن عقيل الطيار حفظه الله، وبارك الله فيه وفي ماله، وجعل ما قدم في موازين حسانته.

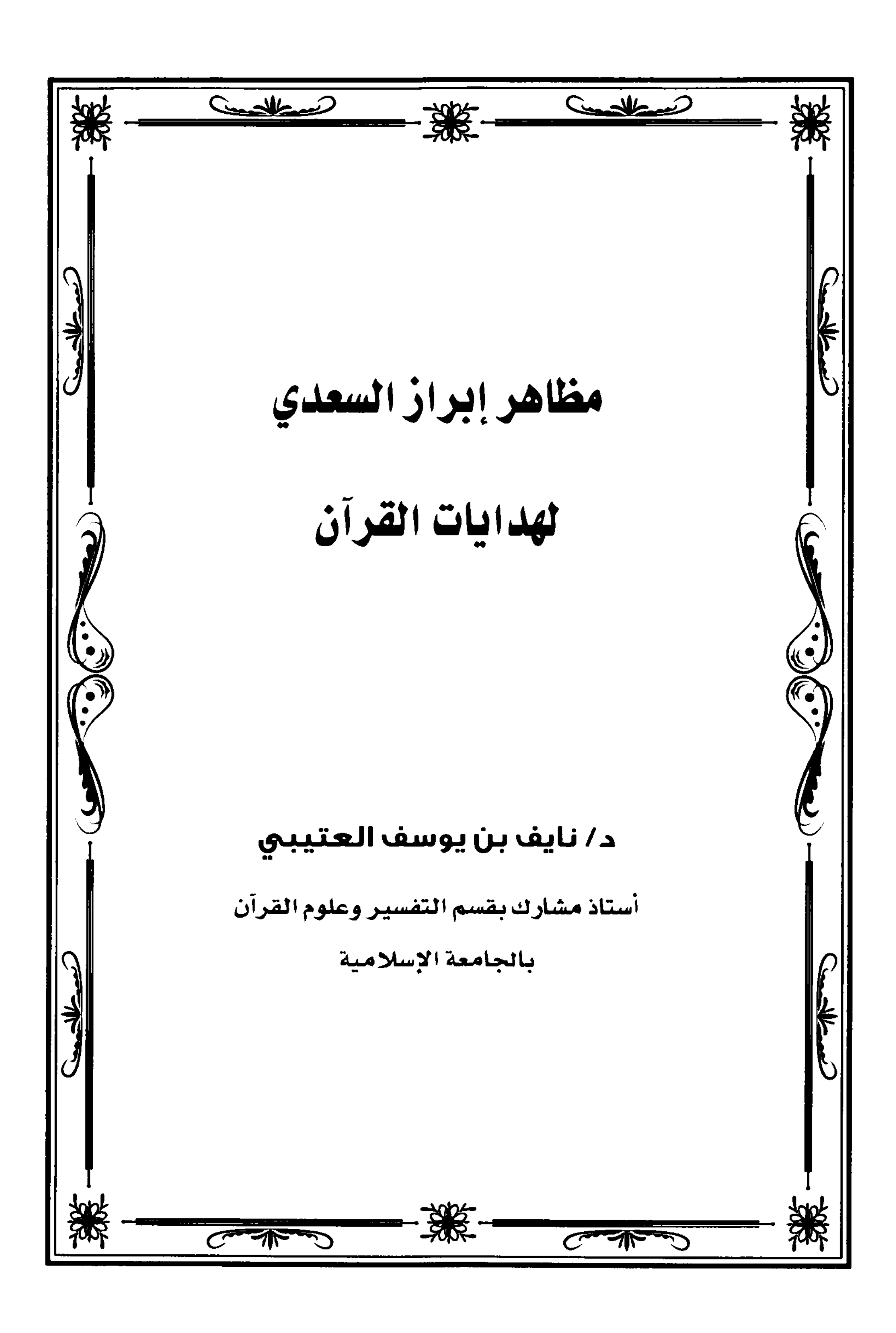
أسأل الله الكريم الرحيم أن يبارك في الجهود، ويغفر للعلامة ابن سعدي

وتلميذه الشيخ ابن عثيمين، ويعظم لهم الأجور جزاء ما قدموا من آثار علمية.

وأسأل الله اللطيف المنان أن يوفق ولي أمرنا خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز، وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز، لما يحب ويرضى، والحمد لله رب العالمين.

المشرف على كرسي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية

د. غانم بن عبدالله الغانم



مظاهر إبراز السعدي

لهدايات القرآن

د/ نايف بن يوسف العتيبي

أستاذ مشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن

بالجامعة الإسلامية

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: فإنَّ القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي معارفه؛ فمعينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد، علومه تتجدد، كلما تدبره المسلم وأمعن النظر فيه زاده ذلك شوقاً، وفُتِح عليه من العلوم الشيء العظيم.

وقد أنزل الله كتابه الكريم هدىً للناس قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] قال السعدي رحمه الله: «فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني؛ لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين؛ فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وأخراهم»[1].

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٤٠).

وقال تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾[البقرة: ١٨٥] قال ابن كثير رحمه الله: «هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه ﴿ وَبَيِّنَٰتٖ ﴾ أي: ودلائل وحُجَج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبَّرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقًا بين الحق والباطل، والحلال والحرام»[1].

ومن تَدَبُّرِ القرآن الكريم النظرُ في هداياته واستخراج فوائده وعظاتِه والاهتداء بأنواره وآياته، ومن تأمل في القرآن الكريم وجد فيه أنواعـًا من الهدايات؛ في العقائد والأحكام والأخلاق.

ولذلك اعتنى كثيرٌ من المفسرين ببيان هدايات القرآن وإظهارها؛ من ذلكم الإمام العلَّامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، ولا يجد القارئ في كتبه ريبـًا في ذلك؛ فقد اعتنى بذلك عناية بالغة، وقد ألَّف رحمه الله عدة كتب اهتم فيها بإبراز هدايات القرآن، وممَّا امتازت به مؤلفاته سهولة عبارتها ووضوح معانيها؛ فهي في متناول عامة الناس ولا يستغني عنها العلماء.

وسيتناول هذا البحث -بعون الله وتوفيقه- مظاهر إبراز السعدي لهدايات القرآن الكريم، وسأذكر فيما يلي أسباب اختيار الموضوع وأهميته وأهداف البحث:

أولاً: أسباب اختيار الموضوع وأهميته:

١/ من مقاصد إنزال القرآن هداية الناس.

٢/ أنَّ من أعظم أنواع علوم القرآن هداياته.

---

(١) ينظر تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٩).

٣/ عِظَمُ حاجة الناس لإبراز هدايات القرآن.

٤/ عناية السعدي بإبراز هدايات القرآن.

ثانياً: أهداف البحث:

١/ إبراز علم الهدايات.

٢/ إبراز اهتمام المفسرين بالهدايات.

٣/ إبراز جهود الشيخ السعدي رحمه الله في إظهار هدايات القرآن.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والاطلاع وقفت على بعض الدراسات حول الهدايات وهي:

١/ الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، إعداد أ.د. طه عابدين، ود. ياسين بن حافظ قاري، ود. فخر الدين الزبير علي. تحت إشراف كرسي الملك عبدالله.

وهي دراسة فريدة تعنى بالتأصيل لعلم الهدايات.

٢/ من هدايات سورة الفاتحة، أ.د. عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر.

وهي في الأصل دروسٌ قام بها المؤلف، ثم جمعت بعد ذلك.

٣/ هدايات القرآن في سورة الجمعة، محمد مصطفى عبدالمجيد، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية.

٤/ آيات آل البيت الدلائل والهدايات، د. منصور بن حمد العيدي، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود.

٥/ منهج الشيخ ابن عثيمين في بيان الهدايات القرآنية من خلال سورة الأنعام، د. أحمد بن مرجي الفالح. بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية العدد (١٦٨).

وهذه الدراسات وإن كانت في الهدايات إلا أنَّها ليست مختصة بتفسير السعدي كما هو المراد من هذه الدراسة.

٦/ فتح السميع العليم في الفوائد المنتقاة من تفسير علامة القصيم عبدالرحمن بن ناصر السعدي المسمَّى بتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، جمع وترتيب أحمد بن محمد العمران.

وهذا الكتاب مع شموله وتوسُّعِه؛ إلا أنَّه ليس دراسة أكاديمية، وقد رُتِّب على سور القرآن، ولم يشمل جميع كتب الشيخ التي تتعلق بالقرآن؛ فقد ذكر المؤلف أنَّها فوائد منتقاة من تيسير الكريم الرحمن، وبعض الفوائد القليلة من القواعد الحسان وتيسير اللطيف المنان.

٧/ استنباطات الشيخ السعدي من القرآن الكريم عرض ودراسة، د. سيف بن منصور الحارثي، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وقد اقتصر فيها الباحث على الاستنباطات كما ذكر في حدود البحث؛ ومعلومٌ أنَّ الهدايات أعم من الاستنباطات.

٨/ منتقى الآداب من تفسير السعدي، عبدالعزيز بن عبدالله الضبيعي.

وهي مجموعة آداب وأخلاق بلغت أربعة وخمسين استخرجها المؤلف من تفسير السعدي.

وبذلك يتبين أنَّه لا يوجد دراسة تدور حول ما قصدت من هذا البحث.

خطة البحث:

تتكون من مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة كما يلي:

المقدمة: وتتضمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهداف البحث

والدراسات السابقة.

التمهيد: ويتضمن أمرين:

الأول: تعريف موجز بالسعدي.

الثاني: المراد بالهدايات القرآنية.

المبحث الأول: إبراز هدايات السور.

المبحث الثاني: إبراز هدايات الآيات.

المبحث الثالث: إبراز هدايات القصص القرآنية.

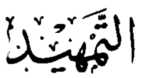
المبحث الرابع: إبراز هدايات الأمثال القرآنية.

المبحث الخامس: إبراز هدايات القرآن من خلال ذكر بعض القواعد القرآنية.

المبحث السادس: إبراز هدايات القرآن من خلال تأليف كتب اشتملت على ذكر هدايات القرآن.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد والهدى والرشاد.



أولاً: ترجمة موجزة للشيخ السعدي:

هو الشيخ أبو عبدالله عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي من بني العنبر من بني عمرو أحد أفخاذ بني تميم.

ولد رحمه الله في بلدة (عنيزة) في منطقة القصيم في الثاني عشر من شهر محرم سنة سبعٍ وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية.

وقد نشأ الشيخ نشأة دينية وعلمية؛ فأمَّا ما يتعلق بالدين فقد كان حريصاً على الفرائض والنوافل وحب الأعمال الصالحة منذ صغره، وأمَّا يتعلق بالعلم؛ فقد عرف عنه حرصه على ذلك منذ سن مبكرة؛ فحفظ القرآن وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، واجتهد في طلب العلم على مشايخ بلده، وقد حصَّل رحمه الله في وقتٍ قصيرٍ كثيراً من العلوم والفنون، بفضل الله عز وجل، وبما منَّ الله عليه من الفطنة والذكاء وقوة الحافظة.

وقد أصبح للشيخ بعد ذلك مكانةٌ علمية عالية كان لها أثرٌ في نشر العلم والدعوة إلى الله عز وجل، ومما يتصل بذلك كثرة مؤلفاته، فقد بلغت أكثر من تسعين كتاباً ورسالة اشتهرت بين الناس ونالت عناية العلماء والباحثين وطلبة العلم.

وقد توفي الشيخ رحمه الله في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وسبعين وثلاثمائة في عنيزة بعد عمر دام تسعاً وستين سنة[1].

---

(١) للاستزادة ينظر علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢١٨-٢٧٢) روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين (١/ ٢٢٠-٢٣١) مجموعة مؤلفات الشيخ (١/ ٤٩-٣٨١).

ثانياً: المراد بالهدايات القرآنية:

الهدايات جمع هداية، وهي من الهدى، وهي في اللغة بمعنى: الإرشاد والدلالة[1]، وقال ابن فارس رحمه الله: الهاء والدال والحرف المعتل أصلان: أحدهما: التقدُّمُ للإرشاد، والآخر: بَعْثَةُ لَطَفٍ[2]. وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «الهداية: دلالة بلطف»[3].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «والهداية: الدلالة بتلطف؛ ولذلك خصت بالدلالة لما فيه خير المدلول؛ لأن التلطف يناسب من أريد به الخير»[4].

ويلاحظ من خلال هذه التعاريف أنَّ الهداية والهدى تدور حول الدلالة والإرشاد والتلطُّف؛ ولذلك فإنَّ المتأمل في هدايات القرآن الكريم يجدها تدور حول هذه المعاني.

ونستطيع أن نقول: إنَّ الهداية القرآنية هي « الدلالة المبينة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل لكل خير وتمنع من كل شر»[5].

ويحسن بنا أن نذكر هنا الألفاظ التي يعبر بها المفسرون عن الهدايات؛ من أهمها:

١/ الدلالة.

---

(١) ينظر الصحاح (٦/ ٢٥٣٣) لسان العرب (١٥/ ٣٥٣).

(٢) ينظر معجم مقاييس اللغة (٦/ ٤٢).

(٣) ينظر المفردات في غريب القرآن (٨٣٥).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١/ ١٨٧).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية (٤٤).

٢/ الإرشاد.

٣/ الفائدة.

٤/ البيان.

٥/ الإشارة.

٦/ الفهم.

٧/ الأخذ.[١]

هذه هي الألفاظ المشتهرة عند المفسرين، ومن العبارات التي وقفت عليها عند السعدي: ما يعبر عنها بالاشتمال، أو التضمن، أو الحِكَمة، أو التصريح؛ وقد وجدتُ السعدي رحمه الله يعبر بالقاعدة القرآنية، وعند التأمل يجد القارئ أنَّها من الهدايات، وسيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وربما يفهم من سياق كلام السعدي أنه أراد به ذكر الهداية القرآنية.

(١) ينظر الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية (٥٨-٧٠).

المبحث الأول: إبراز هدايات السور:

للشيخ رحمه الله وقفات مع بعض السور في ذكر ما تضمنته من فوائد وأحكام؛ من ذلك بيان ما دلت عليه السورة من قضايا مهمة يحتاجها المسلم؛ كما في سورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن[1]؛ فقد قال في خاتمتها: فهذه السورة على إيجازها قد احتوت على ما لم تحتوِ عليه سورة من سور القرآن؛ فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] وتوحيد الإلهية؛ وهو إفراد الله بالعبادة؛ يؤخذ من لفظ: (الله)، ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وتوحيد الأسماء والصفات؛ وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ [الفاتحة: ٢]، كما تقدم، وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ؛ لأنَّ ذلك ممتنع بدون الرسالة، وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وأنَّ الجزاء يكون بالعدل؛ لأنَّ الدين معناه الجزاء بالعدل، وتضمنت إثبات القدر، وأنَّ العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرية والجبرية؛ بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنَّه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك، وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادةً واستعانةً في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالحمد لله رب العالمين[2].

---

(١) يدل لذلك حديث أبي سعيد بن المعلَّى أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩١٣) كتاب فضائل القرآن. باب فضل فاتحة الكتاب. حديث رقم: (٤٧٢٠).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٣٩).

ومما اهتم به الشيخ رحمه الله بيان المعنى العام والمقصد الأهم من السورة؛ من ذلك ما ذكره في أثناء تفسير سورة الأنعام حيث قال: «اعلم أنَّ هذه السورة الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد، بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذبين لرسوله»[1].

والشيخ رحمه الله يستفيد من بعض الألفاظ الواردة في السورة لبيان فوائدها وهداياتها؛ من ذلك قوله في تفسير سورة الفرقان: «كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات؛ لأنَّ معناها كما تقدم أنَّها تدل على عظمة الباري وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه؛ وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته وسعة سلطانه ونفوذ مشيئته وعموم علمه وقدرته وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته، وفيها ما يدل على سعة رحمته وواسع جوده وكثرة خيراته الدينية والدنيوية ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن»[2].

وقد يختم السورة بذكر ما اشتملت عليه من معاني وهدايات؛ من ذلك قوله خاتمة في تفسير سورة ص: «فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذَّب بالقرآن وعارضه وكذَّب من جاء به، والإخبار عن عباد اللّه المخلصين، وجزاء المتقين والطاغين؛ فلهذا أقسم في أولها بأنَّه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين»[3].

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٢٥١).

ومن الأمثلة على ذلك ما ختم به تفسير سورة الإخلاص. ينظر تيسير الكريم الرحمن (٩٣٧).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٥٨٦).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٧١٧).

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره في خاتمة تفسير سورة الماعون. ينظر تيسير الكريم الرحمن (٩٣٥)

وقد يختم تفسير السورة بسرد بعض الفوائد المأخوذة من السورة؛ من ذلك ذكره لفوائد سورة الجن حيث قال: «وفي هذه السورة فوائد كثيرة[1]؛ منها:

١/ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس؛ فإنَّ الله صرف نفر الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلغوا قومهم.

٢/ أنَّ هذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبيَّنت حالة الخلق، وأنَّ كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنَّ الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم إذا كان لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا، بل ولا يملك لنفسه عُلِم أنَّ الخلق كلهم كذلك؛ فمن الخطأ والغلط اتخاذ من هذا وصفه إلها آخر مع الله.

٣/ أنَّ علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصَّه بعلم شيء منها»[2].

وأريد أن أبين هنا أنَّ الشيخ رحمه الله لم يلتزم منهجا واحدا في ذكر هدايات السور؛ بل اختلفت طرقه في تناول ذلك كما سبق، وهناك كثيرٌ من السور لم يذكر فيها شيئاً، وإنَّما اكتفى بذكر هدايات بعض الآيات كما سيأتي.

وخاتمة تفسير سورة الفلق. ينظر تيسير الكريم الرحمن (٩٣٧).

(١) اكتفيت بذكر ثلاث فوائد فقط؛ وهكذا في جميع الأمثلة التي نقلتها من تيسير الكريم الرحمن وزادت فوائدها على الثلاثة فإني اكتفيت بذكر ثلاثة فقط خشية الإطالة.

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٨٩١).

ولم ينص الشيخ على لفظ (فوائد) قاصداً بذلك فوائد السورة إلا في تفسير هذه السورة حسب ما وقفت عليه.

المبحث الثاني: إبراز هدايات الآيات:

من مظاهر إبراز الشيخ لهدايات القرآن تناوله لهدايات الآيات، وممَّا تميَّز به الشيخ في تفسيره وفي كثير من مؤلفاته وقوفه عند كثيرٍ من الآيات واستخراجُ فوائدها ومكنون هداياتها.

وإنَّ المتأمل يجد بروع الشيخ في هذا المجال؛ فتجد أنَّه يفسر الآيات ثم يردف ذلك بما فتح الله عليه من فوائد كثيرة؛ ومن الأمثلة على ذلك: قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠]: «وفي هذه الآيات فوائد عدة:

١/ أنَّ اتخاذ المسجد الذي يُقصد به الضِّرار لمسجد آخر بقربه أنَّه محرم، وأنَّه يجب هدم مسجد الضِّرار الذي اطُّلع على مقصود أصحابه.

٢/ أنَّ كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنَّها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها، كما أنَّ كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها؛ لأنَّ الله علَّل اتخاذهم لمسجد الضِّرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

٣/ أنَّ المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضِّرار،

ونُهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن، كما أثرت في مسجد قباء حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره حتى كان صلى الله عليه وسلم يزور قباء كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه»[1][2].

وربما اكتفى بذكر فائدة واحدة؛ ومن الأمثلة على ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]: «وفي قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فائدة لطيفة؛ وهو أنَّ إخفاءها خير من إظهارها إذا أعطيت للفقير»[3].

وربما نص الشيخ على موضوع الآية ثم ذكر الفوائد المستخرجة منه؛ من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]: «من فوائد التدبر لكتاب الله: أنَّه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنَّه كلام الله؛ لأنَّه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا؛ فترى الحِكَم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة لا ينقض بعضها بعضا؛ فبذلك يُعلم كمال القرآن وأنَّه من عند من

---

(١) مما يدل لذلك حديث ابن عمر رضي الله عنه. أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣٩٩) كتاب الصلاة. باب من أتى مسجد قباء كل سبت. حديث رقم: (١١٣٥)، ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٦) كتاب الحج. باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته. حديث رقم: (١٣٩٩).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٣٥١).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٩٥٨).

أحاط علمه بجميع الأمور»[1].

فنلاحظ هنا أنَّ الشيخ رحمه الله وقف عند تدبر القرآن -وهو موضوع الآية- وذكر أهميته ببيان فوائده؛ ولا شك أنَّ التدبر من الأمور المهمة التي ينبغي للمفسر أن يقف عنده ويبين فضله وأهميته.

ومن الآيات التي يقف عندها الشيخ ما يتعلق بحياة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته وبيان اعتناء الله عز وجل برسوله صلى الله عليه وسلم؛ من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩]: «في هذا التخيير فوائد عديدة:

١/ الاعتناء برسوله صلى الله عليه وسلم، وغيرته عليه أن يكون بحالة يشُقُّ عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

٢/ تنزيهه عمَّا لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على اللّه ورسوله والدار الآخرة، وعن مقارنتها.

٣/ إظهار رفعتهن، وعلو درجتهن، وبيان علو هممهن أن كان اللّه ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها»[2].

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (١٨٩).

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عند تفسير الآية (١٨٦) من سورة آل عمران. ينظر تيسير الكريم الرحمن (١٦٠).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٦٦٢).

وممَّا يُلاحظ قوة فهم الشيخ ودقة استخراجه للفوائد والهدايات من بعض الآيات؛ فهناك بعض الفوائد قد لا يلاحظها القارئ من الآية من أول وهلة؛ لكن الشيخ رحمه الله تميز في هذا؛ من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩]: «ويستفاد من إشارة الآية أنَّه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب الذي قد جُعل له موصلا؛ فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمرا من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه؛ فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود»[1].

وممَّا اهتم به الشيخ عناية بالغة الهدايات القرآنية التي تتعلق بالعقيدة؛ نظراً لأهميتها ومكانتها من الدين، ومن الأمثلة على ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١ - ٦]: «تضمَّنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٨٨).

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عند تفسير الآية (٢٢١) من سورة البقرة. ينظر تيسير الكريم الرحمن (٩٩)، والآية (٣٤) من سورة النساء. ينظر تيسير اللطيف المنان (١٣٩).

إثبات حياته الكاملة وقيوميته التامة المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنَّها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته»[1].

والشيخ لا يغفل الفوائد الفقهية؛ بل ينبه عليها؛ من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]: «دلت هذه الآية على أمور:

١/ لطف الله بعباده ورحمته لهم حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكُّوه ممَّا صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

٢/ اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخنقة؛ فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يبح هذا بناء على أنَّ الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها؛ والمشهور أنَّ الجوارح بمعنى الكواسب[2]؛ أي: المحصِّلات للصيد والمدركات لها؛ فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم- .

٣/ جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح[3]، مع أنَّ اقتناء

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (١٢١).

(٢) ينظر جامع البيان (٨/ ٩٩) الكشف والبيان (٤/ ٢٠) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٩٩).

(٣) وهو أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من اقتنى كلبا ليس بكلب ماشية أو ضارية نقص كل يوم من عمله قيراطان). أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٢٠٨٨) كتاب الذبائح والصيد. باب من اقتنى كلبا ليس بكلب صيد أو ماشية. حديث رقم: (٥١٦٣)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢٠٣) كتاب

الكلب محرم؛ لأنَّ من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه»[1].

وقد اعتنى الشيخ رحمه الله بذكر هدايات القرآن في كتابه تيسير اللطيف المنَّان؛ ومن طريقته فيه أن ينص على فائدةٍ بعينها ويذكر أدلتها من القرآن؛ ومن الأمثلة على ذلك قوله: «فائدة: طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهما على الكبر والبطر والبغي على الحق وعلى الخلق، برهان ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦ – ٧]؛ فعلَّل هذا التجرؤ والطغيان بحصول الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء؛ أمَّا الموفقون الأصفياء؛ فإنَّهم في هذه الأحوال يخضعون لله ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم»[2].

ومن مؤلفات الشيخ التي اعتنى فيها بذكر هدايات الآيات كتاب (المواهب الربانية)؛ ومن الأمثلة على ذلك: قال رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠]: «في هذه الآية فائدة عظيمة؛ وهي أنَّ العبد عليه أن يعتمد على الله، ويرجو فضله وإحسانه، ويعمل ما أبيح له من الأسباب، وأنَّه إذا انغلق عليه باب وسبب من الأسباب التي قدرها الله لرزقه؛ فلا يتشوش لذلك ولا ييأس من فضل الله، ويعلم أنَّ جميع الأسباب مستندة إلى مسببها؛ فيرجو الذي أغلق عليه هذا الباب أن يفتح له باباً من أبواب الرزق

المساقاة. باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخه وبيان تحريم اقتنائها إلا لصيد أو زرع أو ماشية ونحو ذلك. حديث رقم: (١٥٧٥). واللفظ للبخاري.

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٢٢١).

(٢) ينظر تيسير اللطيف المنان (٣١١).

أوسع وأحسن من الباب الأول»[1].

وكذلك كتابه (فتح الرحيم الملك العلَّام)، ومن الأمثلة على ذلك: ذكر رحمه الله عدة آيات تحدثت عن الطلاق منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] ثم قال: «يستفاد من هذه الآيات أحكام كثيرة في الطلاق والرجعة والعدة، تقدم أنَّ الله حث على إمساك النساء والصبر عليهن، وأنه عسى أن يكون فيه خير كثير، وهذا يدل على محبة الله للاتفاق بين الزوجين وكراهته للفراق، وهذه الآيات دالة على إباحة الطلاق وهو من نعمه على عباده، إذ فيه دفع ضرر ومشاق كثيرة عند الاحتياج إليه»[2]

ولم يقتصر الشيخ على لفظ (فائدة) في ذكر الهدايات؛ بل استخدم لفظ (الدلالة) كما سبق، ومن الأمثلة على ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]: «وهذه الآية وما أشبهها دلَّت على أنَّ اللّه بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنَّهم بعثوا بصلاح الدارين؛ فكل من كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم»[3].

وكذلك لفظ (التضمن)؛ ومن الأمثلة على ذلك: ما ذكره رحمه الله عند

---

(١) المواهب الربانية (٤٥).

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عند الآية (١٤) من سورة الصف. ينظر المواهب الربانية (٢٢-٢٣).

(٢) فتح الرحيم الملك العلام (١٤٧-١٤٨).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٣٠٧).

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ الأنفال: [٤٥ - ٤٧]: «هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء، والإرشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيوش والمجاهدين الأخذ بها؛ فمن أعظمها وأهمِّها أمران: الصبر؛ وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك، والثاني: التوكل على الله، والتضرع إليه، والإكثار من ذكره؛ فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل؛ فقد أتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح؛ فليبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده»(١).

وقد لا ينص الشيخ على لفظ من ألفاظ الهدايات؛ لكن يفهم من أسلوبه أنه أراد من كلامه الهداية المستفادة من الآية؛ ومن الأمثلة على ذلك: قال رحمه الله: لا يمنع الله تعالى عبده شيئاً إلا فتح له باباً أنفع له منه وأسهل وأولى؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٢] : «فمنع الله من تمني ما فضل الله به بعض العبيد على بعض، وأخبر أنَّ كل عامل من الرجال والنساء له نصيب وحظ من كسبه؛ فحضَّ الصنفين على الاجتهاد في الكسب النافع، ونهاهم عن التمني الذي ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، ودعاهم إلى سؤال ذلك بلسان الحال ولسان المقال، وأخبرهم بكمال علمه وحكمته، وأنَّ من ذلك أنَّه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تنال المطالب العالية إلا بالسعي والاجتهاد، والله الموفق لكل خير»(٢).

(١) ينظر تيسير اللطيف المنان (١١٠).

(٢) ينظر المواهب الربانية (٢٧-٢٨).

وأريد أن أختم هذا المبحث بذكر عدة أمور:

أولاً: أنَّ أكثر لفظة استخدمها في بيان هدايات الآيات: فائدة، وفوائد.

ثانيـاً: لم يلتزم بذكر فوائد جميع الآيات في تفسيره تيسير الكريم الرحمن.

ثالثـاً: تكراره لبعض الفوائد في كتابيه تيسـير الكريم الرحمن وتيسـير اللطيف المنان.

المبحث الثالث: إبراز هدايات القصص القرآنية:

وردت في القرآن الكريم قصص كثيرة فوائدها غزيرة وعبرها نثيرة؛ قال ابن عاشور رحمه الله: «إنَّ في تلك القصص لعبراً جمَّة وفوائد للأمَّة؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويُعرِض عما عداه ليكون تعرُّضُه للقصص منزَّهًا عن قصد التفكُّه بها»[1].

وممَّا تميز به الشيخ السعدي رحمه الله وقوفه عند القصص التي وردت في القرآن الكريم واستخراجه للهدايات والفوائد منها.

ومن أعظم القصص التي وردت في القرآن الكريم قصص الأنبياء عليهم السلام؛ وقد اهتم الشيخ رحمه الله بهذه القصص وأفاض في ذكر الهدايات والعبر منها، وقد ظهر لي من خلال ما وقفت عليه أنَّ الشيخ قد أتى على جميع هذه القصص مُتبعًا ذلك بالفوائد والهدايات، ولو أتيت عليها في هذا المبحث لطال بنا المقام؛ لكن سأذكر بعض الأمثلة التي تبين جهد الشيخ رحمه الله في هذا المجال.

ومن أطول قصص الأنبياء التي جاءت في القرآن قصة يوسف عليه السلام حيث جاءت في سورة كاملة؛ ولذلك فقد ختم رحمه الله تفسير سورة يوسف عليه السلام بذكر فوائد كثيرة من قصته تجاوزت الأربعين فائدة منها:

١/ أنَّ هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التنقُّلات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنَّة، ومن ذُل إلى عز، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١/ ٦٤).

إنكار إلى إقرار؛ فتبارك من قصَّها فأحسنها، ووضحها وبيَّنها.

٢/ أنَّه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا ﴾ [يوسف: ٥].

٣/ الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها؛ فإنَّ امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توحُّدِها بيوسف، وحبها الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسُجِن بسببها مدة طويلة[١].

وقد ذكر رحمه الله هذه الفوائد في كتابه (تيسير اللطيف المنان)[٢] مع بعض الاختلاف في العبارات والألفاظ.

وذكر رحمه الله فوائد عدة من قصة موسى عليه السلام مع الخضر المذكورة في سورة الكهف؛ منها:

١/ فضيلة العلم والرحلة في طلبه، وأنَّه أهم الأمور؛ فإنَّ موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل؛ لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

٢/ التأدب مع المعلم، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]؛ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة.

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٤٠٧).

(٢) ينظر تيسير اللطيف المنان (٢٧١-٢٨٦).

٣/ أنَّ العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته[١].

وقد ذكر رحمه الله الفوائد نفسها في كتابه (تيسير اللطيف المنان)[٢] مع اختلاف في بعض الألفاظ، وكذلك ذكرها باختصار في (فتح الرحيم الملك العلام)[٣].

والشيخ رحمه الله يقف عند قصص الأمم السالفة ويذكر الفوائد والعبر منها؛ ومن الأمثلة على ذلك: قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٢] : «وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب:

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٤٨٢).

(٢) ينظر تيسير اللطيف المنان (٢٥٤-٢٥٩).

(٣) ينظر فتح الرحيم الملك العلام (١٦١).

ومن الأمثلة على ذكره لهدايات قصص الأنبياء ما ذكره من فوائد من قصة موسى عليه السلام المذكورة في سورة القصص. ينظر تيسير الكريم الرحمن (٦١٨). وقصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه المذكورة في سورة الذاريات. ينظر تيسير الكريم الرحمن (٨١١). وقصة داود وسليمان عليهما السلام. ينظر تيسير الكريم الرحمن (٧١٢).

١/ أنَّ اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملإ حين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلمُّ متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم.

٢/ أنَّ العلم والرأي مع القوة المنفِّذة بهما كمال الولايات، وبفقدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها.

٣/ أنَّ الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر؛ فالأول كما في قولهم لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]؛ فكأنَّه نتيجة ذلك أنَّه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾»[1].

وكذلك قصة أصحاب الكهف؛ فقد علَّق عليها رحمه الله تعليقاً مفيداً حيث قال: «وفي هذه القصة دليل على أنَّ من فر بدينه من الفتن سلَّمَه الله منها، وأنَّ من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمَّل الذُّل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العِزُّ العظيم من حيث لا يحتسب ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]»[2].

ومن القصص التي يقف عندها الغزوات التي حدثت في عهد النبي صلى الله

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (١٠٨).
(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٤٧٣).
وقد ذكرها باختصار في تيسير اللطيف المنان (٢١٧) ثم ذكر عدة فوائد من القصة.

عليه وسلم وأصحابه؛ من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ٩ - ١٤]: وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أنَّ ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله حقٌّ:

١/ أنَّ الله وعدهم وعداً، فأنجزهموه.

٢/ إجابة دعوة الله للمؤمنين لـمَّا استغاثوه بما ذكره من الأسباب؛ وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

٣/ أنَّ من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته، وييسرها بأسباب داخلية وخارجية[1].

وقد أفاض الشيخ رحمه الله في كتابه (تيسير اللطيف المنان) في ذكر الفوائد والهدايات من القصص القرآنية؛ خصوصاً قصص الأنبياء؛ منها على سبيل المثال لا الحصر قصة آدم عليه السلام فقد ذكر رحمه الله القصة ثم قال:

«فوائد مستنبطة من هذه القصة أصولية وفروعية وأخلاق وآداب، ثم ذكر

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٣١٦).

رحمه الله فوائد كثيرة تتعلق بهذه القصة؛ منها:

١/ فضيلة العلم، وأنَّ الملائكة لـمَّا تبيَّن لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله، وأنَّه يستحق الإجلال والتوقير.

٢/ أنَّ الله جعل هذه القصة لنا معتبرا، وأنَّ الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكِبْر إبليس وحسده لآدم صيَّره إلى ما ترى.

٣/ أنَّه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص، وإنابة صادقة»[1].

ونلاحظ هنا أنَّ الشيخ رحمه الله أشار إلى تنوع الفوائد المستنبطة من القصة فمنها الأصولية ومنها الفروعية ومنها ما يتعلق بالأخلاق والآداب؛ وهذا يدل على دقة فهمه وحسن استفادته من هدايات القرآن.

ومن القصص التي ذكرها رحمه الله وأشار إلى فوائدها قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وذكر فيها ثلاث فوائد:

١/ أنَّ جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وأنَّ من كذَّب واحدا منهم فقد كذَّب الجميع، لأنَّه يكذِّب الحق الذي جاء به كل واحد منهم؛ ولهذا يقول في كل قصة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:

(١) ينظر تيسير اللطيف المنان (١٧٨-١٨١).

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قصة نوح. ينظر تيسير اللطيف المنان (١٨٦-١٩٠)، وقصة بناء إبراهيم للبيت مع إسماعيل عليهما السلام. ينظر تيسير اللطيف المنان (٢٠٩-٢١٤)، وقصة هود عليه السلام مع قومه. ينظر تيسير اللطيف المنان (١٩٢-١٩٤)، وقصة يونس عليه السلام. ينظر تيسير اللطيف المنان (٢٣٩)، وقصة داود وسليمان عليهما السلام. ينظر تيسير اللطيف المنان (٢٤٨-٢٥٢)، وقصة عيسى عليه السلام. ينظر تيسير اللطيف المنان (٢٧٠-٢٧١).

١٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١].

٢/ أنَّ عقوبات الله للأمم الطاغية عند تناهي طغيانها وتفاقم جرائمها؛ فكُفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك، ولكن تحتم الإهلاك عند تناهي إجرامهم؛ لأنَّ الله تعالى بالمرصاد؛ فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

٣/ أنَّ العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق، والحال أنَّها ليست في العير ولا في النفير، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالَّة على الحقائق؛ فلهذا أكبر ما رد به قوم صالح لدعوته أن قالوا: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [هود: ٦٢]، وقالت جميع الأمم المكذبة رادِّين لدعوة الرسل: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣][١].

وكذلك ذكر رحمه الله قصة شعيب عليه السلام، ثم ذكر عدة فوائد منها:

١/ أنَّ بخس المكاييل والموازين خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموما من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

٢/ فيه دلالة على أنَّ الصلاة سبب لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وللنصيحة لعباد الله، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٣/ أنَّ الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس له: أنَّه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين؛

(١) ينظر تيسير اللطيف المنان (١٩٧).

لقول شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[هود: ٨٨][١].

ولعلّي أقف عند هذه الفوائد؛ فالفائدة الأولى تهمُّ المجتمع والتعامل بين الناس، والفائدة الثانية تتحدث عن شعيرة عظيمة وهي الصلاة؛ وفيها إشارةٌ إلى أهميتها وثمراتها، والفائدة الثالثة فائدةٌ مهمةٌ ونصيحةٌ نفيسةٌ للداعية الذي يقوم بدعوة الناس.

وهذا يدلِّل ما ذكرناه سابقاً من تنوع الهدايات التي يستخرجها الشيخ من الآيات والقصص.

وقد يذكر الشيخ رحمه الله القصة ثم يذكر المقصد الأهم من القصة؛ من ذلك قصة لوط عليه السلام، وممَّا قاله ممَّا يستفاد منها: «وفي هذه القصة أكبر دليل على أنَّ فاحشة اللواط من أشنع القبائح، وأنَّها توجب العقاب الشديد، وأنَّ من ابتلي بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح؛ فاستحسن ما كان قبيحا ونفر من الطيب؛ وذلك دليل على انحراف الأخلاق»[٢].

ولعلّي أختم هذا المبحث ببعض الأمور:

أولاً: ذكر رحمه الله جميع القصص القرآنية واستخرج فوائدها.

ثانياً: أنَّ ممَّا تميز به كتاباه (تيسير الكريم الرحمن)، و(تيسير اللطيف المنان) الوقوف عند القصص القرآني واستخراج الفوائد منها.

ثالثاً: تكرار كثير من الفوائد في كتابيه.

رابعاً: حسن ربطه لما يستخرجه من فوائد بالواقع.

---

(١) ينظر تيسير اللطيف المنان (٢٢٠-٢٢٢).

(٢) ينظر تيسير اللطيف المنان (٢١٧).

المبحث الرابع: إبراز هدايات الأمثال القرآنية:

من أساليب القرآن الكريم في الهداية والبيان ضرب الأمثال؛ فقد احتوى على أمثال كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] قال الشنقيطي رحمه الله: «أي: ردَّدْنا وكثَّرْنا تصريف الأمثال بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة في هذا القرآن للناس؛ ليهتدوا إلى الحق»[١].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله فوائد الأمثال في القرآن، فقال: «ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس؛ بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس»[٢].

وقال السعدي رحمه الله: «فإنَّ في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه»[٣].

ولهذا اهتم الشيخ رحمه الله ببيان هدايات الأمثال التي وردت في القرآن، ومن أمثلة اهتمام الشيخ بالأمثال قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]: «وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه؛ فإنَّهم فكَّروا وقدَّروا فيما جاءت به الرسل لـمَّا كذبوهم وجعلوا لهم أصولا

(١) ينظر أضواء البيان (٤/ ١٦٨).
(٢) ينظر بدائع الفوائد (٤/ ١٣١٤).
(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٤٢٥).

وقواعد من الباطل يرجعون إليها، ويردُّون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم؛ فصار مكرهم وبالاً عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم»[1].

فانظر كيف بيّن الشيخ رحمه الله الهداية المرادة من هذا المثل وحسن استفادته منه؛ وهي في بيان إبطال مكر أعداء الله.

ومن الأمثلة أيضاً: قوله رحمه الله: «وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقاً عظيماً من طرق التعليم الذي تتبين وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة، كما مثّل كلمة التوحيد والعقيدة الحقة الصحيحة: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ومثّل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع، ومثّل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاكسون، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره»[2].

ومِمَّا يدل على اهتمام الشيخ بهدايات الأمثال أنّه عنونَ لذلك قاعدةً في كتابه (القواعد الحسان) بعنوان: القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد أمثلة القرآن؛ وقال تحتها: «اعلم أنَّ القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع؛ فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه؛ فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال؛ وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة؛ ويقصد بذلك كلّه توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنّه يشاهد

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٤٣٨).
(٢) ينظر تيسير اللطيف المنان (٣٥٦).

معانيها رأي العين؛ وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه»[1].

ثـم ذكـر كثيـراً من الأمثـال التي جـاءت في القرآن ومـا تضمنته مـن هدايات؛ ومنهـا قوله: «ومثَّل الله الأعمال بالبسـاتين؛ فذكر العمـل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسـده كبسـتان في أحسـن المواضع وأعلاها، تنتابه الرياح النافعة، وقد ضَحَى وبرز للمشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة؛ فإن لم تكن غزيرةً فإنهـا كافيـةٌ له كالطـل الذي ينزل من السـماء، ومـع ذلك فأرضُه أطيـب الأراضي وأزكاها؛ فمع توفر هذه الشـروط لا تسـأل عمَّا هو عليه من زَهاءِ الأشـجار وطيب الظلال ووفور الثمار؛ فصاحبه في نعيم ورغد متواصل، وهو آمن من انقطاعه وتلفه؛ فإن كان هذا البسـتان لإنسـان قد كـبر وضعف من العمل، وعنـده عائلة ضعاف لا مسـاعدة منهم ولا كفاءة، وقد اغتبط به حيـث كان مادته ومادة عائلته، ثم إنَّه جاءته آفـة وإعصـار أحرقه وأتلفه عن آخرهم؛ فكيف تكون حسـرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل بما يبطل عمله الصالح من الشرك أو النفاق أو المعاصي المحرقة؛ فيا ويحه، بعد ما كان بستانه زاكيا أصبح تالفا قد أيس من عوده وبقي بحسرته مع عائلته.

فهـذا من أحسـن الأمثال وأنسـبها؛ فقد ذكر الله صفة بسـتان مـن ثبته الله على الإيمـان والعمل الصالح، وبسـتان من أبطـل عمله بما ينافيه ويضـاده، ويؤخذ من ذلك أن الذي لم يوفق للإيمان ولا للعمل أصلا أنه ليس له بستان أصلاً»[2].

وممـا ذكـره أيضـاً مـا ختم به هـذه القاعدة: «ومثَّـل الله الحياة الدنيـا وزهرتها والاغـترار بها بحالة زهرة الربيع تعجـب الناظرين، وتغر الجاهلين، ويظنون بقاءها

---

(١) ينظر القواعد الحسان (٦١).
(٢) ينظر القواعد الحسان (٦٤).

ولا يؤَمِّنون زوالها؛ فَلَهَوا بها عمَّا خُلِقوا له؛ فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هشيماً، وبعد الحياة يبساً رميماً؛ وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر؛ ولكنَّ سكر الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضى إيثار العاجل على الآجل»[1].

وأريد أن أبين هنا بعض الأمور:

أولاً: الشيخ وإن اهتم بهدايات الأمثال، إلا أنَّه أقل من اهتمامه بهدايات القصص.

ثانياً: لم يستخدم الشيخ الألفاظ التي تدل على الهدايات عند تعرضه للأمثال؛ لكنَّها تفهم من سياق كلامه؛ وإن كان استخدم لفظ (يؤخذ) في المثال الأول المذكور من كتاب (القواعد الحسان).

(١) ينظر القواعد الحسان (٦٦).

المبحث الخامس: إبراز هدايات القرآن من خلال ذكر بعض القواعد القرآنية:

مِمَّا امتاز به الشيخ السعدي رحمه الله ذكره لقواعد قرآنية؛ وعند التأمُّل فيها يُفهم أنَّه أراد بها هدايات قرآنية يهتدي بها قارئ القرآن.

ولهذا أفردتها بالذكر هنا وإن كانت داخلةً في المباحث السابقة؛ ولأنَّ لفظ القواعد القرآنية يكاد الشيخ مما انفرد به من بين المفسرين؛ وسأذكر بعض المواضع الذي استعمل فيها هذا اللفظ في تفسيره؛ من ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠] : «وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة؛ وهو أنَّ ما قامت الأدلة على أنَّه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها؛ فإنَّه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة؛ سواءٌ قدر العبد على حلها أم لا؛ فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه؛ لأنَّ ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[يونس: ٣٢]، وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون؛ إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه»[(١)].

فقد أشار رحمه الله بهذه القاعدة الشريفة والهداية القرآنية إلى أمر عظيم يتعلق بعقيدة المسلم ومواجهة ما يتطرق إليها من شبهات.

وكذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (١٣٣).

فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤ – ٥]: «يعاتب تعالى عباده عن التكلُّم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا؛ فإنَّ ذلك القول منكم كذب وزور يترتب عليه منكرات من الشرع؛ وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله اللّه تعالى»[1].

وهذه القاعدة العامة قاعدة هامة تتعلق بحرمة الكذب والتكلم بغير علم؛ وما يترتب عليه من أضرار على الفرد والمجتمع.

ومن الأمثلة أيضاً قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]: «أي: العقول الكاملة؛ ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه؛ وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر؛ إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنوَّرت أفكارهم لـمَّا أخذوه غضًّا طريًّا؛ فإنَّه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها؛ وهذه القاعدة إذا تدرَّب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة»[2].

وممَّا يدل على أنَّ الشيخ استعمل لفظ (القاعدة) للدلالة على الهدايات القرآنية ما ذكره من قواعد في كتابه (القواعد الحسان)؛ فإنَّه قد اشتمل على قواعد كثيرة؛ منها قواعد تفسيرية، ومنها قواعد ترجيحية، ومنها قواعد عند التأمل فيها يظهر دخولها في الهدايات القرآنية؛ وهو ما نريده هنا، وسأذكر بعض الأمثلة على ذلك:

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٦٥٨).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (٤٢٨).

١/ قال الشيخ رحمه الله: القاعدة الرابعة والعشرون:« التوسط والاعتدال وذم الغلو:

القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال، وذم التقصير والغلو، ومجاوزة الحد في كل الأمور؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾[الأعراف: ٢٩]؛ والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة؛ والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها وأن لا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصر ويدع بعض الحق»[1].

وما أحوج الناس إلى هذه الهداية العظيمة التي ذكرت في القرآن الكريم، وأشار إليها الشيخ بهذه القاعدة القيمة؛ «فحصول الضلال في أحد هذين الجانبين: التقصير والتفريط أو الغلو والإفراط، وقد أرشد القرآن إلى الوسط والاعتدال.

٢/ القاعدة السادسة والخمسون: يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنَّه إذا لم يكن حصولها من الجميع؛ فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقوم بها، ويوفر وقته عليها؛ لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة الشرعية الحكيمة؛ فإنَّ كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها؛ فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه؛ قال تعالى في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية وبالعلم طائفة أخرى؛ وأنَّ الطائفة القائمة

(١) ينظر القواعد الحسان (٦٨).

بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت»[1].

وقد بين الشيخ بهذا القاعدة أنَّ القرآن يهدي الناس إلى ترتيب مصالحهم وشؤون حياتهم ومنافعهم، وهذا يدل على أنَّ القرآن يهدي إلى كل خير ويرشد الإنسان إلى كل بر.

٣/ قال الشيخ رحمه الله: القاعدة الثانية والستون: «الصبر أكبر عون على جميع الأمور، والإحاطة بالشيء عِلماً وخبراً هو الذي يعين على الصبر:

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها صريحا وظاهرا في أماكن كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة: ٤٥]، أي: استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شؤونكم بالصبر؛ فبالصبر يسهل على العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات»[2].

هذه بعض الأمثلة على القواعد التي ذكرها الشيخ رحمه الله، ويظهر للقارئ نفاسة هذه القواعد، وعظيم معانيها، وتنوع ما دلت عليه.

---

(١) ينظر القواعد الحسان (١١٧).

(٢) ينظر القواعد الحسان (١٢٦).

المبحث السادس: إبراز هدايات القرآن من خلال تأليف كتب اشتملت على ذكر هدايات القرآن:

الشيخ السعدي رحمه الله عالمٌ اعتنى بكتاب الله عناية خاصة، وعاش مع تفسيره واستخراج هداياته عُمْراً طويلاً، ومِمَّا يدلك على ذلك تأليفه لكتب تتعلق بتفسير القرآن وهداياته؛ من قرأ وتأمل في هذه الكتب ظهر له اهتمام السعدي بهذا الكتاب العظيم؛ وتعجَّب مما وهبه الله من جمال أسلوبٍ ودقة فهمٍ وحسن عرضٍ؛ مِمَّا كان له أثرٌ في استفادة الناس من كتبه وعنايتهم بها.

وسأذكر هنا ما وقفت عليه من كتبه رحمه الله مما يتعلق بتفسير القرآن وعلومه:

أولا: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام اللطيف المنان:

وهو كتابٌ ألَّفه في تفسير القرآن امتاز بميزات كثيرة منها إبراز هدايات القرآن سبق ذكر كثير منها في المباحث السابقة؛ ويحسن بي هنا أن أنقل ما ذكره عنه الشيخ ابن عثيمين رحمه الله حيث قال: «أمَّا بعد: فإنَّ تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة: منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه، ومنها: تجنُّب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبلبل فكره، ومنها: تجنُّب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قويا تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد، ومنها: السير على منهج السلف في آيات الصفات؛ فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه؛ فهو عمدة في تقرير العقيدة، ومنها: دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم؛ وهذا يظهر

جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة؛ حيث استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص؛ ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة، كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ومن أجل هذا أشير على كل مريد لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم»[١].

ثانياً: تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن:

وهذا الكتاب هو في الأصل اختصار للكتاب السابق، ومِمَّا امتاز به ترتيبه على الموضوعات التي جاءت في القرآن؛ وهو ما يسمَّى بالتفسير الموضوعي، وهذا اللون من ألوان التفسير معينٌ على تدبر القرآن واستخراج هداياته؛ ولعلِّي أذكر هنا ما قاله الشيخ رحمه الله في بدايته: «ووصفه بأنَّه كله صلاح -أي: القرآن- ويهدي إلى الإصلاح، وإلى أقوم الأمور وأرشدها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء؛ وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء؛ فهو إصلاح للعقائد والقلوب، وللأخلاق والأعمال، ويهدي إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور، وتعتدل به الأحوال، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالإرشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة؛ فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والإصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن، وحث العباد عليها؛ فمتى عرفت أنَّ القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف التي هي أعلى الأوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد، وأنَّه أعيدت فيه هذه المعاني الجليلة، ومزجت فيه مزجا عجيبا غريبا في كماله وحسنه، فهمت أنَّ طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرب بها، وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات؛ لهذه الأسباب وغيرها

(١) ينظر القواعد الحسان (١١).

رأينـا أن المصلحة تدعو إلـى الاقتصار على خلاصة ذلك التفسـير»[١]؛ راجين من الـرب أن يتـم نعمتـه، وأن يحصـل به المقصـود؛ ورأينـا أن الأحسـن أن نذكر كل موضوع على حدته؛ لما فيه من التقريب والسهولة وجمع المعاني التي من فن واحد في موضـع واحـد؛ مـع أنَّه - كما تقـدم - لا بد أن يدخل في آيـات الأصول كثير من الفـروع، وفي آيات الفـروع كثير من الأصول، ويدخل فيهـا من الترغيب والترهيب والقصص شـيء كثير؛ وهـذا المزج العجيب مـن كمال القرآن وعظـم تأثيره، فإنَّه كتـاب تعليم يزيل الجهالات المتنوعة، وكتاب تربية يُقوِّم الأخلاق والأعمال؛ فهو يعلـم ويقـوم ويهذب ويؤدب بأعلى مـا يكون من الطرق، التـي لا يمكن للحكماء والعقلاء أن يقترحوا مثلها، ولا ما يقاربها[٢].

وقد احتوى هذا التفسـير على فوائد وهدايات كثيرة؛ سـبق ذكر أمثلة منها في المباحث السابقة.

ثالثاً: القواعد الحسان المتعلِّقة بتفسير القرآن:

وقد اشتمل هذا الكتاب على قواعد كثيرة تعين على فهم القرآن وتفسيره؛ قال الشيخ رحمه الله: فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم جليلة المقدار عظيمة النفع تعين قارئها ومتأمِّلَها على فهم كلام الله، والاهتداء به[٣].

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن شيخه: «كتب ما تيسر من قواعد التفسير ما بلغ إحدى وسبعين قاعدة اشتملت على قواعد مهمة وفوائد جمَّة»[٤].

---

(١) يريد تيسير الكريم الرحمن.
(٢) ينظر تيسير اللطيف المنان (٧-٨).
(٣) ينظر القواعد الحسان (١٥).
(٤) ينظر التعليق على القواعد الحسان (٧).

وسبق بيان أنَّ هذا الكتاب قد اشتمل على قواعد كثيرة منها ما يتعلق بأصول الفقه، ومنها ما يتعلق بقواعد التفسير، ومنها ما يتعلق بقواعد الترجيح بين المفسرين[1]، ومنها ما هو فوائد وهدايات استخرجها الشيخ من الآيات سبق ذكر أمثلة منها في المبحث السابق.

رابعاً: المواهب الربانية من الآيات القرآنية:

وهذا الكتاب ألَّفه الشيخ في شهر رمضان؛ وهو عبارة عن فوائد ولطائف وهدايات كانت تعرض للشيخ أثناء قراءة القرآن؛ فأراد تقييدها في هذا المؤلَّف؛ قال رحمه الله في بدايته: «هذه فوائد فتح الله بها علي في هذا الشهر المبارك، نسأله المزيد من كرمه؛ آمين»[2].

وقال في خاتمته بعد أن تكلم على معنى اللطيف: «وأرجو من الله أن يكون ما نحن فيه من هذا النوع؛ فإنَّ جنس هذه الفوائد المذكورة في هذه الرسالة قد كانت تعرض لي كثيراً أثناء القراءة لكتاب الله؛ فأتهاون بها ولم أقيدها؛ فيضيع شيء كثير؛ فلمَّا كان أول يوم من هذا الشهر المبارك أوقع في قلبي أن أقيد ما يمر علي من الفوائد والمعاني التي لا أعلم أنها وقعت لي قبل ذلك؛ فعملت على هذا النمط حتى كان الانتهاء إلى لطف الله، كما كان الابتداء بلطف الله بهذه الرسالة اللطيفة»[3].

وقد سبق ذكر أمثلة من فوائد هذا الكتاب.

---

(١) وقد أصبح علم قواعد التفسير من العلوم المستقلة لها مفهومها الخاص عند أهل الاختصاص، وأُلِّفت فيه مؤلفات خاصة كقواعد التفسير جمعاً ودراسة للدكتور خالد السبت، وقواعد الترجيح بين المفسرين للأستاذ الدكتور حسين الحربي.

(٢) ينظر المواهب الربانية (١٤).

(٣) ينظر المواهب الربانية (١٢٩-١٣٠).

خامساً: فتح الرحيم الملك العلاَّم في علم التوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن:

وهذا الكتاب كما هو ظاهر من عنوانه يتعلق بالقرآن الكريم؛ وقد قسَّمه الشيخ رحمه الله على أهم أنواع علوم القرآن؛ وهي:

١/ علم التوحيد.

٢/ علم الأخلاق.

٣/ علم الأحكام.

قال رحمه الله: «فرأيت الاقتصار على هذه الثلاثة أولى وأنفع وأحسن موقعاً، وكل واحد من هذه الثلاثة يقتضي كتاباً مطولاً وخصوصاً علم الأحكام؛ ولكن أتينا بمقاصدها ونصوصها من الكتاب، وجمعناها في فنِّها واختصرنا الكلام فيها اختصاراً لا يخل بالمقصود ولا يغلق العبارات؛ بل أتينا بذلك بعبارات واضحة ليس فيها حشو ولا تعقيد»[١].

وقد اشتمل في ثناياه على فوائد وهدايات تتعلق بالعلوم الثلاثة التي ذكرها؛ ومن أمثلة ذلك ما ختم به كتابه؛ قال: قوله: « ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]، ونحوها من الآيات؛ تدل على أنَّ من طلب الهدى والرشد من غير الكتاب والسنة ضلَّ؛ لأنَّ الهدى محصور في هدى الله الذي أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم»[٢].

(١) ينظر فتح الرحيم الملك العلام (١٤).
(٢) ينظر فتح الرحيم الملك العلام (١٦٥).

سادساً: الدَّلائل القرآنية في أنَّ العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي:

هذا الكتاب ألَّفه الشيخ لبيان أنَّ دين الإسلام اشتمل على كل ما هو خير وصلاح وهداية للبشرية، وأنَّه صالح لكل زمان ومكان؛ قال رحمه الله: « فهذه رسالة تتضمن البراهين القواطع الدالة على أنَّ الدين الإسلامي وعلومه وأعماله وتوجيهاته جمعت كل خير ورحمة وهداية وصلاح إصلاح مطلق لجميع الأحوال، وأنَّ العلوم الكونية والفنون العصرية الصحيحة النافعة داخلة ضمن علوم الدين وأعماله»[1].

وطريقته في هذا الكتاب أنَّه قسمه على فصول؛ كلُّها إلا بضعاً منها افتتحها بآيات تؤيد ما قصده من تأليف الكتاب، ثم يذكر ما دلت عليه؛ وفي ضمن ذلك هدايات تظهر لمن تأملها؛ ومن أمثلة ذلك الفصل الذي استفتح به كتابه حيث قال: «فصل: قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] ؛ فهذه الآية الكريمة صرحت بأنَّ الله تعالى يقول الحق وهو الصدق واليقين في أخباره، والعدل والحكمة في أوامره ونواهيه؛ فكل ما أخبر به فهو حق وصدق نافع للعباد في إصلاح عقائدهم وأخلاقهم ودينهم ودنياهم، وكل ما أمر به فهو بر وخيرٌ وإحسان ونفع وبركة، وكل ما نهى عنه فهو شر وضرر وفساد لا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية»[2].

سابعاً: فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام:

ذكر الله في كتابه الكريم قصة يوسف عليه السلام؛ وقد اشتملت هذه القصة

---

(١) ينظر الدلائل القرآنية (٣).

(٢) ينظر الدلائل القرآنية (٤-٥).

على فوائد عظيمة؛ ولذا حَرَص الشيخ على إفرادها في هذا الكتاب؛ قال رحمه الله: «فهذه فوائد مستنبطة من قصة يوسف صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين؛ فإنَّ الله تعالى قصَّها علينا مبسوطةً، وقال في آخرها: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴾[يوسف: ١١١]»[1].

وفوائد قصة يوسف ذكرها الشيخ رحمه الله في كتابيه (تيسير الكريم الرحمن)، و(تيسير اللطيف المنان)، وقد سبق الإشارة إلى ذلك؛ ولعل الشيخ أفردها بكتاب خاص لأهميتها، وكثرة الفوائد المستنبطة منها.

(١) ينظر فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام (٧).

الخاتمة

وبعد هذه الجولة في كتب الشيخ السعدي رحمه الله؛ فإنِّي أحمد الله على أن يسر لي إتمام هذا البحث، ولعلِّي أختمه بذكر بعض النتائج والتوصيات.

أولاً: النتائج:

١/ اهتمام الشيخ بإبراز هدايات القرآن.

٢/ تعلُّق الشيخ بكتاب الله ومعايشته له.

٣/ من أهداف الشيخ من تأليفه للكتب المتعلقة بالقرآن ربط الناس بكتاب الله.

٤/ عند التأمل في كثير من الفوائد التي ذكرها الشيخ يظهر دقة استخراجه للفائدة وحسن توجيهه لها؛ مما يكون له أثر في استفادة القارئ.

٥/ لفظة فائدة أو فوائد هي أكثر ما عبر به الشيخ عن الهدايات.

التوصيات:

١/ الفوائد التي نص عليها الشيخ بقوله (فوائد) أو (فائدة) أو نحوها كثيرة جداً؛ وبعضها يتعلق بالهدايات وبعضها يتعلق بالتفسير، وبعضها يتعلق باللغة، وبعضها يتعلق بالفقه. تصلح أن تكون بحثاً.

٢/ نشر هذه الهدايات والاستفادة منها في الخطب والمواعظ والدروس ففي كثير منها مناسبة للواقع ومعالجة لكثير من القضايا.

٣/ دراسة منهج الشيخ السعدي رحمه الله في عرض القصص القرآني.

٤/ دراسة منهج الشيخ في عرض الهدايات القرآنية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع

- استنباطات الشيخ السعدي من القرآن الكريم عرض ودراسة، سيف بن منصور الحارثي، قناديل العلم، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ه.
- آيات آل البيت الدلائل والهدايات، د.منصور بن حمد العيدي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ه، ٢٠٠٧م.
- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ه.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- التعليق على القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣١ه.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير القرشي، تحقيق: أ.د. حكمت بن بشير ياسين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٢٤ه، ٢٠٠٣م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبدالله ابن عبدالمحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة

الأولى، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة داخلة في الدين الإسلامي، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مطابع الرياض.
- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ه، ١٩٨٣م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن محمد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، ١٩٩٧م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ضبط: مصطفى البُغا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤١٤ه، ١٩٩٣م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.
- علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبدالرحمن بن صالح البسام، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩ه.
- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدَّمام، الطبعة الأولى، ١٤٢١ه.
- فتح السميع العليم في الفوائد المنتقاة من تفسير علامة القصيم عبدالرحمن بن ناصر السعدي المسمَّى بتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، جمع وترتيب أحمد ابن محمد العمران، دار ابن الأثير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه،٢٠١١م.
- فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه، ٢٠٠٠م.
- قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، حسين بن علي الحربي، دار القاسم، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ٢٠٠٨م.
- قواعد التفسير جمعا ودراسة، خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، الخُبر، الطبعة

الأولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدَّمام، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
- الكشف والبيان، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور المصري، دار صادر، بيروت.
- مجموعة مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار الميمان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٦ه، ٢٠١٥م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- من هدايات سورة الفاتحة، عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ.
- منتقى الآداب من تفسير السعدي، عبدالعزيز بن عبدالله الضبيعي، دار الحقيقة الكونية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٣٤ه، ٢٠١٣م.
- منهج الشيخ ابن عثيمين في بيان الهدايات القرآنية من خلال سورة الأنعام، د. أحمد بن مرجي الفالح. بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية العدد (١٦٨).
- المواهب الربانية من الآيات القرآنية، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، رمادي الحضارة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ه، ٢٠١١م.
- هدايات القرآن في سور يوم الجمعة دراسة تحليلية موضوعية، محمد مصطفى عبدالمجيد، دار المعالي، الطبعة الأولى.
- الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، أ.د. طه عابدين طه حمد، ياسين بن حافظ قاري، فخر الدين الزبير علي، مكتبة المتنبي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ه، ٢٠١٧م.



منهجية الشيخ السعدي في التفسير الإجمالي

دراسة استقرائية تحليلية

لكتابه: (تيسير الكريم الرحمن)

(ورقة عمل)

أ.د. محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، والصلاة والسلام على من أرسله ربه داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ورضي الله عن الآل والأصحاب والأتباع، ممن سار على نهجه، واتبع سنته، واهتدى بهداه إلى يوم الدين، **أما بعد:**

فإنّ كتاب الله خير ما تقضى فيه الأعمار، وتستغل الأوقات في حفظه وتدبره، ومن ثمّ العمل به وتطبيقه في واقع الحياة، وما زال العلماء يخدمونه بتأليف تفاسيره، إذ بلغت أعداداً كثيرة، مع اختلاف مشاربها، وتنوع مناهجها، وتباين طرقها، غير أنها تلتقي في نهاية الأمر على خدمة كتاب الله، وبيانه للناس.

وثمّة لونٌ للتفسير يُسمّى بالتفسير الإجمالي؛ **إذ فيه تُجْمَلُ معاني الآيات وهداياتها في عرضٍ واحد، دون تفاصيل مأخذ تلك المعاني والهدايات.** ومهما كانت سماته أو تسمياته فإننا لا ننكر أنه كان موجوداً عند علمائنا السالفين بقدر حاجة الناس إليه، وهذا ما نأمل أن يُظهر شيئاً منه هذا البحث في تفسير السعدي المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، لمؤلفه العالم الرباني الفقيه الأصولي اللغوي المحدث الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي التميمي، والمتوفى سنة ١٣٧٦هـ -رحمه الله-.

وكان بدأ الشيخ بتأليفه سنة ١٣٤٢هـ وأنهاه سنة ١٣٤٤هـ. وكان عمره حين بدأ فيه خمسة وثلاثين عاماً، وقد كتب الله له القبول والانتشار فانتفع به الجم الغفير من النّاس، وترجمت منه أجزاء في مجمع الملك فهد -رحمه الله- بالمدينة لطباعة المصحف وغيره.

ولما اشتهر الإمام العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ) به من ملكة في التفسير، ولما تميز به من أسلوبٍ إجمالي في بعض مصنفاته في التفسير، ومساهمة في بناء لبنة في صرح التفسير الإجمالي، ومحاولة لدراسة مناهج العلماء وإبرازها بطريقة استقراء مناهجهم وتحديد خطواتهم في الوصول للمعلومة، وفي إيصالها للناس؛ حاولت إبراز هذا الباب والمساهمة فيه من خلال هذا البحث.

أولاً: أسباب اختيار الموضوع:

١. الحاجة الماسة لاستقراء منهجية البحث في التفسير الإجمالي عند العلماء الراسخين في هذا الشأن.

٢. بروز الإمام السعدي -رحمه الله- في مدرسة التفسير فاشتهر بتفسيره وبلغ الآفاق ونفع الله به.

٣. سهولة ويسر وتنوع أسلوب الشيخ السعدي -رحمه الله- في عرض التفسير.

٤. الحاجة لتأصيل منهجية التفسير الإجمالي، التي يسير عليها الباحث للوصول للنتائج المرجوة.

ثانياً: النتائج المتوقعة:

١. المساهمة في تأصيل منهج التفسير الإجمالي وإبراز معالمه، من خلال استقراء (تيسير الكريم الرحمن).

٢. بيان منهج السعدي في عرض المعاني بصورة إجمالية مع إبراز الهدايات وترتيبها وفق حاجة المجتمع.

٣. المساهمة في إبراز جهود الشيخ السعدي، ودراسة منهجه العلمي في التفسير.

٤. معالجة ما قد يصاحب انتشار التفسير الإجمالي من آفات، لا يخلو منها علم من العلوم.

ثالثاً: خطة البحث[1]

المقدمة: وتشمل: أسباب اختيار الموضوع، والنتائج المتوقعة، وخطة البحث،

(١) جاءت الخطة مختصرةً لمناسبة الورقة في المؤتمر مع بقية أوراقه، فتركت الترجمة للمؤلف والتعريف بالكتاب، واختصرت المطالب على ما يخص التفسير الإجمالي عند الشيخ السعدي -رحمه الله-؛ بناء على طلب اللجنة العلمية للمؤتمر.

ومنهج البحث.

تمهيد: تعريف التفسير الإجمالي ونشأته.

مطالب البحث:

المطلب الأول: منهجه إجمالاً في كتابه (تيسير الكريم الرحمن)

المطلب الثاني: أسباب تصنيف تيسير الرحمن في نوع التفسير الإجمالي.

المطلب الثالث: مصطلح التفسير الإجمالي عند الشيخ وفي عصره.

المطلب الرابع: طريقة الشيخ -رحمه الله- في عرض المعاني والهدايات وصياغتها في الكتاب.

المطلب الخامس: من تأثر بهم الشيخ من علماء الإسلام في أسلوب التفسير الإجمالي.

المطلب السادس: أثر المنهجية العلمية الإجمالية في كتابات الشيخ الأخرى.

الخاتمة: وتشتمل على:

١- النتائج، وتتضمن ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أهمية التفسير الإجمالي من خلال منهجية الشيخ ورؤيته.

المسألة الثانية: ضوابط التفسير الإجمالي من خلال منهجية الشيخ.

المسألة الثالثة: أساليب التفسير الإجمالي من خلال منهجية الشيخ وغيره.

٢- التوصيات.

فهرس المصادر.

فهرس الموضوعات.

رابعا: منهج البحث:

يعتمـد البَحث على المنهج الوصفيِّ والتحليليِّ معـاً. وتقوم كتابة البحث على الإجراءات الآتية:

١) الاعتمادُ في النقل والتحليل على كلام السـعدي في تيسـير الكريم الرحمن، مع الاهتمام بالإشارة إلى مواضعها في الحاشية.

٢) كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها بذكر سورها وأرقامها.

٣) تخريج الأحاديث النبوية والآثار تخريجـاً مختصراً، فإن كان في الصحيحين أو أحدِهِما اكتفي بذلك.

٤) توثيق النقول والأقوال إلى مصادرها.

٥) تفسير الكلمات الغريبة والمصطلحات العلمية.

٦) الالتزام بعلامات الترقيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

٧) التعليق بقدر الحاجة، اختصاراً للبحث.

٨) أكتفي بتمييز العلم بذكر ما توفر من ولادته ووفاته، دون الترجمة له اختصاراً.

هـذا وأسـأل الله تعالى توفيقه وهدايته، والسـداد للصواب، إنه خيرُ مسـؤول، وأكرم مأمول، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد: تعريف التفسير الإجمالي ونشأته

أولاً: تعريف الإجمالي لغةً:

«الإجمالي نسبة إلى أجمل، وهذه الصيغة (أفعل) بمعنى دخل في الإجمال، فالهمزة في (أجمل) همزة الجعل؛ أي: جعلته مجملاً، والإجمال: الإيجاز، والإيجاز مظنة الإبهام؛ لذا أخذ الأصوليون هذا في مصطلح (المجمل والمبين)، قال الزركشي: «الْمُجْمَلُ لُغَةً: الْمُبْهَمُ، مِنْ أَجْمَلَ الأَمْرَ أَيْ أَبْهَمَ»[1].

وليس هذا هو المراد في مصطلح (التفسير الإجمالي)، وإنما هو مما قال ابن دريد (٣٢١هـ): «وأجملتُ الشيء إجمالاً إذا جمعته عن تفرّقه، وأكثر ما يُستعمل ذلك في الكلام الموجز، يقال: أجمل فلان الجوابَ»[2].

ثانياً: تعريف الإجمالي اصطلاحاً:

بيان آيات القرآن بالتعرض لمعانيها إجمالاً، حسب ترتيب المصحف، مع مراعاة غريب الألفاظ، والربط بين المعاني في الآيات بعبارات يصوغها تُسَهِّل فهمها وتُوَضِّح مقاصدها[3].

وهذا النوع أشبه ما يكون بالترجمة المعنوية للقرآن الكريم، وهو الذي يستخدمه من يتحدث بالإذاعة والقنوات لصلاحيته لعامة الناس ومن أمثلته: تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي»[4].

فالتفسير الإجمالي يهتم ببيان المعنى العام باختصار، فهو أقرب ما يكون

(١) البحر المحيط ٤/ ٣٤٤.

(٢) جمهرة اللغة ١/ ٢٤٥.

(٣) اجتهدت في صياغته إذ لم أجد من عرفه اصطلاحاً، وإنما وصفوه وميزوه عن الأنواع الأخرى.

(٤) ينظر: بحث د. محمد بن عبدالعزيز الخضيري عن التفسير الموضوعي، مجلة البيان ع ٦٤ ص٧.

لتلخيص وعرض نتائج التفسير التحليلي.

يقول د. أحمد السيد الكومي (١٣٣٠-١٤١١هـ) -رحمه الله-: «إذ ينطق بعبارته التي صاغها من ألفاظه يأتي- بين الفينة والفينة- بلفظ من ألفاظ القرآن، حتى يشعر السامع أنه لم يكن بعيداً في تعبيره عن سياق القرآن، ولا مجانبا لمجموع ألفاظه، وحتى يحقق التفسير من جانب، آخر، ويكون رابطاً نفسه بنظم القرآن من جانب آخر، ويكون في الموضع الذى يجانب فيه لفظ القرآن آتياً بلفظ أوضح عند السامعين، وأيسر في الفهم عند المخاطبين»[1].

ويقول أ.د. فهد الرومي: «التفسير الإجمالي: هو أن يلتزم المفسر تسلسل النظم القرآني سورةً سورةً، إلا أنه يقسم السورة إلى مجموعات من الآيات يتناول كل مجموعة بتفسير معانيها إجمالا، مبرزا مقاصدها موضحا معانيا مظهرا مراميها، ويجعل بعض ألفاظ الآيات رابطا بين النص وبين تفسيره، فيورد بين الفينة والأخرى لفظاً من ألفاظ النص القرآني لإشعار القارئ أو السامع بأنه لم يبعد في تفسيره عن سياق النص القرآني ولم يجانب ألفاظه وعباراته ومشعرًا بما انتهى إليه في تفسيره من النص»[2].

ثالثا: وصف الإجمالي:

ومعنى هذا المصطلح أن المفسر يفسر الآية جملة واحدة، ولا يفكك ألفاظها ويفسرها لفظة لفظة كما يُفعل في التحليلي.

والحال في التفسير الإجمالي أن الجديد فيه: عرضه بأسلوب التعبير عن التفسير، من حيث سهولة عبارته وسلاستها من عدم ذلك.

(١) التفسير الموضوعي، للدكتور أحمد الكومي: ص٦، مذكرة مقررة على طلاب كلية أصول الدين.

(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي ٣/ ٨٦٢.

وأنَّ هذا النوع في الغالب يكون موجهاً للقاعدة العريضة من الناس، فيخاطبون به الجانب الأعظم من المسلمين؛ وبالتالي فلا يدخل المفسر في التفاصيل الدقيقة للمسائل، والمباحث المتخصصة، ولا يتعرضون لمعالجة الجزئيات في الكلمات والحروف أو الجمل والتراكيب، أو متعلقات ذلك وتفاصيلها بصورة متخصصة.

ومع ذلك فالمفسر- في سبيل ما تهدف إليه الجمل من معان، وما ترمى إليه من مقاصد- لا بدّ له من الاستعانة بما يحتاج إليه من آية أخرى، أو حديث نبوي، أو أثر صحيح عن السلف، أو بيت من أشعار العرب، أو حكمة مأثورة عن الحكماء والبلغاء، ولا يصرح بذلك، بل يسبكه في صياغة المعنى؛ فيدركه العارف بعلم التفسير ولا ينشغل به غيره.

ويجب الحذر والتوقي عند اعتماد كتابٍ في التفسير الإجمالي من جهة الاعتقاد، لأن المفسر لايُبيِّن العلوم والأدوات التي استخرج منها معانيه، فالمفسر قد يسلك بالتفسير الإجمالي منهج أهل السنة والجماعة، أو منهج الشيعة، أو الاتجاه العلمي بمناهجه، أو العقلي، أو حتى الإلحادي!![1].

رابعاً: العلاقة والترابط بين التفسير التحليلي والاجمالي:

التفسير التحليلي: مأخوذ من الحل بمعنى: الفتح، ونقض المنعقد.

قال ابن منظور: «وحلّ العقدة يحلها حلا، فتحها ونقضها، فانحلت»[2].

وهو في الاصطلاح قريب من هذا المعنى اللغوي، حيث يراد به: **بيان الآيات القرآنية بيانا مستفيضا من جميع نواحيها**[3].

---

(١) ينظر: اتجاهات التفسير الرومي ٣/ ٨٦٣.

(٢) لسان العرب، مادة: (حل).

(٣) الموسوعة القرآنية المتخصصة ص٢٧٨-٢٨٠ باختصار، وفي ذلك أقوال أخرى ليس هنا موطن تحريرها.

فالتفسـير التحليلي: هو أن يتولى المفسـر بيان معنى الألفاظ في الآية، وبلاغة التركيب والنظم، وأسباب النزول، واختلاف المفسرين في الآية، ويذكر حكم الآية وأحكامها، وقد يزيد بتفصيل أقوال العلماء في مسـألة فقهية أو أصولية أو نحوية أو بلاغية، ويهتم بذكر الروابط بين الآيات والمناسبات بين السور ونحو ذلك.

بحيث يسـير المفسـر في هذا البيان مع آيات السـورة آية آية، شـارحا مفرداتها، وموجهـا إعرابهـا، وموضحـا معانـي جملها، وما تهـدف إليـه تراكيبها من أسـرار وأحـكام، ومبينا أوجه المناسـبات بين الآيات والسـور، مسـتعينا في ذلك بالآيات القرآنيـة الأخرى ذات الصلة، وبأسـباب النـزول، وبالأحاديـث النبوية، وبما صح عـن الصحابة والتابعين، وبغيـر ذلك من العلوم التي تعينه علـى فهم النص القرآني وتوضيحه للقراء، مازجـاً ذلك بما يستنبطه عقله، وتمليه عليه نزعته العلمية.

وهذا التفسـير هو أسـبق أنواع التفسـير، وإذا أطلق التفسير فلا ينصرف الذهن إلا له، وعليه تعتمد بقيتها، ويتفاوت فيه المفسـرون إطنابـاً وإيجازاً، ويتباينون فيه من حيث المنهج.

وهذا هو الأسـلوب الذي سارت عليه التفاسـير إلى وقتنا الحاضر، ولا زالت العلماء تصدر تفسيراتها على هذا الأسلوب غالبـاً.

خامساً: مسميات الإجمالي الأخرى:

قال الشيخ أ.د. مساعد الطيار: «ويجوز أن يكون المصطلح (التفسير الجملي) نسـبة إلى الجملة لا الإجمال، فقد جاء في مـادة (جمل) من تاج العروس: «وجمل يجمـل جمـلاً: إذا جمع»، وجاء فيه أيضًـا: «والجُملَةُ بالضمّ: جَماعَةُ الشـيء كأنها اشـتُقَّت مِن جُمْلَة الحَبلِ؛ لأنها قُوَى كثيرةٌ جُمِعَتْ فأَجْمَلَتْ جُمْلةً. وقال الراغب: واعتُبِر معنى الكَثْرةِ فقِيل لكُلِّ جَماعةٍ غيرُ منفصِلة: جُملَةٌ. قلت: ومنه أخذ النَّحويّون

الجُملَة لِمُرَّكبٍ من كلمتين أُسْنِدت إحداهما للأُخرى. وفي التنزيل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[الفرقان: ٣٢]؛ أي: مُجْتَمِعاً لا كما أُنْزِل نُجُوماً مُفْتَرِقة .. »[1].

وهذا التعبير: (التفسير الجملي) قد استخدمه بعض المعاصرين؛ مثل: المراغي في تفسيره، لكن اشتهر مصطلح (التفسير الإجمالي)، واستحوذ على مصطلح (التفسير الجملي)»[2].

سادساً: أهم كتب التفسير الإجمالي:

هذا النوع من التفسير ظهر في العصر الحديث، ومعظم كتبه معاصرة، ومنها التفاسير التالية:

١) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) وتجده تحت عنوان «المعنى الجملي».

٢) المصحف المفسر، للأستاذ محمد فريد وجدى (١٢٩٥-١٣٧٣هـ).

٣) تيسير الكريم الرحمن، تفسير الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ)[3].

٤) التفسير الوسيط، إصدار مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ).

---

(١) تاج العروس للزبيدي ٢٨/ ٢٣٨.

(٢) مشكلة المصطلحات في الدراسات القرآنية .. التفسير الموضوعي وإخوانه أنموذجًا، أ.د. مساعد الطيار 04Jun 2006، ملتقى أهل التفسير.

(٣) ينظر: بحث د. محمد بن عبدالعزيز الخضيري عن التفسير الموضوعي، مجلة البيان ع ٦٤ ص٧، والطيار في مقالة مشكلة المصطلحات، وفي فصول في أصول التفسير ص٣٣.

٥) التفسير الواضح، للدكتور محمد محمود حجازي (١٣٣٢-١٣٩١هـ).

٦) التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة (١٣٠٥-١٤٠٤هـ)[١].

٧) التيسير في أحاديث التفسير، لمؤلفه: محمد المكي الناصري (١٣٢٤-١٤١٤هـ).

٨) التفسير الميسر (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف)، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ.

٩) تفسير أيسر التفاسير، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبوبكر الجزائري (١٣٤٠-١٤٣٩هـ) وتجده تحت عنوان «المعنى الإجمالي»[٢].

---

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة، ونصوا على الكتب رقم (٢، ٤، ٥، ٦) ص٢٧٨-٢٨٠ باختصار.

(٢) فصول في أصول التفسير ص٣٣. وقد نص على الكتب رقم (١، ٣، ٧، ٩).

المطلب الأول

منهجه إجمالاً في كتابه (تيسير الكريم الرحمن)

كان أسلوب الشيخ -رحمه الله- في كتاب (تيسير الكريم الرحمن) يتميز بالآتي[1]:

١. يستخلص دلالة لفظ الآية من كلماتها وسياقها وما يكتنفها من سبب نزول أو مكانه أو مناسبة معيَّنة.

٢. يختار ما يرجحه من الأقوال، ويدلل عليه بعبارة موجزة عامّة غالباً، وقد ينص على ذلك التصحيح أو الترجيح؛ لاسيما إذا كان يرى ذلك الخطأ أو البُعد وقع عند المفسرين كثيراً.

٣. يربط المعنى بالقواعد والأصول الشرعية العامة، وقواعد التفسير خاصة. بل إنّ كتابه نموذج لتطبيق لقواعد التفسير وعلوم القرآن المبثوثة.

٤. يُرجع الكلمات إلى استعمالاتها الشرعية واللغوية مراعياً السياق بشكل دقيق.

٥. غالب ألفاظه التي يختارها وينتقيها بعناية؛ هي من الأحاديث وأقوال السلف في فهم كتاب الله، ونادراً ما يصرح بالحديث أو القول.

٦. يحاول تفسير القرآن بالقرآن، ولذا يكثر من الربط المباشر وغير المباشر بين آيات الموضوع الواحد، أو الأسلوب الواحد أحياناً، أو القاعدة التفسيرية الواحدة كذلك.

٧. يحرص على بيان المجمل وتقييد المطلق في موضعه بعبارة سهلة وموجزة مُعرضاً عن الخلاف وأدلته، وأقوال العلماء فيه إلا ما ندر، ويكتفي بالخلاصة

(١) اجتهدت في تتبع ذلك ووصفه واختصار ذلك ليتناسب مع البحث المراد، وللمزيد انظر: الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي مُفَسِراً.

المجملة في المسألة.

٨. يربط الآيات ببعضها، ويوضحها من خلال بعضها الآخر، خصوصاً عندما ترد آيات مجملة؛ ولها تفصيل في موطن آخر من القرآن، كما في قصص الأنبياء وغيرها.

٩. يوضح المبهم بما يبين مراد الله منه، مكتفياً بالصحيح، معرضاً عن الضعيف والاحتمالات، مركزاً جهده في صرف القارئ إلى المراد من النص، دون انشغال بالغرائب والنوادر من الأقوال والحكايات.

١٠. يعتمد المأثور من الأحاديث الصحيحة والحسنة غالباً، ويتقيد بفهم الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة المهديين الأعلام في هذه الأمة، دون أن يؤثر ذلك بتطويل النقل أو ضعف الصياغة والربط، بل لا يكاد يشعر بذلك غير المتخصص، أو القارئ الملهم.

١١. عنده عناية بالربط والمناسبات بين المقاطع وكذا السور، ويجتهد في بيان الحِكم والغايات الشرعية، ممَّا أضفى على تفسيره نوعاً من الإقناع والإمتاع.

١٢. أسلوبه في الكتاب يجمع بين السهولة واللطافة، وبين القوة والرصانة.

١٣. له في الكتاب استنباطات دقيقة، تنمُّ عن علم غزيز وفهم دقيق.

ويُمثل هذا اللون من ألوان التفسير ما يُسمى بالتفسير الإجمالي، كما سيأتي.

وبهذا ينقسم التأليف في التفسير عند الشيخ السعدي -رحمه الله- إلى ثلاثة أنواع، وهي: الإجمالي والموضوعي والنكت والفوائد القرآنية[1].

---

(١) للمزيد يمكن مراجعة بحث: منهجية الشيخ ابن سعدي في التفسير الموضوعي- مؤتمر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - واقع وآفاق جامعة الشارقة ١١-١٢ جمادى الأولى ١٤٣١هـ الموافق ٢٥-٢٦/ ٤/ ٢٠١٠ وهذا المطلب من ذلك البحث.

المطلب الثاني

أسباب تصنيف تيسير الرحمن في نوع التفسير الإجمالي.

الناظر لتفسير الشيخ السعدي: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) يجد أنه ليس من التفسير التحليلي كما وصفناه، وليس من التفسير الموضوعي ولا المقارن، فهو أقرب ما يكون للتفسير الإجمالي، وهذا ما خلصت إليه بعد النظر والتأمل والمدارسة لأكثر من مرةٍ ولله الحمد.

والأدلة والشواهد لذلك كثيرةٌ نختار منها ما يلي:

١- أنه اعتمد على كتب التفسير الموثوقة اعتماداً كلياً، **وصاغها بأسلوب مناسب لأهل عصره.**

٢- **سهولة اللفظ وبيانه في تفسير الشيخ**، وذلك لا يتأتى إلا لمن جمع العلم ووعاه، فصياغة العلم في اللفظ الرائق الوجيز صعبة إلا على من ارتقى في مدارج العلم.

٣- **تلخيصه لمعاني الآيات أثناء تفسيرها، وقد يلخصها بعد تفسيرها إذا طال السياق.**

٤- **عنايته بالتدبر للقرآن وهو التأمل في دلالة الآيات جملةً بقصد الاتعاظ والانتفاع.**

٥- **تركيزه على المعاني والهدايات وإبرازها؛ وهي نتائج التفسير التحليلي.**

٦- **وصفه لتفسيره بما يدل على ذلك، وشهادة العلماء والباحثين له بذلك:**

ومن ذلك ما يلي:

أ- كتب الشيخ في غلاف مقدمة تفسيره «تنبيه: **اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛** لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثاني) تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النافعة لحكم

عظيمـة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيـادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها»[1].

ب-وقـال الشـيخ -رحمـه الله- عن هدفه بالكتـاب: "ولما منَّ البـاري علي وعلى إخواني بالاشـتغال بكتابه العزيز بحسـب الحال اللائقة بنا أحببت أن أرسم من تفسـير كتاب الله ما تيسـر، وما من به الله علينا، **ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسـالكين، ولأقيده خوف الضياع**، ولم يكن قصدي في ذلـك إلا أن **يكون المعنى هو المقصود**، ولم أشـتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنـى الذي ذكرت، ولأن المفسـرين قـد كفوا من بعدهـم، فجزاهم الله عن المسلمين خيرا»[2].

ت-**عنايتـه بالتدبر للقـرآن**، قال -رحمـه الله-: «وتضمن ما شـرحه الله وفصله من دعائهـم بعد قولـه: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[غافر: ٧]، التنبيه اللطيف على كيفيـة تدبر كتابه: **وأن لا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بـل ينبغي له أن يتدبـر معنى اللفظ، فـإذا فهمه فهمًا صحيحًا علـى وجهه، نظر بعقلـه إلى ذلك الأمـر والطرق الموصلة إليه وما لا يتـم إلا به وما يتوقف عليه**، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ.

والذي يوجب له الجزم بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه.

والثـاني: علمه بأن الله بكل شـيء عليـم، وأن الله أمر عبـاده بالتدبر والتفكر في كتابه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٠.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني. وهو المخبر بأن كتاب: هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحًا، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له **وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا مَنَّ به الله علينا.**

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سببًا لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآنات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنه الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها»[1].

ث- **تلخيصه للآيات بعد تفسيرها**، فقال -رحمه الله-: «وهذه الوصايا، التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها، إن كانت أمرا، وإلى تركها إن كانت نهيا. وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام، وحِكَمِها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما، ما لم يأمرا بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوَّفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر، إلا أتى بها. ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر، والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك. وأمره بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٣٢.

اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها. ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباده، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة»[1].

ج- «وله مكانة مرموقة في علم التفسير إذ قرأ عدة تفاسير وبرع فيه وألف تفسيراً جليلاً، في ثمان مجلدات، فسره بالبديهية من غير أن يكون عنده وقت لتصنيف كتاب تفسير ولا غيره. يقرئ تلاميذه في القرآن الكريم ويفسره ارتجالاً، ويستطرد، ويبين من معاني القرآن، وفوائده، ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة، حتى أن سامعه يودّ أن لا يسكت، لفصاحته، وجزالة لفظه، وتوسعه في سياق الأدلة، والقصص»[2].

ح- ويقول عنه تلميذه الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-:» فإن تفسير شيخنا عبدالرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها: سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها: تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبلبل فكره.

ومنها: تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قويا تدعو الحاجة إلى ذكره، وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها: السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٤٨.

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي، المحقق: عبيد بن علي العبيد، مجلة الجامعة الاسلامية ع١١٢ ص١٥٣-١٥٤.

يخالف مراد الله بكلامه فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها: دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم، وهذا يظهر جليا في بعض الآيات؛ كآية الوضوء في سورة المائدة: حيث استنبط منها خمسين حكما، وكما في قصة داود وسليمان في سورة (ص).

ومنها: أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩][(١)].

خ- وقال تلميذه الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل: "جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرؤها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافا لما يؤولها بعض المفسرين"[(٢)].

---

(١) تقريظ الكتاب ص١١.

(٢) تقريظ الكتاب ص٩.

د- تركيزه على المعاني والهدايات وإبرازها :(وهي نتائج التفسير التحليلي) فيقول الشيخ د. عبدالرحمن اللويحق – محقق الكتاب-: «جاء شيخ مشايخنا العلامة عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدي -رحمه الله- فجعل جل عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحا في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانه على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني، وبيان المراد؛ إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة»[1].

وبعد إلحاقه في التفسير الإجمالي ننبه على قضيتين مهمتين: التكرار والتفصيل أحيانا.

وأما التكرار فلا يخرج التفسير الإجمالي عن الصنعة:

كما قال الشيخ -رحمه الله-: «﴿مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته، وحسنه، فإنه تعالى، لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائما إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعا، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت

---

(١) مقدمة محقق الكتاب ص١٣.

في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراع لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير، ونفع غزير»[1].

وخالف الشيخ منهجية التفسير الإجمالي نادراً فيفصل ويذكر الجزئيات بقصدٍ أراده:

مثاله في مُشكل التفسير قال: «**وهذا الموضع من أشكل المواضع عليَّ في التفسير، فإن ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يُعهد في** القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإيهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يأباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده.

وثَمَّ احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية بني آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤٢] إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي: لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرا للمعنى، تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ الإبل، التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح، إلا أنه يبقى أيضا، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَاهم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُون، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٢٢ .

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلالة كتاب الله وبيانه التام من كل وجه، للأمور الحاضرة والماضية والمستقبلة، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن. فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، نبّه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، أي: المملوء ركبانا وأمتعة. فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها، من الغرق»(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٩٦.

المطلب الثالث
مصطلح التفسير الإجمالي عند الشيخ وفي عصره

أولاً: الذي يظهر -والله أعلم-أن مصطلح التفسير الإجمالي لم يكن مشتهراً زمن المؤلف -رحمه الله- لأمرين:

١- تَعَذُّر أن يكون ظهر المصطلح ولم يعرفه الشيخ، لاسيما إذا قارنّا ذلك بصلته -رحمه الله- ببلاد مصر من خلال المشايخ: محمد رشيد رضا والذي كان يوافيه بالجديد من تفسير المنار[١]، والشيخ حامد الفقي والذي كان يواصله أيضاً ويخدمه بطباعة الكتب والرسائل، وبينهما مراسلات[٢].

وصلته ببلاد الشام أيضاً، سواءٌ من خلال رحلته للعلاج، أو من خلال القوافل التي كانت تتاجر من القصيم - وعنيزة بالذات - في أرض الشام ومصر ذلك الزمن، بل والهند أيضاً.

ومتابعة الشيخ -رحمه الله- للجديد في ذلك العصر، حتى رأيناه يكتب رسالة عن المخترعات الحديثة، وموقف المسلم منها.

٢- لم يذكره -رحمه الله- في شيء من مؤلفاته، ولم يرد في مؤلفات من عاصروه مثل الشيخ: محمد رشيد رضا -رحمه الله-، مع أنه هو ما عناه في ذكره لطريقته في تأليف: (تيسير الكريم الرحمن).

ثانياً: أن الشيخ سلك المنهج الإجمالي في تأليفه، في تيسر الكريم الرحمن في التفسير، وفي غيره من شروحه للتوحيد والحديث والفقه، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

---

(١) كما أشارت لذلك مصادر ترجمته، وتشهد المكتبة الوطنية بعنيزة بنسخ تلك الأعداد.

(٢) وقد طبعت أكثر كتب الشيخ بمطابع جماعة أنصار السنة المحمدية، وبإشراف الشخ حامد الفقي رحمهم الله.

ثالثًا: أن منهجية التفسير الإجمالي ومغزاه واضحٌ في رؤية الشيخ ومتصورٌ في ذهنه من خلال ما سبق ذكره في أسباب تصنيفه في التفسير الإجمالي، ومن خلال أربعة أبواب مهمةٍ وهي:

١- تدبر القرآن طريقٌ لفهمه ومعرفة مقاصده:

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-: «إن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب»[1].

وقال -رحمه الله- «قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ فأنزله بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فلله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونورا، وتبصرة وتذكرة، وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها. وكان حقيقا بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص: ١٩٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٩-٣٠.

٢- أثر السياق على فهم المعنى:

قال الشيخ السعدي -رحمه الله- «وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية! بقطع النظر عن المراد.

وكان الذي ينبغي في ذلك: **أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله**، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورا لا تدخل تحت كسبه»[١].

٣- فهم البعض يدل على الباقي:

ذكر الشيخ في مقدمة طباعته للجزء الخامس (الكهف-النمل) وهو أول ما طُبع منه في زمنه -رحمه الله- فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه، أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلا من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيانا لكل شيء وتفصيلا

---

(١) الموضع السابق.

لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبديها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة..»[1].

وبمثلها علل في تيسير اللطيف المنان: «فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقية، والله جعله مثاني تثنى فيه العلوم النافعة، والمعاني الجليلة الكاملة، وهذا من تيسيره تعالى لكتابه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر ١٧]»[2].

وذكر في مقدمة فتح الرحيم ما نصه: «فإنَّ الإحاطة على جميع الآيات القرآنية ليس من شروط علم التفسير، لأنَّ من خواص تيسير الله لمعاني كتابه أنَّه جعله أصولاً وقواعد وأسسًا، إذا عرف العبد منها موضعًا عرف نظيره ومشابهه ومقاربه في كلِّ المواضع، فمعرفة بعضه يدعو إلى معرفة باقيه. ثم نظرت فإذا علوم التفسير كثيرة جدًا، وفي استيعابها يطول الكتاب جدًا..»[3].

٤- التفسير بحسب المناسبة والحال:

قال -رحمه الله-: «﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٦٨.

(٢) تيسير اللطيف المنان ص ٣-٨.

(٣) فتح الرحيم العلام ص١٩.

كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان٣٢-٣٣]، هذا من جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليهم أنفسهم فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: كما أنزلت الكتب قبله، وأي محذور من نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أنزلناه متفرقا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة وثباتا وخصوصا عند ورود أسباب القلق فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه.

﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ أي: مهلناه ودرجناك فيه تدريجا. وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- حيث جعل إنزال كتابه جاريا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية. ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أي: أنزلنا عليك قرآنا جامعا للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظا وأحسن تفسيرا مبين للمعاني بيانا كاملا.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدثٍ ومعلمٍ وواعظٍ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلفين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرا من نصوص

القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا -على قولهم- لا يكون القرآن أحسن تفسيرا من غيره، وإنما التفسير الأحسن -على زعمهم- تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفاً!!»[1].

المطلب الرابع: طريقة الشيخ السعدي في عرض المعاني والهدايات وصياغتها في الكتاب

تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن) من التفسير الإجمالي: وهو أن يعمد المفسر إلى بيان المعنى العام للآية دون التعرض للتفاصيل ؛ كالإعراب واللغة والبلاغة والفوائد وغيرها.

ويمكن إجمال منهج الشيخ السعدي في (تيسير الكريم الرحمن) في النقاط التالية اختصاراً:

١) يركز على المعنى المقصود من الآية، بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرؤها مهما كان مستواه العلمي.
٢) يصوغ المعاني بأسلوب مناسب لأهل عصره، سهل ممتع يُفهم معنى الآيات من مجرد قراءته.
٣) يمتاز بتيسير التفسير؛ دون إطالة، أو استطراد، ودون ذكر قصص، أو إسرائيليات، ودون حكاية أقوال تخرج التفسير عن المقصود.
٤) صاغه على نمط بديعٍ، بعبارات قريبةٍ لا خفاء فيها ولا غموض.
٥) يسهل العبارة، فيجمع بين بيان المعنى المقصود والغوص في أسرار التشريع، بعيداً عن تعقيدات الألفاظ والإسهاب في بيان الأحكام.
٦) اعتمد الشيخ على كتب التفسير الموثوقة اعتماداً كلياً.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٨٢-٥٨٣.

٧) يشرح المعاني إجمالا في الغالب، وربما يترك تفسير آياتٍ لظهور معناها، ويهتم بالتعريف وجزالة الألفاظ.

٨) اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله.

٩) اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف، بعباراتٍ سهلةٍ وميسرةٍ للفهم.

١٠) يعتني باستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية غالباً. وله استنباطات وتوجيهات يستقل بها.

١١) يستوعب ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، مع التنبيه على فقه الآية في شتى علوم الشرع.

١٢) يعرض الحكم الراجح بدليله، وهذا ما يحتاجه كثير من المسلمين.

١٣) يذكر أنواع الإعراب والقراءات إذا توقف عليها بيان المعنى فقط. ولا يذكرها إذا لم يترتب عليها فهم المعنى، أو كانت شاذةً.

١٤) أبدع في عرض قصص الأنبياء واستنباط الفوائد منها، وما يحتاجه المسلم مما يقوي إيمانه ويربطه بخالقه، وهذا المسلك قلَّ من اعتنى به من المفسرين السابقين.

١٥) يعتنى بمعاني أسماء الله الحسنى، ومناسبة التذييل بها، وكان يشير إلى ذلك كثيراً، ويربط الآية بما ختمت به من أسماء الله.

١٦) يحرص على بيان المعنى العام الإجمالي للآيات بأسلوب واضح سهل مأخوذ من الآيات نفسها.

١٧) سجل في تفسيره ما ظهر له من ترجيحات في تطبيق بعض النصوص القرآنية على النوازل.

١٨) يعتنى بأمر الدعوة وأساليبها، ويبيِّن ما ينبغي أن يكون عليه الداعية.

١٩) يذكر بعض الضوابط والقواعد والأصول التي ينبغي أن يعتني بها من يفسر القرآن.

٢٠) اعتنى بمباحث علوم القرآن، وبيَّنها أتم بيان، بأسلوب واضح، بعيداً عن الخلافات الجانبية، فجاءت متممة لتفسيره ومكملة له.

هذه أبرز ملامح التفسير الإجمالي عند الشيخ في تيسير الكريم الرحمن.

ولذا يقول عنه الشيخ أ.د. عبدالله الطيَّار: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان: وهو تفسير عظيم، لا يستغني عنه طالب علم، لأنه سهل العبارة، يجمع بين بيان المعنى المقصود والغوص في أسرار التشريع بعيداً عن تعقيدات الألفاظ والإسهاب في بيان الأحكام» ثم فصّل بعض منهجية الشيخ السعدي في تفسيره مبرزاً مزاياه باختصار[1].

(١) أثر علامة القصيم عبد الرحمن السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، تأليف أ.د. عبدالله بن محمد الطيار ص١٣.

المطلب الخامس: من تأثر بهم الشيخ من علماء الإسلام في أسلوب التفسير الإجمالي:

من خلال البحث والتتبع لم أجد من بيَّن صفة تأثر الشيخ -رحمه الله- بدرس التفسير، سوى نتفٍ في وصف درسه للطلاب، وهي لا تعطي إجابةً واضحةً وشافيةً عن طريقة تلقيه هذه المنهجية المحددة في التفسير، والتي صار لها أثرٌ ظاهرٌ في قبول تفسيره في زمنه وإلى اليوم.

ومع الثراء في علومه ومعارفه -رحمه الله-، والتنوع في مشايخه ومصادر تعليمهم، وبروز الشيخ ونبوغه العلمي والذهني، ومعايشته لمجتمعه وأحداث عصره، وانفتاحه على مصادر المعرفة، إلا أني لم أجد من ذكر تأثره بطريقة التدريس سوى نص الشيخ البسام في علماء نجد، وسيأتي ذكره، أما طريقة التأليف فكل من وصف تأليفه أجاد وأثنى؛ ولم يذكروا عمن أخذ تلك الطريقة الإجمالية الموضوعية في تيسير العلوم وتنويع طرحها.

ولا يبعد أن يكون ذلك مما تحصَّل عنده من مجموع الأمرين:

طريقة مشايخه جميعـًا؛ فأخذ من كلٍّ منهم ما تميز به.

وما فتح الله عليه باجتهاده وممارسته للتدريس والكتابة.

وسبب هذا القول النظر في الأمور التالية:

أولاً: صرح بالنقل والتأثر بالإمام ابن القيم، ولا يخرج عن اختيارات الإمام ابن تيمية غالباً:

كتب الشيخ في مقدمته فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن، من بدائع الفوائد لابن القيم -رحمه الله- تعالى، وختم تفسيره بفصل في تفسير أسماء الله الحسنى، وهو شرح طيب واضح ونافع.

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وحصل له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد، والتفسير، ولغته، وغيرها من العلوم النافعة. وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي، بل يرجح ما تَرَجّح عنده بالدليل الشرعي، ولا يطعن في علماء المذاهب.

وإن لم نجد تصريحاً من الشيخ في استفادته وتأثره المباشر في التفسير من هذين الإمامين، إلاّ أن المتتبع لتفاسيره يجد ذلك واضحاً، بل ربما نقل نص كلام أحدهما في المسألة[1]، وأحياناً بمعناه[2]. وأحياناً يحيل على أحدهما في المسألة[3]. ونجد غالب تأثره فيهما في الاختيار والترجيح والتوجيه، شأن ذلك شأن بقية مؤلفاته.

ومن أبرز كتب السعدي التي تدل على عنايته بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتأثره به: **(طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول)**:

---

(1) كما في تيسر الكريم الرحمن ص٣١-٣٤ فقد نقل فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد لابن القيم -رحمه الله-، وفي ص١١١ نقل نكتة لطيفة عن ابن القيم في مناظرة إبراهيم عليه السلام، وفي ص١٢٧ نقل في الهامش كلاماً لابن تيمية من المنهاج، وص١٣٨ نقل كلاماً لابن القيم عن حج البيت، وفي ص١٦٨ نقل عنه أيضاً من جلاء الأفهام تأملاً في آية المواريث، وفي ص١٩٣ نقل عنه من المدارج، وص٧٩٥ نقل عنه قصة الحديبية.

(2) أشار في تيسر الكريم الرحمن ص١٧٩ إلى استفادته من تنبيه ابن القيم، وفي ص٢٤٦ أشار إلى اختيار ابن تيمية.

(3) مثال قوله في فتح الرحيم ص٩٢» وإذا أردت تفصيل هذه الجملة العظيمة فاقرأ كتاب العقل والنقل لشيخ الإسلام والمسلمين ابن تيمية، وكيف برهن بالبراهين العقلية على ضعف عقول القادحين في شيء من هذا الدين».

إذ انتقاه من أكثر من ستين كتاباً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب تلميذه ابن القيم، التي وقعت بين يديه، وقد سـهَّل ابن سـعدي بهذا الكتاب الاستفادة من كتب الشيخين، فأبرز زبدتها، ووضعها بين يدي القارئ بهذا الجزء المختصر.

وقال آخر هذا الكتاب: «... وقد نافت ولله الحمد على الألف[1]. ما بين أصل، وقاعدة وضابط جامع، وتعريف مهم، وفائدة ضرورية، وترغيب في كمال، وتحذير مـن نقـص، وتوجيه إلـى المنافع الظاهـرة والباطنـة، وترهيب من المضـار الدينية والدنيوية، ومَخْبَرُه يعني عن وصفه ...

وجملـة ذلـك أن هذا المجمـوع قد انتقيتـه بعد الـتروِّي الكثير وكثـرة التأمل والتفكير في جميع الكتب الموجودة من كتب الشـيخين، فتضمّن صفوتها، واحتوى على جواهرها وغررها، والحمد لله، والفضل لله ...»[2].

ثانيا: تلقى الشيخ تعليمه على عدد من العلماء، من أبرزهم:

١. الشـيخ عبدالله بـن عايض (١٢٤٩-١٣٢٢هــ) -رحمـه الله-، وكان قد طلب العلم في الحجاز ومصر.
٢. الشـيخ إبراهيم بن حمـد بن جاسـر (١٢٤١-١٣٣٨هـ) -رحمـه الله-، الذي طلب العلم في الشام، ورحل إلى العراق، وأقام بها بضع سنين.
٣. الشـيخ صعب بن عبـدالله التويجـري (١٢٥٣-١٣٣٩هـ) -رحمـه الله-، إمام الجامع في البكيرية، قرأ على علماء القصيم والرياض ثم استقر في عنيزة.
٤. الشـيخ محمد بن عبدالكريم الشـبل. (١٢٥٧-١٣٤٣هـ) -رحمه الله-، وكان قد رحل إلى الحجاز ومصر والعراق والشام لطلب العلم.

---

(١) عددها بالتحديد (١٠١٥) ما بين قاعدة وأصل وضابط.

(٢) طريق الوصول ص٣١٨.

٥. الشيخ صالح بن عثمان القاضي (١٢٨٢-١٣٥١هـ) -رحمه الله-، الذي طلب العلم في مصر والحجاز سبع عشرة سنة.. وقد لازمه ملازمة تامة إلى أن توفي -رحمه الله-.

٦. الشيخ محمد الأمين بن عدي الشنقيطي (١٢٨٩-١٣٥١هـ) -رحمه الله-، الذي طوّف البلاد الإسلامية، وجاهد الإنكليز في البصرة، وأقام في عنيزة أربع سنين.

٧. الشيخ علي بن ناصر أبو وادي (١٢٧٣-١٣٦١هـ) -رحمه الله-، الذي درس على علماء الدعوة، ثم طلب علم الحديث في الهند، ورجع بإجازات في كتب السنة، وأجاز رهطاً من أهل بلده، منهم الشيخ السعدي.

٨. الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن محمد المانع (١٣٠٠-١٣٨٥هـ) -رحمه الله-، وكان درس بالعراق والشام وغيرها، ثم صار مدير المعارف في المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت - وقد قرأ عليه في عنيزة.

اجتمع في هؤلاء الشيوخ تنوع مصادر التلقي، حيث طلبوا العلم في مختلف البلاد، فهيأ الله له بهذا فوائد الرحلة من غير أن يرحل.

ثالثا: إحدى طريقه في التدريس التي أخذها عن شيخه:

يقول الشيخ البسام: "طريقته في التدريس طريقة فريدة مفيدة، أخذها عن شيخه محمد أمين الشنقيطي.

فكان يقرأ العبارة، ثم يوضح معناها توضيحاً تاماً، ثم يصورها، ويذكر دليلها، وحكمة التشريع منها، فإن كان يراها أقرّها. وإن كان يرى القول الآخر أصح منها ذكر القول الثاني بنفس الطريقة، ثم أخذ في نصر القول الذي يراه وبيان أدلته، وتوهين القول الذي لايراه، حتى يقنع الطالب بما يراه.

كل هذا بأسلوب واضح، وترتيب مستقيم، بحيث إن تفهيمه لا ينخفض

عن مستوى الطالب المدرك، ولا يرتفع عن مستوى الطالب المبتدئ، فالكل منه يستفيد، هذه طريقته في درسه.

أما كلامه على النصوص الكريمة سواء في التفسير، أو في الحديث، فأمر عجب، فإنه يستنبط منها من الأحكام والفوائد ما لا يتصوره طالب"[1].

رابعا: مراسلاته لعلماء عصره:

"ومع هذا فقد كاتب علماء الأمصار ومفكري الآفاق في جديد المسائل وعويصات الأمور؛ حتى صار لديه محاولة لتطبيق بعض النصوص الكريمة على بعض مخترعات ومكتشفات هذا العصر وحوادثه، مما يظهر أسرار الشريعة واتصالها بما يجد في العصر الحديث، وهذه بعض همته وعزيمته في اكتساب العلوم وتحصيها"[2].

خامسا: متابعته للمجلات العلمية في زمنه:

« كان حريصاً على قراءة مجلة المنار، التي يصدرها الشيخ (محمد رشيد رضا) (١٢٨٢-١٣٥٤هـ) -رحمه الله-، في القاهرة، ويراسل صاحبها..

ومجلة (الفتح) التي يصدرها الشيخ (محب الدين الخطيب) (١٣٠٣-١٣٨٩هـ) -رحمه الله-، في القاهرة»[3].

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون:٣/ ٢٢٣- ٢٢٤.

(٢)() علماء نجد خلال ثمانية قرون: ٣/ ٢٢٠- ٢٢١.

(٣) الشيخ عبدالرحمن السعدي وأثره في المجتمع مواقف تستحق التأمل، د. فريد بن عبدالعزيز الزامل السليم- عنيزة، مقال منشور بجريدة الجزيرة - السعودية، العدد ٤٧٦و ٤٧٧، http: / /www. al-jazirah.com /culture

المطلب السادس

أثر المنهجية العلمية الإجمالية في كتابات الشيخ الأخرى

لقد برز المنهج الإجمالي في كتابات الشيخ كلها، ولعل إلماحة سريعة في مصنفاته حسب أنواع العلوم تعطينا برهان ذلك، ونوجزها في المسائل التالية[1]:

المسألة الأولى: منهجه الإجمالي في مؤلفات العقيدة[2]:

فنجد الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- يسلك مسلك الإجمال والإيجاز في مؤلفاته في أبواب ومسائل العقيدة، حيث يوجز الموضوع الواحد في مكان واحد، ويحاول عرضها بأسلوب إجمالي ميسّر على القارئ، لكنه قد جمع لُبَّ المسألة، وبرع في اختصارها، وجمع أطرافها من خلال الأدلة، بل أشهر وأظهر أدلتها-متجنباً المقارنة ظاهراً-وإن كان في صياغته ما يفيد الرد على المخالف، أو ذكر الخلاف.

وهو في عبارته واختياره للألفاظ ينبئ عن الخلاف، وعن درجته قوة وضعفاً، مع أدبٍ جم في التعبير عن الخلاف والمخالف. ويحرص على أسلوب القوة في الاستدلال، وربط المسألة بأدلتها، من غير مجاملة أو مداهنة، أو تنازل عن أسس

(١) للمزيد يمكن مراجعة بحث: منهجية الشيخ ابن سعدي في التفسير الموضوعي- مؤتمر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - واقع وآفاق جامعة الشارقة ١١-١٢ جمادى الأولى ١٤٣١هـ الموافق ٢٥-٢٦/ ٤/ ٢٠١٠ وهذا المطلب يشبه البحث هناك.

(٢) ومن أشهرها باختصار حسب حروف المعجم: الأدلة والقواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، انتصار الحق، توضيح الكافية الشافية، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، القول السديد في مقاصد التوحيد. وانظر: تفسير أسماء الله الحسنى عند السعدي، د.عبيد العبيد، ١٥٤-١٥٦.

العقيدة ومبادئها، أو معالمها، أو منهجية السلف.

المسألة الثانية: منهجه الإجمالي في مؤلفات الفقه وأصوله[1]:

وسلك مسلك الإجمال والإيجاز في علوم الفقه وأصوله، وكان لذلك تأثيرا بالغـًا، إذ أخرج طلاب العلم في عصره عن المألوف، إلى تأليف الجديد فيها على طريقة ذات صبغة إجمالية موجزة، وقد أفادت تلك الكتب والرسائل منذ تأليفها حتى يومنا هذا طلاب العلم. وندر أن لا تجد أحد تلك المؤلفات يُشرح في دورة علمية، أو برنامج علمي، أو معهد شرعي. وذلك لإيجازها غير المخل، وإجمالها في الفنّ مع قوة أدلتها، وربطها بالكتاب والسنة، حتى لكأنك ببعض الأسطر كاملة هي عبارات النصوص الشرعية -إنَّما نظمها ببعضها- أو قواعد وأصول جعلها كأنها شرح للمسألة، وقد تضمنت تلك العبارة أو الأسطر ما لو شرح في مجلد لما كفاه.

ولقد تفنَّن -رحمه الله- في ذلك، فمع تأليفه لمنهج السالكين في الفقه؛ لم يثنه ذلك أن يؤلف ما هو أصغر منه بكثير، ويجمع فيه أبواب الفقه كلها مع الأخلاق والآداب، ولا يتجاوز الكتاب مائة وخمسين صفحة[2].

وهكذا الشأن في أصول الفقه وقواعده، فمع نظمه لها؛ ألف رسالة مستقلة في القواعد الفقهية، وسهّلها على الناس، حتى يشعر الطالب وكأن تلك القواعد أمر

---

(١) ومن أشهرها باختصار حسب حروف المعجم: الإرشاد إلى معرفة الأحكام، الجمع بين الإنصاف ونظم ابن عبدالقوي، حكم شرب الدخان، رسالة في القواعد الفقهية، رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة، الفتاوى السعدية، القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة، المختارات الجلية من المسائل الفقهية، منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، المناظرات الفقهية، منظومة في أحكام الفقه. وانظر: المصدر السابق، ١٥٤-١٥٦.

(٢) كما في: نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق والآداب. ألفه قبل وفاته بعامين، ط ١٤٢٠هـ.

سهل المرتقى، فإذا بالشيخ يرتقي به ليصل العُلا.

المسألة الثالثة: منهجه الإجمالي في شرح الأحاديث:

لـم أقف لـه إلا على كتـاب واحد خاص في خدمة السـنة، لكـن كتبه الأخرى وتفاسـيره مليئة بالإشـارة إلى الأحاديـث والكلام عن فوائدهـا ومراميها، أما كتابه الخاص بالسنة؛ فهو: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار. وقد طبع في حياته الطبعة الأولى، في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة، سنة ١٣٧٢هـ.

ومن تأمل هذا الكتاب على اختصاره ووضوحه رآه مشتملاً على جميع العلوم النافعـة؛ علـى علم التوحيد، والأصول، والعقائد، وعلم السـير والسـلوك إلى الله، وعلـم الأخـلاق والآداب الدينيـة والدنيوية والطبية، وعلم الفقـه والأحكام في كل أبواب الفقـه من عبادات ومعاملات وأنكحة وغيرها، وكلها مأخوذة ومسـتقاة من كلماتـه صلـوات وسـلامه عليه، حيث اختار فيه شـرح تسـعة وتسـعين حديثاً من جوامع كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ومن خلاله تظهر منهجية الإجمال التي اتبعها الشيخ في جمع المسائل وربطها مـع العمق والإيجاز، ومناسـبته لأهل عصره ومن بعدهم، وكيف يسـر فيه الشـيخ المعـاني التي احتوتها الموسـوعات التي تناولـت تلك الأحاديث بالشـرح والبيان والتفصيـل، حتى صار شـرحه مفتاحـاً لهـا، وبوابة يلج منها طالـب العلم إلى بوابة السنة النبوية. فسبحان من هداه وعلمه.

المسألة الرابعة: منهجه الإجمالي في مؤلفاته العامة(١):

إنَّ مؤلفات الشيخ الكثيرة اعتنت بالدعوة إلى الله، وذكرت أفضل السبل في ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة. وإذا كان للسعدي -رحمه الله- ميزة على أقرانه ومعاصريه في قضايا الدعوة إلى الله؛ فهي أنه فهم النصوص الشرعية وفهم الواقع الذي يعيشه، فجمع بين فقه النص وفقه الواقع، وهذا ما جعل قدمه راسخة في هذا المجال.

وقد أبدع الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- في عرض قضايا الدعوة بإجمالٍ سهلٍ ممتعٍ، فتعرَّض لإصلاح مناهج التعليم، وتعرَّض لتصحيح بعض المفاهيم، وتعرَّض للردِّ للرد على الملحدين ودعواهم حول الحرية من تعاليم الإسلام، وأكد على أهمِّية أن يتولى المناصب القيادية في أي مصلحة خاصة أو عامة أهل الخير والصلاح والإصلاح من الدعاة والمعلِّمين والموجهين، وشنع على أولئك النفعيِّين الذين يهتمُّون بمصالحهم الذاتية وينسون أو يتناسون قضايا الأمة ومصالحها العليا. لقد كان ابن سعدي موفقاً في معالجته لقضايا الدعوة، وذلك أنه داعية من الرعيل الأول، إذ نزل الميدان، وجرَّب، ومارس، وتعامل مع الناس، فأخذ يكتب عن تجارب واقعية صادقة.

---

(١) ومن أشهرها باختصار حسب حروف المعجم: التعليق وكشف النقاب على نظم قواعد الإعراب، تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، الجهاد في سبيل الله، أو واجب المسلمين وما فرضه الله عليهم في كتابه نحو دينهم وهيئتهم الاجتماعية، الدرة المختصرة في محاسن دين الإسلام، الدين الصحيح يحل جميع المشاكل، الخطب المنبرية على المناسبات، الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، الفواكه الشهية في الخطب المنبرية، منظومة في السير إلى الله والدار الآخرة، مجموع الخطب في المواضيع النافعة، مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، الوسائل المفيدة للحياة السعيدة. وانظر تفسير أسماء الله الحسنى عند السعدي، د.عبيد العبيد، ١٥٤-١٥٦.

ومع ذلك فتميزت مؤلفاته عامة باتباع الأسلوب الإجمالي والموضوعي، الذي يقوم على الاختصار، وحسن التوصيف، مع قوة الاحتجاج، ومتانة الاستدلال، بعيداً عن أسلوب الاستطراد، أو التفصيل الذي قد لا يناسب كل المخاطبين، أو الإغراق في المناقشات.

وظهرت نتائج تلك المنهجية الإجمالية التي سلكها في التفسير وغيره، وأبرزها:

١) أشبع ما تطرق له:

«أشبع الموضوعات التي تطرق لها، واستطاع أن يصل على قلب وعقل قارئه بأيسر السبل وأسهل الطرق. وقد كانت الكتابة سهلة عليه، حيث كان في المجلس الواحد يملي رسالة مستقلة. كما وردت إليه الأسئلة العديدة، فأجاب عليها بالأجوبة السديدة، وكان حاضر الجواب، سريع الكتابة، بديع التحرر، سديد البحث. وقد بارك الله في أوقاته، فألَّف وخطب ونصح وساهم في حلِّ مشاكل الناس، وكان لا ينقطع عن زيارتهم في بيوتهم، ومشاركتهم في مجتمعاتهم، فأعطى كل ذي حق حقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١].

٢) حماسه في نشر العلم:

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا ينال منها عرضاً زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.

٣) توقفه عن الاعتماد على الإسرائيليات:

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-: «واعلم أن كثيرا من المفسرين رحمهم

---

(١) علماء نجد (٢/ ٤٢٤).

الله، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله، محتجين بقوله -صلى الله عليه وسلم-: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »!.

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك أن مرتبتها كما قال -صلى الله عليه وسلم-: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم) فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق»[1].

وقال: «واعلم أن كثيرا من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح وأنها تمخضت تمخض الحامل فخرجت الناقة وهم ينظرون وأن لها فصيلا حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه وأن صالحا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره، حتى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٥-٥٦.

يـأتي مـن طريق من لا يوثـق بنقله، بل القـرآن يكذب بعض هـذه المذكورات، فإن صالحا قـال لهم: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[هود: ٦٥]، أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدا، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سـوى هذا، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يوما فيوما، على وجه يعمهم ويشـملهم احمرار وجوههم، واصفرارها واسـودادها من العذاب.

هـل هـذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟ . فالقرآن فيـه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صح شـيء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما لا يناقض كتاب الله، فعلـى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[الحشر: ٧] وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسـرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما»[١].

٤) توقفه عن الأخبار التي لا مستند لها:

قـال: «فهـذا ما قصه الله علينـا من قصة ملكة سـبأ وما جرى لها مع سـليمان، ومـا عدا ذلك من الفـروع المولـدة والقصص الإسـرائيلية فإنه لا يتعلق بالتفسـير لكلام الله وهو من الأمور التي يقف الجزم بها، على الدليل المعلوم عن المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك، فالحزم كل الحزم، الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفاسير. والله أعلم»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٠٥.



الخاتمة

يعدُّ تفسير السعدي من التفسير الإجمالي: وهو أن يعمد المفسر إلى بيان المعنى العام للآية دون التعرض للتفاصيل؛ كالإعراب واللغة والبلاغة والفوائد وغيرها ولذلك جاء الكتاب مختصراً، وللشيخ استنباطات وتوجيهات يستقل بها كغيره من أهل العلم، ومن أسلوب السعدي في هذا التفسير أنه يشرح المعاني إجمالا في الغالب، وربما يترك آيات لظهور معناها، فهو يمتاز بتيسير التفسير وسهولة العبارة والفهم، ويهتم بالتعريف وجزالة الألفاظ، ويناقش المسائل الفقهية بلا إطناب والتنبيه على فقه الآية في شتى علوم الشرع.

النتائج، وتتضمن ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: برزت أهمية التفسير الإجمالي من خلال منهجية الشيخ ورؤيته، في النقاط التالية:

- التفسير الإجمالي يتعامل مع الأهداف والمفاهيم القرآنية الكلية.
- أن الجديد في التفسير الإجمالي عرض المعاني والهدايات بأسلوب التعبير عن التفسير، من حيث سهولة عبارته وسلاستها.
- يركز الكلام حول مدلول الآية للاهتداء بها والسير على منهاجها، دون الغوص في المجالات التحليلية.

المسألة الثانية: ضوابط التفسير الإجمالي من خلال منهجية الشيخ:

أولاً: حسن صياغة التعبير عن التفسير بعبارات فصيحة وسهلة الفهم في عصر كتابتها، مع قوة دلالتها وتأثيرها في القارئ والسامع لها.

ثانياً: يفسر كل مقطع تفسيراً إجمالياً، ويراعى فيه الأسلوب الأمثل في تفسير القرآن وهو:

أ- تفسير القرآن بالقرآن والإشارة إلى الآيات التي لها علاقة مباشرة بالمقطع سواءً بذكرها، أو ربط المعنى بها.

ب- تفسير المقطع بالأحاديث النبوية الشريفة التي تلقي ضوءاً على المعنى، سواءً بذكرها، أو ربط المعنى بها.

ج- في المعاني يلتزم قول السلف، وغالب معانيه من نصوص أئمة التفسير، على سبيل المثال: الطبري، والقصاب، والبغوي، وابن كثير، أو: قول أئمة المذاهب الأربعة، وابن تيمية وابن القيم.

د- يجتنب الخوض في القضايا اللغوية والبلاغية والقراءات والأحكام، وإن كانت تظهر آثارها واعتبارها في المعاني التي يوردها للآية؛ كالقراءات المتواترة ووجه الإعراب والتصريف؛ التي لها تأثير في بيان معنى الآيات.

هـ- عند تكرار الموضوعات في بعض مقاطع السور كالقصص وغيرها يفسر كل مقطعٍ في موضعه بما يتناسب مع محور السورة التي ذُكر فيها، وهدف السورة العام، ومراعاة الإيجاز أو الإطناب فيها.

ثالثاً: في قضايا ومسائل الأحكام:

١. في القضايا العقدية يلتزم رأي السلف، وإن كان هناك إجماع على التأويل يورد ذلك.

٢. في القضايا الفقهية: يكتفى بالرأي الراجح الذي يراه من أقوال الأئمة الأربعة والمجتهدين، وقد يشير لأدلة ترجيح هذا القول دون توسع.

رابعاً: وفي مجال النتائج والنوازل:

أ- يربط بين هدايات الآيات وواقع الأمة.

ب-يرد على الشبهات التي تثار حول القرآن الكريم والإسلام.

ج-يبرز عظمة الشريعة الإسلامية، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، كل ذلك عند ورود مناسباتها في تفسير الآيات المتعلقة بذلك.

د- يقتصر على الحقائق العلمية عند تفسير الآيات الكونية والطبية، ويتجنب النظريات العلمية.

المسألة الثالثة: أساليب التفسير الإجمالي من خلال منهجية الشيخ وغيره:

ظهر لي بالبحث والتتبع أن أسلوب الشيخ في التفسير الإجمالي متفقٌ عمومًا في ثنايا (تيسير الكريم الرحمن).

ولكن ثمة أساليب أخرى للتفسير الإجمالي تختلف بحسب منهجية من كتبوا في هذا الأسلوب من التفسير:

فمنهجية التفسير الميسر (مجمع الملك فهد) اقتصرت على أقل ما يمكن من بيان المعنى، ولذا صار التفسير كالمتن الذي يحتاج لبسطٍ وتوسعٍ أكثر للناس، وسبب ذلك أنهم كتبوه مراعاة للترجمة إلى اللغات الأخرى.

ومنهجية المفسرين الذين حوى تفسيرهم - تفسيراً إجمالياً- كالجزائري -رحمه الله-: اعتمدت على بيان دلالة الآية أو الآيات على المعنى العام، اكتفاءً بما ذكروه تحت الغريب والفوائد، فاقتصروا في الإجمالي على المعنى العام دون الربط بما اختصت به ألفاظ الآية وأفادته من معاني في ذهن القارئ والسامع.

وبين هذا وذاك أثَّرت العلوم في بعض تلك التفاسير، إما ميلاً إلى اللغة والبلاغة، أو إلى الجانب الاجتماعي ومعالجة الواقع، أو غير ذلك.

التوصيات:

١ - (تيسير الكريم الرحمن) من أفضل كتب التفسير الإجمالي؛ ومن أجل هذا أشير على كل مسلم يرغب النظر في معاني كلام الله أن لا يخلو بيته من هذا

التفسير القيِّم[1].

٢- (تيسير الكريم الرحمن) من التفاسير المختصرة ولذا ينصح بقراءته للمبتدئين والعامة، لسهولة عبارته وإيجازه، مع وفائه وشموله لدلالة الآيات، وما ضمَّنه مؤلفه من معانٍ وهدايات.

٣- استقراء بقية كتب التفسير الإجمالي للخروج بمنهجية علميّة، محددة المعالم والخطوات؛ لمن يرغب في الكتابة في هذا النوع من التفسير، ولضبط وتقويم الكتابات المعاصرة في ذلك.

٤- دراسة أثر منهجية التفسير الإجمالي التي سلكها الشيخ السعدي عند ترجمته إلى اللغات الأخرى.

---

(١) كما نص على ذلك تلميذه الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمهم الله في تقديمه لطبعة الكتاب.

فهرس المصادر

١- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٩٥١/ ٥ وتاريخ ٥/ ٨/ ١٤٠٦، الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

٢- أثر علامة القصيم عبد الرحمن السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، تأليف أ.د. عبدالله بن محمد الطيار.

٣- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١٤٢٠ هـ.

٤- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٥- تفسير أسماء الله الحسنى، للسعدي، المحقق: عبيد بن علي العبيد، مجلة الجامعة الاسلامية ع١١٢ ص١٥٣-١٥٤.

٦- التفسير الموضوعي، للدكتور أحمد الكومي، مذكرة مقررة على طلاب كلية أصول الدين.

٧- التفسير الموضوعي، د. محمد بن عبدالعزيز الخضيري، مجلة البيان ع ٦٤ ص٧.

٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: د.عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٩- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٠- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، محقق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: ١، ١٩٨٧م.

١١- الشيخ عبدالرحمن السعدي وأثره في المجتمع مواقف تستحق التأمل، د. فريد بن عبدالعزيز الزامل السليم- عنيزة، مقال منشور بجريدة الجزيرة-السعودية، العدد ٤٧٦و ٤٧٧، http: //www.al-jazirah.com /culture

١٢- الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي مُفَسِراً، د. عبدالله بن سابح بن صالح الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.

١٣- علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح آل بسام، دار العاصمة سنة النشر: ١٤١٩.

١٤- فتح الرحيم الملك العلام، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به: د. عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط٣، ١٤٢٤هـ.

١٥- فصول في أصول التفسير، أ. د مساعد بن سليمان الطيار، دار النشر الدولي، الرياض، ط١، ١٤١٣.

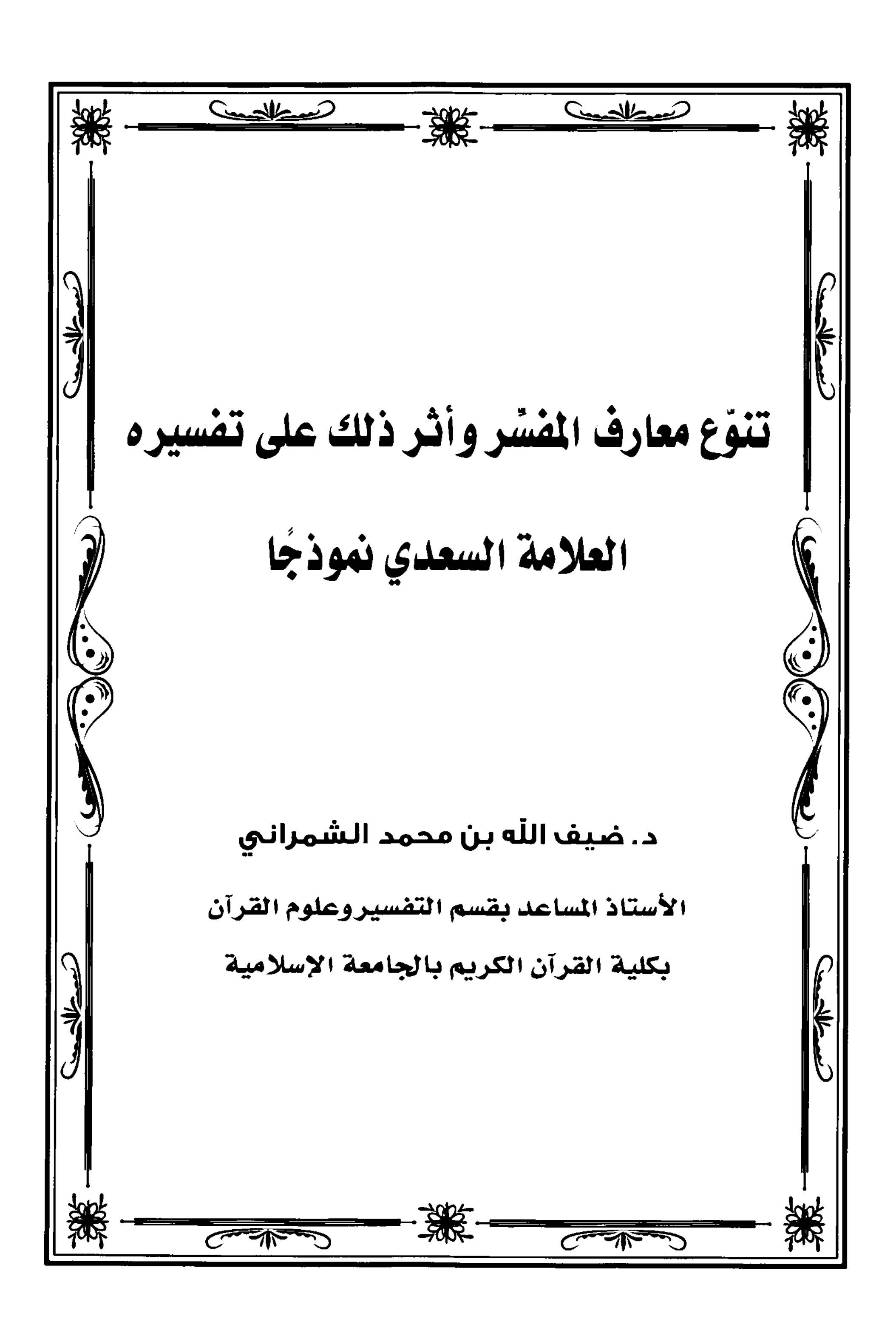
١٦- لسان العرب، محمد مكرم منظور، دار الصادر، بيروت، ط١.

١٧- مشكلة المصطلحات في الدراسات القرآنية .. التفسير الموضوعي وإخوانه أنموذجًا، (مقالٌ علمي) أ.د. مساعد الطيار ٠٤Jun ٢٠٠٦ـ ملتقى أهل التفسير.

١٨- منهجية الشيخ ابن سعدي في التفسير الموضوعي- مؤتمر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، واقع وآفاق جامعة الشارقة ١١-١٢ جمادى الأولى ١٤٣١هـ الموافق ٢٥-٢٦/ ٤/ ٢٠١٠

١٩- الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر عام النشر: ١٤٢٣هـ.

٢٠- نور البصائر والألباب في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق والآداب. ألفه قبل وفاته بعامين، ط١٤٢٠هـ.



تنوّع معارف المفسّر وأثر ذلك على تفسيره

العلامة السعدي نموذجًا

د. ضيف الله بن محمد الشمراني

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإن من رحمة الله تعالى بهذه الأمة المحمدية أن جعل في كل قرن منها علماء عاملين، ودعاة مهتدين، يبصّرون عباد الله بتعاليم هذا الدين الحنيف، ويبينون لهم ألفاظ وحي الله ومعانيه، أداء للأمانة التي حُمِّلوها، وحرصًا على هداية الناس، وإقامة للحجة على الخلق.

وقد رُزِق أهل هذا العصر الحديث بعلماء في مختلف الأقطار الإسلامية كانوا أعلام هدى ومصابيح دجى، عمّ الانتفاع بهم، وكثرت الاستفادة من علومهم، فشمل ذلك العام والخاص، والعربي والعجمي، والصغير والكبير، والذكر والأنثى؛ لما فتح الله عليهم من غزارة العلوم، وسعة الفهوم، وصدق النوايا، ونقاء السرائر، وصالح الأخلاق، وجميل الشمائل.

ومن أبرز من كان له أثر كبير في النهضة العلمية والإصلاح الديني والاجتماعي في بلادنا -المملكة العربية السعودية- خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة: فضيلة الشيخ العلّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- فقد كان له أثر بالغ محمود على الجيل الذي عاصره في حياته، وكذا استمر أثره بعد مماته، من خلال تلاميذه النجباء الأوفياء، وكتبه التي سارت بها الركبان.

وقد سنح بخلدي أن أساهم ببحث وجيز يبرز جانبًا من التميز في علم الشيخ، من خلال تخصصي في التفسير وعلوم القرآن، واخترتُ أن يكون عنوان هذه الكتابة:

(تنوع معارف المفسر وأثر ذلك على تفسيره - العلامة السعدي نموذجًا).

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث خالصًا لوجهه الكريم، نافعًا لكاتبه

وقارئه، والحمد لله رب العالمين.

أهمية الموضوع:

تتجلى أهمية هذا الموضوع من خلال الآتي:

أولا: تعلقه ببيان العلوم المهمة اللازمة لمن يتصدّى لتفسير القرآن الكريم.

ثانيًا: إبرازه لمنزلة العلّامة السعدي العلمية التي أهّلته للتصنيف في التفسير.

ثالثًا: بيانه لأثر سعة علوم المفسِّر وتنوّع معارفه على جودة فهمه للقرآن، ودقة تفسيره لآياته.

أسباب اختيار الموضوع:

١. تعلقه بتخصص الباحث، مع ما سبق بيانه في أهمية الموضوع.
٢. الرغبة في خدمة علوم الشيخ السعدي، بإظهار بعض كنوزها، وكشف شيء من مخبآتها.
٣. لفت أنظار طلبة العلم إلى تصانيف الشيخ السعدي عامة، وما كتبه في علوم القرآن خاصة، ففيها من التقعيد والتأصيل والاستنباط والفوائد ما لا يوجد في غيرها.

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس، على التفصيل الآتي:

- المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطّة البحث، ومنهج البحث.
- التمهيد، وفيه: بيان حاجة المفسِّر إلى تنوع المعارف.
- صُلب الموضوع، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معرفة الشيخ السعدي بعلوم المقاصد، وأثر ذلك على تفسيره، وتحته تمهيد وستة مطالب:

التمهيد: في بيان انقسام العلوم إلى مقاصد ووسائل.

المطلب الأول: معرفته بعلم التفسير، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الثاني: معرفته بعلم الحديث، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الثالث: معرفته بعلم العقيدة، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الرابع: معرفته بعلم الفقه، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الخامس: معرفته بعلم السيرة، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب السادس: معرفته بعلم السلوك، وأثر ذلك على تفسيره.

المبحث الثاني: معرفة الشيخ السعدي بعلوم الآلة، وأثر ذلك على تفسيره، وتحته خمسة مطالب:

المطلب الأول: معرفته بعلم أصول التفسير، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الثاني: معرفته بعلم النحو، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الثالث: معرفته بعلم أصول الفقه، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الرابع: معرفته بعلم القواعد الفقهية، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الخامس: معرفته بعلم مقاصد الشريعة، وأثر ذلك على تفسيره.

الخاتمة: وتتضمن نتائج البحث وتوصياته.

الفهارس: وتتضمن فهرسًا للمصادر، وآخر للموضوعات.

منهج البحث:

١. الاعتماد على أصح طبعات كتب الشيخ السعدي.

٢. الاستفادة من كل كتب الشيخ السعدي المتعلقة بالتفسير، وعدم الاقتصار على تيسير الكريم الرحمن الذي ينصرف إليه الذهن عادة عند إطلاق تفسير

السعدي.

٣. الاستشهاد بنص كلام الشيخ السعدي في بيان مطالب البحث -ولو طال النقل- لكون ذلك أعظم أثرًا وأقوم طريقًا في بيان المقصود.

٤. عزو الآيات إلى سورها مع ذكر رقم الآية في المتن.

٥. توثيق المعلومات من مصادرها الأصيلة.

التمهيد

العلوم الإسلامية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية أو خادمة لهما مُعينة على فهمهما، ومن ثَمَّ اشتدت حاجة طالب العلم الشرعي إلى الأخذ من كل علم من العلوم النافعة المعينة على فهم الشريعة بطرف صالح يمكّنه من المشاركة في الفهم والمناقشة والترجيح بين مختلف الأقوال، وييسر له مراجعة كتب العلماء المتقدمين وفهم عباراتهم واصطلاحاتهم.

أوصى خالد بن يحيى بن برمك ابنَه، فقال: «يا بُنَي: خُذ من كل علم بحظ؛ فإنك إن لم تَعلم جهلتَ، وإن جهلتَ شيئًا من العلم عاديتَه، وعزيزٌ عليَّ أن تُعاديَ شيئًا من العلم»[(١)].

وقال أبو حامد الغزالي في سياق ذكره آداب المتعلم: «ألا يَدَع طالب العلوم فنّا من العلوم المحمودة ولا نوعًا من أنواعها إلا وينظر فيه، نظرًا يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه، وتطرّف من البقية؛ فإن العلوم متعاونة، وبعضها مرتبط بالبعض»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني: «لا ينبغي لعاقل أن يستهين بشيء من العلوم، بل يجب أن يجعل لكل واحد حظه الذي يستحقه، ومنزلته التي يستوجبها»[(٣)].

والمتخصص في التفسير أعظم حاجة من غيره إلى تنوع المعارف وتعدد الفنون؛ لما يتميز به علم التفسير من سعة كبيرة جدّاً لا توجد في غيره من العلوم الإسلامية، فموضوع علم التفسير كتاب الله تعالى، وهذا الكتاب العظيم جعله الله

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: (رقم: ٨٥٣).

(٢) إحياء علوم الدين: (١/ ٢٩١).

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة: (ص: ٢٧١).

تبيانًا لكل شـيء، فمتعلقات آيات القرآن الكريم تحوي أنواع العلوم المختلفة، ولا يتأتى لطالب التفسير الفهم الدقيق في القرآن إلا بمشاركة حسنة في العلوم والمعارف التي تتعلق بها آيات القرآن.

قال ابن عطية: «كتاب الله تعالى لا يتفسَّر إلا بتصريف جميع العلوم فيه»[١].

وقال محمد الأمين الشـنقيطي: «في القرآن كل شيء، والناس إنما يأخذون منه بقدر اسـتعداد أذهانهم، كلٌّ يغرف بحسب فهمه، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي جحيفة أنه لما سـأل عليـاً -رضي الله عنه-: (هل خصكم رسـول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في كتاب الله). فقول علي -رضي الله عنه- يُفهَم منه: أن من أعطاه الله فهمًا في كتاب الله يُخَصُّ بخصائص من العلوم لم يُخَصَّ بها غيره، وما ذلك إلا أن القرآن جمع كل شـيء، منه ما يطّلع عليه الراسـخون في العلم، ومنه ما يعلمه النبي، ومنه ما لا يعلمه إلا الله»[٢].

وقد تحدث كثير من العلماء عن شـروط المفسِّـر، وفصّلوا في عدّ هذه العلوم ومدى حاجة المفسِّر لكلٍّ منها؛ حماية لجناب الكتاب العظيم من أن يقتحم أسوار الكلام في تأويله الجهال وأنصاف المتعلمين.

قـال الراغب: «جملـة العلوم التي هي كالآلة للمفسِّـر، ولا تتم صناعة إلا بها، هي هذه العشرة: «علم اللغة، والاشتقاق، والنحو، والقراءات، والسِّيَر، والحديث، وأصول الفقه، وعلم الأحكام، وعلم الكلام، وعلم الموهبة. فمن تكاملت فيه هذه العشـرة واستعملها خرج عن كونه مفسِّـرًا للقرآن برأيه، ومن نقص عن بعض ذلك

---

(١) المحرر الوجيز: (١/ ٧٣١).

(٢) العذب النمير: (١/ ٧١٢).

مما ليس بواجب معرفته في تفسير القرآن، وأحس من نفسه في ذلك بنقصه، واستعان بأربابه، واقتبس منهم، واستضاء بأقوالهم. لم يكن إن شاء الله من المفسرين برأيهم»[١].

وقال ابن جُزَي: «اعلم أن الكلام على القرآن يستدعي الكلام في اثني عشر فنًّا من العلوم، وهي: التفسير، والقراءات، والأحكام، والنسخ، والحديث، والقصص، والتصوف، وأصول الدين، وأصول الفقه، واللغة، والنحو، والبيان.

فأما التفسير: فهو المقصود لنفسه، وسائر هذه الفنون أدوات تُعين عليه، أو تتعلق به، أو تتفرّع عنه»[٢].

وقال السعدي: «النظر لسياق الآيات، مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصًا إذا انضمَّ إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها»[٣].

والقصد بهذه النقول التأكيد على المعنى الذي قَدَّمتُه من حاجة المفسِّر إلى المشاركة في علوم متعددة، ولذلك لم أشأ إطالة الكلام بمناقشة الأقوال والتنبيه على ما في بعض تفاصيلها من النظر.

ولا بد لطالب علم التفسير مع حرصه على التفنن في العلوم أن لا يغفل عن التدقيق في تخصصه، وتحرير مسائله، وحَلِّ إشكالاته.

قال الشافعي: «من تَعَلَّم علمًا فليُدَقِّق فيه؛ لئلا يضيع دقيق العلم»[٤]. وقال

(١) جامع التفاسير: (ص: ٦٩).

(٢) التسهيل: (١/ ٤٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٤).

(٤) المدخل إلى علم السنن: (رقم: ٦١٤).

ابن تيمية: «من اجتمع هَمُّه على شيء واحد كان أبلغَ فيه ممن تفرق هَمُّه في أعمال متنوعة»[1].

(١) منهاج السنة: (٣/ ٩٢).

المبحث الأول

معرفة الشيخ السعدي بعلوم المقاصد، وأثر ذلك على تفسيره، وفيه تمهيد ومطالب:

التمهيد: بيان انقسام العلوم إلى مقاصد ووسائل.

المطلب الأول: معرفته بعلم التفسير، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الثاني: معرفته بعلم الحديث، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الثالث: معرفته بعلم العقيدة، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الرابع: معرفته بعلم الفقه، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الخامس: معرفته بعلم السيرة، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب السادس: معرفته بعلم السلوك، وأثر ذلك على تفسيره.

تمهيد

تعارف العلماء على تقسيم العلوم إلى قسمين:

١. علوم مقاصد وغايات.

٢. علوم وسائل وآلات.

فعلوم المقاصد: ما يُدرَس لذاته، ويندرج تحته: علم العقيدة، وعلم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلم السيرة النبوية، وعلم السلوك وتزكية النفس.

وعلوم الوسائل: ما يُدرَس لغيره، والمراد بـ(الغير) هنا: علوم المقاصد، فعلوم الوسائل -كما هو ظاهر من تسميتها- إنما تتعلم لأجل فهم علوم المقاصد وإتقان معرفتها.

ويندرج تحت علوم الوسائل: علوم اللغة (وأهمها: النحو، والصرف، والبلاغة، واللغة)، وأصول التفسير، وأصول الحديث، وأصول الفقه، والمنطق، وغيرها.

«فأمّا العلوم الّتي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل، واستكشاف الأدلّة والأنظار؛ فإنّ ذلك يزيد طالبها تمكّنا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة. وأمّا العلوم الّتي هي آلة لغيرها مثل العربيّة والمنطق وأمثالهما فلا ينبغي أن ينظر فيها إلّا من حيث هي آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسّع فيها الكلام ولا تفرّع المسائل؛ لأنّ ذلك مخرج لها عن المقصود؛ إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير، فكلّما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود، وصار الاشتغال بها لغوًا، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها، وربّما يكون ذلك عائقًا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذّات لطول وسائلها، مع أنّ شأنها أهمّ، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصّورة، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآليّة

تضييعًا للعمر وشغلا بما لا يغني»[1].

إذا تقرر هذا فإن الشيخ السعدي كان له عناية فائقة بعلوم المقاصد، من تفسير، وحديث، واعتقاد، وفقه، وسيرة، وسلوك، وسأرتب الكلام في ذلك باختصار مناسب للمقام.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: (ص: ١٠٦).

المطلب الأول

معرفته بعلم التفسير، وأثر ذلك على تفسيره.

التفسير: شرح القرآن وبيان معانيه[1].

ويُعَدُّ الشيخ السعدي من علماء التفسير العارفين به، وله عناية بالقرآن وعلومه بزَّ بها أقرانه، وسبق بها أهل زمانه في القُطْر النجدي على وجه الخصوص.

وهو أول عالِم نجدي نال شرف كتابة تفسير كامل للقرآن الكريم بهذه الطريقة الفريدة في سبكه وجودته، فكان له بذلك سبق تاريخي يُضاف إلى سجل إنجازاته العلمية الكثيرة[2].

ولا تكاد تقرأ كتابًا للسعدي إلا وتجد نَفَس العالِم القرآني الذي يربط ما يتناوله من موضوعات بمنهج القرآن وأسلوبه في تناول الموضوعات، فهو مستحضر لآيات القرآن ومعانيها الإجمالية والتفصيلية، ويوظف ذلك أحسن ما يكون فيما يطرقه من موضوعات.

وكان يُقرَأ عليه في دروسه في التفسير: تفسير ابن كثير، وتفسير الجلالين، وتفسيره.

واعتنى أيضًا بالتأليف في هذا الفن، فكتب في التفسير الإجمالي: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، وهو أشهر كتبه وأغزرها فوائد، وبه عُرِف الشيخ واشتهر، وأصل هذا الكتاب: دروس كان يُلقيها الشيخ على طلابه في مجلس بعد صلاة المغرب[3]، وطريقة الدرس: أن تُقرَأ بعض الآيات على الشيخ، ثم يشرع الشيخ في تفسيرها بما فتح الله عليه، ثم إذا انتهى من الدرس ورجع إلى بيته دَوَّن ما

(١) انظر: تفسير ابن جزي: (١/ ٤٧)، أصول في التفسير لابن عثيمين (ص: ٨٢).

(٢) ذكر هذه الأولية الشيخ بكر أبو زيد في مقدمته لتيسير الكريم الرحمن: (١/ و).

(٣) ذكر ذلك الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي في مقدمة دروسه في التعليق على تفسير السعدي.

ألقاه في دفاتر، حتى اكتمل تفسيره على هذه الهيئة التي بين أيدينا، قال تلميذه الشيخ عبد الله العقيل: «وقد رأيتُ بعض النسخ القديمة المخطوطة، رأيتها بخطه في دفاتر، وكل دفتر مذكور فيه تاريخ تصنيفه»[1].

وكتب في التفسير الموضوعي: «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن»، وقصد به أن يكون مختصرًا لكتابه «تيسير الكريم الرحمن».

وفي التفسير الموضوعي أيضاً على نمط مختلف عن الكتاب السابق: «فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأحكام المستنبطة من القرآن».

وله رسائل بناها على ما استنبطه من دلائل القرآن، أولها: « المواهب الربانية من الآيات القرآنية» كتبها في شهر رمضان من عام ١٣٤٧هـ.

ومنها: «فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام».

ومنها: «الدلائل القرآنية في أن العلوم والأعمال النافعة والعصرية داخلة في الدين الإسلامي».

وقد كان لمعرفة الشيخ السعدي بعلم التفسير الأثر الحميد على ما كتبه، ويتجلى ذلك من خلال الآتي:

أولًا: سلوك المنهج الصحيح في تفسير آيات القرآن.

ثانيًا: القدرة على سبك العبارة التفسيرية بطريقة سهلة ممتنعة.

ثالثًا: التركيز على بيان معاني الآيات القرآنية بطريقة مباشرة، دون الخوض في تفصيلات العلوم الأخرى.

رابعًا: صياغة المعنى بأسلوب جامع لمتفرق الأقوال التي تعد من قبيل خلاف التنوع.

(١) الشيخ السعدي كما عرفته، مجموعة الشيخ العلامة عبد الله بن بن عقيل العلمية: (٦/ ٣٣).

خامسًا: التمكن من الكتابة في أكثر من لون من ألوان التفسير باقتدار، فقد كتب الشيخ السعدي بطريقة التفسير الإجمالي، وكتب بطريقة التفسير الموضوعي، وتفنن في ذلك وأبدع وأمتع.

المطلب الثاني
معرفته بعلم الحديث، وأثر ذلك على تفسيره

لا يخفى على المطالع لسيرة السعدي وتراثه مشاركته في الحديث النبوي فقهًا ودراية واستنباطًا، وتأثير ذلك على علمه بصفة عامة يلحظها كل متأمل في المنهج العلمي له مقارنة بعلماء عصره وقُطْره.

قال السعدي: «أخذتُ عن شيخنا الشيخ صالح بن عثمان القاضي الكتب الستة بتمامها، وذلك في عنيزة سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة وألف، وأذن لي شيخنا المذكور بروايتها عنه»[1].

وكان للسعدي دروس في الحديث في «بلوغ المرام» للحافظ ابن حجر، وفي «المنتقى من أخبار المصطفى» للإمام المجد ابن تيمية.

وصنَّف في فقه الحديث النبوي واستنباط الفوائد منه: «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار»، وهو عبارة عن تسعة وتسعين حديثًا من الأحاديث الجوامع التي هي بمثابة القواعد والضوابط التي تندرج تحتها كثير من الفروع في أبواب مختلفة من العلم، شرح الشيخ هذه الأحاديث بطريقة الشرح الإجمالي الذي يحرص فيه على بيان المقاصد دون الإغراق في التحليل اللفظي،

(١) الإجازات التي نالها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، لهشام السعيد (ضمن مجموع ابن سعدي: ١/ ٠٨).

على وجه مختصر مفيد ممتع.

وللشيخ السعدي أيضًا شرحٌ للمتن الحديثي المشهور: «عمدة الأحكام» أملاه على تلميذه الشيخ عبد الله بن محمد العوهلي، وهو شرح مختصر يعتني بمقاصد الأحاديث وبيان ما تدل عليه بإيجاز.

وقد كان لعناية الشيخ السعدي بعلم الحديث أثر حسن على تفسيره، كما يتجلى ذلك من خلال الآتي:

أولًا: الصبغة الأثرية التي تحلى بها تفسيره، من حيث تعظيم النصوص، وعدم تجاوزها إلى الرأي المجرد عن الدليل.

ثانيًا: الاستفادة من السنة النبوية في بيان معاني القرآن، ولا يخفى أن السنة بيان للقرآن وتفصيل لما أُجمِل فيه.

ولا يلتزم الشيخ بذكر نصوص الأحاديث في ذلك كما يصنع الحافظ ابن كثير، لكنه يدمج ذلك في أثناء كلامه بما يتناسب مع أسلوبه في التفسير الإجمالي أو الموضوعي بالطريقة المختصرة التي توخاها في تآليفه.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم الحديث في تفسيره ما يلي:

قال السعدي: «المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباء» حتى قال الله فيه: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة:١٠٨]، ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان صلى

الله عليه وسلم يزور قباء كل سبت يصلي فيه[١]، وحث على الصلاة فيه[٢]»[٣].

المطلب الثالث

معرفته بعلم العقيدة، وأثر ذلك على تفسيره.

تأثر الشيخ السعدي تأثرًا كبيرًا بالإمامين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، ومن أبرز ما اكتسبه من هذا التأثر: سلوك طريقة السلف الصالح في مسائل الاعتقاد على ضوء ما قرراه في كتبهما، وانتصرا له، ودافعا عنه، وقد سار على المنهج نفسه واتبع الطريقة ذاتها حذو القذة بالقذة.

وأبرز متون العقيدة التي درّسها لطلابه: كتاب التوحيد، والطحاوية، والواسطية.

وصنّف السعدي في علم العقيدة عدة كتب، فله تعليق مختصر على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب سماه: «القول السديد في مقاصد التوحيد» قَدّم له بمقدمة تضمنت مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة، ثم عَلّق على أبواب الكتاب بإيجاز يحوي خلاصة ما تضمنه الباب، وقد يعلّق على أكثر من باب بتعليق واحد يشملها جميعًا، وقال في خاتمة الكتاب: «هذا آخر التعليق على كتاب التوحيد، وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد، ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول، وبه تقوم العلوم كلها»[٤].

وله تعليق مختصر على العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، سماه:

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٩٣) ومسلم (١٣٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) وذلك ببيان أن «الصلاة في مسجد قباء كعمرة» أخرجه الترمذي (٣٢٤) عن أسيد الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ٦٨٦).

(٤) (ص: ٢٢٧).

«التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة»، قال في مقدمته: «فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ(الواسطية) التي جمعت على اختصارها ووضوحها جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة، وهي وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني تحتاج إلى تعليق، يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبين وجه دلالتها على المقصود، وبيان ارتباط بعض المسائل ببعض، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد، والإشارة إلى بعض آثارها وفوائدها في القلوب والأخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج التنبيه إليه»[1].

وغير ذلك من المؤلفات الدالة على تضلعه في علم الاعتقاد، وتمكنه فيه.

ويتجلى أثر إتقان السعدي لعلم الاعتقاد على تفسيره من خلال الآتي:

أولًا: كان إتقان الشيخ السعدي لعلم الاعتقاد على منهج السلف الصالح عاصمًا له بفضل الله من الزلل الذي طرأ على تفاسير كثير من أهل العلم، حتى عد بعض العلماء ذلك أهم ميزات تفسيره.

قال تلميذه الشيخ عبد الله العقيل: «هذا التفسير من أنفع التفاسير وأقربها إلى الفهم؛ لسهولة عباراته، فهي سهلة المباني، واضحة المعاني، خالية من التعقيد والإسرائيليات ومشاكل الإعراب وذكر الخلاف، وأهم ذلك: سلامته من تأويل آيات الصفات، حيث يفسرها على منهج السلف»[2].

ووصف الشيخ بكر أبو زيد تفسير السعدي بأنه «تفسير مأمون جارٍ على طريقة

---

(١) (ص: ٣١).

(٢) مقدمة تحقيق تيسير الكريم الرحمن، ط: دار ابن الجوزي، (١/ أ).

السلف»[1].

ثانيًا: أن الشيخ السعدي تحدّث في أبواب عقدية مختلفة وفق منهجية أهل السنة والجماعة في تناولها وبحثها.

ثالثًا: ردُّ الشيخ السعدي على المخالفين في الاعتقاد من خلال تفسيره للقرآن، بعبارات مختصرة متناسبة مع طبيعة تفسيره.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم العقيدة في تفسيره ما يلي:

١. بيّن الشيخ في تفسيره لسورة الفاتحة خلاصة معتقد أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، فقال: « واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها: الإيمان بأسماء الله وصفاته وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلًا بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم به كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء، فإن الله قد أثبت لنفسه الأسماء الحسنى والصفات العليا وأحكام تلك الصفات، فمن أثبت شيئًا منها ونفى الآخر كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضًا مُبطِلا.»[2].

وسار الشيخ على مقتضى هذا الأصل العظيم في تفسيره كله، ومن أمثلة ذلك: إثباته صفة الاستواء لله تعالى، وعبر عن ذلك بقوله: « استواء يليق بجلاله ويناسب كماله»[3].

فالشيخ السعدي كما يتبين من منهجه في تفسيره يثبت لله تعالى أسماءه الحسنى

---

(١) المرجع السابق، ط: دار ابن الجوزي، (١/ ج)

(٢) المرجع السابق: (١/ ١٣)، تيسير اللطيف المنان: (ص: ١١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ٠٢٨).

كما وردت في الكتاب والسنة، ويثبت له تعالى صفاته العلى على ما يليق بجلاله وعظمته، من غير تمثيل بصفات المخلوقات ودون تعطيل لها ونفي لمدلولاتها.

٢. في باب القَدَر، حيث ذكر الشيخ أصل أهل السنة في ذلك، فقال في فوائد سورة الفاتحة: «وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية»[١]. وهكذا بيّن الشيخ في هذه العبارة الموجزة توسّط أهل السنة والجماعة في باب القدر -كغيره من أبواب العقيدة- بين القدرية الذين يقولون باستقلال العبد في اختياره، وينفون خلق الله لأفعال العباد، وبين الجبرية الذين يقولون بأن العبد مُجبَر على أفعاله، وأنه لا مشيئة له ولا اختيار.

٣. إثبات أن للسحر حقيقة وتأثيرًا، حيث ذكر الشيخ في فوائد سورة الفلق دلالتها «على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله»[٢]. وفي كلام الشيخ في هذا الباب رد على المعتزلة ومن نحا منحاهم من المعاصرين المتأثرين بهم في نفي السحر وإنكار وجوده.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٤٣).

(٢) المرجع السابق: (٤/ ١٠٠٢).

المطلب الرابع

معرفته بعلم الفقه، وأثر ذلك على تفسيره.

كان هذا العلم أجلّ فنون الشيخ السعدي، وأعظم ما عنده، فيمكن أن يُقال: إن الفقه تخصصه، وبقية العلوم كان مشارِكًا فيها بدرجات متفاوتة.

درس الشيخ السعدي الفقه الحنبلي، وحفظ فيه متن دليل الطالب، وتبحر في معرفة مسائله من خلال الكتب المعتمدة في المذهب، كالروض المربع شرح زاد المستقنع، ومنتهى الإرادات والإقناع وشروحهما وحواشيهما.

وصَنّف فيه مصنفات كثيرة، منها: «إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب» و«منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين»، و«المختارات الجلية من المسائل الفقهية».

ويتجلى أثر إتقان السعدي لعلم الفقه على تفسيره من خلال الآتي:

أولًا: حسن بيانه للآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، وتفسيرها على نحو يجمع بين الدقة والوضوح، فيعطي القارئ خلاصة المسألة من خلال تفسير الآيات، دون إغراق في تفاصيل وخلافيات تخرج المفسِّر عن وظيفته الأساسية في بيان معاني القرآن الكريم.

ثانيًا: قدرة الشيخ السعدي على بيان أي مسألة فقهية واردة في القرآن، سواء تعلقت بالعبادات أو المعاملات أو الأنكحة أو الجنايات، وهي مايمثّل أرباع الفقه المعروفة حسب تقسيم فقهاء الحنابلة، فلا يشعر القارئ بأن تمكن الشيخ الفقهي يتفاوت من باب إلى آخر، بل يجده على نمط واحد.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم الفقه في تفسيره ما يلي:

١. «واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾[النساء:٤٣]

هل المراد بذلك الجماع؟ فتكون الآية نصا في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة، أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد؟ ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك»[1].

٢. «وقوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة:٣] راجع لهذه المسائل، من منخنقة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة، وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة؛ لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه؛ لعدم فائدة الذكاة فيها، وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة، فإذا ذكاها وفيها حياة حلّت ولو كانت مبانة الحشوة، وهو ظاهر الآية الكريمة»[2].

٣. «وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم= أعطي من الزكاة؛ لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله، وقالوا أيضًا: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه. وفيه نظر»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٩٠٣).

(٢) المرجع السابق: (١/ ٣٩٣).

(٣) المرجع السابق: (٢/ ٢٦٦).

المطلب الخامس

معرفته بعلم السيرة، وأثر ذلك على تفسيره.

الأصل أن العلم بالسيرة فرع عن العلم بالسنة النبوية، ولكن أئمة الإسلام أولوا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عناية خاصة من حيث السرد التاريخي لأحداثها، ومن حيث فقهها واستنباط الفوائد منها، والقارئ لكتب الشيخ السعدي يلحظ مشاركته في هذا العلم الشريف وإلمامه به تاريخًا وفقهًا، وحثه طلاب العلم الراغبين في تدبر القرآن وفهم كلام الرحمن على دراسة السيرة النبوية، وهي معدودة عنده من أهم علوم المفسِّر، وفي الإلمام بها أعظم العون على فهم كتاب الله[1].

والإلمام بالسيرة النبوية ضروري للمفسّر من جهتين:

أولًا: أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تطبيق عملي لهدي القرآن الكريم.

ثانيًا: أن عددًا من سور القرآن وآياته لها تعلق مباشر بأحداث السيرة النبوية، ولا تُفهَم الآيات على وجهها فهمًا تفصيليا دقيقًا، إلا بالإحاطة بتلك الأحداث والوقائع.

ويتجلى أثر إتقان السعدي لعلم السيرة على تفسيره من خلال الآتي:

أولًا: قدرته على بيان تفاصيل الأحداث التاريخية لما ورد في القرآن على سبيل الإجمال، ولهذا أثره الكبير في توضيح معاني الآيات بشكل مستوفى.

ثانيًا: الربط بين علمي التفسير والسيرة، وإمداد كل منهما بما يحتاجه من العلم الآخر، سواء من ناحية تفصيل الحدث التاريخي، أو من جهة فقه الواقعة التاريخية وما تتضمنه من فوائد.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٤)، تيسير اللطيف المنان: (ص: ٣٨٢)، القواعد الحسان (ص: ٣/ ٠٥٣).

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم السيرة في تفسيره ما يلي:

١. «وفي السنة الثانية أيضا كانت وقعة بدر، وسببها: أن عيرًا لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام، خرج النبي صلى الله عليه وسلم بمن خف من أصحابه لطلبها، فخرجت قريش لحمايتها، وتوافوا في بدر على غير ميعاد، فالعير نجت، والنفير التقوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكانوا ألفًا كاملي العدد والخيل، والمسلمون ثلاث مئة وبضعة عشر على سبعين بعيرًا يعتقبونها، فهزم الله المشركين هزيمة عظيمة، قتلت سرواتهم وصناديدهم، وأُسر من أسر منهم، وأصاب المشركين مصيبة ما أُصيبوا بمثلها، وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها سورة الأنفال، وبعدما رجع إلى المدينة منها مظفرًا منصورًا ذَلَّ من بقي ممن لم يُسلم من الأوس والخزرج، ودخل بعضهم في الإسلام نفاقًا، ولذلك جميع الآيات التي نزلت في المنافقين إنما كانت بعد غزوة بدر»[١].

٢. «في السنة الثالثة كانت غزوة أحد، غزا المشركون وجيّشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة، وخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه وعبأهم ورتبهم، والتقوا في أحد عند الجبل المعروف شمالي المدينة، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشركين، ثم لما ترك الرماة مركزهم الذي رتبهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهم: «لا تبرحوا عنه ظهَرنا أو غُلبنا، وجاءت الخيل مع تلك الثغرة، وكان ما كان، حصل على المسلمين في أُحد مقتلة أكرمهم الله بالشهادة في سبيله، وذكر الله تفصيل هذه الغزوة في سورة آل عمران، وبسط متعلقاتها، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يعين على فهم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات»[٢].

(١) تيسير اللطيف المنان: (ص: ١٩٢).

(٢) المرجع السابق: (ص: ٢٩٢).

٣. «في سنة ست من الهجرة اعتمر صلى الله عليه وسلم وأصحابه عمرة الحديبية، وكان البيت لا يُصَدُّ عنه أحد، فعزم المشركون على صد النبي صلى الله عليه وسلم عنه، ولما بلغ الحديبية، ورأى المشركين قد أخذتهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال، دخل معهم في صلح؛ لحقن الدماء في بيت الله الحرام، ولما في ذلك من المصالح، وصار الصلح على أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم عامه هذا ولا يدخل البيت، ويكون القضاء من العام المقبل، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشر سنين، فكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين توهموا أن فيه غضاضة على المسلمين، ولم يطلعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة، فرجع صلى الله عليه وسلم عامه ذلك، وقضى هذه العمرة في عام سبع من الهجرة، فأنزل الله في هذه القضية سورة الفتح بأكملها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]»[1].

ويلاحظ القارئ لهذه الأمثلة وغيرها في تفسير السعدي أنه مُلِمٌّ بعلم السيرة النبوية تاريخًا وفقهًا، وأن اختصار تفسيره لم يمنعه من الحديث عن بعض أحداث السيرة؛ لتعلقها المباشر بالآيات التي يفسّرها.

---

(١) المرجع السابق: (ص: ٣٩٢).

المطلب السادس

معرفته بعلم السلوك، وأثر ذلك على تفسيره.

يُعَدُّ هذا العلم من أهم العلوم وأعلاها شأنًا؛ لأن المقصود به أن يصل العبد إلى مرتبة الإحسان.

وقد ظهرت عناية الشيخ الفائقة بهذا العلم من خلال المعاني التي بثها في تفسيره للقرآن، وشرحه للأحاديث النبوية، وكلامه في الاعتقاد، وتأصيله في الفقه، فلا يكاد يخلو كتاب له من اللفتات الإيمانية والإشارات السلوكية التي تحيي القلوب، وتزكي النفوس، بمنهج متزن متوافق مع النصوص الشرعية، بعيد عن شطط غلاة الصوفية المعلوم فساده وانحرافه.

ومما كتبه السعدي في هذا العلم رسالة مختصرة نفيسة سمّاها: «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»، وقد جعلها في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في حدّ الإيمان وتفسيره، وزيادته ونقصه.

الفصل الثاني: في ذكر الأمور التي يُستَمَدُّ منها الإيمان، وبيانها بالإجمال والتفصيل.

الفصل الثالث: في فوائد الإيمان وثمراته.

و احتفى الشيخ بهذا العلم في كتبه احتفاءً بالغًا، ولذلك يتفق كل من يقرأ في كتبه أنَّ النَّفَس الإيماني فيها ظاهرٌ جدّاً.

ويتجلى أثر إتقان السعدي لعلم السلوك على تفسيره من خلال الآتي:

أولًا: توضيحه وبيانه للمعاني السلوكية التي تتضمنها كثير من الآيات، ككلامه على فقه الأسماء الحسنى، وكلامه على أعمال القلوب ومفسدات القلوب، والتحلي بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق.

ثانيًا: بحثه لمسائل هذا العلم بأسلوب سلس ميسر، وتجنّبه الخوض فيما أشكل من مصطلحات هذا العلم الواردة في كثير من كتبه، مع تسهيله العبارة بطريقة يستفيد منها كل من يقرأ كلامه وينتفع به.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم السلوك في تفسيره ما يلي:

١. «لما كان الصبر يُستَمدُّ من القيام بطاعة الله والإكثار من ذِكره أمر الله بذلك، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان: ٢٥] أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك، الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات».(١).

٢. «لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك، فقال: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]. أي: ألم يجئ الوقت الذي تلين به قلوبهم وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؟! وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، ﴿فَقَسَتْ

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٤/ ٢٩١٠).

قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزل الله، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجمود العين».[1].

٣. «ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الأوقات بقوة الإخلاص لله، والنصح لعباد الله، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر بقوة لا يلحقها شيء من الأعمال، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب، وبقية الأعمال تبع لها، فأهل الإخلاص والإحسان والذكر هم السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٤/ ١٧٧٩).

(٢) تيسير اللطيف المنان: (ص: ٦٢٣).



المبحث الثاني
معرفة الشيخ السعدي بعلوم الآلة، وأثر ذلك على تفسيره.

وتحته مطالب:

المطلب الأول: معرفته بأصول التفسير، وأثر ذلك على تفسيره

المطلب الثاني: معرفته بعلم النحو، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الثالث: معرفته بعلم أصول الفقه، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الرابع: معرفته بعلم القواعد الفقهية، وأثر ذلك على تفسيره

المطلب الخامس: معرفته بمقاصد الشريعة، وأثر ذلك على تفسيره.

المطلب الأول

معرفته بعلم أصول التفسير وأثر ذلك على تفسيره.

علم أصول التفسير من المعارف الأساسية لمن يتصدّى لتفسير القرآن الكريم، والمطالع لتفسير السعدي يدرك إلمامه بهذا العلم وتوظيفه له بمنهجية علمية صحيحة.

وقد كتب الشيخ في هذا العلم كتابه النافع المشهور: «القواعد الحِسان لتفسير القرآن».

ويتجلى أثر إتقان السعدي لعلم أصول التفسير على تفسيره من خلال الآتي:

أولًا: تطبيقه لقواعد هذا العلم في تفسيره.

ثانيًا: ترجيحاته المتينة في المعاني التي اختلف فيها المفسّرون.

ثالثًا: تجنّبه الروايات الإسرائيلية، وعدم اعتماده لها مصدرًا للتفسير.

رابعًا: اعتداله في باب النسخ في القرآن، وعدم مصيره إليه إلا عند تعذّر الجمع بين النصوص.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم أصول التفسير في تفسيره ما يلي:

١. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة: ٢٤٠]

«اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة نسختها الآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وأن الأمر كان على الزوجة أن تتربص حولًا كاملًا،

ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر، ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة: أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول؛ لأن شرط الناسخ أن يتأخر عن المنسوخ. وهذا القول لا دليل عليه، ومن تأمل الآيتين اتضح له أن القول الآخر في الآية هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشرًا على وجه التحتيم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم حولًا كاملا، جبرًا لخاطرها، وبرّاً بميتهم، ولهذا قال: ﴿-------﴾ أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها، فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحبت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿--------------﴾ أي: من التجمل واللباس، لكن الشرط: أن يكون بالمعروف الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار»[(١)].

٢. ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠] .

«يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى عنه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم؛ لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الذي أرسلت به ﴿هُوَ الْهُدَى﴾، وأما ما أنتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ . فهذا فيه النهي العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أمته داخلة في ذلك؛ لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[(٢)].

(١) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٩٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٩٨).

٣. «واعلم أن كثيرًا من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزّلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله، محتجين بقوله صلى الله عليه وسلم: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)، والذي أرى: أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزّلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرًا لكتاب الله قطعًا إذا لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن مرتبتها كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم «فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكًا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعًا بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل»[1].

(١) المرجع السابق (١/ ٩٦).

المطلب الثاني

معرفته بعلم النحو، وأثر ذلك على تفسيره.

اهتم الشيخ بعلم النحو، ودرسه على بعض شيوخه، ثم درَّسه لطلابه، وكان يشرح لهم في دروسه أشهر المتون المتداولة، وهي: الآجرومية، وملحة الإعراب، وقطر الندى، وألفية ابن مالك.

أما علم الصرف وعلم البلاغة فلم يظهر لي عناية الشيخ بهما عنايته بالنحو -اللهم إلا ما كان من مسائل الصرف المذكورة في متون النحو الآنفة الذكر- وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى العلوم السائدة في القُطْر النجدي في ذلك الوقت، فلو نظرتَ مثلا إلى جدول دروس مفتي المملكة في زمنه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ فلن تجد فيها دروسًا في الصرف أو البلاغة.

ومع ذلك فقد نصَّ الشيخ السعدي على أهمية علوم العربية على اختلاف أنواعها للمفسِّر[1]، وقد قرأ الشيخ السعدي على بعض العلماء في علوم العربية كما ذُكِر إجمالًا في ترجمته، ولا يبعد عندي أن يكون قد قرأ على بعضهم شيئًا من علوم العربية غير النحو، أو يكون قد حَصَّل طرفًا منها بالاجتهاد في المطالعة في بعض كتبها، والله أعلم.

ويتجلى أثر إتقان السعدي لعلم النحو على تفسيره من خلال الآتي:

١. تناوله لما يضطر إلى بحثه من مسائل النحو باختصار مفيد.
٢. إعمال القواعد النحوية في الترجيح، فيما يكون الاختلاف التفسيري فيه راجعًا إلى مسألة نحوية.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم النحو في تفسيره ما يلي:

١. «وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٩] يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود إلى أهل الكتاب،

---

(١) انظر: المرجع السابق: (١/ ٤).

فيكـون على هذا كل كتابي يحضره الموت ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسـى عليه السـلام، ولكنه إيمـان لا ينفع، إيمان اضطرار، فيكون مضمـون هذا: التهديد لهـم والوعيد، وأن لا يسـتمروا على هذه الحال التي سـيندمون عليها قبل مماتهم، فكيـف يكون حالهم يوم حشـرهم وقيامهم؟، ويحتمل أن الضميـر في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنـن بالمسـيح عليه السـلام قبـل موت المسـيح، وذلك يكـون عند اقتراب السـاعة وظهور علاماتها الكبـار؛ فإنه تكاثرت الأحاديـث الصحيحة في نزوله عليه السـلام في آخر هذه الأمة، يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسـى عليهم شـهيدا، يشـهد عليهم بأعمالهم، وهل هـي موافقة لشـرع الله أم لا؟، وحينئذ لا يشـهد إلا ببطلان كل مـا هم عليه، مما هو مخالف لشـريعة القرآن، وَلِمَا دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم، علمنا بذلك لِعِلْمِنَا بكمال عدالة المسـيح عليه السـلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل»[1].

٢. «وقوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور:٣٣] أي: لا يقدرون نكاحا، إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسـيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم، وليس لهم قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير أحسـن من تقدير من قَدَّر: (لا يجـدون مهر نـكاح)، وجعلوا المضاف إليه نائبًا منـاب المضاف، فإن في ذلك محذوريـن: أحدهمـا: الحذف في الـكلام، والأصل عـدم الحـذف. والثاني :كون المعنـى قاصرًا علـى من له حـالان: حالة غنى بمالـه، وحالة عدم، فيَخـرُج العبيد والإماء ومَن إنكاحه على وليه»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٠٨٣).

(٢) المرجع السابق: (٣/ ١١٦٥).

المطلب الثالث

معرفته بعلم أصول الفقه، وأثر ذلك على تفسيره.

برع الشيخ السعدي في هذا العلم، واستفاد منه كثيرًا في تفسيره، وشروحه الحديثية والفقهية، واستنباطه من النصوص الشرعية، وترجيحاته في المسائل العلمية.

وكان يدرِّس طلابه: مختصر التحرير للعلامة ابن النجار، وهو المتن المعتمد في الأصول عند المتأخرين من الحنابلة.

كما صَنَّف الشيخ عددًا من الرسائل المختصرة في أصول الفقه، وهي: «صفوة أصول الفقه المنتخبة من مختصر التحرير»، و«رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه المهمة»[1].

ويتجلى أثر معرفة السعدي بعلم أصول الفقه على تفسيره من خلال الآتي:

١. السير على وفق قواعد علم أصول الفقه في تقرير المسائل والترجيح في الخلاف.

٢. الاستنباط من الآيات بإعمال الدلالات على مختلف أنواعها.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم أصول الفقه في تفسيره ما يلي:

١. ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ

---

(١) ومما يتأكد التنبيه عليه في هذا المقام: أن طبعة دار الميمان لمجموع مؤلفات الشيخ السعدي أُدرِج خلالها كتاب في أصول الفقه بعنوان: «مختصر في أصول الفقه» ونُسِب للشيخ السعدي، ولا شيء يدل على ذلك سوى وجود الكتاب بخط السعدي، وبديهي أن العالِم قد ينسخ بخطه كتبًا لغيره، فلا يمكن أن يكون هذا الأمر بمجرده دليلًا على إثبات نسبة كتاب لأحد من أهل العلم، وقد نُسِب هذا الكتاب من قبل أيضًا للشيخ عبد الله أبا بطين، وهذا خطأ كذلك، والتحقيق أن الكتاب المذكور لأحد علماء الزيدية، وفيه عبارات مستنكرة يستحيل صدورها من العلامة السعدي رحمه الله.

ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك: أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية والحصون والقلاع والخنادق وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلّم الرمي، والشجاعة والتدبير، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا إن القوة الرَّمْيُ)[1] ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته، فإذا كان موجودًا شيء أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال، التي تكون النكاية فيها أشد كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[2].

٢. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: ١٧٨].

«يمتن الله على عباده بأنه فرض عليهم القصاص في القتلى، أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل عمدًا على الصفة التي قتل عليها المقتول؛ إقامة للعدل بين العباد.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧١٩١)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ٦٢٦).

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه من القاتل، وأنه لا يحل لهم أن يحولوا بينه وبين القاتل إذا تمت الشروط كما يفعله أهل الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المُحْدِثين.

ثم بيَّن تفصيل ذلك فقال: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ يدخل بمنطوقها: الذكر بالذكر، ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ والأنثى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدَّمًا على مفهوم قوله: " الأنثى بالأنثى " مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى، وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: ﴿الْقِصَاصُ﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل، أن يقتل الوالد بولده، ولأن في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جدا من الولد له. وخرج من العموم أيضا الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة. وأيضا فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، والعبد بالعبد، ذكرا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودل بمفهومها على أن الحر، لا يقتل بالعبد؛ لكونه غير مساوٍ له...»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ١٣١).

المطلب الرابع

معرفته بعلم القواعد الفقهية وأثر ذلك على تفسيره.

مـن أعظم ما يعين على ضبط الفقه واكتسـاب المَلَكة فيه: دراسـة قواعده بعد الإلمـام بكثير من فروعه؛ لأن هذه القواعد تجمع ما تفرق من الفروع برباط محكم في عبارات موجزة دقيقة.

وقـد ظهـر تمكن الشـيخ في هذا العلـم من خلال كتبـه التي شـملت التأصيل والتطبيق بأسـلوب ميسـر، وهذا متفرّع عن الاهتمام الكبير للسـعدي بقواعد العلم وأصوله وضوابطه عمومًا.

ومما كتبه السعدي في القواعد الفقهية:

١. منظومة القواعد الفقهية، وهي موجزة في نحو خمسـين بيتًا، وله تعليق إجمالي مفيد على أبياتها.

٢. القواعد والأصول الجامعة.

ومن الأثر الحسن لمعرفة السعدي بهذا العلم على تفسيره ما يلي:

أولًا: الاستدلال بالقواعد الفقهية، وردّ الفروع إليها.

ثانيًا: تأصيل عدد من القواعد الفقهية من آيات القرآن الكريم.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم القواعد الفقهية في تفسيره ما يلي:

«ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق؛ احترز منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: مشـقة وعسر، بل يسّـره غاية التيسير، وسهّله بغاية السهولة، فـأولا: مـا أمر وألزم إلا بما هو سـهل على النفـوس، لا يثقلهـا ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف؛ خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط

بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و «الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام».[١].

المطلب الخامس
معرفته بعلم مقاصد الشريعة وأثر ذلك على تفسيره.

الأصل أن بحث موضوع مقاصد الشارع يكون في علم أصول الفقه، لكن «تطور موضوع المقاصد في هذا العصر حتى غدا علمًا مستقلًا داخلًا في مناهج الدراسة في كثير من الكليات الشرعية»[٢].

وللشيخ السعدي باع طويل في التأصيل لمقاصد الشريعة وبيانها وشرحها وإيضاح مسائلها، والتأكيد على أهميتها وضرورة العناية بها[٣].

قال -رحمه الله-: «معرفة مقاصد الشارع، والصفات التي رتب عليها الأحكام الكلية والجزئية، ومعرفة الحِكَم والأسرار في العبادات والمعاملات والحقوق وتوابع ذلك، من أعظم الطرق التي يُعرَف بها كمال الشريعة، وأنها مشتملة على مصالح العباد في دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم، فكلما كان العبد بذلك أعرف، عَرف بذلك من جلالة الشريعة الإسلامية وهيمنتها وشمولها للخيرات والبركات

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٣/ ٩١١١).

(٢) إرشاد القاصد: (ص: ٦).

(٣) صدر عن دار التوحيد عام ١٤٣٧هـ كتاب: «مقاصد الشريعة عند العلامة السعدي» للدكتور جميل يوسف زريوا، وأصل الكتاب رسالة دكتوراة مقدمة لقسم أصول الفقه بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

والعدل والإحسان، ونهيها عن كل ما ينافي ذلك ويضاده»[1].

ومما استفاده السعدي من معرفته بهذا العلم في تفسيره ما يلي:

١. العناية بمقاصد القرآن الكريم والاهتمام بها.

٢. التنبيه على كمال الشريعة وجمالها في أحكامها وتشريعاتها التي تضمنها كتاب الله تعالى.

ومن الأمثلة التي تبين استثمار السعدي لعلم مقاصد الشريعة في تفسيره ما يلي:

١. «فلولا مدافعة الله الناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة، وطرق متنوعة قدرية وشرعية، وأعظمها وأجلها وأزكاها: الجهاد في سبيله لاستولى الكفار الظالمون، ومحقوا أديان الرسل، فقتلوا المؤمنين بهم، وهدموا معابدهم، ولكن ألطاف الله عظيمة، وأياديه جسيمة، وبهذا وشبهه يُعرف حكمة الجهاد الديني، وأنه من الضروريات، لا كقتال الظلمة المبني على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق، بل الجهاد الإسلامي مرماه وغرضه الوحيد: إقامة العدل، وحصول الرحمة، واستعباد الخلق لخالقهم، وأداء الحقوق كلها، ونصر المظلومين، وقمع الظالمين، ونشر الصلاح والإصلاح المطلق بكل وجه واعتبار، وهو من أعظم محاسن دين الإسلام»[2].

٢. قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢].

«هذا حد الزاني غير المحصن من ذكر أو أنثى: يجلد مائة جلدة، جلدات تؤلمه وتزجره ولا تهلكه، ويتعين أن يكون ذلك علنًا لا سرّاً، بحيث يشهده طائفة من المؤمنين؛ لأن إقامة الحدود من الضروريات لقمع أهل الجرائم، واشتهارُها هو

---

(١) مجموع الفوائد: (ص: ٧٢٢).

(٢) تيسير اللطيف المنان: (ص: ٩٠١).

الـذي يحصل به الردع والانزجار وإظهار شـعائر الدين، والاسـتتار به أو على أحد دون أحد فيه مفاسـد كثيرة، ووردت السـنة بتغريب عام كامل عن وطنه مع الجلد، كما تواترت السـنة وأجمع المسلمون على رجم الزاني المحصن، يرجم بالحجارة حتى يموت»[1].

---

(١) المرجع السابق: (ص: ٣٥١).

الخاتمة

الحمد لله، وبعد: ففي خاتمة هذا البحث أذكر أبرز نتائجه وأهم توصياته.

أولًا: نتائج البحث:

١. تفسير القرآن أوسع العلوم الإسلامية، وكلما كان المتصدي للتفسير متضلعًا من العلوم مجيدًا توظيفها في فهم كتاب الله كان أسعد حظًا بالتوفيق للصواب، وأقدر على الإفادة وإبانة المعاني وحل الإشكالات.

٢. جمع الشيخ السعدي سعة العلم، ومتانة التأصيل، وجمال الأسلوب، وجودة التصنيف.

٣. كتب الشيخ تفسيره الكبير: "تيسير الكريم الرحمن" على طريقة التفسير الإجمالي، وتفسيريه الوسيط: "تيسير اللطيف المنان" والوجيز: "فتح الرحيم الملك العلام" على طريقة التفسير الموضوعي.

٤. قصد الشيخ السعدي بتفسيره تسهيل معاني القرآن للناس عمومًا، فتخفف فيه مما أثقل به أكثر المفسرين كتبهم من دقائق العلوم.

٥. كُتب الشيخ السعدي في التفسير من أفضل ما يقرأه العالم والمتعلم من كتب التفسير؛ فقد صاغها بأسلوب سهل ممتنع، يجد فيها العالم بغيته من لطائف المعاني، ويجد فيها غيره ما يحتاجه من معاني القرآن وهداياته.

٦. ساهم تفنن الشيخ السعدي في علوم المقاصد والوسائل في إثراء تفسيره بالفوائد، وإمداده بحسن الفهم ودقة الاستنباط، وإرشاده إلى سديد القول، وحمايته من الزلل.

٧. تميز الشيخ السعدي عن علماء المملكة في وقته بعنايته البالغة بعلم التفسير تدريسًا وتأليفًا، وورث عنه ذلك بعض تلاميذه، خصوصًا الشيخ محمد بن

صالح العثيمين.

ثانيًا: توصيات البحث:

١. إعـادة طباعة مجموع مؤلفات الشـيخ السـعدي طبعة متقنة مدققـة على منهج منضبـط واضح المعالـم، كصنيع مشـروع تحقيق كتب ابن القيـم الذي وضع خطته وأشرف عليه: الشيخ بكر أبو زيد.

٢. نشـر علوم الشـيخ السـعدي بين طلاب العلـم وعامة النـاس، بتدريس كتبه في المسـاجد والمعاهـد والجامعـات، وتقريب مـا احتوته من نفائس بدراسـات كاشفة وبحوث موثقة محررة.

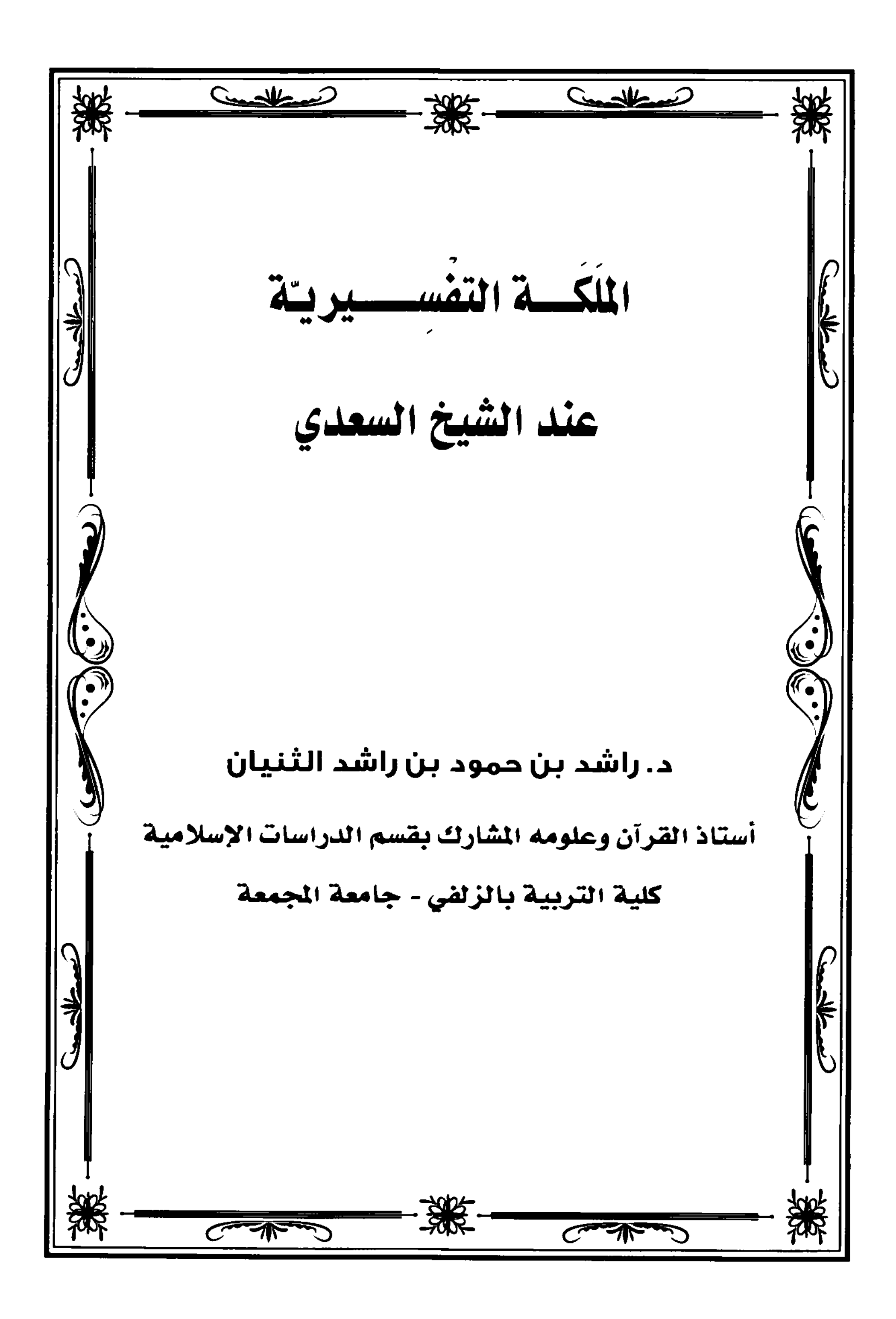
٣. تبنـي المنهج الإصلاحي المتزن والخطاب التجديـدي المنضبط الذي تميز به الشيخ السعدي، وبَذَّ به أقرانه وكثيرًا من علماء عصره.

فهرس المصادر

- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المنهاج، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.
- إرشاد القاصد إلى معرفة المقاصد، يعقوب الباحسين، دار التدمرية، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: علي الصالحي، دار طيبة الخضراء، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ.
- التعليق على القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.
- التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة، عبد الرحمن ابن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ.
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، عبد الرحمن السعدي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.
- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: ياسر المطيري، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي، تحقيق: محمد بن عوض المصري، دار الإمام البخاري، الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ.
- جامع التفاسير، الراغب الأصفهاني، تحقيق: أحمد فرحات، دار الدعوة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، تحقيق: أبو اليزيد العجمي، دار السلام، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

- شرح أصول في التفسير، محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.
- الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي مفسِّرًا، عبد الله بن سابح الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ.
- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرزاق البدر، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.
- القول السديد في مقاصد التوحيد، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: ياسر المطيري، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ.
- المدخل إلى علم السنن، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عوّامة، دار المنهاج، الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ.
- مجموعة الشيخ العلامة عبد الله بن عقيل العلمية، دار الصميعي، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.
- مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السعدي، دار الميمان، الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.
- المختارات الجلية من المسائل الفقهية، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: ماهر الشبل، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ.
- مقاصد الشريعة عند العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي دراسة تأصيلية تطبيقية، جميل يوسف زريوا، دار التوحيد، الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ.

- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: مصطفى شيخ، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الفضيلة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
- منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: محمد الخضيري، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ.
- المواهب الربانية من الآيات القرآنية، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عمر المقبل، دار الحضارة، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.



المَلَكــة التفْسِــيريّة

عند الشيخ السعدي

د. راشد بن حمود بن راشد الثنيان

أستاذ القرآن وعلومه المشارك بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية بالزلفي - جامعة المجمعة

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فالكتابة في ما تميز به العلماء السابقون تحتاج إلى وقت طويل، وجهد كبير للوقوف على شيء يسير من إبداعاتهم، وقراءة فاحصة للاطلاع على بعض ما أُوتوا من ملَكَات علمية، ونظرات ثاقبة في الأحوال والمآلات، ومن هؤلاء العلماء المبرزين الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي المولود في عام ١٣٠٧هـ، توفيت أمه ثم والده قبل سن الثامنة، فنشأ يتيم الأبوين، وحفظ القرآن وعمره إحدى عشرة سنة، جمع الأصول من العلوم، وجلس للتعليم وعمره ثلاث وعشرون سنة، حتى انتهى إليه التدريس في بلده عام ١٣٥٠هـ وعمره ٤٣ سنة، تميّز رحمه الله في الفقه وأصوله، وكان في بداية أمره على مذهب الحنابلة تبعاً لمشايخه، ثم اشتغل بكتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، وصار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي بل ينتهي إلى ما يرجحه الدليل الشرعي، كما قرأ وألف في الحديث والعقائد والأصول والمصطلح وعلوم اللغة وغيرها[1]، وبرع في علم التفسير كثيراً، وكُتِب عنه ما ألقاه على تلاميذه مما فتح الله عليه من البديهة ارتجالاً دون أن يكون عنده وقت للتصنيف، فجمع فيه المعاني والفوائد واللطائف ودقة الاستنباط من الأدلة واللطائف والقصص وغيرها مما هو مبسوط في جميع مصنفاته وكتاباته المتنوعة في جميع العلوم الأصلية والمساعدة، وقد أمضى عمره في العلم والتعليم والتدريس والتأليف حتى آخر حياته، رغم إصابته بالمرض الذي لازمه مدة طويلة حتى قبضه الله عام ١٣٧٦هـ رحمه الله رحمة واسعة.

وقد اعتنى السعدي رحمه الله بعلم التفسير عناية كبيرة، بياناً واستنباطاً وتقعيداً، فكتب تفسيره المشهور: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)،

---

(١) إتحاف النبلاء بسير العلماء ١/ ٤٦.

ثم اختصره في كتاب: (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)، وكَتَب في قواعد التفسير (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن)، وسطّر هداياتٍ جميلة وفوائد لطيفة في كتابه: (المواهب الربانية من الآيات القرآنية) وكتابه: (فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام)، وكتاب: (فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن)، وهذه الكتب من أبرز الكتب القريبة لباب التفسير.

ولِمَا تميّز به السعدي من سلامة المنهج وصحة المعتقد والتزام بمذهب السلف الصالح، كتب الله لها القبول والانتشار، وصارت إضافة قويةً للمكتبة القرآنية.

ومن قرأ في كتب الشيخ السعدي وتفسيره تبين أنه أجاد صنعة المفسر وأحسن توظيفها في بيان معاني كلام الله تعالى، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث في بيان الملكة التفسيرية التي تميز بها الشيخ ابن سعدي رحمه الله.

أهداف البحث:

١- إبراز الملكة التفسيرية عند الشيخ السعدي رحمه الله.

٢- الوقوف على تطبيقات عملية تدل على ذلك.

٣- بيان شيء من ملكة الشيخ السعدي لأصول التفسير.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والسؤال تبين لي كثرة الأبحاث العلمية في ما يتعلق بالشيخ السعدي، ومما وقفت عليه ما يلي:

١- أثر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، للأستاذ: عبدالله بن محمد الطيار. بين فيه آثار السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، من خلال مؤلفاته، وتلاميذه من بعده. طبع في دار

ابن الجوزي بالدمام عام ١٤١٣هـ.

٢- حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي في سطور، جمع وإعداد: أحمد القرعاوي، تجمع باختصار حياة السعدي الشخصية والعلمية.

٣- صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله للأستاذ: عبدالله بن محمد الطيَّار، بحث فيه حياة الشيخ الشخصية والعلمية، ومذهبه، وذكر شيوخه وتلاميذه، وثناء العلماء عليه، وما رثي به من قصائد ونحوها. طبع في دار ابن الجوزي بالدمام عام ١٤١٣هـ.

٤- الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي مفسراً للدكتور: عبدالله بن سابح بن صالح الطيار، رسالة ماجستير مقدمة لقسم القرآن وعلومه، بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٧هـ، بين فيها حياة الشيخ ومنهجه وأثره وطريقته في التفسير.

٥- الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، للأستاذ: عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد. رسالة ماجستير مقدمة لقسم العقيدة بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية لعام ١٤٠٧هـ. فيها بيان جهود السعدي في توضيح العقيدة وبيان منهجه في ذلك.

٦- الشيخ عبدالرحمن السعدي منهجه وأثره في الدعوة إلى الله، للباحث: عبدالله بن محمد الرميَّان. رسالة ماجستير مقدمة لقسم الدعوة والاحتساب بكلية الدعوة بجامعة الإمام فرع المدينة عام ١٤١٤هـ. بيّن فيها الجانب الدعوي في حياة السعدي، واستنباط الدروس والعبر من حياته في الدعوة.

٧- الشيخ عبدالرحمن السعدي حياته، علمه، منهجه في الدعوة إلى الله، للباحث: عبدالعزيز بن سعود العمَّار. رسالة ماجستير مقدمة للمعهد العالي

للدعوة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٥-١٤٠٦هـ. استنبط القضايا الدعوية عند السعدي في تفسيره فحسب.

٨- الفكر التربوي عند الشيخ عبدالرحمن السعدي دراسة تحليلية ناقدة، د. عبدالعزيز بن عبدالله الرشودي. تناول الأُطر المؤثرة في فكر السعدي، وحياته الشخصية والعلمية، وأطال في التربية والعلم والتعليم عند السعدي، طبع في دار ابن الجوزي عام ١٤٢٠هـ.

٩- ترجيحات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي في التفسير جمعاً ودراسة، رسالة ماجستير في القرآن وعلومه للباحث: عبدالله بن أحمد زقيلي، قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام بالرياض عام ١٤٢٥-١٤٢٦هـ.

١٠- استنباطات الشيخ عبدالرحمن السعدي من القرآن الكريم عرض ودراسة، رسالة دكتوراه للباحث: سيف بن منصر الحارثي، قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الإمام بالرياض عام ١٤٣١هـ.

١١- قواعد التفسير بين التنظير والتطبيق عند الشيخ السعدي القواعد الحسان وتيسير الكريم الرحمن نموذجاً. للطالب: هشام شوقي، رسالة ماجستير في قسم أصول الدين لكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة الحاج لخضر -باتنة- بالجمهورية الجزائرية. ترجم للشيخ، وفصّل في دراسة كتاب القواعد الحسان، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ثم دراسة تطبيقية للقواعد التي ذكرها الشيخ في كتابه القواعد الحسان.

١٢- فقه الشيخ ابن سعدي رحمه الله للأستاذ: عبدالله بن محمد بن أحمد الطيّار، والدكتور: سليمان بن عبدالله أبا الخيل.

١٣- سيرة العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، للباحث: محمد حامد الفقي. عبارة عن مجموعة من المقالات لبعض العلماء والأدباء في وصف حياة السعدي العلمية والشخصية، طبعت في القاهرة، مطبعة السنة المحمدية.

١٤- مجتنى الفوائد الدعوية والتربوية من مؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، للباحث: محمد بن عبدالله الوائلي.

ومع كل هذه المؤلفات المتنوعة لم أجد من أفرد الحديث عن ملَكته التفسيرية، أو ضمّنَها بحثَه، فلذا رأيت المشاركة في هذه الدراسة التي تبين ما وصل إليه السعدي من الملَكَة والصّنْعة التفسيرية التي بان أثرها فيما كتبه في التفسير وقواعده، وأسميته: (الملكة التفسيرية عند الشيخ السعدي رحمه الله).

والله الموفق والمسدد والمعين.

خطة البحث:

المقدمة: وفيها تعريف مختصر بالشيخ والإشارة لمؤلفاته في التفسير، وأهداف البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

التمهيد: وفيه التعريف بالملَكَة التفسيرية ومعالمها عند الشيخ السعدي.

المبحث الأول: ملكة التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: تبحره في العلوم الضرورية لعلم التفسير.

المطلب الثاني: تفسيره بالسياق مع علمه بأحوال النزول.

المطلب الثالث: عمق فهمه ودقة استنباطه.

المبحث الثاني: ملكة أصول التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: سبقه في تأليف قواعد التفسير.

المطلب الثاني: التميّز في عرض قواعد التفسير وتنوعها.

المطلب الثالث: التربية بأصول التفسير ومقاصده.

الخاتمة.

المراجع.

فهرس الموضوعات.

أسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد.

التمهيد

قبل الدخول في صلب البحث يحسن التمهيد ببيان معنى الملَكَة التفسيرية، وبعض المعالم التي امتلكها الشيخ السعدي رحمه الله في التفسير.

أولاً: تعريف الملَكَة لغةً: الميم واللام والكاف أصلٌ صحيح يدلُّ على قوّةٍ في الشيء[1]، ومنه: مَلَكه يَمْلِكه مَلْكاً ومِلْكاً ومُلْكاً ومَلَكَةً ومَمْلَكة ومَمْلُكة ومَمْلِكة[2].

قال ابن سيده: (المَلْكُ والمُلْكُ والمِلْك: احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به)[3].

وأما اصطلاحاً: فالملَكَة تطلق على معنيين[4]:

المعنى الأول: الصفة الراسخة في النفس، وتحقيقه أنها هيئة تحصل للنفس بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفيةٌ نفسانية، وتسمّى حالةً ما دامت سريعةَ الزوال، فإذا تكرّرت ومارسَتْها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها، وصارت بطيئةَ الزوال صارت ملَكَة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادةً وخلقاً[5].

المعنى الثاني: ما يقابل العدم، وهو الوجود[6]، أي: الاستعداد والقابلية، فيكون

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥/ ٣٥١.

(٢) لسان العرب ١٠/ ٤٩١.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ١٨٥.

(٤) ينظر: الكليات ١٣٨١.

(٥) التعريفات ٢٩٦.

(٦) الكليات ١٣٨١، وأضاف هذا المصطلح إلى علم أهل المنطق.

فيه القدرة على الفعل أو الترك. والعدم المقابل له ارتفاعُ هذه الملَكَة[١].

كالحيوان مثلاً: عنده ملكة السمع والبصر فهو قابل لها، بخلاف الجماد فليس لديه هذه الملكة.

والمراد في هذا البحث هو المعنى الأول.

ثانيًا: تعريف التفسير لغةً: من فَسَرَ، والفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه. ومن ذلك الفَسْرُ[٢]، والفَسْرُ البيان، فَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكَسر وتَفْسُرُه بالضم فَسْراً وفَسَّرَهُ أَبانه[٣]، فهو البيان والإيضاح.

والتفسير اصطلاحًا: عُرف بتعريفات كثيرة ليس هذا محل بحثها ومناقشتها، وأقربها والله أعلم أن يقال: هو بيان ما أشكل من معاني القرآن الكريم.

قال ابن الجوزي: (التفسير إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي)[٤].

وقال ابن منظور: (كشفُ المراد عن اللفظ المُشْكل)[٥].

ثم صار في العرف: بيان معاني القرآن عمومًا[٦].

وبناء على هذا فالملَكة التفسيرية: هي صفة راسخة في النفس تحقق فهم مقاصد القرآن وبيان معانيه والاستنباط منه وفق الأصول الشرعية.

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط ٢/ ٨٨٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٥٠٤.

(٣) لسان العرب ٥/ ٥٥.

(٤) زاد المسير ١/ ٤.

(٥) لسان العرب ٥/ ٥٥.

(٦) وبه عرفه ابن عثيمين رحمه الله في كتابه: أصول في التفسير ٢٧.

ثالثًا: الحديث هنا عن الشيخ السعدي رحمه الله سَيُركِّز على ملكته العلمية بكتاب الله تعالى، حيث وهبه الله تعالى العلم بفضله، ورزقه استعداداً فطرياً طبَعِياً وذكاءً بزكاءٍ، ويسر له العناية بالقواعد والكليات، مع الإلمام بمقاصد الشريعة، والنظر في أقوال المفسرين وحسن الاختيار بينها، مع التجربة والنجاح بممارسة الحياة عملياً بمخالطة الناس ومعرفة أحوالهم ودراسة واقعهم، ومزاولة الفتوى، ومعرفته بالسيرة والعلوم الاجتماعية وغيرها.

ولذا وفقه الله لإصابة الحق، واطرادٍ في التفسير، وسلامةٍ من التناقض، وفهمٍ شامل للمعنى التفسيري، وقدرة على الوصول لما فيه من الأسرار، وإصدار الأحكام الكلية، وتناول صحيح لمسائل الخلاف، وإدراكٍ لاتساق التفسير وتكامل المعاني، والطمأنينةِ لصحة ما وصل إليه، بعد التأهل للاجتهاد في التفسير، وبلوغه درجة الراسخين في العلم.

قال عنه الشيخ ابن باز رحمه الله: (كان رحمه الله كثير الفقه، والعناية بمعرفة الراجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وكان يرجح ما قام عليه الدليل، وكان قليل الكلام، إلا في ما يترتب عليه فائدة، جالسته غير مرة في مكة والرياض، وكان كلامه قليلاً، إلا في مسائل العلم، وكان متواضعاً، حسن الخلق، ومن قرأ كتبه عرف فضله وعلمه وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمة واسعة)[1].

هذه معالم لما وصل إليه الشيخ السعدي من ملكة تفسيرية، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به في جنات النعيم، وفي هذا البحث جملٌ شاهدة وتطبيقات واضحة تكشف شيئاً من هذه الملكة العجيبة لديه.

---

(١) صفحات من حياة علامة القصيم ٩٧.

المبحث الأول ملَكَة التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: تبحره في العلوم الضرورية لعلم التفسير.

تميّز السعدي رحمه الله في امتلاك قدرات العالم الرباني في جمْعِ أصول العلم، وامتلاك مهارة التعليم لمن بين يديه، والتأليف لمن بعده في تراث عظيم خلده التأريخ، رغم صعوبات البداية عند الشيخ رحمه الله، إلا أنه فاق أقرانه، وسلك طريق العلم من أبوابه الصحيحة، فامتلك المواهب الجليلة في العلم النافع والعمل الصالح، ومن معالم هذه الملكة المميّزة:

١- نبوغه في عامة العلوم الشرعية وتأليفه فيها.

فألف في التفسير: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، والقواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، والمواهب الربانية من الآيات القرآنية.

وفي الحديث: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.

وفي العقيدة: القول السديد في مقاصد التوحيد، التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

وفي الفقه: منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، والإرشاد إلى معرفة الأحكام.

وفي أصول الفقه: القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة، ورسالة في القواعد الفقهية.

كما ألف في أبواب متفرقة في الآداب والمواعظ والخطب والفتاوى واللطائف والهدايات وغيرها.

وقد وصل إلى هذه الملكة في التآليف المتنوعة بعد رسوخه في العلم، وهدفُه

فيها كما يشير كثيراً نفعُ الناس وهدايتهم.

قال ابن بسام رحمه الله: (فلما بلغ أشده، ونضج علمه، ورسخ قدمه، شرع في التأليف)[1].

٢- كما تميّزت تآليفه بمقدمات تعريفية تبين الغاية من التأليف، مع الإشارة إلى أهم ما في الكتاب من موضوعات، ومن ذلك قوله في مقدمة القواعد الحسان: (أما بعد: فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومَخْبَرها أجلُّ من وصفها، فإنها تفتح للعبد من طرق التفاسير، ومناهج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة ..)[2].

ففي كلامه تمهيد للقارئ وتعريف له بأهمية المقروء.

٣- أن الشيخ السعدي رحمه الله صرف غالب وقته في التعليم، بأسلوب واضح سهل، بالتحرير والكتابة أو الإجابة للمستفتين، مع ظهور شخصيته العلمية المستقلة.

حيث ملك القوة في ترجيح ما يعضده الدليل، ولو قال الأكثر بخلافه، بمنهج مكتمل يصل إلى أفهام المتعلمين، وقد أكد هذا بقوله: (فإذا شرع المعلم في مسألة وضحها وأوصلها إلى أفهام المتعلمين بكل ما يقدر عليه من التعبير، وضرب الأمثال، والتصوير والتحرير، ثم لا ينتقل منها إلى غيرها قبل تفهيمها للمتعلمين ..)[3].

وهو بهذا يقرر ما يقول ويعمل به من أهمية الوضوح في الشرح، ومراعاة

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون ٢/ ٤٢٤.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٥.

(٣) المجموعة الكاملة للسعدي ٧/ ٤٥٤.

الأفهـام، والتدرج في التعليم، وصناعة الطـلاب لتولي التعليم، وقد ظهر أثر هذا في أسلوبه التفسيري بكل وضوح.

٤- التكامل بين مؤلفاته في تحقيق الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق، وهي توحيد الله والتمسك بالكتاب والسنة قولاً وعملاً، وقد انتهج هذا جلياً في تفسيره.

٥- شـمول تفسـيره لبيان معاني القرآن بأسـلوب شـيّق وجذاب، ولذا جاء في الجديـد مـن اللطائف التي لم يسـبق لها في طريقـة العرض والتوجيـه، فأضاف فيه الجديد والمفيد.

وهذه القدرة القوية والعزيمة الصادقة من الشـيخ السعدي رحمه الله في الجمع بين العلم المؤصل والتعليم المميّز والتأليف النوعي قلّ أن تجتمع في عالِمي زمانه، ومع ذلك الأسـلوب السـهل والطرح الميسـر، مما جعل لكتبه القبول والأثر فيمن خلَفَه، وسخّر الله تعالى من بعده للعناية بكتبه تحقيقـاً وتعليقـاً وشرحـاً واختصاراً.

وبهـذا يظهر جليـاً سـرُّ هـذه الملكة النوعية التـي بانت معالمهـا وثمارها فيما سـطره في التفسـير وأصوله، فكان لهما نصيب طيب عند الشيخ رحمه الله بسطها في مؤلفاته الواسعة.

المطلب الثاني: تفسيره بالسياق مع معرفته بأحوال النزول.

كَتَبَ الشـيخ السعدي في وسط صفحة غلاف التفسـير ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر مـا يتعلق بالمواضع السـابقة عن ذكـر ما تعلق بالمواضـع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه [مثاني] تُثنّى فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكمٍ عظيمة، وأمر بتدبّره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف،

وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها)[1].

فتفسير السعدي مع اختصاره إلا أنه كاف وافٍ ببيان المعنى المراد من كلام الله تعالى بوجهٍ مركّزٍ دقيقٍ وسهل يسير على أفهام الناس أجمعين.

وفي كل موضعٍ يفسر كامل الآيات حسب ما يقتضيه السياق، دون إحالة على ما سبق من الآيات المشابهة لها، فيبسط في بعضها ما ليس في الآخر.

وهذه ملكة عظيمة تميز بها الشيخ رحمه الله في فهم السياقات المختلفة في آيات القرآن وتفسير الآية مراعياً جميع جوانبها والمقابلة بينها وبين نظيرها في المواضع الأخرى، مع حضور الهدف الأساس عنده في جميع سياقات القرآن، وهو هداية الخلق كلهم على اختلاف أنواعهم ومنازلهم، مع ما وهبه الله من إلمام بعلوم العربية المساعدة لفهم كلام الله تعالى.

يقول السعدي رحمه الله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبأ: ١٧] أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟..)[2].

ويذكر لطائف وقواعد في السياق فيقول مثلاً: (.. وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم لا يختص به: ذكر الحكم وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين، فلهذا لم يقل: [وما كيدهم إلا في ضلال]

---

(١) تفسير السعدي ١٥.

(٢) تفسير السعدي ٦٧٧.

بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: ٢٥][1].

وهو رحمه الله يؤصّل هذا المبدأ لمن أراد أن يفسر القرآن في مقدمة تفسيره، فيقول: (وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصا إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها)[2].

ومن أعظم مزايا تفسير السعدي رحمه الله تناسق التفسير مع القرآن بأسلوب سهل واضح حيث يذكر جزءاً من الآية، ثم يفسيرها، ثم يعود للآية ويفسرها تباعاً؛ بترابط عجيب بين المعاني، وذكْرِ ما يحضره من الفوائد حسب المقامات مع دمج الإيمانيات والهدايات في التفسير مما يترك أثراً في نفوس القراء، وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

كما أن له عنايةً بارزة في المناسبات بين الآيات والجمل؛ فكثيراً ما يقول في تفسيره: ولما ذكر الله كذا ذكر كذا، كما في حديثه على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

(١) تفسير السعدي ٧٣٦.

(٢) تفسير السعدي ٢٩، ٣٠.

نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤] قال بعدها: (ولما ذكر الله حال الدنيا، وحاصل نعيمها، شوق إلى الدار الباقية، فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥])[1].

وبعد تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣] قال: (فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس:٤] أي: سيجمعكم بعد موتكم، لميقات يوم معلوم)[2].

ومع اهتمام السعدي رحمه الله بالسياق والمناسبات بين الآيات فهو يعرض أحوال النزول بصورة تجعل الذهن يعيش ما كان عليه النزول؛ فيقول مثلاً في بداية سورة المجادلة: (نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله، وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرّمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان رجلاً شيخاً كبيراً، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت)[3]. ثم بدأ بالتفصيل في تفسير الآيات.

واهتمام السعدي رحمه الله بالنزول ينقلك وأنت تقرأ تفسيره إلى العيش مع القرآن، وكأنه يخاطبك الآن، حيث إن العبرة عنده بعموم اللفظ لا بخصوص

(١) تفسير السعدي ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) تفسير السعدي ٣٥٧.

(٣) تفسير السعدي ٨٤٣.

السبب، فيقول رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤] (وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الصف: ٢ - ٣])[1].

كما تجده إذا ذكر احتمالاً لبعض المعاني ووجد قولاً يجمع ما قيل في الآية يرجحه بكل ثقة لعدم وجود مانع في اللفظ، حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: ١٠] وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان: ١] (وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان: ١٠] أن هذا كله يكون يوم القيامة.

و قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: ١٥-١٦] هذا ما وقع لقريش كما تقدم، وإذا نُزِّلت هذه الآيات على هذين المعنيين لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك؛ بل تجدها مطابقةً لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم)[2].

وكثيراً ما يرجح بالسياق، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣]،ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف استدركت، فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ أي: من المراودة والهمّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك. ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.... إلى أن قال: (وهذا هو الصواب أن هذا

(١) تفسير السعدي ٥١.

(٢) تفسير السعدي ٧٧١.

من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر)[1].

وفي قوله تعالى﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾[المعارج: ٣ - ٤] قال متدبّراً وواعِظاً ومرجّحاً بالسياق: (أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برَّها وفاجرَها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتُحيّي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأُعِيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح، وأنها تعرج في يوم بما يسّر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللّطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه، ما عمّهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي وحكمه الجزائي.

فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على

---

(١) تفسير السعدي ٤٠٠.

وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة؛ فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا)[1].

وقال تعالى: (﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾[الحديد:٢٧] قال السعدي: (خصّ الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام)[2].

فمراعاة السياق مع المعرفة بقصة الآيات ومعانيها وأحوالها وذكر هذه اللفتات البيانية مما اهتم به السعدي رحمه الله وأضافَ جمالاً على تفسيره.

وهذه الملكة في التفسير السياقي عند الشيخ السعدي ظاهرة في جميع تفسيره، حيث يجد المطّلع على التفسير ربط المعاني بالسياق بطريقة غير متكلفة، وهذا بالتأكيد له أثر كبير في فهم الآيات واستشعار الأحوال والمعاني.

المطلب الثالث: عمق فهمه ودقة استنباطه.

ضرب السعدي أروع الأمثلة في تفسيره بما يدل على ملكته الكبيرة لفهم الآيات واستخراج الكثير من الفوائد واللطائف والعبر والحِكَم والأحكام، والغوص في معاني الآيات لاستخراج ما خفي فيها من المعاني.

فمن قرأ في تفسيره وجده مُعِيناً على التدبر والتأمل الأمْثَل لمقاصد كتاب الله تعالى؛ مما يزيد في محبة القرآن، والاهتداء بهداياته، ومعرفة معانيه، والوقوف على أحكامه.

---

(١) تفسير السعدي ٨٨٥.

(٢) تفسير السعدي ٨٤٢.

كما أنه لا يفوّت مقاماً يرى فيه المناسبة لتربية النفوس وتزكيتها بكلام الله، إلا وأبدع في عبارات جميلة لطيفة فيها العمق الدلالي للجمع بين التفسير والتزكية به، والتربية على الأخلاق ومعالي الأمور.

حيث يقول السعدي رحمه الله ضمن تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩]: (ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، وردّه بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية)[1].

ويَستنبِط السعدي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود: ١٤] أن علم القرآن والتوحيد يجب فيهما العلم ولا يكفي غلبة الظن، فيقول: (وفيها: أنّ مما يُطلبُ فيه العلم، ولا يكفي غلبَة الظنّ، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[هود: ١٤][2].

ويعْقدُ السعدي رحمه الله المقارنةَ بين محنة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ومحنته مع إخوته وأنواع الصبر فيهما، وأيهما أشد مع ذكر الأسباب، فيقول: (هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرا، لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد

(١) تفسير السعدي ٣٨٥.

(٢) تفسير السعدي ٣٧٨.

بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن راودته التي هو في بيتها عن نفسه أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر)[1].

فهو بهذه المقارنة يعطي دروساً عميقة في دلالات الآيات واستنباط المعاني بأن الصبر أنواع وبعضها أشد من بعض، ومن نجح في التعامل مع الأشد نجح فيما دونه من باب أولى.

وربطُ السعدي رحمه الله للمعاني في السياقات أمرٌ عجيب، مع استخدام أسلوب السؤال والجواب الذي يدل على قوة الفهم وجمال الاستنباط، ومن ذلك قوله رحمه الله بعد تفسيره قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: ١٧]، قال: (ولما أخبر أن لهم البشرى، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[الزمر: ١٧ - ١٨] ... إلى أن قال: (وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء الممدُوحِين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسَنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن مَنْ آثره علِمْنا أنه من أولي الألباب؟ قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآية)[2]. وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله ﷺ[3].

---

(١) تفسير السعدي ٣٩٦.

(٢) تفسير السعدي ٧٢١.

(٣) ينظر: تفسير السعدي ٧٢٢.

ثم عندما يتكلم رحمه الله في تفسير بعض الآيات لا يتوقف عن الاستنباطات منها حتى يشبعها بياناً، ففي آية الوضوء مثلاً ذكر واحداً وخمسين حكماً، حيث قال: (هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله.

أحدها: أن هذه المذكورات فيها[1] امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ﴾ [المائدة: ٦] إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة، لقوله: ﴿قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦.[

الثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: ﴿قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة...

إلى أن قال: (الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها، ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة)[2].

فتجد هذه المهارة العلمية عند السعدي رحمه الله، فيذكر في الآية من الفوائد واللطائف والأحكام والمعاني ما لم يُسبق إليه.

ومن ذلك ما خالف به السعدي رحمه الله كثيراً من المفسرين في تفسيره في سورة [ص] حينما تحدث في قصة داود عليه السلام، رجح أن الله لم يذكر الذنب

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب أن (فيها) زائدة. ينظر: تفسير السعدي ٢٢٢.

(٢) تفسير السعدي ٢٢٢.

الذي كان من داود عليه السلام؛ لعدم الحاجة لذكره، حيث قال: (﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾[ص: ٢٥] الذي صدر منه، وأكرمه اللّه بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا﴾ أي: منزلة عالية، وقربة منا، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: مرجع.

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره اللّه لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه اللّه علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها)[1].

وهو بهذا يسكت عن الإسرائيليات التي ذكرت في هذه القصة، ويشير لأهمية الوقوف على المقصود من الآية، وهو الاستغفار والتوبة والخوف من الفتنة والعقاب.

فتفسير السعدي رحمه الله جمع بين البيان والدقة في المعاني والغايات، وهي هِبة من هِبات الله تعالى وهَبَها للشيخ السعدي رحمه الله.

(١) تفسير السعدي ٧١١.

المبحث الثاني ملكة أصول التفسير عند الشيخ السعدي.

المطلب الأول: سبقه في تأليف قواعد التفسير.

الكتابة في قواعد التفسير (كفن مستقل) قليلة، بل نادرة، فلا نستطيع التفصيل في الحديث عن نشأة هذا العلم، ولا زالت قواعد التفسير بحاجة إلى دراسة تأصيلية.

إلا أن ابتداءه كان من العهد النبوي مع نشأة التفسير؛ لكنها كتابات متفرقة مبثوثة ضمن كتب التفسير أو كتب علوم القرآن أو غيرها.

ثم في القرن الثاني: ظهرت جملة مدونة من الكتب، ومنها كأول كتاب في أصول الفقه (الرسالة) للشافعي الذي تطرق لشيء من القواعد في أصول الفقه وبينها وبين قواعد التفسير نقاط التقاء.

ثم في القرنين الثالث والرابع: اتسع التدوين في كتب التفسير واللغة كـ(تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة)، وتفسير الطبري، وأحكام القرآن للطحاوي، وأحكام القرآن للجصاص، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس.

ثم في القرنين الخامس والسادس: تطور التآليف في أصول الفقه واللغة والتفسير: كـ الإحكام لابن حزم، والبرهان للجويني، وأصول الفقه للسرخسي، والمستصفى للغزالي، والمحرر الوجيز لابن عطية، وفنون الأفنان لابن الجوزي، وغيرها.

وفي القرنين السابع والثامن: برزت مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه، والبحر المحيط لأبي حيان، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير، والبرهان للزركشي، والمنثور في قواعد الفقه، والبحر المحيط في أصول الفقه، ومؤلفات ابن رجب، وغيرها.

وهكذا ظلت قواعد التفسير مبثوثة في بطون الكتب في القرون الخمسة التالية.

حتى جاء القرن الرابع عشر الهجري، فاستقل التأليف في قواعد التفسير كمصطلح خاص للقواعد التفسيرية ابتداء بكتاب السعدي رحمه الله (القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن).

فذكر فيه إحدى وسبعين قاعدة مع أمثلتها (وقد حققه د. خالد السبت). جمع فيه قواعد في التفسير، وقواعد فقهية مستنبطة من القرآن، وفوائد ولطائف، وقواعد قرآنية توضح منهج القرآن في بعض القضايا كمقابلة الوعد بالوعيد، وغيرها.

ومن هنا نحسب للإمام السعدي هذا السبق في التأليف المقاصدي الأصولي والذي يعدّ إضافة علمية للمكتبة القرآنية في كليات قرآنية وقواعد تفسيرية، حيث برع في عرض هذه القواعد التي نشأت بعد تجربة وتطبيق عملي في تفاسيره رحمه الله.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أهمية معرفة القواعد قبل الدخول في الجزئيات فقال: (لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات، ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، و إلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات)[1].

فتأليفه لهذه القواعد تأسيس وتقعيد لأصول التفسير وما ينبغي للمفسر أن يتمكن منه؛ كي يصيب في تنزيلها على الفروع، ولإدراكه مدى الحاجة لمعرفة قواعد التفسير قبل الشروع فيه، ومع ضعف التعليم الرسمي في بداية عصر الشيخ السعدي إلا أنه تجاوز هذه المرحلة بالقراءة والتعلم الذاتي وبملازمة علماء بلده، فنبغ في هذه الأصول وصنع لنفسه ملكة خاصة في الاستنباط والتدليل، وكتب هذه القواعد العظيمة النفع لتعين على فهم كلام الله والاهتداء به، حيث يقول عنها:

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٠٣، منهاج السنة ٥/ ٨٣.

(ومَخْبَرُها أجلّ من وصفِها، فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومنهاج الفهم عن الله ما يعين على كثير من التفاسير الحالية في هذه البحوث النافعة)[1].

وكتابة الشيخ لهذه القواعد بعد كتابته للتفسير أشبه ما يكون بوضع الميزان الذي يحمي المفسرَ من الخطأ في تفسيره، فهي علم وسيلة والتفسير علم غاية، كالنحو بالنسبة للكلام العربي، والله أعلم.

---

(١) مقدمة القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٥.

المطلب الثاني
التميّز في عرض قواعد التفسير وتنوعها.

تميّزَ السعدي رحمه الله في عرضه لقواعد التفسير فبيّن في مقدمته أنّ علمَ التفسير أجلُّ العلوم على الإطلاق، وأفضلها، وأوجبها، وأحبها إلى الله، وجمع فيها أصولاً مهمة لتدبر كتاب الله، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، ونوّع في عرضها مع الإيجاز، وأشار إلى أن قضاء العمر مع القرآن وتدبره ليس كثيراً، ففيه أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساسات الدين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة.

فقواعد التفسير تتميّز بأن موضوعها القرآن الكريم، الذي هو أصل العلوم النافعة كلها، وفيه خير العاجل والآجل، وهذه القواعد تعين على فهمه، ومن أتقن القواعد تمكن من الاستنباط وتمييز الأقوال، وانفتحت له معان قرآنيةٌ كثيرة جداً، وصار بيده آلة يتمكن بها من الفهم والاستنباط، ويصبح عنده ملَكَةٌ تجعله يُحسن الاختيار والترجيح بين الأقوال المختلفة، ويأمن من الاضطراب والخطأ والانحراف في التفسير.

وفي هذه القواعد تيسير أمرِ العلم على المتعلم، وتسهيل تحصيله وفهمه، واختصار وقته.

فمن لم يعرف الأصول حرم الوصول، ومن حفظ مسائل كثيرة دون أصل لم يعرف ما خرج عنها، لكن لو عرف الباحثُ الضابطَ والأصلَ لحكمَ على جميع الجزئيات.

يقول السعدي رحمه الله: (والأصول تُبنى عليها الفروع، والفروعُ تثبت

بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى، وينمي نماء مطرداً..)[1].

ويقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (فأنا أحث إخواني على معرفة الأصول والضوابط والقواعد لما فيها من الفائدة العظيمة، وهذا شيء جربناه وشاهدناه مع غيرنا على أن الأصول هي المهم)[2].

وفي ضبط القواعد: ثبوت العلم وقوته وزيادته، فالقاعدة للعلم كالأصل للشجرة، فقوة ثباته ورسوخه أدعى لنماء الشجرة وحسن ثمارها.

فلذلك نوّعَ السعدي رحمه الله القواعدَ في كتابه ما بين قواعد في طرق القرآن:

كطريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده، وطريقته في تقرير نبوة محمد ﷺ، وطريقته في تقرير المعاد، وغيرها، وما بين قواعد في علم التفسير: كقاعدة كيفية تلقي التفسير.

وقواعد في أسلوب القرآن: كطريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم، وطرقه في دعوة الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وقواعد في مقاصد أمثلة القرآن وقصصه.

وقواعد أصولية وفقهية: كدلالات الألفاظ، وكالأمر بالشيء نهي عن ضده، والرجوع إلى المتيقن حال الاشتباه، والأجر على قدر المشقة.

وقواعد تربوية: كمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وأثر الصبر وما يعين عليه، وحث الشارع على الصلاح والإصلاح.

كما تضمن الكتاب قواعد في التفسير وعلوم القرآن كثيرة: كالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وحذف المتعلق يفيد العموم، والمفرد المضاف واسم

(١) طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول ٤.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢٦/ ٢٠٥.

الجمع يفيدان العموم، وغيرها.

ومِن تَميُّز السعدي رحمه الله وملَكَته التفسيرية في هذه القواعد استنباطاته النوعية الدالة على سعته العلمية، ولنقف على شيء من ذلك مثلاً:

قوله في قاعدة إرشادات القرآن -بعد عرض العلوم التي أرشد القرآن لها-: (وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعاً، كما هي مطلوبة لازمة عقلاً، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن ..)(١).

وهذا من الاستنباطات المقاصدية للقرآن.

وفي قاعدة بيان المرض في القرآن قال: (مرض القلوب نوعان: مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات المحرمات، والطريق إلى تمييز هذا من هذا - مع كثرة ورودهما في القرآن - يُدرَك من السياق؛ فإن كان في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين كان هذا من مرض الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل إليها كان مرض شهوة)(٢).

ثم ذكر وجه انحصار المرض في هذين النوعين بأن صحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته ما يحبه الله ويرضاه، فالقلب الصحيح هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل وتركه، فمن الأول: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]، ومن الثاني: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾[الأحزاب: ٣٢]، وقد يجتمع الأمران فيكون القلب منحرفاً في علمه، وإرادته.

ففي هذه القواعد معالمُ واضحة لجادّة الطريق الصحيح للباحث في علم

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦٧-٦٨.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٨٥.

التفسير، واستحضار لمنهج الصحابة في تلقّيه.

قال السعدي رحمه الله في القاعدة الأولى بعد ذكر منهج الصحابة في تلقي معاني القرآن: (فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته، وازدادت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات)[1].

ومما عرضه في القواعد قاعدة: ختم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهي قاعدة في علم المناسبات بين الآية وما ختمت به من الأسماء الحسنى، وهي مما قد يغفل عنه كثير من المفسرين، ومن تتبع آيات القرآن تبين له العلاقة القوية بين الآيات والأسماء المختومة بها، ومن ثمراتها أن كل هدايات القرآن نابعة عن أسماء الله وصفاته، وهو باب عظيم في معرفة الله، ومعرفة أحكامه، ولذا أطال فيها الشيخ السعدي وبين الكثير من الأمثلة عليها، وقال رحمه الله: (ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها، قال تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] فذِكرُ إحاطةُ علمه بعد ذِكرِ خلقه للأرض والسماوات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد من أكبر الأدلة العقلية على علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟)[2].

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٧.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٥٢.

ثم أفاض بذكر الأمثلة وتناسبها في ختام الآيات بالأسماء الحسنى في أكثر من عشرين موضعاً، ومنها قوله: (ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدي شرعاً وقدراً وجزاء)[١].

حتى ختمها بقوله: (ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة؛ مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران:١٢٩] وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾ [الأحزاب: ٧٣] فذلك يدلّ على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان، ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك)[٢].

ويتضح من ختمه بالإشارة أنه اقتصر على ما ذكره من الأمثلة، ليؤصل أنها قاعدة مطردة في كتاب الله تعالى في جميع الآيات المختومة بالأسماء الحسنى، وقد بسطها في تفسيره في جميع المواضع، وأعاد تفسير الأسماء الحسنى حيث تكررت في أواخر الآيات، إيماناً منه بأنها من أهم المهمات، وأن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسماء الله وصفاته، ومرتبط بها[٣].

وقد اعتنى السعدي رحمه الله بقواعد التفسير تطبيقاً على التفسير قبل أن يؤلف

---

(١) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٥٥.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٥٧.

(٣) ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٧٠.

كتاب القواعد، ولذا فعندما تتأمل في تفسيره تجد اعتماده على التعليل بقواعد كثيرة، وبعضها لم يذكرها في كتابه القواعد الحسان، ومن ذلك مثلاً:

قاعدة: تقديم المعمول يفيد الحصر، حيث قال السعدي رحمه الله: (وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه. فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك)[1].

وقاعدة: ثبوت الشيء يستلزم ضده، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦﴾ [النساء: ٦٦] قال السعدي رحمه الله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار، لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده)[2].

وقاعدة كل فعل مدح الله فاعله فهو مما يحبه الله، حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨] (والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية: استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دلّ ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه)[3].

(١) تفسير السعدي ٣٩.

(٢) تفسير السعدي ١٨٥.

(٣) تفسير السعدي ٤٧٥.

فهذه أمثلة على تطبيق السعدي للقواعد التفسيرية وعرضٌ لها في تفسيره بطريقة التعليل للمسألة الواردة في السياق، والإفادة بعموم الحكم لكل ما جاء على نفس سياقها ومدلولها.

وهذا أسلوبٌ عالٍ في التعليم وتقعيده وتأصيله، وملَكَة عامة، بعدم الوقوف على المثال الواحد والحكم على الأفراد، بل يعطيك الحكم والمعنى بوضوح ويقويك بالآلة لتقيس عليه ما شابهه، والله أعلم.

المطلب الثالث
التربية بأصول التفسير ومقاصد القرآن.

مما ركّز عليه السعدي وتميز به رحمه الله مراعاة المآلات، والتربية من خلال أصول التفسير وقواعده، وهذا أمر بارز في غالب ما كتبه رحمه الله؛ وفي القواعد الحسان خصيصاً، فغالب القواعد يبيّن اتجاه السعدي رحمه الله في العناية بمقاصد القرآن، ومن الأمثلة على ذلك:

القاعدة الثانية والعشرون: في مقاصد القرآن، وبعدها أنواع إرشادات القرآن، وبعدها حث القرآن على التوسط، وبعدها: أمر الله بحفظ حدوده، ثم في القاعدة الخامسة والثلاثين: دلالة القرآن على تحصيل أعلى المصلحتين وارتكاب أخف الضررين، وفي القاعدة الحادية والأربعين: بيّن حقوق الله وحقوق رسوله ﷺ الخاصة والمشتركة، وهكذا[١].

هذا الاهتمام وما تضمنته هذه القواعد من تأصيل علمي وتمثيل قرآني على بيان مقاصد القرآن وتربية المسلم على هذه المبادئ ومعرفة الغايات والمقاصد.

يقول السعدي رحمه الله: (اعلم أن القرآن الكريم احتوى أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه ..)[٢].

ثم يذكر ما فيه بيان هذه المواضيع بأسلوب سهل واضح، فيركز على أمثال القرآن التي لا يخلو جزء من القرآن منها؛ لأن فيها حياة القلوب، وشدّ البصر والبصيرة، كما قال تعالى﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العنكبوت: ٤٣ وفيها

---

(١) ينظر: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦١، ٦٦، ٨٨، ٩٧.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦١.

مدح لمن يفهم الأمثال.

فقد ذكر السعدي أن في المثل إيضاح المعاني النافعة وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي العين، وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه[1].

وقال بعد أن بين أمر الله بحفظ حدوده والنهي عن تعديها وقربانها: (فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله، والمحافظة عليها، كما أن أصل الشر وأسباب العقوبات الجهل لحدود الله، أو ترك المحافظة عليها، أو الجمع بين الشرّين)[2].

والتربية عند السعدي علمٌ وعمل، وهما سبب صلاح الإنسان في هذه الدنيا ونجاته في الآخرة، حيث يقول: (فمن فضل الله على الأمة أن منّ عليهم بهؤلاء العلماء الربانيين المربين لهم بنوعين من أنواع التربية العالية، أحدهما: التربية العلمية يربونهم بصغار العلم قبل كباره، .. والنوع الثاني: التربية العملية، يربون أخلاقهم ويحثونهم على كل خلق حميد)[3].

فالتربية العلمية عنده هي العلم النافع، والتربية العملية هي العمل الصالح، وبهاتين التربيتين يخرج الإنسان من وصف الجهالة إلى الطمأنينة[4].

قال السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[النور: ٦١](فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكلما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي

(١) ينظر: القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٦١، ٦٢.

(٢) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ٧١.

(٣) المجموعة الكاملة للسعدي ٣/ ٤٠٩.

(٤) ينظر: فوائد مستنبطة من قصة يوسف، المجموعة الكاملة ١/ ١٣٢.

دعاه إليها، زاده من ذلك)[1].

فالسعدي رحمه الله تميّز في هذا الباب وصار يتحدث عنه ويوجه إليه في غالب كتاباته التفسيرية، قال ابن عثيمين في تقديمه على تفسير السعدي ضمن ميزات التفسير: (أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة،كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف:﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]ومن أجل هذا أشير على كل مريدٍ لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم)[2].

حيث فسر السعديُّ الآية بأنها جامعة لحسن الخلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم، فيأخذ ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، والأمرُ بكل قول حسن وفعل جميل، ثم بين ما ينبغي أن يعامِل به العبدُ شياطين الإنس والجن، وفي أي حال: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾[الأعراف: ٢٠٠] أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾أي: التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سَمِيعٌ ﴾لما تقول ﴿عَلِيمٌ ﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ [الناس: ١] إلى آخر السورة[3].

والحديث عما كتبه السعدي في هذا الباب لا ينتهي، وفيما ذُكِر إشاراتٌ وهداياتٌ لما صار ملازماً للشيخ السعدي رحمه الله في جميع كتابته التفسيرية من التربية بالقرآن وتفسيره، والله أعلم.

---

(١) تفسير السعدي ٥٧٥.

(٢) تفسير السعدي ١١.

(٣) تفسير السعدي ٣١٣.

الخاتمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله، والشكر له على جزيل فضله وعظيم نعمائه، وصلى الله على خير خلقه وأشرف أنبيائه، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا، أما بعد:

فقد تأملت في هذا البحث ما وصل إليه الشيخ السعدي رحمه الله من ملَكَة تفسيرية، وتجوّلْت في ما كتبه في التفسير وقواعده، فتوصلت للنتائج الآتية:

١- أن الشيخ السعدي رحمه الله قد أتقن صنعة المفسر وحاز الملَكَة التفسيرية بكل اقتدار،وهي العلم الراسخ في نفسه الذي حقق له فهم مقاصد القرآن ومعانيه، واستطاع الاستنباط منه وفق الأصول الشرعية.

٢- أن الشيخ السعدي رحمه الله أحسن توظيف الملكة التفسيرية في بيان معاني كلام الله تعالى، ومن معالم هذا التوظيف: التبحر في العلوم الضرورية لعلم التفسير، والفهم للسياقات المختلفة وأحوال النزول، وحسن النظر في أقوال المفسرين وجودة الاختيار، والفهم العميق والاستنباط الدقيق، والعناية بالقواعد والكليات، مع إلمامه بمقاصد الشريعة، وامتلاكه التجربة وممارسة واقع الحياة بمخالطة الناس ومعرفة أحوالهم وظروفهم، ومزاولة الفتوى، ومعرفته بالسيرة والعلوم الاجتماعية وغيرها.

٣- أن من آثار الملكة التفسيرية عند السعدي رحمه الله: حسنُ التآليف في التفسير وقواعده، والاطراد في التفسير، وتطبيق الأصول على الفروع، وتوظيف التربية والتعليم في التفسير، والسلامة من التناقض، والطمأنينةِ لصحة ما وصل إليه، والفهم الشامل للمعنى التفسيري، والقدرة على الوصول للأسرار وإصدار الأحكام الكلية، مع تناولٍ صحيح لمسائل الخلاف، وإدراكٍ لاتساق التفسير

وتكامل معانيه، مع التأهل للاجتهاد في التفسير، وبلوغه درجة الراسخين في العلم.

٤- أن غاية السعدي رحمه الله في غالب تآليفه دلالة الخلق إلى ما فيه صالحهم في الدنيا والآخرة، ولذا ترى أثر هذا ظاهراً في تفسير كل آية، وفي قواعد التفسير أصول لذلك وأمثلة.

٥- أن السعدى رحمه الله سابق لزمانه في أساليب العلم والتعليم والتربية، ولذا كان له أثر كبير في تلاميذه حسب ما نراه في الواقع.

٦- أن السعدي رحمه الله في تفسيره لم يكن مقلداً في التفسير، بل رجح ما يراه موافقاً للدليل أو التعليل الصحيح.

٧- أن السعدي رحمه الله في غالب تفسيره يأخذ بالقول الأعم، والذي يجمع ما قيل في الآية، وهذا من ملَكَته التفسيرية التي فيها مبدأ الاحتراز من طرح بعض الأقوال بلا دليل، وكذلك العمل بقاعدة: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب المعتبرة عند عامة العلماء، مع أنه كثيراً ما ينقل الأقوال دون ترجيح، ولعل هذا المنهج أيضاً تورعٌ منه لعدم ترجح أحدها لديه.

٨- أن السعدي رحمه الله موافقٌ لمن سبقه في غالب قواعد التفسير، ومع ذلك فقد ظهر تميّزه في إضافة بعض اللفتات والنكت والاستنباطات والفوائد واللطائف، وطريقة عرضها.

٩- تميز السعدي رحمه الله في عرض قواعد التفسير وتنوعها مع ضرب الأمثلة الموضحة لها.

١٠- أن السعدي رحمه الله طبّق قواعد التفسير وعلّل بها في تفسيره قبل أن يؤلف القواعد.

١١- عناية السعدي رحمه الله بالتربية والتعليم في ضوء التفسير، وجمعِه بين العلم والعمل في تطبيق ذلك.

١٢- دقة الاستنباط التي امتلكها السعدي رحمه الله من دلالات الآيات ووصوله منزلة الراسخين في العلم.

وقبل الختام أوصي بما يلي:

١. أهمية تأصيل قواعد التفسير، ودراسة منهج السعدي في قواعده دراسة تحليلية.

٢. استنباط القواعد التفسيرية التي اعتمدها السعدي في تفسيره ولم يذكرها في كتابه القواعد الحسان.

٣. أهمية العناية بكتب السعدي واكتشاف ما فيها من أسرار علمية وتربوية.

٤. دراسة ما تفرد به السعدي عما سبقه، قولاً أو منهجاً، واختياراته التي كان لها أثرٌ في تلاميذه.

٥. دراسة المناسبات بين الآيات والجمل عند السعدي رحمه الله؛ لاهتمامه بها كثيراً.

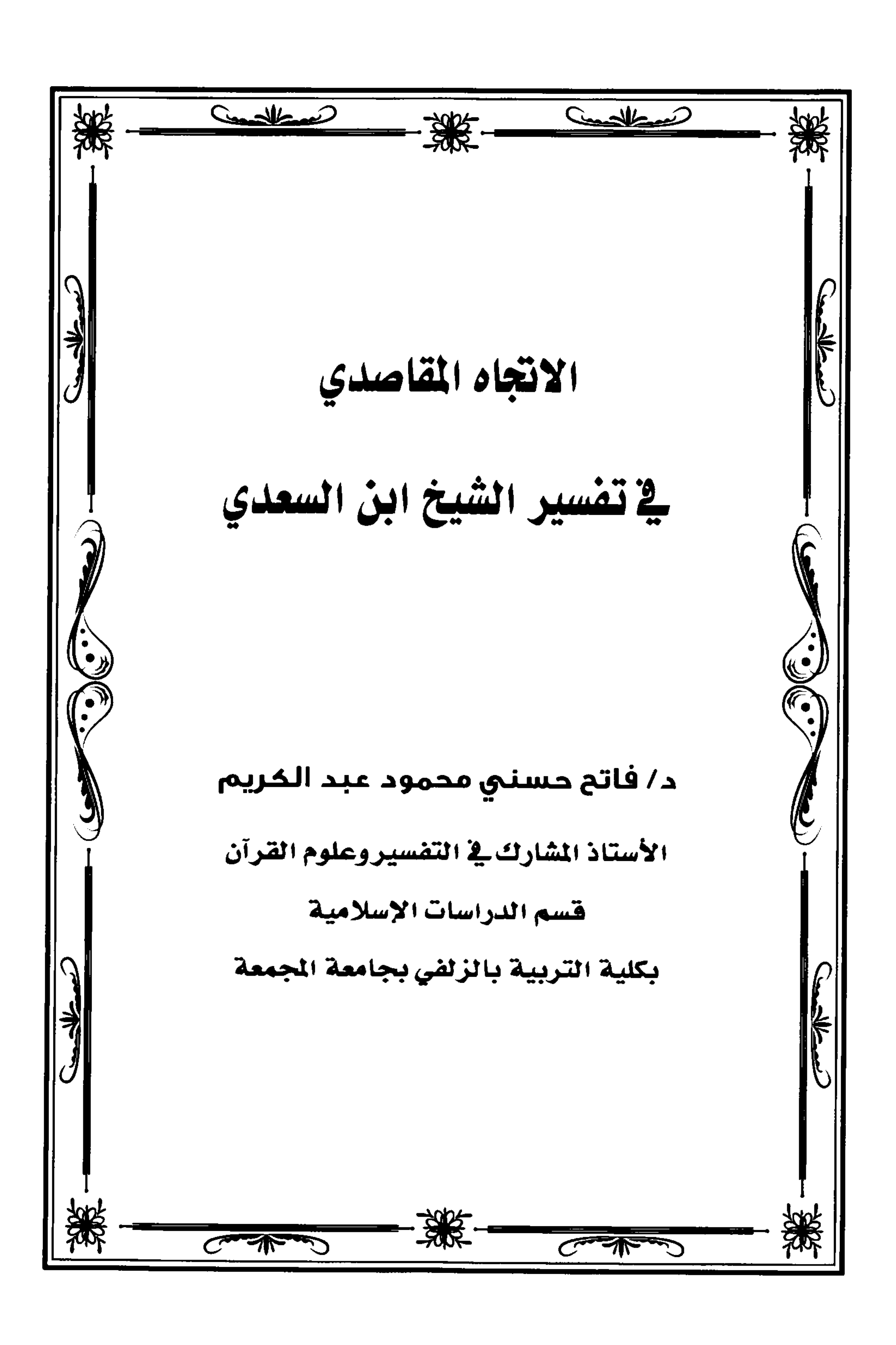
أسأل الله تعالى أن يرفع منازل الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي في عليين، وأن يجمعنا به ووالدينا ومشايخنا ومن نحب في جنات النعيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجــع

- إتحاف النبلاء بسير العلماء، تأليف: راشد بن عثمان الزهراني، دار الصميعي، السعودية، ط٢م ١٤١٨هـ.
- أثر علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي على الحركة العلمية المعاصرة، أ.د عبدالله بن محمد الطيار.
- التعريفات للجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط١/ ١٤٠٥هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، طبعة دار طيبة بالرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن اللويحق، مكتبة الرشد، الرياض، ط٣/ ١٤٢٢هـ.
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي. ط٣، بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ.
- شرح أصول في التفسير لابن عثيمين، من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ط١/ ١٤٣٤هـ.
- صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ أ. د عبدالله بن محمد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٣هـ.
- طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، مختارات من كتب ابن تيمية وابن القيم، للسعدي، دار البصيرة، جمهورية مصر العربية، ط١/ ٢٠٠٠م.
- علماء نجد خلال ثمانية قرون لعبدالله بن عبدالرحمن البسام، دار العاصمة، ط٢/ ١٤١٩هـ.
- فتح الرحيم الملك العلام فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد

والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن للسعدي، اعتنى به: د. عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، طبعة دار ابن الجوزي، ط٣.
- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن للسعدي، تحقيق د. خالد بن عثمان السبت، دار ابن الجوزي، ط٢/ ١٤٢١هـ.
- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.
- لسان العرب لابن منظور، ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر، ط١/ ١٤٢٣هـ.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة، ١٤١٢هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤٢١هـ.
- المعجم الوسيط، إشراف عبدالسلام هارون، إخراج إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، المكتبية الإسلامية، تركيا، ١٣٩٢ه.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، اعتنى به: د. محمد عوض مرعب وفاطمة أصلان، طبعة دار إحياء التراث العربي، ط١/ ١٤٢٢هـ.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط٢/ ١٤١١هـ.



الاتجاه المقاصدي

في تفسير الشيخ ابن السعدي

د/ فاتح حسني محمود عبد الكريم

الأستاذ المشارك في التفسير وعلوم القرآن

قسم الدراسات الإسلامية

بكلية التربية بالزلفي بجامعة المجمعة

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على إمام المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فإنّ فهم القرآن غايةٌ عظيمة ومطلب نبيل؛ وأحسن الفهم غايةٌ أعظم ومطلب أنبل وأكمل وأسلم؛ فأحسن الفهم مدعاة لأحسن العمل، وأحسن العمل مقصد الابتلاء في هذه الدنيا؛ ومن هنا فإنّ من جملة ما يسدد الفهم ويجوِّده معرفة مقصد الكلام بحسب مراد قائله وبشروط واضعه؛ فإنّ معرفة مقصد المتكلم من كلامه هو هداية وبصيرة، تُنير الطريق وتُجنِّب الزلل.

وقد اهتم كثير من العلماء بالتفسير المقاصدي للقرآن الكريم، ومن هؤلاء العلماء الإمام الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- في تفسيره[1] « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» وما لفت الانتباه لتفسير الشيخ مقاصدياً أنه جاء في عصر وحقبة زمان بدأ ينضج هذا العلم ويثمر، وهو القرن العشرين للميلاد، الذي ظهرت فيه مدرسة المنار في مصر، ومدرسة التحرير والتنوير في تونس، وكان تأليف تفسير ابن سعدي معاصراً لهاتين المدرستين؛ فكان للشيخ -رحمه الله- لبنةٌ في هذا الفن واتجاهٌ مع هاتين المدرستين، فازدان تفسير الشيخ بإشارات مقاصدية كثيرة، أجاد فيها -رحمه الله- وأفاد في فهم القرآن، ووظفها في توجيه خطابه وأحكامه وحكمه، فعزمتُ- مستعيناً بالله- على الكتابة لإبراز جهد الشيخ -رحمه الله- في هذا الفن من تفسيره.

أولاً: أهمية الدراسة: تصدر أهمية هذه الدراسة في إبراز جهود عَلَمٍ كبير وإمام

---

(١) اهتم الشيخ بالمقاصد في كل دراساته وكتبه، والباحث هنا التزم بحدود بحثه وهي دراسة المقاصد في تفسير الشيخ فقط.

من أئمة المسلمين عامة والجزيرة العربية خاصة في الوقوف على فنّ من فنون التفسير وهو المقاصد القرآنية، وكيف تزامن نضوج هذا العلم مع نضوجه عند علماء التفسير في المشرق والمغرب.

ثانياً مشكلة البحث: يقوم البحث على التساؤلات الآتية: كيف كانت اهتمامات الشيخ ابن سعدي المقاصدية في تفسيره؟ وهل استطاع -رحمه الله- الاستفادة من المقاصد وتوظيفها؟ وما هي أبعاد هذه الاستفادة في فهم القرآن وترجيح الأفهام؟

ثالثاً: أهداف البحث: يهدف البحث لإبراز جهود الشيخ في خدمة المقاصد القرآنية في تفسيره، واستجلاء أنواع المقاصد، وكيفيات توظيفها في تفسيره.

رابعاً: دراسات سابقة: لم أقف على دراسة خاصة عن ابن سعدي في موضوع المقاصد القرآنية بالذات، لكن وقفت على دراسة منهجه في التفسير بشكل عام، ودراسة أخرى في منهجه في الاستنباط في القرآن بشكل عام أيضاً:

١- استنباطات الشيخ عبد الرحمن السعدي من القران الكريم/ د. سيف بن منصر الحارثي/ ٢٠١٦/ دار قناديل العلم - السعودية، وهو في الأصل رسالة دكتوراة في كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود، عام ١٤٣١ه، استخرج استنباطات الشيخ ابن سعدي في القرآن وهداياته ولم يتطرق لموضوع المقاصد.

٢- منهج الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن...) الطالب ناصر المرنخ، وهو رسالة ماجستير في كلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية في غزة، عام ١٤٢٣ه، فأظهر الباحث منهج الشيخ ولم يلتفت لموضوع المقاصد.

خامساً: حدود البحث: التزم الباحث في دراسته على كتاب تيسير الكريم

الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي فقط، وبيان اتجاه الشيخ في الكتاب مقاصدياً.

سادساً: منهج البحث: اعتمد البحث المنهج الاستقرائي لتفسير الشيخ -رحمه الله- والمنهج الوصفي.

سابعاً: خطة البحث: جاء البحث في مقدمة وتمهيد- بينت فيه عناية المفسرين سلفاً وخلفاً بالمقاصد وأهميتها- وثلاثة مباحث، وخاتمة، تحت كل مبحث ثلاثة مطالب على النحو الآتي:

المبحث الأول: عناية ابن السعدي بالمقاصد القرآنية:

المطلب الأول: تنصيصه على الغاية المقاصدية من تفسيره.

المطلب الثاني: التفريق بين المعنى والمقصد.

المطلب الثالث: القابلية للاستفادة المقاصدية.

المبحث الثاني: أنواع المقاصد القرآنية في تفسير ابن السعدي:

المطلب الأول: المقاصد الظاهرة والمقاصد المستنبطة.

المطلب الثاني: المقاصد الكلية للقرآن الكريم.

المطلب الثالث: المقاصد الخاصة الموضوعية والجزئية.

المبحث الثالث: توظيف المقاصد في تفسير ابن السعدي:

المطلب الأول: الاستدلال بالمقاصد للتربية والتوجيه.

المطلب الثاني: الاستدلال بالمقاصد على مواجهة المخالفين.

المطلب الثالث: الترجيح بالمقاصد واستخراج الحكم والأحكام.

ثم الخاتمة: تضمنت النتائج والتوصيات.

تمهيد

أولاً: معنى المقصد لغة واصطلاحاً: يرجع أصل هذه الكلمة للجذر الثلاثي (قصْد): وهو في اللغة يحمل أصولاً ثلاثة- كما قال إمام اللغة وبيانها أبو الحسين ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): « القاف والصاد والدال أصولٌ ثلاثة، يدلُّ أحدها على إتيانِ شيءٍ وأمِّه، والآخَر على اكتنازٍ في الشيء. فالأصل: قصَدته قَصْداً ومَقْصَداً. ومن الباب: أقْصَدَه السَّهمُ، إذا أصابه فقُتِل مَكانَه، وكأنّه قيلَ ذلك لأنَّه لم يَحِد عنه.. والأصل الثالث: الناقة القصيد: المكتنِزة الممتلِئة لحماً »[1] فأصول الكلمة الثلاثة تتوجه لموضوع الاغتنام والاكتناز وإصابة محرز الأمر وعدم الحيد عنه، والأصل الثالث يدلّ على أنّ الناقة قصيدٌ أي ممتلئة لحماً وهذا هو المراد، ومنه: هذا بيت القصيد : أي الأمر المهمّ وخلاصة الموضوع؛ فهو أحسن أبيات القصيدة وأنفسها. وقال الراغب:» القَصْدُ : استقامة الطريق... ومنه : الاقْتِصَادُ... وعلى هذا قوله : وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ.. وقوله : وَسَفَراً قاصِداً»[2] وقال في المعجم الوسيط: « قصد الطَّرِيق قصداً: استقام.. أقصد السهْم: أصَاب.. يُقَال هُوَ على الْقَصْد وعَلى قصد السَّبِيل إِذا كَانَ راشداً»[3].

يتضح مما سبق أنّ معاني القصد إصابة المطلوب وأمّه وعدم الحيد عنه؛ ومنه سمي قصد الطريق؛ لأنه سهل لا عوج فيه ولا إمالة، فأصاب القصد وتوسط في مشيه فلم يحرف ولم ينحرف، والسهم إذا أصاب هدفه فقد أقصد؛ فالمعنى اللغوي يدلّ دلالةً واضحة على السداد والاعتدال.

---

(١) ابن فارس، معجم المقاييس اللغة،٥/ ٩٥.

(٢) الراغب، المفردات في غريب القرآن،٦٧٢.

(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط،٢/ ٧٣٨.

ومن المعنى اللغوي يتوجه المعنى الاصطلاحي؛ فالمقصد من الخطاب هو أخذ الخطاب باتجاه مراد المخاطِب وبيان غايته من الكلام؛ فالتفسير المقاصدي هو إصابة غاية المراد في الآية والسورة بقدر الاستطاعة البشرية بحسب الدلالات التعبيرية في الآية.

وما قيدته- بقدر الاستطاعة البشرية- فيه اعتراف بالضعف بالبشري بإزاء كمال القدرة الإلهية، وأدب مع المولى سبحانه وتعالى، وزاد الأدب حرصاً حين أسندته بعبارة الدلالات التعبيرية في القرآن؛ حتى يطمئن القلب باجتهاد صادر عن دلالات وأمارات، وليس عن هوىً وأخراص[1]. « فَغَرَضُ الْمُفَسِّرِ بَيَانُ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ أَوْ مَا يَقْصِدُهُ مِنْ مُرَادِ اللهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِأَتَمِّ بَيَانٍ يَحْتَمِلُهُ الْمَعْنَى وَلَا يَأْبَاهُ اللَّفْظُ»[2] وقد عرفها الحامدي بأنها» الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد»[3] فهي الغاية والمقصد والحكمة، وهي الاعتدال وعدم التطرف والزلل عن مراد الله.

ثانيًا- عناية المفسرين بالمقاصد القرآنية: لا ينبغي لمن يتصدر لتفسير كلام الله إلا الحرص والاجتهاد للتعرف على مقصد كلام الله سبحانه والغاية من مراده وبيانه، لذلك حرص المفسرون بحسب طاقتهم على استخراج المقصد والغاية من القرآن بعمومه، أو من السور وآياتها ومقاطعها على الخصوص،» .. رَائِدُ الْمُفَسِّرِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ عَلَى الْإِجْمَالِ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ مِمَّا جَاءَ لِأَجْلِهِ»[4].

---

(١) جمع خرص وهو الكذب، أصل الخَرْصِ التَّظَني فيما لا تَسْتَيْقِنُه ... ثم قيل للكَذِب خَرْصٌ لما يدخله من الظُنون الكاذبة . ابن منظور، لسان العرب، خرص،٢١،٧.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١ ص ٤٢، المقدمة الرابعة.

(٣) د عبد الكريم الحامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام . ص٢٩.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير،ص٤٢ المقدمة الرابعة.

وقد تفاوت المفسـرون في الوقـوف على المقاصد القرآنيـة؛ فمنهم من اعتنى بالمعنى واللفظ مقتصراً عليها دون النظر لما يقصده الله من هذه الألفاظ والمعاني، ومنهم من ذهب وراء اللفظ والمعنى متدبراً مجتهداً لمعرفة المقصد من هذا الكلام والغاية من مراد الله منه؛ وهو ما أدى إلى التفاوت والاختلاف بين المفسرين، وهذا مـن طبيعة البشـر أولاً، ومن طبيعـة دلالات اللغة ثانيـاً، والأهم مـن هذا وذاك هو أنّ إرادة الله قد اسـتوجبت كون القرآن ميدانـاً للفهـم والابتلاء والرفعة والاجتهاد؛ فرفـع الله عز وجـلّ مكانة العلماء المجتهديـن لما بذلوه من جُهـد وجَهد في التدبر والاسـتنباط والبحث، وسقط من سقط في فتنةٍ من أمره وشأنه حين اتبع هواه وهُرع للمتشابه ينشد ضالةً لن يدركها.

وقد ظهرت فكرة المقاصد بلفظها قديمـاً عند علماء الأصول، وبشكل خاص عنـد علمـاء المقاصد كأمثـال الشـاطبي، وبرزت منـذ وقت مبكر فرضيـة مقاصد الشـريعة وكتبـت فيها كتب ومراجـع، ولم يكن هذا اللفظ مصروفـاً للقرآن بشـكل ظاهر بل كان يُتداول مردوفـاً بالشـريعة عامة، التـي كان القرآن الكريم هو المصدر الأول لها، يقول الشاطبي: « الكتاب العزيز هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وَيَنْبُوعُ الْحِكْمَةِ، وَآيَةُ الرِّسَـالَةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لَزِمَ ضَرُورَةً لِمَنْ رَامَ الِاطِّلَاعَ عَلَى كُلِّيَّاتِ الشَّـرِيعَةِ وَطَمِعَ فِـي إِدْرَاكِ مَقَاصِدِهَا، وَاللِّحَاقِ بِأَهْلِهَا، أَنْ يَتَّخِذَهُ سَـمِيرَهُ وَأَنِيسَـهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ جَلِيسَهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي؛ نَظَرًا وَعَمَلًا»[1] مع الأخذ بعين الاعتبار للعمـوم والخصـوص بين كليـات الشـريعة وكليات القـرآن ومقاصـده؛ فكليات الشـريعة ومقاصدها جـزء من مقاصد القـرآن؛ ونقصد بمقاصد الشـريعة الأحكام العمليـة، أما مقاصد القرآن فهي ما يتعلق بالسـورة وآياتهـا وقصص القرآن وأمثاله، ودستوره الأخلاقي، وبُعده العقدي.

(١) الشاطبي، الموافقات، المقدمة ج٤، ص ١٤٤ وانظر (تفسير المنار) ٦، ١٣٤.

ثالثاً- التفسير المقاصدي عند السلف ومن بعدهم: إنّ الناظر في كتب المتقدمين من المفسرين ليجد اهتماماً واضحاً بمسألة المقاصد والغايات، ولكنه يجد أيضاً تواضع هذا الفن كمبحث مستقل بارز لدى المفسرين؛ فقد تجد من العلماء المتقدمين من اهتم بمقصد السورة أو الآية ولكن بشكل عابر كجزء لا يتجزأ من التعريف المتداول للتفسير؛ فكان إبراز المقصد أمر يتفرع عن تفسير الآية، بعكس ما جرى في العصر الراهن من إبراز هذا العلم كفنّ مدون خاص، وعلم بارز من علوم القرآن ووسائل تدبره.

ولعلّ إمام المفسرين الطبري- -رحمه الله- - حين استعمل لفظ المعنى كان يقصد به المقصد؛ وما جزمنا بذلك إلا من خلال سياق كلامه- -رحمه الله-- حين قال: «.. أَنَّ اللهَ جَعَلَ الصَّدَقَةَ فِي مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا سَدُّ خَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَالآخَرُ مَعُونَةُ الإِسْلاَمِ وَتَقْوِيَتُهُ»[1] فلم يكن من منهجه -رحمه الله- استخدام لفظ المعنى للمقصد إلا في هذا الموضع في حدود دراستي للتفسير، إلا في أضيق التفسيرات ويصرح فيها بالمعنى والمقصد معاً وهو عزيز في تفسيره، قال -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾[النساء: ٣] «وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ بِأَنَّ الْعَرَبَ تُخْرِجُ الْكَلاَمَ بِلَفْظِ الأَمْرِ، وَمَعْنَاهَا فِيهِ النَّهْيِ أَوِ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] وَكَمَا قَالَ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل: ٥٥] فَخَرَجَ ذَلِكَ مَخْرَجَ الأَمْرِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ، وَالزَّجْرُ وَالنَّهْي، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم ﴾ بِمَعْنَى النَّهْي، فَلاَ تَنْكِحُوا إِلاَّ مَا طَابَ

---

(١) الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، ج ١١، ٥٢٣.

لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ»[1].

وقد صرح الطبري -رحمه الله- بالمقصود من الآية في مواضع قليلة جداً من تفسيره، قال -رحمه الله- في تعيين اسم المارّ على القرية في سورة البقرة: «وَلاَ بَيَانَ عِنْدَنَا مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَصِحُّ مِنْ قِبَلِهِ الْبَيَانُ عَن اسْمِ قَائِلِ ذَلِكَ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عُزَيْرًا، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ إِرْمِيَا، وَلاَ حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ اسْمِهِ، إِذْ لَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ بِالآيَةِ تَعْرِيفَ الْخَلْقِ اسْمَ قَائِلِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهَا تَعْرِيفُ الْمُنْكِرِينَ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى إِحْيَائِهِ خَلْقَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، وَإِعَادَتِهِمْ بَعْدَ فَنَائِهِمْ، وَأَنَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ مِنْ قُرَيْشٍ»[2] وهكذا فقد صرّح الطبري بلفظ المقصد بمعناه الاصطلاحي[3] في العصر الراهن من الآية وأنّ الاسم وتعيينه غير مراد ولا مقصود فلا يلتفت إليه. وذكر البغوي (٥١٦هـ) في مقدمة تفسيره مصرحاً بغاية ومقاصد القرآن، فقال -رحمه الله- عن القرآن: « أمَرَ فيه وزجر، وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليُتذكر، وقص عن أحوال الماضين ليُعتبر، وضرب فيه الأمثال ليُتدبر، ودل على آيات التوحيد ليُتفكر، ولا حصول لهذه المقاصد فيه إلا بدراية تفسيره»[4] وقد استخدم بعض المفسرين لفظ الغرض بدل المقاصد في هذه الأحقاب[5]. وإذا سرنا إلى القرن الثامن نجد الإمام المجاهد الشهيد ابن الجوزي (ت ٧٤١هـ) يستحضر لفظ المقاصد بمعناها المعاصر؛ وبتواضع أنشط نسبياً ممن كان قبله وبمواضع أرحب قليلاً، وسأبرز

(١) ج ٦، ص ٣٧٤.

(٢) ٤،٥٨١.

(٣) وليست مجرد دلالة لغوية.

(٤) البغوي، معالم التنزيل ١/ ٣٣، المؤلف : محيي السنة.

(٥) ابن عطية الأندلسي ٥٤٢ هـ، والبيضاوي (٦٨٥ هـ) وابن كثير (٧٠٣ هـ)، وشمس الدين القرطبي (٦٧١ هـ).

باختصـار مقصد القرآن في التسـرية عـن النبي صلى الله عليه وسـلم؛ فقد عدّها ابن جزي مقصداً بنى عليها آيات عديدة، ففي تفسيره لقوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[الأنعـام: ٢٣]وبعـد تفسـير الآيـة قال:".. كمـا جعلنا في مكة أكابرهـا ليمكـروا فيها جعلنـا في كل قرية، وإنمـا ذكر الأكابـر، لأن غيرهم تبع لهم والمقصود تسلية النبي صلى الله عليه وسلم »[1].

وبقـي هذا الفن تابعـاً للتفسـير إلى أن ظهرت الإشـكالية التفسـيرية في العصر الحديث في مدرسـة المنار؛ وما أحدثوا من تسـاؤلات حول تجديد التفسير، فظهر هذا الفن وأخرج شطأه وبرزت اجتهادات لبيان مقاصد القرآن وتحديدها، بل وجعل المنار فصلاً بحياله في تفسيره لبيان المقاصد القرآنية سماه:" مقاصد القرآن في ترقية نوع الإنسـان" وفصلها في عشر مقاصد استغرقت قريبـاً من مئة صفحة.[2]، بدا فيها الـكلام يحمل طيـاً من الدفاع عن القرآن وهديـه ومواكبته للواقع بقدرة وصلابة، « إنّ سياق الحديث عن مقاصد القرآن عند الشيخ رشيد رضا يبدو بعيداً عن موضوع التفسـير وأغراضه.. كما جاء عند من سـبقه، مما يعني أن وظيفة مقاصد القرآن عند رشـيد رضا ترتبط بالانتصار لصدقية الرسالة وأحقية الوحي، وهو الأمر الذي أقلق الشـيخ في زمنه، ..ومهما كان من أمر هذه الوظيفة وذلك السـياق، فإنّ كلام رشـيد رضـا يعتبر أول تفصيل للقـول في مقاصد القرآن....»[3] حتى جاء الإمام التونسـي ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) فرعى هذا النبت ورباه وهذبه وأظهره كفنٍّ خاص في علم التفسير، حتى صار الإمام علمـاً في التفسير والمقاصد، فجعل مقدمة تفسيره الرابعة

(١) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، ١/ ٢٧٤.

(٢) رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ١١،١٧٠.

(٣) د. فريدة زمرد، بين مقاصد التفسير والنقد التفسيري، مجلة الإحياء.

يتحدث فيها عن علم المقاصد، وجعل لكل سورة مقاصدها وأغراضها، وتحدث في تفسيره عن مقاصد القرآن عامة وعن آياته ومقاطعه وقصصه خاصة.

رابعًا- تفسير ابن السعدي: وفي القرن الثالث عشر الهجري، العشرين ميلادي، عصر مدرسة المنار وعصر التجديد، ظهر عالم نجدي بارز في علوم الشريعة عامة وفي علم التفسير خاصة، وهو الشيخ العلامة أبو عبد الله السعدي التميمي المشهور بابن سعدي (ت١٩٥٦م) ولد عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م، هو عالم مُجِدٌّ، صاحب سعة وتمهل في العلم، وانسيابٍ في القول، موسوعيٌ ملازم للدرس والتدريس في كل الفنون « يجلس لأداء الدرس حتى تطلع الشمس.. يعلم الناس حتى صلاة الظهر، فيصلي بالناس، ويعود إلى بيته؛ ثم يذهب إلى المسجد، فيصلي العصر بالناس، ويعطيهم عقب الصلاة وهم جلوس بعض الأحكام الفقهية في دقائق،.. يصلي بالناس صلاة المغرب، ويجلس للدرس حتى يصلي العشاء....ويتكرر ذلك في كل يوم»[1].

وقد أبرز الشيخ ابن سعدي في تفسيره تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - بشكل واضح- المقاصد بأنواعها المختلفة، ووظّف هذه المقاصد في خدمة التفسير وبيان الغاية من كلام الله، مجتهداً في ذلك بحسب وُسْعِهِ وطاقته:

---

(١) عبد الرحمن العدوي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عدد٤٤.

المبحث الأول: عناية ابن السعدي بالمقاصد القرآنية:

ظهرت عناية الشيخ -رحمه الله- بمقاصد القرآن جلية في تفسيره؛ واستخدم التقصيد بشكل لافت وبمنهجية واضحة مضطردة، وهو بذلك يكون مواكباً لحركة التجديد في التفسير وتطوير أدواته بانضباط والتزام بقواعد البحث والاجتهاد، يقول- -رحمه الله-- في معرض تفسيره والكلام عن آيات الله «وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها..»[١]. « أي: تعقلها أولو الألباب ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها»[٢].

وقد قعّد الشيخ وأصل لقاعدة جليلة في القرآن: وهي عدم ترك أمر من مقاصد هذا الدين إلا وبيّنه الله ودفع لتقويته بالحجج والبراهين، ففي تفسيره لقوله تعالى﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأعراف: ٧١] قال -رحمه الله-: «.. فإنها لو كانت صحيحة لأنزل اللّه بها سلطاناً، فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصا الأمور الكبار - إلا وقد بين اللّه فيها من الحجج، ما يدل عليها، ومن السلطان، ما لا تخفى معه»[٣]. فكيف ظهرت عناية الشيخ بالمقاصد وما هي معالم اهتماماته بها:

---

(١) تفسير ابن السعدي، ص ٥٠٧.

(٢) ص ٨٨٢.

(٣) ص ٢٩٤.

المطلـب الأول: تنصيصـه علـى الغايـة المقاصدية مـن تفسـيره: فقد أوضح -رحمه الله- غرضه من تفسيره في مقدمة الكتاب، وبيّن أنّ المقصد الأهم من كتاب الله الذي تدور عليه جميع المقاصد هو الهداية، وأنّ النظر للفظ مفصولاً عما سيق لأجله الكلام خروج عن الصحيح وقصورٌ عن المطلوب والمنشـود، فقال -رحمه الله-: «... وقـد كثرت تفاسـير الأئمة رحمهم الله لكتـاب الله، فمن مطوَّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقتصر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظـر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك أن يُجعَل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم..»[1].

فبيّـن -رحمـه الله- الغاية من تفسـيره؛ وهو بيـان المقاصـد لا الاقتصار على المعنى واللفظ، وقد انتهى -رحمه الله- من كتابته عام١٣٥٤هـ، وبعد أربع عشـرة سـنة لخّص الشـيخ -رحمه الله- تفسـيره[2] ولم ينس ذكر هـذا المقصد، بل ونص عليـه وأبـرزه فقال- يصف القـرآن-: « .. فتجده في آية واحدة يجمع بين الوسـائل والمقاصد، وبين الدليل والمدلول، وبين الترغيب والترهيب، وبين العلوم الأصولية والفروعيـة، وبين العلـوم الدينية والدنيويـة والأخروية، وبين الأغـراض المتعددة والمقاصد النافعة»[3] وقال: « أشـار عليَّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطَّول؛ يحتوي على خلاصة ذلك التفسـير، ونقصر فيه على الكلام على بعض الآيـات التي نختارها وننتقيها من جميع مواضع علـوم القرآن ومقاصده»[4]، فكرر

(١) تفسير السعدي، ص ٢٩.

(٢) سماه تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن.

(٣)()تيسير اللطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن ١ / ٣.

(٤) نفس المرجع والصفحة.

المقصد وتقصيد التفسير أكثر من مرة في مقدمته، وجعل أغراضه من الملخص بيان المقاصد، فقد بيّن -رحمه الله- أنّ الكلام لا يستقيم فهماً ولا يتضح دلالةً إلا إذا فُهم المقصود منه، قال- -رحمه الله-- « ..كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومآله؟»[1] «.. السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علماً وخبرة، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف: ٦٨] فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خُبراً بالأمر.. حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود»[2].

وقد وفّى -رحمه الله- بما ألزم به نفسه، فخرج التفسير والملخص ليسد ثغرةً من ثغرات التفسير، ويضع لبنته وبصمته فيه.

المطلب الثاني: التفريق بين المعنى والمقصد: يرى الباحث أنّ من مقتضيات التدبر المأمور به البشر للقرآن تقتضي تفريقاً بين المعنى والمقصد في الآية القرآنية؛ ولا يعبأ الباحث بالخلافات الفلسفية الكلامية والأصولية، وكل ما أرمي إليه هو أنّ النص القرآني لا تقتصر دلالاته على الألفاظ الظاهرة، بل هناك أبعاد ودلالات ومقاصد تستنبط بضوابط منهجية وأصول دلالية مضطردة تمنع العبث وتطلق الفهم بشرط الانضباط الدلالي؛ حتى يسلم الفهم وينساب التواصل وتُجتنب الأمراض الدلالية[3]، ويفك الاشتباك بين حدود الدلالة والتداولية[4]، ولذلك

(١) ص ٤٨١. في تفسير قوله تعالى﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف: ٦٨].

(٢) ص ٤٨٢. حين استخرج الدروس المستفادة من قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف.

(٣) كعدم ملاءمة اللفظ للمعنى، أو السجع المتكلف، والدلالة نوعان دلالة لفظية ودلالة غير لفظية سواء كانت وضعية أم عقلية أم طبيعية.

(٤) انظر الدكتور إدريس مقبول، «الأفق التداولي: نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية»

اختلف المفسرون في قدراتهم وتدبراتهم وآفاق أفهامهم.

ومن سار من المفسرين في درب المقاصد وتقصيد التفسير نهج هذا النهج وأبرز الجانب المقاصدي في تفسيره، بغض النظر عن المقصود الدلالي للفظ؛ فقد يفسر الآية ويظهر المقصد بصيغة المقصد، أو يفسرها بالمعنى الظاهر(١) ويعبر بالمقصد بلفظ المعنى(٢) كما فعل الإمام الطبري من قبل(٣).

ويؤكد ابن سعدي على التفريق بين المعنى اللغوي وبين المقصد؛ وعبر عنه بالمراد، فقال: « وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه؛ فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله... »(٤).

ويستخدم الإمام ابن سعدي عبارة المعنى أحياناً للدلالة على المقصد، يقول -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا ﴿٦٧﴾ ﴾ إلى الأمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٦٧] إلى ورائهم ليبعدوا عن النار. والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة

وخاصةً في مبحثه الأول حين درس آلية التأويل عند ابن عاشور، ومقارنته بالمتداولين المعاصرين. ٢٠١١م، عالم الكتب الحديث.

(١) أقصد بالظاهر المعنى الواضح المنكشف، ولم أقصد معناه الأصولي الذي يحتمل التأويل فيرجح الظاهر ويؤول المرجوح.

(٢) المعنى عند الأصوليين هو المقصد، يقول الشاطبي: «واللفظ إنما هو وسيلة إلى تَحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود» الموافقات، ٢، ٥٧.

(٣) انظر في فصل التمهيد، ٣: التفسير المقاصدي عند السلف ومن بعدهم.

(٤) في مقدمة تفسيره، ص٣٠.

العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم»[1] وبعد أن ذكر المعنى استطرد في التفسير وأظهر المقصد صراحةً فقال:».. وفي ذلك الموطن ما ثَمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. **المقصود**: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة»[2].

وفي تفسيره لقوله تعالى﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً ﴾

[الإسراء: ٦٠] قال: «أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ ﴾ -التي ذكرت -﴿ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم. **والمعنى**: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً رجع عنه[3] بسبب أنّ ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقا للعادة. والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضا من الخوارق فهذا الذي أوجب لهم التكذيب. **فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة**؟ أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله

---

(١) ص ٦٩٨.

(٢) ص ٦٩٨.

(٣) لم يصح في ذلك شيء، انظر دراسة د. سعد بن عبد الله الحميد، أستاذ الدراسات العليا بجامعة الملك سعود، حيث أثبت ضعف الخبر الوارد في ذلك، وبين أنّ المسألة كانت جحوداً من كفار أصلاً لا ردةً عن الدين: موقع طريق الإسلام: https: //ar.islamway.net/.

وصرفها عنهم»[1].

المطلب الثالث: القابلية للاستفادة المقاصدية: وهي الاستعداد النفسي والفطري لمعرفة المقاصد الربانية من الآيات القرآنية والآيات الكونية، فيلمح الشيخ -رحمه الله- إلى أنّ القرآن يوجه أبناءه للبعد النفسي للمنكرين والكاذبين؛ فيوجه القرآن أتباعه توجيهات لحسن الخطاب والتعامل مع المنكرين، ومن جملة هذه النصائح والتوجيهات بيان عدم القابلية عند المنكرين لملاحظة المقاصد القرآنية والمقاصد من خلقهم وكل مخلوق حولهم، قال -رحمه الله- ﴿---- نظر فكر واعتبار ---- - أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[الأنعام: ٩٩] أي: انظروا إليه، وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإنّ في ذلك عبراً وآيات، يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده، وكمال اقتداره وعنايته بعباده. ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر وليس كل من تفكر، أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[الأنعام: ٩٩] فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه، عقلاً وفطرة، وشرعاً"[2]. وقال

(١) ص ٤٦١.

(٢) ص ٢٦٧.

-رحمه الله- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾[يونس: ٧] فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود"[1].

ويبين الشيخ فقهاً عظيماً ومقصداً دعوياً يحتاجه الدعاة في كل زمان، وهو حسن الخطاب وحسن التأتي وحسن التوقيت وحسن الكلام: ففي تفسير قوله تعالى ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦] يقول -رحمه الله-:" ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية،... وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأنّ المقصود منها ضائع"[2].

وفطن الشيخ للمقاصد العكسية التي يستخدمها الطغاة لصرف الناس عن مقصدهم وغايتهم، ففي تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩] قال -رحمه الله-: « الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره؛ خلقت لهم الأفئدة

---

(١) ص ٣٥٨.

(٢) ص ٦٣٢.

والأسماع والأبصار لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود»[1]. وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ذكر -رحمه الله- المقصد من الاحتجاج بالقدر وأنّ مقصودهم المشاغبة على الدين ودفعه عن طريقهم، فقال -رحمه الله-: «ومنها- أي من هذه الشبه-: أنّ احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أنّ الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ»[2].

(١) ص ٣٠٩.

(٢) ص ٢٧٨.

المبحث الثاني: أنواع المقاصد القرآنية في تفسير ابن السعدي

تنوعت الاستنباطات المقاصدية عند الشيخ ابن سعدي- رحمه الله- فمنها الاستنباطات الظاهرة الجلية التي نص عليها القرآن بجلاء ووضوح تام، ومنها المستنبطة التي تحتاج إلى دراية وقدرة فائقة على استخراجها ومعرفة المقصد المعنيّ منها، ومنها المقاصد العامة والكلية للقرآن الكريم، ومنها المقاصد الجزئية للآية والمقطع.

وترجع أهمية المقاصد والوقوف عليها إلى أهمية حسن استقبال مراد الله من كلامه، وفهم مراده أحسن الفهم، كما قال الله عز وجلّ ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٨] فمعرفة المراد والمقصد تورث أحسنية الفهم وتخلف أحسنية العمل، وفي المقابل: فإنّ أسوأ الفهم يورث أسوأ العمل وعكس المراد؛ فقد فهم بعض الناس قوله تعالى ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٥] على غير مراد الله؛ فقالوا عن الرجل المقدام المجاهد الذي اقتحم الصفوف في معركة القسطنطينية أنه ألقى بنفسه إلى التهلكة، ففهموا عكس مراد الله فيها، حتى بيّن ذلك أبو أيوب الأنصاري، فأفهمهم أنهم حين تركوا الجهاد وانشغلوا بأولادهم وأموالهم ظناً منهم أنهم قد أدّوا واجبهم فانتصر الدين وانتشر الإسلام انتهى واجبهم تجاه الدين فنزلت الآية تفهمهم أنهم بهذا الفكر هلكوا، وأنّ نصرة الدين لا ترتبط بزمن أو إنجاز، بل هي المحيا والممات، فكانت التهلكة هي الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد[1].

وينص الشيخ على أنّ هذه المقاصد قد تخفى عن كثير من الناس إما جهلاً أو

---

(١) انظر القصة كما رواها أبو داود، والترمذي، وابن أبي حاتم، وابن جرير وقال الترمذي: حسنٌ صحيح غريب. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

انصرافاً عنها أو لانعدام آلة الاستبصار والتفكر، يقول -رحمه الله-: « ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك المعنى المقصود؛ ولهذا قيّد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩] فإنّ المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه، عقلاً وفطرةً وشرعاً"[١].

فما هي أنواع المقاصد عند الإمام ابن سعدي -رحمه الله-؟

المطلب الأول: المقاصد الظاهرة والمقاصد المستنبطة: تنبه الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- لإبراز مقاصد القرآن الظاهرة ونصّ عليها وأكّد عليها، واستطاع أيضاً -رحمه الله- استنباط المقاصد المخفية التي تحتاج إلى تدبر واجتهاد وبعد نظر:

أولاً: مقاصد ظاهرة: وهي المقاصد المنصوص عليها في القرآن عن القرآن، أو مقاصد الآية أو المقطع من القصة أو المشهد؛ ففي قوله تعالى﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وبعد تفسيره للآية يقول الشيخ عن المقصد من نزول القرآن: «وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرةً، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]»[٢]، وفي تفسير قوله تعالى﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[الروم: ٤٦] يبرز الشيخ مقصداً جلياً ذكرته الآية، وهو مقصد ظاهر لكنه

---

(١) ص ٢٦٧.

(٢) ص ١٨٩.

صعب المنال بعيد الطلب؛ يحتاج شـدة وهمة وجُهداً وجَهداً، فقال -رحمه الله-: «﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ من سـخر لكم الأسـباب وسـير لكـم الأمور. فهذا المقصـود من النعم؛ أن تقابل بشـكر اللّه تعالى؛ ليزيدكم اللّـه منها ويبقيها عليكم. وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي فهذه حال من بدَّل نعمة اللّه كفراً ونعمته محنة؛ وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره»[1]. وفي تفسيره لقوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]قال الشـيخ- -رحمه الله--: "هذه الأشـياء، التي وصف الله بها رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها، وهي خمسـة أشـياء: أحدها: كونه] شَـاهِدًا [..الثاني، والثالث: كونه] مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا [.. الرابع: كونه] دَاعِيًا إِلَى اللهِ [..الخامس: كونه] سِرَاجًا مُنِيرًا[»[2].

ثانيـًا: مقاصد مسـتنبطة: وقد برع الشيخ -رحمه الله- في تدبره وفقه استنباطه؛ فقد كانت هذه الاسـتنباطات أمارةً جليةً على فقه الشـيخ ووعيه المقاصدي للقرآن الكريم وآياته، ففي تفسيره لقوله تعالى﴿ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحج: ١٣] يقول -رحمه الله-: «﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ أي: هذا المعبـود ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ أي: القريـن الملازم على صحبته، فـإنّ المقصود من المولى والعشـير، حصول النفع، ودفع الضرر، فإذا لم يحصل شـيء من هذا، فإنه مذموم ملوم»[3]. وفي تفسـيره لقوله تعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ

(١) ص ٦٤٣.

(٢) ص ٦٦٧ باختصار شديد.

(٣) ص ٥٣٤.

فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[يوسف: ٣٠] يقول الشيخ- بذكاء وخبرة-: «وكان هذا القول منهنّ مكراً؛ ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحقق امرأة العزيز، وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكراً، فقال: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ»[1].

المطلب الثاني: المقاصد الكلية للقرآن الكريم: اختلفت وجهات المفسرين في تحديد المقاصد الكلية للقرآن الكريم، واختلفوا في طريقة عرضها والإشارة إليها، فمنهم- وبالأخص المتأخرين المعاصرين- من نصّ عليها وجمعها في مكان واحد من تفسيره وحصرها على شكل نقاط محددة، كابن عاشور ومحمد رشيد رضا، فقد حصرها ابن عاشور بثمانية مقاصد أصلية فقال: « أليس قد وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا وهي ثمانية أمور ...»[2] وحصرها رشيد رضا بعشرة مقاصد فقال: «لِأَنَّ الْمَقْصِدَ الْأَوَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ الْهِدَايَةُ بِأَنْ تَكُونَ تِلَاوَتُهُ عِظَةً وَذِكْرَى وَعِبْرَةً يُنَمَّى بِهَا الْإِيمَانُ وَالْمَعْرِفَةُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ..»[3] ففصل وأطال النفس في عشرات الصفحات لكل مقصد، وجعل لكل مقصد أركاناً ومباحث[4]، ومن العلماء المتقدمين من حصره في مقصد واحد ومحوري تدور عليه كل الأغراض والأهداف، ومنهم من خلط بين المقاصد والموضوعات الرئيسة وجعلهما أمراً واحداً.

(١) ص ٣٩٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٣٩.

(٣) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)٥، ٣٦١

(٤) بدأ بالمقصد الأول في ج٥، وبدأ بالمقصد الثاني ج١١،ص ١٠٨ وواصل الشرح عن بقية المقاصد بالتوالي بعد ذلك.

وما يهمنا هنا هو وقوف الشيخ ابن سعدي على مقاصد القرآن الرئيسية وكيفية عرضها، فلم يجمع الشيخ المقاصد العامة للقرآن بشكل محصور، بل نثرها في طيات تفسيره من خلال الشرح والتوضيح، وجعل الشيخ في مقدمة تفسيره أنّ مراد الله ومقصده الأسنى في القرآن هو المقصد الهدائي، قال في المقدمة: «.. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم»[1] وهذه الهداية تحتاج للتدبر والفهم، فجعل الشيخ مقصد التدبر من مقاصد نزول القرآن وهو مقصد الوسيلة؛ للوصول للعمل بعد العلم والبصيرة، فقال- -رحمه الله-- : « وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه المقصود بإنزال القرآن»[2]. وقال -رحمه الله-: «القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود»[3]. وجعل تعظيم هذا القرآن في القلوب والأفعال مقصداً أساسياً لنزوله فقال -رحمه الله-: «ذلك أنّ الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها..»[4]

المطلب الثالث: المقاصد الخاصة الموضوعية والجزئية: أفاض الشيخ في ثنايا تفسيره الكلام عن المقاصد الجزئية للآيات القرآنية، كالقصص و العقائد و العقوبات وما إلى ذلك من موضوعات القرآن المستظلة جميعاً بمقصد واحد عظيم- عند الشيخ- وهو الهداية، وكل موضوعات القرآن وآياته تنزع لهذا المقصد

(1) ص ٣٠.

(2) ص ١٨٩.

(3) ص ٧١٢.

(4) ص ٢١٠.

الأسنى والغاية الأعلى. فكيف نهج الشيخ لإبراز هذه المقاصد:

الأول: التوجيه المباشر لبيان المقصد والإشارة إليه سواء كان مقصداً جزئياً أو موضوعياً: فمن المقاصد الخاصة أو الموضوعية عند الشيخ: المقاصد الخاصة بالقصص القرآني، فبعد تفسيره لقصة يحيى ومريم في سورة آل عمران قال: «.. فأنت- يا أيها الرسول- لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتقصها على الناس، وإنما الله نبأك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص؛ أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر: الاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث، وغيرها من الأصول الكبار»[1].

وفي بيانه للمقصد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال-رحمه الله- بعد تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[الأعراف: ١٦٤] وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ : أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما نجع فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم. وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل اللّه أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي»[2]. وفي بيانه للمقصد الجزئي للآية يقول الشيخ بعد تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطور: ٤٣] «.. فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوحدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة..»[3] وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ

---

(١) ص ٩٦٦.

(٢) ص ٣٠٦.

(٣) ص ٨١٦.

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾[آل عمران: ١٩٦ – ١٩٨]. يقول الشيخ -رحمه الله-: «وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات؛ فإنّ هذا كله] متاع قليل [ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ويعذبون عليه طويلاً»[1].

ولولا ضيق المساحة لأفردت منهجاً للشيخ في بيان مقاصد الأحكام، ولعلّ دراسةً مستقلةً تخرج في ذلك، وخاصة آية الدَّيْن التي فسر مقاصدها الشيخ بإبداع وإتقان.

الثاني: يستدل بالمقاصد المركبة باستدراج القارئ من مقصد أولي لمقصد نهائي هو مقصد المقصد: ففي تفسيره لقوله تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦] يقول-رحمه الله-: «ثم امتنّ عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمراكب، والمناكح ونحوها، قد يسر اللّه للعباد ضروريها ومكمل ذلك، وبين لهم أنّ هذا ليس مقصوداً بالذات، وإنما أنزله اللّه ليكون معونةً لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال:] وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ [من اللباس الحسي؛ فإنّ لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح»[2].

وفي تفسيره لقوله تعالى: فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) قال

(١) ص ١٦٢.

(٢) ص ٢٨٥.

-رحمه الله-:» فلما دعا العباد النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا..»[1].

الثالث: تصحيح المقصد وتوجيهه الوجهة الصحيحة لا كما يعتقد بعض الناس: ففي تفسيره لآية البر العظيمة في سورة البقرة قال -رحمه الله- « يقول تعالى﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف..»[2] وعن إنزال الآيات والبراهين قال -رحمه الله-:﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾[الإسراء: ٥٩] أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب ليرتدعوا عما هم عليه»[3].

الرابع: تحري المقصد الصحيح وتحقيقه فعلاً: ومنه الحث على حسن الخطاب في الدعوة إلى الله ومعرفة المقصد الصحيح لتؤتي الدعوة أُكلها، لا لمجرد القيام بالدعوة فقط من غير رؤية ولا أفق، يقول -رحمه الله- في سياق تفسيره لقوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[النحل: ١٢٥] «فإن كان المدعوُّ يرى أنّ ما هو عليه حق، أو كان داعيةً إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً. ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي

(١) ص ٨١١.

(٢) ص ٨٣.

(٣) ص ٤٦١.

كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها»[1]. في نفس الباب ولكن في سورة أخرى وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ [نوح: ٥ - ٦] قال -رحمه الله-: «أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأنّ فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه. ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ [نوح: ٩] كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود»[2] وقال في سورة المدثر ﴿ قُمْ ﴾ -أي بجد ونشاط- ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ٢] الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه"[3] وفي سورة البقرة وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٩] «ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور، أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً؛ فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود»[4].

(١) ص ٤٥٢.

(٢) ص ٨٨٨.

(٣) ص ٨٩٥.

(٤) ص ٨٨.

المبحث الثالث: توظيف المقاصد في تفسير ابن السعدي:

للمعرفة المقاصدية القرآنية أهمية كبيرة في فهم القرآن وحسن التعامل مع الواقع ومطابقته مع القرآن أحسن تطابق، وقد برع الإمام ابن عاشور في هذا الفن وأصّل له معتمداً على التراكم المعرفي ممن سبقه حتى نضج بين يديه -رحمه الله-[1]. وقد أجاد الشيخ ابن سعدي في هذا المجال، وأفاد من معين القرآن الخصب، وفطن على ضرورته في التدبر والاستنباط. وقد كان لفقه الشيخ وخبرته الطويلة عصمةٌ من الزلل في هذا المضمار الصعب؛ فهو يحتاج لقدرة غير عادية في التوظيف والاستدلال، قلما توجد إلا عند عالم راسخ مكين عليم؛ حتى لا ينزلق عن البرهان العلمي الصحيح، بل يحسن وضع الأمور في نصابها الصحيح من غير تكلف أو ضيق أفق.

وسأعرض في هذه الورقات نماذج لحسن توظيف الشيخ للمقاصد القرآنية في الفهم والاستدلال:

المطلب الأول: الاستدلال بالمقاصد للتربية والتوجيه: ففي تفسيره لقوله تعالى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾[آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨] قال -رحمه الله-:

---

(١) انظر لتفصيل ذلك: كتاب د إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، رسالة دكتوراة طبعها المعهد العالمي للفكر الإسلامي،٢٠٠٥م، ط٢، وكان شرحاً لرؤية ابن عاشور في المقاصد بدراسة مقارنة. وكذلك كتاب التهامي الوزاني، في كتابه: توظيف المقاصد في فهم القرآن وتفسيره، موتمر: فهم القرآن مناهج وآفاق، جمعية المحافظة على القرآن الكريم،٢٠٠٨م ١٤٢٩هـ.

« هذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله متاع قليل، ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلا ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيتَ ما تؤول إليه. وأما المتقون لربهم، المؤمنون به- فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة، وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزراً يسيراً، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجراً عظيماً، وعطاءً جسيماً، وفوزاً دائماً»[1].

المطلب الثاني: الاستدلال بالمقاصد على مواجهة المخالفين: ففي تفسير قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤] يقول -رحمه الله-: «..لما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زاداً لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود

(١) ص ١٦٢.

منهـا وأنّ الله جعلهـا ابتلاءً وامتحانـاً لعباده، ليعلم من يقـدم طاعته ومرضاته على لذاته وشـهواته، فجعلوها وسـيلةً لهم وطريقاً يتزودون منهـا لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهـم، وعلموا أنها كما قال الله فيها [ذلك متاع الحياة الدنيا] فجعلوها معبراً إلى الـدار الآخـرة، ومتجراً يرجون بهـا الفوائد الفاخـرة، فهؤلاء صارت لهـم زاداً إلى ربهم»[1].

وفي تفسـيره لقولـه تعالـى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]عزز هـذا التوجيه بقوله -رحمـه الله-: ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ منعوها حقهـا التي هي بصـدده، فإنها مخلوقة لعبـادة اللّه وحده، فهـؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشـهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها»[2].

المطلب الثالث: الترجيح بالمقاصد واستخراج الحكم والأحكام: نهج الشيخ في اسـتخراج الحكم والأحكام في تفسـيره إلى فن المقصد مـن الآية، ولجأ إليه في الترجيـح بين المختلف في التفسـير، ففـي قوله تعالـى﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾[النسـاء: ٩٢] يقـول -رحمه الله- « ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغيـر والكبيـر، والذكـر والأنثى، والصحيـح والمعيب، في قول بعـض العلماء. ولكـن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيـب في الكفارة؛ لأنّ المقصود بالعتق

(١) ص ١٢٣.

(٢) ص ٦٣١.

نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرق أنفع له فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك؛ فإنّ التحرير: تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك فإنه واضح»[1].

ومن وجوه توظيف المقاصد عند الشيخ -رحمه الله- بيان الراجح من القول بعد بيان الاحتمالات في الآية، فينهج -رحمه الله- بمنهج الاحتمال في التفسير ثم يقوم بالترجيح بنظرة مقاصدية ولا أروع، يقول- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى في سورة الغاشية معدداً لمعاني الآية: « ويحتمل أن المراد بقول﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣﴾ [الغاشية: ٢ - ٣] في الدنيا؛ لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباءً منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف وهو يوم القيامة، ولأنّ المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها؛ ولأنّ الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا... وأما طعامهم ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾ [الغاشية: ٦ - ٧] وذلك أنّ المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة نسأل الله العافية»[2].

---

(١) ص ١٩٢.

(٢) ص ٩٢١.

الخاتمة والنتائج والتوصيات

بعد هذا العرض لدراسة المقاصد عند الإمام ابن سعدي في تفسيره الموسوم ب « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» تبين للباحث وقوف الشيخ- -رحمه الله-- على مقاصد القرآن عامة وآياته بشكل مخصوص، واستطاع الشيخ إظهار واستنباط هذه المقاصد وتوظيفها في بيان الحكم والترجيح من خلالها.

ويوصي الباحث بالنقاط الآتية:

١ - العناية بهذا الفن من قبل أهل التفسير خاصة وأهل الشريعة بشكل عام؛ لما له من أهمية في كشف وبيان مراد الله بحسب الجهد البشري.

٢- قيام مؤسسة علمية بفريق بحث بكتابة تفسير كامل للقرآن الكريم يقوم على تقصيد التفسير وبيان مقصد كل سورة وآية ومقطع، ليكون تفسيراً مقاصدياً بالدرجة الأولى.

٣- التحذير من الدعوى المقاصدية في فهم القرآن ممن لا يحسن ذلك، أو ممن كان هدفه التشغيب على الدين وأهله؛ وعلامة هؤلاء الأخذ بالمقاصد الجزئية، كلُّ مقصد يناقض بقية المقاصد ليجعل القرآن عنين؛ فبدعوى تحرير المرأة- وهو مقصد شرعي- تخرج المرأة من حيائها ودينها؛ فتحرير المرأة مقصد لا ينفك عن باقي المقاصد في شأنها، وهكذا في بقية مواضيع الدين.

٤- أوصي المفسرين والعلماء باستصحاب مقاصد الدين ومقاصد القرآن في تعاطيهم مع التفسير والفتوى والفكر والثقافة؛ فهو عاصمٌ عن الزلل، رادع عن الخطل، بل هو موجه للفهم ومسدد للرأي.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والحمد لله رب العالمين.



المراجع

١) الأفق التداولي: نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، د إدريس مقبول، ٢٠١١م، عالم الكتب الحديث.

٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين محمد الشيرازي البيضاوي،تحقيق: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

٣) بين مقاصد التفسير والنقد التفسيري، د. فريدة زمرد، مجلة الإحياء، . فبراير ٢٠١٩.

٤) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ.

٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ٢ أبو القاسم، محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: د عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.

٦) تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م.

٧) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، أبو الفداء ابن كثير، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت، ط١ - ١٤١٩ هـ.

٨) تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن الرازي ابن أبي حاتم،تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة:

الثالثة - ١٤١٩ هـ.

٩) توظيف المقاصد في فهم القرآن وتفسيره، التهامي الوزاني، جمعية المحافظة على القرآن الكريم،٢٠٠٨م.

١٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.

١١) جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر الطبري، مكتب التحقيق بدار هجر، ط١.

١٢) الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون.

١٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد، القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

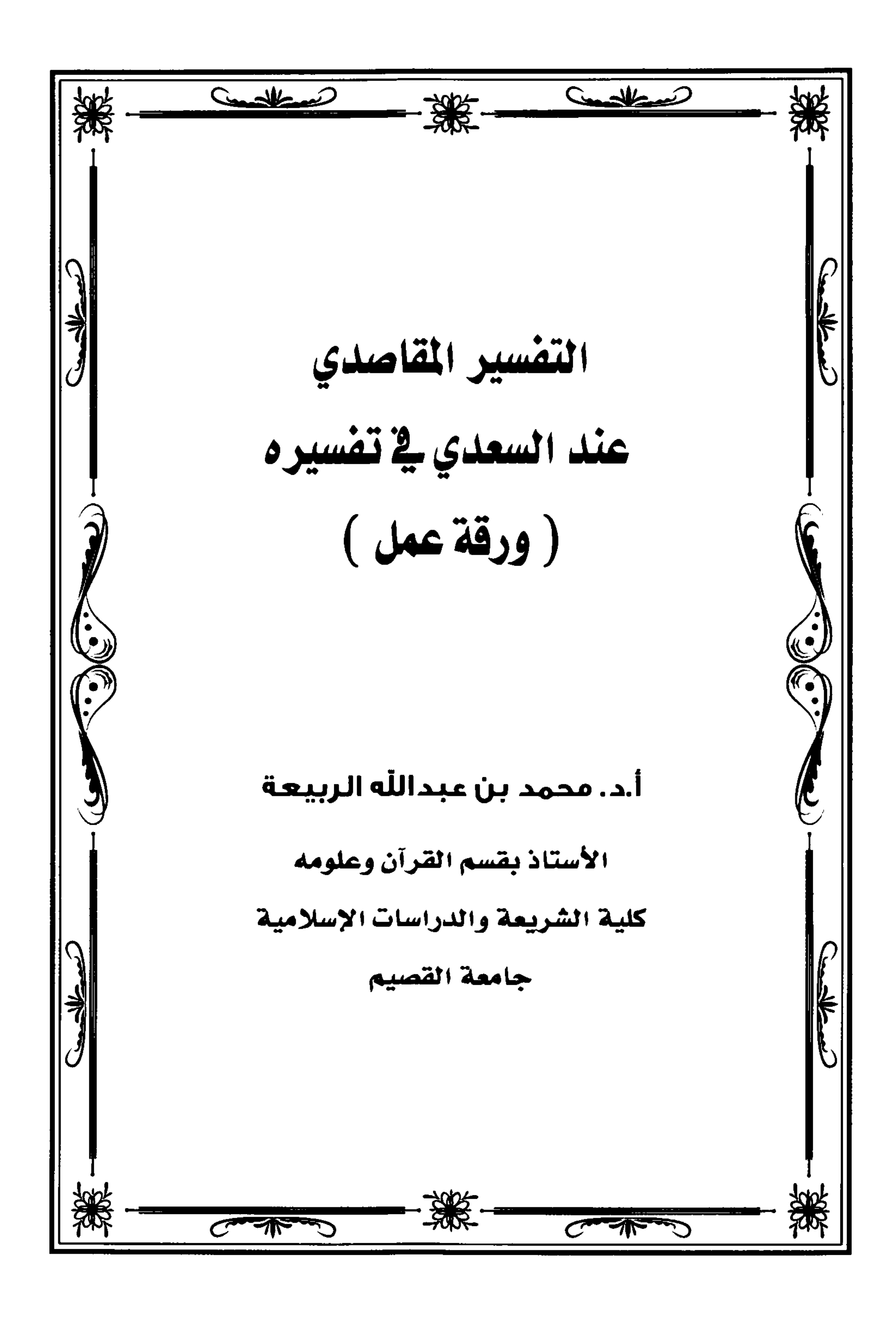
١٥) سنن أبي داود، أبو داود، دار الفكر، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد.

١٦) الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، عبد الرحمن العدوي،، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عدد٤٤.

١٧) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت،ط١.

١٨) المحـرر الوجيز في تفسـير الكتـاب العزيز، أبـو محمد ابن عطية الأندلسـي المحاربـي، عبد السـلام عبد الشـافي، دار الكتب العلمية، بيـروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ ه..
١٩) معالم التنزيل محيي السنة، أبو محمد بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سـليمان مسـلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع،ط٤ ١٤١٧هـ.
٢٠) المعجم الوسـيط، مجمع اللغة العربيـة بالقاهرة،(إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة.
٢١) معجم مقاييس اللغة، أبي الحسـين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، المحقق : عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.
٢٢) المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسـم، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار العلم الدار الشـامية، دمشق، بيروت، ١٤١٢ هـ.
٢٣) مقاصـد القرآن من تشـريع الأحـكام، د عبد الكريم الحامـدي، دار ابن حزم للطباعـة والنشـر والتوزيع الطبعـة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨، ٢٩. دار ابن حزم، ٢٠٠٨م.
٢٤) الموافقات، إبراهيم بن موسى الشهير بالشاطبي، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سـلمان، الناشـر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٢٥) نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشـور، د إسـماعيل الحسني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،٢٠٠٥م، ط٢.





التفسير المقاصدي
عند السعدي في تفسيره
(ورقة عمل)

أ.د. محمد بن عبدالله الربيعة

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة القصيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

فإن من أعظم العلوم المتعلقة بكتاب الله تعالى، علم المقاصد القرآنية التي تدور حول غايات القرآن وحكمته، وهو جانب مهم يحقق الغاية من كتاب الله تعالى ويوصل إلى الاهتداء والعمل به.

وقد عُني بذلك المفسرون قديماً وحديثاً، ذلك أن غاية المفسر هو بيان المقصود من الآيات الذي به يعرف مراد الله من كلامه سبحانه.

وهذا الجانب وإن لم يكن ظاهراً كنوع من أنواع التفسير إلا أنه مرتبط بالتفسير أصلاً في أي نوع من أنوعه.

وممن عنى بهذا الجانب عناية بارزة، السعدي في تفسيره **«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»**، وكتابه **«القواعد الحسان»**.

ولظهور هذا الجانب عند السعدي مع عدم إبرازه لدى الباحثين كجانب من الجوانب التي تميز بها السعدي حقيقة، بل إنني على يقين بأنّ تميّز السعدي وعظم أثره كان لعدة أسباب، منها: عنايته بجوانب الحكمة في الآيات.

ومن هنا جاء هذا البحث تلبية لدعوة اللجنة العلمية في مؤتمر السعدي، للكتابة عن جانب من جوانب التفسير عند السعدي رحمه الله تعالى.

وقد بنيت خطة هذا البحث على: **مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث.**

المقدمة: وفيها بيان أهمية البحث والحاجة إليه وخطة البحث.

التمهيد، وفيه:

* التعريف بالمقاصد والتفسير المقاصدي.

* علاقة التفسير المقاصدي بأنواع التفسير وأثره فيها.

* الحاجة إلى التفسير المقاصدي.

المبحث الأول : مقاصد القرآن العامة عند السعدي

المبحث الثاني : مقاصد السور عند السعدي

المبحث الثالث : مقاصد الأحكام عند السعدي

المبحث الرابع : مقاصد الآيات عند السعدي

المبحث الخامس : مقاصد الألفاظ عند السعدي

وقد سلكت منهج البحث الاستقرائي والتحليلي، وأعتبر أن هذه الورقة نواة لمشروع بحثي في تفسير السعدي في مجال المقاصد والحكمة في تفسيره.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل مباركـًا

وصلى الله على نبينا محمد..

التمهيد:

مدخل إلى التفسير المقاصدي :

لابد لنا قبل الدخول في بيان المقاصد عند السعدي أن نذكر مقدمات مهمة حول التعريف بالمقاصد والتفسير المقاصدي، وعلاقته بأنواع التفسير.

- **تعريف المقاصد:**

- **المقصد:**

لغة: ما ينتج عنه التوجه نحو الشيء، قَصَدَ الشيء أي: توجّه إليه سواء كان التوجه بالنظر أم بالجسد، قَصَدْتُ كذا أي: توجهتُ إلى هذا الأمر، أو إلى هذا الرأي[1].

وتأتي الكلمة عند أهل اللغة بمعان عدة منها:

- استقامة الطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ (النحل:٩).

- العدل والوسط بين الطرفين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ (فاطر:٣٢)[2].

اصطلاحًا: مقصد الكلام، هو أن يتوجه الكلام واللفظ إلى معنى معين، أو غاية يريدها المتكلم[3].

وأما المقاصد القرآنية؛ فهي: الغايات التي أرادها الله في كتابه، ويعبر عنها بـ: «مراد الله تعالى من كلامه»، وعرّفها الدكتور عبد الكريم حامدي بأنها: «الغايات

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٥).

(٢) لسان العرب (٣/ ٩٥)، مختار الصحاح (٢/ ٢٤).

(٣) نظرية المقاصد (ص: ١٩).

التي أُنزل القرآن لأجلها تحقيقًا لمصالح العباد»[1].

والمقاصد في كتاب الله تعالى منها ما هو صريح أي: غايته صريحة؛ مثل قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة: ٢)؛ يبين الله تعالى أن غاية هذا الكتاب ومقصده هو الهدى، فهذه الغاية صريحة.

وهناك مقاصد خفية في أثناء الكلام؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة: ٢)؛ غايتها: بيان علو هذا الكتاب وارتفاع منزلته، فهذه غاية لم يصرّح بها، وإنما فهمناها من اسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾.

والمقاصد مصطلح يشترك معه مرادفات أخرى مثل: **الحكمة، والعلة، والغايات، والغرض، والمراد، والأهداف**، ولا أرى فرقاً بينها.

مفهوم التفسير المقاصدي:

من خلال تعريفنا للمقاصد عامة، يمكن لنا أن نحدد مفهوم التفسير المقاصدي بأنه: **علم يبحث في الغايات التي يدور حولها القرآن كلياً أو جزئياً، واستخراج حكمه وهداياته.**

قال د. وصفي أبو زيد في كتابه التفسير المقاصدي: «هو لون من ألوان التفسير يبحث في الكشف عن المعاني والغايات التي يدور حولها القرآن الكريم كلياً أو جزئياً مع بيان كيفية الإفادة منها في تحقيق مصلحة العباد»[2].

فيظهر من خلال التعريف أن التفسير المقاصدي يتكون من:

١- المقاصد الكلية، ويدخل فيها مقاصد القرآن العامة، مقاصد السور.

٢- المقاصد الجزئية: مقاصد الآيات والأحكام والألفاظ.

---

(١) مقاصد القرآن (ص: ٢٩).

(٢) التفسير المقاصدي (ص: ٧).

منزلة التفسير المقاصدي:

التفسير المقاصدي جزء أساس من تفسير القرآن، ولا بد للمفسر من مراعاته، ذلك أن غاية المفسر بيان مراد الله تعالى من كلامه، وهو المقصود في الآيات.

قال ابن عاشور: «فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى، ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن»[(١)].

وقال الدكتور أحمد الريسوني: «المقاصد التفصيلية للآيات، هي التي يعنى بها عامة المفسرين»[(٢)].

وقال الدكتور وصفي أبو زيد في التفسير المقاصدي: "الفهم المقاصدي للقرآن الكريم، أو لسوره، أو موضوعاته، لا غنى عنه لأي نوع من أنواع التفسير، ولا ينفك عنه المفسر أبدا، وهذا يشير إلى محورية المقاصد وضرورتها وأولويتها لدى المفسر"[(٣)].

أثر التفسير المقاصدي:

يظهر أثر التفسير المقاصدي في التفسير من عدة جوانب:

١- بالنسبة للمقاصد العامة: فإن التفسير المقاصدي يبرز الغايات الكبرى التي أرادها الله في كتابه كالهداية، والتوحيد، والتزكية، وتحقيق المصالح الدنيوية والأخروية.

٢- بالنسبة لمقاصد السور: فإن التفسير المقاصدي يبرز المقصد العام للسورة،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٢).

(٢) الموقع الالكتروني للدكتور أحمد الريسوني، المقال بعنوان: «مقاصد القرآن».

(٣) التفسير المقاصدي (ص: ١٧).

ويربط جميع أجزائها به فيجعلها في صورة مترابطة، ويبين معاني الآيات وهداياتها من خلال مقصدها فيكشف عن أسرارها وحكمها وهداياتها، وهذا أعظم ما ينبغي العناية به في تفسير السور.

٤- بالنسبة لمقاصد الآيات: فإن التفسير المقاصدي يتجاوز المعنى اللغوي إلى بيان مراد الله تعالى في الآية، وما تضمنته من حكم وهدايات.

٥- بالنسبة لمقاصد الألفاظ: فإن التفسير المقاصدي يبيّن اللفظة بالمعنى الجامع بين معناها اللغوي، ومراد الله منها، وما يجلي معناها ببيان التعليل والحكمة.

وسيظهر في الدراسة التطبيقية من خلال تفسير السعدي، أمثلة موضحة لذلك بإذن الله تعالى.

- **علاقة التفسير المقاصدي بالتدبُّر:**

التفسير المقاصدي من أعظم نتائجه إبراز الجانب التدبري المتمثل في هدايات الآيات وتنزيلها على الواقع، ولهذا قال الشاطبي عند قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (ص: ٢٩) : «إنما التدبر يكون لمن التفت إلى المقاصد»[١].

وهو الطريق إلى هدايات السورة والآيات وإبراز جوانب العمل فيها.

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٠٩).

المبحث الأول: مقاصد القرآن العامة عند السعدي:

المطلب الأول: المراد بمقاصد القرآن

هي الغايات العليا التي أنزل القرآن لأجلها في دعوة الناس إلى عبادة الله، وتحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية(١).

قال العز بن عبد السلام: «معظم مقاصد القرآن: الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها»(٢).

وقال ابن جزي: «فاعلم أن المقصود بالقرآن: دعوة الخلق إلى عبادة الله وإلى الدخول في دينه، ثم إن هذا المقصد يقتضي أمرين لا بد منهما، وإليهما ترجع معاني القرآن كله؛ أحدهما: بيان العبادة التي دُعي الخلق إليها، والآخر: ذكر بواعث تبعثهم على الدخول فيها وترددهم إليها»(٣).

وقال ابن عاشور: «المقصد الأعلى من القرآن: صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية»(٤).

---

(١) مقاصد القرآن (ص: ٢٩).

(٢) قواعد الأحكام (١/ ٨).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٨).

(٤) التحرير والتنوير (٣/ ١٨).

المطلب الثاني: عناية السعدي بمقاصد القرآن العامة.

عنى السعدي بمقاصد القرآن عناية بالغة، وجاء كتابه: «القواعد الحسان» مترجم لذلك، فغالب الكتاب في إبراز مقاصد القرآن، وكلّياته، ومنهجه، وطريقته، وكل ذلك متعلق بالبعد المقاصدي.

ولعلّي أبيّن ذلك بالأمثلة:

في أول كتاب «القواعد الحسان» ذكر عدة قواعد في بيان المقاصد العامة للقرآن ومنها قوله:

(القاعدة الأولى: كيف يتلقى القرآن؟):

ومما قاله في بيانها: «فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم... فعلى الناس أن يتلقوا معاني كلام الله كما تلقاه الصحابة -رضي الله عنهم-، إنهم إذا قرؤوا عشر آيات أو أقل، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل فينزلونها على الأحوال الواقعة.. فيهتدون بعلومه ويتخلقون بأخلاقه...»، وختم كلامه بقوله: «ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذا القاعدة نصب عينه، ونزّلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم مواقعها، وكثرة فوائدها وثمراتها»[1].

وكأن السعدي في هذه القاعدة، يعطينا منهجًا لتفسير القرآن وفق مقاصده، وغاياته، وثمراته العملية.

وقد ألحق هذه القاعدة بقواعد متعلقة بها ومنها:

---

(١) القواعد الحسان (ص: ٩).

(القاعدة السادسة: في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده):

قال السعدي معلقاً على هذه القاعدة: «يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد ونفي ضده»[1].

(القاعدة السابعة: في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-):

قال السعدي معلقاً على هذه القاعدة: «هذا الأصل الكبير قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه صلى الله عليه وسلم...»[2].

(القاعدة الثامنة: طريقة القرآن في تقرير المعاد):

قال السعدي معلقاً موضحاً هذه القاعدة: «وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها... وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه وقرره بطرق متنوعة»[3].

(القاعدة التاسعة والعشرون: في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن):

قال السعدي في توضيح هذه القاعدة: «وهذه القاعدة تكاد أن تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير، وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة، وأصناف جليلة من العلوم... فأجلّ علوم القرآن على الإطلاق علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال...، ومن علوم القرآن صفات الرسل وأحوالهم...، ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير وأهل الشقاوة والشر...، ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر، وفي ذلك

---

(١) المصدر السابق (ص: ٢٠).

(٢) القواعد الحسان (ص: ٢٢).

(٣) المصدر السابق (ص: ٢٥).

مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل الله وسعة فضله، والإيمان باليوم الآخر...، ومن علوم القرآن: الأمر والنهي، وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله...»[1].

فتأمّل كيف نص في هذه القاعدة على مقصد القرآن الكلي؟ ثم علّق على القاعدة بذكر مقاصد القرآن العامة وهي:

١- علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال.

٢- صفات الرسل وأحوالهم.

٣- علم أهل السعادة والخير، وأهل الشقاوة والشر.

٤- علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة على أعمال الخير وأعمال الشر.

٤- الأمر والنهي، وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله.

(القاعدة الخامسة والأربعون: حث الباري في كتابه على الصلاح والإصلاح):

قال السعدي موضحاً هذه القاعدة: «هذه القاعدة من أعم القواعد، فإن القرآن يكاد يكون كله داخلاً تحتها»[2].

وغالب القواعد التي ذكرها السعدي في القواعد الحسان متجهة نحو الجانب المقاصدي في بيان المقاصد العامة والخاصة في القرآن.

ولذا فيمكن القول بأن هذا الكتاب يعتبر كتاباً في مقاصد القرآن العامة والخاصة.

---

(١) المصدر السابق (ص: ٨٧).

(٢) القواعد الحسان (ص: ١٢٠).

المبحث الثاني: مقاصد السور في تفسير السعدي.

المطلب الأول: التعريف بمقاصد السور.

مقصد السورة هو: «الغاية الجامعة لمعاني السورة ومضمونها»[1].

وتتجلى أهمية علم مقاصد السور ومنزلته بأمور:

أولاً: أن مقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليه، فهو أصل في فهم معاني كلام الله تعالى، ولهذا فإن معاني السورة لا تتحقق إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر واستخراج مقصدها.

قال الشاطبي: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها»[2].

ثانيـاً: أنه يعين على فهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً، ويوصل إلى معرفة الحق في تفسير كلام الله تعالى، والتبحر في دلالاته وهداياته، ودقائق معانيه.

قال البقاعي في كلامه على علم المقاصد: «وغايته: معرفة الحق من تفسير كل آية من تلك السور، ومنفعته: التبحر في علم التفسير»[3].

ثالثـاً: أن معرفة مقصد السورة الذي تنتظم به معانيها وآياتها، سبيل للسلامة من الخطأ، وتفسير كلام الله على غير مراده[4].

رابعًا: أن مقاصد السور من أعظم ما يتحقق بها ربط الآيات بالواقع، وذلك أن المتدبر في مقصد السورة يعايش السورة معايشة تبعثه على التفاعل والعمل والتطبيق.

---

(١) علم مقاصد السور (ص: ٧).

(٢) الموافقات (٣/ ٤١٥).

(٣) مصاعد النظر (١/ ١٥٥).

(٤) دلائل النظام (ص: ٧٥).

المطلب الثاني: عناية السعدي بمقاصد السور.

لم أجد للسعدي منهجاً مطرداً في بيان مقاصد السور، لكننا حين ننظر في ثنايا تفسيره للسورة، نجده يذكر أحياناً ما تتجه إليه السورة من مقصد عام، مثال ذلك:

قال في تفسيره لسورة الفاتحة: «فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على مالم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة... وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة»[1].

وقال في سورة آل عمران: "نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في دين الإسلام"[2].

وقال في سورة الإنسان: "ذكر الله في هذه السورة الكريمة، أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها"[3].

وقال في سورة النصر: "في هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك"[4].

وقال في سورة الناس: "وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها "[5].

وبالجملة فإن عناية السعدي في بيان مقاصد السور قليلة.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٢٥).

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٠٦٣).

(٤) المصدر السابق (٢/ ١١٠٦).

(٥) المصدر السابق (٢/ ١١٠٨).

المبحث الثاني: مقاصد الأحكام في تفسير السعدي

ظهرت عناية السعدي بإبراز الحكمة في التشريعات، ويعتبر هذا الجانب من أبرز من تميز به السعدي من جوانب المقاصد، ومن الأمثلة في ذلك:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ (المائدة:١)

قال السعدي في بيانها: «وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرّم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صوناً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام، احتراماً للإحرام وإعظاماً»(١).

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ (المائدة: ٣)

قال السعدي: «واعلم أن الله تعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده وحماية لهم من الضرر الموجود في الموجودات، وقد يبين ذلك لعباده وقد لا يبين»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٣﴾ (النساء: ٤٣)

قال السعدي في بيانها: «ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٣٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٤٠).

لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو الخشوع وحضور القلب».

قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾(البقرة: ١٩٧)

قال السعدي: «أي يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره»[١].

وقال أيضاً بعد بيانه للآية: "والمقصود من الحج الذل والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبرورا، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة"[٢].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ (المائدة: ٨٧)

قال السعدي: «ما أحل الله لكم من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراما خبيثا، فإن هذا من الاعتداء»[٣].

فتبين لنا من خلال هذه الأمثلة عناية السعدي بهذا الجانب وبروزه في تفسيره.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٩١).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٩١).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٤٢).

المبحث الرابع: مقاصد الآيات في تفسير السعدي

المطلب الأول: المراد بمقاصد الآيات

مقاصد الآيات هي: **الأغراض الخاصة التي تضمنتها الآية الكريمة في ضوء سياقها.**

ولا شك أن كل آية تتضمن غرضًا مستقلاً أو مكملاً لما قبلها في سياق الغرض العام للسورة؛ ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ (هود: ١)؛ ولا شك أن من الإحكام كون الآية دالة على معانٍ وأغراض مهمة مبنية ومنتظمة مع ما قبلها وبعدها.

والفرق بين معنى الآية ومرادها أو غرضها أو مقصدها هو: أن معنى الآية يغلب فيه المعنى اللغوي حسب لغة العرب أو اصطلاح الشرع، ويدخل فيه الغريب والمعاني اللغوية، وأقوال المفسرين في بيان معنى مفردات القرآن.

أما المراد أو الغرض فهو المعنى السياقي المحقق للغاية التي أرادها الله تعالى في كتابه، مثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ (الإخلاص: ٢).

فالمعنى اللفظي هو: بيان معاني الصمد في اللغة وأقوال المفسرين.

والمعنى السياقي أو المراد والغرض هو: ماذا يريد الله من عباده تحقيقه في هذه الآية، وهو العلم بكمال الله تعالى وغناه، وحاجة الخلق إليه، مما يلزم توحيده والتوجه إليه وجده.

وتظهر أهمية دراسة مقاصد الآيات من خلال عدة أمور:

١ - أن مقصد الآية هو تحقيق لمعرفة لمراد الله منها، وهو الأهم في بيان الآية.

٢- معرفة الرابط بين الآية وما قبلها وبعدها بحسب السياق؛ فغرض الآيات ومقصودها تنتظم به الآيات ومناسباتها.

٣- معرفة الفرق بين الآيات المتشابهة، فالطريق الأسلم لمعرفة الفرق بين الآيات المتشابهة، هو النظر لمقاصدها وأغراضها، مثال ذلك:

بيان سر التعبير في قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ (البقرة: ٦٠)، وقوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ (الأعراف: ١٦٠) والموقف واحد، فحين نتأمل في الغرض في قصة البقرة نجد أنه التذكير بالنعم وتعدادها على بني إسرائيل، فناسب التعبير بالانفجار الذي هو أظهر حال في كمال النعمة.

٤- تحقيق المعنى الصحيح في الآيات التي فيها إشكال: فكثير من الآيات التي يعدُّها المفسرون مشكلة أو موهمة التعارض؛ نجد أن الحلَّ الأسلم لبيانها، هو النظر في مقصودها وغرضها في السياق الذي وردت فيه.

المطلب الثاني: عناية السعدي بمقاصد الآيات

للسعدي طريقة تميز بها في التفسير، وأرى أنها من أبرز ما جعل للسعدي هذا القبول والأثر المبارك، وهو عنايته بالغايات والعلل والحكم، في الآيات وخواتيمها وإبرازها في تفسيره، حتى إن الذي يتتبع ذلك يجزم بأنه منهج مطّرد مقصود في تفسير السعدي، يؤكده ما وضحته في المطلب السابق من عنايته ببيان مقاصد القرآن في كتابه القواعد الحسان.

ولعلي في هذا المطلب أن أذكر أمثلة تجلي عنايته بهذا الجانب:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ (البقرة: ٢١).

قال السعدي: «هذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه»[1].

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢ ﴾ (الطلاق: ١٢)

قال السعدي: «أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٤).

ذلك، الظالمون المعرضون»[1].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (البقرة:٩٩).

قال السعدي: « ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند»[2].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾ (المائدة: ١).

قال السعدي في أولها: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود»[3].

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ (آل عمران:٧٩)

قال السعدي: «وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي صلى الله عليه وسلم لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله؟» «[4].

قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (آل عمران: ١٩٦)

قال السعدي: «وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من

---

(١) المصدر السابق (١/ ٨٧٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٦٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٣٨).

(٤) تفسير السعدي ١(/ ١٣٦).

متاع الدنيا، وتنعمهم فيها»[1].

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ (النساء: ١٢٦)

قال السعدي: «وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء»[2].

قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨).

قال السعدي: «وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً»[3].

ومما برز فيه السعدي بيان الحكمة من ختم الآيات بالأسماء والصفات، وهو من أبرز الجوانب التي عنى بها السعدي في تفسيره، بل جعله قاعدة من القواعد الحسان، ومن أمثلة ذلك:

قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٩٦ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

قال السعدي: « أي لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله انكفّ عما يوجب العقاب»[4].

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٩ ﴾ (آل عمران: ١٢٩).

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٦٢).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠٦).

(٣) المصدر السابق (١/ ٩٣٢).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٩١).

قال السعدي: «ختم الآية باسمين كريمين دالين: على سعة رحمته، وعموم مغفرته، وسعة إحسانه...، ولم يختمها باسمين أحدهما: دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر»[1].

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٤٦).

المبحث الخامس: مقاصد الألفاظ عند السعدي.

مقاصد الألفاظ هي: بيان ما تتضمّنه الألفاظ، وتراكيبها، وأساليبها، من أغراض وعلل.

وهذا الجانب هو المنهج المطرد في تفسير السعدي، بل هو أعظم ما يميزه في تفسيره ذلك أنه لا يكتفي في بيان الألفاظ بالمعنى اللغوي، ولا بيان التراكيب والأساليب كبيان بلاغي، وإنما يبين ما تضمنته من غرض وحكمة في ضوء سياقها، وهو المعنى المقاصدي.

ويمكن تقسيم هذا المبحث إلى مطالب:

المطلب الأول: بيان المعنى المقاصدي للفظة القرآنية

المعنى المقاصدي هو بيان ما تتضمّنه اللفظة من معنى غريب لغوي، وغرض سياقي، وهو ما يمكن أن نسمّيه: المعنى السياقي أو المقاصدي.

قال السعدي: «وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصّر يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية، بقطع النظر عن المراد، وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله»[1].

ومن أمثلة ذلك:

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ (الفاتحة: ١)

قال السعدي: «الله: هو الإله المعبود المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٩).

من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال»[1].

قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ (البقرة: ٥٩)

قال السعدي: « فقالوا بدل حطة: حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء»[2].

قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (التحريم: ١٢)

قال السعدي: «أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها».

قال تعالى: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الأنعام: ٩٦)

قال السعدي: «يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة»[3].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٥٣).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٦٦).

المطلب الثاني: بيان أغراض التراكيب والأساليب

السعدي يعنى عناية كبيرة باستنباط الدلالات الأصولية وأغراضها، والأساليب البلاغية وأسرارها، وهو جانب متعلق بالمقاصد وبيان الحكمة.

ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ (البقرة : ٣)

قال السعدي: " أتى بـ (من) الدالة على التبعيض، **لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به** إخوانهم »[1].

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ (البقرة : ٤)

قال السعدي: «﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ خصّه بالذكر بعد العموم، **لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل**»[2].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ (البقرة: ٢٩)

قال السعدي: "وفي هذه الآية العظيمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، **لأنها سيقت في معرض الامتنان**، يخرج بذلك الخبائث، فإن تحريمها أيضا يؤخذ من فحوى الآية، **ومعرفة المقصود منها**، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر، فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته، منعنا من الخبائث، تنزيها لنا»[3].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٠٦).

(٣) المصدر السابق (١/ ٤٨).

قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(البقرة: ٦١)

قال السعدي: « وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن قتل النبي لا يكون بحق، لكن لئلا يظن جهلهم وعدم علمهم»[١].

قال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٥٠)، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾(البقرة: ١٤٩)

قال: «خاطب الأمة عموماً فقال:﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أكّده بـ (إنّ) و(اللاّم) لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال»[٢].

فبيانه لغرض دلالة العموم وسر الإتيان بـ (إنّ) المؤكّدة واللاّم، إبراز للحكمة والغرض، وهو جانب من جوانب التفسير المقاصدي.

بالتأمل في هذه الأمثلة يظهر لنا عناية السعدي ببيان جوانب الحكمة، والعلة، والغرض، في الدلالات الأصولية والأساليب البلاغية، وهو كثير جداً في تفسيره، ويمكن اعتباره منهجاً بارزاً لدى السعدي، يظهر ذلك بسبب عنايته بالدلالات الأصولية واللغوية.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٦٠).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٨).

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات:

أهم النتائج:

من خلال ما بينته في هذه الورقة ظهر لي عدداً من النتائج المهمّة:

١- أن السعدي رحمه الله قد عنى ببيان المقصد والحكمة في الآيات بما يمكن اعتباره منهجاً بارزاً في تفسيره، ولذا فيعتبر تفسيره عمدة في ذلك.

٢- فيما يتعلق ببيان السعدي لمقاصد القرآن العامة، فإنه قد عنى عناية ظاهرة صرح بها في مقدمة تفسيره، وفي كتابه القواعد الحسان الذي ركز فيه على بيان مقاصد القرآن ومنهجه وطريقته.

٣- فيما يتعلق بعناية السعدي لمقاصد السور لم تكن عناية السعدي به ظاهرة.

٤- فيما يتعلق بعناية السعدي بمقاصد الأحكام، فقد تجلى لي عنايته الكبيرة بذلك بل لا تكاد تجد آية في الأحكام إلا وأبرز ما فيها من حكم ومقاصد تشريعية.

٥- فيما يتعلق بعناية السعدي بمقاصد الآيات، فقد ظهر لي جلياُ عناية السعدي بالمعنى السياقي أو المقاصدي، وقد صرح بذلك في مقدمة تفسيره، وعليه فيعتبر هذا الجانب منهجاً بارزاً في تفسيره.

٦- فيما يتعلق بعناية السعدي بمقاصد الألفاظ ودلالاتها وأساليبها، فإنه كثيراً ما يبيّن ذلك ضمن بيانه لمعنى الآية وهو جانب دقيق في التفسير.

أهم التوصيات:

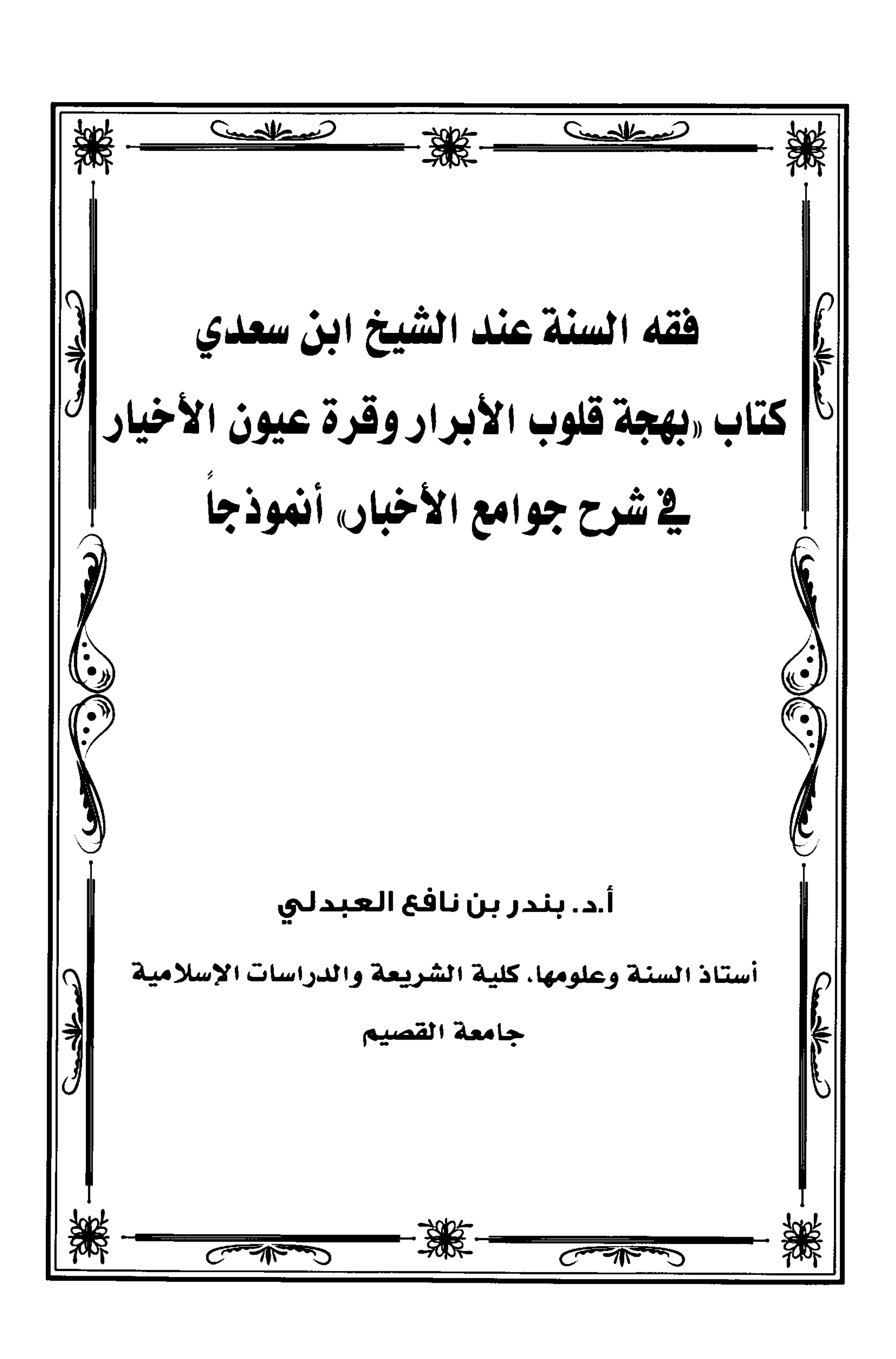
أوصي بما يلي:

٧- دراسة هذا الجانب عند السعدي في مشروع بحثي يبرز فيه منهج السعدي وطريقته.

٨- قراءة تفسير السعدي بتركيز على جوانب الحكمة والتعليل والغرض لتتكوّن لدى القارئ ملكة التفسير المقاصدي.

٩- العناية بدراسة هذا الجانب في التفاسير الأخرى كابن كثير، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، وابن العربي، وابن عاشور.

(٢٦



فقه السنة عند الشيخ ابن سعدي
كتاب «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار» أنموذجاً

أ.د. بندر بن نافع العبدلي

أستاذ السنة وعلومها، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة القصيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد مَن الله علي -وله الحمد والفضل- بقراءة جُل كتب الشيخ العلامة عبدالرحمن بن سعدي -رحمه الله- منذ أن سمعتُ شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله- يذكر اختياراته وترجيحاته -رحمه الله-... بقوله: «وهذا قول شيخنا عبدالرحمن بن سعدي»، «واختاره شيخنا ابن سعدي».

وعلّقتُ على بعض كتبه ورسائله في لقاءات علمية مع بعض طلبة العلم.

ومما زادني شرفاً وسروراً تكليفي من قبل اللجنة العلمية في (**مؤتمر الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، آثاره ومنهجه في الاجتهاد والتجديد والدعوة**)، بالكتابة في أحد محاور المؤتمر، فوقع اختياري على ما يناسب التخصص وهو: (**فقه السنة عند الشيخ ابن سعدي كتاب بهجة قلوب الأبرار أنموذجًا**).

والمراد: إبراز الجانب الحديثي في فهم السنة عند الشيخ -رحمه الله-.

ووقع اختياري على كتابه (**بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار**) لأنه من أجمع كتبه التي ظهر فيها تميُّزه الحديثي، حيث يأتي في المرتبة الثانية بعد تفسيره المبارك (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)

جمع فيه (٩٩) حديثاً من الجوامع انتقاها الشيخ -رحمه الله- متفرقة وشرحها شرحاً يبين مقاصدها ومعانيها الجليلة.

قال -رحمه الله- في مقدمته: «وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه

الجوامع في المواضيع الكلية، والجوامع في جنس، أو نوع، أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه، على وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار، إذ المقام لا يقتضي البسط».

وختمه بقوله: «تمت هذه الرسالة المشتملة على شرح تسع وتسعين حديثاً من الأحاديث النبوية الجوامع، في أصناف العلوم، والمواضيع النافعة، والعقائد الصحيحة، والأخلاق الكريمة، والفقه والآداب، والإصلاحات الشاملة، والفوائد العامة».

وأردتُ في هذا البحث إبراز شيء مما تميّز به الشيخ في فقه السنة من خلال كتابه هذا، مع أن الكتاب له مُميزات كثيرة يطول ذكرها[1].

ومشاركة مني لإخواني في المؤتمر، وأداء حق من حقوق هذا العلامَّة -رحمه الله- عليه وغفر له...

وقد اعتمدتُ على الطبعة التي حققها فضيلة الزميل الدكتور عمر بن عبدالله المقبل وفقه الله[2].

واللهَ أسأل أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه، إنه جواد كريم بر رحيم.

---

(١) ذكر فضيلة الدكتور عمر المقبل محقق الكتاب مميزات الكتاب وبعض المآخذ عليه في مقدمة تحقيقه ص (٩-٣).

(٢) وهي ط دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ط الأولى ١٤٣٣هـ.

التمهيد

أهمية البحث:-

تكمن أهمية البحث في النقاط الآتية:-

١. أنه يتعلق بأحد الأئمة الأعلام وهو الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله-.

٢. إبراز جانب من الجوانب التي تميز بها الشيخ -رحمه الله- مع التفسير وهو جانب الفقه الحديثي.

٣. عظم قدر هذا الكتاب **«بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار»** فهو يأتي في المنزلة الثانية بعد تفسيره -رحمه الله-.

٤. أن الأحاديث الواردة فيه هي من الأحاديث الجوامع، فكانت العناية باستنباطات الشيخ الفقهية منها من الأهمية بمكان.

مشكلة البحث:-

تتمثل مشكلة البحث في التساؤلات الآتية:-

١. ما الجانب الحديثي الذي تميز به الشيخ -رحمه الله- في هذا الكتاب؟.

٢. ما هي الأحاديث التي اشتمل عليها الكتاب؟.

٣. ما هي الأساليب التي سلكها الشيخ في استنباطه من الأحاديث؟

٤. هل وافق الشيخ أحد من الأئمة على استنباطاته أو لا؟

أهداف البحث:-

١. الجانب الحديثي الذي تميز به الشيخ -رحمه الله- في كتابه هو في فقه السنة واستنباط المعاني الجليلة من الأحاديث النبوية.

٢. الأحاديث التي اشتمل عليها الكتاب هي من الأحاديث الجوامع.

٣. الأساليب التي سلكها الشيخ -رحمه الله- في استنباطه من الأحاديث متعددة، وأبرزها ذكر المعنى الإجمالي مع فوائد الأحاديث...

٤. ما يذكره الشيخ من الاستنباطات هي مما فتح الله عليه به وقد يوافق غيره من الأئمة لا سيما الشيخين الإمامين ابن تيمية وابن القيم فقد تأثّر بهما كثيرا، وظهر ذلك عليه في كثير من استنباطاته.

الدراسات السابقة:-

لم أقف بعد البحث على دراسة تبرز هذا الجانب من الجوانب التي تميز بها الشيخ -رحمه الله-. وهو استنباطه الفقهي من الأحاديث.

منهج البحث:-

سرت في بحثي هذا على المنهج الاستقرائي.. وذلك من خلال قراءة الكتاب أكثر من مرة واستخراج طريقة الشيخ -رحمه الله- في استنباط المعاني الجليلة التي تضمنها الحديث...

خطة البحث:-

قسمتُ البحث إلى فصلين، ومقدمة، وخاتمة، مع المصادر والفهارس وهي كالآتي:

الفصل الأول: طريقته في عرض الحديث وشرحه، وفيه مباحث:

المبحث الأول: العبارات الكلية التي تشير إلى أهمية الحديث ومكانته.

المبحث الثاني: المعاني الجليلة التي تضمنها الحديث بالكلام على مفرداته.

المبحث الثالث: تقسيم الحديث إلى منطوق ومفهوم.

المبحث الرابع: الكلام على الحديث بجمله وتقسيماته.

المبحث الخامس: الإشارة إلى الخلاف الفقهي مع ذكر القول الراجح.

المبحث السادس: ذكر فوائد الحديث وما يشمله بعمومه.

الفصل الثاني: الأصول والقواعد والاستطرادات والإيرادات على الأحاديث ونقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم... وفيه مباحث:

المبحث الأول: الأصول والقواعد.

المبحث الثاني: الاستطراد في شرح بعض الأحاديث.

المبحث الثالث: الإيرادات والتعقبات.

المبحث الرابع: نقله عن شيخ الاسلام وابن القيم رحمهما الله.

وجعلت بعد كل مبحث خلاصة فيها إشارة إلى ما تميز به الشيخ في هذا الجانب.

المصادر.

الخاتمة.

الفهارس.

المبحث الرابع: الكلام على الحديث بجمله وتقسيماته.

المبحث الخامس: الإشارة إلى الخلاف الفقهي مع ذكر القول الراجح.

المبحث السادس: ذكر فوائد الحديث وما يشمله بعمومه.

الفصل الثاني: الأصول والقواعد والاستطرادات والإيرادات على الأحاديث ونقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم... وفيه مباحث:

المبحث الأول: الأصول والقواعد.

المبحث الثاني: الاستطراد في شرح بعض الأحاديث.

المبحث الثالث: الإيرادات والتعقبات.

المبحث الرابع: نقله عن شيخ الاسلام وابن القيم رحمهما الله.

وجعلت بعد كل مبحث خلاصة فيها إشارة إلى ما تميز به الشيخ في هذا الجانب.

المصادر.

الخاتمة.

الفهارس.

الفصل الأول: طريقته في عرض الحديث وشرحه.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: العبارات الكلية التي تشير إلى أهمية الحديث ومكانته.

المبحث الثاني: المعاني الجليلة التي تضمنها الحديث بالكلام على مفرداته.

المبحث الثالث: تقسيم الحديث إلى منطوق ومفهوم.

المبحث الرابع: الكلام على الحديث بجمله وتقسيماته.

المبحث الخامس: الإشارة إلى الخلاف الفقهي مع ذكر القول الراجح.

المبحث السادس: ذكر فوائد الحديث وما يشمله بعمومه.

المبحث الأول

العبارات الكلية التي تشير إلى أهمية الحديث ومكانته.

أطلق الشيخ -رحمه الله- عبارات كلية جامعة عند شرحه لبعض الأحاديث تدل على أهميتها والعناية بها.

فمن ذلك:

١) عند شرحه لحديث عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ: "**إنما الأعمال بالنيات**»[١].

قال: «فعلم بهذا: أن هذا الحديث جامعٌ لأمور الخير كلها، فحقيقٌ بالمؤمن الذي يريد نجاة نفسه ونفعها أن يفهم معنى هذا الحديث، وأن يكون العمل به نُصب عينيه في جميع أحواله وأوقاته»[٢].

٢) وقوله عند شرح الحديثين الأولين:

حديث عمر بن الخطاب ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات...**».

وحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[٣].

قال: «هذان الحديثان العظيمان يدخل فيهما الدين كله: أصوله وفروعه ظاهره وباطنه، فحديث عمر ﷺ ميزان للأعمال الباطنة، وحديث عائشة ميزان للأعمال

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٧).

(٣) رواه البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (١٧١٨).

الظاهرة»[1].

٣) وعند شرحه لحديث معاوية رضي الله عنه مرفوعاً: «**مَن يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقهُه في الدين**» متفق عليه[2].

قال: «هذا الحديث من أعظم فضائل العلم، وأن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيراً»[3].

٤) وعند شرحه لحديث أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اشفعُوا تُؤجَروا... الحديث**» متفق عليه[4].

قال: «وهذا الحديث متضمن لأصل كبير، وفائدة عظيمة، وهو أنه ينبغي للعبد أن يسعى في أمور الخير سواء أثمرت مقاصدها ونتائجها أو حصل بعضها، أو لم يتم منها شيء، وذلك كالشفاعة لأصحاب الحاجات عند الملوك والكبراء، ومن تعلقت حاجتهم بهم»[5].

٥) وعند شرحه لحديث أبي هريرة: «**إن الدينَ يُسر، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه... الحديث**»[6].

قال: «ما أعظم هذا الحديث، وأجمعه للخير والوصايا النافعة، والأصول

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٣).

(٢) «صحيح البخاري»(٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٤٦).

(٤) «صحيح البخاري»(١٣٦٥)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٥) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٥٩).

(٦) رواه البخاري (٣٩).

الجامعة »[1].

٦) وعند شرحه لحديث أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ، أن الله تعالى قال: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب... الحديث**»[2].

قال: «هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الأولياء، وفضلهم ومقاماتهم»[3].

٧) وعند شرحه لحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو يُعطَى الناسُ بدعواهم لادّعى رجالٌ دماءَ قوم وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه**» رواه مسلم[4].

قال: «هذا الحديث عظيم القدر، وهو أصل كبير من أصول القضايا والأحكام»[5].

٨) وعند شرحه لحديث عدي بن حاتم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمُه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان...**» متفق عليه[6].

قال: «هذا حديث عظيم، تضمن من عظمة الباري ما لا تحيط به العقول ولا تعبر عنه الألسن»[7].

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٠١).

(٢) رواه البخاري (٦١٣٧).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٢٥).

(٤) برقم (١٧١١).

(٥) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٧٦).

(٦) «صحيح البخاري» (٧٠٧٤)، ومسلم (١٠١٦).

(٧) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٢٩).

وعند شـرحه لحديث عبدالله بن مسعود ﷺ: « أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول: **اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى** » رواه مسلم[1].

قـال: «هذا الدعاء مـن أجمع الأدعية وأنفعها. وهو يتضمن سـؤال خير الدين وخير الدنيا»[2].

والخلاصة: أن مثل هذه العبارات الكلية تبرز فقه الشيخ -رحمه الله- واستنباطه مـن الأحاديث النبوية، وهو يشـير إلى العناية بها وبما تضمنته مـن معانٍ جليلة تنير للسالك طريقه عند تطبيقها والعمل بها.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٦٠).

المبحث الثاني: المعاني الجليلة التي تضمنها الحديث بالكلام على مفرداته.

يذكر الشيخ -رحمه الله- في شرحه المعنى الإجمالي لمفردات الحديث ليتضح مراد النبي ﷺ لمن قرأه بعبارة سهلة وميسرة.

وجرى على هذا في كثير من الأحاديث، فمن ذلك:

١) عند شرحه لحديث تميم الداري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدينُ النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»** رواه مسلم[1].

قال: «كرر النبي ﷺ هذه الكلمة اهتماما للمقام، وإرشادا للأمة أن يعلموا حق العلم أن الدين كله -ظاهره وباطنه- منحصر في النصيحة، وهي القيام التام بهذه الحقوق الخمسة».

ثم بدأ يفصل في هذه الحقوق ويشرحها إجمالاً[2].

٢) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدين يُسر، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة»** متفق عليه[3].

شرح المعنى الإجمالي لمفردات الحديث، فقال: **«إن الدين يسر»** أي: ميسر مسهل في عقائده وأخلاقه وأعماله، وفي أفعاله وتُرُوكه.

و«لن يشاد الدين أحد إلا غلبه» فمن قاوم هذا الدين بشدة وغلو، ولم يقتصد: غلبه الدين، واستحسر ورجع القهقرى، ولهذا أمر ﷺ بالقصد، وحث عليه، فقال: «والقصد القصد تبلغوا»، ثم وصّى ﷺ بالتسديد والمقاربة.

فالتسـديد: أن يقول الإنسـان القول السـديد، ويعمل العمل السديد، ويسلك الطريق الرشيد، وهو الإصابة في أقواله وأفعاله من كل وجه.

فإن لم يدرك السداد من كل وجه فليتق الله ما استطاع، وليقارب الغرض. فمن لـم يدرك الصواب كلـه فليكتف بالمقاربة، ومن عجز عن العمل كله فليعمل منه ما يستطيعه»[٤].

٣) وعند شـرحه لحديث علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسـعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سـواهم، ألا، لا يقتل مسـلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده**» رواه أبو داود والنسـائي. ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ﷺ[١].

شرح المعنى الإجمالي لمفردات الحديث، فقال: "فالمسلمون كلهم على حد سـواء، فمن قتل أو قطع طرفا متعمدا عدوانا، فلهم أن يقتصوا منه بشـرط المماثلة في العضو.

«ويسعى بذمتهم أدناهم» يعني: أن ذمة المسلمين واحدة. فمتى استجار الكافر بأحد من المسـلمين وجب على بقيتهم تأمينـه، وقوله: «ويرد عليهم أقصاهم» أي: في التأمين.

وقوله: «وهم يد على من سـواهم» أي: يجب على جميع المسـلمين في جميع أنحاء الأرض أن يكونوا يدا على أعدائهم من الكفار، بالقول والفعل، والمساعدات والمعاونة في الأمور الحربية، والأمور الاقتصادية، والمدافعة بكل وسيلة.

وقولـه: «ولا ذو عهد في عهده» أي: لا يحل قتل من له عهد من الكفار بذمة أو أمـان أو هدنة؛ فإنه لما قال: «لا يقتل مسـلم بكافر» احترز بذلـك البيان عن تحريم

(١) رواه البخاري (٣٩).

قتل المعاهد؛ لئلا يظن الظان جوازه»[1].

٤) وعند شرحه لحديث ابن مسعود ﷺ: «أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول: **اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**» رواه مسلم[2].

قال: «فإن الهدى: هو العلم النافع. والتقى: العمل الصالح، وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وبذلك يصلح الدين. فإن الدين علوم نافعة، ومعارف صادقة. فهي الهدى، وقيام بطاعة الله ورسوله: فهو التقى. والعفاف والغنى يتضمن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم. والغنى بالله وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية. وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة»[3].

والخلاصة: أن هذا المبحث من أكبر ما يبرز مكانة الشيخ -رحمه الله- في فقه السنة: بيان المعنى الإجمالي لمفردات الأحاديث بعبارة وأسلوب سهل وميسّر.

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٦٦-١٦٧).

(٢) برقم (٢٧٢١).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٦٠).

المبحث الثالث: تقسيم الحديث إلى منطوق ومفهوم.

من الأساليب والطرق التي سلكها الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- في شرحه الإشارة إلى منطوق الحديث ومفهومه.

المنطوق هو: ما دل على الحكم في محل النطق.

والمفهوم هو: ما دل على الحكم بمفهوم موافقة إن كان مساوياً للمنطوق أو أولى منه، أو بمفهوم المخالفة إذا خالف المنطوق في حكمه، لكون المنطوق وصف بوصف أو شرط فيه شرط إذا تخلّف ذلك الوصف أو الشرط تخلّف الحكم[1].

من ذلك:

١) عند شرحه لحديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، أو «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»**[2].

قال: «يدل بالمنطوق وبالمفهوم.

أما **منطوقه**: فإنه يدل على أن كل بدعة أحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع القولية الكلامية، كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها، أو من البدع العملية كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله. فإن ذلك كله مردود على أصحابه.

وأما **مفهوم** هذا الحديث: فإن من عمل عملا، عليه أمر الله ورسوله - وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة: من واجب ومستحب- فعمله

---

(١) «رسالة لطيفة جامعة» لابن سعدي ص (٦٦-٧٠).

(٢) تقدم تخريجه .

مقبول، وسعيه مشكور»[1].

٢) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»** متفق عليه[2].

قال: «يدل الحديث بمنطوقه: أن من لم يتوضأ إذا أحدث فصلاته غير مقبولة: أي غير صحيحة، ولا مجزئة، وبمفهومه: أن من توضأ قبلت صلاته: أي مع بقية ما يجب ويشترط للصلاة»[3].

٣) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مطلُ الغني ظلم. وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع»** متفق عليه[4].

قال: «وهذا الحديث أصل في باب الحوالة، وأن من حول بحقه على مليء فعليه أن يتحول، وليس له أن يمتنع.

ومفهومه: أنه إذا أحيل على غير مليء فليس عليه التحول، لما فيه من الضرر عليه[5].

٤) وعند شرحه لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: **«من تطبب ولم يعلم منه طب، فهو ضامن»** رواه أبو داود والنسائي[6].

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٥٤) واللفظ له، ومسلم (٢٢٥).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٧٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٢١٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٥٦٤).

(٥) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٣٨).

(٦) «سنن أبي داود» (٤٥٨٦)، والنسائي (٤٨٣٠)من طريق الوليد بن مسلم، عن ابن جريج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.. فذكره.

قال: "هذا الحديث يدل بلفظه وفحواه على: أنه لا يحل لأحد أن يتعاطى صناعة من الصناعات وهو لا يحسنها، سواء كان طبا أو غيره، وأن من تجرأ على ذلك: فهو آثم، وما ترتب على عمله من تلف نفس أو عضو أو نحوهما: فهو ضامن له...

ومفهوم الحديث: أن الطبيب الحاذق ونحوه إذا باشر ولم تجن يده وترتب على ذلك تلف، فليس بضامن؛ لأنه مأذون فيه، من المكلف أو وليه، فكل ما ترتب على المأذون فيه فهو غير مضمون، وما ترتب على غير ذلك المأذون فيه، فإنه مضمون"[1].

٥) وعند شرحه لحديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس: لا ي-رحمه الله-» متفق عليه[2].

قال: «يدل هذا الحديث بمنطوقه على أن من لا يرحم الناس لا ي-رحمه الله-.

وبمفهومه على أن من يرحم الناس ي-رحمه الله-، كما قال ﷺ في الحديث الآخر: "الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في

وإسناده ضعيف، قال أبو داود: « هذا لم يروه إلا الوليد' لا ندري هو صحيح أم لا؟ وقال الدارقطني: « لم يسنده عن ابن جريج غير الوليد بن مسلم وغيره يرويه عن ابن جريج، عن عمرو بن شعيب مرسلاً» « سنن الدارقطني»(٣/ ١٩٥- ١٩٦)

فعلته: عنعنة ابن جريج حيث لم يصرح بالتحديث.

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٩٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٩) واللفظ له.

السماء »[1][2].

والخلاصة: أن مما تميز به الشيخ -رحمه الله- الإشارة إلى منطوق الحديث ومفهومه، وهو استنباط وثيق من الأحاديث يعين على فهمها.

ويفيد أيضا أن الشيخ اعتمد مسلك الأصوليين في الاستنباط والاستدلال.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) من طريق عمرو بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه فذكره.

قال الترمذي: « هذا حديث حسن صحيح».

وفي إسناده: أبو قابوس مولى عبدالله بن عمرو بن العاص، وقد قال عنه ابن حجر: « مقبول» « التقريب»ص(١١٩٢).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٣٧).

المبحث الرابع: الكلام على الحديث بجمله وتقسيماته.

جرى الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- في شرحه على طريقة بديعة في بعض الأحاديث وهي الكلام على جمل الحديث وعلى ذكر تقسيمات متنوعة في الحديث.

وللشيخ رسالة اسمها: «القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة» جعلته يبدع في هذا الجانب.

من ذلك:

١) عند شرحه لحديث مالك بن الحويرث ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«صلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم»** متفق عليه[١].

قال: «هذا الحديث احتوى على ثلاث جمل، أولها أعظمها:

الجملة الأولى: قوله: «إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم».

فيه مشروعية الأذان ووجوبه للأمر به.

الجملة الثانية: قوله: «وليؤمكم أكبركم» فيه: وجوب صلاة الجماعة وأن أقلها إمام ومأموم.

الجملة الثالثة: -وهي الأولى في هذا الحديث- قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وهذا تعليم منه ﷺ بالقول والفعل...»[٢].

٢) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«حق المسلم**

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٥) واللفظ له، ومسلم (٦٧٤).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٩٠).

على المسلم ست: قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» رواه مسلم[1].

قال: «هذه الحقوق الستة من قام بها في حق المسلمين كان قيامه بغيرها أولى. وحصل له أداء هذه الواجبات والحقوق التي فيها الخير الكثير والأجر العظيم من الله.

ثم بدأ يفصلها:

الأولى: «إذا لقيته فسلم عليه».

الثانية: «إذا دعاك فأجبه».

الثالثة: قوله: «وإذا استنصحك فانصح له»[2].

٣) وعند شرحه لحديث أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر» متفق عليه[3].

قال: «هذا الحديث اشتمل على أربع جمل جامعة نافعة:

أحدها: قوله: «ومن يستعفف يعفه الله».

والثانية: قوله: «ومن يستغن يغنه الله».

وهاتان الجملتان متلازمتان.

---

(١) برقم (٢١٦٢).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٠٦).

(٣) «صحيح البخاري» (١٤٠٠) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣).

الثالثة قوله: «ومن يتصبر يصبره الله».

ثم ذكر في الجملة الرابعة: أن الصبر إذا أعطاه الله العبد فهو أفضل العطاء وأوسعه وأعظمه، إعانة على الأمور...»[1].

٤) وعند شرحه لحديث عبدالرحمن بن سمرة ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا عبدالرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها، فائت الذي هو خير، وكفر عن يمينك»** متفق عليه[2].

قال: «هذا الحديث احتوى على جملتين عظيمتين:

إحداهما: أن الإمارة وغيرها من الولايات على الخلق، لا ينبغي للعبد أن يسألها، ويتعرض لها، بل يسأل الله العافية والسلامة.

الجملة الثانية: قوله ﷺ: «وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذي هو خير، وكفر عن يمينك» يشمل من حلف على ترك واجب، أو ترك مسنون؛ فإنه يكفر عن يمينه، ويفعل ذلك الواجب والمسنون الذي حلف على تركه، ويشمل من حلف على فعل محرم، أو فعل مكروه فإنه يؤمر بترك ذلك المحرم والمكروه، ويكفر عن يمينه.

فالأقسام الأربعة داخلة في قوله ﷺ: «فائت الذي هو خير» لأن فعل المأمور مطلقا، وترك المنهي مطلقا: من الخير»[3].

٥) وعند شرحه لحديث أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أبا

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١١٥-١١٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٢٤٨) واللفظ له، ومسلم (١٦٥٢).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٦١-١٦٣).

ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق» رواه البيهقي في شعب الإيمان[1].

قال: «هذا الحديث اشتمل على ثلاث جمل، كل واحدة منها تحتها علم عظيم:

أما الجملة الأولى: فهي في بيان العقل وآثاره وعلاماته، وأن العقل الممدوح في الكتاب والسنة: هو قوة ونعمة أنعم الله بها على العبد...

فبين ﷺ في هذا الحديث آثاره الطيبة، فقال: «لا عقل كالتدبير» أي: تدبير العبد لأمور دينه، ولأمور دنياه...

الجملة الثانية: قوله ﷺ «لا ورع كالكف».

فهذا حد جامع للورع، بين به رسول الله ﷺ: أن الورع الحقيقي هو الذي يكف نفسه، وقلبه ولسانه، وجميع جوارحه عن الأمور المحرمة الضارة.

الجملة الثالثة: قوله ﷺ: «ولا حسب كحسن الخلق».

وذلك أن الحسب مرتبة عالية عند الخلق، وصاحب الحسب له اعتبار وشرف بحسب ذلك، وهو نوعان:ثم فصل فيهما...»[2].

٦) وعند شرحه لحديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها »** متفق عليه[3].

قال: «الحسد نوعان:

نوع محرم مذموم على كل حال، وهو أن يتمنى زوال نعمة الله عن العبد دينية

---

(١) برقم (٤٣٢٥)، ورواه ابن ماجة أيضاً (٤٢١٨).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٠٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٣) واللفظ له، ومسلم (٨١٦).

كانت أو دنيوية، وسـواء أحب ذلك محبة اسـتقرت في قلبه، ولم يجاهد نفسه عنها، أو سعى -مع ذلك- في إزالتها وإخفائها، وهذا أقبح، فإنه ظلم متكرر.

وهذا النوع هو الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

والنوع الثاني: أن لا يتمنى زوال نعمة الله عن الغير، ولكن يتمنى حصول مثلها له، أو فوقها أو دونها، وهذا نوعان: محمود، وغير محمود... ثم فصل فيهما»[1]".

وهـذه الطريقة طريقـة بديعة نافعة تجمع ذهن القارئ، وتعينه على اسـتحضار المعنى.

وهذه التقسيمات لم يفدها الشيخ من أحد قبله، إنما هي إبداع منه، ومن جملة ما فتح الله به عليه.

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٥٧).

المبحث الخامس

الإشارة إلى الخلاف الفقهي مع ذكر القول الراجح.

يشير الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- أحياناً وفي مواضع يسيرة إلى خلاف العلماء في مسألة ما بدون تفصيل ثم يذكر القول الراجح.

فمن ذلك:

١) في أثناء شرحه لحديث سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«على اليد ما أخذت حتى تؤديه»** رواه أهل السنن إلا النسائي[١].

قال: «فإن تلفت العارية بغير تعد ولا تفريط، فمن العلماء من ضمّنه -كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد- ومنهم من لم يضمنه كسائر الأمناء.

ومنهم من فصّل: فإن شرط ضمانها ضمنها، وإلا فلا. وهو أحسن الأقوال الثلاثة»[٢].

٢) وفي أثناء شرحه لحديث جابر ﷺ في الشفعة[٣].

قال: «واختلف العلماء في شفعة الجار على جاره، إذا كان بينهما حق من حقوق الملكين، كطريق مشترك، أو بئر أو نحوهما.

(١) «سنن أبي داود» (٣٥٦١)، والترمذي (١٢٦٦)، وابن ماجة (٢٤٠٠) من طريق قتادة، عن الحسن البصري، عن سمرة... وقد قيل: إنه لم يسمع منه إلا حديث العقيقة.

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٤٠).

وانظر: «المغني»(٧/ ٣٤١)، و«بداية المجتهد» (٢/ ٤٠٧) والذي رجحه الشيخ هو اختيار الصنعاني وشيخ الاسلام ابن تيمية، انظر: «الاختيارات» ص (٢٣١)، «سبل السلام» (٥/ ٢٢٢).

(٣) رواه البخاري (٢١٣٨).

فمنهم: من أوجب الشفعة في هذا النوع، وقال: إن هذا الاشتراك في هذا الحق نظير الاشتراك في جميع الملك، والضرر في هذا كالضرر هناك.

وهو الذي تدل عليه الأدلة.

ومنهم: من لم يثبت فيه شفعة، كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد.

ومنهم: من أثبت الشفعة للجار مطلقا، وهذه الصورة عنده من باب أولى، كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة»[1].

ثم قال: «وأما اشتراط المبادرة جداً إلى الأخذ بها، من غير أن يكون له فرصة في هذا الحق المتفق عليه: فهذا قول لا دليل عليه.

وما استدلوا به من الحديثين اللذين أوردهما: «الشفعة كحل العقال»[2].

و«الشفعة لمن واثبها»[3].

فلم يصح منهما عن النبي ﷺ شيء»[4].

٣) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٤١).والذي رجحه الشيخ هو اختيار شيخ الاسلام ابن تيمية -رحمه الله- «الإنصاف»(٦/ ٢٥٥)، و«المغني»(٧/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢٥٠٠) من طريق محمد بن عبدالرحمن بن البيلماني، عن أبيه، عن ابن عمر.

وإسناده ضعيف جداً، محمد بن البيلماني ضعيف وقد اتهمه ابن عدي وابن حبان كما قال ابن حجر في« التقريب»ص(٨٦٩).

وقال أبو زرعة: « هذا حديث منكر» «علل الحديث» لابن أبي حاتم (١٤٣٤).

(٣) قال ابن حجر في «الدراية» (٢/ ٢٠٣): «لم أجده، وإنما ذكره عبد الرزاق من قول شريح».

(٤) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٤٢).

أَحَـدٌ ﴿١﴾﴾ تعدل ثلث القرآن» رواه مسلم[1].

قال: «تكلم أهل العلم على معنى هذه المعادلة وتوجيهها.

وأحسن ما قيل فيها: أن معادلتها لثلث القرآن؛ لما تضمنته من المعاني العظيمة: معاني التوحيد، وأصول الإيمان، فإن المواضيع الجليلة التي اشتمل القرآن عليها:

- إما أحكام شرعية: ظاهرة أو باطنة، عبادات أو معاملات.

- وإما قصص وأخبار عن المخلوقات السابقة واللاحقة، وأحوال المكلفين في الجزاء على الأعمال.

- وإما توحيد ومعارف، تتعلق بأسماء الله وصفاته، وتفرده بالوحدانية والكمال، وتنزهه عن كل عيب، ومماثلة أحد من المخلوقات.

فسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴿١﴾﴾ مشتملة على هذا، وشاملة لكل ما يجب اعتقاده من هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها»[2].

٤) وفي أثناء شرحه لحديث عائشة في قصة هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان وقول النبي ﷺ لها: «**خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك**» متفق عليه[3].

قال: «إن الكفاية معتبرة بالعرف بحسب أحوال الناس -في زمانهم ومكانهم، ويسرهم وعسرهم- وأن المنفق إذا امتنع أو شح عن النفقة أصلا أو تكميلا، فلمن له النفقة أو يباشر الإنفاق أن يأخذ من ماله، ولو بغير علمه.

وذلك لأن السبب ظاهر، ولا ينسب في هذه الحالة إلى خيانة، فلا يدخل في قوله ﷺ: "لا تخن من خانك".

(١) برقم (٨١١)، وأخرجه البخاري أيضاً (٥٠١٣).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٥٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٠٤٩)، ومسلم (١٧١٤).

وهذا هو القول الوسط الصحيح في مسألة الأخذ من مال من له حق عليه بغير علمه بمقدار حقه، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، أنه لا يجوز ذلك، إلا إذا كان السبب ظاهرا، كالنفقة على الزوجة والأولاد والمماليك ونحوهم، وكحق الضيف»[٤].

والخلاصة: أن طريقة الشيخ في الترجيح أنه يميل مع الدليل، فما كان الدليل يعضده رجحه، وهذه لفتة مهمة لطالب العلم وهي العناية بما دل عليه الدليل ولو خالف من خالف.

وفيه أيضاً: عناية الشيخ ببيان مذهب الإمام أحمد وتحرير اختلاف الروايات عنه.

وأن الشيخ وإن كان على مذهب الإمام أحمد فإنه ليس مقلداً، بل إذا دل الدليل على حكم أخذ به ولو خالف المذهب... والله أعلم.

(٤) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٥٤)، وانظر: «المغني»(١٤/ ٣٤٠)، واختاره ابن القيم -رحمه الله- انظر «إعلام الموقعين»(٤/ ٤٨٠).

المبحث السادس: ذكر فوائد الحديث وما يشمله بعمومه.

جرى الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- في شرحه على ذكر فوائد مستنبطة من الأحاديث... إما مفرّقة في الشرح وهو الأغلب أو في آخر الشرح.

وذكره أيضاً ما يدخل في الحديث ويشمله بعمومه.

فمن ذلك:

١) عند شرحه لحديث أبي موسى الأشعري ﷺ «**اشفعوا تؤجروا...**»[١].

قال: «وفيه من الفوائد: السعي في كل ما يزيل اليأس، فإن الطلب والسعي عنوان على الرجاء والطمع في حصول المراد، وضده بضده.

- وفي الحديث دليل على الترغيب في توجيه الناس إلى فعل الخير، وأن الشفاعة لا يجب على المشفوع عنده قبولها إلا أن يشفع في إيصال الحقوق الواجبة، فإن الحق الواجب يجب أداؤه وإيصاله إلى مستحقه، ولو لم يشفع فيه، ويتأكد ذلك مع الشفاعة.

- وفيه أيضا: رحمة النبي ﷺ في حصول الخير لأمته بكل طريق. وهذا فرد من آلاف مؤلفة تدل على كمال رحمته ورأفته ﷺ»[٢].

---

(١) «صحيح البخاري»(١٣٦٥)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٦٠).

٢) وعند شرحه لحديث ابن عمر الطويل في دعاء السفر...[١].

قال: «هذا الحديث فيه فوائد عظيمة تتعلق بالسفر، وقد اشتملت هذه الأدعية على طلب مصالح الدين -التي هي أهم الأمور- ومصالح الدنيا»[٢]، ثم سردها...

٣) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**أسرعوا بالجنازة. فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه...**» متفق عليه[٣].

قال: «وفيه: الحث على الاهتمام بشأن أخيك المسلم حيا وميتا، وبالإسراع إلى ما فيه خير له في دينه ودنياه.

كما أن فيه: الحث على البعد عن أسباب الشر، ومباعدة المجرمين، حتى في الحالة التي يبتلى الإنسان فيها بمباشرته.

وفي هذا الحديث: إثبات نعيم البرزخ وعذابه. وقد تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، وأن مبتدأ ذلك وضعه في قبره إذا تم دفنه، ولهذا يشرع في هذه الحال الوقوف على قبره والدعاء له، والاستغفار، وسؤال الله له الثبات.

وفي هذا أيضا: التنبيه على أسباب نعيم البرزخ وعذابه، وأن أسباب النعيم الصلاح لقوله: «فإن كانت صالحة»[٤].

٤) وعند شرحه لحديث حكيم بن حزام ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا: بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما: محقت**

---

(١) رواه مسلم (٣٤٢).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٤٥).

(٣) «صحيح البخاري»(١٢٥٢)، ومسلم (٩٤٤).

(٤) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١١٠-١١١).

بركة بيعهما» متفق عليه[1].

قال: "ويدخل فيه: الكذب في مقدار الثمن والمثمن، وفي وصف المعقود عليه، وغير ذلك. وضابط ذلك: أن كل شيء تكره أن يعاملك فيه أخوك المسلم أو غيره ولا يخبرك به، فإنه من باب الكذب والإخفاء والغش.

ويدخل في هذا: البيع بأنواعه، والإجارات، والمشاركات وجميع المعاوضات، وآجالها ووثائقها، فكلها يتعين على العبد فيها، الصدق والبيان، ولا يحل له الكذب والكتمان.

وفي هذا الحديث: إثبات خيار المجلس في البيع، وأن لكل واحد من المتبايعين الخيار بين الإمضاء أو الفسخ، ما داما في محل التبايع..."[2].

٥) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»** متفق عليه[3].

قال: «وفي هذا الحديث: الحث على الحزم والكيس في جميع الأمور، ومن لوازم ذلك: تعرف الأسباب النافعة ليقوم بها، والأسباب الضارة ليتجنبها.

ويدل على الحث على تجنب أسباب الريب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر، وعلى أن الذرائع معتبرة»[4].

٦) وعند شرحه لحديث عدي بن حاتم ﷺ وفي آخره: **«فمن لم يجد فبكلمة طيبة»** متفق عليه[5].

(١) «صحيح البخاري»(٢٠٠٤)، ومسلم (١٥٣٥).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٢٩).

(٣) «صحيح البخاري»(٥٧٨٢)، ومسلم (٢٩٩٨).

(٤) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٠١).

(٥) «صحيح البخاري»(٧٠٧٤)، ومسلم (١٠١٦).

قال: «وفي هذا الحديث: أن من أعظم المنجيات من النار، الإحسان إلى الخلق بالمال والأقوال، وأن العبد لا ينبغي له أن يحتقر من المعروف ولو شيئاً قليلاً، والكلمة الطيبة تشمل النصيحة للخلق بتعليمهم ما يجهلون، وإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية.

وتشمل الكلام المسر للقلوب، الشارح للصدور، المقارن للبشاشة والبشر، وتشمل الذكر لله والثناء عليه، وذكر أحكامه وشرائعه. فكل كلام يقرب إلى الله ويحصل به النفع لعباد الله. فهو داخل في الكلمة الطيبة»(٦).

٧) وعند شرحه لحديث أسمر بن مضرس: أن رسول الله ﷺ قال: «**من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له**» رواه أبو داود(٧).

قال: «يدخل في هذا الحديث: السبق إلى جميع المباحات التي ليست ملكاً لأحد، ولا باختصاص أحد؛ فيدخل فيه: السبق إلى إحياء الأرض الموات، فمن سبق إليها باستخراج ماء، أو إجرائه عليها، أو ببناء: ملكها، ولا يملكها بدون الإحياء»(٨).

والخلاصة أن ذكر فوائد الحديث وما يستنبط منه أو يشمله بعمومه مما تميز به الشيخ -رحمه الله-، وهذا يدل على تمكنه من فقه السنة.

وفيه أيضاً: أن الشيخ يركز في الفوائد المستنبطة في الغالب على ما تمس إليه حاجة المسلم، ويحرص على تفريع المسائل التي تندرج تحت هذا المعنى.

---

(٦) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٣٠).

(٧) أخرجه أبو داود (٣٠٧١)، والبيهقي (٦/ ١٣٢)، والطبراني في «الكبير» (٨١٤).

(٨) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٤٩).

الفصل الثاني

الأصول والقواعد والاستطرادات والإيرادات على الأحاديث، ونقله عن شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الأصول والقواعد.

المبحث الثاني: الاستطراد في شرح بعض الأحاديث.

المبحث الثالث: الإيرادات والتعقبات.

المبحث الرابع: نقله عن شيخ الاسلام وابن القيم.

المبحث الأول: الأصول والقواعد[1].

من أكثر ما يميز الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- في شرحه ذكره للقواعد والضوابط المستنبطة من الأحاديث وهي تبرز فقه السنة عنده -رحمه الله-.

ومن ذلك:

١) عند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**»[2].

قال: «فعلمت بهذا: أنه يؤخذ من هذا الحديث العظيم عدة قواعد:

القاعدة الأولى: التيسير الشامل للشريعة على وجه العموم.

القاعدة الثانية: المشقة تجلب التيسير وقت حصولها.

القاعدة الثالثة: إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم.

القاعدة الرابعة: تنشيط أهل الأعمال، وتبشيرهم بالخير والثواب المرتب على الأعمال.

القاعدة الخامسة: الوصية الجامعة في كيفية السير والسلوك إلى الله، التي تغني عن كل شيء ولا يغني عنها شيء.

فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم ونوافعها»[3].

٢) وعند شرحه لحديث عائشة مرفوعاً: « **ادرءوا الحدود عن المسلمين ما**

---

(١) اقتصرت على أمثلة يسيرة لوجود بحث كامل عن هذا الموضوع من بحوث المؤتمر.

(٢) رواه البخاري (٣٩)

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٠٤-١٠٥).

استطعتم.... الحديث» رواه الترمذي مرفوعا وموقوفا[1].

قال: «وفي هذا الحديث: دليل على أصل وهو: أنه إذا تعارض مفسدتان تحقيقا أو احتمالا: راعينا المفسدة الكبرى، فدفعناها تخفيفا للشر»[2].

٣) وعند شرحه لحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»** رواه البخاري[3].

قال: «الأصل في جميع الأمور العادية الإباحة، فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله...»، ثم قال: «فالأمور ثلاثة أقسام:

قسم مشترك بين الرجال والنساء من أصناف اللباس وغيره، فهذا جائز للنوعين؛ لأن الأصل الإباحة، ولا فيه تشبه.

وقسم مختص بالرجال، فلا يحل للنساء.

وقسم مختص بالنساء، فلا يحل للرجال»[4].

---

(١) «سنن الترمذي»(١٤٢٤) من طريق محمد بن ربيعة، عن يزيد بن زياد الدمشقي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة فذكرته...

وإسناده ضعيف جداً، يزيد بن زياد الدمشقي متروك، كما في «التقريب»ص (١٠٧٥).

وروي موقوفـاً ورجحه الترمذي فقد قال: «ورواه وكيع، عن يزيد بن زياد نحوه ولم يرفعه، ورواية وكيع أصح».

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٧١).

(٣) رواه البخاري (١٨٧)

(٤) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٨٧).

المبحث الثاني: الاستطراد في شرح بعض الأحاديث.

يستطرد الشيخ -رحمه الله- عند شرحه لكثير من الأحاديث في ذكر مسائل أخرى مستنبطة من الحديث أو يمكن أن تستنبط منه.

وهو مما يميز الشيخ -رحمه الله- في شرحه، ويدل على سعة فهمه وفقهه.

من ذلك:

١) عند شرحه لحديث أبي قتادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في الهرة: «**إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات**» رواه مالك وأحمد وأهل السنن الأربع[1].

استطرد بذكر أقسام الحيوانات، فقال: «ولذلك قال أصحابنا: الحيوانات أقسام خمسة:

إحداها: نجس حياً وميتاً في ذاته وأجزائه وفضلاته، وذلك كالكلاب والسباع كلها، والخنزير ونحوها.

الثاني: ما كان طاهراً في الحياة نجساً بعد الممات، وذلك كالهرة وما دونها في الخلقة، ولا تحله الذكاة ولا غيرها.

الثالث: ما كان طاهراً في الحياة وبعد الممات، ولكنه لا يحل أكله، وذلك كالحشرات التي لا دم لها سائل.

الرابع: ما كان طاهراً في الحياة وبعد الذكاة، وذلك كالحيوانات المباح أكلها، كبهيمة الأنعام ونحوها.

---

(١) «سنن أبي داود» (٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي (٦٨)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

الخامس: ما كان طاهراً في الحياة وبعد الممات، ذُكي أو لم يُذك وهو حلال، وذلك كحيوانات البحر كلها والجراد»[1].

٢) وعند شرحه لحديث شداد بن أوس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء...**» رواه مسلم[2].

استطرد بذكر أنواع الإحسان وأصله وأدلته[3].

٣) وعند شرحه لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**» رواه البخاري[4].

استطرد بذكر أصول الطب واستعمال الحمية في جميع المؤذيات في مقدارها، أو في ذاتها، أو في وقتها... ثم ذكر جملة أحاديث تدل عليها[5].

٤) وعند شرحه لحديث مصعب بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟**» رواه البخاري[6].

استطرد بذكر الأسباب والجهات الشرعية والقدرية التي يستجلب بها الرزق[7].

٥) وعند شرحه لحديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب**

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٨٧).

(٢) رواه مسلم (١٩٥٥).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٨٣-١٨٤).

(٤) رواه البخاري (٥٣٥٤).

(٥) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٩٠).

(٦) رواه البخاري (٢٧٣٩).

(٧) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢١٧).

أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه» متفق عليه[1].

استطرد بذكر الأسباب التي تحصل بها المحبوبات الدنيوية[2].

٦) وعند شـرحه لحديث عائشـة في قصة هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان وقول النبي ﷺ لها: "**خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك**" متفق عليه[3].

استطرد بذكر المسائل الفقهية المستنبطة من الحديث، فقال: «أخذ العلماء من هذا الحديث فقها كثيرا، سأشير إلى ما يحضرني» ثم ذكرها[4].

والخلاصة: أن الاستطراد بذكر مسائل أخرى مستنبطة من الحديث أو يمكن أن تستنبط منه يدل على تمكن الشيخ -رحمه الله- من فقه السنة.

وفيه أيضاً: أن الاستطراد ليس عيباً بل هو من مميزات الشرح، لأنه يوقف القاري على مسائل وأحكام قد يحتاج إليها.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٠٤٩)، ومسلم (١٧١٤).

(٤) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٦٥).

المبحث الثالث: الإيرادات والتعقبات.

يذكر الشيخ -رحمه الله- عند شرحه لبعض الأحاديث إيرادات ويجيب عنها وهي بمثابة الاشكالات، ويتعقب بعض الأقوال التي فيها ضعف.

من ذلك:

١) قوله -عند شرحه لحديث جابر بن سمرة في سؤال الإمارة-: «فإن قيل: كيف طلب يوسف ﷺ ولاية الخزائن المالية في قوله: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [يوسف:٥٥]، قيل: الجواب عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]، فهو إنما طلبها لهذه المصلحة التي لا يقوم بها غيره: من الحفظ الكامل، والعلم بجميع الجهات المتعلقة بهذه الخزائن. من حسن الاستخراج، وحسن التصريف، وإقامة العدل الكامل»[٥].

٢) وقوله -عند شرحه لحديث جابر في الشفعة-: «وأما اشتراط المبادرة جدا إلى الأخذ بها -يعني شفعة الجار-، من غير أن يكون له فرصة في هذا الحق المتفق عليه: فهذا قول لا دليل عليه»[٦].

٣) وقوله -عند شرحه لحديث أبي أمامة: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[٣]-: «فمن أوصى لوارث فقد تعدى حدود الله، وفضل بعض الورثة على بعض، وسواء وقع ذلك على وجه الوصية

(٥) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٦٢) وانظر: ص (٢٧٥).

(٦) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٤٢).

(٣)«سنن أبي داود» (٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) من طريق إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، عن أبي أمامة ﷺ... وإسناده صحيح.

(٤)"بهجة قلوب الأبرار" (١٥٣)، وانظر: ص (٢٧٥).

أو الهبة للوارث، كما هو اتفاق العلماء، أو على وجه الوقف لثلثه على بعض ورثته. وشذ بعضهم في هذه المسألة، فأجازها. وهو مناف للفظ الحديث ومعناه»[٤].

المبحث الرابع: نقله عن شيخ الاسلام وابن القيم رحمهما الله.

الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- هو من تلاميذ شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

وقد تأثر بأسلوبهما ويميل كثيراً إلى ترجيحهما.

وانتقى الفوائد والدرر من مؤلفاتهما[1].

وقد سمعت شيخنا ابن عثيمين -رحمه الله- كثيراً يقول: «كان شيخنا عبدالرحمن بن سعدي -رحمه الله- يوصينا بقراءة كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم».

وفي شرحه هذا ذكر بعض النقولات عنهما.

فمن ذلك:

١) قوله: «والفرق بين الحاكم المجتهد، وبين صاحب الهوى: أن صاحب الحق قد فعل ما أمر به من حسن القصد والاجتهاد، وهو مأمور في الظاهر باعتقاد ما قام عنده عليه دليله، بخلاف صاحب الهوى، فإنه يتكلم بغير علم، وبغير قصد للحق، قاله شيخ الإسلام»[2].

٢) قوله: «ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام حسن جدا في خلاصة حج النبي ﷺ، ذكره في «القواعد النورانية»، فقال -قدس الله روحه ورضي عنه- ثم سرد كلام شيخ الاسلام بطوله في صفة الحج»[3].

---

(١) كتاب «فوائد من كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم» المجلد (٢٢)ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ.

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (١٧٥) وانظر: ص (٢٤).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٥٠).

٣) وعند شرحه لحديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[١].

قال: «قال شمس الدين ابن القيم -رحمه الله-: أي لا يبقى في القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه منه؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال، فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه، بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة. انتهى»[٢].

---

(١) عزاه الشيخ لمسلم.

قال المحقق: «في عزو الحديث لمسلم وهم، وإنما أخرجه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجة (٢٣٠)، وأحمد (١٣٣٥٠)، وصححه ابن حبان (٦٧)» أ. هـ.

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» ص (٢٧٦).

الخاتمة

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد ظهر لي من خلال هذا البحث عن فقه الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- من خلال كتابه الماتع « بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار «عدة نقاط منها: -

- تمكن الشيخ -رحمه الله- من هذا العلم فقه السنة وفهمها.
- أسلوبه البديع في شرح الأحاديث بطريقة سهلة وميسرة وعبارات مفهومة واضحة بعيداً عن التكلف والعبارات المعقدة، وهذا من توفيق الله للشيخ، وأسلوبه هذا مع الأحاديث مثل أسلوبه وطريقته في التفسير.
- تميز الشيخ في شرحه هذا بعدة مميزات جمعتها في هذا البحث المختصر... وغيرها كثير.

ومن التوصيات:

- العناية بفقه الشيخ -رحمه الله- للأحاديث في جميع مصنفاته.
- مقارنة استنباطاته من الأحاديث باستنباط غيره من الأئمة.
- العناية على وجه الخصوص بهذا الكتاب في فهم الأحاديث وفقهها واستنباط المعاني الجليلة منها، وقراءته على جماعة المسجد.

والله أسأل أن ينفعنا بما علمنا وأن يرزقنا فهماً في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ.

وأن يجزي العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدي خيراً على ما قدم من تقريب العلم وتبسيطه للناس وأن يجعل ذلك في موازين حسناته ورفعة في درجاته.

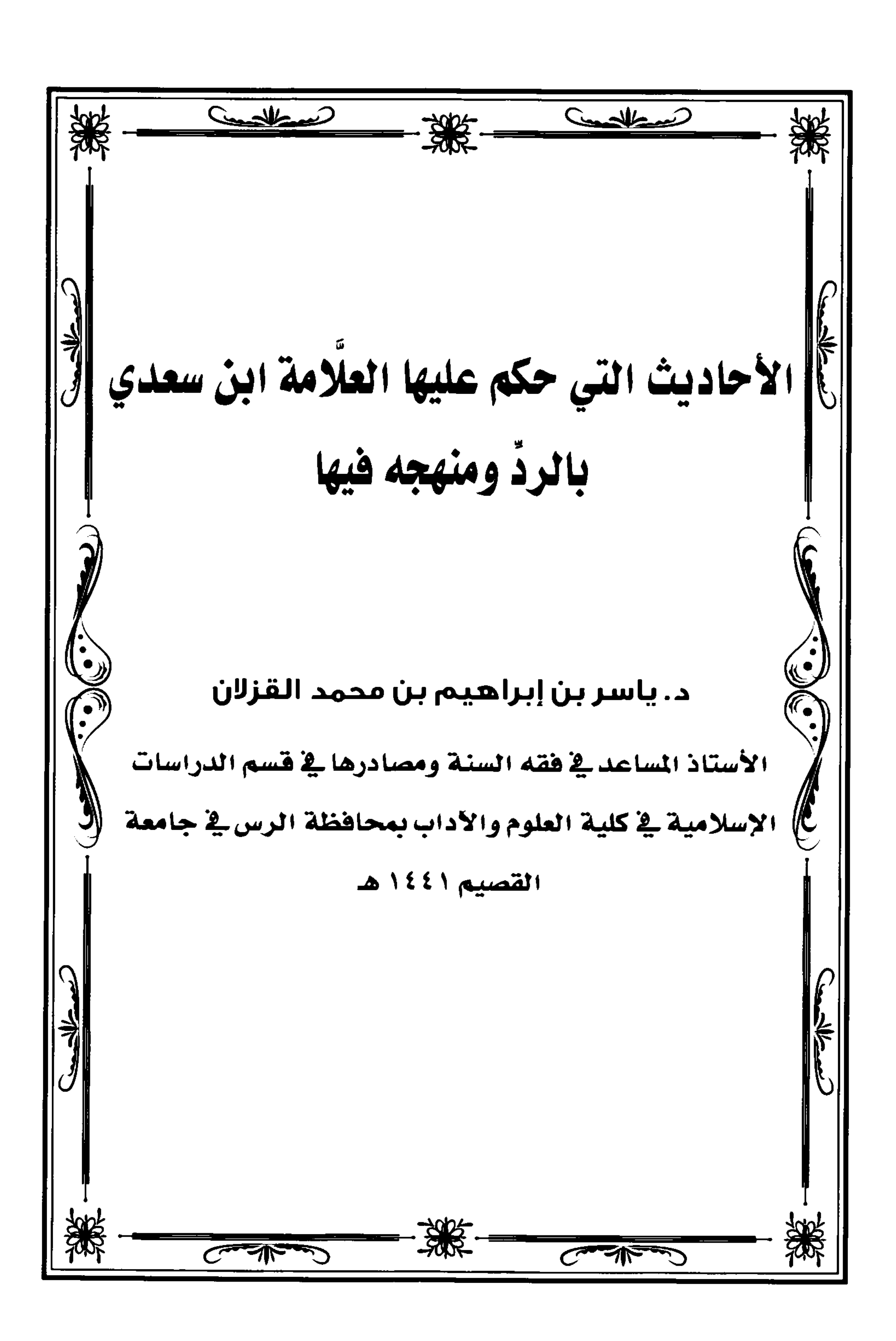
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر

* الاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، للبعلي، ت: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، مصر ١٣٦٩هـ.
* إعلام الموقعين، لابن القيم، دار الكتب العلمية.
* الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، للمرداوي، ت: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثانية ١٤٠٦هـ.
* بداية المجتهد، لا بن رشد، دار الكتب العلمية، ط: العاشرة ١٤٠٨هـ.
* التقريب، للحافظ ابن حجر، ت: أبو الأشبال صغير الباكستاني، دار العاصمة، ط الأولى، ١٤١٩هـ.
* الدراية في تخريج أحاديث الهداية، لابن حجر، ت: عبد الله هاشم اليماني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
* رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه، للشيخ ابن سعدي، ضمن مجموع فتاواه.
* سبل السلام، للصنعاني، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
* سنن ابن ماجه، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
* سنن أبي داود، ت: محمد محيي عبد الحميد، نشر المكتبة الإسلامية، إسطنبول.
* سنن الترمذي، ت: بشار عود، دار الغربي الإسلامي، بيروت، ط الثانية، ١٩٩٨م.
* سنن الدارقطني، مكتبة المتنبي القاهرة، وعالم الكتب بيروت.
* سنن النسائي، ت: عبد الفتاح أبوغدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب ط:

الثانية١٤٠٩هـ

* صحيح البخاري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، مصر.
* صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، إسطنبول.
* علل الحديث، لابن أبي حاتم، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٥هـ.
* فوائد من كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، طبع ضمن مجموع مؤلفات الشيخ.
* معجم الطبراني الكبير، ت: حمدي السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الثانية.
* المغني، لابن قدامة، ت: عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر القاهرة، الأولى ١٤٠٨هـ.



الأحاديث التي حكم عليها العلّامة ابن سعدي بالردِّ ومنهجه فيها

د. ياسر بن إبراهيم بن محمد القزلان

الأستاذ المساعد في فقه السنة ومصادرها في قسم الدراسات الإسلامية في كلية العلوم والآداب بمحافظة الرس في جامعة القصيم ١٤٤١ هـ

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئاتِ أعمالنـا، مـن يهده الله فلا مُضِلَّ لـه، ومن يضللْ فلا هاديَ له، وأشـهد أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شـريكَ له، وأشـهد أنَّ محمداً عبدُه ورسـوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين ؛ أمَّا بعدُ:

فـإنَّ أعظـم ما صُرفت به الأوقـات، ونِيْل به عالي الدرجـات، بعد خدمةِ كلام الله -جـلَّ وعلا- خدمةُ كلام رسـوله ﷺ، حفظًا وفهمًا وعملاً وتعليمًا، فاختار الله أهل الحديث من بين الأمَّة، فقاموا خير قيام بهذه المهمَّة، فهم أمناء الله من خليقته، والواسـطة بين النبي - صلى الله عليه وسـلم - وأمته، والمجتهدون في حفظ ملَّته، فطافوا المـدن والأمصار، وقطعوا المفاوز والقِفار، وسـهروا الليالي والأيَّام، بحثًا عن كلام خير الأنام، محمد -عليه الصلاة والسلام -؛ لِيَرْقُموه بعد ذلك في كتبهم، ويحدِّثوا به في حِلَقهم، نشـرًا للسـنة بين المسـلمين، وصيانةً له عن ثلب القادحين، فجزاهـم الله خير الجزاء على مابذلوه، وأجـزل لهم عظيم العطاء على ما أحكموه، فما زال أئمة هذا الشأن سائرين على هذا النهج، قرنًا بعد قرن، حتى دبَّ الضعف في علماء هذا الشـأن، وخاصة في القرون المتأخرة، فاقتصر أمرهم في خدمة هذا العلم - على جلالة ما قدَّموه - على شـرح الأحاديث وبيـان أحكامها العملية والعلمية، فقـلَّ كلامهم في الحكم عليهـا صحة وضعفًا، وعلى رجالهـا جرحًا وتعديلاً، ومن تلك القرون التي نالها ذلك الضعف هو القرن الماضي، في بلاد المسلمين عامة وفي بلادنا المباركة خاصَّة، فنشـطت همتي وقويت عزيمتي على البحث في كلام علماء ذلـك القرن، وجمع كلامهم - علـى قِلَّته -، فكان من أبرز علماء ذلك القرن الذين حرصـت على جمع كلامه، والنظر في أحكامه، هو الشـيخ العلاَّمة عبد الرحمن بن

ناصر السعدي - رحمه الله -، فاجتمع لدي مادَّة - لا بأس بها - في حكمه على الأحاديث قبولاً وردًّا، فرأيت الاقتصار على أحكامه على الأحاديث بالردِّ ومنهجه فيها؛ حتى لا يطول البحث؛ ولأن كلام الشيخ - رحمه الله - على الأحاديث التي حكم عليها بالردِّ أكثر من كلامه على الأحاديث التي حكم عليه بالقبول، فَحَسُن الاقتصار عليها، وقد سمَّيت بحثي: «**الأحاديث التي حكم عليها العلاَّمة ابن سعدي بالردِّ ومنهجه فيها**»، سائلاً المولى - عز وجل - التوفيق والسداد.

بيان أهمية الموضوع:

وتبرز أهمية الموضوع فيما يلي:

١. عظم منزلة الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - ومكانته الرفيعة في عصره وعصر من بعده، واهتمامهم بأقواله وآرائه.
٢. أهمية الاطلاع على شيء من جهود الحركة العلمية الحديثية في القرن الماضي - وإن قلَّت -؛ مع قلَّة البحوث التي تناولت ذلك مع قرب عهدنا به.
٣. أن عامَّة هذه الأحاديث التي تكلَّم عنها الشيخ - رحمه الله تعالى - متعلقةٌ بأبواب الأحكام التي تمسُّ حاجة العبد في يومه وليلته.

أسباب اختيار الموضوع:

ويمكن التماس الأسباب التي دعت إلى اختيار هذا الموضوع فيما يلي:

١. ندرة البحوث التي تناولت الجهود العلمية الحديثية في القرن الماضي، كما سبق بيانه.
٢. قلة المؤلفات التي تناولت جهود الشيخ ابن سعدي - مع منزلته - في خدمة السنة وعلومها.

الدراسات السابقة:

لم أقف - حسب علمي - على مؤلَّف أو بحث في هذا الموضوع، والله أعلم.

خطة البحث:

وفيما يلي الخطة التي سرت عليها في هذا البحث، وهي تنقسم إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة وفهارس، وذلك على النحو التالي:

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج العمل في البحث.

المبحث الأول: منهج العلامة ابن سعدي في حكمه على الأحاديث بالرد.

المبحث الثاني: الأحاديث التي حكم عليها العلامة ابن سعدي بالرد، وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: حديث ابن عمر رضي الله عنهما : (أمرنا بغسل الأنجاس سبعًا).

المطلب الثاني: حديث غسل سائر البدن ثلاثًا في غسل الجنابة.

المطلب الثالث: حديث عائشة - رضي الله عنها - (قصر رسول الله وأتممت).

المطلب الرابع: حديث أبي هريرة ﷺ في الغرة: (فمن استطاع منكم أن يطيل..).

المطلب الخامس: حديث عبد الله بن مغفل ﷺ (وعفروه الثامنة بالتراب).

المطلب السادس: حديث علي بن أبي طالب ﷺ (أن النبي ﷺ نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية).

المطلب السابع: أحاديث زيادة أكثر من ركوعين في الركعة الواحدة من صلاة الكسوف.

المطلب الثامن: حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ في المرأة التي وهبت

نفسها، وفيه: (ولا تجزئ عن أحد بعدك).

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

الفهارس: وضمَّنتها فهرسين هما: فهرس المراجع، وفهرس الموضوعات.

منهج العمل في البحث:

١. جمعت المادة العلمية للبحث من الكتب المتخصصة، كما سيأتي سردها في فهرس المصادر، في ذيل البحث.

٢. بذلت الوسع في كتابة البحث وفق الأسلوب العربي، مراعيًا في ذلك سهولة العبارة، وقواعد الإملاء المعاصرة، ملتزمًا بعلامات الترقيم ومناسباتها المقررة.

٣. جعلت صلب البحث للمادة العلمية المرتبطة بموضوعه ارتباطًا وثيقًا، وجعلت الحاشية لتدوين ما سوى ذلك، مثل عزو المصادر ونحوها.

٤. قمت بعزو الآيات القرآنية الكريمة الواردة في البحث إلى مواضعها من السور.

٥. قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في البحث، فإن كان في الصحيحين أو أحدهما فإنني أكتفي بذلك، ولا أذكر معهما غيرهما إلاَّ لفائدة، وإن كان في غيرهما فإنني أخرجه من تلك الكتب مقدِّمًا بقية الكتب الستة على الترتيب المشهور (د، ت، س، ق)، وما عداها فعلى وفيات مؤلفيها، مقتصرًا في ذلك على رقم الجزء والصفحة ورقم الحديث.

٦. اقتصر في التخريج على مدارات الأسانيد ولا أذكر من دونه إلاَّ لفائدة.

٧. اقتصرت في التخريج على الأحاديث التي ذكرها الشيخ - رحمه الله تعالى - ولا أذكر غيرها إلاَّ لفائدة، كتقوية الحديث، أو زيادة بيان على ضعفه.

٨. أكتفي عند الكلام على الرجال بحكم مختصر مما ترجح لي - كي لا يطول الكلام -، ولا أفصِّل في غير ذلك إلا مما فيه فائدة، كإثبات تدليس راو، أو

إثبات صحبة أو عدمها، أو نحو ذلك.

٩. اعتمدت في نقل كلام الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - من كتابه: «التعليقات على عمـدة الأحـكام» ضمن مجمـوع مؤلفاتـه، التـي طبعـت في وزارة الأوقاف والشـؤون الإسـلامية في دولـة قطـر، الطبعـة الأولى، سـنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

المبحث الأول

منهج العلامة ابن سعدي في حكمه على الأحاديث بالرد.

تميَّز منهج الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - في حكمه على الأحاديث بالردِّ بمزايا عدَّة، فمن ذلك:

١. أن كلَّ أحكامه على الأحاديث، قد سبقه إلى ذلك جمع من أهل العلم قبله، وقد اعتمد - غالباً - على أحكام ابن تيمية وتلاميذه كابن القيم وابن عبد الهادي والذهبي - رحمهم الله -.

٢. سمة أحكامه على الأحاديث هو الاختصار وعدم التطويل، فغالباً ما يقتصر فيه على حكمه من دون تفصيل، وكلُّ أحكام الشيخ - رحمه الله - التي ذكرتها في هذا البحث شاهد على ذلك.

٣. تعدَّدت أحكامه على الأحاديث؛ مع نصِّه - غالباً - على نوع الضعف، فجاءت هذه الأحكام: «موضوع، منكر، شاذ، مدرج، لم يثبت، لم يرد في حديث صحيح».

٤. لا يذكر سبب ضعف الحديث إلاَّ أحياناً، وقد يطيل الكلام عليه، ومن أمثلة ذلك: حديث أبي هريرة‌ﷺ في الغرَّة «مدرج، حيث قال: «وقوله (فمن استطاع...) إلخ من كلام أبي هريرة، وليس من كلام الرسول ﷺ، ويدل على ذلك أمور: ...» ثم ذكرها، وحديث علي بن أبي طالب ﷺ في تحريم المتعة يوم خيبر، حيث قال: "والصحيح أنه لم يحرَّم يوم خيبر، وإنما وَهْمٌ من بعض الرواة، والذي حُرِّم يوم خيبر الحمر الأهلية...ولما ذكر عليٌّ تحريم الحمر الأهلية ونكاح المتعة جميعًا وَهِمَ بعض الرواة وظن أن تحريمهما يوم خيبر،

ولكن الصحيح أنه حُرِّم يوم الفتح».

٥. يكتفي - رحمه الله - بذكر حكمه على الأحاديث، مع ذكره - أحيانًا - لحكم غيره من العلماء ممن سبقه، فمن أمثلة ما اكتفى بحكمه فقط - وهو الأغلب -: حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - (أمرنا بغسل الأنجاس سبعًا)، وحديث سهل بن سعد - رضي الله عنه -: (ولا تجزئ عن أحد بعدك)، وغيرها، ومن أمثلة ما ذَكَرَ فيه حكم غيره ممن سبقه: حديث أبي هريرة ﷺ في الغرة، حيث نقل كلام ابن القيم، وأحاديث زيادة أكثر من ركوعين في الركعة الواحدة في صلاة الكسوف، حيث نقل كلام أحمد بن حنبل والبخاري.

٦. يحرص على نقده للأحاديث سندًا ومتنًا، فمن أمثلة نقده لسند الحديث: حديث علي بن أبي طالب ﷺ في تحريم المتعة يوم خيبر، وأحاديث زيادة أكثر من ركوعين في الركعة الواحدة في صلاة الكسوف، حيث غلَّط رواتها، ومن أمثلة نقده لمتن الحديث: حديث عبد الله بن مغفل ﷺ: (وعفروه الثامنة بالتراب)، حيث قال: « هذا شاذ، فلا يؤخذ به، ويترك المتواتر»، وحديث أبي هريرة ﷺ في الغرة حيث قال: « فإطالة الغرة غير ممكنة... وأيضًا: ليس الساق والعضد موضع الحلية...».

٧. لا يذكر طرق الحديث الأخرى إلاَّ نادرًا، ومن أمثلة ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ في الغرَّة حيث قال: « منها: أن الإمام أحمد روى هذا الحديث عن نعيم عن أبي هريرة بوقف هذه الزيادة على أبي هريرة».

٨. يُغْفِل الكلام عن رواة الحديث جرحًا وتعديلاً، وإنما يُجمل الكلام فيهم بقوله: «بعض الرواة»، ومن أمثلة ذلك: حديث علي بن أبي طالب ﷺ في تحريم المتعة يوم خيبر، وأحاديث زيادة أكثر من ركوعين في الركعة الواحدة في صلاة الكسوف.

المبحث الثاني

الأحاديث التي حكم عليها العلامة ابن سعدي بالرد

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول

حديث ابن عمر رضي الله عنهما : (أمرنا بغسل الأنجاس سبعًا).

قال ابن سعدي -رحمه الله- : «وأما حديث ابن عمر : (أمرنا بغسل الأنجاس سبعًا) فهو موضوع»[1].

لم أقف على إسناد له أو مخرّج، وإنما جميع من وقفت عليه ممن ذكره يذكره بلا عزو أو إسناد بصيغة التمريض، كابن قدامة[2]، وابن أخيه ابن أبي عمر[3]، وابن عبد الهادي[4]،والزركشي[5]، وابن رسلان[6]، وغيرهم، وقد نص الألباني أيضًا على أنه لم يقف على إسناد له أو مخرّج[7]، وقد حكم ابن عبد الهادي[8] على هذا الحديث

(١) انظر: التعليقات على عمدة الأحكام (ص١٣).

(٢) انظر: المغني (١/ ٤٠).

(٣) انظر: الشرح الكبير (٢/ ٢٨٧).

(٤) انظر: مجموع رسائل الحافظ ابن عبد الهادي ص(٩٤).

(٥) انظر: شرح الزركشي على مختصر الخرقي (١/ ١٤٦).

(٦) انظر: شرح سنن أبي داود لابن رسلان (٢/ ٣٩٢).

(٧) انظر: إرواء الغليل (١/ ١٨٦).

(٨) انظر: مجموع رسائل الحافظ ابن عبد الهادي (ص٩٤).

بهذا اللفظ بالرد في رسالة له في الأحاديث المشهورة على ألسنة الفقهاء وغيرهم، مما لا يعرف له إسناد بالكليَّة، أو له إسناد مركب باطل، أو ضعيف لا يعتمد عليه...إلخ.

المطلب الثاني

حديث غسل سائر البدن ثلاثًا في غسل الجنابة.

قال ابن سعدي -رحمه الله-: «لم يرد في حديث صحيح»[1].

لم أقف على حديث بهذا اللفظ إلاَّ ما جاء في مسند الديلمي (١/ ٣٢٧،ح ١٢٩٧)، وذكر إسناده ابن رجب[2] عن الحافظ سمويه، فقال: نا أحمد بن يحيى بن زيد بن كيسان: نا يزيد بن ذريع، عن أبي مكين، عن أبي صالح: حدثتني أم هانيء، قالت: قالَ رسول الله ﷺ: (إذا اغتسل أحدكم فليغسل كل عضو منه ثلاث مرات)، وهو حديث منكر؛ فإن فيه جملة من العلل، منها:

العلة الأولى: أن الصواب فيه الوقف، فقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٦٦،ح ٧٠٤) عن وكيع عن أبي مكين به مثله موقوفًا، وهو الصواب - على ضعفٍ في إسناده كما سيأتي في العلة الثانية -، وممن رجح وقفه أيضًا ابن رجب[3].

العلة الثانية: أن في إسناده أبا صالح وهو: باذام مولى أم هانئ، وهو مشهور بضعفه عند العلماء[4].

العلة الثالثة: مخالفته للأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما في صفة غُسْله

---

(١) انظر: التعليقات على عمدة الأحكام (ص٣٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٢٦٥).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٢٦٥).

(٤) انظر: تهذيب الكمال (٤/ ٦)

ﷺ كحديث عائشة وميمونة - رضي الله عنهما - فلم ينقل عنه أنه غسل بدنه ثلاثًا، وقد أكد على هذا المعنى عدد من العلماء، فمن ذلك: البخاري في صحيحه، حيث ترجم لحديث ميمونة - رضي الله عنها - بقوله: «باب الغسل مرة واحدة»[١]، وكذا ترجم النسائي في سننه الصغرى لحديث ميمونة رضي الله عنها بقوله: «باب الغسل مرة واحدة»[٢]، وقال ابن بطال: «ولم يذكر مرة ولا مرتين، فحمل على أقل ما يسمى غسلاً وهو مرة واحدة»[٣]، وقال ابن تيمية: « فإن من نقل غسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كعائشة وميمونة لم ينقل أنه غسل بدنه كله ثلاثًا»[٤]، وقال الزركشي في شرحه لمتن الخرقي: « ثم ظاهر كلامه وكلام قليل من الأصحاب أن الإفاضة على سائر الجسد لا تثليث فيها، وهو ظاهر الأحاديث»[٥]، وقال ابن رجب: « وظاهر هذه الأحاديث: يدل على أن النَّبيّ ﷺ اكتفى بإفاضة الماء على جسده من غير ذَٰلِكَ ».

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٦٠، ح٢٥٧)

(٢) السنن الصغرى للنسائي (١/ ٢٠٨،ح ٤٢٨).

(٣) شرح ابن بطال على صحيح البخاري (١٣٧٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٥) شرح الزركشي على متن الخرقي (١/ ٣١١).

المطلب الثالث

حديث عائشة - رضي الله عنها - (قصر رسول الله وأتممت).

قال ابن سعدي - رحمه الله -: «وحديث عائشة: (قصر رسول الله وأتممت) منكر لم يثبت»[1].

رواه النسائي في السنن الصغرى (٣/ ١٢٢، ح١٤٥٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١/ ٢٥، ح٤٢٥٨)، وغيرهما من طرق عن أبي نعيم، والدارقطني في سننه (٣/ ١٦٢، ح٢٢٩٤) من طريق القاسم بن الحكم، كلاهما عن العلاء بن زهير قال: حدثنا عبد الرحمن بن الأسود عن عائشة - رضي الله عنها - (أَنَّهَا اعْتَمَرَتْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى إِذَا قَدِمَتْ مَكَّةَ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي قَصَرْتَ، وَأَتْمَمْتُ، وَأَفْطَرْتَ، وَصُمْتُ، قَالَ: أَحْسَنْتِ يَا عَائِشَةُ»، وَمَا عَابَ عَلَيَّ)، وراه الدارقطني في سننه (٣/ ١٦٢، ح٢٢٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٣، ح٥٤٢٧)، من طرق عن محمد بن يوسف الفريابي عن العلاء بن زهير عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عُمْرَةِ رَمَضَانَ...) الحديث.

والصواب في هذا الاختلاف - أعني الاختلاف على العلاء بن زهير - أنه بدون ذكر «الأسود»؛ فهي رواية الأكثر، قال أبو بكر النيسابوري: «من قال فيه عن أبيه فقد أخطأ»[2]، وقال الدارقطني: «والمرسل أشبه»[3]، ومما يزيد شذوذ تلك الرواية: أن فيها قول عائشة - رضي الله عنها -: (عمرة في رمضان)؛ فإن النبي ﷺ

---

(١) التعليقات على عمدة الأحكام (ص٦٥).

(٢) انظر: تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي (٢/ ٥٢٠).

(٣) علل الدراقطني (١٤/ ٢٥٨).

لـم يعتمر في رمضان قط باتفاق العلماء، كما حكاه ابن تيمية[1]، وأعلّها بهذا، وممن أعلّهـا بهذا أيضًا: النووي[2]، وابن القيم[3]، وابـن عبد الهادي[4]، والذهبي[5]، وابن الملقن[6]، وابن حجر[7]، وغيرهم.

وقال الدارقطني في حكمه على حديث عبد الرحمن بن الأسود: «متصل، وهو إسـناد حسن»[8]، وقال البيهقي: «إسناد صحيح»[9]، وقال النووي: «إسناد حسن أو صحيح»[10]، إلا أن صحة الإسـناد أو حسـنه فقط لا تكفي لثبوت الحديث، بل هو حديث منكر، استنكره أهل العلم، كما سيأتي بيانه.

ورواه ابـن أبي شـيبة في مصنفـه (٢/ ٢٠٦، ح٨١٨٧)، والطحاوي في شـرح معـاني الآثـار (١/ ٤١٥، ح٢٣٨٩)، والدارقطنـي في سـننه (٣/ ١٦٤، ح٢٢٩٩)، وغيرهم من طرق عن المغيرة بن زياد، والدارقطني في سـننه (٣/ ١٦٣، ح٢٢٩٧)، ومـن طريقه البيهقي في السـنن الكـبرى (٣/ ٢٠٣، ح٥٤٢٥)، من طريق طلحة بن

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/ ٨٠).

(٢) انظر: خلاصة الأحكام (٢/ ٧٢٨).

(٣) انظر: زاد المعاد (٢/ ٥٣،٨٩).

(٤) انظر: تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي (٢/ ٥٢٠).

(٥) انظر: تنقيح التحقيق للذهبي (١/ ٢٧٠).

(٦) انظر: البدر المنير (٤/ ٥٢٨).

(٧) انظر: التلخيص الحبير (٢/ ١١١).

(٨) سنن الدارقطني (٣/ ١٦٢).

(٩) السنن الكبرى (٣/ ٢٠٣).

(١٠) خلاصة الأحكام (٢/ ٧٢٧)

عمرو، والدراقطني في سننه (٣/ ١٦٣، ح٢٢٩٨) ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٢، ح٥٤٢٢) من طريق عمر بن سعيد، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٢، ح٥٤٢٣) من طريق دلهم بن صالح، أربعتهم عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة ﵂ بنحوه مرفوعًا، إلا أن هذه الرواية أيضًا منكرة؛ فإنها معلولة بأمور، منها:

العلة الأولى: ضعف المغيرة بن زياد وطلحة بن عمرو ودلهم بن صالح، بخلاف عمر بن سعيد فإنه ثقة، إلا أن روايته معلولة بما سيأتي في العلة الثانية.

العلة الثانية: أن الصواب في هذه الرواية عن عطاء الوقف، فقد روى عبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٥٦٠، ح٤٤٥٩) عن ابن جريج، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٣، ح٥٤٢٦)معلقًا عن عمر بن ذر المرهبي، كلاهما عن عطاء عن عائشة - رضي الله عنها - موقوفًا، وابن جريج من أثبت الرواة عن عطاء كما نص على ذلك الإمام أحمد[١]، فكيف وقد تابعه عمر بن ذر؟ وهو ثقة أيضًا[٢]، وقد توبعوا متابعة قاصرة، كما سيأتي بيانها في العلة الثالثة.

العلة الثالثة: أن الصواب في هذه الرواية، وما قبلها أن إتمام الصلاة في السفر، إنما كان موقوفًا على عائشة - رضي الله عنها -، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٤٤، ح١٠٩٠)، ومسلم في صحيحه (١/ ٤٧٨، ح٦٨٥) وغيرهما من طريق الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة - رضي الله عنها - ، ورواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١/ ٢٧،ح٤٢٦٠)، وابن حبان في صحيحه (٦/ ٤٤٧، ح٢٧٣٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٥٣٣، ح١٦٩٨) من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة - رضي الله عنها - نحوه، وهذان الراويان: عروة بن الزبير ومسروق بن الأجدع

---

(١) انظر: العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (٢/ ٤٩٥)

(٢) انظر: تهذيب الكمال (٨/ ٥١١).

من عيون الرواة عن عائشة - رضي الله عنها - والمقدَّمين فيها، كيف وقد تابعهم عطاء بن أبي رباح - على الصحيح من روايته-

العلة الرابعة: مما يزيد نكارة الحديث مرفوعًا بكل طرقه السابقة، أن النصوص ظاهرة في قصر النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة في السفر، وأنه لا يعلم أنه أتمَّها ولو مرة واحدة باتفاق العلماء، كما حكاه ابن تيمية(١)، بل ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه أتمَّ الصلاة معه في سفر، فيخالفوا هديه ﷺ في حضرته(٢)، ولذلك حكم جمع من أهل العلم على هذا الحديث بالنكارة، منهم: أحمد بن حنبل(٣)، وابن تيمية(٤)، وابن عبد الهادي(٥)، والذهبي(٦)، وابن القيم(٧)، وابن حجر(٨)، والألباني(٩).

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/ ٧٨).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٤٥٤).

(٣) انظر: مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله ص(١١٩).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/ ٨٠).

(٥) انظر: تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي (٢/ ٥٢٠).

(٦) انظر: تنقيح التحقيق للذهبي (١/ ٢٧٠).

(٧) انظر: زاد المعاد (١/ ٤٤٧).

(٨) انظر: بلوغ المرام (ص١٨٧).

(٩) انظر: إرواء الغليل (٣/ ٦).

المطلب الرابع

حديث أبي هريرة ﷺ في الغرة: (فمن استطاع منكم أن يطيل..)

قال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله -: «مدرج، وقوله (فمن استطاع...) إلخ من كلام أبي هريرة، وليس من كلام الرسول ﷺ، ويدل على ذلك أمور: منها: أن الإمام أحمد روى هذا الحديث عن نعيم عن أبي هريرة بوقف هذه الزيادة على أبي هريرة، أيضًا: فإطالة الغرة غير ممكنة، ولهذا لم يزد أبو هريرة على غسل الوجه، ولو كان من كلامه ﷺ لم يكن عليه اعتراض، وأيضًا: ليس الساق والعضد موضع الحلية، ولهذا قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في النونية...،وقد تقدم حديث حمران، وحديث عبد الله بن زيد بوصف وضوئه ﷺ، ولم يذكر أحد منهم أنه زاد على حدود الله تعالى»[1].

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه (١/ ٣٩، ح١٣٦)، ومسلم في صحيحه (١/ ٢١٦، ح٢٤٦)، وغيرهما من طرق عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا.

وقد وافق الشيخ -رحمه الله تعالى - في الحكم على هذه اللفظة بالإدراج جمعًا من أهل العلم، منهم: ابن بطال[2]، والمنذري[3]، وابن تيمية[4]، وابن القيم[5]،

---

(١) التعليقات على عمدة الأحكام (ص١٦-١٧).

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٢٢١).

(٣) انظر: الترغيب والترهيب (١/ ٩٠).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٧٩).

(٥) انظر: حادي الأرواح (ص٢٠١).

وابن جماعة[1]، وابن حجر[2]، والعيني[3]، والألباني[4]، وغيرهم، وقد لخص الشيخ - رحمه الله - خلاصة كلام أهل العلم في سببهم لإعلال هذه اللفظة بالإدراج.

وقد خالفهم جمع من أهل العلم فرأوا أن هذه اللفظة مرفوعة من كلام النبي ﷺ، منهم: النووي[5]، وابن الملقن[6]، وغيرهما، إلا أن القول بأنها مدرجة هو الأظهر؛ لما سبق، والله أعلم.

---

(١) انظر: فيض القدير (٢/ ٤٣٠).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: عمدة القاري (٢/ ٢٤٩).

(٤) انظر: إرواء الغليل (١/ ١٣٣).

(٥) انظر: المجموع (١/ ٤٢٩).

(٦) انظر: التوضيح (٤/ ٣٣).

المطلب الخامس

حديث عبد الله بن مغفل ﷺ (وعفروه الثامنة بالتراب).

قال ابن سعدي – رحمه الله تعالى –: «هذا شاذ، فلا يؤخذ به ويترك المتواتر؛ ويحتمل أنه عدَّ التراب المثري في إحدى الغسلات غسلة»[1].

هذا الحديث رواه مسلم في صحيحه(١/ ٢٣٥، ح٢٨٠)، وغيره من طرق عن شعبة عن أبي التياح عن مطرف بن عبد الله عن عبد الله بن مغفل ﷺ عن النبي ﷺ مثله.

ومراد الشيخ – رحمه الله – بالمتواتر: ما رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٣٤، ح٢٧٩) وغيره من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا وفيه: (أولاهن بالتراب)، وقد سبق الشيخ – رحمه الله – إلى هذا الإعلال جمع من أهل العلم، منهم: ابن بطال[2]، والبيهقي[3]، وابن قدامة[4]، وقال الشافعي: «هو حديث لم يُقَف على صحته».[5].

وقد خالفهم غيرهم من أهل العلم – وهم كثير – فصحَّحوا حديث عبد الله بن مغفل ﷺ، منهم: الإمام مسلم، فقد رواه في صحيحه كما سبق، والدارقطني[6]، وابن

---

(١) التعليقات على عمدة الأحكام (ص١٢).

(٢) انظر: شرح ابن بطال على صحيح البخاري (١/ ٢٧٠).

(٣) انظر: السنن الكبرى (١/ ٣٦٧).

(٤) انظر: المغني (١/ ٣٩).

(٥) انظر: الحاوي الكبير (١/ ٣٠٩).

(٦) انظر: سنن الدراقطني (١/ ١٠٧).

حـزم[١]، والبغوي[٢]، والنووي[٣]، وابن دقيق العيـد[٤]، وابن تيمية[٥]، والعراقي[٦]، وابن حجر[٧]، وهو كما قالوا؛ فإن الحديث لا مطعن فيه من حيث الإسناد، ومخرجه مختلـف، وأما معارضة متنه لحديث أبي هريرة ﷺ السـابق، فهو من باب «مختلف الحديـث» الـذي يمكن فيه الجمع بينهمـا، حالها كحال غيرها مـن النصوص التي صحـت مع أن ظاهرهـا التعارض، والجمع أولى من الترجيـح، وقد جمعوا بينهما بمـا ذكره الشـيخ - رحمـه الله - بقوله: «ويحتمل أنه عدَّ الـتراب المثري في إحدى الغسـلات غسـلة»[٨]، وزاد ابن تيميـة هذا المعنى بيانًـا بقوله: «وَالصَّحِيـحُ أَنَّهُ عَدَّ التُّـرَابَ ثَامِنَـةً وَإِنْ لَمْ تَكُنْ غَسْـلَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [سـورة الكهف:٢٢] يُحَقِّقُ ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ قَالُوا: إذَا كَانَ اسْـمُ فَاعِلٍ عَلَى الْعَدَدِ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الْمَفْعُولِ يَجْعَلُهُ زَائِدًا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سـورة المجادلة:٧]، وَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِـهِ جَعَلَهُ أَحَدَهُـمْ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ

(١) انظر: المحلى (١/ ١٢١).

(٢) انظر: شرح السنة(١١/ ٢١٣).

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم (٣/ ١٨٤).

(٤) انظر: إحكام الأحكام (١/ ٧٧).

(٥) انظر: شرح عمدة الفقه (١/ ٨٦).

(٦) انظر: طرح التثريب (٢/ ١٢٤).

(٧) انظر: فتح الباري (١/ ٢٧٧).

(٨) التعليقات على عمدة الأحكام (ص١٢).

هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [سورة التوبة: ٤٠]، فَلَمَّا قَالَ: «سَبْعَ مَرَّاتٍ» عُلِمَ أَنْ التُّرَابَ سَمَّاهُ ثَامِنًا لأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ وَإِلاَّ قَالَ: فَاغْسِلُوهُ ثَمَانِيًا وَعَفِّرُوهُ الثَّامِنَةَ، كَمَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: (إِذَا وَلَغَ الْكَلْبُ فِي الإِنَاءِ فَاغْسِلُوهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ السَّابِعَةُ بِالتُّرَابِ)»[1]. وأما قول الشافعي السابق فقد أجاب عنه ابن حجر بقوله: «وَنُقِلَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ هُوَ حَدِيثٌ لَمْ أَقِفْ عَلَى صِحَّتِهِ، وَلَكِنَّ هَذَا لاَ يُثْبِتُ الْعُذْرَ لِمَنْ وَقَفَ عَلَى صِحَّتِهِ»[2].

(١) شرح عمد الفقه (١/ ٨٦).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٧٧).

المطلب السادس

حديث علي بن أبي طالب ﷺ (أن النبي ﷺ نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية)

قال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى -: «وقوله: (يوم خيبر) ورد حديث صحيح صريح أنه حُرِّم يوم الفتح، فقيل: إنه أُبيح ثم حُرِّم، ثم أُبيح ثم حُرِّم. قال الإمام الشافعي: ما أعلم شيئًا من الأحكام أُبيح مرتين، وحُرِّم مرتين، إلاَّ نكاح المتعة. والصحيح أنه لم يحرَّم يوم خيبر، وإنما وَهْمٌ من بعض الرواة، والذي حُرِّم يوم خيبر الحمر الأهلية. وكان ابن عباس يرى حلَّ ذلك عن الضرورة، ولكنه رجع بعد ذلك. ولما ذكر عليٌّ تحريم الحمر الأهلية ونكاح المتعة جميعًا وَهِمَ بعض الرواة وظن أن تحريمهما يوم خيبر، ولكن الصحيح أنه حرم يوم الفتح.»[1].

هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢، ح٥١١٥)، ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٧، ح١٤٠٧) واللفظ له، وغيرهما من طرق عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن عبد الله والحسن بن محمد بن علي عن أبيهما عن علي بن أبي طالب ﷺ مثله.

وقد سبق الشيخ - رحمه الله - إلى هذا القول جمع من أهل العلم، منهم:

---

(١) التعليقات على عمدة الأحكام (ص٣٧٣).

سفيان بن عيينة[١]، والبيهقي[٢]، وابن تيمية[٣]، وابن القيم[٤]، وابن حجر[٥]، وقال ابن عبد البر: «على هذا أكثر الناس»[٦]، وقال السهيلي: «وَهَذَا شَيْءٌ لاَ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السِّيَرِ وَرُوَاةِ الأَثَرِ أَنّ الْمُتْعَةَ حُرّمَتْ يَوْمَ خَيْبَرَ»[٧].

وقد خالفهم جمع من أهل العلم فرأوا أن الحديث على ظاهره، منهم: الشافعي[٨]، وأبو عوانة (٣/ ٢٦)، وابن حبان[٩]، وابن العربي[١٠]، والمازري[١١]،

---

(١) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٣٢٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣٣/ ٩٦).

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٩/ ١٧١).

(٦) التمهيد (١٠/ ١٠٢).

(٧) الروض الأنف (٧/ ٩٩).

(٨) انظر: اختلاف الحديث (ص٦٤٥).

(٩) انظر: صحيح ابن حبان (٩/ ٤٥٣).

(١٠) انظر: أحكام القرآن (١/ ٤٩٩).

(١١) انظر: المعلم (٢/ ١٣١).

والقاضي عياض[1]، وابن الجوزي[2]، وابن الأثير[3]، والنووي[4]، والعيني[5]، وغيرهم، وهو الصحيح؛ لما يلي:

أولاً: أن فيه جمعًا للنصوص وبعداً للتكلف في تأويلها.

ثانيًا: أن في بعض روايات حديث علي ﷺ ما يدفع دعوى وهم بعض الرواة فيه، حيث نُصَّ على تحريم المتعة في خيبر، فقد روى البخاري في صحيحه(٥/ ١٣٥، ح٤٢١٦)، ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٧، ح١٤٠٧) وغيرهما من طرق عن مالك، واللفظ له، والبخاري في صحيحه (٩/ ٢٤، ح٦٩٦١)، ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٨، ح١٤٠٧)، وغيرهما من طرق عن عبيد الله بن عمر، ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٨، ح١٤٠٧)، والنسائي في السنن الصغرى (٧/ ٢٠٢، ح٤٣٣٥)، وغيرهما من طرق عن يونس بن يزيد، والنسائي في السنن الصغرى (٧/ ٢٠٢، ح٤٣٣٥) من طريق أسامة بن زيد الليثي، وعبد الرزاق في مصنفه (٧/ ٥٠٠، ح١٤٠٣٢) عن معمر، خمستهم عن الزهري عن عبد الله والحسن ابني محمد بن علي عن أبيهما عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ)

ثالثًا: ما رواه أبو عوانة في مستخرجه (٣/ ٢٩، ح٤٠٨٣) (٣/ ٢٩، ح٤٠٨٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢٥، ح٤٣١١)، من طرق عن الزهري:

---

(١) انظر: إكمال المعلم (٤/ ٥٣٦).

(٢) انظر: كشف المشكل (١/ ١٤٦).

(٣) انظر: الشافي (٤/ ٣٧١).

(٤) انظر: شرح صحيح مسلم (٩/ ١٧٩).

(٥) انظر: نخب الأفكار (١٠/ ٣٤٩).

أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ عَنِ « الْمُتْعَةِ، قَالَ: حَرَامٌ، فَقَالَ: إِنَّ فُلاَنًا يَقُولُ فِيهَا، فَقَالَ: (وَاللهِ لَقَدْ عَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ وَمَا كُنَّا مُسَافِحِينَ)، وقد صححه أبو عوانة كما سبق، وقوّى إسناده ابن حجر[1]، والصنعاني[2].

رابعًا: أنه جاء في حديث سبرة الجهني ﷺ في تحريم المتعة يوم الفتح - الذي يستدل به أصحاب القول الأول-، وفيه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الاِسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ...)، فلا يصدق قول «أذنت» إلاَّ لمحرَّم سابق[3].

خامسًا: أنه جاء في حديث سبرة الجهني ﷺ في تحريم المتعة يوم الفتح أيضًا قوله: (وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، ففي ذلك تنبيهٌ على تحريم سابق إلاَّ أنه مؤقت، فتبعه هذا التحريم المؤبد[4].

---

(١) انظر: التلخيص الحبير (٣/ ٣٣٣).

(٢) انظر: سبل السلام (٢/ ١٨٥).

(٣) انظر: فتح الباري (٩/ ١٧٠).

(٤) انظر: الحاوي الكبير (٩/ ٣٣٠).

المطلب السابع

أحاديث زيادة أكثر من ركوعين في الركعة الواحدة من صلاة الكسوف.

قال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - وهو يتكلم عن صلاة الكسوف: «ولهذا خالفت جميع الصلوات، فهي ركعتان وكل ركعة تشتمل على ركوعين وسجدتين يطول فيها، كما سيأتي. ووردت على غير هذه الصفة، لكن هذه أصح ما ورد، فقد ورد إلى خمسة ركوعات في الركعة الواحدة، لكن قال الإمام أحمد والبخاري وكثير من الحفاظ: كل ما خالف هذه الرواية فغلط من الرواة. وإن كان بعضها في صحيح مسلم؛ لأن هذه الرواية - يعني: أنه أتى في كل ركعة بركوعين وسجدتين - أصح الروايات، والكسوف لم يقع إلا مرة في زمنه ﷺ، فتعين أن غير هذه الروايات غلط من بعض رواته.»[1].

الروايات التي جاءت بأكثر من ركوعين في الركعة الواحدة في صلاة الكسوف على صفات:

الصفة الأولى: رواية ثلاثة ركوعات في الركعة الواحدة.

وأشهر ما ورد فيها حديثان:

الحديث الأول: حديث عائشة - رضي الله عنها -:

فقد رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٢٠، رقم٩٠١)، من طريق ابن جريج قال: سمعت عطاء، يقول: سمعت عبيد بن عمير يقول: «حدثني من أصدق، حسبته يريد عائشة رضي الله عنها...» الحديث، وهي رواية شاذة، فقد خالف عبيد بن

---

(١) التعليقات على عمدة الأحكام (ص١٥١-١٥٢).

عمير، من هو أكثر منه وأضبط في عائشة رضي الله عنها، وهما: عروة بن الزبير فيما رواه البخاري (٢/ ٣٤، ح ١٠٤٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨، ح٩٠١)، وعمرة بنت عبد الرحمن فيما رواه البخاري (٢/ ٤٠، رقم١٠٦٤)، ومسلم، (٢/ ٦٢١، رقم٩٠٣)، وهما من أعلم الناس بحديث عائشة رضي الله عنها، قال سفيان بن عيينة: «كان أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة: القاسم بن محمد وعروة بن الزبير وعمرة بنت عبد الرحمن»[١]، وقال ابن القيم: «وعروة وعمرة أخص بعائشة وألزم لها من عبيد بن عمير»[٢]،ويزيد شذوذها أيضًا: أن عطاء لم يجزم بإسناد الحديث إلى عائشة رضي الله عنها فقال: «حسبته يريد عائشة» كما أشار إلى ذلك الشافعي[٣]، وابن القيم[٤]، والألباني[٥].

الحديث الثاني: حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -:

رواه مسلم في صحيحه(٢/ ٦٢٣، رقم٩٠٤)، من طريق عبد الملك بن سليمان، عن عطاء، عن جابر رضي الله عنه، وهي رواية شاذة أيضًا؛ فقد خالفه أبو الزبير عن جابر - رضي الله عنه - فيما رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٢٢، رقم٩٠٤)، والتي وافق فيها أكثر الرواة في صفة صلاة الكسوف، ثم إن عبد الملك بن سليمان متكلم في ضبطه، قال عنه أحمد بن حنبل: «ثقة يخطئ»[٦]، وقال ابن القيم: «قد أخذ عليه

---

(١) انظر: الجرح والتعديل (١/ ٤٥).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٤٣٧)

(٣) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٤٥٨).

(٤) انظر: زاد المعاد (١/ ٤٣٧)

(٥) انظر: صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الكسوف (ص٢٢).

(٦) سؤلات أبي داود للإمام أحمد (ص٢٩٦).

الغلط في غير حديث»[1]، وقال ابن حجر: «صدوق له أوهام»[2]، وهذا الحديث من جملة ما أخطأ فيه، كما نص على هذا الشافعي[3] وابن القيم[4] والألباني[5].

الصفة الثانية: رواية أربعة ركوعات في الركعة الواحدة.

وأشهر ما فيه حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -:

رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٢٧، ح٩٠٨-٩٠٩)، من طريق حبيب وهو ابن أبي ثابت عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي رواية شاذة؛ فقد خالف طاوس رواية الجماعة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الكسوف ركعتين في كل ركعة ركوعان وهم:

١/ كثير بن عباس، فيما رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٣٥، ح١٠٤٦)، ومسلم في صحيحه(٢/ ٦٢٠، ح٩٠٢).

٢/ عطاء بن يسار، فيما رواه البخاري (٢/ ٣٧، ح١٠٥٢)، ومسلم في صحيحه(٢/ ٦٢٦، ح٩٠٧).

٣/ مقسم مولى ابن عباس، فيما رواه أحمد في مسنده، (٣/ ٣٥٨، ح١٨٦٤)، ويزيد أيضًا من ضعف رواية طاوس، عنعنة حبيب بن أبي ثابت وهو مشهور

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٣٨).

(٢) التقريب (ص٣٦٣) برقم (٤١٨٤).

(٣) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٤٥٨).

(٤) زاد المعاد (١/ ٤٣٨).

(٥) انظر: صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الكسوف (ص٣٨).

بالتدليس نص على ذلك ابن خزيمة[1]، وابن حبان[2]، والدارقطني[3]، والبيهقي[4]، وأبو زرعة العراقي[5]، وابن حجر[6]، وغيرهم، وممن ضعَّف هذه الرواية أيضًا البيهقي[7]، وابن حجر[8]، والألباني[9].

الصفة الثالثة: رواية خمس ركوعات في ركعة واحدة.

وأشهر ما رود فيها حديثان:

الحديث الأول: حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه -:

رواه أبو داود في سننه (١/ ٣٠٧، ح١١٨٢)، وأحمد في مسنده (٣٥/ ١٤٨، ح٢١٢٢٥)، والحاكم في مستدركه (١/ ٤٨١، ح١٢٣٧)، من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية عن أبي بن كعب - رضي الله عنه -، وفي إسناده أبو جعفر الرازي، وهو ضعيف[10]، وقد ضعف هذا الحديث أيضًا

---

(١) انظر: صحيح ابن خزيمة (١/ ٢٢٩)

(٢) انظر: الثقات (٤/ ١٣٧).

(٣) انظر: تعريف أهل التقديس (ص٣٧).

(٤) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ١٤٩).

(٥) انظر: المدلسين (ص٣٩).

(٦) انظر: تعريف أهل التقديس (ص٣٧).

(٧) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٥/ ١٤٩).

(٨) انظر: التلخيص الحبير (٢/ ٢١٦٠).

(٩) انظر: صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الكسوف (ص٢٧).

(١٠) انظر: تهذيب الكمال (٣٣/ ١٩٢).

البيهقي[1]، والنووي[2]، والزيلعي[3]، والألباني[4].

الحديث الثاني: حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:

رواه البزار في مسنده، (٢/ ٢٣٣، ح٦٢٨) من طريق عبد الأعلى، عن محمد بن علي وعبد الرحمن بن أبي ليلى، عن علي رضي الله عنه، وهي ضعيفة؛ لأن فيها: عبد الأعلى وهو ابن عامر الثعلبي، وهو ضعيف[5]، وممن ضعف هذا الحديث أيضًا الألباني[6].

فعليه فكل هذه الروايات ضعيفة كما سبق، ومما يزيد من ضعفها أيضًا: مخالفتها للروايات الكثيرة في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم للكسوف وأنه صلاها ركعتين في كل ركعة ركوعان.

---

(١) انظر: السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٤٥٩)

(٢) انظر: خلاصة الأحكام (٢/ ٨٥٨)

(٣) انظر: نصب الراية (٢/ ٢٢٧).

(٤) انظر: صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الكسوف (ص٥٨).

(٥) انظر: تهذيب الكمال (١٦/ ٣٥٢).

(٦) انظر: صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لصلاة الكسوف (ص٥٦-٥٧).

المطلب الثامن: حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ في المرأة التي وهبت نفسها، وفيه: (ولا تجزئ عن أحد بعدك)

قال الشيخ ابن سعدي – رحمه الله تعالى –: «لم يثبت».

رواه سعيد بن منصور في سننه (١/ ٢٠٦، ح ٦٤٢) عن أبي معاوية الضرير قال: حدثنا أبو عرفجة الفايشي عن أبي النعمان الأزدي قال: (زوَّج رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة على سورة من القرآن، ثم قال: لا تكون لأحد بعدك مهراً)، وهي رواية منكرة؛ وقد أعلَّت بعدَّة علل:

العلة الأولى: جهالة أبي عرفجة وأبي النعمان الأزدي، كما نصَّ عليه ابن حزم[١]، وعبد الحق الأشبيلي[٢]، وابن عبد الهادي[٣]، وابن الملقن (٧/ ٦٨٧)، وابن حجر[٤]، وغيرهم.

العلة الثانية: أنه مرسل، كما نصَّ عليه ابن حزم[٥]، وعبد الحق الأشبيلي[٦]، وأبي البركات المجد ابن تيمية[٧]، وابن عبد الهادي[٨]، وابن الملقن (٧/ ٦٨٧)،

---

(١) انظر: المحلى (٩/ ٩٨).

(٢) انظر: الأحكام الوسطى (٣/ ١٤٨).

(٣) انظر: تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي (٤/ ٣٨١).

(٤) انظر: فتح الباري (٩/ ٢١٢).

(٥) انظر: المحلى (٩/ ٩٨).

(٦) انظر: الأحكام الوسطى (٣/ ١٤٨).

(٧) انظر: نيل الاوطار (٦/ ٢٠٢).

(٨) انظر: تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي (٤/ ٣٨١).

وابـن حجـر[1]، وغيرهـم، إلاّ أن الطـبراني[2]، وأبـا نعيـم[3]، وابن الأثيـر[4]، وابن حجر[5] ذكروه في الصحابة، والله أعلم.

العلـة الثالثة: مخالفة هذه الروايـة للروايات الكثيرة لأصل هذا الحديث حيث لم تذكر تلك الزيادة مع أهميتها.

وممـن ضعّـف هذه الرواية أيضًـا - غير ما ذُكِر - الذهبي[6]، والسـفاريني[7]، وغيرهم.

---

(١) انظر: فتح الباري (٩/ ٢١٢).

(٢) انظر: المعجم الكبير (٢٢/ ٣٠٢).

(٣) انظر: معرفة الصحابة (٦/ ٣٠٣٧).

(٤) انظر: أسد الغابة (٦/ ٣٠٨).

(٥) انظر: الإصابة (٧/ ٣٤٠).

(٦) انظر: تنقيح التحقيق للذهبي (٢/ ١٩٧).

(٧) انظر: كشف اللثام (٥/ ٤٠١).

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث أذكر أهم ما توصلت إليه من نتائج:

١. قلة البحوث الحديثيَّة المتعلقة بالقرن الماضي مع قرب عهدنا به.

٢. قلَّة البحوث التي تناولت جهود الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - في خدمة السنة وعلومها.

٣. أن عامَّة الأحاديث التي حكم عليها الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - قد سبقه إليها غيره من أهل العلم ممن سبقه، وقد اعتمد - غالباً - على أحكام ابن تيمية وتلاميذه كابن القيم وابن عبد الهادي والذهبي - رحمهم الله -.

٤. أن سمة أحكامه - رحمه الله تعالى - على الأحاديث الاختصار وعدم التطويل.

٥. تعدَّدت أحكامه على الأحاديث؛ مع نصِّه - غالباً - على نوع الضعف، فجاءت هذه الأحكام: "موضوع، منكر، شاذ، مدرج، لم يثبت، لم يرد في حديث صحيح".

٦. لا يذكر سبب ضعف حديث إلاَّ أحيانًا، وقد يطيل الكلام عليه.

٧. يكتفي - رحمه الله - بذكر حكمه على الأحاديث، مع ذكره - أحيانًا - لحكم غيره من العلماء ممن سبقه.

٨. يحرص على نقده للأحاديث سندًا ومتنًا، مع ذكر - نادر - لطرق الحديث الأخرى.

٩. يُغْفِل الكلام عن رواة الحديث جرحًا وتعديلاً، وإنما يُجمل الكلام فيهم بقوله: "بعض الرواة".

أبرز التوصيات:

إن أهم ما يوصى به في ختام هذا البحث ما يلي:

١. الإكثار من الدراسات العلمية لجهود العلماء في القرن الماضي في خدمة السنة وعلومها.

٢. الاهتمام بدراسة تراث الشيخ ابن سعدي - رحمه الله تعالى - وجهوده في خدمة السنة وعلومها.

ومن المواضيع المقترحة للبحث ما يلي:

أ. منهج ابن سعدي في شرحه للأحاديث.

ب. منهج ابن سعدي في الجمع بين الأحاديث المتعارضة.

ج. تأثر ابن سعدي بمدرستي ابن تيمية وابن القيم في السنة وعلومها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المراجع

* الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي، ت ٣٥٤هـ تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
* أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، ت ٥٤٣هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
* الأحكام الوسطى من حديث النبي ﷺ، عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي الأندلسي الأشبيلي المعروف بابن الخراط، ت ٥٨١ هـ، تحقيق حمدي السلفي، صبحي السامرائي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
* اختلاف الحديث (مطبوع ملحقا بالأم للشافعي)، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، ت ٢٠٤هـ، دار المعرفة - بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
* البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، ت ٨٠٤هـ، تحقيق مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية، الطبعة الاولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
* تعريف اهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ٨٥٢هـ تحقيق د. عاصم بن عبدالله القريوتي، مكتبة المنار - عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.
* تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ -

١٩٨٦ .

* التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ. ١٩٨٩م.
* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ت ٤٦٣هـ، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي - محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧ هـ.
* تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، ت ٧٤٨هـ، تحقيق مصطفى أبو الغيط عبد الحي عجيب، دار الوطن - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
* تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، ت ٧٤٤ هـ، تحقيق سامي بن محمد بن جاد الله وعبد العزيز بن ناصر الخباني، أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
* الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي، ت ٣٥٤هـ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٣م.
* الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ابن أبي حاتم، ت ٣٢٧هـ، مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م.
* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت ٧٥١هـ، مطبعة المدني، القاهرة.
* الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، أبو الحسن

علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي، ت ٤٥٠هـ، تحقيق الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ-١٩٩٩ م.

* خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ت ٦٧٦هـ تحقيق حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة - لبنان - بيروت، الطبعة الاولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
* الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، ت ٥٨١هـ، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
* زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت ٧٥١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
* سبل السلام، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني ثم الصنعاني أبو إبراهيم عز الدين المعروف كأسلافه بالأمير، ت ١١٨٢هـ، دار الحديث.
* سؤالات أبي داود للإمام أحمد بن حنبل في جرح الرواة وتعديلهم، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت ٢٤١هـ، تحقيق د. زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ.
* الشَّافِي فِيْ شَرْح مُسْنَد الشَّافِعي لابْنِ الأَثِيْرْ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، ت ٦٠٦هـ، تحقيق أحمد بن سليمان - أبي تميم يَاسر بن إبراهيم، مَكتَبَةَ الرُّشْدِ، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
* الشرح الكبير (المطبوع مع المقنع والإنصاف)، شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي ت ٦٨٢ هـ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي - الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع

والإعلان، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

* شرح سنن أبي داود، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن رسلان المقدسي الرملي الشافعي، ت ٨٤٤ هـ، تحقيق عدد من الباحثين بدار الفلاح بإشراف خالد الرباط، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم - جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م.
* شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي أبو الفضل، ت ٥٤٤هـ، تحقيق الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
* شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي، ت ٣٢١هـ، تحقيق محمد زهري النجار - محمد سيد جاد الحق، عالم الكتب، الطبعة الأولى - ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
* صحيح ابن خزيمة،أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، ت ٣١١هـ، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت.
* طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، ت ٨٠٦هـ، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي، ت ٨٢٦هـ، الطبعة المصرية القديمة.
* العلل ومعرفة الرجال، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت ٢٤١هـ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، دار الخاني، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
* عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن

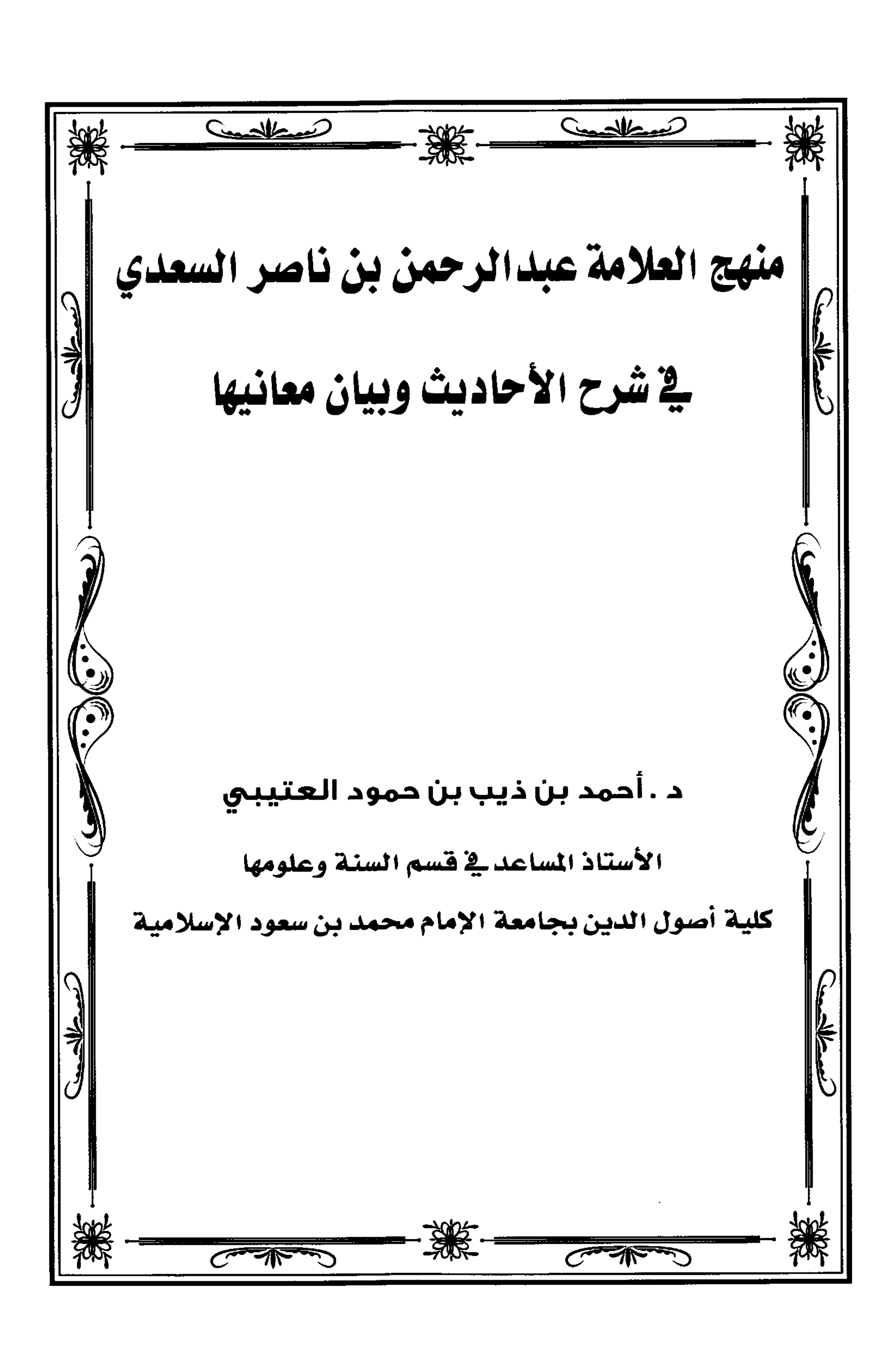
أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى، ت ٨٥٥هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، ت ٧٩٥هـ، تحقيق محمود بن شعبان بن عبد المقصود - مجدي بن عبد الخالق الشافعي - إبراهيم بن إسماعيل القاضي - السيد عزت المرسي - محمد بن عوض المنقوش - صلاح بن سالم المصراتي - علاء بن مصطفى بن همام - صبري بن عبد الخالق الشافعي، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
* الفردوس بمأثور الخطاب، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسرو، أبو شجاع الديلميّ الهمذاني، ت ٥٠٩هـ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
* فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، ت ١٠٣١هـ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦.
* الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، ت ٢٣٥هـ، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.
* كشف اللثام شرح عمدة الأحكام، شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، ت ١١٨٨ هـ، تحقيق نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار النوادر - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
* كشف المشكل من حديث الصحيحين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ت ٥٩٧هـ، تحقيق علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض.
* مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، ت ٧٢٨هـ، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة

المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

* مجموع رسائل الحافظ ابن عبد الهادي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي ت ٧٤٤ هـ، تحقيق أبو عبد الله حسين بن عكاشة، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
* المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، ت ٦٧٦هـ، دار الفكر.
* المدلسين، أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري أبو زرعة ولي الدين ابن العراقي، ت ٨٢٦هـ، تحقيق د. رفعت فوزي عبد المطلب، د. نافذ حسين حماد، دار الوفاء، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
* مستخرج أبي عوانة، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني، ت ٣١٦هـ، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
* المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، ت ٤٠٥هـ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠م.
* مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ت ٢٤١هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
* مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، ت ٢٩٢هـ، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله - عادل بن سعد - صبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

* المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، ت ٢١١هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي - الهند، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.
* المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، ت ٣٦٠هـ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية.
* المُعْلم بفوائد مسلم، أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري المالكي، ت ٥٣٦هـ، تحقيق فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر - المؤسّسة الوطنية للكتاب بالجزائر المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدّراسات بيت الحكمة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨ م، والجزء الثالث صدر بتاريخ ١٩٩١م.
* المغني لابن قدامة، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي، ت ٦٢٠هـ، مكتبة القاهرة، بدون طبعة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
* نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى، ت ٨٥٥هـ، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
* نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، ت ٧٦٢هـ، تحقيق محمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر - بيروت -لبنان/ دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
* نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، ت ١٢٥٠هـ، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.



منهج العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في شرح الأحاديث وبيان معانيها

د . أحمد بن ذيب بن حمود العتيبي

الأستاذ المساعد في قسم السنة وعلومها

كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مُقَدِّمَة

فإنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

إن السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، ولذا: بذل علماء الأمة وما يزالون على خدمتها، روايةً، ودرايةً، وألفت في ذلك المؤلفات الكثيرة جيل بعد جيل.

وإن من العلماء الذين عنوا بالسنة النبوية عنايةً فائقةً العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى، يظهر ذلك جلياً في أخذه لعلم الحديث من مشايخه رحمهم الله، فقرأ الأمهات الست وغيرها من مصنفات الحديث، وكذلك عنايته الفائقة في تعليم علم الحديث تأليفاً وشرحاً وإملاءً ونحوها.

ومن حق هذا العالم الجليل أن تبرز جهوده العلمية والدعوية وغيرها، ولاشك أن ما دعت إليه جامعة القصيم ممثلة في كلية العلوم والآداب بعنيزة بالتعاون مع كرسي الشيخ ابن عثيمين للدراسات الشرعية لعقد مؤتمر بعنوان (الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي آثاره ومنهجه في الاجتهاد والتجديد والدعوة) هو من أداء حق لهذا العالم العلامة الذي لجهوده آثار معلومة مشاهدة في الحركة العلمية في مدينته عنيزة على وجه الخصوص، وفي باقي بلدان هذه الدولة المباركة والدول الإسلامية.

فاستعنت بالله في بيان منهج الشيخ رحمه الله تعالى في شرح الأحاديث وبيان معانيها من خلال مؤلفاته في علم الحديث فقط، إذ هي مقصود البحث؛ وإلا فإن للشيخ رحمه الله تعالى كلام قيّم وفوائد فريدة في شرحه للأحاديث التي يوردها في ثنايا مؤلفاته الأخرى في التفسير والفقه وغيرها.

أهمية البحث وأساب اختياره:

١- رسوخ قدم العلامة ابن سعدي رحمه الله في علم الحديث.

٢- تلقي الأمة بالقبول لمؤلفات العلامة ابن سعدي والعناية بها؛ خصوصاً في علم الحديث.

٣- أني لم أقف على دراسة مستقلة لهذا الموضوع.

منهج البحث:

سأقوم في هذا البحث بسلوك المنهج الاستقرائي التحليلي.

خطة البحث:

وقد رسمت خطة البحث من خلال ما يلي :

* المقدمة: وتشتمل على أهمية البحث، ومنهجه، وخطته.

* التمهيد: ترجمة العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى.

* المبحث الأول: التعريف بمؤلفات العلامة ابن سعدي الحديثية؛ وفيه مطالب:

المطلب الأول: التعريف بكتاب التعليقات على عمدة الأحكام.

المطلب الثاني: التعريف بكتاب بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار.

المطلب الثالث: التعريف بكتاب أحاديث في الحج.

المطلب الرابع: التعريف بكتاب الأحاديث المختارة في الأصول والأحكام والآداب وغيرها.

المطلب الخامس: التعريف بكتاب قطعة من شرح بلوغ المرام.

* المبحث الثاني: منهج العلامة ابن سعدي في شرح الأحاديث وبيان معانيها؛ وفيه

مطالب:

المطلب الأول: منهجه في تخريج الحديث والحكم عليه.

المطلب الثاني: منهجه في شرح ألفاظ الحديث.

المطلب الثالث: منهجه في بيان المعنى الإجمالي.

المطلب الرابع: منهجه في استنباط الفوائد والأحكام.

* الخاتمة .

* الفهارس اللازمة.

التمهيد

يحسن بنا قبل البدء في ثنايا البحث وصلبه التمهيد بترجمة موجزة للعلامة ابن سعدي رحمه الله[1] يظهر من خلالها عنايته بعلم الحديث تلقياً من شيوخه، وأداءً إلى تلامذته تدريساً، وللأمة تأليفاً.

فاسمه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السَّعْدي التميمي، أبو عبدالله، مولده ووفاته في بلدة عنيزة بالقصيم، فكان مولده عام ١٣٠٧هـ، ووفاته ١٣٧٦هـ.

توفيت أمه وله أربع سنين ثم توفي والده وهو في الثانية عشرة من عمره، فنشأ في كنف زوجة أبيه وأخيه الأكبر (محمد) فحفظ القرآن مبكراً، وطلب العلم على علماء نجد، منهم: الشيخ صالح بن عثمان - وهو أكثر من لازمه- والشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، والشيخ محمد بن مانع، والشيخ محمد الشنقيطي.

واهتم بتلقي علم الحديث على أشياخه فقرأ الحديث على الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر، والشيخ علي بن ناصر أبو وادي قرأ عليه في الأمهات الست وأجازه في ذلك[2].

ولما بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة جلس للتدريس فكان يتعلم ويعلم، وهو أول من أسس مكتبة عنيزة (سنة ١٣٥٨)، وأخذ عنه كثير من الطلاب؛ منهم: الشيخ سليمان بن إبراهيم البسام، والشيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع، والشيخ

---

(١) مصادر ترجمته: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤٠)، معجم المؤلفين (١٣/ ٣٩٦)، علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢١٨-٢٧٢)، مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص: ٢٥٦)، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (٢/ ١٢٠٧)، الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة (ص: ١٧ وما بعدها).

(٢) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٥/ ٣٠٥).

علي الحمد الصالحي، والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام، والشيخ محمد صالح بن عثيمين رحمهم الله، وغيرهم الكثير.

وألف مؤلفات نافعة جاوزت الثلاثين تدل على مشاركته في العلوم ورسوخه؛ منها: تفسير القرآن الكريم المسمى «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن»، وإرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب مربية على طريقة السؤال والجواب، وتنزيه الدين وحملته ورجالة مما افتراه القصيمي في أغلاله، والدرة المختصرة في محاسن الإسلام، والخطب العصرية، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، والحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين.

أثنى عليه كثيرٌ من أهل العلم، قال الشيخ محمد حامد الفقي: لقد عرفت الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي من أكثر من عشرين سنة فعرفت فيه العالم السلفي المحقق، الذي يبحث عن الدليل الصادق وينقب عن البرهان الوثيق. . . عرفت فيه العالم السلفي الذي فهم الإسلام الفهم الصادق، وعرف فيه دعوته القوية الصادقة.

المبحث الأول: التعريف بمؤلفات العلامة ابن سعدي الحديثية

وفيه مطالب:

المطلب الأول: التعريف بكتاب (التعليقات على عمدة الأحكام).

لاشك أن كتاب (عمدة الأحكام) للحافظ أبي محمد عبدالغني بن عبدالواحد بن علي المقدسي الحنبلي المتوفى سنة (٦٠٠ هـ) كتاب عظيم القدر، رفيع المكانة، اهتم به أهل العلم منذ تأليفه إلى يومنا حفظاً وشرحاً، وقد شرحه كثير من علماء المذاهب الأربعة.

والكتاب من محفوظات الشيخ رحمه الله تعالى[1]، وقام الشيخ بشرح عمدة الأحكام بطريقة الإملاء على طلابه، وقيّد هذه الإملاءات تلميذه الشيخ عبدالله بن محمد العوهلي رحمه الله تعالى المتوفى (١٤٠٨هـ)[2]، فكتب هذه الإملاءات في كراريس، قام بجمعها وتلخيصها، فكان هذا الشرح سهل العبارة، متوسط ليس بالمطول ولا بالمختصر.

وكان هذا الشرح درساً يلقيه على طلابه، واستظهر محقق الكتاب[3] أن الشرح كان بين عامي (١٣٤٧-١٣٤٩) لسببين:

١- ما كتب في آخر نسخة المتن: حررت في (٤) شعبان سنة (١٣٤٧)، ثم كتب في آخر نسخة الشرح: ٢٢/ ذو القعدة/ ١٣٤٩هـ.

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٢١).

(٢) ترجمته: علماء نجد خلال ثمانية قرون(٤/ ٥٠٣).

(٣) عبدالرحمن الأهدل، طبعة دار الفوائد (ص٩).

٢- ما ذكره تلميذ المؤلف الشيخ محمد السليمان البسام[١].

وقد طبع الكتاب مرتين، إحداهما بعناية عبدالرحمن بن سالم الأهدل بدار عالم الفوائد عام ١٤٣١هـ، والأخرى بمكتبة العلوم والحكم بمصر عام ١٤٣٣هـ.

المطلب الثاني: التعريف بكتاب (بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار).

حفظ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم للأمة من القربات العظيمة، جعلت كثيراً من أهل العلم يؤلفون كتباً تحوي أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مجردة أو مع الشرح، ورُوي في هذا حديث (من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً)[٢].

وقام الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى بجمع تسعة وتسعين حديثاً من جوامع الكلم أسماه: (جوامع الأخبار) ثم شرحه في كتاب أسماه (بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.

وربما اختصر الشيخ رحمه الله تعالى اسم الكتاب بقوله: «البهجة»[٣].

وقد وصف رحمه الله تعالى هذا الشرح بقوله في مقدمته: وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه الجوامع في المواضيع الكلية، والجوامع في جنس، أو نوع، أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه على

(١) المصدر السابق (ص١٠).

(٢) رُوي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنه منهم: علي ومعاذ وأبو هريرة وغيرهم، ولا يصح، يراجع: علل الدارقطني (٣/ ١٨)، والعلل المتناهية (١/ ١١١).

(٣) شرح بلوغ المرام (مجموع مؤلفاته ٥/ ٣٨٧).

وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار، إذ المقام لا يقتضي البسط[1].

وقد فرغ منه مؤلفه في ١٠ شعبان سنة ١٣٧١هـ.

وقد طبع الكتاب مرات جاوزت العشر، أشهرها: بعناية محمد حامد الفقي مكتبة المعارف الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، وأخرى بعناية أشرف عبدالمقصود بدار الريان ١٤٠٨هـ، وثالثة بعناية نادر التعمري بدار ابن حزم عام ١٤٢٤هـ، كما طبع الكتاب ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ بمركز صالح بن صالح الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

المطلب الثالث: التعريف بكتاب (أحاديث في الحج).

من مؤلفات الشيخ رحمه الله تعالى التي لم تطبع إلا مؤخراً هذا الكتاب، حيث قام الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى بجمع أحاديث تتعلق بالحج، وعدتها ثمانية وأربعين حديثاً، منها سبعة وعشرون حديثاً من الصحيحين أو أحدهما، والبقية من السنن الأربع ومسند الشافعي ومسند الدارمي ومعرفة السنن والآثار وشعب الإيمان للبيهقي.

ولم يبين الشيخ رحمه الله تعالى منهج التأليف، ولا سببه سوى قوله في مقدمة الكتاب: هذه أحاديث تتعلق بالحج موجودة فيما نقلت منه[2].

والكتاب عبارة عن أحاديث مجردة عن الشرح والتعليق سوى العزو في التخريج، ولعل سبب تأليفه للكتاب ليكون كالتذكرة لمراجعة أحاديث الحج.

وقد طبع الكتاب ضمن مجموع مؤلفات الشيخ بوزارة الأوقاف القطرية الطبعة الأولى عام ١٤٣٢هـ.

---

(١) (ص٢٩) من طبعة دار ابن حزم.

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ، طبعة وزارة الأوقاف القطرية (٥/ ٢٣٩)

المطلب الرابع: التعريف بكتاب (الأحاديث المختارة في الأصول والأحكام والآداب وغيرها).

يعد هذا الكتاب من أوسع مؤلفات الشيخ رحمه الله تعالى في جمع الأحاديث؛ حيث بلغت الأحاديث فيه خمسة وثلاثين وخمسمائة حديثاً.

وبيّن الشيخ رحمه الله تعالى في مقدمة الكتاب سبب تأليفه للكتاب بقوله: فهذه أحاديث نبوية انتقيتها وتخيرتها من كتب المحدثين، لا يستغني عن حفظها أو تذكرها صاحب العلم، متعلقة بالأصول والفروع والآداب[1].

وكذلك ذكر الشيخ في خاتمة كتابه أن الأحاديث التي ذكرها محتوية على كثير من الأصول والأحكام والنصائح والمواعظ والحكم، وجلّها ومعظمها من صحيح البخاري ومسلم، ويندر فيها الحديث الضعيف[2].

والكتاب كسابقه جرده الشيخ من الشرح والتعليق سوى عزو الأحاديث، وكذلك تبويب الكتاب.

وقد كان فراغ الشيخ رحمه الله تعالى من تأليف الكتاب في ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٦٨هـ كما نص عليه في آخر الكتاب.

وقد طبع الكتاب ضمن مجموع مؤلفات الشيخ بوزارة الأوقاف القطرية الطبعة الأولى عام ١٤٣٢هـ.

المطلب الخامس: التعريف بكتاب (قطعة من شرح بلوغ المرام).

لا تقل أهمية كتاب (بلوغ المرام) للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ) عن كتاب عمدة الأحكام؛ فاهتمام أهل العلم به ظاهرٌ بيّن، وهو يمتاز

(١) (٥/ ٢٥٥).

(٢) (٥/ ٣٦٧).

عن كتاب عمدة الأحكام بأنه يجمع بين أحاديث الأحكام المخرجة في الصحيحين وغيرها من الكتب المسندة، بخلاف كتاب عمدة الأحكام الذي اقتصر فيه مصنفه على جملة من أحاديث الأحكام المتفق عليها فقط، لذا اهتم كثير من أهل العلم بكتاب بلوغ المرام حفظاً وشرحاً.

ولبلوغ المرام عند الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى عناية خاصة، فهو من الكتب التي غالباً تقرأ في الدرس[1].

وهذا الشرح للشيخ غير مكتمل، وهو قطعة من آخر بلوغ المرام؛ أحاديث مختارة على ترتيب بلوغ المرام ابتداءً من (باب الشركة والوكالة) إلى (ومن باب النكاح).

وليس في مخطوط الكتاب ما يدل على تاريخ نسخه ولا اسم ناسخه.

وقد طبع الكتاب ضمن مجموع مؤلفات الشيخ بوزارة الأوقاف القطرية الطبعة الأولى عام ١٤٣٢هـ.

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٢٤)

المبحث الثاني: منهج العلامة ابن سعدي في شرح الأحاديث وبيان معانيها؛ وفيه مطالب:

المطلب الأول: منهجه في تخريج الحديث والحكم عليه.

إن قوة الحكم المستنبط من الدليل متوقفة على صحة الدليل؛ ولذا كانت من عناية الشيخ رحمه الله تعالى ذكر تخريج الحديث والذي يساعد في الحكم عليه.

يقول الشيخ: ولكن الاستدلال موقوف على صحة حديث: «الطواف بالبيت صلاة...»[١].

واعتنى الشيخ رحمه الله تعالى في كتبه التي جمع فيها الأحاديث بذكر ما يصلح الاحتجاج به؛ فقال في مقدمة «بهجة قلوب الأبرار: وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة[٢].

ويقول رحمه الله تعالى في مقدمة «الأحاديث المختارة»: فهذه أحاديث نبوية انتقيتها وتخيرتها من كتب المحدثين، لا يستغنى عن حفظها أو تذكرها صاحب العلم، متعلقة بالأصول والفروع والآداب[٣]، وقال في خاتمة الكتاب عن الأحاديث التي أوردها: وجلها ومعظمها من صحيح البخاري ومسلم، ويندر فيها الضعيف[٤].

---

(١) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته: ٤/ ٩)، أخرجه أحمد (ح١٥٤٢٣) والنسائي (ح٢٩٢٢) والحديث رُوي مرفوعاً وموقوفاً، ورجح الدارقطني (ح٣٠٤٤) وقفه على ابن عمر رضي الله عنه، ورجح البيهقي (ح٩٢٩٢) وقفه على ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ٧).

(٣) الأحاديث المختارة (مجموع مؤلفاته ٥/ ٢٥٥).

(٤) الأحاديث المختارة (مجموع مؤلفاته ٥/ ٣٦٧).

ويشير رحمه الله تعالى إلى تخريج الأحاديث التي يذكرها بعبارة مختصرة دون توسع بقوله: أخرجه البخاري ومسلم، ونحوها من العبارات التي استعملها العلماء كثيراً.

وقد سلك العلامة ابن سعدي منهجين: منهج في البهجة وشرح البلوغ وهو عزو الحديث دون الحكم عليه ومنهج في شرح العمدة وهو ذكر الحديث دون عزو وأما الحكم فهو قل ما يتعرض له في جميع كتبه؛ كقوله: وصححه ابن حبان والحاكم[1]، ونحوها.

وربما حكم رحمه الله تعالى على بعض الأحاديث دون النقل عن غيره، كقوله: وأما الآثار المروية «الشفعة كحل العقال» أو: «لمن واثبها»[2] فلم تثبت[3].

ويمكن أن يقال: أن المدرسة النجدية بل وغالب العالم الإسلامي في ذلك الوقت لم يكن يعتني بالحديث فهو مجرد ذكر له دون انتقاء أو عزو أو تصحيح إلا من رموز معروفة كأحمد شاكر، وعبد الرحمن المعلمي عليهما رحمه الله وقلة معهما، فجاء الشيخ السعدي فأبرز في هذا الميدان أهمية الحديث في جانبين:

١. تأليفه وجمعه في الحديث وغالب طريقته قائمة على مراعاة جانبين: عزو الحديث وثبوته والجانب الآخر أن يكون من الأحاديث الجامعة في بابه، فهو ينتقي الأحاديث على هذا الأساس كما في الأحاديث المختارة أو أحاديث

---

(١) ينظر على سبيل المثال: بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (ح٢٥٠٠)، وزيادة (واثبها) عند عبدالرزاق (ح١٤٤٠٦) من قول شريح.

(٣) شرح بلوغ المرام (مجموع مؤلفاته ٥/ ٣٨٢)، والحديث بلفظه الأول: أخرجه ابن ماجه (ح٢٥٠٠) بسند ضعيف؛ فيه عبدالرحمن البيلماني، قال أبو زرعة: هذا حديث منكر، وأما اللفظ الثاني: فأخرجه عبدالرزاق (ح١٥٢١٧) من قول شريح.

الحج وكذلك البهجة جمع الأحاديث وشرحها.

٢. في شرح العمدة يكتفي في الغالب في ذكر الحديث دون عزوه أو الحكم عليه ولكنه يحرص أن لا يورد إلا حديثاً صحيحاً وهذا ظاهر في استعراض الأحاديث التي ذكرها في الشرح.

٣. في شرح بلوغ المرام يكتفي بحكم ابن حجر وإن تكلم على الحديث أعاد قول ابن حجر كما في حديث «الشفعة كحل عقال» فقد قال ابن حجر في البلوغ: رواه ابن ماجه والبزار وزاد «ولا شفعة لغائب» وإسناده ضعيف.

ونقل في مواضع أحكام الأئمة على الأحاديث؛ كنقله عن شيخ الإسلام في حكم الجهر بالبسملة في الصلاة: ولم يثبت حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بالجهر بها من وجه صحيح[١].

والشيخ رحمه الله تعالى من فقهاء الحنابلة؛ ومع ذلك فقد حكم على حديث بالوضع، وهو حديث «أمرنا بغسل الأنجاس سبعاً»[٢]، وغسل الأنجاس سبعا من مفردات الحنابلة[٣]، يوردون في الاستدلال عليه هذا الحديث، وقليل جداً منهم من يحكم عليه[٤]، فحكمه رحمه الله تعالى على هذا الحديث بالوضع يدل على عدم

---

(١) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٩٨)، وكلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٥).

(٢) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ١٣)

(٣) المنح الشافيات بشرح مفردات الإمام أحمد (١/ ١٥٣).

(٤) ممن حكم عليه ابن عبدالهادي في كتاب «جملة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة»(ص٦٨) فيما نقله عن شيخ الإسلام، وقال الشيخ فيصل المبارك في «كلمات السداد» (ص٢٤): لا تقوم به حجة، وينظر في الحكم على الحديث إلى كتاب «إرواء الغليل» (١/ ١٨٦).

تقيده بقول أحد؛ بل كان رحمه الله تعالى من أهل الاجتهاد المقيد، فصار يرجح من الأقوال ما رجحه الدليل وصدقه التعليل[1].

وربما ضعف الحديث المستدل به بالإشارة إليه دون ذكر لفظه؛ كقوله في الشفعة في الأموال التي تقسم وما لا يقسم: وأما ما استدل له على التفريق بين النوعين فضعيف[2].

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٢٠).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ١١٥).

المطلب الثاني: منهجه في شرح ألفاظ الحديث.

يصدر الشيخ رحمه الله تعالى شرحه للحديث ببيان الألفاظ التي ذكرت في الحديث، إذ إن بيان المعنى الاجمالي والفوائد المستنبطة متوقف على معرفة معاني الألفاظ.

وذكره رحمه الله تعالى لمعاني الألفاظ يكون مختصراً جداً، كقوله في شرح بلوغ المرام على حديث «ألحقوا الفرائض بأهلها....» المراد بالفرائض هنا المقادير التي قدرها الله ورسوله للوارثين[(١)]، وكقوله: «ولا يختلى خلاه»: الخلاء الحشيش الرطب[(٢)].

وينقل ضبط الكلمة المشكلة كما في قوله:(الخبث) وقال القاضي عياض: أكثر روايات الشيوخ بسكون الباء[(٣)].

ويستنبط الحكم بناءً على معنى الكلمة؛ كقوله في صلاة الكسوف: الفزع هو شدة المبادرة إلى فعل الشيء، وهذا دليل لمن قال بوجوبها[(٤)].

ومن عادة الشيخ كأهل العلم بيان تفسير الحديث بالقرآن والحديث وأقوال الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من العلماء؛ كقوله في حديث «ثمن الكلب

---

(١) شرح بلوغ المرام(مجموع مؤلفاته ٥/ ٣٩٥)، والحديث أخرجه البخاري (ح٦٧٣٢) ومسلم (ح١٦١٥).

(٢) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٢٥٣)، وهو جزء من حديث أخرجه البخاري في مواضع منها (ح١٣٤٩) ومسلم (ح٤٤٥- ح٤٦٤).

(٣) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٢٠)، وينظر إلى مشارق الأنوار للقاضي عياض (ص٢٢٨).

(٤) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ١٥٦).

خبيث»[1]: الخبيث يطلق على الشيء المحرم كما في قوله تعالى ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ويطلق على الردي الدني كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]... وقد اجتمع في هذا الحديث كلا النوعين[2].

وكقوله في تفسير «لا أدري قال أربعين يوماً ...»: ورد في بعض الروايات صريحاً «أربعين خريفاً»[3]، وكقوله في حديث «فتلاعنا كما قال الله تعالى»: أي في الحديث السابق؛ فإن هذا الحديث عبارة مختصرة من الحديث الأول[4].

---

(١) أخرجه مسلم (ح١٥٦٨).

(٢) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٣٠١).

(٣) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ١٠٤)، والحديث أخرجه البخاري (ح٥١٠) ومسلم (ح٥٠٧) وأما زيادة (خريفاً) فهي عند البزار (ح٣٧٨٢) وهي منكرة.

(٤) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٤٠٩)، والحديث الأول يعني به حديث ابن عمر رضي الله عنهما في اللعان أخرجه البخاري (ح٥٣١٢) ومسلم (ح١٤٩٣)، والحديث الثاني حديث ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البخاري (ح٤٧٤٨) ومسلم(ح١٤٩٤).

المطلب الثالث: منهجه في بيان المعنى الإجمالي.

عناية وبراعة العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى ببيان المعنى الإجمالي للأحاديث المشروحة أمرٌ بينٌ وظاهرُ لكل من طالع كتبه؛ من ذلك شرحه للأحاديث بطريقة مختصرة تأتي على ما يحتاجه طالب العلم دون اختصار مخل ولا طول ممل، قال رحمه الله تعالى: فإن القليل الذي يفهمه ويعقله خير من الكثير الذي هو عرضة لعدم الفهم والنسيان[1].

وقال في مقدمة كتابه «بهجة قلوب الأبرار..»[2]: وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه في المواضيع الكلية، والجوامع في جنس أو نوع أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه على وجه يحصل به الإيضاح والبيان.

ويصدّر الشيخ رحمه الله تعالى شرحه للأحاديث بذكر الأصول العظيمة التي اشتمل عليها الحديث، كقوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف..»[3]: هذا الحديث اشتمل على أصول عظيمة وكلمات جامعة[4]، ثم شرع ببيان هذه الأصول بكلام موجز غير مخل بالمقصود، وهذه كانت طريقته في بيانه للمعنى الإجمالي لكثير من الأحاديث.

قال رحمه الله تعالى في حديث «الدين النصيحة»[5]: فالنبي صلى الله عليه وسلم فسر النصيحة بهذه الأمور الخمسة التي تشمل القيام بحقوق الله، وحقوق

---

(١) الفتاوى السعدية (ص٤٥٠).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ٧).

(٣) أخرجه مسلم (ح٢٦٦٤).

(٤) بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ٣١) وينظر:(٥/ ١٢).

(٥) أخرجه مسلم (ح٥٠٧).

كتابه، وحقوق رسوله، وحقوق جميع المسلمين على اختلاف أحوالهم وطبقاتهم، فشمل ذلك الدين كله، ولم يبق منه شيء إلا دخل في هذا الكلام الجامع المحيط[١].

ويشير رحمه الله تعالى في بيانه إلى المعنى الإجمالي إلى دخول الحديث في أبواب عدة؛ كقوله في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات...»[٢] وحديث «من أحدث في أمرنا هذا..»[٣]: هذان الحديثان العظيمان يدخل فيهما الدين كله: أصوله وفروعه، ظاهره وباطنه، فحديث عمر رضي الله عنه ميزان للأعمال الباطنة، وحديث عائشة رضي الله عنها ميزان للأعمال الظاهرة[٤].

ويكون بيانه إلى المعنى الإجمالي كذلك ببيان مكانة الحديث في الباب، خصوصاً في كتابه بهجة قلوب الأبرار، كقوله عن حديث «من عادى لي ولياً...»[٥]: هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الأولياء، وفضلهم ومقامهم[٦].

وللشيخ رحمه الله تعالى عناية في التقاسيم والأنواع التي تبين معنى الحديث الإجمالي، كتقسيمه لأنواع الحركة في الصلاة، وأنواع النقص والزيادة في الصلاة[٧].

ومن عنايته بالمعنى الإجمالي عنايته بمختلف الحديث وهو معارضة الحديث

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ١٥).

(٢) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه وقد صدَّر الصحيح بهذا الحديث (ح١)، ومسلم (ح١٥٥) واللفظ المتفق عليه (بالنية)، وعند البخاري بلفظ(بالنيات).

(٣) أخرجه البخاري(ح٢٦٩٧) ومسلم(ح١٧١٨).

(٤) بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ٨).

(٥) أخرجه البخاري (ح٦١٣٧).

(٦) بهجة قلوب الأبرار (مجموع مؤلفاته ٥/ ١٠١).

(٧) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٩٠) و(٤/ ١٠١).

مع مثله مع إمكان الجمع بلا تعسف[1]، إذ الجمع فيه بيانٌ لمعنى تتفق به الأحاديث، كقوله في الجمع بين حديث «يصليها بغلس»[2] وحديث «أسفروا بالفجر..»[3]: وقيل معناه: لا تصلوا حتى تحققوا طلوع الفجر[4].

ولا شك أن الجمع بين الأحاديث المتعارضة أولى من القول بنسخ أحدها؛ إذ الجمع إعمال للأحاديث جميعاً، والنسخ إعمالٌ لبعضها، وينبه الشيخ رحمه الله تعالى كثيراً إلى عدم صحة القول بالنسخ لإمكان الجمع؛ من ذلك قوله على قول بعض أهل العلم أن النهي في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه في آنية المشركين «فلا تأكلوا فيها»[5] منسوخ: والصواب أن هذا الحديث ليس بمنسوخ، بل يقال: المراتب ثلاث:

أحدها: أن تعلم نجاسة ذلك، فهذه يجب غسلها بالاتفاق.

الثانية: أن تعلم طهارتها فهذه لا يجب غسلها.

الثالثة: أن تجهل حالها، فهذه أيضاً لا يجب غسلها لأن الأصل الطهارة في جميع الأشياء[6].

فأجاب رحمه الله تعالى بهذا التفصيل البديع على الإشكال القائم بين جملة من أحاديث وآثار الباب، وهكذا كان منهجه في رفع الاشكالات الحديثية بصورة واضحة.

---

(١) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص: ٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح٥٦٠)، ومسلم (٦٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي (ح١٥٤)، والنسائي (ح٥٤٨).

(٤) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٥٢)

(٥) أخرجه البخاري (ح٥٤٩٦)، ومسلم (ح١٩٣٠).

(٦) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٥٠٩).

المطلب الرابع: منهجه في استنباط الفوائد والأحكام.

اعتنى العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى باستنباط الفوائد والأحكام عناية فائقة؛ خصوصاً في شرحيه على عمدة الأحكام وبلوغ المرام.

قال الشيخ ابن بسام رحمه الله تعالى: أما كلامه على النصوص الكريمة سواءً كان في التفسير أو في الحديث فأمر عجب، فإنه يستنبط منها الأحكام والفوائد ما لا يتصوره طالب[١].

يدل على ذلك سهولة إيراده للفوائد والأحكام بقوله: وفيه، أو قوله: ومنها، ثم يسوق الفوائد والأحكام المستنبطة، وهذه طريقة مسلوكة لعلماء سابقين كابن الملقن والحافظ وغيرهما وذلك لضبط المسائل وحصرها.

وربما صدر الفائدة بسؤال ثم يجيب عليه؛ كقوله في الغسل: وهل يستحب تكميله أو تأخير غسل الرجلين إلى الفراغ من الغسل؟[٢].

وربما ألحق بشرح الحديث فوائد غير مستنبطة منه؛ لعلاقتها بموضوع الحديث، ويصدر تلك الفائدة بقوله: تنبيه، أو بقوله: تتمة، مثال ذلك ما ذكره من تتمة وتنبيه معاً في أثناء شرح حديث عائشة رضي الله عنها في صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم في الليل[٣]، فذكر تتمة في حكم الوتر ورجح أن الوتر سنة مؤكدة، ثم ذكر تنبيه حول حديث «إن الله وتر يحب الوتر»[٤] في استحباب الوتر في أغلب

---

(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٢٣).

(٢) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٣٦)، وينظر (٤/ ٧٨).

(٣) ولفظ حديث عائشة رضي الله عنها كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة منها الوتر، وركعتا الفجر. الحديث أخرجه البخاري (ح١١٤٠) ومسلم (ح٧٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (ح٦٤١٠)، ومسلم (ح٢٦٧٧).

الشرائع كالطواف والرمي[1].

ويشير رحمه الله تعالى إلى الخلاف بطريقة مختصرة دون ذكر اسم القائل؛ كقوله: واستدل بعضهم، وغالباً يرد على مثل هذا الاستدلال، كقوله: واستدل بعضهم بهذا على أن الماء إذا غمست فيه يد القائم من نوم ليل الناقض للوضوء يكون طاهراً غير مطهر، وليس في الحديث دلالة على هذا[2].

ومن ذلك ترجيحه في الخلاف بعدة مرجحات؛ منها ترجيحه بما دلت عليه النصوص كقوله: وهذا القول هو القول الصحيح الذي لا ينبغي القول إلا به وهو الذي دلت عليه النصوص[3]، أو بتضعيف الدليل المعارض كقوله: وأما حديث ابن عمر رضي الله عنهما (أمرنا بغسل الأنجاس سبعاً) فموضوع[4].

وينسب الأقوال لقائليها كالمذاهب الأربعة وغيرها، ويذكر ما عليه أهل البلد في وقته؛ كقوله في ترجيح أن صلاة الغائب تشرع للمصلحة: وهذا القول أصح الأقوال، وهو الذي عليه عمل أهل نجد اليوم[5].

وليس يخفى تأثر الشيخ رحمه الله بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، فهي التي فتقت ذهنه ووسعت مداركه[6]، فربما نسب القول إليهما بعد ترجيحه له، كما في قوله في صحة المسح على الخف المخرق ما دام اسمه باقيا:

---

(١) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ١٢٤-١٢٥).

(٢) شرح عمدة الأحكام(مجموع مؤلفاته٤/ ١٠)، وينظر: بهجة قلوب الأبرار(المجموع ٥/ ١٢٥).

(٣) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٤٩).

(٤) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ١٣)، وينظر: العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (١/ ٣٣٢).

(٥) شرح عمدة الأحكام(مجموع مؤلفاته ٤/ ١٦٩).

(٦) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ٢٢٠).

وبه قال شيخ الإسلام[1].

وربما ذكر خلاف قولهما بما يظهر له إحتياطاً؛ كقوله في زكاة الفطر بنصف صاع من السمراء: ومذهب الإمام أحمد كمذهب أبي سعيد رضي الله عنه في صدقة الفطر خاصة(صاع)،.....ومذهب شيخ الإسلام كمذهب معاوية رضي الله عنه، وعلى كلٍّ فالاحتياط أولى[2].

وهو رحمه الله تعالى مع ذكر خلاف أهل العلم رحمهم الله تعالى في الأحكام المستنبطة من الأحاديث يسوق ادلة كل قول، ويعتذر عن من لا يرجح قوله؛ كقوله لما رجح الفطر في يوم الغيم من شعبان: وكان الشيخ عبدالله أبا بطين[3] يرى فطره، ولما كان قاضياً في عنيزة كان يعمل برأيه، فلما راح إلى بريدة وكان قاضياً تلميذه الشيخ سليمان بن مقبل[4] وكان يرى صيام ذلك اليوم، فتابعه الشيخ عبدالله أبا بطين على رأيه، فقيل له في ذلك؛ فقال: الخلاف شر والاجتماع خير[5].

---

(١) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ٢٧)، وينظر:(٤/ ٤٦) و(٤/ ٦٥).

(٢) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ١٩٩).

(٣) قاضي وفقيه حنبلي توفي سنة ١٢٨٢ه، ينظر ترجمته في: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص١٧٨).

(٤) قاضي بريدة توفي سنة ١٣٠٤ه، ينظر ترجمته في :علماء نجد خلال ثمانية قرون(٢/ ٣٧٣).

(٥) شرح عمدة الأحكام (مجموع مؤلفاته ٤/ ١٩٩).

خاتمة البحث

الحمد لله الذي وفَّق لإنجاز هذا البحث، وأسأله تعالى أنْ يتقبله بقبول حسن، وأقيِّد هنا أهم النتائج التي توصلتُ إليها، والتوصيات التي أقترحها:

النتائج:

١. رسوخ قدم العلامة ابن سعدي رحمه الله تعالى في شرح الأحاديث وبيان معانيها.

٢. براعته رحمه الله تعالى في طريقة عرضه لشرح الأحاديث وبيان معانيها، فليس بطويل ممل ولا بمختصر مخل.

٣. عظيم عنايته رحمه الله تعالى بالأحاديث التي تدل على كمال الدين ورفعته، وشرحها شرحاً وافياً؛ ذاكراً للأدلة الشرعية الأخرى في ثنايا شرح الحديث من القرآن الكريم وآثار الصحابة رضي الله عنهم وأقوال علماء الأمة رحمهم الله تعالى.

٤. عنايته رحمه الله تعالى بكتب الحديث قراءةً وإقراءً كالكتب الستة، وعمدة الأحكام، وبلوغ المرام.

التوصيات:

١. حاجة هذا الموضوع إلى دراسة أوسع، وتناول أشمل، فكل الذي مضى إنما هي دراسة مختصرة؛ لفتح أفق في هذا الجانب المشرق.

٢. التوصية بصرف همة الباحثين في المخطوطات إلى البحث عن مزيد مصنفات لهذا العالم رحمه الله، فكثير من كتبه رحمه الله تعالى لم تطبع إلا مؤخراً.

٣. دراسة منهج الشيخ رحمه الله تعالى في شرحه للأحاديث من خلال كتبه غير الحديثية كالتفسير والفقه ونحوها.

٤. إفـراد دراسـات في كلام الشـيخ رحمـه الله تعالـى علـى بعض أنـواع الحديث كمختلف الحديث، ومسـائل أصول الفقه ونحوها التي يذكرها ضمن شروحه للأحاديث.

٥. إقامة المسابقات العلمية على كتب الشيخ رحمه الله تعالى حفظًا وفهما.

والله تعالـى أسـأل العـون والتوفيق والسـداد، وأنْ يتجاوز عـن زللي، ويرحم ضعفـي، ويغفر عـن تقصيري، ويجبر قصـوري، وأن يرزقني الإخلاص، وحسـن القصد، وأن يفقهني في دينه، ويجعلني من أنصاره، والدعاة إلى سبيله على بصيرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين،

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله رب العالمين .

فهرس المصادر والمراجع

١- الأعلام، المؤلف خير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة(١٥) ٢٠٠٢ م.

٢- الجامع الكبير - سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى الترمذي،تحقيق: بشار عواد، الناشر:دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.

٣- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه= صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، الناشر: دار طوق النجاة.

٤- السنن، المؤلف: محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، الرسالة.

٥- السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية،، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٦- السنن (المجتبى)، المؤلف:أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، الناشر: دار المعرفة، الطبعة:الخامسة١٤٢٠ هـ

٧- شرح عمدة الأحكام للعلامة ابن سعدي، تحقيق عبدالرحمن بن سالم، الشؤون الإسلامية بقطر.

٨- الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، المؤلف: عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٩- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، المؤلف: عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ.

١٠- العلل الواردة، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: محفوظ الرحمن السلفي، دار طيبة - الرياض.الطبعة(١)١٤٠٥هـ.

١١- علماء نجد خلال ثمانية قرون، المؤلف سماحة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

١٢- المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبعة مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٣- مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٤- المسند الصحيح المختصر = صحيح مسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٥- مشارق الأنوار،المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي،دار النشر: المكتبة العتيقة ودار التراث.

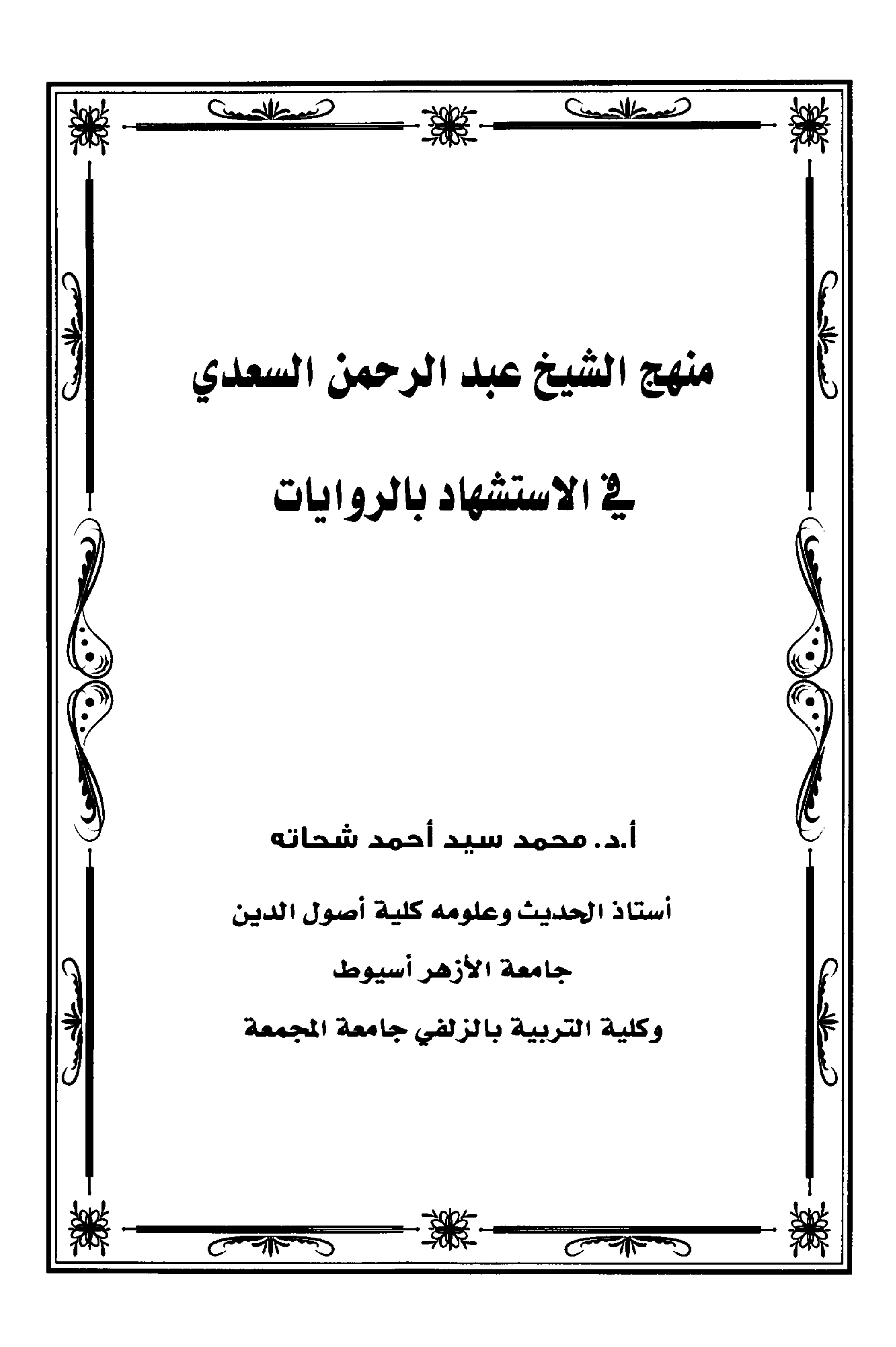
١٦- مشاهير علماء نجد وغيرهم، المؤلف عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، الناشر: طبع على نفقة المؤلف بإشراف دار اليمامة الرياض، الطبعة: الأولى، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م

١٧- المصنف، المؤلف: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، الطبعة(٢) ١٤٠٣هـ.

١٨- معجم المؤلفين، المؤلف: عمر بن رضا كحالة الدمشقي، الناشر:دار إجياء التراث العربي بيروت.

١٩- الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، جمع وإعداد: وليد الزبيري وآخرون، الناشر: مجلة الحكمة،ط(١) ١٤٢٤هـ.

٢٠- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر، تحقيق د. عبد الله الرحيلي، الناشر: (بدون)، الطبعة: الثانية، ١٤٢٩هـ.



منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي

في الاستشهاد بالروايات

أ.د. محمد سيد أحمد شحاته

أستاذ الحديث وعلومه كلية أصول الدين

جامعة الأزهر أسيوط

وكلية التربية بالزلفي جامعة المجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله.............. أما بعد.

فمن المعلوم أن القرآن الكريم ميسر للذاكرين، وبين للمتدبرين، وهو مع ذلك فيه من المعاني البليغة والألفاظ الوجيزة، ما يصعب فهمه على بعض من لم يتقن العربية، فعمد أئمة عظام ففسروه وقاموا بإظهار معانيه، وجمعوا أحكامه، وقد شاء الله ﷻ أن يهيأ لكتابه العزيز في كل عصر وفي كل مصر من يفسره، ومن يعمل به ويرشد إليه، عاش الجهابذة في كل عصر وفي كل مصر لكتاب الله العزيز، يظهرون ما له من أضواء، ويزيحون ما عساه أن يعترض طريقه من غثاء، وكما عاش للتفسير في القديم الأئمة الطبري، وابن أبي حاتم، وابن كثير، والقرطبي، وغيرهم كثير، عاش له في هذه العصور أناس علت همتهم وسمت هامتهم كالعلامة عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-، وغيره.

وقد كان من منهج هؤلاء جميعاً تفسير كتاب الله بالقرآن، ثم الحديث، ثم أقوال الصحابة والتابعين، وهذا ما فعله الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-؛ فقد صوب وجهه نحو السنة النبوية مقتطفاً من ثمارها ما يفسر به الآيات، لكن هل كان للشيخ منهج في الاستشهاد بالروايات؟، بمعنى أنه يقبل الروايات على الإطلاق الصحيح منها والضعيف، بناءً على المذهب القائل بالتساهل في روايات التفسير، أم كان يقبل الصحيح ويغض الطرف عن الضعيف، أم يقبل الضعيف بضوابط، وهل هذا المنهج كان مضطرداً في الكتاب؟، وهل التزم الشيخ نفس المنهج عند روايات الإسرائيليات؟، وعند تناول آثار الصحابة والتابعين؟، كل هذا سيجيب عنه البحث

إن شاء الله تعالى.

أهمية البحث.

من المعلوم أن المشتغل بتفسير القرآن لا يكاد يستغني عن كتاب الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- الموسوم بـ(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، فهو كتاب متميز في بابه، سهل في تناوله، وكان للشيخ منهج في الاستشهاد بالروايات يحتاج إلى أن يعرفه من يتعامل مع الكتاب، ولم أقف حسب علمي على من تعرض لإظهار هذه المنهج، فكان من الأهمية بمكان الوقوف على منهج الشيخ في سياق الروايات.

مشكلة البحث.

تظهر من خلال التساؤلات الآتية.

* ما منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بالأحاديث؟
* ما منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بروايات الصحابة والتابعين؟
* هل للشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- منهج خاص في التصحيح والتضعيف؟
* ما منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في ذكر الإسرائيليات؟
* ما أهم خصائص تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في ذكر الروايات؟

أهداف البحث.

* بيان منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بالأحاديث.
* التعرف على منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد

بروايات الصحابة والتابعين.

* معرفة منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في التصحيح والتضعيف.
* إظهار منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بالإسرائيليات.
* إبراز خصائص تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في ذكر الروايات.

حدود البحث.

* الأحاديث والآثار الواردة في كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

منهج البحث.

استقرائي، استنباطي، فإنني سأسوق كلام الشيخ السعدي -رحمه الله-، ثم أستنبط منه ما يدل على منهجه.

خطة البحث:

سينتظم البحث إن شاء الله تعالى في مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وتشتمل على:

أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، وحدوده، ومنهجه، وخطته.

المبحث الأول: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بالأحاديث.

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: ذكر الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث بلفظه.

المطلب الثاني: ذكر الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث بمعناه.

المطلب الثالث: اختصار الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث والاكتفاء بالشاهد منه.

المطلب الرابع: الإشارة إلى الحديث دون ذكره.

المبحث الثاني: صور التفسير النبوي عند الشيخ عبد الرحمن السعدي-رحمه الله-

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: ذكر سبب النزول.

المطلب الثاني: بيان المعنى.

المطلب الثالث: تقرير الحكم الشرعي.

المطلب الرابع: تخصيص العام.

المبحث الثالث: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بروايات الصحابة والتابعين.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بروايات الصحابة.

المطلب الثاني: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بروايات التابعين.

المبحث الرابع: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في عزو الحديث وبيان درجته.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: منهجه في عزو الحديث.

المطلب الثاني: المصطلحات التي استعملها عند نقله للحديث.

المبحث الخامس: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بالإسرائيليات.

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: موقف الشيخ -رحمه الله- من رواية الإسرائيليات.

المطلب الثاني: استشهاد الشيخ ببعض الإسرائيليات.

الخاتمة: وتشتمل على:

أهم النتائج.

وأهم التوصيات.

المبحث الأول

منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بالأحاديث:

من المعلوم أن علماء التفسير اعتمدوا على الروايات الحديثية، فكانت لهم خير زاد، وأكبر معين، فقاموا بتفسير الآيات القرآنية من خلال ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات، ويمكن أن يقال إن ذلك النوع من التفسير يعتبر أصدق تفسير لكتاب الله، وقد اعتمد الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- على هذه الأحاديث، وجعلها أصلاً من أصول تفسيره، ومعيناً ينهل منه، وقد تنوع منهج للشيخ -رحمه الله- عند تناوله للأحاديث على النحو التالي:

الأول: نقل الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث بلفظه.

الثاني: نقل الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث بمعناه.

الثالث: اختصر الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث واكتفى بالشاهد منه.

الرابع: أشار الشيخ السعدي -رحمه الله- إلى الحديث دون ذكره.

لذا سينتظم هذا المبحث في مطالب على هذا النحو.

المطلب الأول

ذكر الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث بلفظه:

ذكر الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث تاماً بلفظه في مواطن كثيرة عند تفسيره، عند احتياجه إلى الرواية بتمامها لتبيين المقصود من الآية، وأذكر هنا نماذج منها:

عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٣٠] قال: «دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل»، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً، فعَلَيْه وِزْرُها وَوِزْر مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يوم القيامة»[1]، ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه[2]، « مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأول شطر من دمها، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»[3].

وهنا ترى أن الشيخ -رحمه الله- استدل بروايتين في موضع واحد، مما يدل على عناية الشيخ بالتفسير النبوي، والرواية الأولى لم يشر إلى أنها حديث، وفي

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم، وفيه: «مَنْ سَنَّ ﷺ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب من سن في الإسلام سنة حسنة، (٣/ ٨٦) رقم(٢٣١٤)، من حديث جرير ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) [البقرة: ٣٠] (٣/ ١٢١٣) رقم(٣١٥٧)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إثم من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة، (٦/ ٢٦٦٩) رقم(٦٨٩٠)، ومسلم، كتاب الحدود والديات، بَابُ بَيَانِ إِثْمِ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، (٥/ ١٠٦) رقم(٤٣٩٥)، أحمد في المسند، (٧/ ١٩٣) رقم(٤١٢٣)، والترمذي، كتاب العلم، باب الدال على الخير كفاعله، (٥/ ٤٢) رقم(٢٦٧٣)، وقال: «حسن صحيح»، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٢٩).

الثانية نص على أنها حديث، وذكر الحديث بتمامه.

وأنتقل إلى مثال آخر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤]، قال: «من لازم محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل»، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله [1]: « وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِى عَبْدِى أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ»[2].

وهنا أشار الشيخ -رحمه الله- إلى درجة الحديث بداية، وهو كما قال إذ هو في صحيح البخاري، ثم ساق الرواية قريبة من لفظ البخاري، وجل اعتماد الشيخ في تفسيره على الأحاديث الصحيحة.

وأعرج الآن على مثال ثالث عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة: ١٠١].

قال: وهذه المسائل التي نهيتم عنها ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٢] أي: جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد. فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (٨/ ١٠٥) ح(٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٣٥).

فَإِنَّمَا أَهْلَكَ منْ كان قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[1]، وهنا أيضاً ذكر درجة الحديث ولفظه.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التوبة: ٧٥] قال: "قد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[2]، وفي رواية: «وإذا خاصم فجر»[3].

قد أحسن الشيخ -رحمه الله- حين عبر عن حديث الصحيحين بقوله الثابت، ثم ذكر الحديث بتمامه.

ومع أنموذج رابع من كتاب الشيخ -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٤٦).
والحديث أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، (٦/ ٢٦٥٨) برقم(٦٨٥٨)، مسلم، كتاب فضال النبي ﷺ، باب هلال من خالفة ﷺ والنهي عن كثرة المسائل، (٧/ ٩١) رقم(٦١٨٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣٤٥).
والحديث أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (١/ ٢١) رقم(٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، (١/ ٥٦) رقم(١٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يشير الشيخ إلى رواية ابن عمر أخرجها البخاري كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، (١/ ٢١) رقم(٣٤)، وابن عمرو أخرجها البخاري، كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر،(٢/ ٨٦٨) رقم(٢٣٢٧)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، (١/ ٥٦) رقم(١٢٢).

مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ [النور: ٦١] قال: "هذا موافق للحديث الثابت: " أنت ومالك لأبيك "(١) والحديث الآخر: « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم »(٢)، وهنا جاء الشيخ بحديثين اختصر الأول، والثاني جاء تاماً، وقد جاء في بعض الروايات اللفظان في نص واحد، وهناك مواضع أخرى أشير إليها في الهامش(٣)، فالشيخ في هذه المواضع عند تعرضه لتفسير آية يستشهد بالحديث،

(١) نص الحديث: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي مَالاً وَوَلَدًا وَإِنَّ وَالِدِي يَجْتَاحُ مَالِي. قَالَ "أَنْتَ وَمَالُكَ لِوَالِدِكَ إِنَّ أَوْلاَدَكُمْ مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكُمْ فَكُلُوا مِنْ كَسْبِ أَوْلاَدِكُمْ "، أخرجه أبو داود، كتاب الإجارة، باب فِي الرَّجُلِ يَأْكُلُ مِنْ مَالِ وَلَدِهِ، (٣/ ٣١٢) رقم(٣٥٣٢)، وابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، (٢/ ٧٦٩) رقم(٢٢٩٢)، وأحمد في المسند، (١١/ ٢٦١) رقم(٦٦٧٨)، وقال الشيخ شعيب: إسناد صحيح لغيره.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٧٥).

ونص الحديث: عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ أَوْلاَدَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ". أخرجه الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، (٣/ ٦٣٩) رقم(١٣٥٨)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، (٢/ ٧٦٨) رقم(٢٢٩٠)، وأحمد في المسند، (٤٢/ ١٧٦) رقم(٢٥٢٩٦).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٨٨)، قال: «كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه-"أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها"، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣/ ١١٨٧) رقم(٣٠٧٨)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٠١)، قال: ولهذا ورد في الحديث الصحيح: " إن الله إذا أحب عبدا، نادى جبريل: ... الحديث، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (٣/ ١١٧٥) رقم(٣٠٣٧)، ومسلم، كتاب الآداب، بَابُ إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا، =

ويذكر اللفظ بتمامه، وهذا أحد مناهج الشيخ -رحمه الله- عند استدلاله بالحديث.

= (٨/ ٤٠) رقم(٦٧٩٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٨٠٠)، قال: وفي الحديث الصحيح: "المقسطون عند الله، ...الحديث"، أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب الإمام العادل، (٦/ ٧) رقم(٤٧٤٨)، وأحمد في المسند، (١١/ ٣٢) رقم(٦٤٩٢)، من حديث ابن عمرو -رضي الله عنه-ما.

وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٨٤٠)، قال: كما ورد في الحديث الصحيح: "إن في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين ...الحديث"، أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، (٣/ ١٠٢٨) رقم(٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٩٥٨)، قال: كما في الحديث الصحيح: (إن العبد ليتصدق بالتمرة ... الحديث)، أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب، (٢/ ٥١١) رقم(١٣٤٤)، ومسلم، كتاب الزكاة، بَابُ قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا، (٣/ ٨٥) رقم(٢٣٠٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٩٧)، قال: فقال رسول الله ﷺ: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته" أو كما قال، أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب فرض الصلاة في السفر، (٢/ ١٤٣) رقم(١٥١٩)، من حديث عمر ﷺ.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣١٠)، قال: وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ (أن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة)، أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مائة إلا واحدة أو ثنتين، (٢/ ٩٨١) رقم(٢٥٨٥)، ومسلم، كتاب الدعوات، بَابٌ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِ مَنْ أَحْصَاهَا، (٨/ ٦٣) رقم(٦٩٠٨)،، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣٩١)، {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} قال: والمراد بذلك: الصغائر، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، مثل قوله: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر"، أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، (١/ ١٤٣) رقم(٤٧٠).

المطلب الثاني

نقل الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث بمعناه

كان الشيخ -رحمه الله- على عادة بعض المفسرين- ينقل الحديث في بعض المواضع بمعناه، والسبب في ذلك فيما أظن اعتماده على ذاكرته.

فعند تفسير قوله تعالى﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

قال: «أي: يجعل ما بخلوا به طوقا في أعناقهم، يعذبون به»، كما ورد في الحديث الصحيح، «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان، يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك» وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك، هذه الآية[(١)].

استدل الشيخ في هذا الموضع بالحديث المشهور، ولكنه رواه بالمعنى رغم ذكره له بتمامه.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ [النور: ١١]، قال: «لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الرمي بالزنا عموما، صار ذلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٥٨)، ونص الرواية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعٌ أَقْرَعُ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي شِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، (٢/ ٥٠٨) رقم(١٣٣٨).

كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين -رضي الله عنه-ا، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد، وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فانحبست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلا وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة ﷺ، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة -رضي الله عنه-ا فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ. وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزنا شديدا، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة[1].

فهنا ذكر الشيخ -رحمه الله- قصة الإفك المشهورة بمعناها، ولكنه أشار إلى وجودها في الصحاح والمسانيد والسنن، فكأنه ذكر معناها واختصرها؛ لشهرتها.

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٦٣)، والحديث مطولاً أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، (٢/ ٩٤٢) رقم(٢٥١٨)، وفي كتاب المغازي، باب حديث الإفك، (٤/ ١٥١٧) رقم(٣٩١٠)، ومسلم، كتاب التوبة، بَابٌ فِي حَدِيثِ الإِفْكِ، (٨/ ١١٢) رقم(٧١٢٠)، من حديث عائشة -رضي الله عنه-ا.

وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٨]، «وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له «ثعلبة» جاء إلى النبي ﷺ، وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه، ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على النوائب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تتنامى، حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة، ففقده النبي ﷺ، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاءوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثا، فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بزكاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان[1]، ذكر الشيخ -رحمه الله-

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣٤٥)، وقصة ثعلبة أخرجها الطبراني = = في المعجم الكبير، (٨/ ٢١٨) رقم(٧٨٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، (٦/ ١٩٨) رقم(٤٠٤٨)، وقال: «وَفِي إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ نَظَرٌ، وَهُوَ مَشْهُورٌ فِيمَا بَيْنَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ»، وقال الشيخ الألباني: «قلت: وهذا حديث منكر على شهرته، وآفته علي بن يزيد هذا، وهو الألهاني متروك، ومعان لين الحديث». (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، (٤/ ١١٢).

هذا وقد أشار إلى ضعف القصة كثير من الأئمة، بل ومن المفسرين.

قال القرطبي: «وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان؛ حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة فما روي عنه غير صحيح. قال أبو عمر: ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم. وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين نبتل بن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قشير». (الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٨/ ٢١٠). =

قصة ثعلبة الضعيفة متابعاً في ذلك جمهور المفسرين، وقد تبين أن القصة ضعيفة، وعلى فرض ثبوتها فإن المراد بها ثعلبة آخر غير المشهور، فالمشهور مات بأحد.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠] قال: "وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: "يا رب إن لي سيئات لا أراها هاهنا" والله أعلم"[١].

وفي هذا الموضع أيضاً ذكر الرواية الصحيحة بالمعنى، ولا غضاضة على الشيخ -رحمه الله- في روايته لبعض الأحاديث بالمعنى؛ لأنه أوتي من ينابيع اللغة ما يعرف ما يحيل المعنى أو يغيره.

= وقال الحافظ ابن حجر: «وفي كون صاحب هذه القصة- إن صحّ الخبر ولا أظنه يصحّ- هو البدري المذكور قبله- نظر، وقد تأكدت المغايرة بينهما يقول ابن الكلبيّ: إن البدريّ استشهد بأحد، ويقوّي ذلك أيضا أن ابن مردويه روى في تفسيره من طريق عطية عن ابن عبّاس في الآية المذكورة. (الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، (١/ ٥١٦).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٨٧)، ونص الحديث: عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا= =مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لاَ أَرَاهَا هَا هُنَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ"، أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان من يخرج من النار، (١/ ١٢١) رقم(٣٨٦).

المطلب الثالث اختصار الشيخ السعدي -رحمه الله- الحديث، والاكتفاء بالشاهد منه

في بعض الأحيان كان الشيخ -رحمه الله- يكتفي عند استدلاله بحديث في تفسيره للآيات بالإشارة إلى الحديث مكتفياً بموضع الشاهد.

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤] قال: "من مال أو علم أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة كالتسبيح والتحميد ونحوه، كما قال النبي ﷺ: "إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» الحديث»[١].

فهنا ذكر اكتفى بموضع الشاهد الذي يفي بمطلوب التفسير، وهذا نمط ونهج انتهجه حتى كبار المحدثين مثل الإمام البخاري الذي كان يقطع الحديث في أكثر من موضع.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٠٢)، والحديث أخرجه مسلم، كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، (٢/ ٦٩٧) رقم(١٠٠٦)، وهذا نصه عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَصْحَابُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: " أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ مِنْهُ؟ إِنَّ كُلَّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ - أَوْ قَالَ: فِي مُبَاضَعَةِ أَحَدِكُمْ أَهْلَهُ صَدَقَةٌ - " قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ يَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ، أَكَانَ عَلَيْهَا فِيهَا وِزْرٌ؟ "فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ".

حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النور: ٢٧]، قال: وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أأدخل»؟[1]، وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩] في الحديث الصحيح: "لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات"[2].

وفي هذا الموضع أشار إلى حديث طويل في الصحيحين مكتفياً بموضع الشاهد من الحديث.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمسمائة،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٦٥)، ونص الحديث: عَنْ رِبْعِيٍّ قَالَ حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِى عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِىِّ ﷺ وَهُوَ فِى بَيْتٍ فَقَالَ أَلِجُ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ لِخَادِمِهِ " اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمْهُ الاِسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ قُلِ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ". فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِىُّ ﷺ فَدَخَلَ، أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب كيف الاستئذان؟، (٤/ ٥١٠) رقم(٥١٧٩)، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم الليلة، باب كيف يستأذن؟، (٩/ ١٢٦) رقم(١٠٠٧٥)، وصححه الألباني، (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الألباني، (٢/ ٤٦١) رقم(٨١٨).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٧٠٥)، والحديث أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء: ١٢٥]، (٣/ ١٢٢٥) رقم(٣١٧٩)، ومسلم، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابٌ مِنْ فَضَائِلِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ، (٧/ ٩٨) رقم(٦٢٢١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: «كانوا ألفا وأربعمائة»(١).

وفي هذا الموضع ذكر عدد الصحابة الذين كانوا في صلح الحديبية أو بيعة الرضوان، مكتفياً بجزء من الحديث الطويل.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ [النساء: ١١] قال: "لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك»(٢).

في هذا الموضع وفي غيره من المواضع كان الشيخ -رحمه الله- يأخذ من الرواية ما يفسر به الآية، أو ما يشير إلى المعنى المراد من الآية، وكما أسلفت هذا منهج درج عليه كثير من المحدثين.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٧٩٦)، والحديث أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب كم اعتمر النبي ﷺ، (٢/ ٦٣١) رقم(١٦٨٨)، ومسلم، كتاب الحج، بَابُ بَيَانِ عَدَدِ عُمَرِ النَّبِيِّ ﷺ وَزَمَانِهِنَّ، (٤/ ٦٠) رقم(٣٠٠٨)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٦٦)، أخرجه أبو داود، كتاب الفرائض، باب في الجدة، (٣/ ٨١) رقم(٢٨٩٦)، والترمذي، كتاب الفراض، باب ميراث الجدة، (٤/ ٤١٩) رقم(٢١٠٠)، وابن ماجه، كتاب الفراض، باب ميراث الجدة، (٢/ ٩٠٩) رقم(٢٧٢٤)، وأحمد في المسند، (٢٩/ ٤٩٣) رقم(١٧٩٧٨)، من حديث محمد بن مسلمة، رضي الله عنه.

المطلب الرابع: الإشارة إلى الحديث دون ذكره

كان الشيخ في بعض الأحيان ينهج نهج الاختصار، فيلمح إلماحاً، ويشير إشارة إلى الحديث؛ لاشتهاره وانتشاره، فيكتفي بالإشارة إلى الحديث دون ذكر اللفظ أو المعنى.

فعند تفسير آية الكرسي قال: هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردا للإنسان في أوقاته صباحاً ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات[1]، وقال: «أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١١٠)،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِزَكَاةِ رَمَضَانَ، فَكُنْتُ أَحْفَظُهَا فَأَتَانِي آتٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ « فَذَكَرَ الحَدِيثَ فِي إِطْلَاقِهِ وَعَوْدِهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ إِلَى أَنْ قَالَ: قُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: « دَعْنِي، فَإِنِّي لَا أَعُودُ، وَأُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ فِرَاشَكَ فَاقْرَأْ بِهَذِهِ الآيَةِ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[البقرة: ٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَهَا [ص:٥٤] فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، أَتَدْرِي مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ " قَالَ: لَا، قَالَ: " ذَاكَ شَيْطَانٌ "

أخرجه البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، (٢/ ٨١٢) رقم(٢١٨٧)، وكتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وأعوانه، (٣/ ١١٩٤) رقم(٣١٠١)، وفي كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، (٤/ ١٩١٤) رقم(٤٧٢٣).

للباري تعالى»[1].

فهنا أشار إلى الحديث دون ذكرها، وهذا في الغالب يكون نظراً لاشتهار الحديث عند الخاصة والعامة.

وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النساء: ٢٥]، قال: ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده كما ورد بذلك الحديث[2]، وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٩٥٣).

(٢) نص الحديث عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ.

أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، (١/ ١٥) رقم(١٨)، ومسلم، كتاب الحدود والديات، بَابُ الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لأَهْلِهَا، (٥/ ١٢٦) رقم(٤٤٨١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٧٥).

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، فَمَنْ =
= وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ

وكذا هنا أشار إلى رواية «الحدود كفارات»؛ لأن الحديث مشهور معروف، والمقصود من ذكره هكذا قد حصل.

وعند تفسيره لقوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء: ٤٣] قال: «بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين والتوق؛ لطعام ونحوه كما ورد في ذلك الحديث الصحيح»[(١)]، وهنا لبيان المعنى الفقهي أعطى إشارة للحديث.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرعد: ٢٩] ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة[(٢)].

ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ».

أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، (١/ ١٥) رقم(١٨)، ومسلم، كتاب الحدود والديات، بَابُ الْحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لأَهْلِهَا، (٥/ ١٢٦) رقم(٤٤٨١).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٧٩)، نص الحديث عن عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلاَ هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ"، أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان، (٢/ ٧٨) رقم(١١٨٣).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤١٨)، أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الواقعة، (٤/ ١٨٥١) رقم (٤٥٩٩)، ومسلم، كتاب الجنة، بَابُ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، (٨/ ١٤٤) رقم(٧٢٣٨)، من حديث أبي هريرة.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك شارك فيه الشيطان كما ورد فيه الحديث(١)، أشار الشيخ هنا إلى أكثر من رواية توضح معنى الآية.

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٨]،

«ولـم يذكـر الأكل لأن البغـال والحمر محرم أكلها، والخيل لا تستعمل -في الغالـب- للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفا من انقطاعها وإلا فقد ثبت

والبخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ومسلم، كتاب الجنة، بَابُ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، (٨/ ١٤٤) رقم(٧٢٤٠)، (٥/ ٢٣٩٨) رقم(٦١٨٦)، من حديث سهل بن سعد، والبخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (٣/ ١١٨٧) رقم (٣٠٧٩)، من حديث أنس.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤٦٢)، من هذه الأحاديث: حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: "بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"، أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، (١/ ٦٥) رقم(١٤١)، ومسلم، كتاب النكاح، باب ما يقوله الرجل إذا أتى أهله، (٤/ ١٥٥) رقم(٣٥٢٣)، ومنها حديث ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ"، أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب النهي عن الأكل والشرب بالشمال، (٦/ ١٠٩) رقم(٥٣١٣).

في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل»[1]. وهنا أشار الشيخ -رحمه الله- إلى حديث صحيح.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٤]، قال: «جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه»[2].

وهناك نماذج أخرى أشير إليها في الهامش[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤٣٦)، ومن هذه الروايات ما ثبت عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ، أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب لحوم الخيل، (٥/ ٢١٠١) رقم(٥٢٠١)، ومسلم، كتاب الذبائح، بَابٌ فِي أَكْلِ لُحُومِ الْخَيْلِ، (٦/ ٦٥) رقم(٥٠٦٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٢١)، والحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: "مَن أَمْسَكَ كلباً فإنَّهُ يَنْقُصُ كلَّ يومٍ من عملِهِ قيراطٌ؛ إلا كَلْبَ حرْثٍ، أو ماشيةٍ".، أخرجه البخاري، كتاب المزارعة، باب اقتناء الكلب للحرث، (٢/ ٨١٧) رقم(٢١٩٧)، ومسلم، كتاب البيوع، باب من اقتنى كلباً، (٥/ ٣٧) رقم(٤٠٣٥)، واللفظ للبخاري. وروي من حديث ابن عمر أخرجه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب من اقتنى كلبا ليس بكلب صيد أو ماشية، (٥/ ٢٠٨٨) رقم(٥١٦٣)، ومسلم، كتاب البيوع، باب من اقتنى كلباً، (٥/ ٣٦) رقم(٤٠٢٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣٥٤)، قال: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].. وهم: «كعب بن مالك» وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة، في الصحاح والسنن. أخرج القصة البخاري، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك وقول الله عز و جل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، (٤/ ١٦٠٣) رقم(٤١٥٦)، ومسلم، كتاب التوبة، بَابُ حَدِيثِ تَوْبَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَصَاحِبَيْهِ، (٨/ ١٠٥) رقم(٧١١٦).

فالشيخ -رحمه الله- في كل هذه المواضع يشير إلى الحديث ولا يذكر نصه

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٧١)، قال: «ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتومئ إليه هذه الآية لما قال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: ١٥]. انظر صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب ما جاء في البينة على المدعي، (٢/ ٩٢٩).

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢١٤)، وقوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ١٥٩﴾ [النساء: ١٥٩].... راجع إلى عيسى عليه السلام، ...فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدا، يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟، انظر صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٦/ ٢٦٠٥)، وصحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (٨/ ١٩٦) رقم(٧٤٨٣).

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤٥٣)، قال: «وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى وأنه أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلي ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم وفرض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمسا بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا الله ﷻ، أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] (٦/ ٢٧٣٠) رقم(٧٠٧٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى = =السَّمَوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، (١/ ١٠٢) رقم(٤٣٢).

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤٧٦)، قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر: ٣٣] ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية، عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله: (يُحَلَّوْنَ) وكذلك الحرير ونحوه»، قلت: من هذه الأحاديث ما روي عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن النبي ﷺ: تلا قول الله ﷻ: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [فاطر: ٣٣] فقال: «إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب" أخرجه الحاكم في

ولا معناه، وإنما يكتفي بالإشارة إلى الرواية، وهذا في الغالب مرده إلى اشتهار الرواية، وحصول المقصود من هذا الذكر المجمل للرواية.

المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، (٢/ ٤٦٢) رقم(٣٥٩٤)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

المبحث الثاني

صور التفسير النبوي عند الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-

تنوعت صور التفسير النبوي عند الشيخ السعدي -رحمه الله-، فاستدل بالأحاديث على أسباب نزول بعض الآيات، كما استعان بالأحاديث لتفسير بعض الكلمات، وبيان المجمل... الخ، وسأورد في هذا المبحث بعض الصور.

المطلب الأول: ذكر سبب نزول

كان الشيخ السعدي -رحمه الله- على دراية بأهمية أسباب النزول في فهم معاني كثير من الآيات؛ لذلك ذكر جملة من الآثار الواردة في أسباب نزول بعض الآيات، واعتمد عليها في تفسير تلك الآيات وتقرير معانيها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٨٤]، قال: «وهذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود، بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضا»[1]، فذكر الشيخ -رحمه الله- سبب نزول الآية معتمداً على كتب التفسير

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٨)، وانظر سبب النزول: جامع البيان،

والحديث.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. قال: «هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل[1]، وهنا استدل بالحديث الذي بين سبب نزول الآية.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[النساء: ١١٣].

قال: «ذكر المفسرون أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم على رءوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق وإنما الذي سرق من وجدت السرقة ببيته وهو البريء. فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يبرئ صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات تذكيراً

الطبري، (٢/ ٣٠٥) رقم(١٤٧١)، عن ابن عباس، وله شاهد عن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَظُنُّهُ عَنْ أَبِيهِ، أخرجه الطبراني المعجم الكبير، (١٩/ ٧٦) رقم(١٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الجزية، باب مَنْ لاَ تُؤْخَذُ مِنْهُ الْجِزْيَةُ مِنْ أَهْلِ الأَوْثَانِ، (٩/ ١٨٣) رقم(١٩٠٩٩)، وإسناده حسن. (الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت ياسين، (١/ ١٩٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٨٧)، والحديث أخرجه أبو الشيخ في العظمة، (٢/ ٥٣٥)، وابن أبي حاتم في التفسير، (١/ ٣١٤) رقم(١٦٦٧)، وابن حبان في الثقات، (٨/ ٤٣٦)رقم(١٤٢٨٩)، والدارقطني في المؤتلف والمختلف، (٣/ ١٤٣٦)، من حديث الصلت بن الحكيم عن أبيه عن جده، وقال ابن القيسراني: «غَرِيب تفرد بِهِ جرير بن عبد الحميد عَن عَبدة بن أبي بَرزَة السجستاني عَن الصَّلْت». أطراف الغرائب والأفراد، ابن القيسراني، (٤/ ٣٥٤).

وتبييناً لتلك الواقعة وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال»[1]، وهناك نماذج أشير إليها في الهامش[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٠١)، والحديث أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة النساء، (٥/ ٢٤٤) رقم(٣٠٣٦)، وقال: «غريب لا نعلم أحدا أسنده غير محمد بن سلمة الحراني» والطبراني في المعجم الكبير، (١٩/ ٩) رقم(١٥)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الحدود، (٤/ ٤٢٦) رقم(٨١٦٤)، وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٥٨)، قال: «وفي قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٢] قال: «وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناسا [من قريش، أو] من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك، فاطرد فلانا وفلانا، أناسا من فقراء الصحابة، فإنا نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم، واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك. فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها، أخرجه مختصراً مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص ﷺ، (٧/ ١٢٧) رقم(٦٣١٩)، وفي (٧/ ١٢٧) رقم(٦٣٢٠)، من حديث سعد -رضي الله عنه-.

وانظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٧١)، قال: "سبب نزول الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١].. فإن المشركين -حين سمعوا تحريم الله = =ورسوله الميتةَ، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة- قالوا -معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة ولا برهان- أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

أخرجه أبو داود، كتاب الضحايا، باب فِي ذَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابِ، (١٣) (٣/ ٥٩) رقم(٢٨٢١) والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنعام، (٥/ ٢٦٣) رقم(٣٠٦٩)، وقال: «حسن غريب».

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٦٦٥)، قال: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]"، وكان سبب نزول هذه الآيات، =

من خلال عرض ما سبق تظهر أهمية ربط الأحاديث بأسباب النزول، فمن

= أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح على من تبناهم، في نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولا من رسوله، وفعلا وإذا أراد الله أمرًا، جعل له سببًا، وكان زيد بن حارثة يدعى "زيد بن محمد" قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ} فقيل له: "زيد بن حارثة"، وكانت تحته، زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول الله ﷺ، وكان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوَّجها، فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء [هود:٧]، وهو رب العرش العظيم [التوبة: ١٢٩]، (٦/ ٢٦٩٩) رقم(٦٩٨٤)، عن أنس ﷺ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، (١/ ١١٠) رقم(٣٥٩)، عن عائشة -رضي الله عنه-.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٨٥٤)، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ [الممتحنة: ١]، ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يدا عندهم لا شكا ونفاقا، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطبا، فاعتذر ﷺ بعذر قبله النبي ﷺ.

قصة حاطب في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، (٣/ ١٠٩٥) رقم(٢٨٤٥)، وفي كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، (٤/ ١٤٦٣) رقم(٣٧٦٢)، وفي باب غزوة الفتح، (٤/ ١٥٥٧) رقم(٤٠٢٥)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، بَابُ فَضَائِلِ أَهْلِ بَدْرٍ y، (٧/ ١٦٧) رقم(٦٤٨٥)، من حديث علي -رضي الله عنه-.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٩١٠)، قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ [عبس: ١ - ١٠] قال: "وسبب

خلالـه يعـرف الزمان والمكان لذلـك الحدث، ويمكن أن يفهـم موضوع الآية من خلاله، لذا أكثر الشيخ -رحمه الله- من النقل في مثل هذه الصورة.

المطلب الثاني: بيان المعنى

الأصل في ذكره الأحاديث بيان المعاني المراده من كلام الله كما فسرها رسوله ﷺ، ومـن الملاحـظ أن من الأحاديـث ما يكون تفسـيراً لآية، مع أنه لـم يرد على أنه تفسـير للآية صراحة، ولكنه يصلح لتفسـيرها، وهذا من باب الاجتهاد في الربط والتوفيق بين معنى الآية ومعنى الحديث، وهذا ما فعله الشيخ السعدي -رحمه الله-.

ومـن ذلك قوله في تفسـير قوله تعالـى﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قال: «وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشـمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويُغلق حينئذ بابُ التوبة»[1]، فقد استدل الشيخ هنا بالأحاديث لبيان المراد من الآية.

نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسـأل النبي ﷺ ويتعلم منه، وجاءه رجـل من الأغنيـاء، وكان ﷺ حريصا على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمـى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعـا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، أخرجه الترمذي، كتاب التفسـير، باب ومن سورة عبس، (٥/ ٤٣٢) رقم(٣٣٣١)، وقال: "حسن غريب"، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، (٢/ ٥٥٨) رقم(٣٨٩٦)، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، من حديث عائشة -رضي الله عنه-ا.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٨٢)، انظر: صحيح البخاري، كتاب

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام: ١٣٦]. قال: "ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من أشرك معي شيئا تركته وشركه»[1]، ففيها نصّ على معنى الآية أو معنى متّصل بالآية، وهذه الروايات بينت معاني بعض الآيات لذا فسر الشيخ -رحمه الله- الآيات بالمعاني الواردة في الروايات.

المطلب الثالث: تقرير الحكم الشرعي

ترد في الآيات أحكامًا، فتأتي السنة النبوية بمزيد بيان، أو عام أو غير ذلك، وهذا ما انتهجه الشيخ -رحمه الله-، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)﴾ [الأنفال: ١٦]، وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد[2]، فالحديث هنا قرر الحكم الشرعي الموجود في الآية.

التفسير، باب سورة الأنعام، (٤/ ١٦٩٧) رقم(٤٣٦٠)، والترمذي، كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، (٥/ ٢٦٤) رقم(٣٠٧١).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٧٥)، أخرجه مسلم، كتاب الرقاق، بَابُ مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ، (٨/ ٢٢٣) رقم(٧٥٨٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣١٧)، أخرجه: البخاري، كتاب

المطلب الرابع: تخصيص العام

من صور تفسير الشيخ -رحمه الله- تخصيص المعنى العام، قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢]: «هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم»[(١)].

هذه نماذج من الصور التي جاءت في تفسير الشيخ السعدي -رحمه الله-، والتي تبرز أن الشيخ -رحمه الله- اهتم بالسنة النبوية في تفسيره.

الوصايا، باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾[النساء: ١٠] رقم(٢٧٦٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، (١/ ٨٧) رقم(٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٦١)، صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥﴾[المائدة: ٤٥]، (٦/ ٢٥٢١) رقم(٦٤٨٤)، ومسلم، كتاب الحدود والديات، بَابُ مَا يُبَاحُ بِهِ دَمُ الْمُسْلِمِ، (٥/ ١٠٦) رقم(٤٣٩٠)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

المبحث الثالث: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بمرويات الصحابة والتابعين

١. لم يكثر الشيخ السعدي -رحمه الله- من الآثار أعني روايات الصحابة والتابعين في كتابه، ورغم قلة المنقول إلا انتهج منهجاً في هذا النقل وهو أنه لا يستدل بها إلا نادراً، وذلك أنه رحمه إذا لم يجد في الأحاديث المرفوعة ما يربطه بالآية ويفسره بها فإنه يذهب إلى والآثار، وسأعرج على ذلك من خلال الآتي:

المطلب الأول: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بمرويات الصحابة

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[النساء: ١٢].

أي: من أم، كما هي في بعض القراءات. وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، فإذا كان يورث كلالة أي: ليس للميت والد ولا ولد أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا. وهذه هي الكلالة كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق ﷺ[1]،

---

(١) عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: «سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَنِ الْكَلَالَةِ فَقَالَ: إِنِّي سَأَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي فَإِنْ يَكُ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ وَإِنْ يَكُ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ أُرَاهُ مَا خَلَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ ﷺ قَالَ: إِنِّي لَأَسْتَحْيِي اللهَ أَنْ أَرُدَّ شَيْئًا قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ". الدارمي، كتاب الفراض، باب الكلالة، (١/ ٢٢١) رقم(٣٠١٥)، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب الفرائض، باب الكلالة، (١٠/ ٣٠٤) رقم(١٩١٩٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفرائض، باب في الكلالة من هم؟، (٦/ ٢٩٨) رقم(٣١٦٠٠)، والبغوي في شرح السنة، كتاب الفرائض، باب ميراث الأخوة، (٨/ ٣٣٨)، وهو سنده رجاله ثقات، إلا أنه ضعيف =

وقد حصل على ذلك الاتفاق ولله الحمد[1].

فالشيخ استعان بتفسير أبي بكر -رضي الله عنه-، ذلك أنه -رحمه الله- لم يجد في لأحاديث المرفوعة ما يستدل به، كما استدل بقول عمر -رضي الله عنه- في الموضع الآتي:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. قال: «لما نزلت، قال عمر ﷺ: انتهينا انتهينا»[2].

= للانقطاع بين الشعبي وبين أبي بكر وعمر، فالشعبي تقدم في الحديث أنه ولد سنة تسع عشرة وقيل بعد ذلك، وأنه لم يدرك أبا بكر، وهذا يقتضي أن يكون صغيرًا أيام عمر وأنه لم يسمع منه. (التفسير من سنن سعيد بن منصور، تحقيق: د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد (٣/ ١١٨٦).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٩٨).

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى الْبَقَرَةِ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآيَةَ قَالَ: فَدُعِىَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى النِّسَاءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء: ٤٣] فَكَانَ مُنَادِى رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ يُنَادِى أَلاَ لاَ يَقْرَبَنَّ الصَّلاَةَ سَكْرَانُ فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) قَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا، أخرجه أبو داود، كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، (٣/ ٣٦٤) رقم(٣٦٧٢)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المائدة، (٥/ ٢٥٣) رقم(٣٠٤٩)، والنسائي، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، (٨/ ٦٨١)، وأحمد في المسند، (١/ ٤٤٢) رقم(٣٧٨)، وقال الشيخ شعيب: "إسناده صحيح".

ما ذكره الشيخ -رحمه الله- يعد من النماذج القليلة التي وضعها صراحة في كتابه، وإلا فقد افاد الشيخ في مواضع كثيرة من تفاسير الصحابة والتابعين دون تصريح باسم الصحابي أو التابعي.

ثانيًا: التابعون

لم يكثر الشيخ -رحمه الله- أيضًا من النقل عن التابعين، والسبب أن أكثر ما ينقل عن الصحابة التابعين لم يلق العناية التي وجهت إلى الأحاديث النبوية، ومن هذه المواضع التي نقلها:

قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة[1]، قال: ي-رحمه الله- وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة[2]، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ألفا وأربعمائة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم[3].

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن

---

(١) صحيح البخاري كتاب المعازي، باب غزة الحديبية، (٤/ ١٥٢٦) رقم(٣٩٢٢)، دلائل النبوة، البيهقي، (٤/ ٩٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣/ ١٣١٠) رقم(٣٣٨٣)، وكتاب المعازي، باب غزة الحديبية، (٤/ ١٥٢٦) رقم(٣٩٢١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٧٩٦).

انظر: مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ١٦٢) رقم(٨٥٨) والسنن الكبرى للبيهقي، كتاب الحج، باب الاشتراك في الهدي، (٥/ ٢٣٥) رقم(١٠٥٠٠)، مستخرج أبي عوانة (٤/ ٤٢٩) رقم(٧٢٠٢).

الأكوع[1]، في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة، وغلط غلطا بينا من قال: كانوا سبعمائة[2]، وعذره أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربعمائة وتسعين رجلا وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفا وأربعمائة[3].

وقال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم[4].

افاد الشيخ -رحمه الله- من أقوال التابعين رغم قلة وجود ذلك في كتابه لكن يمكن القول بأنه موجود بندرة، ولم يصرح بما نقله عنهم في مواضع كثيرة، واكتفى بالنقل.

---

(١) صحيح مسلم، أبواب الهجرة، (٦/ ٢٦) رقم(٤٨٤٨).

(٢) مسند أحمد (٣١/ ٢١٢) رقم(١٨٩١٠)، صحيح ابن خزيمة (٤/ ٢٩٠) رقم(٢٩٠٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٧٩٦).انظر في تحديد العدد: «مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة»، حافظ الحكمي، عدد جيش السلمين في غزوة الحديبية، (ص: ٣٩)، قلت: وقد جاء في الصحيحين عن عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ الشَّجَرَةِ أَلْفًا وَثَلَاثَ مِئَةٍ، وَكَانَتْ أَسْلَمُ ثُمْنَ الْمُهَاجِرِينَ»، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (٤/ ١٥٢٦) رقم(٣٩٢٤)، صحيح مسلم، كتاب الهجرة، (٦/ ٢٦) رقم(٤٨٤٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٧٩٦).

انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٨)، ومغازي الواقدي (١/ ٣٨٣)، والطبقات الكبرى، ابن سعد، (٢/ ٩٥)، والبداية والنهاية، ابن كثير، (٤/ ١٦٤)، وقال البيهقي بعد ذكره لتاريخ الغزوة بأنها كانت سنة ست في ذي القعدة: قلت: «هذا هو الصحيح، وإليه ذهب الزهري وقتادة، وموسى ابن عقبة، ومحمد بن إسحاق بن يسار وغيرهم، واختلف فيه على عروة بن الزبير. دلائل النبوة، البيهقي (٤/ ٩١).

المبحث الرابع: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في عزو الحديث وذكر درجته

على منهج أهل العصر سار الشيخ عند عزوه للأحاديث وذكر درجتها، وسيظهر ذلك من خلال الآتي:

المطلب الأول: منهجه في عزو الحديث

منهج الشيخ -رحمه الله- في العزو أنه لا يهتم بالعزو بقدر اهتمامه بصحة الحديث، وفي الأمثلة السالفة الذكر في البحث، والأمثلة في هذا المبحث ما يدل على عدم عزوه، ثم إنه -رحمه الله- إن عزا فإنه يعزو إلى:

أولاً: العزو إلى الصحيحين.

فيقول: في «الصحيحين»[1].

ثانياً: العزو إلى صحيح البخاري.

فقال: «في صحيح البخاري»[2].

ثالثاً: العزو إلى السنن.

فيقول: «في السنن»[3]، قلت: «ويقصد بهم أصحاب السنن الأربعة».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٩٥)، (ص: ٣٤٥)، (ص: ٤٣٦)، (ص: ٧٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٦٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٦٦).

رابعاً: العزو إلى الصحاح والسنن.

فيقول: «في الصحاح والسنن»[1].

خامساً: العزو إلى الصحاح والسنن والمسانيد.

فيقول: «في الصحاح والسنن والمسانيد»[2].

من الملاحظ أن الشيخ -رحمه الله- اعتمد العزو الإجمالي، ولم يذكر العزو التفصيلي قط اللهم إلا ما عزاه إلى صحيح البخاري، وقد كان هذا منهجاً متبعاً في ذلك الوقت سار عليه معظم العلماء.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣٥٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٥٦٣).

المطلب الثاني

المصطلحات التي استعملها عند نقله للحديث

استخدم الشيخ -رحمه الله- بعض المصطلحات التي تفيد صحة الحديث، وذلك لأن من منهجه الاعتماد على الصحيح، وترك ما عداه، ومن هذه العبارات.

(١) استخدامه لمصطلح (ثبت في الصحيحين)[١].

(٢) استخدامه لمصطلح (ما ثبت في الصحيح)[٢].

(٣) استخدامه لمصطلح (كما ورد في الحديث الصحيح)[٣].

(٤) استخدامه لمصطلح (ثبت في السنن)[٤].

(٥) استخدامه لمصطلح (الحديث الثابت)[٥].

(٦) استخدامه لمصطلح (ذكر)[٦].

(٧) استخدامه لمصطلح (صح عنه)[٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤٣٦).

(٢)) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٢٧٥)، (ص: ٣١٠)، (ص: ٤٥٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٥٨)، (ص: ٢٢١)، (ص: ٢٢٩)، (ص: ٥٠١)، (ص: ٨٤٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٦٦).

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٦٦)، (ص: ١٨٨)، (ص: ١٩٥)، (ص: ٣٤٥)، (ص: ٥٧٥).

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤٢)، (ص: ٩٠)، (ص: ١٨٨).

(٧) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ١٩٨)، (ص: ٧٩٦).

مـن الملاحظ أن عبارات الشـيخ جاءت في مجملها تـدل على صحة الحديث وثبوته، وهذا يدل دلالة واضحة أن الشـيخ لا يكاد يعتمـد الروايات الضعيفة، فلله دره من مفسر عظم خيره وعم نفعه، ترك الروايات التي رأى ضعفها.

المبحث الخامس: منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في الاستشهاد بالإسرائيليات

معنى الإسرائيليات ما أخذ من ثقافة بني إسرائيل، أو ما هو موجود في كتبهم، أو من أساطيرهم وأباطيلهم، وقد أصابت هذه الآفة – للأسف – كثير من كتب التفسير، وامتلأت بها بطون الكتب، ولكن ما موقف الشيخ السعدي -رحمه الله- من هذه الإسرائليات؟ هذا ما سنراه في هذا المبحث إن شاء الله.

المطلب الأول

موقف الشيخ -رحمه الله- من رواية الإسرائيليات[1]

كان موقف الشيخ السعدي واضحًا في رفضه الروايات الإسرائيلية التي ذكرها المفسرون في كتبهم دون التنبيه على بطلانها، وبخاصة تلك الروايات التي فيها من الغرائب والعجائب والخرافات ما لا يصدّقه عقل، أو يقر به نظر صحيح، أو تخالف ما هو ثابت في شريعتنا، ومن ثم أنكر على أولئك المفسرين الذين أفسحوا المجال لتلك الروايات دون نقد أو تمحيص.

وقد أبان الشيخ -رحمه الله- عن منهجه في التعامل مع الإسرائليات في تفسيره،

(١) لفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنّا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودى واللون النصرانى للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ «الإسرائيليات»، من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى، فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالَم ودخل الناس فى دين الله أفواجًا. (التفسير والمفسرون، الذهبي، (١/ ١٢١).

عند تعرضه للكلام على قصة ذبح البقرة.

قال -رحمه الله-: «واعلم أن كثيرا من المفسرين رحمهم الله، قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيرا لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"[1].

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيرا لكتاب الله قطعا إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم"[2] فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشكوكا فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعا بها ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق»[3].

والشيخ -رحمه الله- وإن أجاز النقل فلم يجز وضعها في التفسير، ذلك أن هذه الإسرائيليات مشكوك فيه.

وقال في بداية تفسيره لسورة يوسف: «واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ذكر بني إسرائيل، (٣/ ١٢٧٥) رقم(٣٢٧٤)، عن ابن عمرو -رضي الله عنه-ما.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة، (٤/ ١٦٣٠) رقم(٤٢١٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٥٥).

فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير، فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل»(١)، وفي هذا الموضع جعل الزيادة التي ترد عن طريق الإسرئيليات من الاستدراك على كلام الله الذي جاء تاماً مفصلاً لا يحتاج إلى مزيد بيان.

وعندما تعرض لقصة ذي القرنين قال: «وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا، لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية»(٢)، وفي هذا الموضع دعا إلى ترك الإسرئيليات.

وعند تفسيره لقصة إبراهيم في قوله تعالى إني مهاجر إلى ربي سيهدين قال: «فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٣٩٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٤٨٥).

الله ليجري بسببه عذابا عاما»[1]، فأنت ترى أن موقف الشيخ -رحمه الله- من الإسرائيليات أنها لا تنقل مفردة غير مقرونة بدليل ثابت عندنا، ويردها بالمرة إذا لم تصح، لذا قلل الشيخ -رحمه الله- من ذكر الإسرائيليات بل لا تكاد توجد فيه إلا نادراً.

فالشيخ -رحمه الله- كان من الذين تشددوا في النقل من الإسرائيليات، ولكن ترى هل وقع في التفسير بعض من هذه الإسرائيليات أم تجرد من النقل مطلقاً؟.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٦٣٠).

المطلب الثاني: استشهاد الشيخ ببعض الإسرائيليات

استشهد الشيخ -رحمه الله- ببعض الروايات الإسرائيلية على عادة المفسرين لكنه لم يغرق في الاستدلال بها، ولم يذكر الأشياء التي لا تصدقها العقول، وما ورد في كتب الحديث والتفسير.

(١) في تفسير قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]. قال: «أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها»[١].

«هذا التفسير من الإسرائيليات و الصحيح ما جاء في البخاري معلقاً: «يمسح أعراف الخيل وعراقيبها»[٢].

قال الشيخ الألباني: «وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية؛ لأن نبي الله ﷺ لم يكن - إن شاء الله - ليعذب حيواناً بالعرقبة ويهلك مالاً من ماله بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها »[٣].

وعلى الرغم من عدم تصريح الشيخ بأن النقل عن ابن عباس -رضي الله عنه- ما إلا أنه ثابت عنه.

(٢) قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٤]. أي: شيطانا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٧١٣)، وهذا تفسير ابن عباس كما أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ١٠٨) رقم(٦٩٩٧)، وقال الشيخ الألباني: « منكر»، (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، (١٤/ ٩٠٣).

(٢) صحيح البخاري، (٣/ ١٢٥٨).

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، (١٤/ ٩٠٥).

في مدة فتنة سليمان، (ثُمَّ أَنَابَ) سليمان إلى الله تعالى وتاب.[1].

«وهذه من الإسرائيليات بل ثبت في الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ نَبِيُّ اللهِ: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِغُلاَمٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ، أَوِ الْمَلَكُ،: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ، فَلَمْ تَأْتِ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلاَّ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ غُلاَمٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَلَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ»[2].

وهو واضح أن الله – جل وعلا – ابتلاه بشق الولد وهو الجسد المذكور في الآية الكريمة وإلى هذا ذهب جمع من المفسرين أخذاً بالحديث وطرحاً للروايات المكذوبة.

قال الإمام ابن كثير: «إِسْنَادُهُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَوِيٌّ وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ إِنَّمَا تَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ -إِنْ صَحَّ عَنْهُ- مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَفِيهِمْ طَائِفَةٌ لاَ يَعْتَقِدُونَ نُبُوَّةَ سُلَيْمَانَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، (ص: ٧١٣).

وهذا التفسير موجود في المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٧١) رقم (٣٦٢٣)، عن ابن عباس -رضي الله عنه-ما، في قوله ﷻ: {وألقينا على كرسيه جسدا} [ص: ٣٤] قال: " هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوما، وكان لسليمان جارية يقال لها: جرادة وكان بين بعض أهلها وبين قومه خصومة، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق لأهلها، فأوحى الله إليه أنه سيصيبك بلاء، وكان لا يدري يأتيه من السماء أو من الأرض.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، (٣/ ١٠٣٨) رقم(٢٦٦٤)، وفي كتاب الأنبياء، ٤١ - باب قول اله تعالى { ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب } / ص /٣٠ . الراجع المنيب، (٣/ ١٢٦٠) رقم(٣٢٤٢)، وفي كتاب النكاح، باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي، (٥/ ٢٠٠٧) رقم(٤٩٤٤)، ومسلم، كتاب الأيمان والنذور، بَابُ الاسْتِثْنَاءِ، (٥/ ٨٧) رقم(٤٢٩٧).

عَلَيْهِ السَّلامُ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ وَلِهَذَا كَانَ فِي السِّيَاقِ مُنْكَرَاتٌ مِنْ أَشَدِّهَا ذِكْرُ النِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَشْهُورَ أَنَّ ذَلِكَ الْجِنِّيَّ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَى نِسَاءِ سُلَيْمَانَ بَلْ عَصَمَهُنَّ اللهُ مِنْهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، وَقَدْ رُوِيَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مُطَوَّلَةً عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَجَمَاعَةٍ آخَرِينَ وَكُلُّهَا متَلَقَّاة مِنْ قَصَصِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ»[١].

وقال أبو حيان وغيره: «إن هذه المقالة من أوضاع اليهود والزنادقة، ولا ينبغي لعاقل أن يعتقد صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره على الناس، ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي؟ ! ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، نسأل الله سلامة ديننا وعقولنا، ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهن وهن حيض! الله أكبر، هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم!! وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرزاق وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذلك من أخبار كعب، ومعلوم أن كَعْباً يرويه عن كتب اليهود، وهي لا يوثق بها، على أن إشعار ما يأتي بأن تسخير الشياطين بعد الفتنة يأبى صحة هذه المقالة كما لا يخفى»[٢].

وساكتفي بذكر هذين المثالين اللذين يظهران أن الشيخ حتى في ذكره للإسرائيليات لم يسوقها كحاطب ليل، وإنما ذكرها بناء على وجودها في بعض كتب السنة، بل وإن بعضها حكم عليه بالصحة من بعض المحدثين أمثال الإمام الحاكم وغيره، وهو من تساهلهم رحمهم الله، حتي وإن خولف صاحب الحكم إلا أنه موجود مسطور.

(١) تفسير، ابن كثير، (٧/ ٦٩).

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، (٩/ ١٥٥)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، (١٢/ ٩٨٥)، وقال عن الحديث: «منكر جدًّا».

وللإجابة على السؤال الملح ما الذي جعل الشيخ يلجأ إلى الإسرائيليات أحياناً مع عدم قناعته فيها؟.

أقوال: كما هو واضح من خلال تخريج هذه الإسرائيليات أنه ورد بعضها في كتب السنة بل التي ذكر أصحابها أنها على شرط الشيخين، وبعضها ورد في كتب تفسير الأئمة الكبار، مما جعل الشيخ -رحمه الله- يظن أنها صحيحة، والله أعلم.

الخاتمة:

الحمد لله أولاً وآخراً، أما بعد، فقد ظهر من خلال هذا البحث نتائج أذكر أهمها.

(١) أن الشيخ السعدي -رحمه الله- أحياناً كان ينقل الحديث بلفظه، وأحياناً كان يروي الحديث بمعناه، وأحياناً كان يختصر الحديث ويكتفي بموضع الشاهد منه، وأحياناً كان أشار في بعض الأحيان إلى الحديث دون ذكره.

(٢) أن صور التفسير النبوي عن الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- كان منها: ذكر سبب نزول، وبيان المعنى، وتقرير الحكم الشرعي، وتخصيص العام.

(٣) أن الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- كان قليل الاستشهاد بروايات الصحابة والتابعين.

(٤) أن الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- لم يذكر العزو التفصيلي للحديث بل اكتفى بالعزو الإجمالي.

(٥) أن الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- لم يستعمل إلا المصطلحات التي تدل على صحة الحديث.

(٦) أن منهج الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- كان لا يرى جواز الاستشهاد بالإسرائيليات التي ليس لها أصل في شريعتنا.

(٧) أن الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- استشهد ببعض الإسرائيليات التي اختلف في تصحيحها وتضعيفها.

(٨) أن أهم ما يميز تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في ذكر الروايات ندرة الروايات الضعيفة.

أهم التوصيات.

(١) أن يشرع أحد طلاب رسائل التخصص «الماجستير»، أو العالمية «الدكتوراه» في بيان منهج الشيخ في السنة النبوية من خلال جميع مؤلفاته، ففيها ما يكفي لرسالة جامعية، وهذا البحث إن شاء الله أحد لبناتها.

(٢) الاهتمام بعلماء الأمة عن طريق عقد المؤتمرات والندوات التي تبرز جهودهم العلمية، ومسيرتهم الدعوية.

ثبت المصادر مرتبة على حروف المعجم.

(١) القرآن الكريم.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى - ١٤١٥ هـ.

(٣) أطراف الغرائب والأفراد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام الدارقطني، لأبي الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني، المعروف بابن القيسراني (المتوفى: ٥٠٧هـ)، المحقق: محمود محمد محمود حسن نصار / السيد يوسف، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠ هـ.

(٥) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، ط: دار إحياء التراث العربي، الأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م.

(٦) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .

(٧) تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية، الثالثة - ١٤١٩ ه.

(٨) التفسير من سنن سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني

الجوزجاني (المتوفى: ٢٢٧هـ)، تحقيق: د.سعد بن عبد الله آل حميد، ط: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.
(٩) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة.
(١٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.
(١١) الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، ط: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الأولى، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م.
(١٢) جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
(١٣) الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
(١٤) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق، ط: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
(١٥) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١ هـ)، المحقق: هشام سمير البخاري، ط: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.

(١٦) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى - ١٤٠٥ هـ.

(١٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، ط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الأولى.

(١٨) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، ط: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية، الأولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.

(١٩) سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

(٢٠) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ط: دار الكتاب العربي - بيروت.

(٢١) سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ط: دار الكتاب العربي - بيروت، الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٢٢) السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ط: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الأولى - ١٣٤٤ هـ.

(٢٣) السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة

- بيروت، الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٢٤) سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المحقق: مكتب تحقيق التراث، ط: دار المعرفة ببيروت، الخامسة ١٤٢٠هـ.

(٢٥) سيرة ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، ط: دار الجيل ١٤١١هـ، بيروت.

(٢٦) شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤١٠هـ.

(٢٧) صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي، ط: المكتب الإسلامي - بيروت.

(٢٨) صحيح الجامع الصغير وزيادته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، ط: المكتب الإسلامي.

(٢٩) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين، ط: دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

(٣٠) صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١ هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، ط: دار الجيل - بيروت، مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول سنة ١٣٣٤ هـ.

(٣١) الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، المحقق: إحسان عباس، ط: دار صادر - بيروت، الأولى، ١٩٦٨م.

(٣٢) العظمة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف

بأبِي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ)، المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، ط: دار العاصمة - الرياض، الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٣٣) مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، ط: مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ.

(٣٤) مستخرج أبي عوانة، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، ط: دار المعرفة - بيروت، الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٣٥) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

(٣٦) مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، ط: دار هجر - مصر، الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

(٣٧) مسند أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٣٨) مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط: المجلس العلمي- الهند، والمكتب الإسلامي - بيروت، الثانية، ١٤٠٣هـ.

(٣٩) المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف

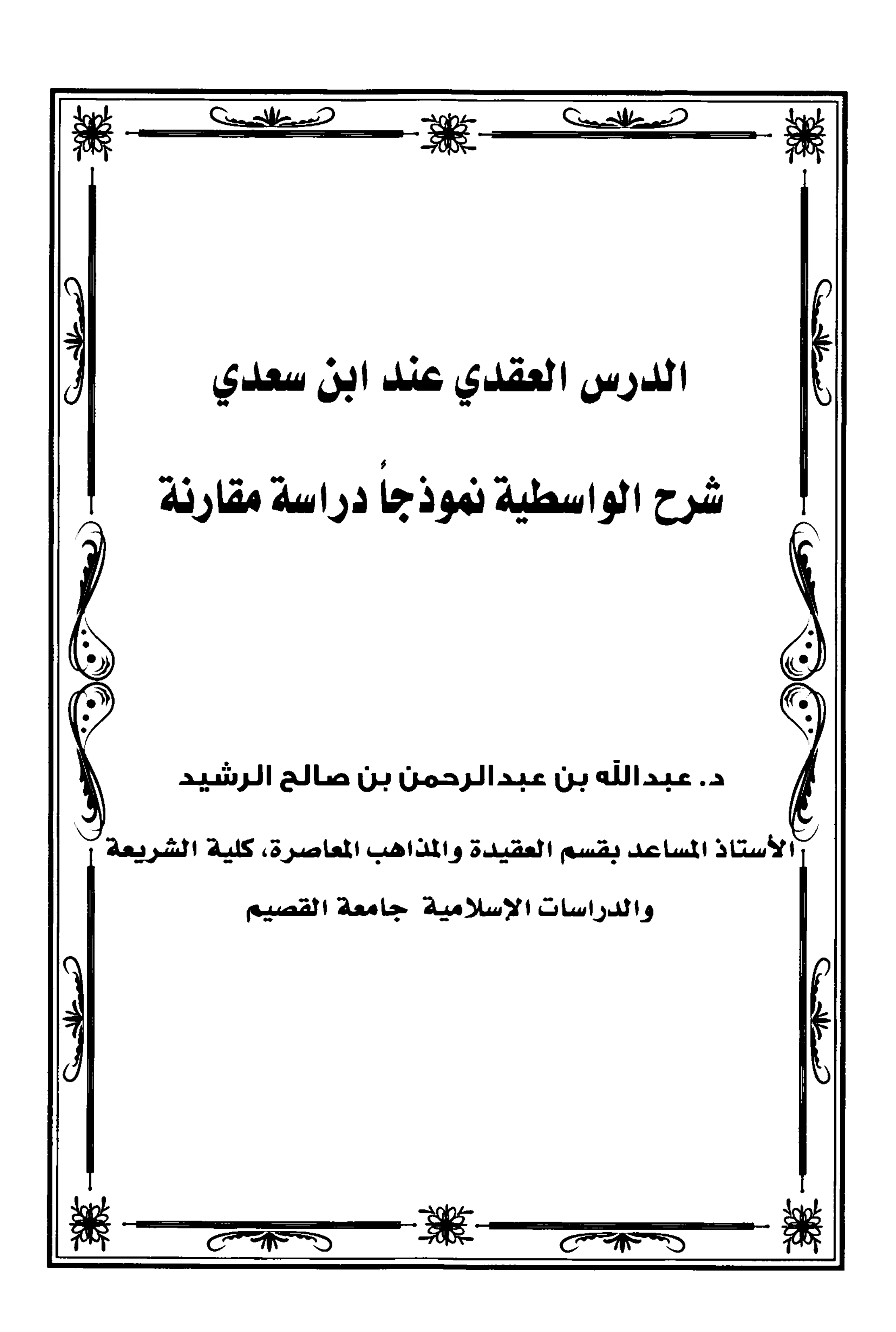
الحوت، ط: مكتبة الرشد - الرياض،الأولى، ١٤٠٩هـ.

(٤٠) المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط: دار الحرمين - القاهرة.

(٤١) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط: مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣

(٤٢) مغازي الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ)، تحقيق :مارسدن جونس، ط :دار الأعلمي - بيروت الثالثة - ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٤٣) المؤتلف والمختلف، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، ط: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



الدرس العقدي عند ابن سعدي

شرح الواسطية نموذجاً دراسة مقارنة

د. عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح الرشيد

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية الشريعة

والدراسات الإسلامية جامعة القصيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فكرة البحث:

فحيث إن انتقال المذهب الحنبلي إلى بلاد نجد هيأ منها بيئة لاحتضان تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، وتداوله بين طلاب العلم فيها؛ فإن دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله الجميع- في القرن الثاني عشر الهجري فسحت المجال له أكثر، وخاصة تراثه العقدي، بل إنه في القرن الرابع عشر تبنت نجد تراث ابن تيمية كمادة للتدريس في المساجد، ثم في المعاهد، ومن ذلك تدريس رسائله: الواسطية، والحموية، والتدمرية، واللامية، فجاءت فكرة دراسة لكتاب عقدي جرى تدريسه ومدارسته، وتعلقت به عناية العلماء، وذلك تحت مصطلح: (الدرس العقدي)، ليكشف لنا المنهج العلمي لتلك الجهود المبذولة في تلك الفترة، التي كان امتدادها اليوم في الجامعات، حيث أصبحت الدراسات الجامعية ميداناً لخدمة ذلك التراث، ومادة للتفريع عليه.

من أبرز من خدم تراث شيخ الإسلام ابن تيمية هو الشيخ العلامة عبدالرحمن بن سعدي -رحمه الله-، وهو من علماء القرن الرابع عشر، والشيخ ابن سعدي فوق تفرغه للعلم والتصنيف، فقد عني عناية بالغة بتلخيص تراث ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، تلخيصاً تميز بالسهولة والمتانة، بعيداً عن التقعر والتعقيد، وتبني كثيرًا من أقوالهما واختياراتهما، وقام بتقعيد ذلك التراث، والإضافة عليه، وتقريبه -أيضاً- بلغة سهلة لطيفة، وكان ذلك على حد سواء في مجال التأصيل والتقعيد، وفي مجال الردود والحوار، والتعامل مع النوازل ... إلخ؛ حتى أصبح ابن سعدي مدرسة ذات

صيت بارز، في التفسير وعلوم القرآن، وفي العقيدة والرد على الإلحاد، وفي الفقه وأصوله ونوازله، وفي الأخلاق وبيان محاسن الإسلام، وقد صنف -رحمه الله- ما يربو على أربعين مصنفاً، فضلاً عمن تخرج من مدرسته من جهابذة العلماء، وفي طليعتهم الفقيه المحقق العلامة محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله.

مشكلة البحث:

من خلال تتبع الباحث لأحد كتب الشيخ العقدية، وهو شرحه للعقيدة الواسطية، المسمى (التنبيهات اللطيفة)، لاحظ عدم بروزه في مادة الشروحات التالية للواسطية، من جهة الاستشهاد، مع شهرة الشارح والمتن المشروح، مع أن أكثر من شرح العقيدة الواسطية إما من طلابه، أو من مدرسته، أو ممن يستشهد بكتبه الأخرى، وخاصة في التقعيد والاستنباط والتدبر! كما لاحظ الباحث أن الدراسات الجامعية لم تركز على تحليل مادة شرح (التنبيهات اللطيفة)؛ فلذلك رغب الباحث في دراسة تكشف عن هذا الشرح، من خلال وصف لمادته، ثم مقارنة له بنظرائه، رغبة في أن يكشف ذلك عن مكانة الكتاب، ومدى أثره في الواقع العلمي القريب.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

١- الكشف عن شرح (التنبيهات اللطيفة)، من خلال إعداد مدخل وملخص له، يصلح أن يكون مدخلاً لبقية شروح العقيدة الواسطية.

٢- البحث عن معالم شخصية الشيخ ابن سعدي من خلال خدمته لتراث شيخ الإسلام ابن تيمية وعلومه، وذلك من خلال تتبع المواضع المتشابهة.

٣- التعرف على ظروف تأليف وطباعة كتاب (التنبيهات اللطيفة).

٤- الكشف عن مكانة الكتاب، ومدى أثره في الواقع العلمي القريب.

حدود البحث:

ستكون الدراسة ضمن المصادر الرئيسة لمجال البحث، وخاصة ما يغلب على الظن أنه من مظان الدراسة، من كتب وشروح متون العقيدة، للشيخ ابن سعدي، وشروح العقيدة الواسطية، لغيره من العلماء.

محاور البحث:

جاءت الدراسة من خلال تمهيد يعرف بالشيخ ابن سعدي والواسطية، ومبحثين: منهج شرح (التنبهات اللطيفة)، ومزاياه، والثاني: مقارنة شرح (التنبيهات اللطيفة) بالشروح الأخرى؛ ثم خاتمة لنتائج البحث.

منهج البحث:

سيكون منهج البحث: استقرائياً تحليلياً، وتطبيقياً مقارناً، وسيكون البحث متجهاً في نصفه الأول إلى الشرح بوصف منهج ابن سعدي، وإبراز معالمه، وفي القسم الثاني بمقارنته بالتراث العقدي المشابه له، بتناول القدر الممكن من المقارنة، بحسب طبيعة الدراسة والوقت المتاح لها.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد:

جاء البحث حول جهود العلماء وعنايتهم بمتن في الاعتقاد، شرحاً، وتعليقاً، وتدريساً، ونظماً، كل ذلك لأهميته، والتي برزت باتخاذه مرحلة في تحصيل العلم، وهذا ما تلخص تحت عنوان: (الدرس العقدي)، وكان يحسن بنا قبل الدخول في موضوع الدراسة أن نتعرف ونعرف بطرفيها، وهما الشيخ ابن سعدي وتراثه العقدي، والمتن المقصود، وهو متن الواسطية، وشروحها.

أولاً: تعريف بالشيخ ابن سعدي وتراثه العقدي.

ترجمة ابن سعدي.

هو الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، الناصري التميمي، من مواليد مدينة عنيزة، من إقليم القصيم بنجد، عام ١٣٠٧هـ، وتوفي عام ١٣٧٦هـ، فهو من أعيان القرن الرابع عشر الهجري، وله عناية بعلم العقيدة والتفسير والفقه والأصول، تتلمذ على علماء بلده وما جاورها، ولم يكن له رحلة خارجها، لكن استعاض عنها بلقاء علماء الأقطار الذين وردوا بلده، أو بمراسلة آخرين حول بعض المسائل والمصنفات، وبالانكفاء حيناً على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وانتفع من ذلك نفعاً عجيباً، ومن أشهر كتب الشيخ ابن سعدي تفسيره: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، وكتاب: منهج السالكين، ومنظومة في القواعد الفقهية، ومن أبرز كتبِه التي ظهرَ فيها تعلقُه بتراث الشيخين كتابُ: طريق الوصول إلى العلم المأمول، وضمَّنه أكثر من ألف خلاصة ولطيفة من كتبهما، وأصله عن كتاب لابن تيمية فقده، وهو كتاب: (قواعد الاستقامة)، ثم زاد عليه؛ وتعددت كتبه حتى بلغت

ما يقارب أربعين مصنفاً، ومع الرسائل تزيد على تسعين مصنفاً ورسالة[1].

تراثه العقدي:

الشيخ ابن سعدي هو مِن أبرز مَن تأثر بمدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، فهو على معتقد أهل السنة والجماعة، وسعى في نشر عقيدتهم، والدفاع عنها، وقد ظهر ذلك جلياً في كتبه، ومما يعنينا منها كتبه في العقيدة، التي تدور بين التأصيل، والشرح، والردود، ومن أشهرها ما يلي:

١- التنبيهات اللطيفة، شرح العقيدة الواسطية، وهو موضع الدراسة.[2].

٢- توضيح الكافية الشافية -شرح القصيدة النونية، لابن القيم.

٣- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية.

٤- الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، لابن تيمية.

٥- القول السديد في مقاصد التوحيد، تعليق على كتاب الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

٦- الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

٧- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

٨- الأدلة القواطع و البراهين في إبطال أصول الملحدين، ألفه عام ١٣٧٢هـ.

٩- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.

١٠- سؤال وجواب في أهم المهمات.

---

(١) انظر: الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، وجهوده في توضيح العقيدة، ص٣٥- ٣٨، ٢٦؛ ومجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار الميمان، ١/ ١٧٧.

(٢) وربما حملت بعض المخطوطات اسماً آخر: (رسائل متفرقة في الإيمان)، انظر: مجموع مؤلفات السعدي، دار الميمان، ١/ ٢٥٨.

ثانياً: العقيدة الواسطية وشروحها:

الواسطية إحدى رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ)، وهي رسالة صغيرة كتبها عام ٦٩٨هـ، جواباً على سؤال ورد إليه من أحد قضاة واسط، وهو (رضي الدين الواسطي)، وواسط أحد بلدان العراق، قرب الكوفة، طلب فيها من الشيخ أن يكتب له عقيدة أهل السنة والجماعة، فأجابه، وذكر عقيدتهم باختصار، من خلال (١٢) فصلاً، قرر فيها منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال والتلقي، وتطبيقهم له من خلال مسائل الاعتقاد، وأطال في أولها حول أسماء الله وصفاته، ثم تطرق لأركان الإيمان، وخاصة اليوم الآخر والقدر، ثم تطرق لمسائل أخرى: كالإيمان، والصحابة، والإمامة[١].

انتشرت هذه الرسالة، وجرى لابن تيمية بسببها أذىً من مخالفيه، ممن تأثروا بعلم الكلام، وحاكموه لذلك، وجرى من ذلك بينه وبينهم، تحدث عنها شيخ الإسلام في رسالةٍ موجودة في مجموع فتاويه ورسائله[٢].

شروح الواسطية:

شرحت الواسطية عدة شروح وحواشٍ[٣]، يمكن تصنيفها ما بين: شرح

---

(١) نص السعدي على هذا، انظر: التنبيهات اللطيفة، ص١٧- ١٨، والإيمان بالملائكة لم يرد ذكر لأي مسألة حوله.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ٣/ ١٢٩-١٦٠، ومناظرة الواسطية من ص١٦٠- ١٩٤، من نفس المرجع، وحول متن الواسطية وسببها واسمها وموضوعاتها ونسخها وشروحاتها انظر مقدمة: العقيدة الواسطية، ت. أشرف عبدالمقصود، ص٧- ٤٢.

(٣) خُدمت الواسطية نظماً، ومن ذلك منظومة الشيخ عبدالعزيز بن عدوان، من أهل الوشم، نقل منها الشيخ ابن مانع، انظر: حاشية العلامة الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع على العقيدة الواسطية، ت. أشرف عبدالمقصود، ص١٦، وحققها د. علي الشبل، في بحث منشور بمجلة الحكمة، عدد

مختصر، ومنه ما يسمى تقريرات وتعليقات؛ وشرح متوسط؛ ومطول، وأقتصر هنا على الشراح ممن هم في طبقة الشيخ، أو شيوخه، أو تلاميذه، وخاصة من شرحه مطبوع[1]، وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، والشراح هم كما يلي:

١ - شيخه الشيخ محمد بن عبدالعزيزِ بن مانع، ت/ ١٣٨٥هـ، - مختصر.

٢- الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، ت/ ١٣٧٦هـ - مختصر، وهو الشرح المقصود بالدراسة، وله عدة طبعات، اعتمدت في الإحالة منها على طبعة دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى عام ١٤٣١ه، ومع تميزها بتأخرها عن نشرات الدور الأخرى؛ أنها حظيت بتحقيق، وتصحيح ومقابلة على نسخة المؤلف، من قبل تلميذ الشيخ: محمد بن سليمان البسام، وهذه الطبعة هي المعتمدة من أبناء الشيخ ابن سعدي.

٣- الشيخ عبدالعزيز بن باز، ت/ ١٤٢٠هـ، مختصر[2].

٤٠، ص١٩- ٦٤؛ وانظر: العقيدة الواسطية، ص٣٦، ت. أشرف عبدالمقصود، ص٣٦؛ وكذلك نظمها أبو المساكين المغربي المراكشي، انظر: خزانة الكتب - كتب التوحيد والعقيدة، ص٥٣.

(١) يوجد شروح صوتية كثيرة، وربما متعددة لشارح واحد، وأخرى على شكل مسودات ومذكرات، ومما ذكر من الشروح القديمة: شرح للشيخ ابن عيسى، ولم أقف له على أثر، وانظر: التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، الخضير، ص٢٤.

(٢) اشتهر هذا التعليق للشيخ ابن باز بطباعته مع التنبيهات اللطيفة، لابن سعدي، كما في طبعة دار الشبل، وطبعة دار طيبة (الإفتاء)، وطبعة دار ابن الجوزي، بتحقيق الشيخ محمد بن سليمان البسام، وطبعة دار ابن القيم، بتحقيق علي حسن الحلبي، وربما أوحى صنيع المحققين التلازم بينهما، وأن تعليقات الشيخ ابن باز كانت على التنبيهات اللطيفة؛ لكن لا علاقة للجمع بينهما من جهة النشأة ابتداءً، فلم يكن تعليق ابن باز على التنبيهات ذاتها، وإنما على متن الواسطية، كما ظهر من مقدمة تلميذيه: عبدالرحمن بن رويشد، وسليمان بن حماد، في الطبعة الأولى للكتاب، والتي

٤- الشيخ فيصل بن مبارك، ت/ ١٣٧٦هـ (التعليقات السنية) - متوسط .

٥- الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ت/ ١٣٨٩هـ - مطول.

٦- الشيخ عبدالعزيز بن ناصرِ بن رشيد، ت/ ١٤٠٨هـ (التنبيهات السنية) - مطول.

٧- الشيخ محمد بن خليل بن هرَّاس، ت/ ١٤١٥هـ (الثمار الشهية) - متوسط.

٨- الشيخ زيد بن فيَّاض، ت/ ١٤١٦هـ (الروضة الندية) - مطول.

٩- الشيخ عبدالعزيزِ بن محمد السَّلمان، (أسئلة وشرح) - مطول.

١٠- الشيخ محمد بن عثيمين، ت/ ١٤٢١هـ (شرحان) متوسط ومطول.

صدرت من دار الشبل، ثم من دار طيبة، بإشراف دار الإفتاء بالرياض، والتي كان يرأسها الشيخ ابن باز، فقد انتخبا بعض تقريرات شيخهما ابن باز حين كان يدرسهما في المعهد العلمي بالرياض، وأضافا هذه التعليقات على طبعة التنبيهات اللطيفة؛ ثم زاد الارتباط بين الشرحين في الطبعة الثانية، حيث حظيت بمراجعة وإقرار الشيخ ابن باز للطبعة الأولى، مع إضافة زيادات وتصحيحات، انظر التنبيهات اللطيفة، ص٣- ١١، طبعة دار طيبة؛ لكن لما يتضح لي بعد موضع وسبب الزيادات والتصحيحات، علماً أن تعليقات الشيخ ابن باز طبعت -أيضا- مع حاشية الشيخ ابن مانع، باجتهاد من المحقق، أشرف عبدالمقصود، انظر: حاشية العلامة الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع على العقيدة الواسطية، ص٨؛ وهذا مما يرجح عدم الارتباط بين التنبيهات اللطيفة، وتعليقات الشيخ ابن باز - رحم الله الجميع -.

المبحث الأول/ شرح (التنبهات اللطيفة): منهجه ومزاياه

* المطلب الأول: منهج الشارح في (التنبيهات اللطيفة).
* المطلب الثاني: مزايا شرح (التنبيهات اللطيفة).

المطلب الأول: منهج الشارح في (التنبيهات اللطيفة)

رسم الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله منهجاً لشرحه الذي وسمه بتنبيهات لطيفة، كما وصف المتن المشروح، بأنه يحتوي على مباحث منيفة، واستهل ابن سعدي شرحه بدعاء الله أن يكون لطيفاً نافعاً، وذكر منهجه في مقدمته، فقال عن الواسطية: (وهي وإن كانت واضحة المعاني محكمة المباني - تحتاج إلى تعليق يزيد في توضيح بعض ما فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتبين وجه دلالتها على المقصود، وبيان وجه ارتباط بعض المسائل ببعض، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد، والإشارة إلى بعض آثارها، وفوائدها في القلوب والأخلاق، والتنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه، وأرجو الله أن يكون هذا التَعليق على هذا الوصف، وأن يكون خالصا لوجهه الكريم مقربا إليه نافعا، سهلا في ألفاظه ومعانيه[1]).

إذن يمكن تلخيص عمل الشارح في النقاط التالية:

١- دلالة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أصول الاعتقاد.

٢- بيان الترابط بين المسائل، وجمع ما يحتاج إلى جمعه في موضع واحد.

٣- الإشارة إلى بعض آثار مسائل الكتاب وفوائدها في القلوب والأخلاق.

٤- التنبيه لكل ما يحتاج إلى التنبيه عليه.

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص١٣.

وسيكون من المستحسن أن أستعرض في هذا المطلب تطبيقات الشارح لهذه الجوانب الأربعة، ومدى تحققها، لتكون مدخلاً لما أبرزه هذا التطبيق، في تحقيق مقاصد المتن والشرح، وهذا يتضح في النقاط التالية:

أولاً: دلالة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أصول الاعتقاد

جاء متن العقيدة الواسطية مشحوناً بالأدلة النقلية، توافقاً مع منهج أهل السنة والجماعة في بناء مسائل الإيمان، وهذا التوافق امتداد لمكانة القرآن وعموم الكتب التي أنزلت على الرسل، فقد جاءت الرسل بكمال التنزيه لله، كما في قوله سبحانه: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) ﴾ الصافات ١٨٠، ١٨١]، علق الشيخ ابن سعدي مبرزاً سر التسليم للرسل بأنه يوصل لغاية يرضاها الله، وختم بها الآيات، فقال تعالى: ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات١٨٢]؛ فالرسل حققوا هذه الغاية، يقول ابن سعدي: (لدلالة الحمد على الكمال المطلق من جميع الوجوه)[١]؛ ولذا يلزم التسليم والإذعان لما نزل على الرسل في الكتب السماوية، فـ(الإيمان بالكتب وخصوصا القرآن يقتضي أن يؤمن العبد بكل ألفاظها ومعانيها، وما دلت عليه من العقائد والمعاني الجليلة، فمن لم يؤمن بجميع ذلك فلن يتم إيمانه)[٢].

جاء الشارح في شرحه ليبرز هذا الجانب، ومما يشير إليه بهذا الخصوص ما يلي:

١ - تطابق كلام الله وكلام رسله في العقائد، والإيمان لا يتم إلا بالتسليم لهما.

يؤكد الشيخ ابن سعدي على هذا المعنى بلفظ أوضح، فيقول: (وحكم السنة حكم القرآن- في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل، فإن السنة توضح القرآن

(١) التنبيهات اللطيفة، ص٢٤.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٧٨، ٨٣.

وتبيـن مجمله وتقيد مطلقه، قـال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النســاء: ١١٣])[١]، وفي مقـام آخـر يكرر هـذا الجانب المهم، فيقـول: (وهذا برهان على أن كلام الله وكلام رسوله يوصل إلى أعلى درجات العلم واليقين، ...، لا سـيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها)[٢]، والشارح يشير إلى أن شيخ الإسلام ابن تيمية بنى مصنفه على هذا الأصل العظيم إجمالاً وتفصيلاً[٣].

٢- أصول الاعتقاد أدلتها من القرآن والسنة متكاثرة، لا يمكن حصرها.

يقرر الشيخ السـعدي تكاثر الأدلة النقلية على أصول الاعتقاد في مواضع متعددة، فيقـول مثـلاً عنـد صفة العلـم: (وتثبت النصـوص أيضـا أن الله أثبت علمـه بالكائنات والموجـودات دقيقها وجليلها باللـوح المحفوظ في نصوص لا يمكـن إحصاؤها)[٤]، والشـيخ لا يحصر هـذا التكاثر على تعدد أفراد الأدلة، بل ينـوه على تنوع دلالاتها على مسائل الاعتقاد[٥]، وهذا مما يقوي حجة الاستدلال بهما.

وفي باب الصفات إجمالاً يقول -رحمه الله-: (ونصوص الكتاب والسنة التي يتعذر إحصاؤها كلها تشترك في دلالتها على هذا الأصل وهو: إثبات الصفات على وجـه الكمال الذي لا يشـبهه كمال أحد، ...، فكلام الله ورسـوله في غاية الوضوح والبيان وفي غاية الصدق، ... لا سيما في هذا الباب الذي هو أصل الأصول كلها)[٦].

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص٥٤.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٢٤.

(٣) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص٢١.

(٤) التنبيهات اللطيفة، ص٩١.

(٥) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص١٠٠.

(٦) التنبيهات اللطيفة، ص٢٣- ٢٤.

ويؤكد الشيخ ابن سعدي ما سبق بدليل إجماع سلف الأمة على مسألة عقدية بما يوافق نصوص الكتاب والسنة، أو بتواتر النقل عنهم فيها بما فيهما[1]؛ وهذا مما يرسخ اعتمادهم دلالة القرآن والسنة في هذا الباب.

٣- أن نصوص الاعتقاد متوافقة مع دلالة العقل والإجماع والفطرة والحس والضرورة.

يقرر ابن سعدي أن دلالة القرآن والسنة مع كثرتها، وكفايتها، أنها متوافقة مع دلالة الأدلة الأخرى، ولا تعارض بينها، ويقرر ذلك إجمالاً وتفصيلاً، فيقول -مثلاً- عند صفة العلو: (الفطرة والعقول معترفة بل ومضطرة إلى الإيمان بعلو الله، إلا من غيرت فطرته العقائد الباطلة)[2]، ويقول عن اليوم الآخر: (واعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل وواقع بالسمع، فإن الله نبه العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من الكتاب، وذكر بما هو مستقر في العقول الصحيحة من أنه لا يليق بحكمة الله وحمده أن يترك الناس سدى، أو أن يكونوا خلقوا عبثاً، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون، وأن العقول الصحيحة تنكر ذلك أشد الإنكار، وهذا شيء مشاهد محسوس متناقل بين الناس بالتواتر الذي لا يقبل الشك، ولا يزال الله يري عباده من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق لأولي العقول والألباب)[3].

ونرى الشيخ ابن سعدي يؤكد على دلالة الأدلة الأخرى، كالحس والضرورة العقلية، لما لها من دفع الشك في الأدلة النقلية، فيقول في وقوع الفعل من العبد باختياره: (وفعله المذكور بلا ريب واقع باختياره، وهو يحس ضرورة أنه غير

(١) التنبيهات اللطيفة، ص١٠٠- ١٠٩.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٧٨.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص٨٦- ٩٢.

مجبور على الفعل، أو الترك)[1].

٤- سياق الآيات وعلاقته بالمعنى، وتضمنه.

من الضوابط التي ينوه عليها الشيخ ابن سعدي لفهم دلالة القرآن والسنة مراعاة سياق الآيات عند تحديد المراد بها في مسائل الاعتقاد، وكذلك في غيرها، فيقول مثلاً في تحديد نوع المعية: (وإذا أردت أن تعرف هل المراد المعية العامة أو الخاصة، فانظر إلى سياق الآيات)[2]، كما أن السياق والنص قد يتضمن ما يقوي الاستدلال، وخاصة إذا وجد تأملاً، وذهناً لماحاً لدى المستدل، ونجد الشيخ يطبق ذلك بتنبيهاته اللطيفة، فيقول - رحمه الله - تعليقاً على حديث الجارية: (وفي شهادة الرسول بالإيمان للجارية التي اعترفت بعلو الله ورسالة رسوله دليل على أن من أعظم أوصاف الباري الاعتراف بعلوه على خلقه ومباينته لهم، وأنه على العرش استوى، وأن هذا أصل الإيمان، وأن من أنكر علو الله المطلق من كل وجه فقد حرم هذا الإيمان)[3].

ثانياً: بيان الترابط بين الأصول والمسائل، وجمع المتشابه في موضع واحد.

اللجوء إلى التأكيد على ترابط مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، والسعي لإبراز ذلك بجمعها -أحياناً- في موضع واحد؛ إنما هو بسبب اتحاد المصدر وإحكامه، وسلامة نقله إلينا، وبما أن صاحب المتن وهو شيخ الإسلام ابن تيمية بنى عقيدته على ذلك، فنجد الشارح ابن سعدي يجلي الجانب فيقول: (لما ذكر طريقة أهل السنة في مسائل الأصول المعينة، ذكر طريقهم الكلي في أخذ دينهم أصوله وفروعه،

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص٩٣.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٥٠.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص٦٣.

وأنهم سلكوا في ذلك الصراط المستقيم، والعصمة النافعة للكتاب والسنة، واتبعوا أعظم الناس معرفة وعلما واتباعا للكتاب والسنة، وهم الصحابة رضي الله عنهم عمومًا، والخلفاء الراشدون خصوصًا، فسلكوا إلى الله ذلك الطريق مستصحبين هذه الأصول الجليلة، وما جاءهم مما قاله الناس أو ذهبوا إليه من المقالات وزنوه بمعيار الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة؛ فاستقامت طريقتهم، وسلموا من بدع الأقوال المخالفة لما عليه الرسول وأصحابه في الاعتقادات، كما سلموا من بدع الأعمال، فلم يتعبدوا ولم يشرعوا إلا ما شرعه الله ورسوله)[1].

ويمكن أن يبرز جهد الشيخ ابن سعدي حول هذا المعنى من أكثر من وجه، ومن ذلك ما يلي:

الوجه الأول: الاستفادة من القواعد الأصولية في الاستدلال العقدي.

من أسباب الترابط والتناسق بين المسائل العقدية عند أهل السنة حسن استدلاهم الأصولي، ومن ذلك قول الشيخ ابن سعدي -رحمه الله-: (الأحكام الأصولية والفروعية تدور مع أسبابها وعللها)[2]، وكذلك ما قعدوه في أبواب الاعتقاد، كقولهم: (الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات)[3]، وينوه الشيخ إلى أن هذا وجد ابتداء من الصحابة y، فتبعهم عليه أهل السنة، (فسلكوا إلى الله ذلك الطريق مستصحبين هذه الأصول الجليلة، وما جاءهم مما قاله الناس، أو ذهبوا إليه من المقالات وزنوه بمعيار الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة؛ فاستقامت طريقتهم، وسلموا من بدع الأقوال المخالفة لما عليه الرسول وأصحابه

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص١٢٠= ١٢١، وانظر: ص٥٩- ٦٤.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص١٠١.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص٥٧.

في الاعتقادات، كما سلموا من بدع الأعمال)[1]، واتباع أهل السنة لنهجهم لكونهم أعظم الناس معرفة وعلماً، واتباعاً للكتاب والسنة، وحصل لهم من براهين الحق وطرقه ما لم يحصل لغيرهم، فهم سبقوا إلى الإيمان، وذلك من دواعي محبتهم، وسلامة القلب من الغل عليهم[2].

ومن حسن منهج أهل السنة رعايتهم لباب المصالح والمفاسد، فهم (يسلكون أقرب طريق يحصل به المقصود بالرفق والسهولة، متقربين بنصيحة الخلق إلى الله، قاصدين نفع الخلق وإيصالهم إلى كل خير وكفهم عن كل شر، ساعين في ذلك حسب وسعهم؛ وذلك لأن غرضهم الوحيد تحصيل المصالح وتكملتها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فلا يمتنعون من إعانة الظالم على الخير وترغيبه فيه، قولاً وفعلاً، فيشاركون الولاة الظلمة في الخير، ويفارقونهم في الشر، ويحرصون على الاتفاق، وينهون عن الافتراق)[3].

الوجه الثاني: الترابط والتلازم في الإيمان بين تفاصيل مسائل الاعتقاد.

عند تعليق الشيخ ابن سعدي على الإيمان بالقدر، ومراتبه الأربع، يقرر أنه لا يتم الإيمان إلا بتحقيق الإيمان بمراتبه الأربع المعروفة مجتمعة؛ فيقول -رحمه الله-: (وقد ارتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا، لا ينفصم إلا بالانحراف إلى الأقوال المنحرفة)[4]؛ ونرى الشيخ يبرز مثل هذا الترابط عند تعليقه -أيضاً- على صفات الله التي استفاضت الدلالات عليها في النصوص، وحصل الخلاف فيها

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص١٢٠ - ١٢١.

(٢) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص١٠٤.

(٣) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص١٢٢.

(٤) التنبيهات اللطيفة، ص٩١.

مع المخالفين، كلزوم التفريق بين صفتي المشيئة والإرادة وصفة المحبة، وأن هذا من الأصول الثابتة المتفق عليها بين السلف[1]، وكذلك إثبات العلو وصفتي المعية والنزول، وأنها من الأصول الثابتة[2]، وهذا الثبات في المسائل مرتبط بثبات الأصول والأدلة.

الوجه الثالث: أن الصفات ترجع إلى قسمين، وهي تدور على اسمي (الحي القيوم).

كما يشير ابن سعدي إلى ترابط الأصول المتفق عليها بين السلف، فنجده يطبق ذلك على المسائل، فيذكر (أن صفات الباري قسمان: صفات ذاتية: لا تنفك عنها الذات كصفة الحياة، والعلم، ...، وصفات فعلية: تتعلق بها أفعاله في كل وقت وآن وزمان، ...، وقد دل على هذا الأصل الكبير ما في هذه النصوص من ذكر قال ويقول، وسمع ويسمع، وكلم ويكلم، ...، ونحوها من الأفعال المتنوعة التي تقع مقيدة بأوقاتها، كما سمعت في هذه النصوص المذكورة آنفًا، وهذا من أكبر الأصول وأعظمها)[3]، فتنوع ألفاظ الصفة كما أنه يؤكد ثبوتها فهو معيار لتنوعها: فعلية أم ذاتية.

كما يشير من وجه آخر إلى مكانة آية الكرسي، لاحتوائها لاسمين عظيمين، وينوه (بدلالة الحي على الصفات الذاتية والقيوم على الصفات الفعلية، والصفات كلها ترجع إليهما)[4]، كما أن الصفات يتفرع بعضها من بعض، فالضحك والفرح

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص٤٤- ٤٥.

(٢) انظر التنبيهات اللطيفة، ص٤٦، ٤٩، ٥٥.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص٤٣- ٤٤.

(٤) التنبيهات اللطيفة، ص٣٠.

غايتهما وسببهما الرحمة والإحسان، وتمام النعمة بدخول الجنان، كما في حديث الرجلين: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة»[1]، لكنه: (فرح لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته)[2].

ثالثاً: الإشارة إلى بعض آثار مسائل الكتاب وفوائدها في القلوب والأخلاق.

مما يميز شرح الشيخ ابن سعدي هو عنايته بجانب الإيمان والأخلاق، وتنبيهه اللطيف إلى بعض مقاصد الشريعة وأسرارها، ومن ذلك ما يلي:

الميزة الأولى: التسليم للقرآن والسنة ينفي الشك عند المؤمن.

الاقتصار على الكتاب والسنة كاف لغليل قلب المؤمن، وما سبق من بيان دلالتهما على أصول الاعتقاد يوضح جهد الشيخ في بيان متانة أدلة العقيدة، ودلالاتها، من خلال منهج أهل السنة والجماعة، ومن ذلك أن الشيخ ابن سعدي بعد أن رتب دلالات النصوص على مراتب القدر الأربعة؛ قال -رحمه الله-: (وبهذا ينحل عن العبد الإشكال، ويتسع قلبه للجمع بين إثبات عموم مشيئته وقدرته وشمولهما لأفعال العباد مع وقوعها شرعًا وحسًّا وعقـلا باختيارهم)[3]، ونجده يفصل هذا في موضع آخر، فيقول: (فإذا أردت أن تعرف أنها كذلك واقعة منهم، واعترض معترض، وقال: كيف تكون داخلة في القدر وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها، فهي بقدرتهم وإرادتهم، وهذا يعترف به كل أحد، ويقال أيضا: إن الله خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم. والجواب كذلك يعترف به كل أحد، وأن الله هو الذي خلق

---

(١) البخاري، ح/ ٢٦٧١، ومسلم، ح/ ١٨٩٠.

(٢) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص٥٧.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص٩٢.

قدرتهم وإرادتهم وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال كما أنه الخالق للأفعال، وهذا هو الذي يحل الإشكال ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار)[1].

الميزة الثانية: الأخذ بعقيدة أهل السنة أخذًا بالدين كله، ومن بركاته النصر والتمكين.

يؤكد الشيخ ابن سعدي أن الاستقامة على المعتقد الحق يثمر لأهله الطمأنينة وحسن العاقبة[2]، وكذلك العزة والنصر، وأنه (إنما حصل لهم ببركة هذه العقيدة، والعملِ بها، وتحقيقُها بالقيام بجميع أمور الدين، وأصلُها الذي تبنى عليه: هو الإيمان بهذه الأصول الستة، التي صرح بها الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، جملة وتفصيلاً، وتأصيلاً وتفريعاً، وهي المذكورة في حديث جبريل المشهور)[3].

ويجلي الشيخ هذا الجانب بوضوح عند تعليقه المنيف على أصل الإيمان السادس، فيقول -رحمه الله-: (فإيمانهم بعموم القدر يوجب لهم الاستعانة التامة بربهم؛ لعلمهم أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن له في عباده المؤمنين ألطافاً وتيسيراً، لا يناله أحد منهم إلا بقوة الإيمان والتوكل، وأوجب لهم إيمانُهم بالشرع، والأمر، والنهي، والأسباب، وأنها مرتبطة بمسبباتها شرعًا قدرًا، الجدَّ والاجتهادَ في فعل الأسباب النافعة، وبذلك تعرف أن الإيمان الصحيح سبب لكل خير)[4].

---

(١) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص٢٦، ٩٣.

(٢) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص٩٥، ١٠٢.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص١٧ - ١٨.

(٤) التنبيهات اللطيفة، ص٩٤- ٩٥.

الميزة الثالثة: التعرف على الله بأسمائه وصفاته والتوسل بها من دواعي قبول الدعاء.

يؤكد الشيخ ابن سعدي أن العبد كلما كان عارفاً بأسمائه وصفاته وأفعاله كان رجاؤه أعظم، وكان توسله بذلك أرجى لقبول دعائه، يقول الشيخ معلقاً على حديث الرقية: « ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ»[1]؛ يقول ابن سعدي -رحمه الله-: (فهذه الوسائل المتنوعة لا يكاد يرد دعاء من توسل بها؛ فلهذا دعا اللهَ بعدها بالشفاء الذي لا يدع مرضا إلا أزاله)[2].

الميزة الرابعة: من كمال الإيمان الجمع بين العقائد والأخلاق.

يقرر الشيخ ابن سعدي حسن عاقبة أهل السنة والجماعة، بسبب لزومهم الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وأنه: (بلزومهم لهذا الطريق النافع تمت لهم النعمة، وصحت عقائدهم، وكملت أخلاقهم، أما من سلك غير هذا السبيل فإنه منحرف في عقيدته وأخلاقه وآدابه)[3].

وكذا يفصل الشيخ ما قرره إجمالاً ببيان أثر المعتقد الصحيح على حسن تعبد المسلم لربه، فيعلق على حديث: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ...» الحديث[4]؛ فيقول -رحمه الله- معلقاً: (اتفق على تلقيه بالقبول والتصديق بين

---

(١) أبو داود، ح/ ٣٨٩٢.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٦٣.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص٢٦.

(٤) البخاري، ح/ ١٠٩٤، ومسلم، ح/ ٧٥٨.

أهل السنةَ والجماعة، بل بين جميع المسلمين الذين لم تغيرهم البدع، وعرفوا به عظيم رحمة ربهم، وسعة جوده، واعتنائه بعباده، وتعرضه لحوائجهم الدينية والدنيوية، وأن نزوله حقيقة كيف يشاء، فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي تثبت في الكتاب والسنة، ويقفون عند ذلك ...، فيجمعون بين الخوف والرجاء، ويعترفون بكمال نعمة الله عليهم، فتمتلئ قلوبهم من التعظيم والإيمان لربهم، ومن التصديق والإيقان)[1].

ومثل ما سبق تعليق الشارح على صفة المعية، فيقول ابن سعدي -رحمه الله-: (وأن تلزم الأدب مع الله، خصوصا إذا دخلت في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه، فتخضع وتخشع وتعلم أنك واقف بين يدي الله، فتقلل من الحركات، ولا تسيء الأدب معه بالبصاق أمامك أو عن يمينك، فهذه المعية متى حصل للعبد استحضارها في كل أحواله لا سيما عباداته فإنها أعظم عون على المراقبة التي هي أعلى مراتب الإيمان، فيجمع العبد بين الإيمان بعلو الله واستحضار قربه، ولا منافاة بين الأمرين، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله)[2].

رابعاً: التنبيه إلى ما يحتاج إليه من القواعد والضوابط واللطائف.

يلمح الشيخ ابن سعدي في ثنايا شرحه إلى قواعد وضوابط ولطائف تعين الدارس والقارئ على فهم وقبول مآخذ أهل السنة في تقرير مسائل الاعتقاد، ومن ذلك ما يلي:

١- قاعدة: الله ليس كمثله شيء.

يورد أهل السنة لكسر دعوى تأويل الصفات قاعدة مهمة، تقطع على من يدعي

(١) التنبيهات اللطيفة، ص٥٥- ٥٦.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٦٤- ٦٥، وانظر: ص٧٣.

أن إثبات الصفات يلزم منه التشبيه، وأن المثبتين للصفات الواردة مشبهة!، يقول ابن سعدي -رحمه الله- عند تقرير أن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته وصفاته؛ يقول: (وهذا الأصل ينفعك في كل ما ورد عليك من صفات الله الثابتة، فأثبتها ولا تتوقف، فإن الذي أثبتها هو الله الذي هو أعلم بنفسه، ورسوله)[1].

٢- قاعدة: النفي في الأسماء والصفات مقصود لغيره.

في معرض التأصيل والرد يورد أهل السنة هذه القاعدة: الترابط بين قاعدتي الإثبات والنفي في صفات الله، للرد على المخالفين، وبالأخص النفاة، وهي مكملة للقاعدة السابقة في الإثبات، يقول الشيخ ابن سعدي -رحمه الله-: (والنفي مقصود لغيره، والقصد منه إثبات ما لم يرد نفي شيء منه في الكتاب والسنة عن الله إلا بقصد إثبات ضده، فنفي الشريك والنديد عن الله لكمال عظمته وتفرده بالكمال؛ ونفي السِنَة والنوم والموت لكمال حياته ونفي عزوب شيء عن علمه وقدرته وحكمته، كل ذلك لإثبات سعة علمه، وتحول حكمته، وكمال قدرته؛ ولهذا كان التنزيه والنفي لأمور مجملة عامة)[2].

٣- فوائد لطيفة في فضل الصحابة، وآل البيت.

ينبه ابن سعدي إلى التفاضل بين الصحابة y بلطيفتين: إجمالية وتفصيلية، وذلك بعد ثنائه على ما جاء في الواسطية حولهم[3]، ففي الإجمالية يقول -رحمه الله-: (وقد قدم الله ذكر المهاجرين على الأنصار في سورة التوبة والحشر، وهذا التفضيل للجملة على الجملة، لا لكل فرد من هؤلاء على كل فرد من الآخرين)

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص٧٥.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٢٦.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص١١٢.

[(١)]، وفي التفصيلية يقول: (عائشة وخديجة هما أفضل نساء النبي ﷺ، وقد اختلف العلماء أيهما أفضل، والتحقيق أن لكل واحدة منهن من الفضائل والخصائص ما ليس للأخرى؛ فلخديجة من السبق ومعاونة النبي صلى الله عليه وسلم على أمره في أول الأمر وتثبيته، وكون أكثر أولاد النبي صلى الله عليه وسلم منها- ما ليس لعائشة، ولعائشة من العلم والتعليم ونفع الأمة ما ليس لخديجة، رضى الله عنهما)[(٢)].

كما ينبه على أن استقامة الصحابة وثباتهم على الدين حتى الممات من براهين صدق نبوة النبي ﷺ، لأن ثباتهم دليل على صدق شهادته لهم[(٣)].

وفي باب آل بيت رسول الله ﷺ، ينوه إلى خلو أهل السنة مما يتهمون به في هذا الباب تحت مسمى النواصب، فيقول -رحمه الله-: (وأما النواصب فهم الذين نصبوا العداوة والأذية لأهل بيت النبي ﷺ، وكان لهم وجود في صدر هذه الأمة؛ لأسباب وأمور سياسية معروفة، ومن زمن طويل ليس لهم وجود والحمد لله)[(٤)].

٤- ضابط أعمال القلوب.

يقول ابن سعدي -رحمه الله- في التفريق بين قول القلب وعمله: (وأما أعمال القلب فهي حركته التي يحبها الله ورسوله، وضابطها محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه)[(٥)].

---

(١) التنبيهات اللطيفة، ص١٠٥.

(٢) التنبيهات اللطيفة، ص١٠٩.

(٣) التنبيهات اللطيفة، ص١٠٦.

(٤) التنبيهات اللطيفة، ص١١٠.

(٥) التنبيهات اللطيفة، ص٩٧

المطلب الثاني: مزايا شرح (التنبيهات اللطيفة)

بعد استعراض تطبيقات منهج الشيخ ابن سعدي في شرحه (التنبهات اللطيفة)، أنوه بأبرز مزايا أو معالم هذا الشرح، بالنظر إليه منفرداً، من دون مقارنته بغيره، وذلك من خلال النقاط التالية:

١- الشارح لم ير أن يشغل القارئ والدارس بمقدمات المتن، كالتسمية وقصة المناظرة، وهي وإن كانت مفيدة، لكنها قد تبعد الدارس عن المقصود، وتشتت ذهنه؛ فهي ليست من مقصوده.

٢- قلة الاستطراد في الشرح، وهذا يعين على استجماع الذهن للفهم.

٣- ذكر منهج الشارح في شرحه، وذلك من خلال أربعة مطالب، ذكرها في المقدمة.

٤- استيفاء الشرح للمطالب الأربعة المذكورة في المقدمة دلالة على حسن الترتيب، وجودة العرض لدى الشارح، واستعداده للدارس والقارئ.

٥- تشويقه الدارس والقارئ بذكر مكانة المتن المشروح، فيقول ابن سعدي في مقدمته: (أما بعد: فهذا تعليق لطيف على عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية المسماة بـ (الواسطية) التي جمعت على اختصارها ووضوحها جميع ما يجب اعتقاده من أصول الإيمان وعقائده الصحيحة، ... واضحة المعاني محكمة المباني)[1].

٦- تنبيه الشارح على صحة الأدلة النقلية المذكورة في المتن، فالقرآن محل إجماع، وأما الأحاديث فهي ما بين مستفيض، وصحيح، ومتفق عليه، وحسن.

٧- التنويه على امتلاء الكتاب والسنة بأدلة الاعتقاد.

٨- التنويه إلى تنوع الأدلة، ما بين صريحة وظاهرة، وتنوع الدلالات، ما بين

(١) التنبيهات اللطيفة، ص١٣.

دلالة مطابقة وتضمن والتزام، وإبراز ذلك تطبيقاً عند المسائل.

٩- إبراز وسطية منهج أهل السنة في قبول جميع نصوص الكتاب والسنة، وعدم رد شيء منها، وتطبيق ذلك عند ذكر الاختلاف في مسائل الاعتقاد، مثل الجبرية والقدرية في مسألة القدر، (فرد كل منهما قسمًا كبيرًا من نصوص الكتاب والسنة المؤيدة للقول الصحيح)[١].

١٠- ذكره للفروق والتقاسيم للمسائل المتشابهة والمتقاربة، كمسألة الإيمان المطلق ومطلق الإيمان[٢]، وتفاضل المؤمنين في الإيمان[٣].

١١- تركيزه على تقرير وتقريب قواعد أسماء الله وصفاته.

١٢- إبداعه في تلخيص العبارات الطويلة في عبارات وافية، فيقول الشيخ ابن سعدي -رحمه الله-: (ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في أي وقت وفي أي زمن، وقد رأى الناس منها العجائب والأمور الكثيرة، ولم ينكرها إلا زنادقة الفلاسفة، وليس غريبًا عليهم، فإنه فرع عن جحودهم وإنكارهم لرب العالمين وقضائه وقدره، وقد أنكرها -أيضًا- طائفة من أهل الكلام ظنًّا منهم أن في إثباتها إبطالاً لمعجزات الأنبياء، وهذا وهم باطل، أبطله المؤلف في كتاب (النبوات) وغيره من كتبه، فأهل السنة والجماعة يعترفون بكرامات الله لأوليائه إجمالاً وتفصيلاً، ويثبتون ذلك على وجه التفصيل، كما ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم، وكما تحقق وقوعه، ولكن قد أدخل الناس في الكرامات أموراً كثيرة، اخترعوها، وافتروها، وخدعوا بها العوام والسذج من الناس، وأوهموهم بأنها من الكرامات، وليست إلا قسمًا من الخرافات والشعوذات، وأهل السنة أبعد الناس عن التصديق بالخرافات والأكاذيب

(١) التنبيهات اللطيفة، ص٩٤.
(٢) التنبيهات اللطيفة، ص١٠١.
(٣) التنبيهات اللطيفة، ص٩٨.

المفتراة، وأعرفهم بالطرق التي يتبين بها كذب الكاذبين وافتراء المفترين)[١].

١٣- تقييم الشارح لكلام صاحب العقيدة الواسطية، وثناؤه عليه في مواضع متعددة، وهو بذلك يستجلب انتباه الدارس والقارئ، فيقول عند صفة كلام الله: (ولكن المصنف ذكر في هذا الفصل كلامًا في التكلم جامعًا نافعًا مأخوذًا من الأدلة الشرعية العقلية والنقلية)[٢]، ويصف ما جاء في الواسطية حول اليوم الآخر بأنه كلام نفيس واضح جامع[٣]، وينوه على موضع آخر (القدر) بأنه ليس له نظير في (تحقيقه وتفصيله وجمعه وتوضيحه)[٤]، وفي باب خاتمة الواسطية حول الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الشارح: (وهذا كلام جامع واضح نادر، جمعه في موضع واحد، لا يحتاج إلى شرح ولا إلى مزيد من الإيضاح)[٥].

١٤- إدخال الجدال بالحق إلى الشرح، وهو جدال محمود، ليتعود الدارس على الدفاع عن الحق، والشيخ ابن سعدي لملكته الأصولية[٦] أبدع في إبراز القواعد العقدية، والدفاع عنها، ومن ذلك تقريره لمشيئة العبد واختياره لفعله، فيقول: (فإذا أردت أن تعرف أنها كذلك واقعة منهم، واعترض معترض، وقال: كيف تكون داخلة في القدر، وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها، فهي بقدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم، وهذا يعترف به كل أحد؛ ويقال أيضا: إن الله خلق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم؛

(١) التنبيهات اللطيفة، ص١١٦- ١١٧.
(٢) التنبيهات اللطيفة، ص٧٧- ٨٧.
(٣) انظر: التنبيهات اللطيفة، ص٨٦.
(٤) التنبيهات اللطيفة، ص٩١، وانظر: ٩٦.
(٥) التنبيهات اللطيفة، ص١٢٤.
(٦) سبق التنويه على هذا الجانب في المطلب الأول، ص٩.

والجواب كذلك يعترف به كل أحد، وأن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، وهو الذي خلق ما به تقع الأفعال، كما أنه الخالق للأفعال، وهذا هو الذي يحل الإشكال، ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار)[1].

١٥- التنويه بكتب عقَدية لشيخ الإسلام ابن تيمية، بسط فيها ما لخصه في العقيدة الواسطية، وذلك ليربط الدارس والقارئ بين الموضعين عند رغبته في التوسع في مسألة من مسائل الواسطية، والكتب التي نوه عليها الشارح هي كما يلي:

أ- الأفعال الاختيارية: وهو في الرد على من نفى صفات الله وأفعاله التي أوردها مختصراً في الواسطية، وقد شكلت حيزاً كبيراً من العقيدة الواسطية، وهو رسالة من سبعين صفحة تقريباً باسم: (رسالة في الصفات الاختيارية)[2].

ب- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان[3]، وهو في التفريق بين الكرامات، والحيل الشيطانية، أحال الشارح إليه عند الحديث عن الكرامات، وأن من شروطها ولاية الله واقتفاء هدي نبيهﷺ.

ج- النبوات: وهو في بيان طرق إثبات النبوة، والمعجزة، والكرامة، والفرق بينها وبين خوارق العادات، وأورده الشارح في نفس الموضع السابق من الواسطية، عند الرد على من أنكر كرامات الأولياء، بدعوى أن إثباتها معارض ومبطل لمعجزات الأنبياء.

١٦- تنويه الشيخ ابن سعدي إلى كتب أهل السنة المبسوطة حول مسائل الواسطية، وهذا برز في المواضع التالية:

---

(١) التنبيهات اللطيفة ص ٩٣.

(٢) انظر: جامع الرسائل، ابن تيمية، ٢/ ١- ٧٠.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١١/ ١٥٦- ٣١٠.

العلو.

اليوم الآخر.

١٧- لم ينص الشارح على مصادره في شرحه، ولكن يظهر أن الشيخ ابن سعدي اعتمد على العقيدة الواسطية نفسها، وعلى كتب ابن تيمية التي نوه عليها بالشرح، وإن كان لم ينقل نصوصاً منها، إلا أنه ولا بد استفاد من قراءاته وتلخيصاته بنفسه لتلك الكتب، وربما تعليقاته على غيرها كما في قصيدة في القدر، وقريب من ذلك عنايته وشرحه لمنظومة الكافية الشافية، لابن القيم.

المبحث الثاني / مقارنة (التنبيهات اللطيفة) بالشروح الأخرى.

* المطلب الأول: مقارنة (التنبيهات اللطيفة) بشروح ابن سعدي الأخرى.
* المطلب الثاني: مقارنة (التنبيهات اللطيفة) بشروح الواسطية الأخرى.

المطلب الأول

مقارنة (التنبيهات اللطيفة) بشروح ابن سعدي الأخرى.

بعد أن تعرفنا على منهج الشيخ ابن سعدي في شرحه (التنبيهات اللطيفة)، الذي ألفه عام ١٣٦٩هـ[1]، فيحسن بنا أن ننظر إلى منهج الشيخ في شروحه الأخرى، ويعنينا منها الشروح العقدية، أو ما كان قريباً من موضوع الواسطية، فسأعرض عن ذكر كتب الردود مثلاً، لأن المقصود يتضح باستعراض المصنفات المتشابهة في موضوعاتها، وهذا يتضح في الكتب التالية.

<u>الكتاب الأول</u>: توضيح: الكافية الشافية، في الانتصار للفرقة الناجية (منظومة لابن القيم، المعروفة بالنونية)، ألفه الشيخ ابن سعدي بتاريخ ١٠/ ٦/ ١٣٦٧هـ، ويمكننا حول هذا الشرح والتوضيح أن نشير إلى ما يلي:

أ- أثنى ابن سعدي في مقدمة توضيحه على كتاب منظومة الكافية الشافية (النونية)، التي بلغت (٥٨٤٢) بيتاً[2]، فأثنى على الكتاب باستيفائه للأصول والقواعد، واكتنازه بالفوائد والفرائد في أبواب العقائد.

---

(١) التنبيهات اللطيفة ص١٣٥، حيث يقول - رحمه الله -: (وتم الفراغ منه في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٦٩ هجرية).

(٢) انظر: الكافية الشافية، في الانتصار للفرقة الناجية، ٣/ ١٠٦٠، والعدد ربما اختلف فيه باختلاف مخطوطات الكتاب.

ب- لما رأى الشيخ تناثر مسائل القصيدة واشتباهها، مما يصعب معه الانتفاع منها للدارس؛ فلم يرغب بشرحها شرحاً كالشروح المعتادة، يلزم منه البسط والتطويل، بل رغب الشيخ تقريبها وتوضيحها، بتحويلها إلى نثر مبسط، فلجأ إلى كل فصل منها فأعاد صياغته (من غير زيادة على ما دل عليه، إلا إذا اقتضت الحال الزيادة، أو كان المعنى يتوقف عليها)[1]، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في ترتيب الأدلة النقلية (٢١ دليلا)، التي أوردها الناظم على إثبات صفة الفوقية، واستواء الله على عرشه[2].

ج- ترك الشيخ ابن سعدي آخر المنظومة النونية من غير توضيح وتعليق، وكانت حول نعيم الجنة، محيلاً إلى كتاب حادي الأرواح، للناظم نفسه، كالشرح لها؛ معتذراً بكونها: (واضحة المعاني، قراءتها تفسيرها)[3].

د- هدف الشيخ ابن سعدي من طريقته إلى تحقيق مقاصد الناظم، بأسلوب سهل منثور، يغني عن الأصل وشروحه، لجمعه البراهين والردود النقلية والعقلية، وجعل للقارئ أن يختبر هذا الهدف ومدى تحققه، فقال: (ومتى أردت معرفة مقداره فتأمل كل فصل من فصول الكافية، واستعن عليه بما يقابله من هذا التعليق يحصل لك المقصود، وتحظى بالمطلوب)[4].

---

(١) توضيح الكافية الشافية، ص٣.

(٢) توضيح الكافية الشافية، ص٦١، وانظر: ص٣٣، حول تصنيف اختلاف أقوال الناس في القرآن.

(٣) توضيح الكافية الشافية، ص١٧٠، وأشار فضيلة الشيخ عبدالكريم الخضير إلى اختصار الشيخ في توضيحه، وانتقائه، ودقته وتميزه، وأهميته مع اختصاره، انظر: نور على الدرب، (٧٢)، ٢/ ٣/ ١٤٣٣هـ.

(٤) توضيح الكافية الشافية ص٤.

مما سبق يتبين أن هذا الكتاب (توضيح الكافية الشافية)، أوسع وأطول من كتاب (التنبيهات اللطيفة)، بسبب اختلاف المتن المشروح، كما أن الشيخ في التنبيهات اعتني بالتأصيل والتقعيد، مكتفياً بسهولة متنه، من حيث مسائله وألفاظه، وطريقة عرضه، بينما اكتفى في توضيح الكافية بتقريب النظم لصعوبة ألفاظه، وكثرة مسائله، كما أن الشيخ راعى في عمله مستوى الكتابين للدراسين، فالواسطية للمبتدئين، بينما الكافية للمتقدمين.

الكتاب الثاني: الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، ويمكن أن أنبه حول هذا الكتاب إلى ما يلي:

أ- أن الشيخ السعدي ألف هذا الكتاب بتاريخ ٣/ ٤/ ١٣٦٧هـ، أي قبل الكتاب السابق (توضيح الكافية الشافية) بشهرين، وأنه أصل له، وبداية فكرته.

ب- كتاب (الحق الواضح المبين) شرح لجزء من القصيدة النونية السابقة، واختصره ابن سعدي من أصل مطول، كما ذكر في مقدمته، ولم أجد من نوه على وجود الأصل.

ج- ابتدأ الشارح الكتاب من فصل (في أقسام التوحيد، والفرق بين توحيد المرسلين، وتوحيد النفاة المعطلين)، وختمه بذكر (النوع الثاني من توحيد المرسلين، المخالف لتوحيد المعطلين)[1]، ويعني به توحيد العبادة، وتضمن هذا الجزء شرح أسماء الله الحسنى، واستغرق غالبه.

د- أن (توضيح الكافية الشافية) كله نثر، أما (الحق الواضح المبين) فيخلط فيه بين النظم والنثر (الشرح).

---

(١) توضيح الكافية الشافية، ص١١٣ - ١٣٥، وانظر: الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ط٢، ١٤٠٧هـ، دار ابن القيم - الدمام.

مما سبق يتبين أن الكلام على هذا الكتاب قريب عن فرعه السابق، وإن كان ثم تشابه بينه وبين (التنبيهات اللطيفة) فهو في التركيز على أدلة الأسماء والصفات في المتنين، وفي التنبيهات اللطيفة تعليق دون ذلك في بقية مسائل الإيمان، تبعا لأصله، لكن الشيخ في التنبهات في الجانب الأول اعتنى بالتقعيد، والاستدلال، والآثار.

الكتاب الثالث: القول السديد في مقاصد التوحيد، وهو تعليق على موضوعات كتاب التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، ويمكن التنبيه حوله إلى ما يلي:

أ- تضمن الكتاب في طبعته الثانية إضافة من المؤلف، حيث كتب في أوله (مقدمة مختصرة، تحتوي على مجملات عقائد أهل السنة، في الأصول وتوابعها)[١]، وهذه المقدمة تصلح للمقارنة مع (التنبيهات اللطيفة)، فالتنبيهات إن كانت كتبت تبعاً للمتن، فهذه المقدمة كتبت استقلالا، وهي على اختصارها أشمل في موضوعاتها، ومتوازنة في تغطيتها لها، مع خلوها من ذكر الفرق والطوائف المخالفة، فهي تصلح للعوام؛ بينما التنبيهات وإن ركزت على باب الأسماء والصفات إلا أنها اعتنت بالتقعيد والتأصيل في أدلة الاعتقاد، والتنويه على وسطية أهل السنة بين مخالفيهم، وتناسب طالب العلم المبتدئ.

ب- أثنى السعدي على كتاب التوحيد، وحسن تبويبه وترتيبه، وذلك في مواضع كثيرة، ومن ذلك قوله: (كتاب التوحيد: هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره، ولهذا استغني بها عن الخطبة، أي أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الألوهية والعبادة بذكر أحكامه، وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص١٠.

به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه، وما به يتم، أو يكمل)[1]، كما يقرر ويؤيد وضوح وأهمية مسائل الكتاب، وذلك من مثل قوله حول التوسل: (وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام)[2].

ج- اعتنى الشيخ ابن السعدي في تعليقه على كتاب التوحيد على عناوين الأبواب، ومسائله، ولم يتطرق إلى الأدلة والآثار، وربما استرسل في التعليق، حتى كأنه امتداد لمسائل كتاب التوحيد، كما في ذكره لثمرات الإيمان، وأثره على أعمال القلب[3]؛ وربما كان -أحياناً- كالشرح للكتاب، أو مقيداً حوله الفوائد واللطائف والضوابط، وبيان الفروق والتقاسيم حول مسائله[4].

د- اعتنى الشيخ ابن سعدي بالربط بين التوحيد العملي (توحيد الألوهية)، والتوحيد القولي القائم على معرفة الله بربوبيته وكمال صفاته وأسمائه[5].

مما سبق يتبين أن (التنبيهات اللطيفة) يفارق القول السديد في شموله لأركان الإيمان، وما يلحق بالاعتقاد، تبعاً لأصله، وتركيزه كذلك على التقعيد، والاستدلال، والآثار.

للشيخ ابن سعدي -رحمه الله- كتب عقدية أخرى، منها ما كان في الردود على الملحدين خارج موضع الدراسة والمقارنة، وأما بقية كتبه العقدية فبعضها تتناول جزءاً واحداً من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقضاء والقدر، ولكن إما

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص١٧.

(٢) القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص٩٤، وانظر: ص٩٩.

(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص٢٣، ٢٨.

(٤) القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص٥٤، ٥٨، ٦٧، وانظر: ص١١٤، ١١٩، ١٢٨، ٢١٩.

(٥) القول السديد شرح كتاب التوحيد، ص٧٣، ٧٦.

بالرد على الطائفة القدرية، كما في كتاب: (الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية)؛ وإما بربطه بمعالم الإيمان، كما في كتاب (الوسائل المفيدة للحياة السعيدة)؛ وأقرب كتب ابن سعدي إلى موضع الدراسة هو كتاب: (التوضيح والبيان لشجرة الإيمان)، وهو وإن كان فيه شمول لأبواب الاعتقاد، ولما يتعلق بها من آداب السير إلى الله، إلا أنه لم يتضمن التأصيل والتقعيد لمسائل الاعتقاد وأدلتها، كما في (التنبيهات اللطيفة)، ولم يتضمن ذكر الطوائف والفرق، وهو قريب في السهولة والسلاسة من المقدمة التي أضافها الشيخ ابن سعدي إلى (القول السديد شرح كتاب التوحيد)[1]، إلا أن التوضيح فيه استرسال لحقيقة الإيمان، وثمراته، ولوازمه، وأسباب زيادته، بكلام بديع، يكمل ما ذكره في بقية كتبه.

يتضح بما سبق أن كتاب (التنبيهات اللطيفة) تبقى له خصوصية تميزه عن بقية كتب الشيخ ابن سعدي العقدية، وبما أنه سبق تعداد معالم ومزايا هذا الشرح، فقد تبين من خلال هذا المطلب بقاء بعض تلك المعالم والمزايا خاصة بكتاب (التنبيهات اللطيفة)، بسبب مناسبته لمستوى الدارس، وطبيعة المتن، وأنه مناسب لطالب العلم المبتدئ، وأنه جاء في آخر تصانيفه العقدية، وأقرب ما يكون من كتب الشيخ إلى التنبيهات هو تلك المقدمة التي وضعها في القول السديد؛ وهي وإن كانت تصلح للعوام فإنها تصلح أن تكون مدخلاً للطالب المبتدئ.

---

(١) سبقت الإشارة إليها قريباً.

المطلب الثاني

مقارنة (التنبيهات اللطيفة) بشروح الواسطية الأخرى.

الحديث عن مكانة شرح (التنبيهات اللطيفة) يندرج ضمن مكانة الأصل (العقيدة الواسطية) عند من أتى بعد المؤلف، وكيف خدمها العلماء، وهل للمتقدمين من أهل السنة شروح لها، أو نظم، أو اختصار، أو اقتباس ظاهر في مؤلفاتهم المخصصة لتأصيل الاعتقاد، وممن فعل ذلك من المتأخرين: العلامة الشيخ صديق حسن، في كتابه: (قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر)، المطبوع سنة ١٢٩٥هـ، حيث نقل فقرات بأكملها من الواسطية، فضلاً عن أنه استوعب جميع موضوعات الواسطية بنقل من غيرها[1]؛ ولكن الكلام عن هذا المجال مشروع آخر متعلق بالمتن، ومقصود البحث هنا مقارنة (التنبيهات اللطيفة) بالشروحات المطبوعة، وخاصة ما كان منها غير مطول، وإلا فقد اتجهت عناية العلماء في هذه البلاد إلى تدريس (الواسطية) كمتن للطلاب، وخاصة مع بداية المعاهد العلمية في الرياض عام ١٣٧١هـ[2]، التي أنشأها سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -رحمه الله-، وهو ممن سبق في باب تدريس وشرح الواسطية، فشرحها عام ١٣٦٧هـ[3]، ويقول الشيخ عبدالكريم الخضير: (وقد تناول الناس هذه العقيدة بالحفظ والدرس والإقراء، والشرح، وأكثر شروحها غير مدونة، لوضوحها

---

(١) نبه إلى ذلك محقق الكتاب، د. عاصم القريوتي، انظر: قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، ص٢٢.

(٢) انظر: التنبيهات السنية شرح العقيدة الواسطية، الشيخ عبدالعزيز بن ناصر الرشيد، ص٣، وقد نص في المقدمة أنه كتب الشرح نزولاً عند رغبة طلابه في المعهد العلمي، واستكمل الشرح عام ١٣٧٧هـ.

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ص٦.

وسهولتها عند المتقدمين، فيفهم الطالب بمجرد قراءتها على الشيخ، وما من عالم في هذه البلاد وغيرها إلا وقد درس العقيدة الواسطية، وأملى على طلابه شرحاً، فظهرت شروحها المدونة عند المتأخرين)[1].

كتاب (التنبيهات اللطيفة) من طبقة الشروح المختصرة؛ ويعنينا هنا معرفة مكانة الكتاب بين بقية شروح الواسطية، وأثرها على بروز الكتاب والعناية به، والأُثر والتأثير بينه وبين بقية الشروح الأخرى (المختصرة، أو المتوسطة، أو المطولة)، وكذلك من حيث الاحتفاء بالكتاب عند العلماء والمختصين، ممن هم في طبقة الشيخ، وفي طبقة شيوخه، وجرت بينه وبينهم مراسلات مودة ومدارسة، مما يوحي بتقارب الاهتمام وسبب التصنيف؛ وبالإضافة إلى ما جاء في المطلب السابق فلعل مقصود البحث تتضح معالمه من خلال المقارنات التالية:

١- حاشية الشيخ محمد بن عبدالعزيزِ بن مانع، ت/ ١٣٨٥هـ، والشيخ ابن مانع معدود في شيوخ ابن سعدي -رحمهما الله-[2]، وقد أثنى الشيخ ابن مانع على العقيدة الواسطية، وذكر بأنها: (من أحسن ما ألفه الأئمة في معتقد أهل السنة، فليس في يد الطلبة اليوم أحسن منها، ولا مثلها ...، فهي جديرة بالاعتناء بها تحفظاً ودرساً ومطالعة)[3]، وتعليقات الشيخ ابن مانع هي تحليل مختصر لبعض ألفاظ المتن، وربما يذكر ما يناسب ذلك من النظم، من القصيدة النونية، لابن القيم، أو من نظم الواسطية، لعبدالعزيز بن عدوان[4].

(١) التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، الخضير، ص٢٤.

(٢) انظر: الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، وجهوده في توضيح العقيدة، ص٣٤.

(٣) حاشية العلامة الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع على العقيدة الواسطية، ص١٥.

(٤) انظر: حاشية العلامة الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع على العقيدة الواسطية، ص٤١؛ والناظم هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن رزين الحنظلي التميمي، من أهل أثيثة، من بلدان الوشم، ت/

التنبيهات اللطيفة لابن سعدي لا تشبه هذه الحاشية، بل هي أوسع في التقرير والتقعيد والآثار، وتشاركها في الثناء على المتن، لكن لم يظهر لي تأثر أو استفادة ابن سعدي من شيخه ابن مانع؛ فيبقى تميز ابن سعدي بأسلوبه ومنهجه ظاهراً في (التنبيهات اللطيفة).

٢- تعليقات الشيخ عبدالعزيز بن باز، ت/ ١٤٢٠هـ، وقد طبعت أولاً بهامش التنبيهات اللطيفة، وثانياً طبعت بهامش حاشية ابن مانع، وهي تعليقات يسيرة متفرقة، أو تقريرات مستقلة ألحقت بهوامش الواسطية، والكلام حولها كالكلام على حاشية الشيخ ابن مانع.

٣- التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، للشيخ فيصل آل مبارك، ت/ ١٣٧٦هـ، وهو العام نفسه الذي توفي فيه الشيخ ابن سعدي -رحمهما الله-، واستظهر محقق الكتاب أنه أول تعليق على الواسطية، وأنه أقدم من (التنبيهات السنية) [1]، وكان له عناية قريبة من عناية الشيخ السعدي، وإن كانت عنايته لم تخدم، مثل كتب الشيخ السعدي، وكان الشيخ فيصل يوصي بدراسة الواسطية ضمن الدروس التي تدرس للطلاب[2]، وحول الكتاب وطريقة الشيخ فيصل فيه يمكن أن نشير إلى الأمور التالية:

أ- لم يذكر الشيخ فيصل منهجه في الشرح بداية الكتاب، ولم يلتزم بخاتمة لكل فصل.

١١٧٩هـ، وهو له رسالة في الوقف، رد بها على إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وانتقل إلى الأحساء، كما ذكر الشيخ عبدالله البسام، انظر: علماء نجد خلال ثمانية قرون، ج٣، ص٤٠٦-٤٠٩.

(١) التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، آل مبارك، ص١٨.

(٢) التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، آل مبارك، ص١٠.

ب- التعليق على المتن والأدلة -خاصة-، بتحليلها كمسائل منفردة، فعند الآيات يطيل النقل من كلام المفسرين، بما يتناسب مع المقصود من الآية.

ج- يطيل في نقل كلام أهل السنة في مصنفات الاعتقاد المسندة حول مسائل الكتاب، ثم ينقل لطائف من كلام العلماء عن الافتراق، ووسطية أهل السنة والجماعة.

د- عند كلام شيخ الإسلام في الواسطية، عن فصول: (الاستواء والعلو، والمعية والقرب، والكلام، والرؤية، واليوم الآخر، والقدر، والإيمان، والوعد والوعيد، والصحابة، والاجتماع والجماعة، والإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومكارم الأخلاق)؛ لم يكن للشيخ فيصل بن مبارك إلا تعليقان يسيران فقط، والشرح بهذا ظهر وكأنه جمع لتعليق وكلام العلماء على أدلة الأسماء والصفات.

هـ- تعليقات الشيخ غير شاملة، فتعليقه على النصف الثاني من الكتاب، لا يكاد يذكر.

٤- الشروح المطولة: شرحت العقيدة الواسطية بعدة شروح مطولة، وهي وإن كانت غير مقصودة بالمقارنة، إلا أن المهم التنويه إلى مناهجها ومقاصدها، ومقارنتها مع شرح ابن سعدي، والشروح المتوسطة تشارك الشروح المطولة فيما سيرد من نقاط، وذلك كما يلي:

أ- بروز الحرص على جمع الرسائل المهمة لطالب العلم في مجموع واحد، من مثل: المجموعة العلمية السعودية (١٣٦٥هـ)، والتي أشرف عليها سماحة العلامة مفتي الديار محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وهذا مما شحذ همم العلماء لشرح ما لم يشرح منها، وكان منها العقيدة الواسطية[١].

(١) انظر: المجموعة العلمية السعودية، ص٣٠، ٢٣٥.

ب- ظهور الرغبة في تقريب مسائل الاعتقاد، ولا سيما في الأسماء والصفات من خلال الشروح، وبرز هذا في مقدمات الشروح، وفي طريقة الشيخ عبدالعزيز السلمان[1].

ج- اتخاذ الشرح مدخلاً لتقرير مسائل الاعتقاد، وتحليل ألفاظ المتن بشكل موسع، وتأصيل الرد على المخالفين، ولا سيما في مسائل الأسماء والصفات، تبعاً للمتن، وهذا يظهر في مثل شرح الشيخ محمد بن صالح العثيمين[2].

د- بروز الاستدراك على متن الواسطية[3]، وربما ذلك تأثراً بكثرة الشروح، ورغبة في تثبيتها كمرجع للطلاب، خاصة مع وجود انشغال طلاب العلم في الجامعات بمتون وشروح لا تخلو من إشكالات، كشرح الطحاوية.

ه- حرص عدد من الشراح على ذكر قواعد الأسماء والصفات، وهذا ظهر في مثل شرح الشيخ عبدالعزيز بن ناصر الرشيد (التنبيهات السنية)[4].

و- عناية الشراح وتواطؤهم على النقل من كلام الشيخين ابن تيمية وابن القيم، حتى أصبح ذلك سمة للشروح، وتبع ذلك توسع طلاب العلم وأساتذة الجامعات في البحث والتنقيب في هذا الباب، وبرز ذلك في الدراسات الجامعية العليا؛ وهذا مما أضعف من العناية بالمداخل الميسرة، كالتنبيهات اللطيفة، وربما حتى من غيرها من الشروحات.

---

(١) انظر: مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، ص٤.

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، العثيمين، ١/ ٥٥، ١٣٣.

(٣) انظر: مستدرك علوي السقاف على مسائل الواسطية، ملحقاً بكتاب: شرح الواسطية، للشيخ محمد خليل هراس، ص٢٦٦.

(٤) انظر: التنبيهات السنية شرح العقيدة الواسطية، ص٢٤- ٢٦.

من خلال ما سبق لم أجد ظهور تأثر أو تأثير مباشر لشرح (التنبيهات اللطيفة)؛ إلا في كتاب لتلميذ تلميذ الشيخ ابن سعدي، وهو شرح د. خالد المصلح، وقد نص في مقدمته على اقتصاره على كتب الشيخين ابن تيمية وابن القيم، إضافة إلى التنبيهات اللطيفة، لابن سعدي، ونقل منه في عدة مواضع[1]، ولعل من أسباب ضعف التأثر والتأثير زيادة التوسع والعناية بتراث الشيخين في الفترة بعد الشيخ السعدي، والتوسع في تأصيل توحيد الأسماء والصفات، والردود على الطوائف المخالفة، مما تجاوزت الحاجة معه إلى المختصرات والمداخل، كالتنبيهات السنية، ولعل من أبرز من الكتب التي اعتنى بها طلاب العلم كتاب تلميذه: القواعد المثلى، لتلميذه النجيب فضيلة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين -رحمه الله-.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، المصلح، ص٧.

الخاتمة

بعـد هذه الجولة في ثنايا هذا البحث أحمد الله على فضله وتيسـيره، ومما تبين للباحث من خلال بحثه ما يلي:

١- ظهور عناية العلماء المعاصرين بكتب شـيخ الإسـلام ابن تيميـة، وتلميذه ابن القيم، ومن أبرز من اعتنى بها ولخص قواعدها، وقربها، هو ابن سعدي، وبروزه في الجوانب الاعتقادية والفقهية والأصولية على حد سواء.

٢- أن منهج شرح (التنبيهات اللطيفة) قام على أربع نقاط التزمها الشارح وطبقها، ويرى الباحث أن ما ورد في المطلب الأول يصلح مدخلاً لكتب الشيخ السعدي عموماً، ولشرح الواسطية خصوصاً.

٣- تميز شرح (التنبيهات اللطيفة) بعدة معالم ومزايا، لعل منها إبرازها ما يلي:

أ- توافر الأدلة النقلية والعقلية وتنوع وتطابق دلالاتها على معتقد أهل السنة.

ب- الارتباط بين مسائل الاعتقاد، ولا يكون خلاف لذلك إلا برد الحق المنزل.

ج- أثر المعتقد الصحيح على أصحابه في الانتصار والبركة والسعادة.

د- حسن الترتيب في تلخيص العبارات، وإبراز دقة عبارات صاحب المتن.

٤- التعـرف علـى مجالات كتب الشـيخ ابـن سـعدي العقديـة، وأن لـ(التنبيهات اللطيفـة) خصوصية تتميز بها، ولعل ذلك بسـبب مناسـبته لمسـتوى الدارس، وطبيعة المتن، وأن من أواخر تصانيفه العقدية.

٥- مناسبة (التنبيهات اللطيفة) لطالب العلم المبتدئ، وأن أقرب ما يكون من كتب الشـيخ إليها هي مقدمـة (القول السـديد)؛ وتصلح مدخلاً للطالـب المبتدئ، وتصلح للعوام.

٦- بـروز العقيدة الواسـطية كمتـن يدرس، ويعتنى بشـرحه برز في القرن الرابع عشـر،

وتصنيف الشـروح لم يظهر مطبوعـاً إلا في النصف الثاني منه، ولعل من دواعي هذا ظهور طباعة الكتب، وإنشـاء المعاهد العلمية، حيث شـحذت همم العلماء لشرح ما لم يشرح من متون العقائد، وكان منها متن العقيدة الواسطية.

٧- مع تميز (التنبيهات اللطيفة)، وكونه في طليعة شـروح الواسـطية زمنـاً إلا أنه لم يكـن بمكانة غيره من كتب الشـيخ ابن سـعدي، ويرى الباحـث أن ذلك يرجع لأمور، منها:

أ- تأخر طباعة الكتاب في فترة حمي فيها ظهور عدد من الشروح المتميزة.

ب- زيـادة التوسـع والعناية بـتراث الشـيخين في الفترة بعد الشـيخ السـعدي، والتوسـع في تأصيـل توحيـد الأسـماء والصفـات، والردود علـى الطوائف المخالفة.

التوصيات:

١- أن تصنف كتب السـعدي العقدية على مراحـل، يعنينا منها يلي: أولها: (مقدمة القـول السـديد)؛ وتصلح للعـوام.؛ ثانيهـا (التنبيهات اللطيفـة) لطالب العلم المبتدئ.

٢- تقديم دراسة علمية عن شروح الواسطية.

هذا والله أعلم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس المراجع

١- التنبيهات السنية شرح العقيدة الواسطية، عبدالعزيز ناصر الرشيد، ط٢، ١٤١٦هـ، دار الرشيد - الرياض.

٢- التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة، عبدالرحمن ابن ناصر السعدي، ت/ ١٣٧٦هـ، ومعها تعليقات عبدالعزيز بن باز، ت/ ١٤٢٠هـ، ت. عبدالرحمن بن رويشد، وسليمان بن حماد، ط٢، ١٤١١هـ، دار الشبل - الرياض - وأعادتها دار الإفتاء، عام ١٤١٤هـ، بعد مراجعة ابن باز ١٤١٢هـ.

٣- التنبيهات اللطيفة، عبدالرحمن السعدي، ومعها تعليقات ومراجعة عبدالعزيز بن باز، عام ١٤١٢ه، ت. عبدالرحمن بن رويشد، وسليمان بن حماد، إشراف دار الإفتاء، ط ١، ١٤١٤هـ دار طيبة - الرياض.

٤- التنبيهات اللطيفة، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت/ ١٣٧٦هـ، ومعها تعليقات الشيخ عبدالعزيز بن باز، ت/ ١٤٢٠هـ، ت. محمد بن سليمان البسام، ط ١، ١٤٣١هـ دار ابن الجوزي - الدمام.

٥- التنبيهات اللطيفة، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت/ ١٣٧٦هـ ومعها تعليقات الشيخ عبدالعزيز بن باز، ت/ ١٤٢٠هـ، ت. علي حسن الحلبي، ط ١، ١٤٠٩ه، دار ابن القيم - الدمام.

٦- التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، فيصل بن عبدالعزيز آل مبارك، ت/ ١٣٧٦هـ، عبدالإله الشايع، ط ٢، ١٤٣٥هـ، دار الصميعي - الرياض.

٧- التعليقات السنية على العقيدة الواسطية، عبدالكريم بن عبدالله الخضير، ط١، ١٤٣٨هـ، مؤسسة معالم السنن - الرياض، دار ابن الجوزي - الدمام.

٨- توضيح الكافية الشافية، عبدالرحمن السعدي، ت/ ١٣٧٦هـ، ط١، ١٤٠٧هـ، دار ابن الجوزي - الدمام.

٩- جامع الرسائل، ابن تيمية (ت/ ٧٢٨هـ)، د. محمد رشاد سالم، ط ١، ١٤٢٢هـ

دار العطاء - الرياض.

١٠- حاشـية العلامة الشـيخ محمد بن عبدالعزيز بن مانع على العقيدة الواسـطية، ت/ ١٣٨٥هـ، مع تعليقات الشـيخ ابن باز، ت/ ١٤٢٠هـ، أشرف عبدالمقصود، ط١، ١٤١٥هـ، دار أضواء السلف - الرياض.

١١- الحـق الواضـح المبين في شـرح توحيد الأنبيـاء والمرسـلين من الكافية الشـافية، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ط٢، ١٤٠٧هـ، دار ابن القيم - الدمام.

١٢- سـنن أبي داود، ت. عزت الدعاس، وعادل السـيد، ط١، ١٣٩٣هـ، دار الحديث - بيروت.

١٣- شـرح العقيدة الواسطية، محمد بن إبراهيم آل الشيخ ت ١٣٨٩هـ، جمع محمد بن قاسـم (١٤٢١هـ)، إخراج د. عبدالمحسـن بن محمد بن قاسـم، ط ٢، ١٤٢٨هـ بدون ذكر دار النشر.

١٤- شـرح العقيـدة الواسـطية، و(ملحـق الواسـطية)، محمـد بـن خليل هـراس، ت/ ١٣٩٥هـ، علوي بن عبد القادر السقاف، ط ٣، ١٤١٥هـ دار الهجرة - الخبر.

١٥- شـرح العقيدة الواسـطية، محمد العثيميـن (ت/ ١٤٢١هـ)، سـعد الصميل، ط٥، ١٤١٩هـ، دار ابن الجوزي - الرياض.

١٦- شرح العقيدة الواسطية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، خالد بن عبد الله المصلح، ط١، ١٤٢١هـ، دار ابن الجوزي - الدمام.

١٧- الشـيخ عبدالرحمـن بن سـعدي، وجهـوده في توضيـح العقيـدة، د. عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد، ط٢، ١٤١٤هـ، مكتبة الرشد - الرياض.

١٨- صحيـح البخـاري، ت. د. مصطفى البغـا، ط٥، ١٤١٤هـ، دار ابن كثير - دمشـق، بيروت.

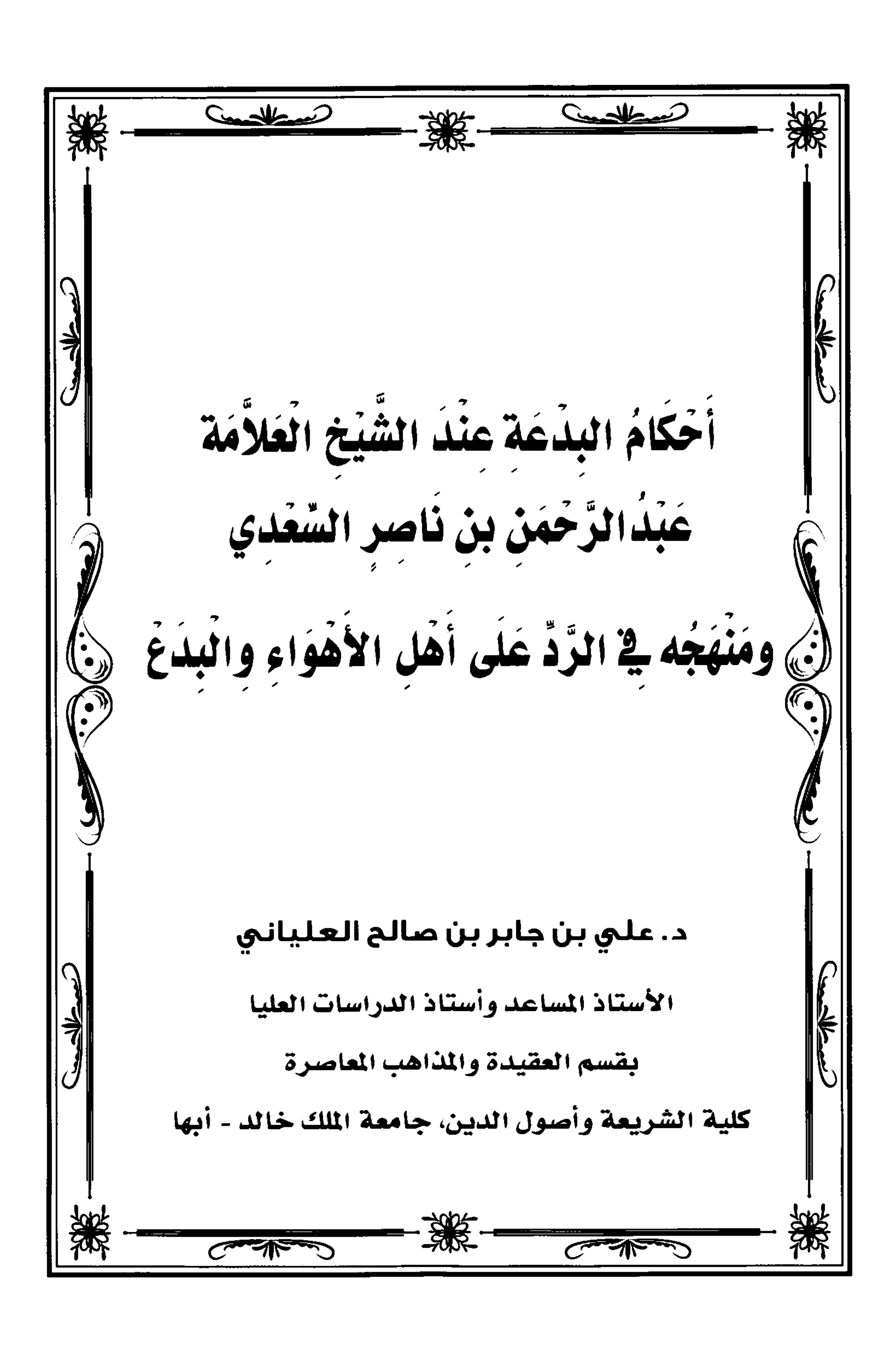
١٩- صحيح مسـلم، ت. محمد فـؤاد عبدالباقـي، ط ١٤٠٠هـ، إدارة البحـوث العلمية والإفتاء - الرياض.

٢٠- علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبدالله بن عبدالرحمن البسـام، ط٢، ١٤١٩هـ، دار العاصمة - الرياض.

٢١- قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، محمد صديق حسن خان القنوجي، ت/ ١٣٠٧هـ، د. عاصم بن عبدالله القريوتي، ١٤٢٢هـ، وكالة المطبوعات - وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - الرياض.
٢٢- القول السديد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت/ ١٣٧٦هـ)، ط٢، ١٤٢١هـ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - الرياض.
٢٣- العقيدة الواسطية، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية (ت/ ٧٢٨ه)، ت. أشرف عبدالمقصود، ط ٢، ١٤٢٠ه، دار أضواء السلف - الرياض.
٢٤- الكافية الشافية، في الانتصار للفرقة الناجية، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت/ ٧٥١هـ، إشراف بكر بن عبدالله أبو زيد - مجمع الفقه الإسلامي، ط ١، ١٤٢٨هـ، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة.
٢٥- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، ت/ ٧٢٨هـ، جمع: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، وابنه محمد، ط ١، ١٣٨٢هـ، مطابع الرياض.
٢٦- مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ط ١، ١٤٣٢ه، دار الميمان - الرياض.
٢٧- المجموعة العلمية السعودية، مراجعة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ت/ ١٣٨٩هـ، أحمد الطويان، ط ١، ١٤١٨هـ، دار طويق - الرياض.
٢٨- مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، عبد العزيز بن محمد السلمان، ت/ ١٤٢٢هـ، ط ١٠، ١٤٠٣هـ، بدون ذكر دار نشر.

كتب ومواقع إلكترونية:

١- خزانة الكتب - كتب التوحيد والعقيدة، إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، إشراف علوي السقاف، على الرابط التالي: file:///C:/Users/ASUS/Downloads/Documents/tawheed-book_2.pdf.
٢- موقع نور الإسلام، الفتاوى، برنامج فتاوى: نور على الدرب، الحلقة (٧٢)، ٢/ ٣/ ١٤٣٣هـ، على الرابط التالي: http://iswy.co/e187ph



أَحْكَامُ البِدْعَةِ عِنْدَ الشَّيْخِ العَلاَّمَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنِ نَاصِرٍ السّعْدِي وَمَنْهَجُه فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعْ

د. علي بن جابر بن صالح العلياني

الأستاذ المساعد وأستاذ الدراسات العليا

بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة وأصول الدين، جامعة الملك خالد - أبها

المقدمة

الحمد لله الذي امتن على هذه الأمة بأن قيَّض لها في كل فترةٍ زمنيةٍ من يجدد لها دينها، ويوقظها من سبات غفلتها، ويدعوها للتمسك بأصول الدين وشرائعه، ويَرُدُّ على أهل الأهواء والبدع، وخاصةً كلما بَعُدَ الناس عن زمن النبوة.

والصلاة والسلام على خير خلقه، وصفيه من عباده، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[1].

ومعنى قوله ﷺ: «**يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»: «أنه كلما انحرف الكثير من الناس عن جادة الدين الذي أكمله الله لعباده، وأتم عليهم نعمته ورضيه لهم ديناً؛ بعث إليهم علماء، أو عالماً بصيراً بالإسلام، وداعيةً رشيداً، يُبَصِّر الناس بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الثابتة، ويجنبهم البدع، ويحذرهم محدثات الأمور، ويردهم عن انحرافهم إلى الصراط المستقيم، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فسمى ذلك: تجديداً بالنسبة للأمة، لا بالنسبة للدين الذي شرعه الله وأكمله، فإن التَّغيُّر والضعف والانحراف إنما يطرأ مرة بعد مرة على الأمة، أما الإسلام نفسه فمحفوظ بحفظ كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ المبينة له، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ١٧٨)(ح٤٢٩٣) والحاكم في المستدرك (ح٨٥٩٢) (٤/ ٥٦٧)، صححه السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: ٢٠٣)(ح٢٣٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ١٤٨)(ح٥٩٩).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة « (٢/ ٢٤٧-٢٤٨).

قال ابن كثير -رحمه الله-: «قال طائفة من العلماء: الصحيح أن الحديث يشمل كل فرد من آحاد العلماء من هذه الأعصار؛ ممن يقوم بفرض الكفاية في أداء العلم عمن أدرك من السلف إلى من يدركه من الخلف، وهذا موجود ولله الحمد والمنة إلى زماننا هذا ونحن في القرن الثامن»[1].

فالعلماء في الأرض كما قال ابن القيم -رحمه الله-: «بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب»[2].

ومن هؤلاء العلماء الذين كان لهم جهود واضحة في تقرير العقيدة، ودفع كل ما يعارضها، والرد على أهل الأهواء والبدع، المخالفين لأهل السنة والجماعة: الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- تعالى.

وسأتناول في هذا البحث بمشيئة الله تعالى: منهج الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي في الرد على أهل الأهواء والبدع.

أهداف البحث:

يهدف البحث لأمور منها:

١. بيان المنهج الذي سار عليه الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله- في الرد على أهل الأهواء والبدع.
٢. إبراز جهود الشيخ عبدالرحمن السعدي في الرد على أهل الأهواء والبدع.
٣. المساهمة في إبراز بعضٍ من معالم التراث العلمي الزاخر الذي تركه الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله-.

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٢٨٧) باختصار.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٨).

منهج البحث:

لقد استخدم الباحث في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك بتتبع ردود الشـيخ -رحمه الله- على أهل الأهواء والبدع، وبيان المنهج الذي سـار عليه في ذلك.

خطة البحث:

ويتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

- المقدمة.
- المبحث الأول: تعريف الهوى والبدعة وأنواع البدعة.
- المبحث الثاني: الأحكام المتعلقة بالبدع وأهل البدع عند الشيخ السعدي.
- المبحث الثالث: معالم منهج الشيخ السعدي في الرد على أهل الأهواء والبدع.
- الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: تعريف الهوى والبدعة وأنواع البدعة

المطلب الأول: تعريف الهوى لغة واصطلاحاً :

الهوى في اللغة له معنيان: المعنى الأول : مِنْ هَوَى -بالفتح- يَهْوِي هَوِيًّا وهُوِيًّا وهَوَيانـاً، بمعنى: سـقط من علو إلى سُـفْل، يقـال : أَهْوَيْتُه؛ إذا أَلْقَيْتَه من فوق، ومنه قوله ﷻ : ﴿هَوَىٰ﴾ [النجم:٥٣]؛ أي أَسْقَطَها فَهَوَت؛ أي سَقَطَت [١].

المعنى الثاني: من هَوِيَ يَهْوَى، بمعنى: أحبَّ وأراد واشتهى[٢]، قال أهل اللغة: «الهوى: محبةُ الإنسـانِ الشـيءَ وغَلَبَتُهُ على قلبِه، قال الله تعـالى:﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعـات: من الآية ٤٠]معناه : ونهى النفس عن شـهواتها، وما تدعو إليه من معاصي الله ﷻ »[٣].

والهـوى المقصود هنـا يجمع المعنيين جميعـاً فإنه يميل بالنفس لما تشـتهي، ويَهْوِي بصاحبه فيما لا ينبغي.

الهوى اصطلاحاً :

اختلفـت عبارات العلماء رحمهم الله في بيان معنـى الهوى، وكلها تدور حول معنى واحد وهو: ميل النفس إلى شهواتها في حلال أو حرام، إلا أنه غلب استعمال

(١) انظـر: معجـم مقاييس (٦/ ١٥)، الصحـاح (٦/ ٢٥٣٨)، المحكم والمحيط الأعظم (٤/ ٤٥٠)مادة (هوى).

(٢) انظر: كتاب العين (٤/ ١٠٥)، الصحاح (٦/ ٢٥٣٨)، المحكم والمحيط الأعظم (٤/ ٤٥٢).

(٣) الزاهر فى معانى كلمات الناس (٢/ ٣٢٥).

هـذا المصطلـح على الميل المذموم الـذي يكون على غير هدى مـن الله تعالى[1]، ومن أجمع ما عُرِّف به الهوى أنه :» كل ما خالف الحق، وللنفس فيه حظ ورغبة من الأقوال والأفعال والمقاصد«[2].

ومعنى الهوى عند الشـيخ السعدي -رحمه الله-: شـهوات النفس المعارضة للحـق، حيث قال في تفسـير قولـه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾[النسـاء: ١٣٥] أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عـن الصواب، ولـم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحـق باطلاً والباطل حقـاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سـلم من هوى نفسه وُفِّق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم«[3].

وأهـل الأهواء: هم: المتَّبِعُون لأهوائهم، السـائرون خلف رغباتهم، وصاحب الهـوى هـو: «الذي يعتقد ويقول ويعمـل بما يهواه، لا بما قامت بـه الحجة، وأقرَّه الدليل من دين الله تعالى»[4].

قال شـيخ الإسلام ابن تيمية: « كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسُّنة والشـريعة في مسائل الاعتقاد الخبرية، ومسائل الأحكام العملية؛ أهل الأهواء؛ لأن الرأي المخالف للسُّنة جهلٌ لا علم، فصاحبه ممن اتبع هواه بغير علم»[5].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥ / ٤٠٧)، المفردات في غريب القرآن (ص ٥٤٨)، مجموع الفتاوى (٤ / ١٨٩).

(٢) الهوى وأثره في الخلاف (ص ١٧) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان(ص٢٠٨).

(٤) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (١ / ٦٦١).

(٥) جامع الرسائل (٢ / ٢٠٥).

وقال الشيخ السعدي عن أهل الأهواء: «الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته؛ فإنه من أهواء الذين لا يعلمون»[٦].

وقال أيضاً: «كل من لم يستجب للرسول ﷺ، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول ﷺ؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى»[٧].

ومصطلح أهل الأهواء يُطلق على أهل البدع كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية: «كان السلف يعدُّون كل من خرج عن الشريعة في شيءٍ من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، ويذمونهم بذلك، ويأمرون بألا يُغْتَرَّ بهم؛ ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام»[٨].

المطلب الثاني: تعريف البدعة لغة واصطلاحاً:

البدعة في اللغة: مصدر بدَع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعاً وابتداعاً[٩]، ولها في اللغة معنيان:

الأول: بمعنى أنشأه وابتدأه على غير مثال سابق.

والثاني: بمعنى الانقطاع والكَلال والهُزال.

قال ابن فارس: «الباء والدال والعين (بدع) أصلان: أحدهما: ابتداء الشيء

---

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان(ص٧٧٧).

(٧) المصدر نفسه (ص٦١٧).

(٨) الاستقامة (١ / ٢٥٤) .

(٩) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٢ / ٣٣)، لسان العرب (٨ / ٦) مادة (بدع).

وصنعُه لا عَنْ مِثال، والآخر: الانقطاع والكَلال، فالأول قولهم: أبْدعْتُ الشيءَ؛ قولاً أو فعلاً، إذا ابتدأتَه لا عن سابق مثال، والأصل الآخر قولهم: أُبْدِعَتِ الراحلةُ، إذا كَلَّت»[1].

ولفظ البدعة يدخل فيما تخترعه القلوب، وفيما تنطق به الألسنة، وفيما تفعله الجوارح[2].

وهي في اللغة عامةٌ في كل ما استحدث من الدين وغيره [3]، ثم غَلَب استعمالها على ما هو زيادةٌ في الدين، أو نقصان منه [4].

والبدعة في اللغة عند الشيخ -رحمه الله-: «ما أُحْدِثَ على غير مثال سابق»، ونأخذ هذا المعنى عنده -رحمه الله- من تفسيره لقوله تعالى﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة من الآية: ١١٧]، حيث قال: «أي: خالقها على وجه قد أتقنهما، وأحسنهما على غير مثال سبق»[5].

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٠٩ - ٢١٠) باختصار، مادة (بدع).

(٢) انظر: كتاب الحوادث والبدع (ص٢١).

(٣) انظر: كتاب العين (٢/ ٥٤)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٣٣)، المحيط في اللغة (١/ ٤٣٠) مادة بدع.

(٤) انظر: المُغرِب في ترتيب المُعْرِب (١/ ٦٢)، المصباح المنير (١/ ٣٨).

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان(ص٦٤).

البدعة في الاصطلاح:

عرفها الشيخ -رحمه الله- بأنها: « كل بدعة أحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع القولية الكلامية، كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها، أو من البدع العملية كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله»[1].

وعرفها كذلك بأنها: «الابتداع في الدين، فإن الدين هو: ما جاء به النبي ﷺ في الكتاب والسنة، وما دلت عليه أدلة الكتاب والسنة فهو من الدين، وما خالف ذلك فهو البدعة، هذا هو الضابط الجامع"[2]، وقال أيضاً: « البدعة هي: خلاف السنة»[3].

والمبتدع هو: من أحدث في الدين مالم يكن فيه.

قال الطبري: «سمي المبتدعُ في الدين :مبتدعاً؛ لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره، وكذلك كلُّ مُحْدِثٍ فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم؛ فإن العرب تسميه مبتدعاً »[4].

والمبتدع عند الشيخ السعدي هو:» من أَخْبَرَ بغير ما أخبر الله به ورسولهﷺ، أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ورسوله، ولم يشرعه»[5].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار(ص١٧).

(٢) الفتاوى السعدية (ص٦٣).

(٣) سؤال وجواب في أهم المهمات (ص٢٢).

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٥٤٠).

(٥) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار(ص١٧).

وقال أيضـاً: «فمن تعبد بغير الشرع، أو حرم ما لم يحرمه الشارع فهو مبتدع»[1]؛ بل إنه أضاف -رحمه الله- إلى المبتدعة من حرَّم المباحات[2].

أمـا مصطلح أهل الأهـواء فإنه يُطلق على كل من زاغَ عـن الطريقة المثلى من أهل القِبلة[3].

قال شـيخ الاسلام ابن تيمية -رحمه الله- : « كان السلف يعدُّون كل من خرج عن الشـريعة في شـيءٍ من الدين مـن أهل الأهـواء، ويجعلون أهل البـدع هم أهل الأهـواء، ويذمونهم بذلك، ويأمرون بألا يُغْترَّ بهم؛ ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام «[4].

وقال الشـاطبي -رحمه الله-: « سُـمِّي أهل البـدع أهل الأهواء، لأنهـم اتَّبَعُوا أهواءهـم، فلم يأخذوا الأدلة الشـرعية مأخذ الافتقار إليهـا، والتعويل عليها؛ حتى يصدروا عنها؛ بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك «[5].

---

(١) سؤال وجواب في أهم المهمات (ص٢٣ - ٢٤).

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار(ص ١٧).

(٣) انظر: المُغرِب في ترتيب المُعرِب (٢/ ٣٩٢).

(٤) الاستقامة (١/ ٢٥٤).

(٥) الاعتصام (١/ ٦٨٣).

المطلب الثالث: أنواع البدعة:

ذكر الشيخ -رحمه الله- أن البدعة نوعان[1]:

النوع الأول: البدع الاعتقادية: ويقال لها: البدع القولية، كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها.

وهي -كما ذكر الشيخ -رحمه الله-- المذكورة في قوله ﷺ: «**وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَة كُلُّهَا فِي النَّار إِلَّا وَاحِدَة، قَالُوا: مَنْ هِيَ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ: مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»[2]، فأهل السنة المحضة: السالمون من البدع الذين تمسكوا بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في الأصول كلها، أصول التوحيد والرسالة والقدر، ومسائل الإيمان وغيرها.

وغيرهم من خوارج ومعتزلة وجهمية وقدرية ورافضة ومرجئة ومن تفرع عنهم، كلهم من أهل البدع الاعتقادية"[3].

النوع الثاني: البدع الفعلية العملية: وهي: التعبُّد بغير ما شرع الله ورسوله ﷺ، أو تحريم ما أحل الله ورسوله ﷺ، وهي داخلة في قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، فمن تعبَّدَ بغير الشرع، أو حرَّم ما لم يحرمه الشارع فهو مبتدع[4].

---

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار(ص ١٧)، الفتاوى السعدية (ص٦٣)، القول السديد في مقاصد التوحيد(ص ٢٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٢١٨) (ح٤٤٤)، وابن بطة العكبري في الإبانة (١/ ٣٦٩) (ح٢٦٥).

(٣) انظر: الفتاوى السعدية(ص٦٣-٦٤)، سؤال وجواب في أهم المهمات(ص ٢٣).

(٤) انظر: سؤال وجواب في أهم المهمات (ص٢٣-٢٤)، الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة (ص ١٥٧).

وهذا النوع -أي: التعبد لله بعبادات لم يشرعها- على نوعين كذلك[1]:

الأول: التعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً.

الثاني: التعبد لله بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة.

ثم أشار الشيخ -رحمه الله- إلى أن من قصور العلم لدى بعض الناس إدخال بعض العادات التي ليست عبادات في باب البدع حيث قال: «ولهذا من قصور العلم جعل بعض العادات التي ليست عبادات بدعاً لا تجوز، مع أن الأمر بالعكس؛ فإن الذي يحكم بالمنع منها وتحريمها هو المبتدع، فلا يحرم من العادات إلا ما حرمه الله ورسوله؛ بل العادات تنقسم إلى أقسام: ما أعان منها على الخير والطاعة؛ فهو من القرب، وما أعان على الإثم والعدوان؛ فهو من المحرمات، وما ليس فيه هذا ولا هذا؛ فهو من المباحات»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٧٦).

(٢) الفتاوى السعدية (ص٦٤).

المبحث الثاني: الأحكام المتعلقة بالبدع وأهل البدع عند الشيخ السعدي

لقد أمرنا الله ﷻ بالاتباع، وترك الابتداع، والتسليم الكامل لما جاء في كتابه العزيز، وسنة نبيه ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر من الآية: ٧]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١).

قال الشيخ –رحمه الله– في منظومة القواعد الفقهية:

وليس مشروعاً من الأمور   غيرُ الذي في شرعنا مذكور(٢)

المطلب الأول: الأحكام المتعلقة بالبدع في الدنيا:

١. **أن البدعة ضلالة:**

فبعد أن نقل الشيخ –رحمه الله– قوله ﷺ عن الفرقة الناجية: «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي(٣)»، قال: «فمن كان على هذا الوصف فهو صاحب سُنَّة محضة، ومن كان من بقية الفرق فهو مبتدع، وكل بدعة ضلالة»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية، باب نَقْض الأحكام الباطلة، وردّ مُحْدَثات الأُمور(ح١٧١٨) (٣/ ١٣٤٣).

(٢) (ص١٣٠).

(٣) سبق تخريجه (ص٤) من هذا البحث.

(٤) سؤال وجواب في أهم المهمات (ص ٢٢-٢٣).

٢. أن البدع سببٌ في العناء وحصول الشر، كما أنها سببٌ كذلك في التخبط:

وقد جعل -رحمه الله- البدع سبباً في العناء وحصول الشر حيث قال في تفسير قولـه تعالى﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة من الآية: ١٥٨]، قال: «ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع، التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل لـه إلا العناء، وليس بخير له؛ بل قد يكون شراً لـه؛ إن كان متعمداً، عالماً بعدم مشروعية العمل»[١].

وجعل البدع سبباً كذلك في التخبط في الظلمات، كلٌّ بحسب ما معه من موادها، فقال: «والكافر، أو المنافق، أو المعارض، أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها»[٢].

٣. أن البدع تتفاوت بحسب قربها أو بعدها عن الحق:

ومن أحكام البدع كذلك: أنها ليست على درجة واحدة؛ بل تتفاوت بحسب قربها أو بعدها عن الحق قال الشيخ السعدي -رحمه الله- عن أهل البدع: من الخوارج والمعتزلة والجهمية والقدرية والرافضة والمرجئة ومن تفرع عنهم، قال: "كلهم من أهل البدع الاعتقادية، وأحكامهم متفاوتة بحسب بعدهم عن أصول الدين وقربهم، وبحسب عقائدهم أو تأويلهم، وبحسب سلامة أهل السنة من شرهم في الأقوال والأفعال وعدمه"[٣]، وقال أيضاً: «وتتفاوت البدع بحسب بُعدها عن السنة»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان(ص٧٦).

(٢) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية (ص ٩٥).

(٣) الفتاوى السعدية (ص٦٣ - ٦٤).

(٤) سؤال وجواب في أهم المهمات (ص٢٣).

وقال كذلك: «فكل الطوائف الثلاث[1] خاضوا في القدر خوضاً منحرفاً، وبعضهم أغلظ من بعض، وكلهم عن الصراط ناكبون»[2].

وقال -رحمه الله- عن قول الجبرية في القدر: «وهذا القول من أشنع البدع وأنكرها، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأئمة المهتدين، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومخالف للعقول والفطر، ومخالف للمحسوس، وكل قول يمكن صاحبه أن يطرده إلا هذا القول الشنيع، فإنه لا يمكن أن يعمل به ويطرده»[3].

وحكم -رحمه الله- على الرافضة والجهمية بأنهما أشر أهل البدع، فقال: «الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع؛ بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهما: الرافضة والجهمية»[4].

المطلب الثاني: الأحكام المتعلقة بأهل البدع في الدنيا:

١. **أقسام أهل الأهواء والبدع**: قسم الشيخ -رحمه الله- أهل الأهواء والبدع في الدنيا إلى أقسام متنوعة:

« **القسم الأول**: من هو كافرٌ بلا ريب كغلاة الجهمية، الذين نفوا الأسماء والصفات، وقد عرفوا أن بدعتهم مخالفةٌ لما جاء به الرسول ﷺ، فهؤلاء مكذبون

---

(١) القدرية النفاة، والقدرية المجبرة، والقدرية المشركين، ويقصد بالقدرية المشركين: الذين اعتذروا عن شركهم وتحريمهم ما أباح الله بالمشيئة، وجعلوا مشيئة الله هي محبته، فقالوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾(الأنعام من الآية: ١٤٨).

(٢) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص ١٦).

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٤).

(٤) القول السديد في مقاصد التوحيد (ص ٨١).

للرسول عالمون بذلك"[1].

ولكنه -رحمه الله- يذهب إلى عدم تكفير أهل البدع على التعيين؛ وإن كانت المقالة أو الاعتقاد كفراً، وإنما يقال: من اعتقدها أو عمل بها فهو كافر- كما هو منهج السلف من أهل السنة والجماعة -.

قال -رحمه الله- :» وعلى هذا[2] عمل الصحابة والتابعين، فإن البدع التي ظهرت في زمانهم كبدعة الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم مشتملة على رد النصوص من الكتاب والسنة، وتكذيبها وتحريفها، وذلك كفر، لكن امتنعوا من تكفيرهم بأعيانهم؛ لوجود التأويل، فلا فرق بين تكذيب الخوارج لنصوص الشفاعة، وتكذيبهم للنصوص الدالة على إسلام وإيمان أهل الكبائر، واستحلالهم لدماء الصحابة والمسلمين، وتكذيب المعتزلة بالشفاعة لأهل الكبائر، ونفي القدر، والتعطيل لصفات الله، وغير ذلك من مقالاتهم، وبين تأويل من أجاز دعاء غير الله والاستغاثة به، فاتضح لنا من ذلك أن من وقعت منه مثل هذه الأمور جهلاً وتقليداً، أو تأويلاً من غير عناد؛ أنه لا يُحكم بتكفيره بعينه وإن كانت هذه الأمور الواقعة منه كفراً«[3].

« **القسم الثاني**: من هو مبتدعٌ ضالٌ فاسقٌ، كالخوارج المتأولين، والمعتزلة المتأولين، الذين ليس عندهم تكذيبٌ للرسول ﷺ، ولكنهم ضلوا ببدعتهم، وظنوا أن ما هم عليه هو الحق، ولهذا اتفق الصحابة رضي الله عنهم في الحكم على بدعة الخوارج ومروقهم؛ كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فيهم، واتفقوا على عدم خروجهم من الإسلام؛ مع أنهم استحلوا دماء المسلمين وأموالهم،

---

(١) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص٢٤٥).

(٢) أي: عدم تكفير المعين إلا بعد توفر شروط التكفير، وانتفاء موانعه.

(٣) الفتاوى السعدية (ص٥٨٠-٥٨١) باختصار.

وأنكروا الشفاعة في أهل الكبائر، وكثيراً من الأصول الدينية، ولكن تأويلهم منع من تكفيرهم.

القسم الثالث: من هو دون هؤلاء ككثير من القدرية والكلابية والأشعرية؛ فهؤلاء مبتدعةٌ ضالون في الأصول التي خالفوا فيها الكتاب والسنة، وهي معروفة مشهورة، وهم في بدعهم مراتب بحسب بعدهم عن الحق وقربهم، وبحسب بغيهم على أهل الحق بالتكفير والتفسيق والتبديع، وبحسب قدرتهم على الوصول إلى الحق، واجتهادهم فيه، وضد ذلك»[1].

وقد وصف الشيخ -رحمه الله- أهل الأهواء والبدع بالضلال؛ حيث قال: «كان السلف يقولون: أهل السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم، وأهل البدع إن كثرت أعمالهم؛ قعدت بهم عقائدهم، ووجه الاعتبار أن أهل السنة مهتدون، وأهل البدع ضالون»[2].

وجعل -رحمه الله- اجتناب البدع من أحسن الطرق التي يسلكها العبد في أمور الدين، فقال: «أحسن طريق يسلكه العبد في أموره الدينية: الاجتهاد في تفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتحقيق الإخلاص للمعبود في كل عمل وقول وعقيدة وطريقة، وتحقيق متابعة الرسول ﷺ، واجتناب البدع الاعتقادية، والبدع العملية"[3].

٢. جواز قتل الدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم:

ومن الأحكام المتعلقة بأهل الأهواء والبدع في الدنيا: أنه يجوز قتل دعاة

---

(١) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص٢٤٥-٢٤٦).

(٢) الفتاوى السعدية (ص٤٤).

(٣) المصدر نفسه (ص٢٨).

البدع الذين لا ينكف شرهم، وهذا ما ذهب إليه الشيخ -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

قال: «ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفاً مكافئاً، ليس بوالد للمقتول.

وإما أن يكون مفسداً في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل»[١].

وهذا حكم السلف رحمهم الله تعالى مع دعاة البدع، فقد قتل خالد بن عبدالله القسري؛ الجعد بن درهم، وقتل سلم بن الأحوز الجهم بن صفوان[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما قتل الواحد المقدور عليه من الخوارج كالحرورية والرافضة ونحوهم فهذا فيه قولان للفقهاء هما روايتان عن الإمام أحمد، والصحيح أنه يجوز قتل الواحد منهم كالداعية إلى مذهبه ونحو ذلك ممن فيه فساد فإن النبي ﷺ قال: «**فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**»[٣]، وقال: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٢٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٢٤٦) (٩/ ٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (ح٦٥٣١) (٦/ ٢٥٣٩).

لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[1]، ولأن علي بن أبي طالب ﷺ طلب أن يُقتل عبد الله بن سبأ، أول الرافضة، حتى هرب منه، ولأن هؤلاء من أعظم المفسدين في الأرض، فإذا لم يندفع فسادهم إلا بالقتل قتلوا، ولا يجب قتل كل واحد منهم إذا لم يُظهر هذا القول، أو كان في قتله مفسدة راجحة، ولهذا ترك النبي ﷺ قتل ذلك الخارجي ابتداءً؛ لئلا يتحدث الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه، ولم يكن إذ ذاك فيه فسادٌ عام، ولهذا ترك علي ﷺ قتلهم أول ما ظهروا؛ لأنهم كانوا خلقاً كثيراً، وكانوا داخلين في الطاعة والجماعة ظاهراً، لم يحاربوا أهل الجماعة ولم يكن يتبين له أنهم هُم"[2].

وتنفيذ هذا الحكم - أعني قتل دعاة البدع - منوطٌ بولي أمر المسلمين، فهو من اختصاص الإمام المسلم، والحاكم الشرعي، وليس ذلك لآحاد الناس.

المطلب الثالث: الأحكام المتعلقة بأهل الأهواء والبدع في الآخرة:

ومن أحكام أهل الأهواء والبدع - الذين يفرحون ببدعهم ويَدْعُون إليها - في الآخرة استحقاقهم للعذاب يوم القيامة، فالمبتدع الذي يفرح ببدعته، ويدعو إليها، فإنه مستحق للعذاب يوم القيامة، كما ذكر الشيخ -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران الآية:١٨٨].

قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾أي: بمحل نجوة منه وسلامة؛ بل قد استحقوه، وسيصيرون إليه، ولهذا قال﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ويدخل في هذه الآية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٦] (ح ٣١٦٦) (٣/ ١٢١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٩٩- ٥٠٠).

الكريمـة :كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفـرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع"[١].

وذكر -رحمه الله- أن «العمل المبني على سوء القصد، وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين»[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص١٦٠) باختصار.

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٥٢).

المبحث الثالث: معالم منهج الشيخ السعدي في الرد على أهل الأهواء والبدع:

تنوع منهج الشيخ -رحمه الله- في عرضه لأقوال أهل الأهواء والبدع، والرد عليهم فيما خالفوا فيه منهج أهل السنة والجماعة، ويتجلى معالم منهج الشيخ -رحمه الله- فيما يلي:

المطلب الأول: الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة في الرد على أهل الأهواء والبدع:

لقد اتسم منهج أهل السنة والجماعة بالاعتماد على نصوص الكتاب والسنة في كل زمان ومكان، في شتى مناحي الحياة؛ ففيهما صلاح الدين والدنيا، وفيهما الهداية من كل ضلالة، والرشاد من كل غواية؛ بخلاف منهج أهل الأهواء والبدع، الذين أعرضوا عن نصوص الكتاب والسنة، واعتمدوا على العقل بديلاً للنقل، فضلوا وأضلوا.

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:« لقد وضَّح الله ﷻ ورسوله ﷺ في الوحيين؛ المسائل والدَّلائل، والحقائق اليَقِينِيَّة، والبراهين القطعِيَّة، فمن تَمسَّك بهما، واهتدى بِهَدِيِهِمَا سعد في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما، أو عارضهما؛ ضلَّ عن الهُدَى وشَقِيَ، ونال الصَّفقة الخاسرة»[1].

فأهل الأهواء والبدع كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية «لا يعتمدون على الكتاب والسنة وإجماع السلف، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، يتأوَّلون القرآن برأيهم وفهمهم؛ بلا آثارٍ عن النبي ﷺ وأصحابه، وإذا تَدبَّرت حُججهم وجدت

---

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين(ص ٣).

دعاوى لا يقوم عليها دليل»[١].

والشيخ السعدي -رحمه الله- في الرد على أهل الأهواء والبدع؛ سار على منهج السلف الصالح في الاعتماد على الكتاب والسنة، والاستدلال بنصوصهما، امتثالاً لقوله تعالى﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء من الآية: ٥٩].

قال -رحمه الله-: « والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حَكَماً، وأن يَرُدَّ ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله، وبذلك يكون دين العبد كله لله، وتوحيده خالصاً لوجه الله»[٢].

« فإنه لا أصدق من الله ورسوله قيلاً وحديثاً، ولا أعظم وأوضح من بيان الله ورسوله، وقد تكفل الكتاب والسنة - على وجه التفصيل - ببيان جميع ما يحتاجه العباد من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والحقوق، والمعاملات تفصيلاً وتوضيحاً لو اجتمعت العقلاء كلهم من أولهم إلى آخرهم لم يقدروا أن يأتوا بشيء يُقاربه في الحسن، والتوضيح، والإحكام»[٣].

وذكر -رحمه الله- أن المعرفة النافعة، هي المعرفة المتلقاة من الكتاب والسنة، «فينبغي للمؤمن أن تكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ؛ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٩).

(٢) القول السديد في مقاصد التوحيد (ص١٣٦)، وانظر كذلك: الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص ٦٦).

(٣) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة (ص ١٥٧).

فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة في يقينه، وطمأنينة في أحواله"[1]، «فكلما ازداد العبد معرفةً بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه، وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين»[2]؛ بل جعل الشيخ -رحمه الله- الكتاب والسنة المصدران الموصلان للحق، وما سواهما باطل وضلال حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: ٤] «هذه الآية جمعت كل علم صحيح، وذلك أن العلم: إما مسائل نافعة، وإما دلائل مصيبة؛ فأنفع المسائل المشتملة على الحق - وهو الصدق والعدل والقسط والاستقامة ظاهراً وباطناً - وأهدى الدلائل وأرشدها ما هدى السبيل الموصل إلى المطالب العالية، والمراتب السامية، فالكتاب والسنة كفيلان بهذين الأمرين على أكمل الوجوه، وأتمها وأبينها، وما سوى ذلك فهو باطل وضلال؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال، وما بعد الهداية إلى السبيل المستقيم إلا الهداية إلى سبيل الجحيم، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان من الآية: ٣٣]»[3].

وهذا المنهج ظاهر في كتب الشيخ -رحمه الله- تعالى في تقرير العقيدة بشكل عام، وعند الرد على أهل الأهواء والبدع على وجه الخصوص، فإنه يندر أن يتناول مسألة من مسائل الاعتقاد إلا ويستشهد على ذلك بأدلة الكتاب والسنة المطهرة.

وهذا المنهج في كتب الشيخ أعظم وأوضح من أن يُستدل عليه، ولكن سأذكر هنا بعض الأمثلة التي تبين هذا المنهج عند الشيخ -رحمه الله-؛ على سبيل المثال لا الحصر:

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٤٥).

(٢) المصدر نفسه (ص٤٦).

(٣) المواهب الربانية من الآيات القرآنية(ص٥٠).

- قال -رحمه الله-: «وفي قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة من الآية: ٢٤] ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافاً للمعتزلة، وفيها أيضاً: أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار؛ لأنه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٤﴾ فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافاً للخوارج والمعتزلة»[1].
- وقال عند تفسيره لقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[البقرة من الآية: ١٤٣] «وفي هذه الآية، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة: أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح»[2].
- وقال -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة الآية: ٢١٠] قال: «وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان»[3].
- وقال الشيخ -رحمه الله- في تفسير قول الحق I: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٦).

(٢) المصدر السابق (ص٧١).

(٣) المصدر نفسه (ص٩٤).

وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم الآية: ٥٢] «والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه: من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم»[1].

- وعند تفسيره لقوله ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير الآيتان: ٢٨-٢٩] قال: «فهذه الآية فيها: رد على القدرية النفاة، وعلى القدرية المجبرة، وإثبات للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة.

فقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ أثبتت أنه لهم مشيئة حقيقية، وفعلاً حقيقياً، وهو الاستقامة باختيارهم، فهذا رد على الجبرية، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن ﴾ أخبر أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنها لا توجد بدونها، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ففيها رد على القدرية القائلين: إن مشيئة العباد مستقلة، وليست تابعة لمشيئة الله؛ بل عندهم: يشاء العباد ويفعلون ما لا يشاؤه الله ولا يقدره»[2].

والأمثلة على هذا المنهج عند الشيخ -رحمه الله- كثيرة جداً، لا يمكن حصرها.

---

(١) المصدر نفسه (ص٤٩٦).

(٢) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص ٢٣).

المطلب الثاني: الاستشهاد بأقوال السلف في الرد على أهل الأهواء والبدع:

كان الشيخ -رحمه الله- يستشهد بأقوال السلف الصالح الذين عُرف عنهم الاتباع لنصوص الشرع، وسلامة المعتقد.

قال -رحمه الله-: «ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد، وغيره، يقولون: (ناظروا القدرية بالعلم، فإن أنكروا العلم كفروا، وإن اعترفوا به خصموا)، يعني: أن القدرية النافين لعلم الله بأفعال عباده، جاحدون لنصوص الكتاب والسنة، المصرحة بإحاطة علم الله، بما كان وما يكون من أعيان وأوصاف، وأفعال، مما دق وجل، فمن أنكر ذلك فقد كَذَّب الكتاب والسنة صريحاً، وذلك هو الكفر، وإن اعترفوا بإحاطة علم الله بكل شيء، وبأفعال العباد قبل وقوعها - كما هو القول الذي استقر عليه مذهبهم - خصموا»»[1].

واستشهد بقول الإمام مالك في مسألة الاستواء فقال: « قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش: (الاستواء معلوم. والكيف مجهول. والإيمان به واجب. والسؤال عنه بدعة)، فمن سأل عن كيفية علم الله، أو كيفية خلقه وتدبيره، قيل له: فكما أن ذات الله تعالى لا تشبهها الذوات، فصفاته لا تشبهها الصفات، فالخلق يعرفون الله، ويعرفون ما تعرف لهم به، من صفاته وأفعاله. وأما كيفية ذلك فلا يعلم تأويله إلا الله»[2].

وكان -رحمه الله- كثيراً ما ينقل إجماع السلف من أهل السنة والجماعة في المسألة التي يناقشها مع أهل الأهواء والبدع:

---

(١) المصدر السابق (ص ٢١).

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص ١٨٤).

قال -رحمه الله-: «وأما تقسيم بعض أهل الكلام الباطل: أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله؛ بل الفعل عندهم عين المفعول؛ فهذا قولٌ باطلٌ بالكتاب والسنة والإجماع من السلف»[1].

ونقل اتفاق المسلمين على أن الله خلق للعباد من القدرة والإرادة ما به يفعلون الطاعة أو المعصية فقال: «وهؤلاء القدرية أثبتوا أن الله خالق للعباد لأعيانهم وأوصافهم، ولم يثبتوا أنه خالق لأفعالهم، فأخرجوا أفعال العباد عن قدر الله، ولم يهتدوا إلى ما اهتدى إليه أهل السنة، من أن الله كما أنه الذي خلقهم، خلق ما به يفعلون من قدرتهم وإرادتهم، ثم فعلوا الأفعال المتنوعة من طاعة، ومعصية بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله باتفاق المسلمين»[2].

وقال أيضاً: «كما أجمع المسلمون: أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»[3].

وقال -رحمه الله- في حكم المتأول المخطئ: «اختلف الناس في المتأول المخطئ في الأصول من المؤمنين؛ فكثير من أهل الكلام والبدع فسقوه أو كفروه، وتبعهم من أخذ بقولهم على عِلاَّته.

ومذهب جمهور الأمة، وسائر الأئمة المقتدى بهم؛ أن الخطأ في المسائل العلمية كالخطأ في المسائل العملية، أن الله رفع المؤاخذة فيها عن المؤمنين المجتهدين، وإنما اللوم والإثم في ترك الواجب لغير عذر، أو التجرؤ على المحرم الذي يعلمه محرماً، والله تعالى أعلم»[4].

---

(١) الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين الكافية الشافية (ص ١٠١).

(٢) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص ١٨).

(٣) المصدر نفسه (ص: ١٨).

(٤) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد(ص١٢٧).

ونقل الإجماع كذلك على أنه لا يُثبت لله من الأسماء والصفات إلا ما ورد في الكتاب والسنة فقال: «ومما يجب أن يُعلم أن علماء السنة اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء الحسنى، والصفات العلى على الباري جل وعلا إذا ورد بها الإذن من الشارع، وعلى امتناعه على ما ورد المنع عنه»(١).

المطلب الثالث

الاستدلال بالعقل في الرد على أهل الأهواء والبدع:

الشيخ -رحمه الله- - كما سبق - سار على منهج السلف في الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة في الرد على أهل الأهواء والبدع امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء من الآية:٥٩]، إلا أنه في مناقشة أهل البدع؛ كان يستدل بالحجج والبراهين العقلية لبيان صحة مذهب أهل السنة والجماعة، وفساد مذهب أهل الأهواء والبدع.

فالعقل كما ذكر الشيخ -رحمه الله- « هو الدليل للعبد، وهو المرشد له في جميع المطالب، فما دام العقل عقلاً حقيقياً، فلا يترتب عليه إلا كل خير ونفع عاجل وآجل، وإنما يُخشى الشر والضرر من أحد أمرين: إما قصوره وتقصيره، وإما تعديه ومجاوزته الحد الذي حُدَّ له؛ إذا كان صاحبه في الحالين يعتقد استقامته وكماله، فحينئذ عليه أن يحترز من كل حالة منهما بما يليق بها ويناسبها»(٢).

إلا أن العقل يجب أن يكون مرتبطاً بالشرع، ومعتمداً عليه، قال الشيخ -رحمه

(١) تفسير أسماء الله الحسنى (ص١١).

(٢) الفتاوى السعدية (ص٥٣).

الله-: «ولكن العقل مُؤَيدٌ للشرع، ومعترفٌ بكمال الشرع وهدايته، وأنه مضطر إلى الشرع، ومُكْتمِلٌ بإرشاداته، ومُهْتدٍ بأنواره، فالعقول لا تستنير، ولا تستقيم حق الاستقامة؛ إلا بالدين والشرع»[1].

وكان الشيخ -رحمه الله- يرى أن الأدلة العقلية المذكورة في الكتاب والسنة أعظم مما عند المتكلمين من الأدلة؛ مع وضوح الدلالة، والسلامة من النقص، حيث قال:» فإن ما في الكتاب والسنة من البراهين العقلية، والأدلة الحسية، وتنبيه العقول على جميع المطالب العالية؛ ما لو جمعت جميع ما عند النظَّار والمتكلمين من البراهين لكان جزءاً يسيراً بالنسبة لما في الكتاب والسنة، مع وضوح دلالته، وسلامته من الغلط والنقص، والاختلال بوجه من الوجوه، وهي براهين يفهمها العالم والجاهل، والذكي والبليد»[2].

قال -رحمه الله- في الرد على من ينفي صفات الله ﷻ من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية ونحوهم، ويتأول لأجلها الآيات القرآنية، قال: «فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي؛ بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها؛ بل صريحها دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات؛ بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام

---

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة (ص ٢٣٠).

(٢) المصدر السابق (ص ١٥٧ - ١٥٨).

على الصفات، يتبع الكلام على الذات، فكما أن لله ذاتا لا تشبهها الذوات، فلله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه، تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه»[١].

وقد ذكر الشيخ السعدي -رحمه الله- أن إبطال قول الخصم يكون بأحد الأمور التالية:

- إبطال الدليل الذي استدل به.
- أو بإبطال دلالته على مطلوبه.
- وقد يكون بإبطال نفس المقالة التي ينْصُرُها وإفسادِها.
- وقد يكون بإثبات نقيض ما قاله الخصم قولاً ودليلاً؛ لأن النقيض للشيء متى صح أحدُهما بطل الآخر»[٢]

ومن البراهين والحجج العقلية التي كان يعتمد عليها الشيخ -رحمه الله- في نقض عقائد أهل الأهواء والبدع ما يلي:

١. **ذكر اللوازم الفاسدة على العقائد المبتدعة:** فكان -رحمه الله- يرد على أهل الأهواء والبدع بذكر اللوازم الفاسدة الباطلة؛ التي فيها مُشاقَّةٌ لله ورسوله، وفيها فسادٌ للدين والدنيا والآخرة.

- ومن ذلك ما ذكره -رحمه الله- عند عرضه لمعنى الإيمان عند الجهمية، وتفسيرهم له: بأنه المعرفة فقط، وإخراجهم أعمال الجوارح وقول اللسان من مسمى الإيمان، قال -رحمه الله-: «فمن لوازم هذا القول الفاسد، المعلوم فساده بالضرورة: أن إبليس وفرعون وقارون، وقوم عاد وثمود، وقوم نوح

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٩٤-٩٥).

(٢) انظر: المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص٤٩).

ونحوهم، وإيمان أبي جهل وأبي لهب ونحوهما من أئمة الكفر وسائر الكفرة الذين يعرفون أن الله خلقهم ليسوا كفاراً، وهذا اللازم لهذا القول الباطل؛ معلومٌ عند كل أحد أنه باطلٌ منكرٌ»[١].

- وقال -رحمه الله- في الرد على الجهمية الذين ينفون فعل العبد: «فلزمهم على تقريرهم هذا أمران باطلان:

أحدهما: أن تُنفى عن العباد قدرتهم على أفعالهم.

ثانياً: أن يُنفى صدورها منهم.

فيقال على قولهم: لم يقدروا على الإسلام والإيمان، ولا الصلاة والصيام ونحوها، وإذا فعلوها يصح أن يقال: لم تصدر منهم، وإنما يُقال ذلك على وجه المجاز لا الحقيقة.

فتصور قولهم بلوازمه المذكورة تعرف به فساده وبطلانه»[٢].

- وقال -رحمه الله- في الرد على الجبرية القائلين: بأن العبد مجبور على أفعاله: «ويلزم على قول الجبرية أيضاً: إسقاط الأمر والنهي؛ لأنه كيف يؤمر وينهى من لا قدرة له على امتثال الأمر، واجتناب النهي؟.

ويلزم أيضاً على قولهم: إسقاط الحدود عن جميع أهل الجرائم؛ إذ كيف يعاقبون وتقام عليهم الحدود، وهم غير قادرين؛ بل مجبورون؟! فهذا القول الباطل مخالف لجميع أصول الدين وفروعه.

ويلزم أيضا على قول الجبرية: تعطيل الأسباب الدينية والدنيوية، وذلك: أن الله تعالى جعل الأسباب موصلة إلى مسبباتها؛ وأمر العباد بسلوك كل سبب نافع

---

(١) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص ١٦- ١٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٦) باختصار.

لهم في دينهم ودنياهم»[1].

وهذه اللوازم التي ذكرها الشيخ -رحمه الله- في غاية القوة والوضوح في نقض عقائد أهل الأهواء والبدع، فالمبتدعة لا يستقيم لهم قول، ولا يصح لهم دليل؛ لمخالفتهم الصريحة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢. ضرب الأمثال ليحصل المقصود ويزول الإشكال:

وهذا المنهج الذي سار عليه الشيخ -رحمه الله-، هو طريقة الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، يحصل به البيان والمقصود، ويزول به الشك والحيرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان، وضَرْبُ الأمثال مما يَظْهَر به الحال، وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده»[2].

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:» فهذه الطريقة من طرق التعليم العالي، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه للأمور المهمة، وكذلك النبي ﷺ قد ضرب الأمثال ليحصل البيان ويزول الإشكال"[3]، كما أن «الأمثلة تزيد البصير بصيرة، وتزيل عن الشاك، الطالب للحق؛ الريب والحيرة»[4].

ثم ضرب -رحمه الله- بعض الأمثلة المتنوعة، والمتعلقة بمسألة القضاء والقدر، وهي[5]:

---

(١) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص ٢٥).

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٤٧- ٣٤٨) باختصار.

(٣) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص ٣٣).

(٤) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص ٨١).

(٥) المصدر نفسه (ص ٨٢ - ١٠٢)، وقد آثرت عدم ذكر تفاصيل هذه الأمثلة خوفاً من الإطالة.

المثال الأول: المحاورة بين رجل عاصٍ مسرف، وصاحبه الناصح.

المثال الثاني: رجل جاء لبعض العلماء، فقال له: أحب أن ترشدني إلى أمر يطمئن له قلبي، وتقنع به نفسي، من جهة القضاء والقدر.

المثال الثالث: قضية الرجل الجبري الذي كان يعتذر بالقدر عند كل جليل وحقير، حتى آلت به الحال إلى الاستهتار، وانتهاك أصناف المعاصي، وكلما نُصح ولِيمَ[1] على أفعاله، جعل القدر حجة له في كل أحواله.

المثال الرابع: مخاصمة بين القدري والجبري، فالقدري يعتقد: أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله وبين جبري يعتقد ضد ذلك، وأنهم مجبورون على أفعالهم، واقعة بغير اختيارهم؛ لأنهما متباعدان في طرفي نقيض، فاتفقا على التحاكم إلى عالم من علماء أهل السنة، يعرفان كمال معرفته، وكمال دينه.

المثال الخامس: في الآجال والأرزاق، وأنهما كسائر الأشياء؛ مربوطة بقضاء الله وقدره، فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؛ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف الآية: ٣٤]، فهذا أمر لا ريب فيه ولا شك، ومع ذلك فهي أيضاً كغيرها: لها أسباب دينية، وأسباب طبيعية مادية، والأسباب تبع قضاء الله وقدره.

---

(١) من اللوم، يعني: لامه أحد على فعله.

المطلب الرابع: عرض أقوال أهل الأهواء والبدع وشبههم ثم الرد عليها:

كان الشيخ -رحمه الله- يعرض أقوال أهل الأهواء والبدع، وشبههم، ثم يشرع في الرد عليها ونقضها، وتفنيدها بالنصوص الشرعية، والدلائل العقلية، وهذا المنهج شائع وظاهر في كتبه -رحمه الله-.

- **قال -رحمه الله- في عرضه لمذهب الجبرية:** « الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله؛ وإنه لا قدرة له على شيء منها؛ بل هي عندهم واقعة بغير اختياره.

وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس، وجميع المسلمين من جميع الطوائف أهل السنة وغيرهم ينكرون هذا المذهب ويتبرؤون منه.

فيقول هذا المشبه على المسلمين، المشكك لهم: إذا كان الله قضى عليَّ بالكفر، وقدَّر عليَّ ألا أكون مسلماً، أو قدَّر عليَّ المعاصي، وألا أكون طائعاً؛ فكيف لي الخلاص من الكفر والمعاصي؟.

وكيف أتمكن من الإيمان والطاعة بعدما قضى عليَّ الكفر والمعصية؟ فهل أكون معذورا إذا تجرأت على الكفر والفسوق والعصيان، وأنا لا حيلة لي في الانفكاك عنها؟.

وكيف أجمع بين الرضا بالقضاء، وبين الرضا بالمقضي، من الكفر والمعاصي؛ فإن الله لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان، فكيف قدرها علي، وهو لا يرضاها؟.

وجوابه على وجه الإجمال بسيط ولله الحمد، فإنه لا يَرِدُ على مذهب جمهور طوائف المسلمين، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى المشهود لهم بالعلم والإيمان؛ بل ولا على مذهب المعتزلة والقدرية والخوارج وغيرهم من

أهل البدع، فإن الجميع يقولون بما جاء به الكتاب والسنة من إثبات الأصلين:

أحدهما: الاعتراف بأن جميع الأشياء كلها أعيانها، وأوصافها وأفعالها بقضاء وقدر، لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته؛ بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والأصل الثاني: أن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي وغيرها واقعة بإرادتهم وقدرتهم؛ وأنهم لم يجبروا عليها؛ بل هم الذين فعلوها؛ بما خلق الله لهم من القدرة والإرادة.

فهذا الإيراد الذي أورده هذا المشكك وما أشبهه من الإيرادات التي يحتج بها أهل المعاصي بالقدر، يجيبونهم بهذا الجواب المفحم فيقولون: دلت أدلة الكتاب والسنة الكثيرة على أن الله خالق كل شيء، وعلى كل شيء قدير، وأنَّ كل شيء بقضاء وقدر: الأعيان والأوصاف والأفعال.

ودلت أيضاً أدلة الكتاب والسنة: أن العباد هم الفاعلون لفعلهم حقيقة بقدرتهم واختيارهم، فإنه تعالى نسب إليهم، وأضاف إليهم كل ما فعلوه من إيمان وكفر، وطاعة ومعصية، وإنه تعالى مكَّنَهم من هذا ومن هذا، ولكنه تعالى حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وولى الآخرين ما تولوا لأنفسهم، حيث اختاروا الشر على الخير، وأسباب العقاب على أسباب الثواب، وهذا كما أنه معلوم بالضرورة من الشرع، فهو معلوم بالحس الذي لا يمكن أحدا المكابرة فيه، فإن العبد يفرق بين أفعاله التي يقسر ويجبر ويقهر عليها، وبين أفعاله التي يختارها ويريدها، ويحب حصولها[1].

- **وقال في مذهب القدرية النفاة**: «وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون: إن أفعال العباد، وطاعاتهم ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره.

---

(١) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص ٩ - ١٣) باختصار.

فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها، ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يُرِدْهَا ولم يَشَأْها منهم؛ بل هم الذين أرادوها وشاؤوها، وفعلوها استقلالاً بدون مشيئة الله.

ويزعمون أنهم بهذا القول ينزهون الله عن الظلم؛ لأنه لو قَدَّر المعاصي عليهم، ثم عذبهم عليها، لكان ظالماً لهم، وللزم من إثبات قدرة الله على أفعالهم الجبر، الذي هو باطل بالشرع والعقل.

ولكنهم بهذا القول الباطل ردوا نصوصاً كثيرة من الكتاب والسنة، تُثبت وتُصرِّح أن جميع أعمال العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية؛ بقضاء الله وقدره، كما أجمع المسلمون أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»[1] .

المطلب الخامس: العدل والإنصاف في الرد على أهل الأهواء والبدع:

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-: «قد أمر الله بالعدل في مواضع كثيرة من كتابه، وأمر بالعدل بين الناس في المقالات، والمذاهب، والدماء، والأموال، والأعراض، وسائر الحقوق، ونهى عن الظلم في كل شيء، وذم الظالمين، وذكر عقوباتهم»[2].

وهذا منهج رباني، وسنة نبوية؛ يجب مراعاته مع القريب والبعيد، وفي حال المحبة، أو العداوة والبغض، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة الآية:٨].

(١) المصدر السابق (ص ١٧- ١٨) باختصار.

(٢) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة (ص ٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم أنا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة مثل الملوك المختلفين على الملك والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل لا بجهل وظلم، فإن العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرم مطلقاً لا يباح قط بحال، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾، وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار وهو بغضٌ مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نُهي صاحبه أن يظلم من أبغضه؛ فكيف في بغض مسلم بتأويلٍ وشبهةٍ، أو بهوى نفس، فهو أحق أن لا يُظلم بل يعدل عليه، وأصحاب رسول الله ﷺ أحق من عدل عليهم في القول والعمل، والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه ومحبته، والثناء على أهله ومحبتهم، والظلم مما اتفقوا على بغضه وذمه وتقبيحه وذم أهله وبغضهم»[1].

قال الشيخ السعدي -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢] قال:» ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَٱعْدِلُوا۟﴾ في قولكم، بمراعاة الصدق في من تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه، أو في مقالته؛ من الظلم المحرم؛ بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يُعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبُعدها منه"[2].

ومن الأدلة كذلك على وجوب العدل والإنصاف، قوله تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ

(١) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٢٦ - ١٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٨٠).

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ [النساء الآية: ١٣٥].

قال الشيخ السعدي -رحمه الله- :"يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ والقوَّام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته؛ بل تصرف في طاعته، والقسط في حقوق الآدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك، كما تطلب حقوقك، ومن أعظم أنواع القسط: القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما؛ بل يجعل وجهته العدل بينهما"[1].

وقد جعل -رحمه الله- اتباع الهوى سبباً وعائقاً مانعاً من العدل والقسط مع الناس، حيث قال: «والقيام بالقسط من أعظم الأمور، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نُصْب عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به، وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ النساء الآية: ١٣٥]، أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه؛ حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم»[2].

وبين -رحمه الله- أن هذا المنهج المعتدل عند أهل السنة والجماعة سببه التسليم والاتباع للكتاب والسنة حيث قال: « فأهل السنة والجماعة عندهم من

---

(١) المصدر نفسه (ص ٢٠٨) باختصار.

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٠٨ - ٢٠٩).

الأصول الصحيحة، وملازمة ما دل عليه الكتاب والسنة، والتصديق بذلك كله، والخوف من الله ما يمنعهم من التعدي على الخلق، وعلى أعدائهم من أهل البدع والكلام الباطل، ولا يحملهم بغضهم وعداوتهم على مجاوزة الحد فيهم؛ بل ينزلون كلاً من أقسامهم منزلته، متبعين في ذلك ما جاء به الوحي، وما دلت عليه أصوله»[1].

وقال -رحمه الله- في شرحه للكافية الشافية: «أما أهل السنة والجماعة فيسلكون معهم ومع جميع أهل البدع المسلك المستقيم، المبني على الأصول الشرعية، والقواعد المرضية، ينصفونهم، ولا يكفرون منهم إلا من كفره الله ورسوله»[2].

فمن إنصافه -رحمه الله- في عرضه لمقالات أهل الأهواء والبدع أنه لا يستخدم أسلوب التعميم على كامل من ينتسب إلى الفرقة التي يعرض أقوالها، يقول -رحمه الله- عن مذهب القدرية: «فأما القدرية النفاة؛ فهم الذين يُطلق عليهم أكثر العلماء اسم القدرية، وأكثر أهل المعتزلة على هذا المذهب الباطل»[3].

فلم يجعل هذا القول - أي نفي القدر - قولاً للمعتزلة كافة، ولم يستخدم منهج التعميم؛ الذي يسير عليه من قلت بضاعته من العلم، وهذا يدل على عدله وإنصافه في نسبة المذهب إلى أصحابه.

ومن إنصافه -رحمه الله- أنه يذكر ما عند أهل الأهواء والبدع من الحق، ولا يقصره على أهل السنة والجماعة فقط، فعندما ذكر مذهب الجبرية القائلين: إن العبد مجبور مقهور على جميع أقواله وأفعاله؛ وأنه لا قدرة له على شيء منها، قال:

---

(١) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص٢٤٦).

(٢) المصدر السابق (ص٢٤٤).

(٣) الدرة البهية شرح القصيدة التائية (ص١٧) باختصار.

«وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس؛ وجميع المسلمين من جميع الطوائف - أهل السنة وغيرهم - ينكرون هذا المذهب ويتبرؤون منه، مذهب الجبرية الذي يتبرأ منه جميع الطوائف سوى غلاة الجهمية، فإنه - أي: مذهب الجبرية - لا يرد على مذهب جمهور طوائف المسلمين، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى المشهود لهم بالعلم والإيمان؛ بل ولا على مذهب المعتزلة والقدرية والخوارج وغيرهم من أهل البدع»[1].

ومن عدله وإنصافه -رحمه الله- مع الأشخاص بأعيانهم، ما ذكره عن ابن الجوزي -رحمه الله-[2] في مسألة الصفات، وما وقع منه في كتابه (صيد الخاطر) حيث قال الشيخ -رحمه الله-: «ابن الجوزي -رحمه الله- وغفر له إمامٌ في الوعظ والتفسير والتاريخ، وكذلك هو أحد الأصحاب المصنفين في فقه الحنابلة، ولكنه -رحمه الله- خلط تخليطاً عظيماً في باب الصفات، وتبع في ذلك الجهمية والمعتزلة، فسلك سبيلهم في تحريف كثير منها، وخالف السلف في حملها على ظاهرها، وقدح في المثبتين، ونسبهم إلى البلاهة، وهذا الموضوع من أكبر أغلاطه، ومع ذلك فإن له تصانيف كثيرة جداً حسنة، فيها علم عظيم، وخير كثير، وهو معدودٌ من الأكابر الأفاضل»[3].

---

(١) المصدر نفسه (ص١٠).

(٢) وإن كان ابن الجوزي -رحمه الله- لا يصنف ضمن أهل البدع، وإنما كما ذكر الشيخ أن كل أحد مأخوذ من كلامه ومتروك سوى النبي ﷺ، ولولا أن هذه الكتب موجودة بين الناس؛ لكان الإنسان في مندوحة عن الكلام فيه، لأنه من أكابر أهل العلم وأفاضلهم، وهو معروف بالدين والورع والنفع، ولكن لكل جواد كبوة. انظر: الفتاوى السعدية (ص٧٥).

(٣) الفتاوى السعدية (ص ٧٥- ٧٦) باختصار.

الخاتمة

وبعد: فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أحمده ﷻ على فضله وإنعامه، وأشكره على توفيقه وامتنانه، وأصلي وأسلم على خير خلقه ﷺ، وأسأل الله ﷻ كما أعانني على إكمال هذا البحث وإتمامه؛ أن يتقبله، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

أهم نتائج البحث:

أما أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث فهي كالتالي:

- أن البدعة عند الشيخ السعدي: « كل ما أُحدِث في الدين ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كان من البدع القولية الكلامية، أو من البدع العملية».

والمبتدع عنده:» من أَخْبَر بغير ما أخبر الله به ورسوله ﷺ، أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ورسوله، ولم يشرعه، أو حرَّم ما لم يحرمه الشارع، وأضاف -رحمه الله- إلى المبتدعة من حرَّم المباحات.

- أن البدع تتفاوت بحسب قربها أو بعدها عن الحق.
- جواز قتل الدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم، واستحقاقهم للعذاب يوم القيامة، وتنفيذ حكم القتل على دعاة البدع منوطٌ بولي أمر المسلمين.
- التزام الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله- بمنهج أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد عموماً، وفي الرد على أهل الأهواء والبدع على وجه الخصوص، وفي هذا أكبر دليل، وأبلغ رد على من يكيل الاتهامات لعلماء هذه البلاد المباركة، ويصفهم بالتشدد والتطرف، والبعد عن منهج الوسطية.
- براعة الشيخ -رحمه الله- في عرض أقوال أهل الأهواء والبدع، واستقرائه لها،

وبراعته كذلك في الاستدلال بالعقل للرد على أهل الأهواء والبدع، كل ذلك بألفاظ سهلة واضحة، يفهمها العالم والجاهل.

- أن منهج الشيخ -رحمه الله- اتسم بالعدل والإنصاف في رده على أهل الأهواء والبدع.
- أن الذي يقرأ في كتب الشيخ -رحمه الله- يجد لذلك أثراً في نفسه، وكأنك تقرأ لعلماء السلف المتقدمين، ولا أرى جامعاً في ذلك؛ إلا الإخلاص الذي جعل على كلامه نوراً، وقبولاً عند من يقرأه، وصدق والله عندما قال: "كل ذلك لا بد فيه من الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ فمن جمع الله له الأصلين أفلح وسعد، ومن فاته الأمران أو أحدهما خسر خسراناً مبيناً، ومن كان تارة وتارة استحق من الخير والثواب والمدح بقدر إخلاصه ومتابعته قلة وكثرة، وقوة وضعفاً؛ فلا أنفع للعبد من جعل الإخلاص والمتابعة نصب عينيه في كل ما يأتي وما يذر، وفي كل ما يقول ويفعل؛ حتى يكون الإخلاص له نعتاً والمتابعة له وصفاً، وتضمحل عن قلبه جميع المقاصد والأغراض المنافية للإخلاص"[(١)].

رحم الله الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، وجزاه عن المسلمين خير الجزاء، وجعل ما كتبه وسطره رفعة في درجاته، وعُلوّاً في منزلته.

كما أسأل الله ﷻ للقائمين على هذا المؤتمر أن يبارك لهم في أعمارهم وأوقاتهم، وأن يُصلح لهم النية والذرية، وأن يجزيهم خيراً على جهدهم ووقتهم،

---

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي (٢١/ ١٢٧).

وألا يحرمهم الأجر والمثوبة، لقاء ما قاموا به لإقامة هذا المؤتمر، والذي سيسهم بلا شك في إبراز التراث العلمي الزاخر الذي تركه الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله- تعالى .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِين

المراجع

- الإبانــة الكــبرى، لأبي عبد الله عبيــد الله بن محمد حمــدان العُكْبَري، تحقيق/ رضا معطـي، وعثمان الأثيوبي، ويوسـف الوابل، والوليد بن سـيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الثانية/ ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م
- الاسـتقامة لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق/ د. محمد رشـاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة، الطبعة الأولى/ ١٤٠٣هـ.
- الاعتصام، لإبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان - الخُبر، الطبعة الأولى/ ١٤١٨هـ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق/ محمد عبدالسـلام إبراهيـم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- أيسـر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الخامسة/ ١٤٢٤هـ.
- البداية والنهاية، لأبي الفداء إسـماعيل بن عمر بن كثير القرشـي الدمشـقي،تحقيق/ علي شيري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- بهجـة قلـوب الأبـرار وقرة عيـون الأخيار في شـرح جوامـع الأخبار، لأبـي عبد الله عبدالرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سـعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق/ عبد الكريم بن رسمي ال الدريني، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- تفسـير أسماء الله الحسنى، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دراسة وتحقيق: عبيـد بن علي العبيد، الناشـر/ الجامعة الإسـلامية بالمدينة المنـورة، العدد ١١٢ - السنة ٣٣ - ١٤٢١هـ.
- تفسـير الطـبري، جامع البيان في تأويـل القرآن، لمحمد بن جريـر الطبري، تحقيق /

أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى / ١٤٢٠ هـ.

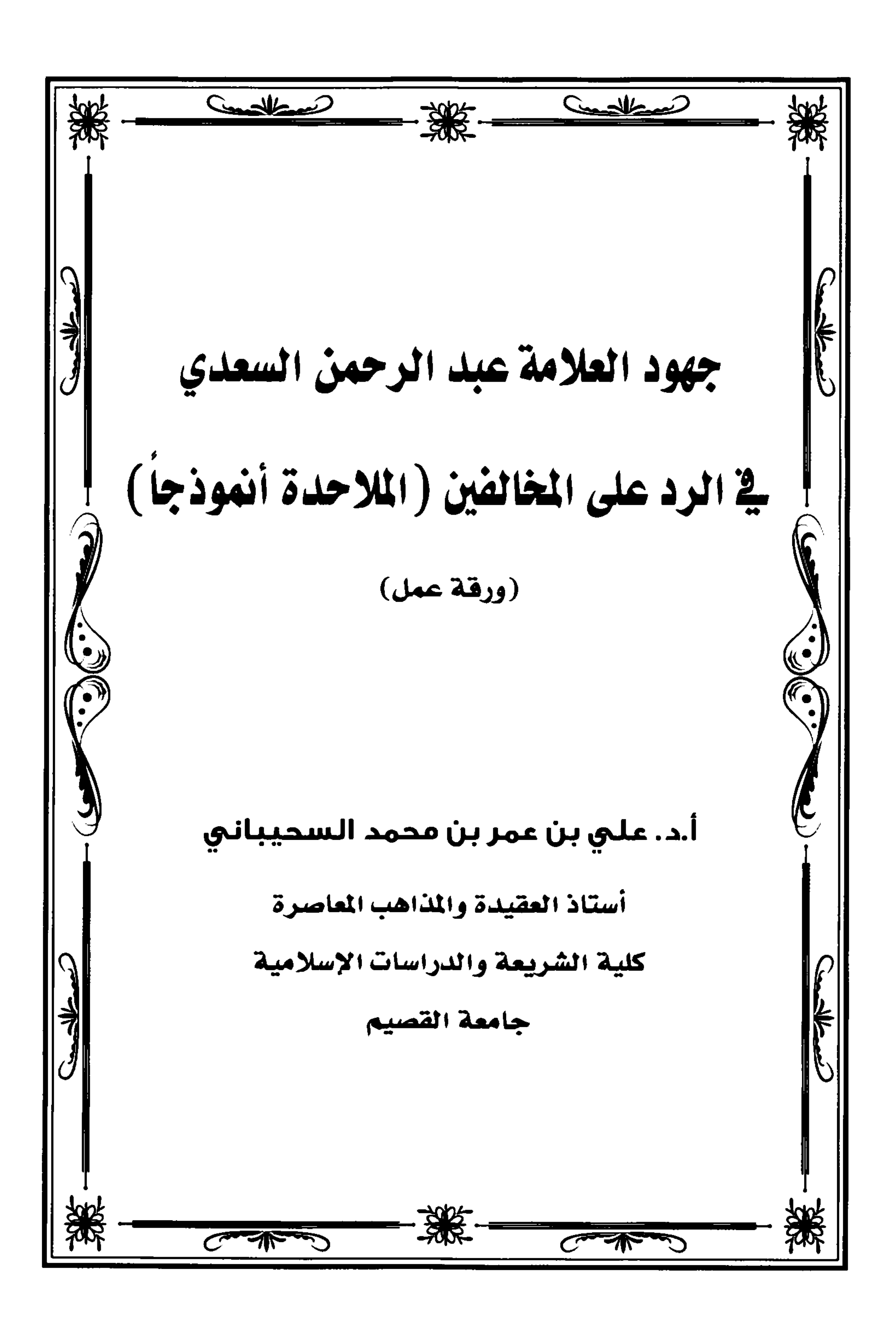
- توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيم الجوزية، للشيخ/ عبدالرحمن ابن ناصر السعدي، اعتنى به ونسَّقه وعلق عليه/ أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤٢٠ - ٢٠٠٠م.
- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به/ ياسر ابن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤٣٦هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق/ عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى/ ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري دار الجيل - بيروت، دار الأفاق الجديدة - بيروت.
- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن القيم، الطبعة الثانية/ ١٤٠٧ه - ١٩٨٧م.
- الحوادث والبدع، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، تحقيق/ بشير محمد عيون، الطبعة الثانية/ ١٤١٢هـ، مكتبة المؤيد - الطائف.
- الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق/ أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار المنهاج - القاهرة، الطبعة الأولى/ ١٤٢٦ه - ٢٠٠٥م.
- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة/ بدون.

- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة/ بدون.
- سؤال وجواب في أهم المهمات، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى بنشرها وتحقيقها وتخريج أحاديثها/ عبد السلام بن برجس العبد الكريم، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الثالثة/ ١٤٠٨هـ.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق / د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - بيروت، الطبعة الثالثة/ ١٤٠٧ه .
- الفتاوى السعدية، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الثانية/ ١٤٠٢ه - ١٩٨٢م .
- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع وترتيب/ أحمد بن عبد الرزاق الدويش، لناشر/ رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الإدارة العامة للطبع - الرياض .
- القواعد الفقهية (المنظومة وشرحها)، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى بها/ محمد بن ناصر العجمي، إصدار المراقبة الثقافية - إدارة مساجد محافظة الجهراء، الطبعة الأولى/ ١٤٢٨ - ٢٠٠٧م .
- القول السديد في مقاصد التوحيد، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به/ د. المرتضى الزين أحمد، مجموعة التحف النفائس الدولية للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤١٦ه - ١٩٩٦م.
- كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال، تحقيق / د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، الطبعة بدون .
- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، الطبعة الأولى/ ١٩٩٧م، دار صادر - بيروت.
- مجموع الفتاوى، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف

الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

- مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة الأولى/ ١٤٣٢ه - ٢٠١١م.
- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تحقيق / عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، سنة النشر ٢٠٠٠م.
- المحيط في اللغة، لأبي القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس، تحقيق/ الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤١١ه- ١٩٩٠م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية - بيروت، الطبعة : بدون.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق / عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت، الطبعة الثانية / ١٣٩٩هـ.
- المُغْرب في ترتيب المُعْرب لناصر الدين بن عبد السيد بن علي المُطَرِّزِىّ، تحقيق/ محمود فاخوري، و عبدالحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد - حلب، الطبعة الأولى/ ١٩٧٩م.
- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي، تحقيق/ محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى/ ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق/ محمد رشاد سالم، الناشر/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

- المواهب الربانية من الآيات القرآنية، للشيخ/ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به/ عمر بن عبدالله المقبل، دار الحضارة للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى/ ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- الهوى وأثره في الخلاف، لعبدالله بن محمد الغنيمان، دار ابن الجوزي - الدمام، القاهرة، الطبعة الأولى/ ١٤٢٩هـ



جهود العلامة عبد الرحمن السعدي

في الرد على المخالفين (الملاحدة أنموذجاً)

(ورقة عمل)

أ.د. علي بن عمر بن محمد السحيباني

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة القصيم

المقدمة:

الحمد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، واشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وبعد:

فإنه مما لا شك فيه أن هناك طرقا وأبوابا عديدة للدعوة إلى عقيدة السلف؛ فكل يسلك الطريق الذي ييسره الله له؛ إلا أن الله قد بارك لبعض خلقه، فاستعملهم في نشر العقيدة الصحيحة، ويسر لهم كل الطرق وفتح لهم جميع الأبواب.

وكان من هؤلاء؛ العلامة عبد الرحمن السعدي الذي بارك الله له؛ فلم يترك الشيخ طريقا يوصل إلى المعتقد الصافي إلا سلكه.

ومن أبرز الطرق التي سلكها الشيخ والأبواب التي فتحها في نشر دعوته لعقيدة السلف هو التصدي بالرد على المخالفين لمعتقد أهل السنة، وذلك بدحض شبههم وإبطال حججهم.

وإبرازا لهذا المسلك الهام الذي سلكه الشيخ ضمن جهوده لنشر عقيدة السلف أذكر بعضاً من ردوده لشبهات الملاحدة كنموذج لهذا المسلك.

ولبيان جهود الشيخ عملت وفق الخطة التالية:

المبحث الأول: الرد على المخالف، وفيه:

- أهمية الرد على المخالفين.
- أقسام الناس في الرد على المخالف.

- **المبحث الثاني: جهود الشيخ ابن سعدي في الرد على الإلحاد، وفيه:**
- نماذج عامة من جهود الشيخ في التصدي للإلحاد.
- سبب الإلحاد، ودواعي انتشاره.
- الوقاية من خطر الإلحاد.
- الإلحاد المعاصر.
- رد المذهب الإلحادي، والمنهج العام للشيخ في بيان ذلك.
- **المبحث الثالث: مصنفات الشيخ في مناقشة الملحدين ومنهجه في الرد عليهم:**
- وقفات مع رسالة: "تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله".
- وقفات مع رسالة "الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين".
- وقفات مع رسالة "انتصار الحق".
- **الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.**

وقبل أن أنهي هذه المقدمة أتقدمُ بأزكى الشكرِ وأطيبه لجامعتنا المباركة، على ما تقدمه من عونٍ وجهدٍ في سبيلِ نشرِ العلمِ والمعرفةِ، وأخصُ بالشكرِ والتقديرِ القائمين على هذا المؤتمر جزاء ما يبذلونه من جهودٍ مباركةٍ آتت ثماراً يانعة، للتعريف بهذا الإمام وجهوده للأمة فجزاهم الله خيرَ الجزاء.

هذا وأسألُ الله تعالى التوفيق والسداد في القول والعمل، كما أسأله سبحانه بأسمائِه الحسنى وصفاته العلا أن يوفقنا جميعاً للعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وأن يعيننا جميعاً على ما قصدنا من خدمةِ الدين والعلم بهذا المؤتمر، والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: الرد على المخالف:

أهمية الرد على المخالفين.

إن مناظرة المخالفين والرد عليهم من الأصول العظيمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، ومعلوم أن هذا أصل مهم، وبه حُفظت بيضة السنة، وكان -بعد توفيق الله- درعاً متيناً تكسرت عليه رماح المبتدعة وسهامهم المغرضة، حتى كان بعض السلف يُعرض نفسه للقتل لعدم تركه الرد على المخالف.

قال ابن طاهر المقدسي الحافظ: سمعت أبا إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري يقول: "عُرضتُ على السيف خمس مرات، لا يقال لي ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت"(١).

أقسام الناس في الرد على المخالف.

وقد كثر اليوم الخوض في مسألة الرد على المخالف، وصار الناس في هذه المسألة وأشباهها من المسائل الشرعية إلى ثلاثة أقسام؛ طرفان ووسط.

فقسم غالٍ: ما إن يرَ من طائفة أو فرد -كائناً من كان- بدعة أو مخالفة، إلا وينتصب للرد عليه وإيقاع أحكام المبتدعة والضالين على ذلك المخطئ، متدرعاً بمقالات السلف في الرد على المخالف وعقوبته وزجره، دون مراعاة للشروط والضوابط الشرعية، بل ربما اشتط وزاد على ذلك بإغلاق باب الاجتهاد، ومنع التقليد لغيره في ذلك، وصار يوالي ويعادي على قوله، فيجره ذلك إلى مفاسد أعظم من مفسدة الخطأ والبدعة التي تصدى لإنكارها، كإحداث الفرقة بين أهل السنة، والتنفير منهم، ونشر الضغائن والأحقاد بين المنتسبين للعلم، وغير ذلك.

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٠٧).

وقسم ثانٍ: لا يقل خطراً عن الأول: تجافى عن العمل بهذا الأصل العظيم والجهاد الكبير، وعما يترتب عليه من العقوبات الشرعية للمخالفين بحجة جهاد الكفار، ووحدة صف المسلمين، وترك الاختلاف والتفرق وغير ذلك، فأدى ذلك إلى مفسدة أكبر مما خاف من وقوعه، كانتشار البدع، وظهور رؤوس الفرق، ورواجهم بين عامة أهل السنة، واختلاط السنة بالبدع ومحدثات الأمور، وغير ذلك.

وهذان القسمان: قال في شأنهما ابن تيمية: "قد يبغى بعض المستنة -يعني أهل السنة- إما على بعضهم، وإما على نوع من المبتدعة، بزيادة على ما أمر الله به، وهو الإسراف، المذكور في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾

وبإزاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق، أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في هذه الأمور كلها، فما أحسن ما قال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين، لا يبالي بأيهما ظفر غلواً أو تقصيراً»[1].

وقسم ثالث: هم الوسط: آمنوا بمشروعية الرد على المخالف وضرورة القيام به، لكن بفقه وعلم وحكمة، وفق أحكامه وضوابطه الشرعية وهؤلاء هم أتباع سنة النبي ﷺ، والسلف الصالح حقاً[2].

وكان من هذا القسم في هذه العصور المتأخرة؛ الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، الذي اتبع منهج الله المتمثل في كتابه وسنة نبيه ﷺ، ملتزما في ذلك نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٤٨٣).

(٢) ينظر: مقدمة كتاب شذور ولطائف في آداب الرد على المخالف لحمد بن عبد العزيز ابن عتيق.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في شرحه لحديث: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[1]: «فيدخل في ذلك التفقه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهرا وباطنا، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة»[2].

وفي هذا البحث المختصر أعرض ما تيسـر من جهود الشيخ ومنهجه في ردوده على المخالفين من خلال رده على الملاحدة خصوصا، مسـتلهمـاً ذلك من بعض كتابته ورسائله.

(١) البخاري (١٠٣٧).

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص:٢٢).

المبحث الثاني: جهود الشيخ ابن سعدي في الرد على الإلحاد.

نماذج عامة من جهود الشيخ في التصدي للإلحاد.

إن الناظر في كتب ورسائل العلامة عبد الرحمن السعدي يجد أنه كان حريصا كل الحرص على منازلة أهل الإلحاد؛ فكلما سنحت له فرصة في الرد عليهم انتهزها ووجه إليهم ردودا تقضي على ما يبثونه من شبهات، وما ينطقون به من ضلالات.

وفيما يلي استعراض بعض النماذج من ردود الشيخ على الإلحاد، والملحدين، وهي قليل من كثير؛ توضح للقارئ كم كان الشيخ غيورا على دينه، بصيرا بمواضع الخطر، قويا في الحق، لا يخشى في الله لومة لائم، حريصا على الدعوة لله تعالى، ناصحا للإسلام وأهله.

مع ما تميز به الشيخ السعدي رحمه الله بإدراك الواقع من حوله، وكان شأنه كشأن الربانيين من العلماء يستشعر الخطر الزاحف على أمة الإسلام ويعلم من أي الأبواب يأتي الخطر، وما ذلك إلا لسعة اطلاعه وفهمه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولاقتفائه أثر العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولا سيما شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم.

وبهذا الإدراك استشعر الشيخ قدوم الإلحاد غازياً أفكار المسلمين وأراضيهم.

يقول الشيخ رحمه الله: «نبغت في هذه الأزمان المتأخرة فرقة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ما جاءت به الرسل، وأنكروا وجود الباري، ولم يثبتوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التي وصلت إليها معارفهم القاصرة، فبناء على هذا المذهب الذي هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعا وعقلا أنكروا آدم وحواء، وما ذكره الله ورسوله عنهما، وزعموا أن هذا الإنسان كان حيوانا قردا، أو شبيها بالقرد، حتى

ارتقى إلى هذه الحال الموجودة، وهؤلاء اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة، خصوصا ما جاءتهم به الرسل، وصدق عليهم قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [غافر: ٨٣]، وهؤلاء أمرهم ظاهر لجميع المسلمين، ولجميع المثبتين وجود الباري، يعلمون أنهم أضل الطوائف، ولكن تسرب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهري بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول»[١].

- **سبب الإلحاد، ودواعي انتشاره:**

قرر الشيخ في كثير من المواضع أن سبب الإلحاد هو اتباع العقل وإعماله فيما لا اختصاص له فيه، وبين أن العقول قاصرة وغير مؤهلة لاكتشاف جميع العلل والحكم للكون وحوادثه، وأن العقول مهما نضجت لابد لها من الزلل والاضطراب في ظل بعدها عن خالقها.

يقول الشيخ رحمه الله: «إن ملاحدة الفلاسفة المعطلين لله ولكتبه ورسله، المكذبين لهم أوقعتهم عقولهم الفاسدة في الهلاك، حيث حكموها في البحث عن علة إيجاد هذا الكون فلم تهتدِ لذلك لقصورها وتقصيرها، فزعم كثير منهم أن هذا العالم قديم، وأنه لم يزل ولا يزال؛ وبذلك أنكروا وجود الرب العظيم. ومن باب أولى أنكروا رسله، وكتبه وتضاربت نظرياتهم الفاسدة فضلوا وأضلوا. ولقد صدق عليهم قوله تعالى﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[غافر:٨٣] ثم إن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة في هذه الأوقات أبطلوا بأنفسهم نظرية أسلافهم وأحدثوا لهم نظريات متعددة متضاربة،

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ١٧٨).

مبنيـة على الخرص، والجهـل المركب ولم يزالوا في اضطراب. وهذه حالة كل من تـرك الحق واسـتكبر عنه وتاه بعقله، قال تعالـى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ [ق:٥]»[1].

- **أما عن دواعي انتشار الإلحاد.**

يقرر الشيخ أن سبب انتشار الإلحاد هو كثرة الفتن في آخر الزمان، وإقبال الناس على الدنيا وزهدهم في العلم والتفقه في الدين، وارتباطهم بالمادة، وكذلك وقوعهم في الشهوات المحرمة، وملابستهم الشبهات بغير علم.

يقول الشـيخ رحمه الله: «فإنه ﷺ أخبر، أنه في آخر الزمان يقل الخير وأسـبابه، ويكثر الشـر وأسـبابه، وأنه عند ذلك يكون المتمسك بالدين من الناس أقل القليل، وهـذا القليـل في حالة شـدة ومشـقة عظيمة، كحالـة القابض على الجمـر، من قوة المعارضيـن، وكثـرة الفتـن المضلـة، فتن الشـبهات والشـكوك والإلحـاد، وفتن الشـهوات وانصـراف الخلق إلـى الدنيا وانهماكهـم فيها، ظاهـرا وباطنا، وضعف الإيمـان، وشـدة التفـرد؛ لقلة المعين والمسـاعد؛ ولكن المتمسـك بدينـه، القائم بدفـع هذه المعارضات والعوائق التي لا يصمد لها إلا أهل البصيرة واليقين، وأهل الإيمان المتين، من أفضل الخلق، وأرفعهم عند الله درجة، وأعظمهم عنده قدرا.

وأما الإرشـاد، فإنه إرشـاد لأمتـه، أن يوطنوا أنفسـهم على هـذه الحالة، وأن يعرفـوا أنـه لا بد منها، وأن مـن اقتحم هذه العقبات، وصبر علـى دينه وإيمانه -مع هـذه المعارضـات- فإن له عند الله أعلى الدرجات، وسـيعينه مـولاه على ما يحبه ويرضاه؛ فإن المعونة على قدر المؤنة.

وما أشـبه زماننا هذا بهذا الوصف، الذي ذكره ﷺ، فإنه ما بقي من الإسلام إلا

---

(١) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية (ص: ٤٨-٤٩).

اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، إيمان ضعيف، وقلوب متفرقة، وحكومات متشتتة، وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين، وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملون سرا وعلنا للقضاء على الدين، وإلحاد وماديات، جرفت بخبيث تيارها وأمواجها المتلاطمة الشيوخ والشبان، ودعايات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق، ثم إقبال الناس على زخارف الدنيا بحيث أصبحت هي مبلغ علمهم، وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضبون، ودعاية خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا، وتدمير الدين، واحتقاره والاستهزاء بأهله، وبكل ما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشرها وشرورها قد شاهده العباد. فمع هذه الشرور المتراكمة، والأمواج المتلاطمة، والمزعجات الملمة، والفتن الحاضرة والمستقبلة المدلهمة -مع هذه الأمور وغيرها- تجد مصداق هذا الحديث. ولكن مع ذلك، فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصورا على الأسباب الظاهرة. بل يكون ملتفتا في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب، الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل له بعد عسر يسرا، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات، وحلول المنغصات. فالمؤمن من يقول في هذه الأحوال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» و «حسبنا الله ونعم الوكيل. على الله توكلنا. اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى. وأنت المستعان. وبك المستغاث. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ويقوم بما يقدر عليه من الإيمان والنصح والدعوة. ويقنع باليسير، إذا لم يمكن الكثير. وبزوال بعض الشر وتخفيفه، إذا تعذر غير ذلك ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٤] "(١).

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص: ٢٢٠-٢٢١).

- **الوقاية من خطر الإلحاد:**

أكد الشيخ أن أهم الأسباب التي تقي المسلم من ولوج باب الإلحاد هو حراسة الخواطر والأفكار عن الاسترسال مع العقل فيما يلقيه الشيطان في النفس، وما يتعرض له الإنسان من شبهات، وأن الأمر يحتاج إلى الاستعاذة بالله والاستعانة به، ثم الانتهاء والتوقف عن ذلك، لأن العقل له حد معين لا يتعداه ولا يتخطاه.

يقول الشيخ رحمه الله في شرحه لحديث «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله، ولينته»[(١)]: «احتوى هذا الحديث على أنه لا بد أن يلقي الشيطان هذا الإيراد الباطل: إما وسوسة محضة، أو على لسان شياطين الإنس وملاحدتهم، وقد وقع كما أخبر، فإن الأمرين وقعا، لا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السؤال الباطل، ولا يزال أهل الإلحاد يلقون هذه الشبهة التي هي أبطل الشبه، ويتكلمون عن العلل وعن مواد العلم بكلام سخيف معروف.

وقد أرشد النبي ﷺ في هذا الحديث العظيم إلى دفع هذا السؤال بأمور ثلاثة: بالانتهاء، والتعوذ من الشيطان، وبالإيمان.

أما الانتهاء - **وهو الأمر الأول** -: فإن الله تعالى جعل للأفكار والعقول حدا تنتهي إليه، ولا تتجاوزه. ويستحيل لو حاولت مجاوزته أن تستطيع، لأنه محال، ومحاولة المحال من الباطل والسفه، ومن أمحل المحال التسلسل في المؤثرين والفاعلين. فإن المخلوقات لها ابتداء، ولها انتهاء. وقد تتسلسل في كثير من أمورها حتى تنتهي إلى الله الذي أوجدها وأوجد ما فيها من الصفات والمواد والعناص ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ فإذا وصلت العقول إلى الله تعالى وقفت وانتهت، فإنه الأول

(١) البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. فأوليته تعالى لا مبتدأ لها مهما فرضت الأزمان والأحوال. وهو الذي أوجد الأزمان والأحوال والعقول التي هي بعض قوى الإنسان. فكيف يحاول العقل أن يتشبث في إيراد هذا السؤال الباطل؟ فالفرض عليه المحتم في هذه الحال: الوقوف، والانتهاء.

الأمر الثاني: التعوذ بالله من الشيطان، فإن هذا من وساوسه وإلقائه في القلوب؛ ليشكك الناس في الإيمان بربهم، فعلى العبد إذا وجد ذلك: أن يستعيذ بالله منه، فمن تعوذ بالله بصدق وقوة أعاذه الله وطرد عنه الشيطان، واضمحلت وساوسه الباطلة.

الأمر الثالث: أن يدفعه بما يضاده من الإيمان بالله ورسله، فإن الله ورسله أخبروا بأنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه تعالى المتفرد بالوحدانية، وبالخلق والإيجاد للموجودات السابقة واللاحقة.

فهذا الإيمان الصحيح الصادق اليقيني يدفع جميع ما يضاده من الشبه المنافية له، فإن الحق يدفع الباطل. والشكوك لا تعارض اليقين.

فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها النبي ﷺ تبطل هذه الشبه التي لا تزال على ألسنة الملاحدة، يلقونها بعبارات متنوعة، فأمر بالانتهاء الذي يبطل التسلسل الباطل، وبالتعوذ من الشيطان الذي هو الملقي لهذه الشبهة، وبالإيمان الصحيح الذي يدفع كل ما يضاده من الباطل، والحمد لله، فبالانتهاء: قطع الشر مباشرة، وبالاستعاذة: قطع السبب الداعي إلى الشر. وبالإيمان اللجأ والاعتصام بالاعتقاد الصحيح اليقيني الذي يدفع كل معارض.

وهذه الأمور الثلاثة هي جماع الأسباب الدافعة لكل شبهة تعارض الإيمان. فينبغي العناية بها في كل ما عرض للإيمان من شبهة واشتباه يدفعه العبد مباشرة بالبراهين الدالة على إبطاله، وبإثبات ضده وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال،

وبالتعوذ بالله من الشيطان الذي يدفع إلى القلوب فتن الشبهات، وفتن الشهوات، ليزلزل إيمانهم، ويوقعهم بأنواع المعاصي. فبالصبر واليقين ينال العبد السلامة من فتن الشهوات، ومن فتن الشبهات. والله هو الموفق الحافظ»[1].

- **الإلحاد المعاصر:**

لعله لم ينتشر الإلحاد في زمن من الأزمنة انتشاره في هذا الزمان الذي تيسرت فيها وسائل التواصل بين الشعوب والأفراد وتمكن الجميع من بث أفكاره ونشرها، وقد بين الشيخ رحمه الله أن الملحدين في هذا العصر روجوا للإلحاد بصورة تبدو مقبولة لدى المتلقين لسمومهم.

يقول الشيخ رحمه الله: «وقد عرف هؤلاء الأعداء المتأخرون مكابرة إخوانهم الذين باشروا تكذيب الرسول، ورأوا أن مقالتهم قد بطلت واضمحلت، وبان زورها لكل أحد، صاغها هؤلاء المكذبون بعبارة موهوهماً وظنوا أنها بهذا التمويه تروج، فزعموا - وما أسمجه وأكذبه من زعم - أن محمدا كان يتعلم من نفسه؛ وأنه كان يخلو بالطبيعة؛ السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم، فيعطيها لبه، ويناجيها بقلبه، فيخيل إليه أصناف التخاييل، فيأتي بها إلى الناس زاعما أنها من وحي الله على يد جبريل، وأن هذه التخيلات من الأمور العالية التي يعتاد الإتيان بها أهل الرأي والحجى. ولما رأوا آثارها الجليلة في الإسلام وأهله، وتعاليمه وتقويمه للأمم، وبهرهم هذا النور العظيم لجأوا إلى هذا التحذلق الذي منتهاه وغايته أنهم صوروا النبي ﷺ ورقوه إلى رجل من الطبيعيين، كما قال هذا القول الباطل أحد ملاحدة الإفرنسيين، وتلقاها عنه بعض الملاحدة العصريين، وهو مبني على إنكار وجود رب العالمين، وأنه ما ثم إلا عمل الطبيعة، وقد علم الناس أن هذا القول المزور

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص:٢٧-٢٨).

أعظم مكابرة ومباهتة من قول الأولين، وأن هذا الافتراء الذي ولدوه بعد مئات السنين أوضح ضلالا وظلما وجراءة ووقاحة من زور الأولين، وأن هؤلاء الأراذل الذين أعجبوا بآرائهم وتاهوا بعقولهم قد بين الله كذبهم فيما قالوه، وأن عقولا ولدت هذه الأقوال المؤتفكة والخيالات الفاسدة والمقالات الفاسدة لعقول سافلة وآراء ساقطة، يعرف فسادها بنتائجها ومكابرتها، وإنكارها أجلى الحقائق، ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الفرقان: ٦]؛ فالرب القادر العظيم، الذي أحاط علمه بجميع الأسرار، وعلم أحوال العباد حاضرها ومستقبلها، فأنزله لهدايتهم، وجعله منارا وعلما يهتدي به المهتدون في كل وقت وحين. فجميع الحقائق التي دعا إليها هذا الرسول وهذا القرآن حقائق ثابتة نافعة للعباد، لا يأتي من الحقائق ما يغيرها، ومحال أن يأتي شيء أصلح منها أو مثلها أو يقاربها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، ومن كمال علمه وقدرته أنه لو تقول عليه أحد بمثل هذه المقالة لعاجله بالعقوبة، فلما أيد من جاء بها بنصره وحججه، ورأى العباد آياته في الآفاق وفي أنفسهم، التي يتبين بها أنه الحق، وما سواه ضلال، علم بذلك أن هذا الرسول أصدق الخلق وأنصحهم وأبرهم وأعلمهم وأخشاهم وأتقاهم لربه، وأن أعداءه المكذبين له أكذب الخلق وأغشهم، وأعظمهم جهلا وضلالا وغيا وفسادا في كل زمان ومكان"[1].

- **رد المذهب الإلحادي، والمنهج العام للشيخ في بيان ذلك:**

لما كان أهل الإلحاد منكرين لوجود الحق سبحانه ولا يؤمنون بكتابه ولا بسنة رسوله ﷺ، كان لزاما ألا يحتج عليهم أحد بقول الله ولا بقول رسوله ﷺ، وقد انتهج الشيخ رحمه الله هذا المنهج، فناقش الملحدين من منطلق العقل والمنطق، واحتج عليهم بما لا يستطيع عقل سليم أن ينكره.

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (١/ ٣٦-٣٧).

يقول الشيخ رحمه الله: «فوجود جميع الأشياء في العالم العلوي والسفلي وبقاؤها وما هي عليه من الأوصاف المتنوعة، كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدها وممدها بكل ما تحتاج إليه، ومن أنكر هذا فقد باهت وكابر وأنكر أجلى الأمور وأعظم الحقائق. ومن هاهنا تعلم أن الماديين الملحدين أضل الخلق وأجهلهم وأعظمهم غرورا واغترارا حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الأرضي المادي الطبيعي، وقفت عقولهم القاصرة عندها، واستولت عليهم الحيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا: نثبت ما وصلت إليه معارفنا وننفي ما سواه، فتعرف بهذا أن نفيهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء، فإن من نفى ما لا يعرفه فقد برهن على كذبه وافترائه، فكما أن من أثبت شيئا بلا علم فهو ضال غاو، فكذلك من نفى شيئا بلا علم، وتعرف أيضا أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التي عرفوها وانتهت إليها معارفهم أن هذا الإثبات منهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها؛ بل عرفوا ظاهرا منها وهم عن النافع غافلون، فأثبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود، وهم في علمهم هذا حائرون، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور، ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة، فهم دائما في خلط وخبط وتناقض، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا: هذا من فلتات الطبيعة، وكلما برز مبرز من فحولهم وأذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه؛ فصدق عليهم قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥] وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣] والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم، ولم يقدح فيه إلا هؤلاء الضُّلَّال الذين كان قدحهم فيه أسقط اعتبارهم، وبرهن على فساد عقولهم»[1].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٤٠-٣٤٢).

المبحث الثالث: مصنفات الشيخ في مناقشة الملحدين ومنهجه في الرد عليهم:

لـم يقتصر دور العلامة عبد الرحمن السـعدي في التصدي للإلحاد وأهله على مجرد ردود متفرقة في مؤلفاته وكتابته المختلفة، حيث كان رحمه الله يعلم- بما حباه الله مـن بصيرة- مدى هذا الخطر الزاحف إلى ديار المسـلمين، وأنه يشـبه المرض الخبيـث الذي يداهـم صاحبه دون أن تظهر له أي أعـراض ظاهرة حتى يتمكن من القضاء عليه.

ومن منطلق هذه البصيرة أفرد الشيخ هذا الموضوع بالتصنيف؛ لينبه من ناحية على هذا الخطر المتسـلل من الخارج إلى عقر ديار المسـلمين، ومن ناحية أخرى ينصـح من ابتلاهم الله بهذا الداء العضال بسـرعة الفيء والتوبـة، وثالثا ليحذر أبناء المسلمين أن يتسلل الشك إلى عقولهم فيجد الإلحاد طريقا سهلا لاختراق قلوبهم.

وقد صنف الشيخ ثلاثة كتب -فيما وقفت عليه- تتناول الرد على الملحدين، وهدم أصولهم، وهي:

- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.
- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين.
- انتصار الحق.

وفيما يلي وقفة سريعة مع كل رسالة من هذه الثلاث حتى نتعرف على ما بذله الشيخ من جهود في هذا الأمر العظيم، والمنهج الذي اتبعه في الرد على دعاة الإلحاد

وقفات مع رسالة: «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله».

تعد هذه الرسـالة نموذجا عمليا يجسـد شـخصية الشـيخ في ميـدان الرد على المخالفيـن، وتبين مـدى غيرته على الدين، ومقدار نصحه للإسـلام وأهله، وقوته

في الحق، ورسوخه في العلم، وبيان حجته، كل ذلك مع سهولة العرض، وجزالة الأسلوب، ووضوح العبارة، ودقة المعاني، وإسهاب الرد.

وفيما يلي استعراض أهم العناصر التي اشتملت عليها هذه الرسالة.

- **سبب تصنيف هذه الرسالة:**

من منهج الشيخ رحمه الله في الرد على المخالف أن يبين سبب الرد وأن الأمر لا يعدو النصح لله وإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو شعار دين الإسلام الحنيف. ولا يغفل حق المخالف من ذكر محاسنه والثناء عليه إن وجد إلى ذلك سبيلا.

يقول الشيخ رحمه الله: «فإني قد وقفت على كتاب صنفه عبد الله بن علي القصيمي، سمَّاه: (هذه هي الأغلال)؛ فإذا هو محتو على نبذ الدين، والدعاية إلى نبذه والانحلال عنه من كل وجه، وكان هذا الرجل قبل كتابته وإظهاره لهذا الكتاب معروف بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعة حسنة، فلم يرع الناس في هذا العام حتى فاجأهم بما في هذا الكتاب الذي نسخ به وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سابقاً..... فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين وجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوي عليه كتابه من العظائم خشية اغترار من ليس له بصيرة بكلامه»[1].

- **نظرة اجمالية في كتاب القصيمي:**

ومن منهج الشيخ رحمه الله أن يتكلم عن منهج المخالف على وجه الإجمال قبل التصدي والرد المفصل على بدعه وافترائه.

---

(١) تنزيه الدين (ص:٣-٤).

قال رحمه الله: «من نظر في كتاب القصيمي وتأمله حق تأمله؛ عرف أنه ما كُتب أشد وطأة وأعظم عداوة ومحاربة للدين الإسلامي ومنفرا منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب وغيرهم بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل، ولا افترى مفتر على الدين كافترائه، ولا حرف أحد له نظير تحريفاته، وما صرح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين وأصوله وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وحملته كاستهزائه وسخريته؛ فإنه اشتمل على نبذ الدين ومنابذته ومنافقته ثلاثة لا تبقى من الشر شيئا إلا تضمنته؛ فإنه صريح في الانحلال عن الدين بالكلية، وخروج تام عن عقائده وأصوله؛ فضلا عن فروعه، وهو أكبر دعاية للإلحاد، ومقاومة للدين وأهله، وفيه من البهرجة والتزويرات التي جعلها في صورة نصر الدين ما يعد من أعظم النفاق والكيد والمكر للإسلام وأهله، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾... إلخ»[1].

وقال رحمه الله: «...وهذا القصيمي يقول: ما هي إلا الطبيعة تتفاعل وتتطور وتدير أمر العالم وتدبره وتنظم الأمور الجليلة والدقيقة وأنكر قضاء الله وقدره ورجع ذلك إلى العلم بانتظام الطبيعة وهذا إنكار منه لله ولأفعاله ولصفاته، وكما أنكر توحيد الربوبية، فقد أنكر توحيد الإلهية والعبادة ولم يرتض بما قاله المشركون، بل أنكر عبادة الله بالكلية، وأنكر الافتقار إليه وتهكم بالمفتقرين إلى ربهم الداعين لله المخلصين لربهم، وملأ كتابه من السخرية بهم، وكما أنكر الربوبية والألوهية والرسالة إذ فسرها بذلك التفسير الخبيث الذي يرجع إلى نفي الرسالة، فقد أنكر عقوبات الله ومثوباته الدنيوية والأخروية، وأنكر أسبابها وسخر بالمؤمنين بها، وكذلك رمى جميع طبقات الأمة وخص منهم العلماء الأعلام وهداة الأنام بضعف العلم والعقل والرأي، وأوجب الكفر بهم وبعلومهم وبما قالوه وصنفوه من كتب الحديث والتفسير والفقه والأصول والفروع، وجعلهم مجرمين يستحقون

(١) تنزيه الدين (ص: ٦).

العقوبة وأهدر فضائلهم بالكلية، وأكبر من ذلك وأطم أنه باهت وصرح بتحقير الأنبياء تحقيرا لم يصل إليه ملحد، إذ صرح بأن جميع الرسل والأنبياء والهداة من أتباعهم لم ينفعوا الناس في الحياة بشيء من النفع، ولم يقدروا أن يصيروا فيها مخلوقات متألقة لهم فضائل يهتدي بها، وكما رمى الأنبياء وأهل الأديان الصحيحة كلهم، ولم يستثن منهم أحدا فإنه عظم زنادقة الملحدين الأوليين منهم والآخرين وأوجب الأخذ عنهم والحذو على منوالهم... إلخ»[1].

- إشارة لطيفة إلى محاسن الإسلام:

عقد الشيخ رحمه الله قبل الرد على القصيمي وإبطال زعمه فصلا تكلم فيه عن محاسن الإسلام وأنه دين شامخ لا تتأثر أصوله بحقد الحاقدين ولا بشبه المبطلين.

فقال رحمه الله: «ولما كان هذا الكتاب - يعني أغلال القصيمي - موجها إلى قلب الدين وروحه، وإلى هدم علومه وأصوله وقواعده وجميع مقوماته، وكان هذا الدين العظيم بذاته وحقيقته واشتماله على أعظم الحقائق وأجلها وأنفعها وعلى البراهين الساطعة والأنوار المتلألئة؛ يدفع ويبطل كل ما يقوم في وجهه الشبهات ويقاومه من الأقوال الباطلة؛ أحببت أن أشير إشارة لطيفة قبل إبطال قول هذا الكتاب إلى بعض محاسن هذا الدين وأنه لا سبيل لأحد من الخلق أن يعطل شيئا من أصوله وقواعده وأسسه، وأن هذا الدين العظيم تزول السموات والأرض والجبال وأصوله راسيات وقواعده ثابتات وأنواره مشرقة وبراهينه للباطل محرقة، فهو الميزان الأعظم الذي توزن به الأمور العقلية والأمور الدنيوية وأبين عند ذلك منافتها لقول هذا الكتاب... إلخ»[2].

---

(١) نفس المصدر (ص: ٧-٨).

(٢) تنزيه الدين (ص: ٩).

دعاء الشيخ للقصيمي:

ثم استهل الشيخ رده على القصيمي بكلمة تدل على مدى إنصافه رحمه الله وأن الغاية من الرد هي الدفاع عن الدين ليس غير، وأنه ليس بينه وبين أحد أي عداوات إلا ما يوجبه الدين، ثم ختم كلمته بدعاء للقصيمي أن يرده الله للحق.

فقال رحمه الله: «ونحن نكتب ما يجب علينا كتابته من رد اعتداءاته على الدين، والتنبيه على بطلانها، كما هو الواجب المتعين على كل مسلم، ونرجو الله أن يعيده إلى الحق بالتوبة، والتنصل ونقض ما كتبه واجترأ عليه»[1].

الأصلان اللذان بنى عليهما القصيمي باطله:

ومن منهجه رحمه الله أن يؤصل منهج المخالف ويجمع شتات قوله تحت أصول عامة يسهل الرد عليها؛ لذلك شرع في بيان الأصلين اللذين بنى عليهما القصيمي بحوثه الباطلة:

فقال رحمه الله: «واعلم أن مدار ما بنى عليه بحوثه الباطلة واحتج لها وبرهن عليها؛ أمران:

أحدها: أن المسلمين في هذه الأوقات الأخيرة متأخرون عن غيرهم في الفنون العصرية والاختراعات والصناعات الراقية وعلوم الطبيعة بأنواعها.

الثاني: أن غيرهم في هذه الأمور مهر في هذه الأمور مهارة لا تتصورها الأفكار.

ثم بنى على هذين الأمرين جميع بحوثه الباطلة ورتب على ذلك أنه يجب رفض ما عليه المسلمون من عقائد وأخلاق وعلوم وأعمال»[2].

---

(١) نفس المصدر (ص: ٩).

(٢) تنزيه الدين (ص: ٩-١٠).

بداية الرد على ضلالات القصيمي:

الرد على إنكار القصيمي للقضاء والقدر:

ومن منهجه رحمه الله في رده على المخالف أن يبدأ بقضايا الإيمان؛ الأهم فالمهم، فبعد رده على المخالف إجمالا وعلى وجه العموم بدأ يرد على أمهات قضايا الإيمان.

قال الشيخ رحمه الله: «... هذا الكاتب الذي يقول إن الإيمان بقضاء الله وقدره والتوكل عليه يوهن المسلمين ويضعفهم وأنه يجب عليهم ترك ذلك وأن التوكل على الله هو العلم بنظام الطبيعة، وكذلك الإيمان بالقضاء والقدر كما صرح بذلك في صفحات (١٧)، (٢٩)، (٢٦٨)، (٣١٥) من كتابه، ويتضح بذلك أن المسلمين حقيقة المتبعين لإرشادات دينهم وتعالميه هم المتوكلون على الله حقيقة، وأنهم أقوى الخلق على فعل الأسباب امتثالا لأمر ربهم وطلبا لمصالحهم واستمدادا من قوته وارتقابا لثوابه، وأن الدين الإسلامي يبطل الطريقين الذميمين:

-طريق العجز والضعف الذي يتعلل صاحبه أنه متوكل على الله وإنما هو مهين ساقط الهمة معتذر بما لا يعذر به.

- وطريق الملحدين المعطلين الذين يعتمدون على الأسباب عندهم بإيجاد ولا تقوية ولا إضعاف ولا بمنعها ولا له قدرة على معارضتها كما قرره صاحب هذا الكتاب في ثنايا كتابه خصوصا في الفصل الأخير المعنون ب (مشكلة لم تحل) ... إلخ»[1].

الرد على إنكاره الثواب والعقاب:

قال الشيخ رحمه الله: «وقد سلك أيضا مسلك الدهريين الذين يقولون {ماهي

(١) تنزيه الدين (ص: ١٢).

إلا حياتنـا الدنيا نموت ونحيا}؛ المنكرين للثواب والعقاب؛ حيث أنكر أن الإيمان والتقـوى والعمـل الصالح سـبب للثواب العاجـل والآجل، وأن الكفر والفسـوق والعصيان أسباب للعقوبات العاجلة والآجلة، وتهكم بذلك وبالقائلين به المعتقدين لـه، كما صرح به ورده في الصفحـات (٣٥)، (١٦٥)، (١٧٨)، (٣١٥)، (٣١٩)، (٣٢٥)، والسـبب الوحيـد عنده في المصائـب الدنيوية وضدها إنما هي الأسـباب المادية فقط، وعمل الطبيعة... إلخ»[1].

الرد على زعمه أن علماء المسلمين سلفا وخلفا لم يفهموا الدين:

قال الشيخ رحمه الله: «وزعم من بهرجته التي لا تروج على أحد أن المسلمين على اختلاف طبقاتهم من الصحابة والتابعين والقرون المفضلة وأصناف المحدثين والمفسـرين والفقهاء والأصوليين وسـائر طبقات الأمة كلهـم زعم أنهم لم يفهموا الدين وأنه مسـتحيل أن يسـعوا في مصالحهم، وغير ممكن لهـم ذلك إلا بنبذه وأنه قيود تمنع التقدم كما صرح بذلك في صفحات (١٧)، (٣٦)، (٦٧)، (٦٨)، (٧٧)، (٩٧)، (١٤٠)، (٣١٥)، مـن كتابـه، وهذه دسيسـة خبيثة، فـإن كل أحد عنده أدنى تمييز يعلم حق العلم أن هذه المباحث التي اشتمل عليها كتابه منافية للدين بالكلية، ومناقضة له من كل وجه، ولكنه جاء بهذه الوسيلة ليقول: ليس دين الإسلام ما فهمه المسـلمون والأئمة والعلمـاء على اختلاف طبقاتهم، وإنما هو شـيء آخر مجهول عندهم، وقد علمه هذا الكاتب وهو ما أراده وسـعى إليه من معانقة دين الملحدين ورفض دين المسلمين وسائر المرسلين... إلخ»[2].

---

(١) تنزيه الدين (ص: ١٢-١٣).

(٢) تنزيه الدين (ص: ١٦).

الرد على زعمه أن الدين قيود وأغلال:

قال الشيخ رحمه الله: «وزعم هذا الكاتب أن التقييد بالإيمان بالله وبما أخبر الله به على ألسنة رسله قيد وغل يحول بين الإنسان وبين المطالب العالية النافعة، ويقيده عن عبادة الطبيعة التي هي الغاية عند أمثال هؤلاء، فيحق لمن كان هذا منتهى مراده وطلبه أن يكون أول من يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ وفي قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا﴾ إلى آخر الآيات، ثم إن هؤلاء المنحرفين الملحدين الذين انخدع هذا الكاتب بدعايتهم الخبيثة يدعون إلى نبذ كل قديم واعتناق كل جديد، وقد أبدى هذا الكاتب في هذا وأعاد وكرر ذلك؛ مريدا بهدم القديم هدم أصول الدين وقواعده، كما تجده في صفحات (١٦)، (٣٧)، (٦٤)، (٦٩)، (٧٠)، (٩٦)، (١٦٠)، (٣٠٢)، من كتابه، وغيرها من الصفحات وهذه الدعاية الخبيثة مقصودها الأعظم وأساسها الذي بنيت عليه رفض الشرائع والأديان، والانحلال من قيود الدين وحله وتحريمه وجميع أحكامه، والانخراط في سلك المعطلين لرب العالمين المنحلين من جميع شرائع الدين، وأول ما يُدخلون في هذا الأصل الباطل رفض ما جاء به الرسول ﷺ من أصول وأخلاق وأعمال وغيرها، وتوصلوا بهذا إلى الطعن في خير القرون وإهدار أقوالهم وعقائدهم وعلومهم، بل وجميع محاسنهم والحمل على حمله الشريعة وأئمة الهدى ومصابيح الدجى.... إلخ"[1].

الرد على زعمه أن المسلمين يطلبون الفقر والضعف ويحثون عليه:

قال الشيخ رحمه الله :«ومن تمويهاته الشنيعة التي يريد بها محاربة الدين وأهله

---

(١) تنزيه الدين (ص: ٢٠-٢١).

أن يزعم أن المسلمين يحثون على الفقر والبأساء والضراء وأنواع المصائب ويطلبونها ويسعون في تحصيليها بكل طريق، ويسخر منهم ومن ذكر الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على فضيلة الصبر على الفقر والأمراض وأنواع المصائب كما صرح بذلك في الصفحات (١٢٦)، (١٤٠)، (٣١٩)، وكذلك جميع النصوص الدالة على ذلك من الكتاب والسنة، وهذا من باب قلب الحقائق فإن ذلك من أعظم محاسن الدين الإسلامي، حيث أرشد أهله إلى التربية العالية التي هي أنفع التربيات وأجلها وأكثرها آثارا حميدة فقد تكاثرت نصوص الكتاب والسنة في فصل الصبر على المصائب والأمراض وأنواع المحن التي لابد للخلق كلهم منها في هذه الدار وذكر فضائل الصابرين وما لهم عند الله من الثواب، وذلك ليوطنوا أنفسهم على تقلبات هذه الحياة الدنيا من غنى وفقر، ومن يسر إلى عسر، ومن بأساء إلى خير وسراء، ومن عافية إلى مرض، ويعلمهم كيف يتقبلون هذه الأمور اللازمة للبشر في أطوار حياتهم... إلخ»[1].

الرد على زعمه أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق:

قال الشيخ رحمه الله: «ومن مباحث هذا الكتاب الضارة التي بلغت في الفظاعة وبلغت في الخلاعة مبلغا ما وصل إليه ولا تجرأ عليه أحد له أدنى عقل وبصيرة من الأولين والأخرين ما يبديه ويعيده ويكرره أن الإنسانية لا تزال في تطورها وترقيها حتى تصل إلى الاتصاف بصفات الرب العظيم - إن كان يثبته بلفظه - فالإنسان بزعمه يمكنه أن يكون بكل شيء عليما، وعلى كل شيء قديرا، وأنه قد علم ما كان في أول الموجودات وما يكون من آخرها، وأنه علم مبدأ هذه الخليقة، وخلَّف علوم الرسل خلف ظهره، وهو يحاول علم ما سيكون في هذا العالم؛ بل علم مقدار ما بقي من عمر هذا العالم، وقد علم حالة العالم السفلي وهو يحاول وسيدرك علم العالم العلوي، وصنع الصور والأجسام وهو يحاول أن ينفخ فيها الروح؛ فهو لا يستبعد

(١) تنزيه الدين (ص: ٢٤- ٢٥).

إيجاده للحيوان الصناعي والإنسان الصناعي؛ غير مبال بتكذيبه لله ورسله؛ فقد زعم أنه قد يتمكن أن يُوجد الحيوانات، ويزعم أن التفريق بين الخالق والمخلوق أكبر الأغلاط، وأنه يجب أن لا نفرق بين الرب العظيم وبين الإنسان وأن من فرق بينهما فلجهله وضلاله وغلطه؛ كما صرح بذلك في هذه الصفحات من كتابه المذكور (٣٨)، (٥٨)، (٦٧)، (٧٠)، (٧٧)، (٧٨)، (٩٧)، فانظر كيف رمى بهذا الأمر الفظيع- وهو تضليله للمفرقين بين الله وبين خلقه- كل رسول أرسله الله إلى الخلق وفي مقدمتهم محمد ﷺ فضلا عن أئمة الهدى ومصابيح الدجى؛ فإن زبدة ما جاءت به الكتب السماوية والرسل العظام هو توحيد الباري واعتقاد انفراده بجميع معاني الكمال المطلق الذي لا تدركه العبارات ولا تتصوره الأفكار... إلخ»[1].

الرد على زعمه أن إثبات وجود الرب مشكلة لا حل لها:

قال الشيخ رحمه الله: «ثم انظر إلى المبحث الأخير من كتابه الذي عنوانه: (المشكلة التي لم تحل) في صفحة (٣١٥)، وما بعدها إلى آخر كتابه؛ كيف أتى فيه بالطامات والفظائع وأنكر المنكرات، وكيف حاول وصرح بأن الإيمان بالله وإثبات وجوده وربوبيته وأفعاله من أشكل المشكلات، وهي أصل الأمور وأوضحها وأجلاها براهين، ثم صرح بهذه الجراءة التي ما وصل إليها أحد من البشر إلا فرعون وأشباهه الذين أنكروا رب العالمين وجحدوه بالكلية، وقد صرح أن الأولين والآخرين لم يحلوا هذه المشكلة فجميع الكتب المنزلة من الله؛ التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وجميع ما قالته الرسل عموما وقاله سيدهم وإمامهم خصوصا وجميع العلماء الربانين والهداة المهتدين والحكماء والأساطين؛ الجميع عنده لم يعرفوا الإيمان بالله ولم يحلوا هذه المشكلة التي زعمها فبقيت عند هؤلاء مشكلة الإيمان في غاية الإشكال والتعقيد عند هذا الكاتب .... إلخ».

(١) تنزيه الدين (ص: ٣٠- ٣١).

وقفات مع رسالة «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين».

وهي رسالة صغيرة اعتنى فيها الشيخ بالرد على الملاحدة المنكرين لوجود الله عز وجل، وكان أكثر عنايته في هذه الرسالة بنقض أصل فاسد أصّلَهُ معلمهم الأول «أرسطو»، وقد نقض الشيخ هذا الأصل، وبين بطلانه من ثلاثة وثمانين وجها. وهذه الرسالة مع أنها صغيرة الحجم فإنها عظيمة النفع لما اشتملت عليه من ردود رصينة وقوية تكشف بطلان دعوى هؤلاء الملاحدة الكفرة. وقد فرغ الشيخ ابن سعدي من تأليف هذه الرسالة في ١٤ رجب سنة ١٣٧٢هـ[١].

منهج الشيخ في هذه الرسالة:

بين الشيخ رحمه الله في هذه الرسالة أن الأصول التي بنى عليها الملاحدة بنيانهم ترجع إلى أصل واحد فاسد؛ فقال: «وأعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول أرسطو اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به، وهو: «أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمسح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء، ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه»، وكملوا هذا الأصل الخبيث بحصرهم للمعلومات بالمحسوسات، وما سوى ما أدركوه بحواسهم نفوه»[٢].

ثم ذكر الشيخ أنه سيقوم بالرد على هذا الأصل من خلال كلام شيخ الإسلام أولا، ثم يتم هو من كلامه ما تيسر معللا ذلك بقوله: «فإنه -أي شيخ الإسلام- بين عدة وجوه في فسادها وبطلانها، وكل وجه منها كاف في إبطالها؛ فكيف إذا اجتمعت

---

(١) ينظر: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، (ص:٤٤).

(٢) الأدلة القواطع (ص: ٤).

فننقل كلامه عليها ثم نتم ذلك بما ييسره الله»[١].

ثم ذكر الشيخ خمسة أوجه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وزاد هو عليها ثمانية وسبعين وجها، يتخلل بعضها كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، فكان حاصل هذه الأوجه ثلاثة وثمانين وجها.

وكانت هذه الأوجه بمجموعها تمثل جبهة قوية لضرب أصول الإلحاد في كل زمان ومكان، ولا غنى لأهل العلم عن دراستها والنظر فيها، ولا غنى كذلك للعامة عن دراستها وفهمها على يد الناصحين من أهل العلم وطلبته.

ذكر بعض الأوجه التي ذكرها الشيخ رحمه الله في هذه الرسالة ردا على الملاحدة:

- اضطرار الناس إلى الرسل والرسالات:

قال رحمه الله في الوجه السابع: «فإن الإنسان خلق ظلوما جهولا ليس فيه هدى، ولا علم صحيح، ولا برهان ويقين في المطالب العالية المقصودة، إلا من جهة الطرق التي بعث الله بها رسله وأنزل بها كتبه، ولهذا كانت النبوة والرسالة يضطر إليها المكلفون أعظم من ضرورتهم إلى الطعام والشراب، وما به من قوام حياتهم المادية؛ فالعلم والهدى الإجمالي والتفصيلي هو هدى الله، فلا يليق برحمة الله وحكمته وحمده أن يترك العباد مهملين سدى بلا رسالة وتعريف لهم ما يصلحهم حالا ومآلا؛ فأرسل الرسل وأنزل الكتب حكمة منه ورحمة، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾فجميع الهدى والعلوم النافعة الموجودة في الأرض، والمعارف النافعة،

---

(١) المصدر السابق.

والإيمان الصحيح، وتوابع ذلك من آثار النبوة والرسالة»[1].

- حقيقة قول الملاحدة:

قال رحمه الله في الوجه الحادي عشر: «إن هؤلاء - يعني الملاحدة- يعاندون الله ورسوله أعظم معاندة فالله يقول: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾، وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾، وفي الصحيح أنه قال لمن قال له: قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك؛ قال: " قل: آمنت بالله، ثم استقم "[2] أي على الإيمان، وهؤلاء الملحدون يقولون: امحوا هذه الأصول والعقائد- التي لا أصح منها ولا أنفع ولا يسعد العبد غيرها- من قلوبكم وشُكوا لتستحدثوا علوما وعقائد جديدة، تجيش بها القلوب المنحرفة والآراء الفاسدة والضمائر التي أعرضت عن الحق وعارضته وتوجهت إلى الباطل، وهذا لا ريب أنه مشاقة ومحاربة لله ورسله»[3].

---

(١) الأدلة القواطع (ص: ٧).

(٢) مسلم (٣٨).

(٣) الأدلة القواطع (ص: ١٠).

تناقض الملحدين:

قال رحمه الله في الوجه الثالث عشر: «أن المقصود الأعظم من هذا الأصل الخبيث[1] الكفر بما جاءت به الرسل والانحلال عنه، وإلا فأهله من أكذب الناس؛ فإنهم متمسكون غاية التمسك بما عليه أئمتهم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهم مقدمة عندهم على ما جاءت به الرسل، ويتعصبون لها غاية التعصب؛ فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهم أن يمحوا من قلوبهم أقوال أئمتهم وعقائدهم التي مازالوا متمسكين بها ومقلدين لها تقليدا أعمى، فالغرض من كلامهم معروف، وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك بأقوال هؤلاء الضالين»[2].

ماذا لو عمل الناس بأصل الملاحدة؟:

قال رحمه الله في الوجه الخامس عشر: «لو فرض وقدر أن الإنسان يمحو من قلبه كل عقيدة ويصير القلب خاليا من الحق والباطل ثم يزن بعقله المستقيم العقائد الصحيحة النافعة التي جاءت بها الرسل بما يضادها من العقائد الأخرى، ويزنها بحق وعدل وإنصاف وفهم صحيح فإنه يظهر له الفرق العظيم، ويتضح له أن من سوَّى بين ما جاءت به الرسل وبين غيره كالمسوِّي بين الليل والنهار والضياء والظلمة، فكيف بمن فضل الإلحاد على دين رب العباد فإن الحق بطبيعته وبراهينه يمحق الباطل ولا يبقى له معه قرار»[3].

---

(١) يعني قولهم «أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء، ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه».

(٢) الأدلة القواطع (ص: ١١).

(٣) الأدلة القواطع (ص: ١١).

قول الملاحدة باطل شرعا وعقلا:

قال رحمه الله في الوجه العشرين: «هؤلاء الملحدون حصروا العلوم المدركة في دائرة ضيقة؛ فما أدركوه بحواسهم وتجاربهم أثبتوه، وما لم يدركوه بذلك نفوه وأنكروه؛ فأنكروا من أجل ذلك علوم الغيب كلها، وجحدوا ربوبية الله وأفعاله، وعطلوه من صفاته وأفعاله، إذ لم يدخل ذلك تحت مداركهم القاصرة، وهذا باطل شرعا وعقلا.

أما الشرع: فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل تبطل قولهم وحصرهم العلوم بمدركات الحس الظاهرة ونفيهم لما عداها، وتثبت بالبراهين اليقينية من علوم الغيب ومن العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي من الحقائق النافعة الصحيحة والمعارف الصادقة مالا نسبة لعلومهم كلها إليها من أولها إلى آخرها.... إلخ.

وأما العقل: فجميع العقلاء المعتبرين يثبتون للعلوم مدارك غير مدارك الحس، فإن مدارك العلوم: الحس، والعقل، والأخبار الصادقة؛ فالأخبار الصادقة أعلاها وأصدقها وأحقها بالحق خبر الله وخبر رسله، وفي ذلك تبيان لكل شيء، وهدى للخلائق، وتوضيح للحقائق، وتنبيه للعقول على توجيهها لكل علم نافع، ويلزم على قول هؤلاء الملحدين إبطال ذلك كله حتى يدركوه بحواسهم، وهذا ميراث محقق من مكذبي الرسل؛ الذين ردوا ما جاءت به الرسل بمجرد استبعادات، ونكروا ما لم يحيطوا به علما، وهم لا يزالون ينقضون دليلهم الذي تمسكوا به فيثبتون تجارب ونظريات أخرى لهم ولقومهم تنفي ما أثبتوه وتثبت ما نفوه ولا يزالون هكذا في أمر مريج حين كذبوا بالحق.

وقد ذكر الله الأسباب التي دعت أمثال هؤلاء إلى تكذيب الحق؛ وهو الجهل بما لم يحيطوا بعلمه، والتبجح بما عندهم من العلوم المخالفة لعلوم الرسل، والكبر

الذي في قلوبهم ما هم ببالغيه، وتقليد أئمتهم الضالين؛ فضعف التمييز، وتقليد أئمة الملاحدة، والإعراض عما جاءت به الرسل من أكبر الأسباب التي مكنت هؤلاء من لزوم الباطل»[١].

المقارنة بين علوم الرسل وعلوم الملاحدة الماديين:

قال رحمه الله في الوجه الرابع والعشرين: «انظر على أحوال الرسل وأتباعهم كيف هدوا إلى كل عقيدة صالحة نافعة وإلى كل خلق جميل وعمل صالح؟ وكيف نهوا وحذروا عما يضاد ذلك ويناقضه، وكيف نشروا الصلاح والرحمة والحكمة على البلاد والعباد؟ وكيف تم بإرشادهم الصلاح الذي ليس بعده صلاح والسعادة العاجلة والآجلة والفلاح؟ فهل تجد علما نافعا أو خلقا فاضلا أو خيرا ناميا أو شرا مدفوعا أو ضرارا مرفوعا؟ إلا بسبب الرسل وإرشادهم وهدايتهم وسعيهم.

أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك فإن آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشر والإنسانية إلى أسفل سافلين، وشقُوا في دنياهم كما شقوا في دينهم وعقولهم، وهذه المخترعات التي تكبروا بها وطغوا وبغوا؛ هل توسلوا بها إلى الخير والحياة الطيبة والرحمة، أم صارت أكبر نكبة على البشر وأعظم مصيبة عليهم وعلى غيرهم؟ فأين الرشد وأين العقول وأين الأحلام الصحيحة من قوم هذا وصفهم، ووصف أعمالهم المطابق لأحوالهم الذي لا يمكن أحد إنكاره؟ ولكن الكبر والأشر والنظر القاصر والبهرجة روجت باطلهم فجرفت جمهور البشر الذين لا بصيرة لهم ولا عقول صحيحة، وإنما معهم التقليد الأعمى والزهور والغرور»[٢].

(١) الأدلة القواطع (ص: ١٥-١٦).

(٢) الأدلة القواطع (ص: ١٩).

أصل بلاء الملحدين:

قال رحمه الله في الوجه الرابع والعشرين:» أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السموات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال، وأن ما للخلق من أولهم إلى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فإنها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت إلى عظمة الله وجلاله وكماله، وإلا فلو علموا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الموجودات أعيانها وأوصافها وأفعالها ومن سواه مخلوق، وأنه مالك الملك المطلق ومن سواه عبد مملوك، وأنه العليم الذي أحاط علمه بكل شيء، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، العزيز الذي علا على كل شيء، وقهر المخلوقات كلها ودانت لعزته وقدرته، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، الحكيم في كل ما خلقه وحكم به شرعا وقدرا وجزاء إلى آخر ما وصلت إليه معارف الرسل وأتباعهم من أوصافه فلا يحصي أحد ثناء عليه، لو علموا شيئا من ذلك لعرفوا أن قولهم واعتقادهم أبطل الباطل وأشنع الكذب وأعظم الجراءة على الله والمكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليقة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ فهؤلاء الملحدون لما لم تصل معارفهم الضئيلة إلى شيء من ذلك وحصروها في بعض الأسباب ولم ترتق إلى مسبب الأسباب، ولم يصلوا من المخلوقات إلى خالقها، ظنوا أن ما وصلوا إليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلا وضلالا، ومنهم من كان كذلك ظلما وعنادا، فيا

أيها المؤمن بالله احمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم والسلامة من عقوبة الإلحاد التي هي أكبر النقم"[1].

- الحيرة والشك هما حصاد الملاحدة:

قال رحمه الله في الوجه الأخير (الثالث والثمانين): "قد تقرر مما تقدم أن أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلا إلى جهل مركب أو جهل بسيط، أو جحود مع العناد، لأن رؤساءَهم وأساطينهم أهل الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحوث لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم، بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب، كما عرف ذلك من مقالاتهم؛ فإذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر معشارهم في الذكاء والفطنة والبحث، فهم كما قال عنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ﴾ إلى أخر الآيات، والمؤمنون بالله وكتبه ورسله على نور من ربهم ويقين من إيمانهم حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم على الأصول الصحيحة الثابتة، وهي نصوص الكتب المنزلة ونصوص الأنبياء وآيات الله في الأنفس والآفاق والعقول السليمة والفطر المستقيمة، ففازوا بخير الدنيا والآخرة، ورجع الآخرون بالصفقة الخاسرة"[2].

ثم ختم الشيخ رسالته بدعاء جامع. سائلاً الله أن يرزقنا علما ويقينا وإيمانا وطمأنينة به وبذكره وسلوكا للصراط المستقيم المشتمل على العلم بالحق والعمل به الموصل إلى كل خير وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

---

(١) الأدلة القواطع (ص: ٢٩-٣٠).

(٢) الأدلة القواطع (ص: ٨٥-٨٦).

وقفات مع رسالة «انتصار الحق»:

ومن بديع ما كتب الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي ضمن جهوده في التصدي للإلحاد وأهله رسالة بعنوان «انتصار الحق» وهي عبارة عن مناظرة لطيفة بين رجلين مسلمين يشتغلان بطلب العلم؛ أحدهما تسلل إليه الإلحاد من جراء انبهاره بالحضارات الغربية، والآخر متمسك بعقيدته لا يعتريه شك ولا يجتاحه وساوس.

فجاءت هذه المناظرة بديعة في أسلوبها وعميقة فيما ترمي إليه من معاني وأهداف، وقد كانت هذه المحاورة في أصلها مقالات نشِرت في أعداد من مجلة المنهل (عام ١٣٦٧هـ)، حتى جمعها الأستاذ الدكتور عبد الله الطيار في رسالة لطيفة وطبعت لأول مرة بتاريخ (٤/ ٤/ ١٤١٢هـ)، وكتب في مقدمتها: «... وهذه المحاورة التي بين أيدينا تمثل نمطًا جديدًا من الكتابة طرَقه ابنُ سعدي قبل ما يقرب من نصف قرن من الزمان، وهذه المحاورة اللطيفة الهادئة جمعت بين قوة الحجة ووضوح المحجة وسلامة المنهج، وبعد النظر، والبحث عن الأسباب وعلاجها ثم الوصول إلى الثمرة المرجوة، كل ذلك في صفحاتٍ يسيرةٍ لا تتجاوزُ العشرين صفحة»[1].

منهج الشيخ في رسالته «انتصار الحق»:

قال الشيخ رحمه الله في المقدمة موضحا منهجه في رسالته: «هذه صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين، يدينان بالدين الحق، ويشتغلان في طلب العلم جميعاً، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة، ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك، فإذا هو قد تغلَبت عليه دعايةُ الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون؛ فحاوره

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى من انتصار الحق (ص: ١-٢).

صاحبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب فأعيته الحيلةُ في ذلك، وعرف أن ذلك علةٌ عظيمةٌ ومرض يفتقِرُ إلى استئصال الداء ومعالجته بأنفع الدواء وعرف أن ذلك متوقف على معرِفة الأسباب التي حولته والطرق التي أوصلته إلى الحالة المخيفة وإلى فحصها وتمحيصِها وتخليصها وتوضيحها، ومقابلتِها بما يضادُها ويقمعُها على وجه الحكمة والسداد»[١].

ملخص المناظرة البليغة:

-سؤال من المسلم لصديقه الملحد عن سبب إلحاده:

يقول الشيخ رحمه الله: «فقال له صاحبه- مستكشفًا له عن الحامل له على ذلك-: يا أخي، ما هذه الأسباب التي حملتك على ما أرى؟ وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه؟ فإن كان خيرا كنتُ أنا وأنت شريكين، وإن كان غير ذلك فأعرف من عقلك ودينك وأدبك أنني وأنك لا ترضى أن تقيمَ على ما يضرك»[٢].

-احتجاج الملحد بضعف المسلمين وقوة الكفار:

يقول الشيخ رحمه الله: «فأجابه صاحبه قائلاً: لا أكتمك أني قد رأيتُ المسلمين على حالةٍ لا يرضاها ذوو الهمم العالية؛ رأيتُهم في جهل وذل وخمول، وأمورهم مدبرة، وفي الجانب الآخرِ هؤلاء الأجانب قد ترقوا في هذه الحياة وتفننوا في الفنونِ الراقيةِ والمخترعاتِ العجيبةِ المدهشةِ والصناعاتِ المتفوقةِ، رأيتُهم قد دانت لهم الأممُ، وخضعت لهوم الرقابُ، وصاروا يتحكمون في الأمم الضعيفةِ بما شاؤا ويُعدونهم كالعبيدِ والأُجراءِ، فرأيتُ فيهم العزَ الذي بهرني، والتفنن الذي أدهشني فقلتُ في نفسي: لولا أن هؤلاء القوم هم القوم، وأنهم على الحقِ والمسلمون على

---

(١) انتصار الحق (ص: ٨).

(٢) انتصار الحق (ص: ١٠).

الباطلِ لما كانوا على هذا الوصفِ الذي ذكرتُ لك. فرأيتُ أن سلوكي سبيلهم واقتدائِي بهم خير لي وأحسنُ عاقبة، فهذا الذي صيَّرني إلى ما رأيت»[1].

رد المسلم الناصح على شبهة صديقه الملحد:

يقول الشيخ رحمه الله: «فقال له صاحبه حين أبدى ما كان خافياً: إذا كان هذا هو السبب الذي حوَّلك إلى ما أرى فهذا ليس من الأسباب التي يبني عليها أولوا الألباب والعقول عقائدَهم وأخلاقهم وأعمالهم ومستقبل أمرهم، فاسمع يا صديقي تمحيص هذا الأمر الذي غرك وحقيقَته:

إن تأخر المسلمين فيما ذكرت ليس ناشئاً عن دينهم، فإنه قد عِلم كلُ من له أدنى نظر وبصيرة أن دينَ الإسلام يدعو إلى الصلاح والإصلاح في أمورِ الدين وفي أمور الدنيا، ويحث على الاستعدادِ من تعلم العلوم والفنون النافعة، ويدعو إلى تقوية القوة المعنوية والمادية لمقاومة الأعداء، والسلامة من شرهم وأضرارهم، ولم يستفد أحد منفعة دنيوية فضلاً عن المنافع الدينية إلا من هذا الدين، وهذه تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلهَا: هلُم إلى الاشتغال بجميع الأسبابِ النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودُنياكم؛ أفبتفريط المسلمين تحتجُّ على الدين؟! إن هذا لهو الظلمُ المبينُ.!

أليس من قصور النظر ومن الهوى والتعصب، النظر في أحوال المسلمين في هذه الحقبة من الزمن التي تدهورت فيها علومهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفقدوا فيها جميع مقوماتِ دينهم، وترك النظر إليهم في زهرة الإسلام والدين في الصدر الأول، حيث كانوا قائمين بالدين، مستقيمين على الدين، سالكين كل طريق يدعو إليه الدين، فارتقت أخلاقهم وأعمالهم حتى بلغت مبلغًا ما وصل إليه ولن يصل إليه

---

(١) انتصار الحق (ص: ١١).

أحد من الأولين والآخرين، ودانت لهم الدنيا من مشارِقها إلى مغاربها وخضعت لهم أقوى الأمم وذلك بالدين الحق والعدل والحكمة والرحمة، وبالأوصاف الجميلة التي كانوا عليها؟! .... إلخ»[1].

إصرار الملحد على مذهبه:

يقول الشيخ رحمه الله: فقال المنصوح: الأمر هو ما ذكرتُ لك، ونفسي تتوق إلى أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصناعات، وترقوا في هذه الحياة.

نصيحة جديدة من المسلم لصديقه الملحد:

يقول الشيخ رحمه الله: فقال له صاحبه وهو يحاوره: رفضت دينا قيما كامل القواعد ثابت الأركان مشرق البرهان، يدعو إلى كل خير ويحث على السعادة والفلاح، ويقول لأهله هلم إلى كل صلاح وإصلاح، وإلى كل خير ونجاح، واسلكوا كل طريق يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية. دينا مبنيا على الحضارة الراقية الصحيحة التي بنيت على العدل والتوحيد، وأسست على الرحمة والحكمة والعلم والشفقة وأداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وسلمت من الظلم والجشع والأخلاق السافلة، وشملت بظلها الظليل وإحسانها الطويل وخيرها الشامل، وبهائها الكامل، ما بين المشارق والمغارب، وأقر بذلك الموافق والمنصف المخالف ...أتتركُها راغبا في حضارات ومدنيات مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسة على الظلم والجشع والقسوة وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان ورحمته، عادمة لنور العلم وحكمته حضارة ظاهرها مزخرف مزوق، وباطنها خراب، وتظنها تعمر الوجود، وهي في الحقيقة مآلها الهلاك، والتدمير؟ ألم تر آثارها في هذه الأوقات، وما احتوت عليه من الآفات والويلات، وما جلبته للخلائق من الهلاك والفناء والتدمير؟ ....

---

(١) انتصار الحق (ص: ١١-١٥).

إلخ.

تردد الملحد بعد سماعه لنصيحة صديقه المسلم:

يقول الشيخ رحمه الله: «فقال له المنصوح: لقد صدقتَ فيما قلتَ، ولكن لي على هذا المذهب أصحاب مثقفون، ولي على هذا الرأي شبيبة مهذبون، قد تعاقدت معهم على التمسك بالإلحاد واحتقار المستمسكين بدين رب العباد، قد أخذنا نصيباً وافرًا من اللذات، واستبحنا ما تدعو إليه النفوس من أصناف الشهوات فأنى لي بمقاطعة هؤلاء السادة الغرر؟ وكيف لي بمباينتهم وقد اتصلت بهم غاية الاتصال؟! فالآن يتنازعني - بعدما بان سبيله واتضح دليله - داعيان: داعي الحق وداعي النفس والاتصال بهؤلاء الأصحاب المنافي للحق غاية المنافاة، فكيف الطريق الذي ينيرني ويشفيني، وما الذي عن هذا الأمر يسليني؟»[1].

نصيحة جديدة من المسلم الناصح إلى صديقه الملحد:

يقول الشيخ رحمه الله: «فقال له صاحبه الناصح: ألم تعلم أن من أوجب الواجبات وأكبر فضائل الرجل اللبيب أن يتبع الحق الذي تبين له ويدع ما هو فيه من الباطل، وخصوصا عند المنازعات النفسية والأغراض الدنيوية؟ وأن الموفق، إذا وقع في المهالك، طلب الوسيلة إلى تحصيل الأسباب المنجية؟ أما علمت أن من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخيْر ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ويسعون في سعادته وفلاحه؟ ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ثم اعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين وشاهد ما فيه من الغي والضلال ثم تراجع إلى الحق، الذي هو حبيب القلوب، كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه! فارجع

---

(١) انتصار الحق (ص: ١٥).

إلى الحق صادقًا وثق بوعد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ "[١].

الملحد يسأل عن كيفية رد الشبهات:

يقول الشيخ رحمه الله: فقال له المنصوح:» لا يخفى عليك يا أخي أن الباطل إذا دخل في القلوب وتمكن منها لا يخرج بسهولة، فأريد أن توضح لي توضيحا تاما بطلان ما عليه هؤلاء الملحدون فإنهم يقيمون الشبه المتنوعة في ترويح قولهم ليغتر به من لا بصيرة له«[٢].

إجابة شافية من المسلم:

يقول الشيخ رحمه الله:» فقال له الناصح: اعلم أن الحق والباطل متقابلان، وأن الخير والشر متنافيان، وبمعرفة واحد من الضدين يظهر حسن الآخر أو قبحه، فأنبئك على وجه الإجمال والتنبيه اللطيف؛ إذا أردت أن تقابل بين الأشياء المتباينات؛ فانظر إلى أساسها الذي أسست عليه، وإلى قواعدها التي انبتت عليها، وانظر إلى آثارها ونتائجها وثمراتها المتفرعة عنها، وانظر إلى أدلتها وبراهينها التي بها ثبتت، وانظر إلى ما تحتوي وتشمل عليه من الصلاح والمنافع، ومن المفاسد والمضار؛ فعند ذلك إذا نظرت لهذه الأمور بفهم صحيح وعقل رجيح، ظهر لك الأمر عيانا؛ فإذا عرفت هذه الأصول فهذا الدين الحق الذي دعت إليه الرسل عموما وخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ خصوصا، قد بني وأُسس على التوحيد والتأله لله وحده لا شريك، حبا وخوفا، ورجاء، وإخلاصا، وانقيادا، وإذعانا لربوبيته، واستسلاما لعبوديته، قد دل على هذا الأصل الذي هو أكبر جميع أصول الأدلة العقلية والفطرية، ودلت عليه جميع الكتب السماوية وقرره جميع الأنبياء

(١) انتصار الحق (ص: ١٨).

(٢) انتصار الحق (ص: ٢٠).

والمرسلين وأتباعهم من أهل العلوم الراسخة، والألباب الرزينة، والأخلاق العالية، والآداب السامية، كل أولئك اتفقوا على أن الله منفرد بالوحدانية، منعوت بكل صفة كمال، موصوف بغاية الجلال والعظمة والكبرياء والجمال، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وأنه منزه عن كل صفة نقص وعن مماثلة المخلوقين، وأنه لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر إلا هو؛ فالدين الإسلامي على هذا الأصل أُسِّس، وعليه قام واستقام.

وأما ما عليه أهلُ الإلحاد فإنه ينافي هذا الأصل غاية المنافاة فإنه مبني على إنكار الباريء رأسًا، فضلا عن الاعتراف له بالكمال وعن القيام بأوجب الواجبات وأفرض الفروض وهو عبوديته وحده لا شريك له، فأهل هذا المذهب أعظم الخلق مكابرة وإنكارا لأظهر الأشياء وأوضحها، فمن أنكر الله فبأي شيء يعترف؟ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾. وهؤلاء أبعدُ الناس عن عبودية الله والإنابة إليه، وعن التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الشرائع، وتخضع لها العقول الصحيحة ومع خُلو قلوبهم من توحيد الله والإيمان به وتوابع ذلك فهم أجهَل الناس، وأقلهم بصيرة ومعرفة بشريعة الإسلام وأصول الدين وفروعه، فتجدهم يكتبون ويتكلمون ويدعون لأنفسهم منَ العِلْومِ والمعرفة والثقافة واليقين ما لا يصل إليه أكابر العلماء .....

أما الأخلاق فلا تسأل عن أخلاق من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يعتقد الأديان الصحيحة، فإن الأخلاق نتائجُ الاعتقادات الصحيحة والفاسدة، فغاية ما عند هؤلاء التملُّقُ القوليِ والفعلي، والخضوع الكاذب للمخلوقين، وهم من هذا الخضوع السافل تجد عندهم من العُجب والكِبْر واحتقار الخلق والاِستنكافِ عن مخالطةِ من يستنقصونهم شيئاً كثيراً، فهم أوضع خلق الله وأعظمهم كِبْرا وتيها.

ثم إنهم يستعينون على هذا الخلق المسمى عنْدهم بالثقافة بالتصنع والتجمل بالملابس، والفرش، والزخارف، ويفنون كثيـرًا من أوقاتهم بذلك وقلوبهم خراب

خالية من الهدى والأخلاق الجميلة، فالجمال الظاهر الباطِل ماذا يغني عن الجمال الحقيقي؟ ثم إذا لحظت غاياتهم ومقاصدهم فإذا هي أغراض دنية ومقاصد سفلية ومطامع شخصية، وإذا سبرت أحوالَهم رأيتهم إذا اجتمعوا تظنهم أصدقاء مجتمعين فإذا افترقوا فهم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ ..... إلخ[1].

الملحد يسأل عن سبيل النجاة:

يقول الشيخ رحمه الله: «قال المنصوح: والله ما تعديت في وصفهم مثقال ذرة، ولكني أريد أن تدلني على طريق يجمع بين السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية، لأن نفوس من تربى وتخلق بأخلاقِ هؤلاءِ لا ترجع عما ألِفَته إلا بأمر قوي؛ إما بترغيب وهوى يجذبُها، وإما بترهيب وخوف يقمعها»[2].

إجابة المسلم على سؤال الملحد:

يقول الشيخ رحمه الله: «فقال له صاحبه الناصح: والله لقد أدركتَ في هذا الدين مطلوبك، وفيه والله كل مرادك ومرغوبك، فإنه الدين الذي جمع بين سعادة الدنيا والآخرة وفيه اللذات القلبية والروحية والجسدية، ولا تفقد من مطالب النفوس الحقيقية شيئا إلا أدركته، ولا من أنواع المسرات شيئاً إلا حصلته، ففيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وسأوضح لك ذلك.

فاعلم أن أصول اللذات المطلوبة:

أولاً: راحة القلوب وسكونها وطمأنينتها، وفرحها وبهجتها وزوال هُمومها وغمومها.

ثانياً: القناعة والطمأنينة بما أوتيه العبد من المطالب الجسدية.

---

(١) انتصار الحق (ص: ١٨-٢٤).

(٢) انتصار الحق (ص: ٢٦).

ثالثـاً: استعمال ذلك على وجوه يحصل به السرور والاغتباط.

فهذِه الأمور الثلاثة، من رزقها واستعملَها على وجهها فقد نال كل ما تعلق به طمع الطامعين، فإنّ جميع اللذات ترجع إلى ما ذكرنا.

- لذات القلوب:

فأما لذات القُلوب وحصول سرورها وزوال كدرها فإنما أصل ذلك بالإيمان التام بما دعا الله عباده إلى الإيمان به من الإيمان بتوحيده بجميع نعوت الكمال وامتلاء القلوب من تعظيمه وجلاله ومن التأله له وعبُودِيته والإنابة إليه وإخلاص العمل الظاهر والباطن لوجهه الأعلى، وما يتبع ذلكَ مِن النصح لعباد الله ومحبة الخير لهم وبذل المقُدور من نفعهم والإحسان إليهم والإكثار مِن ذكر الله والاستغفار والتوبة، فمن أوتي هذه الأمور فقد حصل لقَلبه من الهداية والرحمة والنور والسرور وزوال الأكدار والهموم والغمومِ ما هو نموذج من نعيم الآخرة، وأهل هذا الشأن لا يغبطون أرباب الدنيا والملوك على لذاتهم ورياساتهم؛ بل يرون ما أعطوه من هذه الأمور يفوق ما أعطيه هؤلاء بأضعاف مضاعفة، وهذا النعيم القلبي لا يعرفه حق المعرفة إلا من ذاقه وجربه فإنه كما قيل:

مَن ذَاقَ طَعمَ نِعيمِ القَوم يَدرِيه .... ومَن درَاهُ غدا بالروحِ يَشرَيه

فهذا إشارة لطريق هذا النعيم القلبي الذي هو أصل كل نعيم.

- القناعة والطمأنينة:

وأما الأمر الثاني فإن الله أعطى العباد القوة والصحة وما يتبع ذلك من مال وأهل وولد وخول وغيرها. والناس بالنسبة لهذه الأشياء نوعان: قسم صارت هذه النعم في حقهم مِحنًا ونِقَماً. وقسم صار في حقهم نهما وخيرات ومنحا، أما أهل الدين الحقيقي فقد قابلوا هذه النعم وتلقوها على وجوه الشكر لله والاغتباط

بفضله وتناولوها على وجه الاستعانة بها على طاعة المنعم وعلموا أنها من أكبر الوسائل لهم إلى رضى ربهم وخيره وثوابه إذا استعملوها فيما هيِئت له وخلقت لأجله وقد رضوا بها عن الله كل الرضا، فإنهم علموا أنها من عند الله الذي له الحكمة التامة في جميع أقضيته وأقداره، وله الرحمة الواسعة في جميع تدابيرِه، وله النعمة السابغة في كل عطاياه وهو أرحم بهم من الخلق أجمعين فحيث علموا العلم اليقيني صدورها ممن هذا شأنه قنعوا بما أُعطوه منها، من قليل وكثير كل القناعة، وسكنت قلوبهم عن التطلع والتطلُب لما لم يقَدر لهم، ومتى حصلت الطمأنينة والقناعة والرضا عن الله بما أعطى فقد حصلت الحياة الطيبة، فإذا أدركت حق الإدراك نعتهم هذا عرفت أن نعيم الدنيا في الحقيقة هو نعيم القناعة برزق الله، وطمأنينة القلوب بذكر الله وطاعته، وأن الواحد من هؤلاء لو لم يكن عنده من هذه الأمور وهي القوة والصَحة والمال والأهل والولد وتوابع ذلك القَليل لكَان في راحةٍ وسرور من جهتين؛ جهة القناعة وعدم تطلع النفس وتشوقها للأمور التي تحصل، وجهة ما ترجوه من ثواب الله العاجل والآجل على هذه العبادة القلبية التي تزيد على كثير من العبادات البدنية، فإن التعبد لله بمعرفة نعمه والاعتراف بها والرضا بها والرجاء لله أن يديمها ويتمها وأن يجعلها وسيلة إلى نعم أخرى وأن يجعلها طريقا للسعادة الأبدية لا رَيب أن هَذه الأحوال القَلبية من أفضَلِ الطاعاتِ وأجلِ القرباتِ، فكم من فرق بين سرور هذا الذي تَعَبد بروح الدِين وحصلت له الحياة الطيبة، وبين من تلقى هذه النعم بالغفلة وعدم الاعتراف بنعمة المنعم وشقي بهمومها وغمومها، وكان إذا حصل له شيء من مطال النفوس لم يرض به بل تشَوَق إلى غيره وتطلّع لسواه فهذا ينتقلُ من كدر إلى آخر، لأن قَلَبه قد تعلق تعلقاً شديداً بمطَالب الجسد، فحيث جاءت على خلاف ما يؤمله ويُريده قَلق أشد القَلق، وهو لا يزال في قلق مستمر، لأن المطال النفسية متنوعة جداً، فلو وافقه واحد لم يوافقه

الآخر وربما اجتمع في الشــيء الواحد سرور من وجه، وحزن من وجه آخر فصفوه ممـزوج بكَدره وسـروره مختَلِـط بحزنه، فأينَ الحَيـاة الَطيبة لهـذا؟! وإنما الحياة الطيبـة لأربـاب البصائر والحجـى الذين يتلقونها كلهـا بالقبـول والقناعة والرضا.

- **جهة استعمال النعم:**

وأما الأمر الثالث: وهو جهة اسـتعمال هـذه النعم، فصاحب الدين الصحيح يتناولهـا على وجه الشـكر لله على نعمه والفرح بفضله، وينـوى بها التقوي على ما خلق له من عبادة الله وطاعته، وينفقها مُحتسِـبا بها رضا الله وفضوله وخلفه العاجل والآجـل، ويعلـم أنه إذا أنفَق على نفســه وأهله أو ولده أو من يتصـل به فإنما نفقته صادفـت محلهـا ووَقعَت موقعَها فلـم يتثاقل كثرة النفقة في هـذا الطَريق لأن يُقول معتَقدا: هذا أولى ما بذَلتُ فيه مالي، وهذا ألزَم ما قمت به من الواجبَات والفُروض، وهذا خير ما قمت به من المستحبات، وهذا أعظم ما أرجو له الخلف من الله حيث يقول وهو الكريم الوفي: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، ولا يزال نصب عينيه احِتسـاب الأجر في سعيه بكسبه وفي مصرفه أجناس ذلك وأنواعه وأفـراده متفطنا لقوله: إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عَليها حتى ما تجعلـه في فِي امرأتِكَ"؛ فمن كان هذا وصفه فإن لذاته الدنيوية هي اللذات الحقيقية السـالمة من الأكدار مـع ما يرجو من الثواب العاجل والآجـل من الله، ومن كانت هـذه صفته سـهل عليه الأخذ من جلها ووضعها في محلها ويسـرت لـه أموره غاية التيسـير. وأما من اسـتعمل هذه النعم على وجه الشره والغفلة، ويفكر في الاعتراف بفضـل الله في كل الأوقـات وبنعم الله، ويفرح بالنعـم لأنها من فضل الله بل فرح بها فقط لموافقة عرضه النفسـي ولا نوى بها الاسـتعانة على طاعة الله، ولا احتسب في نيلهـا وصرفِها على المنفق عليهم الأجـر والثواب فمن كان هذا وصفه فإن الكدر

والحـزن لـه بالمرصادِ، فإنه إذا فاتته بعض الشـهوات النفسـية حـزن، وإن أدرك ما أدركـه منهـا ويكـن على ما في خاطـره من كل وجه حـزن، وإن أراد منـه ولده ومن يتصل به نفقة أو كسوة، واجبة أو مستحبة حزن، ولا تخرج منه إلا بشق الأنفس وإن خرجـت منه خرج معها بضعةٌ من سـرور قلبه، لأنه يحب بقـاء ماله ويحزَن لنقصه على أي وجهٍ كان وليس عنده من الاحتسابِ ما يهون عليه الأمر، إنْ كان غير بخيل، فإن كان شـحيح النفس مطبوعًا على البخل فإن حياته مع أولاده وأهله والمتِصلين به حياة شـقاء وعذاب وأكدار متواصلة وأحزان مسـتمرة، لا إيمان عنده يُهَون عليه النفقاتِ، ولا نفس سـخية لا تستعصي عن نيل المكرمات؛ فيا له من عذاب حاضر وعذاب مستمر، فأين هذا من ذاك الذي حصلت له الحياة الطيبة بأكملها؟ هذا كله بالنَظـرِ إلى هذه الأمور الثلاثة التي هي أصول اللذاتِ عند العقلاءِ، قد اتضح لنا أن صاحب الإيمان الصحيح هو الذي فاز باللذات الحقيقية وسلم من المكدِراتِ"[1].

خاتمة المناظرة:

يقول الشيخ رحمه الله: فلما تلا النصيح لصاحبه هذه المواضيع، وبرهن عليها، قـال له المنصوح: والله لقد انجلى عني ما أجـد في أول موضوع تلوته علي، وانزاح عني الباطل في شرحك الأول، وإن مجلسك يا أخي ونصيحتك بهذه الطريقة النافعة تعـود عندي الدنيـا وما عليها، فأَحمد الله أولاً حيث قيضك لي، وأشـكرك شـكرا كثيراً حيث وفيت بحق الصحبة، ولم تصنع ما يصنعه أهْل العقول الذِين إذا رأَوا من أصحْابهم ما يسـوؤُهم قَطعُوا عنهم حبل الوداد في الحال، وأعانوا الشيطان عليهم، فـازداد بذلك الشـر عليهـم، وضاع بينهـم التفاهم وإني لا أنسـى جميـل معروفك حيـث رأيتني سـادراً في المهامة مغروراً بنفسـي معجبًا برأيي، فأريتنـي بعيني ما أنا

(١) انتصار الحق (ص: ٢٦-٤٠).

فيه، وأوقفتني بحكمتك على الهلاك الذي وقعت فيه، فالآن أستغفر الله مما مضى وأتوب إليه، وأسأله الإعانة على سلوك مرضاته، وأفزع إليه أن يختم بالصالحات أعمالي، وأحمد الله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطنًا، فإنه مولي النِعم، دافع النقم، غزير الجود والكرم.... إلخ»[1].

هذا بإجمال أهم ما كتبه الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، في الرد على الإلحاد وأهله، وبيان الحق ونصره، حرصت على نقل كلامه ففيه البيان والكفاية، وأشرت إلى منهجه في تلك الجهود بإيجاز العبارة.

(١) انتصار الحق (ص: ٤٤).

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات:

وبعد هذا التطواف في ميادين الشيخ: عبد الرحمن السعدي، وجهوده في الرد على الإلحاد وأهله، يطيب لي أن أسجل أهم النتائج والتوصيات، والتي كان من أهمها ما يلي:

- أهمية علم العقيدة وأنه من أولويات العلوم التي يجب على العامة والخاصة أن يبدؤوا به في تعلمهم.
- التأمل فيما منح الله الشيخ السعدي -رحمه الله- وفتح عليه، من جميل العبارة وأدب الصياغة وعمق المعني وفقه الواقع في زمنه، مما يجعل من أهم الوصايا الإقبال على تراثه والنظر فيه، والاستفادة منه علماً وعملاً.
- إعادة الطرح، والتنوع فيه، في بيان توحيد الربوبية والاهتمام به وإلقاء الضوء عليه جنبا إلى جنب توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وذلك لمواجهة الإلحاد والملحدين.
- التأكيد على العناية بتوحيد الربوبية، سيما هذا الوقت، لوجود من ينازع الله في خلقه وتدبيره.
- على الجامعات المعنية بتدريس العقيدة أن تخصص مادة لتعليم منسوبيها فن المناظرة والرد على المخالف.
- الاهتمام البالغ بالكتب المعتمدة لدى أهل العلم والتي ناقشت موضوع الرد على المخالف في مجال الاعتقاد.
- التحذير العام من الإلحاد والملحدين من خلال وسائل الإعلام الدعوية من منابر ومدارس وجامعات وقنوات وكتب وصحف ومجلات.

- على طائفة من طلبة العلم أن تعتني بدراسة الفكر الإلحادي، واستقراء منهاجهم، والتصدي لحججهم، والرد عليهم.
- يظهر في ردود الشيخ رحمه الله: التزام الأدب والإنصاف في الرد على المخالف، وعدم التعدي عليه، والتزام الرد العلمي الرصين والحجة الدامغة، مع الشفقة عليه والدعاء له.

فهرس المراجع

- انتصار الحق- المؤلف عبد الرحمن السعدي- الناشر: (PDF-).
- الآداب الشرعية والمنح المرعية- المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، المشهور بابن مفلح (المتوفى: ٧٦٣هـ)- الناشر: عالم الكتب.
- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين- المؤلف عبد الرحمن السعدي- الناشر- مكتبة المعارف.
- بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار- المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) المحقق: عبد الكريم بن رسمي اللدريني؛ دار النشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع
- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن المؤلف: السعدي- الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان- المؤلف: السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا - الناشر: مؤسسة الرسالة.
- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي فى أغلاله - المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي- الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيس البابي الحلبي وشركاه.
- الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في تو ضيح العقيدة- المؤلف: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر؛ الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- شذور ولطائف في آداب الرد على المخالف- المؤلف: حمد بن عبدالعزيز بن حمد بن عتيق.
- صحيح البخاري- المؤلف: البخاري: (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد زهير، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون طبعة.

- مجمـوع الفتاوى- المؤلـف: ابن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)- المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسـم - الناشـر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشـريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.

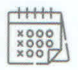




السجل العلمي

لمؤتمر الشيخ العلامة
عبدالرحمن بن ناصر السعدي
آثاره العلمية والدعوية

الجزء الثاني



الأربعاء والخميس
٢٣-٢٤ ربيع الأول ١٤٤١

الرعاة







فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الباحثون في مؤتمر الشيخ عبدالرحمن السعدي

السجل العلمي لمؤتمر الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، آثاره العلمية والدعوية. / الباحثون في مؤتمر الشيخ عبدالرحمن السعدي.- بريدة، ١٤٤١هـ

٤ مجلدات

ردمك: ٨ - ٨١ - ٨١٧٦ - ٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٥ - ٨٢ - ٨١٧٦ - ٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

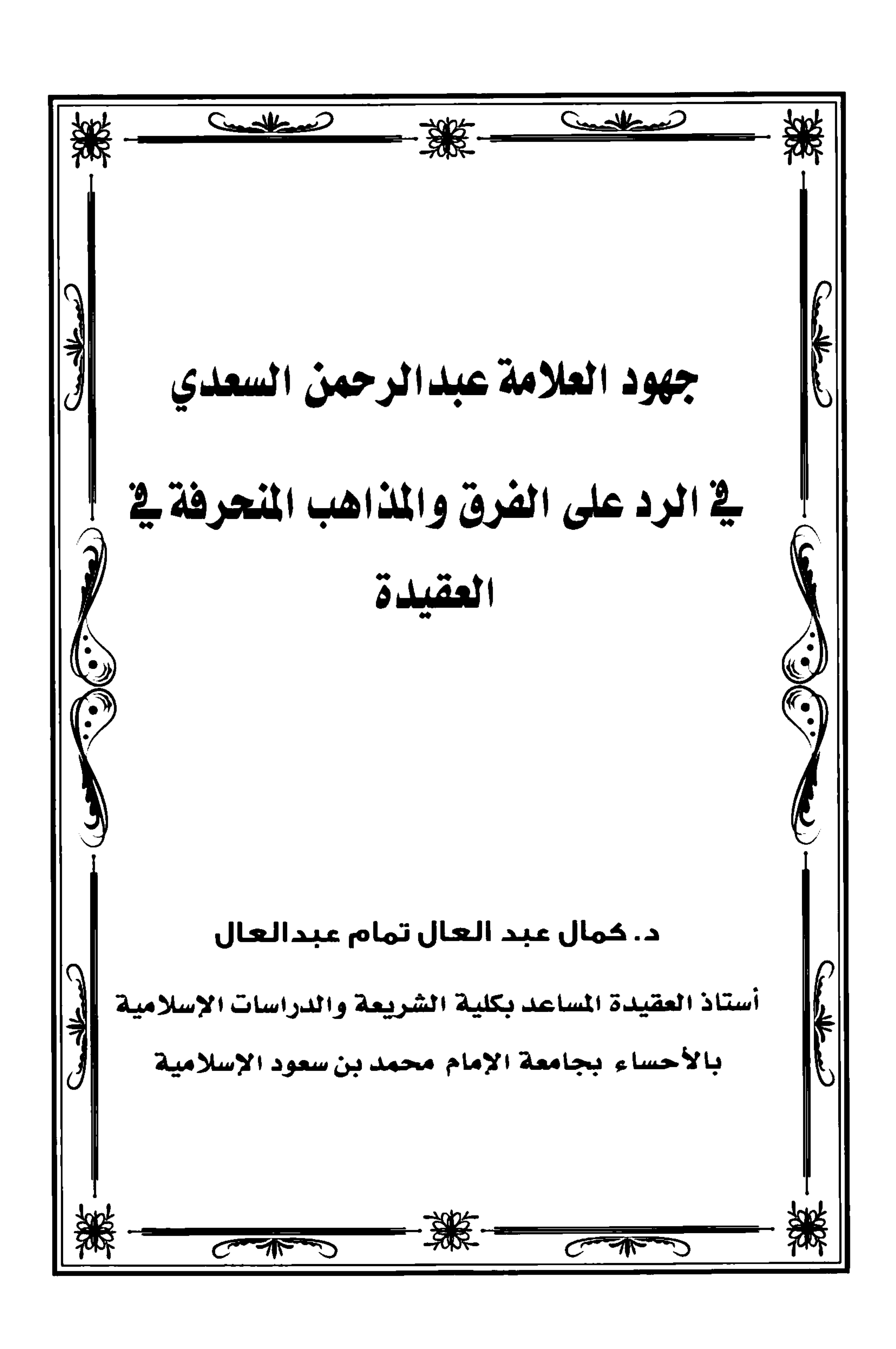
١- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، ت ١٣٧٦هـ ٢- الدعوة الإسلامية - السعودية أ. العنوان

ديوي ٩٢٢،١١٧ ١٤٤١/٢٦٢٠

رقم الإيداع: ١٤٤١/٢٦٢٠

ردمك: ٨- ٨١- ٨١٧٦- ٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٥ - ٨٢ - ٨١٧٦ - ٦٠٣-٩٧٨ (ج١)



جهود العلامة عبدالرحمن السعدي

في الرد على الفرق والمذاهب المنحرفة في العقيدة

د. كمال عبد العال تمام عبدالعال

أستاذ العقيدة المساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بالأحساء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

فلقد قدّم العلامة السعدي -رحمه الله-- لهذه الأمة جهاداً علمياً مباركاً قائماً على الحجة والبرهان، وعلى تقرير العلم النافع، والعمل الصالح، والذّب عن الدين؛ في تصديه للأفكار المخالفة لمذهب السلف، وردوده على كثير من الفرق الضالة، والمذاهب المنحرفة، ومقارعته للخصوم والمعاندين، ودحض شبهاتهم التي يوردونها، وذلك بالأدلة النقلية والعقلية.

فقد استشعر العلامة السعدي -رحمه الله- خطورة الفرق المنحرفة، وما لها من آثار سلبية على المجتمع المسلم فناقش أهل الإلحاد والضلال وأبطل حجتهم.

وتصدى للفلاسفة والجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرها من الطوائف التي ضلت في باب الصفات، وبين أنهم كلهم عدلوا عن الصراط المستقيم، وألحدوا في صفات الله تعالى إذ لم يثبتوها لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه -.

وتناول العلامة السعدي أقوال القدرية والجبرية بالرد، فنقض شبهاتهم، ورد عليها، وبين ضلالهم وبعدهم عن الصراط المستقيم.

وبين غلو الخوارج في الحكم على مرتكب الكبيرة، ومدى مخالفتهم للمذهب الحق، وأوضح أن ما استدلوا به من نصوص القرآن الكريم حجة عليهم لا لهم.

ولوضوح الفكر النقدي في مؤلفات العلامة السعدي قصدت دراسة جهوده في هذا الجانب المهم من علم العقيدة فجاء عنوان بحثي "جهود العلامة عبدالرحمن

السعدي في الرد على الفرق والمذاهب المنحرفة في العقيدة".

أسباب اختيار الموضوع :

إن من أهم ما دفعني للخوض في خضم هذا البحث ما يلي :

١ـ تبحر الشيخ عبدالرحمن السعدي في العلوم الشرعية على اختلاف أجناسها، وأنواعها، وأصنافها.

٢ـ وفرة تراث الشيخ عبدالرحمن السعدي في العقيدة، فقد خصها بمؤلفات عديدة تربو على عشرة مؤلفات.

٣ـ عناية الشيخ السعدي -رحمه الله- بحفظ العقيدة والدفاع عنها، وكشف الأفكار المنحرفة وإبطالها، وبيان زيغها، وبعدها عن المنهج القويم .

مشكلة البحث :

وتكمن مشكلة في السؤال الرئيس التالي: ما موقف العلامة السعدي من الفرق والمذاهب المعاصرة التي انحرفت في مسائل العقيدة؟ ويتفرع من هذا السؤال الأسئلة الفرعية التالية:

١ـ كيف أبطل العلامة السعدي ضلالات الملحدين؟

٢ـ ما أهم جهوده في الرد على العصرانية؟

٣ـ ما أهم الانحرافات التي أبطلها العلامة السعدي عند الجهمية؟

٤ـ هل ذكر العلامة السعدي سبب انحراف القدرية في باب القدر؟

٥ـ ما الوسائل التي استخدمها ـ -رحمه الله- ـ في مواجهة أفكار الخوارج؟

حدود البحث :

أما عن حدود البحث الموضوعية فتقتصر على بيان موقف العلامة عبدالرحمن السعدي من الانحرافات العقدية لدى بعض الفرق والمذاهب المعاصرة، وإبراز جهوده النقدية، وردوده العلمية للمسائل المشهورة التي خالفت فيها الفرق

والمذاهب عقيدة أهل السنة والجماعة.

ومن ثم فقد اخترت الفرق والمذاهب حسب موضوعات علم التوحيد ففي باب التوحيد اخترت الرد على الملحدين والعصرانية، وفي باب الصفات اخترت جهوده في الرد على الجهمية، وفي باب القدر أبرزت ردوده على القدرية، وفي باب الإيمان اخترت الرد على الخوارج . ونظراً للتقيد بعدد صفحات محددة للبحث اكتفيت بهذه الفرق.

أهداف البحث :

وتتحدد أهداف البحث في :

١- بيان المكانة العلمية للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي الذي سخَّر حياته في خدمة العلم ؛فضرب بباع في كل مجال من مجالات العلوم والفنون.

٢- بيان شمولية المنهج العلمي لدى العلامة السعدي؛ إذ إنه لم يكتف بتقرير مذهب أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد؛ بل تعداه إلى إبطال رأي المخالفين له، ودحض شبهاتهم.

٣- بيان أن العلماء منوط بهم دور كبير في مواجهة كل فكر دخيل وغريب، وذلك بتصحيح الأفكار، ورد الشبهات، وبيان الحق بالحجة والبيان الذي يقنع العقل ويشبع العاطفة.

٤- بيان أن الله تعالى قيض لهذه الأمة ولدينها عبر عصورها علماء أجلاء، ينفون عن هذا الدين كل دخيل، ويردون على المخالفين، ومن هؤلاء الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، الذي له منهج فريد في التعامل مع المخالفين في مسائل الاعتقاد.

منهج البحث :

انتظمت منهجية البحث على الأساسيين: الاستقرائي والتحليلي، وذلك بتتبع

النصوص والأدلة ذات العلاقة بأهداف الدراسة من أقوال الشيخ السعدي --رحمه الله- تعالى -، ليتم عرض الحقائق أولاً عرضاً صحيحاً في مدلولاتها وفي تأليفها، وحتى يتم التوصل حينئذ إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة .، مع الالتزام بضوابط البحث العلمي، ومن ذلك :

- عزو الآيات إلى مواضعها من القرآن الكريم .
- تخريج الأحاديث النبوية تخريجاً حسب القواعد والأصول المتبعة.
- جمع مادة البحث من مصادرها الأصلية، مع توثيق نسبة كل قول لقائله.
- اخترت أشهر المسائل العقدية التي انحرفت فيها الفرق والمذاهب حتى صارت من لوازمها، أو مما اشتهرت به.
- راعيت في المسائل المختارة عند الفرق والمذاهب المسائل التي تعقبها الشيخ في مؤلفاته أو أفرد لها رسالة خاصة من رسائله -رحمه الله- .
- رتبت الفرق والمذاهب حسب موضوعات علم التوحيد، وأبوابه.
- راعيت في ترتيب مباحث البحث الاتزان في الكم، وما خرج عن هذه السمة إنما فرضته طبيعة المادة العلمية.
- ذكر تاريخ الوفاة للأعلام المذكورين في صلب البحث.

خطة البحث :

جاء التكوين العلمي للبحث في مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة على النحو التالي :

المقدمة : وفيها أسباب اختياري لهذا للموضوع، وأهدافه، ومنهج البحث، وخطته .

المبحث الأول : جهود العلامة السعدي في الرد على الملاحدة، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول : ضلالات الملحدين وخطورتها.

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من ضلالات الملحدين.

المبحث الثاني : جهود العلامة السعدي في الرد على العصرانية، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول : الانحرافات العقدية عند العصرانيين.

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من انحرافات العصرانيين.

المبحث الثالث : جهود العلامة السعدي في الرد على الجهمية، ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : الانحرافات العقدية عند الجهمية.

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من انحرافات الجهمية.

المبحث الرابع : جهود العلامة السعدي في الرد على القدرية، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول : الانحرافات العقدية عند القدرية.

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من انحرافات القدرية.

المبحث الخامس : جهود العلامة السعدي في الرد على الخوارج، ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول : انحراف الخوارج الحكم على مرتكب الكبيرة.

المطلب الثاني: موقف العلامة السعدي من انحرافات الخوارج

الخاتمة : وذكرت فيها أهم نتائج البحث .

الفهارس: وذكرت فيها فهرس المراجع، وفهرس الموضوعات.

المبحث الأول: جهود العلامة السعدي في الرد على الملاحدة

المطلب الأول: ضلالات الملحدين وخطورتها

تعد ظاهرة الإلحاد من جملة الانحرافات الخطيرة التي لها تأثير سلبي على العقيدة الصحيحة الموافقة للفطرة السليمة، إذ إنها تقول بإنكار وجود الله الخالق ـ سبحانه وتعالى، والكفر بجميع الأديان، وإنكار جميع الرسالات.

وقد عرف الإلحاد بأنه: " كل فكر يتعلق بإنكار وجود خالق لهذا الكون سواء أكان عند المتقدمين من الدهرية، أو عند من جاء بعدهم من الشيوعيين الماركسيين." [١]

وقيل: « الإلحاد الكفر بالله، والميل عن طريق أهل الإيمان والرشد، وظهور التكذيب بالبعث، والجنة، والنار، وتكريس الحياة كلها للدنيا فقط.» [٢]

فالإلحاد فكرة طارئة سخيفة لا مكان لها إلا في قلوب فئة من شواذ الناس ماتت نفوسهم، وانحرفت فطرهم، وكابروا عقولهم.

ولا ريب أن الإلحاد المعاصر فكرة شيطانية باطلة لا يقبلها عقل، ولا منطق غذَّاها اليهود لتحطيمم حضارات وأديان العالم لإقامة حكمهم في الأرض. [٣]

والإلحاد المعاصر مذهب فلسفي يقوم على جملة من الأفكار منها:

١ـ يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله ـ تعالى ـ، فيدعي الملحدون بأن الكون وجد بلا خالق.

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة / لغالب عواجي ج٢، ص١٠٠٢

(٢) الإلحاد عبدالرحمن عبدالخالق / ص٢

(٣) المذاهب الفكرية المعاصرة / لغالب عواجي/ ج٢، ص١٠٠٣ـ١٠٠٤

٢- ادعاء الملاحدة أن وجود الكون حدث بأثر المصادفة وأعمال الطبيعة.

٣- إنكار الحياة الآخرة ؛ لأن المادة - عندهم أزلية أبدية.

٤- إنكار معجزات الأنبياء، لأن العلم في زعمهم لا يقبل ذلك .

٥- لا يعترفون أيضاً بأية مفاهيم أخلاقية، ولا بقيم الحق، والعدل، ولا بفكرة الروح.

٦- ادعاء أن المادة أزلية، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت.

٧- ادعاء أن النظرة الغائية للكون والمفاهيم الأخلاقية تعيق تقدم العلم.

٨- ينظر الملاحدة للتاريخ باعتباره صورة للجرائم والحماقة وخيبة الأمل وقصته لا تعني شيئاً.

٩- ظهرت الحياة ذاتياً من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة.

١٠- الإنسان مجرد مادة تطبق عليه كافة القوانين الطبيعية.(١)

ولا يخفى أن هذه الأفكار المنحرفة مخالفة للفطرة السوية ؛ بل فيها خروج عن الفطرة التي لو تركت بدون تغيير أو تبديل لن تختار إلا التوحيد والإقرار بوجود الله تعالى، قال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٣٠]

والإلحاد له آثار مدمرة في الحياة الاجتماعية للإنسان، فالبعد عن الله - تعالى - لم يكن من آثار تدميره النفسية البشرية فقط، وإنما كان من لوازم ذلك تدمير المجتمع الإنساني وتفكيكه؛ وذلك أن نظام الاجتماع البشري لا يكون صالحاً سليماً إلا إذا كانت اللبنات التي تشكل هذا النظام صالحة سليمة وإذا فسدت هذه اللبنات فسد تبعاً لذلك النظام الاجتماعي بأسره.(٢)

فالإلحاد لا يربي الضمير، ولا يخوف الإنسان من إله قوي قادر يراقب تصرفاته

(١) الإلحاد عبدالرحمن عبدالخالق / ص٢٢، وانظر الإلحاد محمد الخضر حسين ص١١-١٨

(٢) الإلحاد خطر كامن يُهدد الشباب الحقيقة والأسباب والعلاج/ ضياء دويدار / ص٣١٧

وأعماله في هذه الأرض. فإن الملحد ينشأ غليظ القلب عديم الإحساس، قد فقد الوازع الذي يردعه عن الظلم، ويأمره بالإحسان والرحمة. بل على العكس من ذلك؛ فإن الإلحاد يعلم أتباعه أنهم وجدوا هكذا صدفة، ولم يخلقهم خالق، أو أنهم خلقوا أنفسهم، وأنهم حيوانات أرضية كسائر الحيوانات التي تدب على الأرض.(١)

ولا بد من القول إن الإلحاد قد كثر أتباعه، واشتد عوده، وقد تقبله بعض الناس إما لعدم إيمانهم بالدين، وإما لجهلهم وسخافة أفكارهم، وإما رغبة في الوصول إلى مآرب سياسية أو اقتصادية، أو رغبتهم في التفلت عن الدين .(٢)

وقد اجتالت الشياطين بعض الشباب في هذا الزمان عن الدين القويم إلى هذا المسلك المنحرف بدأوا يصرحون بكفرهم وزندقتهم عبر القنوات الفضائية، والمواقع الإلكترونية، وشبكات التواصل، مع أنهم وُلِدُوا في بيئة مسلمة، ومن أبوين مسلمين.

ويلاحظ أن مشكلة الإلحاد تعد من أخطر المشكلات المعاصرة التي تواجه المجتمعات ؛ ومن ثم فإنها تحتاج إلى جهد من العلماء وتصد لشبهاتها بالتفنيد والإبطال حتى لا تنطلي على شباب مجتمعاتنا وتخدعهم بأساليبها وخاصة مع سهولة التواصل الاجتماعي بين الشعوب والأمم .

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من ضلالات الملحدين:

وقد تصدى لانحراف وزيغ الملحدين رجال كثر، وعلماء صدق نذروا أوقاتهم لكشف تلك الغمة الإلحادية عن أبناء الأمة من خلال الدعوة والحوار والنقد، وكشف شبهات الملاحدة.

---

(١) الإلحاد/ عبدالرحمن عبدالخالق / ص٢٢

(٢) مذاهب فكرية معاصرة / لغالب عواجي / ص١٠٠٣-١٠٠٤

ويعد العلامة السعدي -رحمه الله- تعالى من العلماء الصادقين الذين أنكروا باطل الملاحدة، وبينوا انحرافهم، ونقضوا ما قعدوا من قواعد، وهدموا ما أصلوا من أصول، وأظهروا زيغهم، وبعدهم عن الصراط المستقيم.

ولا غرابة أن يهتم العلامة السعدي بالرد على الملاحدة، فقد استفحل الإلحاد في عصره، وسرى في كثير من الناس

بصورة هائلة، وروج له بأساليب متنوعة حتى صار من الشبهات المزوقة المموهة التي يفتتن بها الناس، يقول -رحمه الله-: "ومتى تأملت أحوال البشر، وكيف سرى الإلحاد فيهم بصورة هائلة، وزخرفت له الأقوال، وروج بأساليب متنوعة، ونصر

بالقوى المادية، وجرف بتياره وفتنته الخلق الكثير، ولم يسلم من فتنته إلا اليسير ممن عصمهم الله، وحفظهم بالبصيرة النافذة والبعد عن هذه الفتنة."[١]

وقد تصدى العلامة السعدي لهذا الفكر المنحرف، وردَّ هذه الضلالات من خلال عدة محاور:

المحور الأول: نقد العلامة السعدي لأصول الملاحدة:

فاق العلامة السعدي -رحمه الله- أقرانه وأهل عصره في مجاهدة الملاحدة ونقض أصولهم، فبين أن سبب انحراف الملاحدة يرجع إلى أمرين:

الأول: العلوم الطبيعية، فقد اغتروا لما عرفوا بعض العلوم الطبيعية، ووقفت عقولهم القاصرة عندها، وقالوا: نثبت ما وصلت معارفنا إليه، وننفي ما سواه.»[٢]

الثاني: اعتمادهم على العقل وغلوهم فيه، يقول الشيخ السعدي -رحمه الله-

(١) فتنة الدجال ص٢٥٩ ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي

(٢) الفتاوى السعدية ص٣٧

- فإن كثيراً من الملحدين وأهل الحيرة والارتياب تاهوا بما أوتوا من ذكاء وفطنة حتى تكبروا على ما جاءت به الرسل، واحتقروا الرسل، وما جاؤوا به، وفرحوا بعلومهم، وصارت عقولهم الذكية غير الزكية سبباً لهذا الانحراف العظيم، والإلحاد المفسد للدنيا والآخرة. فعقولهم التي طغوا بها أوصلتهم إلى هذه الهاوية السحيقة.»[1]

وذكر العلامة السعدي -رحمه الله- أن الملاحدة أصلوا أصولاً يقلد فيها بعضهم بعضاً، وهي في غاية الفساد، يكفي اللبيب مجرد تصورها عن إقامة البراهين على نقضها، لكونها مناقضة للعقل والنقل، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بهم أكثر الخلق.

وأعظم الأصول عند الملاحدة -كما ذكر الشيخ السعدي- أصل خبيث نقلوه عن معلمهم الأول» أرسطو» المعروف بالإلحاد، والجحد لرب العالمين، والكفر به، وبكتبه، ورسله[2] [3]

وهذا الأصل هو:» أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء ثم ليكتف بعقله، وخياله ورأيه.»[4]

وقد أبطل العلامة السعدي -رحمه الله- هذا الأصل في كتابه الممتع «الأدلة

(١) الفتاوى السعدية ص٣٧

(٢) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين للشيخ السعدي ص٧-٨

(٣) انظر فكرة أرسطو التي اعتمد عليها الإلحاد المعاصر في كتاب الطبيعة/ ج ٢، ص٨٤٥ وما بعدها / لأرسطو/ تحقيق عبدالرحمن بدوي / الدار القومية للطباعة / القاهرة / ١٩٦٥م

(٤) السابق ص٨

القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»بثلاثة وثمانين وجهـاً، منها:

الأول: أن هذا الأصل أفسـد على الملاحـدة علومهم وعقولهم وأديانهم. وقد بين الناس على اختلاف نحلهم بطلان أصولهم، وأن أهلها قد خالفوا جميع الرسل وجميع العقلاء.

الثـاني: أن هذا الأصـل مخالف لما بعث الله به رسـله، وأنزل كتبـه، فإنه بعث رسـله مذكريـن للعبـاد ما فطـروا عليه مـن الإقـرار بوحدانية الله، ووجوب شـكر نعمـه، ومذكرين لهـم بالأمر بما فطـرت العقول على استحسـانه؛ كالصدق والبر، والإحسـان والأخـلاق الجميلة، وبالنهـي عما فطرت العقول على اسـتقباحه؛ من الكـذب والظلم والعدوان وجميع الأخلاق الرذيلـة، فكيف يؤمر الناس أن يمحوا من قلوبهم وفطرهم هذه الأمور؟ وهل هذا إلا نهي عن جميع مواد السعادة والفلاح والصلاح، وأمر بكل منكر وفحشاء وسوء وشر وفساد ؟

الثالث : أن محو العلوم الصحيحة والعقائد الحقة من القلوب، وطلب الشـك فيها محال غير ممكن، ومن حاول ذلك فهو

مكابـر، فالحقائـق الصحيحة المبنيـة على البراهين الحقـة الواضحة لا يمكن إزالتهـا مـن القلوب بوجه؛ لأن الحـق إذا تمت معرفته احتل القلـوب، وثبت فيها، واستقر، وصارت له السيطرة على كل باطل، وزهق الباطل عند مقابلته.

الرابـع: أن المقصود الأعظم من تأصيل هذا الأصل الخبيث الكفر بما جاءت بـه الرسـل والانحلال عنـه، وإلا فأهله مـن أكذب النـاس، فإنهم متمسـكون غاية التمسـك بما عليه أئمتهـم الملحدون، وأقوالهم وعقائدهـم مقدمة عندهم على ما جاءت به الرسـل، ويتعصبون لها غاية التعصب، فلو كانوا صادقين محقين لوجب عليهـم أن يمحوا مـن قلوبهم أقوال أئمتهـم وعقائدهم التي ما زالوا متمسـكين بها

مقلدين لها تقليداً أعمى، فالغرض من كلامهم معروف، وهو قصدهم الانحلال من الدين الصحيح والتمسك بأقوال هؤلاء الضالين.[1]

وردَّ العلامة السعدي -رحمه الله- ادعاء الملاحدة الماديين أن وجود الكون حدث بأثر المصادفة وأعمال الطبيعة بوجهين :»

الوجه الأول: قولهم هذا الذي صرحوا به، واقتدوا فيه بالمتمردين من أئمتهم الضالين يدل على أن عقول هؤلاء أقرب إلى عقول المجانين منها إلى عقول الصبيان الذين لا يعقلون؛ إذ أن الطبيعة عمياء ليس عندها علم، ولا قدرة، ولا إرادة، ولا غيرها من الأوصاف.

الوجه الثاني: أن هذه العوالم العظيمة لو تركت ساعة واحدة، بل لحظة واحدة للمصادفة والفوضوية لزالت السموات والأرض، واختبطت العوالم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر:٤١]

والله تعالى جعل للعقول حدّاً لا تتعداه ولا تتمكن من مجاوزته، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليل جداً في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلة في ملكه وتصريفه وتدبيره؟! ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالق خلقها، ولا محدث أحدثها، ولا حكيم ابتدعها ونظمها، سبحانك هذا بهتان وجرم عظيم»[2]

ونقض العلامة السعدي -رحمه الله- دعوى الملاحدة :» نثبت ما وصلت

---

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين للشيخ السعدي ص١٠ ـ ١٤

(٢) السابق، ص١٠ ـ ١٤

معارفنا إليه، وننفي ما سواه بقوله: « فتعرف بهذا

أن نفيهم جهل وباطل باتفاق العقلاء، فإن من نفى ما لا يعرفه، فقد برهن على كذبه وافترائه، فكما أن من أثبت شيئاً

بلا علم، فهو ضال غاو، وكذلك من نفى شيئاً بغير علم.» (١)

ويؤكد الشيخ -رحمه الله- في نقضه لهذه الدعوى أن إثبات الملاحدة لعلوم الطبيعة التي عرفوها ووصلت إليها معارفهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها، ولم يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها، فأثبتوا بعض السبب، وعموا عن المقصود، وهم في علمهم ذا حائرون مترددون، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور، ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة، فهم دائماً في خبط وتناقض. (٢)

المحور الثاني: نقد العلامة السعدي للقصيمي الملحد:

صنف العلامة السعدي -رحمه الله- رسالته القيمة « تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله »بين فيها للناس زيغ القصيمي وانحلاله، وفضح كذبه وافتراءه، وفساد ما يدعو إليه من عقائد منحرفة، وقيم منحطة.

فقد مال القصيمي إلى الدعوة الإلحادية، وأصبح من دعاتها يروج لضلالاتهم، ويدعو لأباطيلهم، وتتجلى مظاهر انحرافه فيما يلي:

١-زعم القصيمي أنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وأن من فرق بينهما من الأنبياء والرسل وأهل الأديان فهو غالط ضال.

٢-زعم أن الطبيعة تتفاعل وتتطور وتدير أمر العالم، وتدبره وتنظم الأمور الجليلة

(١) الفتاوى السعدية ص٣٧ ، وانظر : تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ص ٣٤١

(٢) السابق ص٣٧،وانظر : تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ص ٣٤١

والدقيقة، وأنكر قضاء الله وقدره، وأرجع ذلك إلى العلم بانتظام الطبيعة، وهذا إنكار منه لله، ولأفعاله، ولصفاته.(١)

٣ـ نبذ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأنكر العقوبات على المعاصي والذنوب في الدنيا والآخرة.

٤ـ دعا إلى الإباحية والتحلل والانسلاخ من الدين.(٢)

اهتم العلامة السعدي -رحمه الله- بانحراف القصيمي، ورد عليه رداً علمياً هادفاً، وانبرى متصدياً لكتابه، مفنداً لأباطيله، وناقضاً لأحابيله. مبيناً ما فيه من الكفر البواح والردة المغَلظة، قال العلامة السعدي -رحمه الله- : "من نظر فيه وتأمله حق تأمله، عرف أنه ما كتب أشد وطأةً، وأعظم عداوةً ومحاربة للدين الإسلامي ومنفراً منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب، وغيرهم بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل ولا افترى مفترٍ على الدين كافترائه، ولا حرّف أحد له نظير تحريفاته، وما صرَّح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين، وأصوله، وتعاليمه، وأخلاقه، وآدابه، وحَمَلته كاستهزائه وسخريته، فإنه اشتمل على نبذ الدين ومنابذته ومنافقته؛ ثلاثة لا تُبقي من الشر شيئاً إلا تضمنته، فإنه صريح في الانحلال عن الدين بالكلية." (٣)

وبين الشيخ السعدي -رحمه الله- الهدف من كتاب القصيمي، وأنه موجه إلى قلب الدين وروحه، وإلى هدم علومه وأصوله

---

(١) هذي هي الأغلال/ للقصيمي/ ص٢٥٣، وانظر: تنزيه الدين ص١٦٦ـ١٦٧ ضمن مجموع مؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

(٢) هذي هي الأغلال/ للقصيمي/ ص٨٧، وص١٠٤

(٣) تنزيه الدين ص١٦٦ ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

وقواعده وجميع مقوماته.[1]

وردَّ العلامة السعدي -رحمه الله- زعم القصيمي: « أن الإيمان بالله وباليوم الآخر، يمنع الرقي، ويمنع كون العبد سبباً محضاً

منتفعاً بأعماله، وأنه غل ورباط يمنع من الخير والصلاح، وأن الأديان السماوية أكبر المصائب على البشر.» بقوله:» وقولٌ وصل إلى هذا الحد ليس بعده تقدم إلى الكفر، وإنما هو النهاية في الكفر والتعطيل، والجحود لرب العالمين، والخروج من الديانات السماوية كلها، وهو غاية الخروج من العقل والحس، فإن قضية الإيمان بالله ورسوله هي أكبر القضايا وأعظمها وأوضحها وأجلاها براهين وأدلة، وإثبات أنه هو الفعال لما يريد الخالق لكل شيء الذي يدبر الأمور كلها، ويكرم الطائعين، ويعاقب العاصين، فلا ينكر ذلك إلا مكابر مباهت منحل من العقل الحقيقي، بعد انحلاله من الدين»[2]

ويظهر في تصدي العلامة السعدي لأباطيل القصيمي تحلي الشيخ -رحمه الله- بالموضوعية والعدل والرحمة فقال مبيناً مكانة القصيمي قبل إلحاده :»وكان هذا الرجل قبل كتابته، وإظهاره لهذا الكتاب معروفاً بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح، وكانت تصانيفه السابقة مشحونة بنصر الحق، والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعة حسنة»[3]

ومما يدل على إنصاف الشيخ السعدي -رحمه الله- أنه لم ينكر ما في كتاب القصيمي من حق، ودعوة إلى العلم الدنيوي، وذم الجهل وآثاره الضارة، فقال : «

---

(١) السابق ص١٦٩ ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

(٢) تنزيه الدين ص٤٣ طبعة دار ابن الجوزي

(٣) السابق ص٣١ طبعة دار ابن الجوزي

ونحن لا ننكر ما في كلامه وكتابه، من المعاني الصحيحة المطروقة التي لم يزل أهل العلم يقولونها ويبدونها، من الحث على تعلم العلوم، وفنون الصنائع النافعة، وما فيه من ذم الجهل وآثاره الضارة، وما فيه من تأخر المسلمين في الفنون العصرية، وما فيه من وصف تفوق غيرهم في فنون المادة، فقد ذكر أهل العلم من هذه الأمور أكثر مما ذكر هذا الرجل، ولم يبيّن ما بيّنوه ولا شرح الداء الذي أصاب المسلمين حقيقة ولا كيفية الدواء» [1]

المحور الثالث: إبطال مشكلة الإلحاد عن طريق الحوار

أدار الشيخ -رحمه الله- في كتابه القيم « انتصار الحق» محاورة بين مؤمن موحد، وملحد مفتتن بالإلحاد بأسلوب ممتع رفيع، وهذه المحاورةُ اللطيفةُ الهادئةُ جمعت بين قوةِ الحجةِ، ووضوحِ المحجةِ، وسلامةِ المنهج، وبُعدِ النظرِ والبحث عن الأسبابِ، وعلاجها ثم الوصول إلى الثمرةِ المرجوة» [2] ساق العلامة السعدي -رحمه الله- من خلالها شبهات الملاحدة، وبين حالهم، ثم أورد أجوبة جلية عن أهل الإلحاد، وبين محاسن الإسلام ومزاياه، وتحقيقه السعادة في الدارين، وانتهت هذه المحاورة بتوبة الملحد وعودته إلى الإسلام .

تعقيب:

وأخيراً من خلال جهود العلامة السعدي -رحمه الله- في دحض أباطيل الملاحدة يظهر ما يلي :

أولاً: الالمام الواسع بنظريات الإلحاد وأصولها، فقد كان الشيخ على دراية واسعة بنظرية « دارون»، وبمسلك الملاحدة

---

(١) تنزيه الدين ص٣٣ طبعة دار ابن الجوزي

(٢) انتصار الحق ص٦ المقدمة.

الطبائعيين، وبنظريات أهل الفلسفة، قال الشيخ السعدي: "فتجرأ هذا الرجل وترك ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية، وسلك مسلك ملاحدة الطبائعيين، الذين نظروا نظرية خرافية تسمى نظرية داروِن الإنكليزي، مآلها تسلسل الإنسان عن القرد، والقرد عن كلب أو حيوان دونه، وهكذا خطأهم فيها قومهم فضلا عن الرسل وأتباعهم» (١)

ثانيًا: تصدي الشيخ السعدي -رحمه الله- لشبهات الملحدين وإبطالها يبين لنا شمولية منهجه في العقيدة؛ إذ أنه -رحمه الله- لم يكتف بتأصيل القواعد، وشرح الأصول، وتقرير العقائد، بل رد على عموم اعتراضات الملحدين ودعاويهم.

ومما أكسب منهج العلامة السعدي -رحمه الله- الشمولية أن ردوده جاءت شاملة لكل من خالف عقيدة التوحيد، ولم تكن قاصرة على فرقة بعينها أو طائفة خاصة.

(١) تنزيه الدين ص٣١ طبعة دار ابن الجوزي.

المبحث الثاني: جهود العلامة السعدي في الرد على العصرانية

المطلب الأول: الانحرافات العقدية عند العصرانيين

قامت المدرسة العصرانية على أنقاض المدرسة العقلية القديمة - مدرسة المعتزلة، وورثت العديد من أفكارها ومنهجها، وتسعى للتوفيق بين الإسلام والعلمانية الحديثة، فلا نكاد نطالع كتاباً من كتب هذه المدرسة، أو نتأمل في اجتهاد من اجتهاداتها إلا ونجده متأثراً بفكر المعتزلة في أصوله ومنطلقه، وواقعاً تحت ضغط العلمانية والفلسفة الغربية في مآله ونتيجته.(١)

فالمدرسة العصرانية اسم يطلق على ذلك التوجه الفكري الذي يسعى إلى التوفيق بين نصوص الشرع وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المعاصر، وذلك بتطويع النصوص وتأويلها تأويلاً جديداً يتلاءم مع المفاهيم المستقرة لدى الغربيين.(٢)

وكلمة عصرانية لا تعني مجرد الانتماء إلى هذا العصر، ولكنها مصطلح خاص إذ تعني العصرانية في الدين: أي وجهة نظر في الدين مبنية على الاعتقاد بأن التقدم العلمي والثقافة المعاصرة، يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة.

ومن ثم فالتطوير عند العصرانيين يكون بتعديل وتغيير أصول الشريعة، وفروعها تبعاً للمناهج العقلية التي اصطنعها الغرب حديثاً، ولا يسلم من هذا

---

(١) التجديد في الفكر الإسلامي / ص٣٦٧

(٢) حوار هادئ مع محمد الغزالي/ ص٩،وانظر مذاهب فكرية معاصرة ج١،ص٦١٧

التطوير أمر من أمور الشريعة.[1]

لقد كشـف العصرانيون عـن مقاصدهـم ومراميهم من التجديـد يقول «أمين الخولـي»: «إننـا ننتهـي باطمئنان إلى أن التجديـد الديني، إنما هو تطـور، والتطور الديني هو نهاية التجديد للحق»[2]

ويقرر « محمود الشـرقاوي» أن الدين لين واسـع الأفق نسـتطيع أن نوفق بين روحه وبين كل مظهر من مظاهر الحضارة، وأن نجد في نصوصه ما يسـاير الأطوار المختلفة التي تتخطاها البشـرية في عصورهـا المتباينة، ثم يقول: « ويجب أن نفرق بين روح الدين وغايته، وبين أحكامه النوعية وتطبيقاتها، وبين الدين كشعور وعقيدة وإيمان، والدين كتقاليد وأشخاص دينيين، فروح الدين وجوهره هما الشيء الخالد الباقي الذي لا يتعارض مع أي عصر، وعلى هذا الفهم نستطيع أن نجد في نصوص الدين الإسلامي كل ما يتفق مع مظاهر الحضارة التي تغمرهم وتجذبهم إليها» [3]

الانحرافات العقدية عند المدرسة العصرانية.

انحـرف العصرانيون في جوانب عديدة متعلقة بمسـائل الاعتقاد، حيث عبثت بها أهواؤهم، ولم تسلم من تحريفاتهم، ومنها:

١- تقديس العقل وتقديمه على النقل، فقد اعتبروا العقل مبدأ أصول العلم، وجعلوا الوحي تابعـًا له، بل حكموا العقل في نصوص الشرع فلا يقبلون منها إلا ما أيده العقل ووافقه، ويرفضون منها ما عارضه وخالفه.[4]

---

(١) المعتزلة بين القديم والحديث/ محمد العبدة، وطارق عبدالحليم ص١٣٧

(٢) المجددون/ أمين الخولي/ ص٨٥

(٣) التطور روح الشريعة الإسلامية / محمود الشرقاوي/ ص١٦٢

(٤) العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب / محمد حامد الناصر / ص٢٠٤

٢ـ إنــكار الغيبيــات أو تأويلها، فقــد أقدم بعض دعاة التجديــد العصراني على إنكار الغيبيــات، وحاول آخرون تأويلها؛ وذلــك لأن الغيبيات والمعجزات أمور لا تقع تحت الحس، ولا تخضع لمألوف العقل البشــري، ولا تجري على السنن المعتادة.

٣ـ الدعوة إلى وحدة الأديان، فهم يزعمون أن الملل اليهودية والنصرانية والإسلام، هي بمنزلة المذاهب الأربعة عند المســلمين، لذلك يزعمون أنها الســبيل إلى جمــع النــاس على مذهــب واحد، تزول معــه خلافاتهــم الدينيــة والعنصرية، وهدفهــم أن تصبح الأرض وطنــاً واحــداً يدين بدين واحــد، ويتذوق الآداب بذوق مشترك.(١)

٤ـ الدعــوة إلــى حوار الأديــان والحضــارات، ويقصدون بهــا اعتقاد صحــة عقائد الأديــان الأخرى وعباداتها، وأنها طرق موصلة إلــى الله. مع اعتبار الخصائص المميزة بين الأديان ظواهر وتقاليد تاريخيّة لشعب معين، أو حقبة زمنية معينة، أو اعتبارها أنواعــاً مختلفة توصل إلى حقيقة واحدة.

وهدفهم العمل على المســاواة بين كتاب المســلمين وعباداتهم ومساجدهم، مع ما يقابلها عند أصحاب الأديان الأخرى(٢)

٥ـ تطويــع النصــوص وتأويلهــا تأويــلاً جديداً يتلاءم مــع المفاهيم المســتقرة لدى الغربيين، وعرض الإسلام عرضــاً يقبله المثقفون ثقافة عصرية.

٦ـ التوســع في تفسير القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث بكل جوانبه، ولو أدى

---

(١) تيــارات اليقظة الإســلامية محمد عمارة ص٢٨٠، وانظر العصرانيــون ص٣٠٤، التجديد في الفكر الإسلامي / ص٢٠٤

(٢) انظر: الإبطال لنظريه الخلط بين دين الإســلام وغيره من الأديان ص / ١٣-٢٤، ودعــوة التــقريب بيــن الأديان ج٤/ ١٤٦٢

ذلك إلى استحداث أقوال مجانبة لدلالات الآيات اللغوية، ومعارضة للمنقول عن السلف رضي الله عنهم، ومن ذلك مثلاً أن بعضهم يؤولون الملائكة، والشياطين، والجن، والسحر، وغيرها كما ورد في تفسير محمد عبده.(١)

لقد شكلت أطروحات وأفكار العصرانيين ركاماً هائلاً من الشكوك والشبهات، وأثارت نقعاً حجب الحقيقة عن جمهور المسلمين، لذلك تصدى لها علماء صدق؛ فحذروا من أباطيلهم، وفندوا شبهاتهم، وأبطلوا حججهم.

وكان من هؤلاء الصادقين العلامة السعدي -رحمه الله- الذي انبرى للوقوف أمام أفكار العصرانيين الوافدة بالحجة والبيان، وللتحذير من انحرافتهم العقدية.

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من انحرافات العصرانيين :

حذر العلامة السعدي -رحمه الله- من مزالق العصرانيين، وما تلبسوا به من تحريف للعقائد،واهتم بالرد عليهم، والجواب عن شبهاتهم.

وقد أرجع العلامة السعدي -رحمه الله- تأثر العصريين بآراء الملاحدة إلى جملة من الأسباب، منها:

١ـ عدم علمهم بما تؤول إليه أفكار وتأويلات الملاحدة من الغرب.

٢ـ رسوخ كثير من أصول الفلسفة في قلوبهم.

٣ـ تقليدهم لمن يعظمونهم من المفكرين الغربيين.

٤ـ مجاراتهم لزنادقة علماء الفرنج الذين يتهكمون بمن لم يوافقهم على كثير من أصولهم.

---

(١) انظر: التجديد في الفكر الإسلامي / ص٣٦٦

٥ـ خوفهم من نسبتهم للبلادة. (١)

أطنب الشيخ السعدي -رحمه الله- في إبطال مزاعم العصرانيين، وبيان غلطهم فيما ادعوه من إنكار الغيبيات، أو تأويلها، وبين أنه لا مجال للعقل لإنكار الغيبيات من وجوه:

الأول: أن الأديان أخبرت عن أمور الغيب أخباراً مفصلة تفيد القطع، واليقين كالأخبار عن الله ونعوته وأفعاله، وعن الملائكة، والجن، وعن اليوم الآخر، والجنة والنار. وفرضت على الخلق اليقين التام بكل ما أخبر الله به، وما أخبرت به رسله، والوقوف عنده وعدم تجاوزه.

الثاني: أنه لا طريق للخلق إلى معرفة كنه الغيبيات وحقيقتها، مهما ارتقت معارفهم. ومن ثم فقد نهى الشرع عن التكلف بطلب معرفة كنه ذلك، وبين أنه لا سبيل للبشر إلى معرفة حقيقة هذا الغيب، قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦ -٢٧] وبهذا يعرف أن أمور الغيب خارجة عن طور المحسوسات، وأنه لا سبيل إلى التوصل لإدراكها. (٢)

الثالث: يقرر الشيخ السعدي -رحمه الله- وجوب التسليم التام بالغيبيات فيقول: « وأنه يجب التسليم التام فيها إلى الشارع بلا قيد ولا شرط. وبهذا يعرف أن من شرط في الإيمان بهذا النوع أنه لابد أن يدخل في علوم البشر، وفنون المعارف الكونية والمادية فهو في الحقيقة لم يؤمن بالأنبياء، وبما أتوه من الله» (٣)

---

(١) انظر: الرد على الزنادقة ص٨٧ ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي

(٢) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين ص٢٤٤ ـ٢٤٥

(٣) انظر: السابق ص ٢٤٥

الرابع: يؤكد الشيخ -رحمه الله- أن مقصود الإيمان بالله، وبكتبه ورسله لا يتم إلا بالإيمان بالغيب، وتسليم أمور الغيب وتفاصيلها إلى ما ذكره الله في كتابه، وأخبر به رسوله، وبالوقوف على ذلك وعدم تعديه يحصل المقصود من التكليف، والامتحان بالشرائع، ولو صار الغيب مشاهداً ومعروفاً للناس في هذه الدار زال هذا المقصود الأعظم، ولم يحصل الإيمان الاختياري المثمر للسعادة الأبدية .

وينكر العلامة السعدي -رحمه الله- على من جارى الماديين وحاول تقريب الغيبيات من الماديات المدركة بالحواس فقال: «ونعرف بذلك غلط المجاريين للماديين من العلماء العصريين، واعتذارهم بأن قصدهم التقريب للأمور الغيبية من الأمور المادية المدركة بالحواس اعتذار فيه خطل وغلط كبير، فإن الماديين الذين لا يؤمنون بغير المادة والطبيعة هم منكرون للرب ولرسله ولليوم الآخر، فالواجب التكلم مع أمثال هؤلاء في براهين التوحيد والرسالة والمعاد، وبراهين وجوب تصديق الأنبياء في كل ما أخبروا به»(1)

ويبطل العلامة السعدي -رحمه الله- فكرة تقريب الأمور الغيبية من الأمور المادية المحسوسة بأمرين:

الأمر الأول: أنه يضعف الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله إضعافاً ظاهراً، فإن من لا يقنع بخبر الله، وخبر رسله في أمور الغيب حتى يقوم عنده وبزعمه دليل عقلي على ذلك فهذا فتح لباب الاستغناء عن الرسل، ومشابهة لمن قال الله فيهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

الأمر الثاني: أنه لا ينفع المعطلين المنكرين للغيبيات؛ لأن الدخول معهم في هذه المباحث والانهماك في تمثيل أمور الغيب بأمور المادة معهم إغراء لهم على

(١) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين ص ٢٤٥

لـزوم ما هـم عليه من الإنـكار، لأن هذا الذي يزعـم أنه ينصر الديـن نهاية ما يصل إليـه أن يجعله تابعـاً لعلومهم. والواجب أن يجعل الكتاب والسـنة أصلاً، والعلوم العقلية والطبيعية والكونية تابعة، وبذلك يحصل الإيمان الصحيح.[1]

ويرجع العلامة السـعدي -رحمه الله- حصر كثير من الماديين السنن الإلهية التي يسـمونها سـنن الطبيعة في نوع مادي محض، يدخل تحت علومهم وإدراكاتهم إلى الجهل.

وبسـبب الطريـق الجهلي نفوا أمـور الغيب، ونفـوا معجزات الأنبيـاء، ونفوا تغيير الله ـ تعالى ـ للأسباب عن نظامها الذي يعرفون، وهذا من أعظم مضار الجهل وقبائحه.

ويبطـل العلامة السـعدي زعم العصرانيين أن السـنن الإلهيـة مندرجة تحت التفاعـل بين المـواد والجواهر الكميائيـة، والتجارب المكررة بقولـه :» وقد دلت البراهيـن اليقينية والكتب السـماوية كلها، بل والمحسوسـات والمشـاهدات التي لا يمكـن إنكارها، على أن لله سـنناً متنوعـة، وأن عناصر العلم العلوي والسـفلي منقـادة لإرادة الله وحكمتـه وعلمه المحيط، وأنه يجـري المقادير والحوادث على سـنن حكيمة متنوعة، قد تعقل أسـبابها، وقد لا يعقل أسـبابها إلا مـن ارتضاهم الله لرسالته«[2]

ويعيب العلامة السـعدي -رحمـه الله- تعالى- على العصرييـن الذين اغتروا بزخارف المدنية الغربية فتزعموا دعوى تقريب شرائع الإسلام للأنظمة المعاصرة، فقال :»وبهذا نعرف غلط من يريد نصر الإسلام بتقريب نظمه إلى النظم التي جرت

(١) انظر: السابق ص٢٤٥ ـ٢٤٦

(٢) انظر: وجوب التعاون بين المسلمين ص٢٤٦

عليهـا الحكومات ذات القوانين والنظـم، فإنها هي التي تتقوَّى وتقوَّى إذا وافقته في بعض نظمها، وأما الإسـلام فإنه غني عنها، مسـتقل بأحكامه، لا يضطر إلى شـيء منهـا؛ ولو فرض موافقته لها في بعض الأمـور فهذا من المصادفات التي لا بد منها، وهو غني عنها في حال موافقتها أو مخالفتها. فعلى من أراد أن يشـرح الدين، ويبين أوصافه أن يبحث فيه بحثاً مسـتقلاً لا يربطه بغيره، أو يعتز بغيره؛ فإن هذا نقص في معرفتـه، وفي الطريق التي يبصر بهـا، وقد ابتلي بهذا كثير من العصريين بنية صالحة، ولكنهـم مغرورون مغترون بزخارف المدنية الغربيـة التي بنيت على تحكيم المادة وفصلها عن الدين» [1]

تعقيب:

وأخيراً يظهر من خلال حديث العلامة السعدي -رحمه الله- عن العصرانيين ما يلي:

أولاً: إحاطـة الشـيخ السـعدي -رحمـه الله- بالتحديات التـي تواجه العصر، والتحذير منها، وبيان مدى انحرافها عن الصراط المستقيم، والمنهج القويم.

ثانيـاً: يظهر من حديث العلامة السـعدي -رحمه الله- عـن العصرانيين مدى مـا تمتع بـه من أخلاق حسـنة، وأدب رفيـع. فيقول عمـن تأثر بالفكـر الغربي من العصرانيين.» وقد ابتلي بهذا كثير من العصريين بنية صالحة» فالشـيخ -رحمه الله- يحسن بهم الظن رغم انحرافاتهم وأباطيلهم،لم يكفرهم ولـم يفسقهم،ولـم يبدعهم، وهذا يدل على مدى الاتزان الفكري الذي تمتع به -حمه الله- ـ تعالى.

ثالثـاً: يلاحظ أن العصرانيين لا يفهمون حقيقة مـا يقصدونه ويقولونه، ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم، وإنما يتخيلون شـيئـاً ويقولونه أو يتبعونه. وكل من يقبل

---

(١) انظر: الرياض الناضرة والحدائق الزاهرة في العقيدة ص ٤٨٦

قول هؤلاء فهو أحد رجلين: إما جاهل بحقيقة أمرهم، وإما ظالم يريد علواً في الأرض وفساداً، أو جامع بين الوصفين.(١)

رابعاً: أن العصرانيين ابتكروا طريقة غير مألوفة في فهمهم للدين، وتفسيرهم لنصوصه الثابتة المتواترة فصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾ [ق: ٥] وصدق عليهم قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣ ﴾ [(غافر: ٨٣]

(١) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل ج٤/ ص٤/ لابن تيمية

المبحث الثالث : جهود العلامة السعدي في الرد على الجهمية.

المطلب الأول: الانحرافات العقدية عند الجهمية.

الجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان (ت : ١٢٨هـ)؛ لأنه هو الذي وضع مذهب الجهمية ودعا إليه، وتوسع في مسائله، وجادل من أجله[١].

وتعد دراسة الانحرافات العقدية التي نادت بها الجهمية من الأمور المهمة لعدة أسباب:

الأول : أن الجهمية شكلت خطراً في طريق العقيدة السلفية الصافية وانتشارها ؛ حيث صرفوا علماء السلف عن نشرها بما وضعوا أمامهم من عراقيل شغلتهم وأخذت الحيز الأكبر من أوقاتهم في رد شبهات الجهمية ومجادلاتهم لهم وخصامهم معهم[٢].

وهذا يدل على حرص علماء السلف على الحفاظ على المجتمعات المسلمة وضرب سياج حولها يحول بينها وبين الأفكار الضالة وذلك بالتصدي لكل ما هو غريب عن العقيدة النقية الصافية، عقيدة أهل السنة والجماعة .

الثاني : لأن شبه الجهمية النفاة ــ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ــ أثرت في قلوب كثير من الناس حتى صار الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ــ وهو المطابق للمعقول ــ لا يخطر ببالهم ولا يتصورونه»[٣]

وقال -رحمه الله- مبيناً أثر الجهمية في نفوس الكثير من الناس: « وصارت

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين/ للأشعري/ ج١/ ص٣٣٨

(٢) فرق معاصرة / د غالب بن علي عواجي ج ٣/ ١١٣١.

(٣) درء تعارض العقل والنقل / لابن تيمية ج ٢/ ٣٠٨ .

فروع التجهم تجول في نفوس كثير من الناس»[1]

الثالـث : أن الانحرافات العقديـة عند الجهمية لا تزال في بعض المجتمعات؛ فمـا يردده « العصرانيون الجدد » من الآراء مثل : الاعتقاد بعدم وجود الجنة والنار الآن، أو زعمهم أن الله لا يوصف بوصف، أو الاكتفاء بمعرفة وجود الله عن العمل، فهذه الآراء هي نفسها آراء الجهمية قديمـاً، ولكن تساق في مجتمعاتنا تحت دعوى التجديد والتطوير .

نقـل الملطي (ت: ٣٧٧ هــ) عن» أبي عاصم خشـيش بن أصرم»(ت: ٢٥٣ هـ) كل ضلالات جهم بن صفوان ومنها :

١ـ أنكر جهم أن يكون الله ـ تعالى ـ على العرش .

٢ـ وأنكر جهم أن يكون لله كرسي .

٣ـ و أنكر جهم أن يكون الله في السماء دون الأرض .

٤ــ وأنكر جهم أن الله يجيز على الصراط عباده .

٥ـ وأنكر الميزان .

٦ـ وأنكر جهم﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾[الانفطار : ١٠،١١]

٧ـ وأنكر جهم أن يكون لله جل وعلا حجاب .

٨ ـ وأنكر جهم أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا .

٩ـ وأنكر جهم النظر إلى الله عز و جل .

١٠ـ وأنكر جهم أن يكون لله عز وجل وجه .

١١ـ وأنكر جهم أن يكون لله سمع وبصر .

١٣ـ وأنكر جهم أن ملك الموت يقبض الأرواح .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ج ١٢/ ٣٥٨

١٣ـ وأنكر جهم عذاب القبر، ومنكراً ونكيرا .

١٤ـ وأنكر جهم أن الله يتكلم.

١٥ـ وأنكر جهم أن الله كلم موسى تكليما .

١٦ـ وأنكر جهم أن الله استوى إلى السماء.

١٧ـ وأنكر جهم الشفاعة .

١٨ ـ وأنكر جهم أن يكون لله تعالى يد.

١٩ـ وأنكر جهم أن الله جل اسمه خلق الجنة والنار .

٢٠ ـ وزعم جهم أن الجنة والنار تفنيان بعد خلقهما[١]

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من انحرافات الجهمية :

تعقب العلامة السعدي الانحرافات العقدية التي قال بها الجهمية بالنقد والتفنيد، ولم يفسح المجال أمام آراء الجهمية بل وقف يبطلها ويرد عليها، ويبين ضلالها وزيغها، وبعدها عن الصواب .

ويبين العلامة السعدي -رحمه الله- أسباب افتتان الناس بمقالة الجهمية رغم انحرافها فيقول: « هذا القول مفضٍ إلى تعطيل رب العالمين وجحده، ولكنهم موهوا قولهم وزخرفوه، وحسنوا لهم العبارات، وهولوا مخالفتها، وضموا إلى ذلك القدح في مذهب السلف، وتسميته بأسماء قبيحة، فتولد من ذلك قبول الناس له وافتتانهم به»[٢].

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع / الملطي/ ٧٦ـ ١٠٢ .

(٢) توضيح الكافية الشافية/ ص ٢٨٩ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

ويتضح موقف الشيخ السعدي من الانحرافات العقدية للجهمية مما يلي :

أولاً : رد العلامة السعدي على قول « جهم » بخلق القرآن :

بين العلامة السعدي -رحمه الله- في بداية رده لهذا الانحراف العقدي أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق أمّا الألفاظ والحروف، والكتابة و القراءة، فهي حادثة مخلوقة .

يقول الشيخ السعدي: « والقرآن كلام الله غير مخلوق ألفاظه ومعانيه، فهو كلام رب العالمين وتنزيله ووحيه، وأما أفعال العباد كأصواتهم ومدادهم الذي به يكتبون القرآن والرق الذي يكتبون عليه فإن ذلك من جملة المخلوق»[1]

ذهب «جهم » وأتباعه إلى أن القرآن مخلوق، خلقه الله كما خلق السموات والأرض، وأنه خارج عن ذات الله لا يقوم بذاته كلام ولا قول.

ردَّ عليه العلامة السعدي بأن هذا زعم باطل، فقال -رحمه الله- :»فلما قال الناس لهم هذا أمر معلوم بطلانه، فإن الكلام صفة المتكلم، والله قد أضافه إلى نفسه إضافة صفة إلى موصوفها.» فزعموا أن إضافته إليه إضافة تشريف كإضافة ناقة الله، وبيت الله، وعبدالله.

فأجابهم الناس بما هو معروف ومتقرر عند كل أحد مع دلالة الكتاب والسنة إليه، فقالوا إن الإضافة نوعان:

أحدهما: ما يضيفه الله إلى نفسه من الأعيان كبيت الله، وناقة الله، ونحوهما، فهذه الإضافة لبعض مخلوقاته تفيد تشريفه وتكريمه بما امتاز به ذلك المضاف من الأوصاف الفاضلة

الثاني: إضافة معان وأوصاف تقوم بغيرها كعلم الله، وقدرته، وإرادته، وكلامه،

(١) السابق/ ص ٣٠١ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

فهـذه الإضافة من بـاب إضافة الأوصاف إلى موصوفها تقتضـي قيامها به واتصافه بها، ومن خالف هذا الفرق فهو منكر للمحسوسات»[1]

وأبطل الشيخ السعدي -رحمه الله- زعم الجهمية «لا يقوم بذاته كلام ولا قول»، فقال: «وكلامه من جملة صفاته قائم بذاته، فلو لم يقم بذاته لم يكن في الحقيقة متكلماً، وقد وصف الله نفسه بالكلام والتكلم والتكليم والقول والنداء والنجاء، فالنداء الصوت الرفيـع، والنجاء الصـوت الخفي، وهذه الأمور لا تعقل إلا لمـن اتصف بها وقامت به، وأسمعها غيره، والقرآن سور وآيات وكلمات وحروف كما ورد في الآثار بهذه الأوصاف له، وكما هو معروف بين الناس، وهو كله كلام الله منزل غير مخلوق.»[2]

وأوضح الشـيخ بطلان استنتاجهم من قوله تعالى﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[الرعـد:١٦] حيـث يجعلون لذلـك مقدمة، وهي: أن القرآن شـيء وكل شيء مخلوق إذاً فالقرآن مخلوق.[3]

وقد أظهر الشـيخ السـعدي أن الآية لا تدل على ذلك فقال: "وليس كلام الله من الأشـياء المخلوقة؛ لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليـس قبله شـيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآيـة ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهـل، فإنه تعالى لم يزل بأسـمائه وصفاته، ولم يحدث لـه صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات"[4]

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ص ٣٠٥ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

(٢) السابق/ ص ٣٠٧-٣٠٨ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

(٣) الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة / ص١٤٥/ عبدالرزاق البدر

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ ص٧٣٨

ثانياً : رد العلامة السعدي على قول الجهمية بنفي الصفات :

تعد الجهمية أول الفرق انحرافاً في باب الصفات حيث ابتدعوا القول بنفي الصفات، يقول العلامة السعدي: «كان الجهم بن صفوان معروفاً بين الأمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة أعظمها وأطمها نفي صفات الله التي تواترت في الكتاب والسنة واتفق عليها جميع سلف الأمة»[1]

وتمثلت شبهتهم في: زعمهم أن إثبات الصفات للباري تستلزم التجسيم، لأننا لا نشاهد موصوفاً بالصفات إلا هذه الأجسام، والله ليس كمثله شيء؛ فتعين نفي الصفات وتعطيلها.

فَنَّدَ العلامة السعدي شبهة الجهمية بوجوه :

الأول: قد علم ثبوت الصفات المتنوعة لله - تعالى - في الكتاب والسنة بألفاظ كثيرة، وأساليب متنوعة صريحة يكفي بعضها في إفادة العلم اليقيني، فكل شبهة تناقض هذا المعلوم المفهوم؛ فإنها باطلة كائنة ما كانت، بأي لفظ عبر عنها، وبأي أسلوب حرفت.

الثاني: قد علم بالضرورة من الدين ثبوت الصفات وهي أصل الأصول، وأُسّ الدين، ودلالة الكتاب والسنة عليها أعظم بكثير من دلالتها على الأحكام التي لا ينازع فيها مسلم كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وجميع الأحكام الشرعية، فمن حاول إبطال النصوص الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات كان محاولته لإبطال بقية شرائع الدين أهون بكثير، ومن نظر الأمر، وأمعن التأمل جزم أن محاولة هدم السموات والأرض والجبال الشوامخ أسهل من محاولة إبطال نص واحد من هذا الأصل الذي قامت عليه العقائد، والعلوم، والأعمال، والخلق، والأمر.

---

(١) توضيح الكافية الشافية/ ص ٢٨٠ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

الثالث: ويقال في إبطاله أيضا: إن تصوره وتصور لوازمه، وما يلزم منه من الزور والافتراء، والإلحاد، وتشييد أصول الإلحاد والزندقة يكفي العاقل في رده، وإبطاله فضلاً عن الأدلة الأخر الدالة على بطلانه.(١)

ثالثاً : رد العلامة السعدي على قول الجهمية بالجبر :

غالى الجهمية في باب القضاء والقدر، وأفعال العباد؛ فزعموا أن العبد مجبور على أفعاله، مقسور مقهور على أقواله، وأفعاله لا قدرة له على شيء من الطاعات، ولا ترك المعاصي. ومع أنه لا قدرة له على ذلك عندهم، فهو مثاب ومعاقب على ما لا قدرة له عليه.(٢)

ويبين الشيخ السعدي ـ -رحمه الله- ـ السبب الرئيس الذي حمل الجهمية على هذا الانحراف الفاسد فيقول: « فالقول بالجبر فيه فساد الدين والدنيا. والذي حملهم على هذا القول ـ مع ظهور فساده ـ ظنهم: أنه لا يمكنهم إثبات عموم مشيئة الله وقدره، حتى يسلبوا العبد قدرته.»(٣)

وقد تعقب العلامة السعدي انحراف الجهمية في باب القضاء والقدر بالنقد والتفنيد، وردَّه بوجوه عدة:

الأول: أن هذا القول من أشنع البدع وأنكرها، وهو مخالف للكتاب والسنة، وإجماع الأئمة المهتدين، وللعقول والفطر، ومخالف للمحسوس.

الثاني: نصوص الكتاب والسنة تبطل قولهم؛ فإن الله نسب أعمال العباد إليهم ـ

---

(١) توضيح الكافية الشافية / ص ٣٩٧ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

(٢) الدرة البهية / ص ١٥٦، وانظر توضيح الكافية الشافية/ ص ٢٨١ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

(٣) السابق / ص ١٥٧ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

من الطاعات المتنوعة، والمعاصي الكثيرة.

كلها يضيفها إلى الفاعلين، ويخبر: أنهم هم الفاعلون له، ويستحقون جزاءها من خير وشر.

فلو كانوا مجبورين عليها: لم ينسبها لهم، ولم يضفها إليهم؛ بل ينسب الأفعال إلى نفسه - حاشاه وتعالى عن ذلك - فلا يقال: « الله : الذي فعل الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية»؛ بل يقول كل أحد: العبد هو الذي فعلها، والله هو الذي قدرها من غير أن يجبره عليها .

الثالث: ويلزم على قول الجبرية: إسقاط الأمر والنهي؛ لأنه كيف يؤمر، وينهى من لا قدرة له على امتثال الأمر، واجتناب النهي؟!.

الرابع: ويلزم أيضاً على قولهم: إسقاط الحدود عن جميع أهل الجرائم. إذ كيف يعاقبون، وتقام عليهم الحدود وهم غير قادرين، بل مجبرون؟! فهذا القول باطل مخالف لجميع أصول الدين وفروعه.

الخامس: ويلزم أيضاً على قول الجبرية : تعطيل الأسباب الدينية والدنيوية. وذلك أن الله - تعالى جعل الأسباب موصلة إلى مسبباتها؛ وأمر العباد بسلوك كل سبب نافع لهم في دينهم ودنياهم. فكيف يؤمرون: وهم مجبورون غير قادرين؟![1]

رابعاً : تكفير العلامة السعدي للجهمية :

وضع العلامة السعدي قاعدة جليلة في الحكم على الجهمية بالتكفير، تقوم على شرطين:

أحدهما: معرفة المبتدع بأن بدعته تناقض ما جاء في الكتاب والسنة.

---

(١)(١) الدرة البهية / ص ١٥٧، توضيح الكافية الشافية/ ص ٢٨٢ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي

الثاني: إصرار المبتدع على بدعته، ونصره لها.

قال العلامة السعدي -رحمه الله- :» كل مبتدع من جهمي، وقدري، وخارجي، ورافضي، ونحوهم عرف أن بدعته مناقضة لما جاء به الكتاب والسنة، ثم أصر عليها ونصرها، فهو كافر بالله العظيم، مشاق لله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى.«[1]

ولكن بماذا حكم العلامة السعدي -رحمه الله- على الجهمية؟ هل كفرهم لنفيهم للصفات، واعتقادهم أن القرآن الكريم مخلوق؟ أم حكم عليهم بالابتداع والضلال؟

يقول العلامة السعدي :» ولهذا كان الخوارج، والمعتزلة، والقدرية، ونحوهم من أهل البدع أقساماً متنوعة: منهم من هو كافر بلا ريب كغلاة الجهمية الذين نفوا الأسماء والصفات، وقد عرفوا أن بدعتهم مخالفة لما جاء به الرسول، فهؤلاء مكذبون للرسول عالمون بذلك «.[2]

وما ذهب إليه العلامة السعدي -رحمه الله- هو مذهب جمهور أئمة السلف، فقد لقبهم الإمام أحمد (ت : ٢٤١هـ) بالزنادقة وقال --رحمه الله- تعالى-— في رده عليهم في مسألة الرؤية : « وإنا لنرجو أن يكون الجهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى ربهم، ويحجبون عن الله ؛ لأن الله قال للكفار :﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ [سورة المطففين: ١٥]

فإذا كان الكافر يحجب عن الله والمؤمن يحجب عن الله، فما فضل المؤمن على الكافر، والحمد لله الذي لم يجعلنا مثل جهم وشيعته، وجعلنا ممن اتبع ولم

---

(١) توضيح الكافية الشافية/ ص ٤١٢-٤١٣

(٢) السابق/ ص ٤١٣

يجعلنا ممن ابتدع » [١]

وعقد الدارمي في كتابه « الرد على الجهمية » باباً سماه « باب الاحتجاج في إكفار الجهمية » وقال -رحمه الله- تعالى : « ناظرني رجل ببغداد منافحاً عن هؤلاء الجهمية فقال لي : حجة تكفرون هؤلاء الجهمية، وقد نهى الله عن إكفار أهل القبلة ؟ بكتاب ناطق تكفرونهم، أم بأثر، أم بإجماع ؟ فقلت : ما الجهمية عندنا من أهل القبلة، وما نكفرهم إلا بكتاب مسطور، أو أثر مأثور وكفر مشهور . » [٢]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: « والجهمية عند كثير من السلف مثل: عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم، ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة التي افترقت عليها هذه الأمة؛ بل أصول هذه عند هؤلاء هم: الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية، وهذا المأثور عن أحمد، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة والحديث؛ أنهم كانوا يقولون: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر ونحو ذلك " . [٣]

تعقيب:

وأخيراً لا يفوتنا في تصدي العلامة السعدي أن نسجل ما يلي:

أولاً: أن ردود العلامة السعدي -رحمه الله- على الجهمية كانت شاملة لكل انحرافاتهم، فلم تقتصر على قولهم بخلق القرآن، ونفيهم للصفات، وقولهم بالجبر؛ بل نقد نفيهم لحكمة الله في خلقه، وأبطل تفسيرهم للإيمان، وكشف زيغهم فيما يتعلق بالمعاد؛ وهذا يدل على خطورة الانحراف العقدي عند الجهمية، وحرص

(١) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل / ٢٦٤.

(٢) الرد على الجهمية/ للدارمي / ١٠٦ .

(٣) مجموع الفتاوى / لابن تيمية / ج١٢،٤٨٦ -٤٨٧

الشيخ على بيان المذهب الحق في هذه المسائل العقدية المشار إليها.

ثانيـــاً: يظهـر من جهود العلامة السـعدي في الرد على الجهميـة النظر الثاقب، والتحقيـق الدقيق في المسـائل العلميـة، والعمل الدؤوب على قمـع البدعة، وبذل الجهـد المتواصل في نشـر عقيدة التوحيد الخالص، وإظهـار ما خفي على كثير من الناس من انحراف الفرق في مسائل العقيدة.

ثالثـاً: تميز منهج العلامة السـعدي -رحمـه الله- في رده على المخالفين بتنوع أسـاليب الرد والإقناع، فقد اسـتخدم -رحمه الله- أسـلوب الاستدلال بلازم كلام الخصم، فأفحم الجهمية بأن دعواهم تلزمهم القول بما لم يعترفون به.[1]

---

(١) الحوار آدابه وضوابطه/ ليحي زمزمي/ ص٥٠٩

المبحث الرابع : جهود العلامة السعدي في الرد على القدرية

المطلب الأول: الانحرافات العقدية عند القدرية :

من الانحرافات العقدية ما أحدثه القدرية من القول بنفي القدر، واعتقادهم أن الإنسان صانع أفعاله، وخالقها خيرها وشرها، ولا دخل لقدرة الله فيها.

ومن ثمَّ فقد أنكروا عموم مشيئة الله وقدره، وجحدوا ما قرره الله في كتابه، وعلى لسان رسوله من شمول قدره لكل شيء؛ فزعموا: أن أفعال العباد خارجة من هذا العموم.[1]

و القدرية سُمُّوا بذلك، لأنهم أثبتوا للعبد قدرةً توجِد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونَفَوْا أن تكون أفعال العباد بقدر الله وقضائه.[2]

وسُمُّوا بمجوس هذه الأمة لمشابهتهم المجوس في مذهبهم، وقولهم بالأصلين - وهما النور والظلمة - فإن المجوس يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة فصاروا بذلك ثنوية، وكذلك القدرية لما أضافوا الخير إلى الله، والشر إلى العبيد، أثبتوا قادرَيْن خالِقَيْن للأفعال كما أثبتَ المجوس، فأشبهوهم.[3] وهؤلاء القدرية أثبتوا: أن الله خالق للعباد لأعيانهم وأوصافهم؛ ولم يثبتوا أنه خالق لأفعالهم.[4]

وقد ذهب «الأوزاعي» -رحمه الله- (ت : ١٥٧هـ) إلى أن أول من نطق في

---

(١) الدرة البهية/ للشيخ السعدي/ ص١٥٥

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول / ابن الأثير / ١٠ / ١٢٨ .

(٣) السابق / ابن الأثير / ١٠ / ١٢٨ .

(٤) الدرة البهية ص١٨

القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني(ت : ٨٠هـ) وأخذ غيلان (ت : ١٠٦هـ) عن معبد.(١)

بينما ذكر» شيخ الاسلام ابن تيمية» -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ) أن أول من ابتدع القول بنفي القدر رجل من أهل البصرة من أبناء المجوس ، وقد استطاع أن ينفذ إلى قلب معبد الجهني الذي أخذ عنه مقالته، وعن معبد تلقاها غيلان الدمشقي، وتبعهما عليها واصل بن عطاء(ت: ١٣١ هـ) مؤسس المعتزلة.(٢)

وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- (ت: ٧٢٨ هـ) أن الخائضين في القدر بالباطل ثلاثة أصناف: المكذبون به، والدافعون للأمر والنهي به، والطاعنون على الرب عز وجل بجمعه بين الأمر والقدر، وهؤلاء شر الطوائف.»(٣)

ويبين « ابن بطة العكبري «(ت: ٣٨٧هـ) حقيقة هذا الفكر ومستند أصحابه في القول به فيقول : « اعلموا رحمكم الله أن القدرية أنكروا قضاء الله وقدره، وجحدوا علمه ومشيئته، وليس لهم فيما ابتدعوه ولا في عظيم ما اقترفوه كتاب يؤمونه

ولا نبي يتبعونه، ولا عالم يقتدون به، وإنما يأتون فيما يفترون بأقوال من أهوائهم مخترعة وفي أنفسهم مبتدعة، فحجتهم داحضة وعليهم غضب ولهم عذاب شديد، يشبهون الله بخلقه، ويضربون لله الأمثال، ويقيمون أحكامه بأحكامهم ومشيئته بمشيئتهم.»(٤)

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة / اللالكائي ج٤/ ٧٥٠ .

(٢) مجموع الفتاوى / لابن تيمية / ٣٨٤ج٧، ٣٨٤

(٣) منهاج السنة النبوية / لابن تيمية / ج٣، ص٨٢

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة لعكبري/ ٢/ ١٧٩

المطلب الثاني: موقف العلامة السعدي من انحرافات القدرية:

قسم العلامة السعدي ـ -رحمه الله- ـ الخائضين في القدر إلى طوائف ثلاث:

الأولى: القدرية النفاة.

الثانية: القدرية المجبرة.

الثالثة: القدرية المشركين.

ثم قال الشيخ -رحمه الله-:» فكل الطوائف الثلاث: خاضوا في القدر خوضاً منحرفاً، وبعضهم أغلظ من بعض. وكلهم عن الصراط ناكبون.»[١]

وقد بين العلامة السعدي -رحمه الله- حقيقة مذهب القدرية النفاة فقال:» وحقيقة مذهبهم: أنهم يقولون: «إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، لم تدخل تحت قضاء الله وقدره.» فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها؛ ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها، ولم يشأها منهم؛ بل: هم الذين أرادوها وشاءوها، وفعلوها استقلالاً بدون مشيئة الله. [٢]

ومن ثمَّ فقد حمل الشيخ السعدي -رحمه الله- على عاتقه مهمة الرد على القدرية النفاة، وكشف زيغهم، وبيان ضلالهم، وبعدهم عن الطريق القويم، فقال -رحمه الله- : « ولكنهم بهذا القول ردوا نصوصاً كثيرة من الكتاب والسنة، تثبت وتصرح: أن جميع أعمال العباد : من خير وشر، وطاعة ومعصية بقضاء الله وقدره. كما أجمع المسلمون: أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.» [٣]

ومن النصوص التي ردَّها القدرية قوله تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾

---

(١) الدرة البهية/ للشيخ السعدي/ ص١٦

(٢) السابق / للشيخ السعدي/ ص١٧

(٣) الدرة البهية/ للشيخ السعدي/ ص١٨

[البقرة: ٢٠] قال الشيخ السعدي -رحمه الله-: « وفي هذه الآية وما أشبهها، رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.»[١]

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ١٠٢] قال العلامة السعدي-رحمه الله-: «وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع الصحابة، والتابعين.»[٢]

قال الشيخ السعدي-رحمه الله- :»ولهذا كان الأئمة كالإمام أحمد، وغيره يقولون :»ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أنكروا العلم كفروا، وإن اعترفوا به خصموا».[٣]

ثم بين ـ-رحمه الله- ـ أن موقف القدرية من علم الله أحد أمرين :

أحدهما: نفي علم الله بأفعال العباد، وبهذا يكون القدرية جاحدين لنصوص الكتاب والسنة المصرحة بإحاطة علم الله، بما كان وما يكون من أعيان وأوصاف وأفعال، مما دق وجل. فمن أنكر ذلك فقد كذب الكتاب والسنة صريحاً؛ وذلك هو الكفر.

الثاني: الاعتراف بإحاطة علم الله بكل شيء، وبأفعال العباد قبل وقوعها، وهذا الذي استقر عليه مذهبهم، وبهذا خصموا.

ووجه ذلك أنهم يقولون: «إن أفعالهم لا تتعلق بها مشيئة الله وإرادته؛ وإنما هم مستقلون بها من كل وجه» إذا كان هذا قولهم في مشيئة الله، مع قولهم: « إن الله يعلم

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للسعدي / ص٤٤/ طبعة مؤسسة الرسالة

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للسعدي / ص٦١/ طبعة مؤسسة الرسالة

(٣) الدرة البهية/ للشيخ السعدي/ ص١٥١

أعمال العباد قبل أن يعملوها »؛ فهذا تناقض محض: كيف يعلمها وهو لم يقدرها، ولم يردها؟ هذا محال.[1]

وبناء على هذا ألزمهم العلامة السعدي -رحمه الله- أحد أمرين:

الأول: إما أن لا يتناقضوا، فينفوا الأمرين -علم الله بأفعالهم، ومشيئته لها- فيتضح كفرهم.

الثاني: وإما أن يرجعوا إلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه المسلمون. وهو: أنه -تعالى- كما أنه بكل شيء عليم، وبكل شيء محيط؛ فإنه على شيء قدير. ومن جملة الأشياء، أفعال العباد: طاعتهم ومعاصيهم. فهو تعالى يعلمها إجمالاً وتفصيلاً- قبل أن يعملوها.

وأعمالهم وأفعالهم داخلة تحت مشيئة الله وإرادته: فقد شاءها منهم وأرادها؛ ولم يجبرهم لا على الطاعات، ولا على المعاصي؛ بل هم الذين فعلوها باختيارهم. كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ -٢٩][2]

وقد أبطل العلامة السعدي قول القدرية : إن مشيئة العباد مستقلة، ليست تابعة لمشيئة الله بوجهين :

الأول: قوله تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقد أخبر الله تعالى أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنها لا توجد بدونها. فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن .

الثاني: أن الآية دلت على الحق الواضح، وهو: أن العباد هم الذين يعملون الطاعات والمعاصي حقيقة، ليسوا مجبورين عليها؛ وأنها تابعة لمشيئة الله-تعالى-.[3]

---

(١) السابق/ للشيخ السعدي/ ص١٥١

(٢) الدرة البهية/ للشيخ السعدي/ ص١٥٤

(٣) الدرة البهية/ للشيخ السعدي/ ص١٥٤ ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي

تعقيب:

وأخيراً يمكن أن نسجل على جهود العلامة السعدي -رحمه الله- في الرد على القدرية ما يلي :

أولاً: أوضح الشيخ السعدي -رحمه الله- أن سبب انحراف القدرية في باب القدر المقصود منه دفع الحق، فهم يرون أن الحق بمنزلة الصائل يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ.

ثانياً: وقد قوبلت القدرية بجميع طوائفها بالرد على أباطيلها من قبل علماء السنة ابتداء من عهد الصحابة الذين أدركوا نشأتهم مثل عبدالله بن عمر، وابن عباس ومن بعدهم من الأئمة .

وقد صاح الصحابة بأصحاب هذا الفكر المنحرف من كل ناحية، وأنكروا عليهم ما جاؤوا به من الضلال والباطل، ونهوا الناس عن مخالطة هؤلاء ومجالستهم وأوردوا عليهم النصوص الفاضحة لباطلهم، المقررة للحق في باب القدر [1]

ثالثاً: أوضح العلامة السعدي -رحمه الله- موقف السلف ومنهجهم في مسألة القدر، فقال : « وهدى الله أهل السنة والجماعة، لما اختلفوا فيه بإذنه﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣] فأثبتوا عموم قضاء الله، ونفوذ مشيئته في كل شيء . وأثبتوا ـ مع ذلك ـ أفعال العباد من الطاعات والمعاصي، وقالوا إنها واقعة باختيارهم.» [2]

ولا يخفى أن منهج السلف في مسألة القدر كان يقوم على كراهية الخوض في القدر بلا علم، والنهي عن خصومة أهله، وموادعتهم القول، والاتباع في ذلك السنة وأثار المصطفى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) القضاء والقدر / د عمر الأشقر / ص٥٥.

(٢) الدرة البهية/ للشيخ السعدي/ ص١٥٧

المبحث الخامس : جهود العلامة السعدي في الرد على الخوارج

المطلب الأول : انحراف الخوارج في الحكم على مرتكب الكبيرة

تعد مسألة مرتكب الكبيرة من المسائل العظيمة التي نشأ النّزاع فيها بين المسلمين منذ وقت مبكر من تاريخ هذه الأمّة، بل عدّ العلماء بدعةَ التكفير بالذنوب أوّل البدع ظهوراً في الأمّة.[(١)]

وقد انحرف الخوارج في هذه المسألة لسوء فهمهم للقرآن فكفروا مرتكب الكبيرة، وأخرجوه من الدين بالكلية، وأوجبوا له الخلود في النار.

وقد نقل الأشعري (ت : ٣٣٠ هـ) إجماع الخوارج على أنّ مرتكب الكبيرة كافر، إلاّ النجدات[(٢)] منهم فإنها لا تقول بذلك . قال الأشعري: «وأجمعوا على أنّ كلّ كبيرة كفر إلاّ النجدات؛ فإنها لا تقول ذلك.»[(٣)]

ولم يكتف الخوارج بإطلاق لفظ الكفر في الدنيا على مرتكب الكبيرة بل أجرى الخوارج أحكام الكفار على أهل المعاصي في الدّنيا ومنها :

١ ـ استحلوا دماء وأموال أهل القبلة من أهل الكبائر، لاعتقادهم كفرهم، يقول ابن الجوزي(ت: ٥٩٧ هـ) : «وما زالت الخوارج تخرج على الأمراء، ولهم مذاهب مختلفة، وكان أصحاب نافع بن الأزرق يقولون: نحن مشركون ما دمنا في

---

(١) مجموع الفتاوى / لابن تيمية / ج١٣/ ص٣٠ـ٣١

(٢) أتباع نجدة بن عامر الحنفي قتله أصحابه في سنة ٦٩ هـ انفردوا عن سائر الخوارج بآراء، فأكفروا من قال بإكفار القعدة منهم ، وأكفروا من قال بإمامة نافع بن الأزرق، وأقاموا على إمامة نجدة إلى أن اختلفوا عليه وصاروا عليه ثلاث فرق . الفرق بين الفرق ٨٢، التبصير في الدين ٥٢

(٣) مقالات الإسلاميين / للأشعري / ١/ ١٦٨

دار الشرك، فإذا خرجنا فنحن مسلمون، قالوا: ومخالفونا في المذهب مشركون، ومرتكبو الكبائر مشركون، والقاعدون عن موافقتنا في القتال كفرة. وأباح هؤلاء قتل النساء والصبيان من المسلمين، وحكموا عليهم بالشرك». [١]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨ه) : «وهم أوّل مَن كفّر أهل القبلة بالذنوب، بل بما يرونه هم من الذنوب، واستحلوا دماء أهل القبلة بذلك، فكانوا كما نعتهم النبيّ ﷺ يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان.»[٢]

٢ـ حكموا على أهل الكبائر من أهل القبلة أنهم لا يرثون ولا يورثون .

٣ـ وحكموا أيضا عليهم أنهم لا يدفنون في مقابر المسلمين .

وبناء على حكمهم على أهل الكبائر في الدنيا بالكفر، زعموا أنّ حكمهم في الآخرة هو الخلود الدائم في النار، وأن الله لا يغفر لهم شيئاً من ذنوبهم إن لم يتوبوا منها في الحياة الدّنيا. وذكر الأشعري إجماعهم على ذلك فقال : «وأجمعوا على أنّ الله سبحانه يعذّب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلاّ النجدات». [٣]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخوارج والمعتزلة يقولون: إنّ صاحب الكبيرة يخلّد في النار، ثم إنّهم قد يتوهمون في بعض الأخيار أنه من أهل الكبائر كما توهم الخوارج في عثمان، وعليّ، وأتباعهما أنّهم مخلّدون في النار.»[٤]

وقد استشهد الخوارج في هذا المقام ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ

(١) تلبيس إبليس / لابن الجوزي / ٩٣ .

(٢) مجموع الفتاوى/ لابن تيمية / ٧/ ٤٨١، ٤٨٢

(٣) مقالات الإسلامين / للأشعري / ١/ ١٦

(٤) مجموع الفتاوى / لابن تيمية / ٤/ ٤٧٥، ٤٧٦

سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران : ٩٧] وقالوا إن الله وصف تارك الحج بالكفر، وترك الحج ذنب، فإن كل من مرتكب للذنب كافر.(١)

واستشهدوا أيضا بقوله تعالى :﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران :١٠٦] وقالوا : إن الفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ووجب من ثم أن يسمى كافرا .(٢)

وأيضا قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة عبس ٣٨: ٤٢] قالوا: والفاسق على وجهه غبرة فوجب أن يكون من الكفرة. (٣)

ويظهر من استشهادهم بهذه الآيات تمسكهم بظواهر النصوص ومحاولة فهمها من غير اعتبار لأمرين :

١ـ الآيات الأخرى التي تصف مرتكب الكبيرة بأنه مؤمن .

٢ـ ومن غير اعتبار لعمل الرسول ﷺ وسنته التي تبين القرآن وتفسره .

المطلب الثاني : موقف العلامة السعدي من انحرافات الخوارج:

رد العلامة السعدي انحراف الخوارج الغريب على البيئة الإسلامية ببيان الرأي الصحيح في مسألة حكم مرتكب الكبيرة، وتقرير مذهب أهل السنة والجماعة فيها، فقال -رحمه الله- :» الأصل أن كبائر الذنوب وصغارها لا تصل بصاحبها إلى

(١) التفسير والمفسرون / محمد حسين الذهبي / ٢٢٦ .

(٢) السابق / محمد حسين الذهبي / ٢٢٦

(٣) التفسير والمفسرون / د محمد حسين الذهبي ٢٢٦

الكفر، ولكنها تنقص الإيمان من غير أن تخرجه من دائرة الإسلام، ولا يخلد صاحبها في النار، ولا يطلقون عليه اسم الكفر، كما تقوله الخوارج، أو ينفون عنه الإيمان كما تقوله المعتزلة؛ بل يقولون: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، فمعه مطلق الإيمان، أما الإيمان المطلق فينفى عنه.»[1]

ويتضح موقف الشيخ السعدي من الانحرافات العقدية للخوارج مما يلي :

أولاً : رد العلامة السعدي على انحراف الخوارج بتكفيرهم صاحب المعصية :

تعد الخوارج أول فرقة أطلقت عنان التكفير بمطلق المعاصي والكبائر، وقد أبطل الشيخ السعدي هذا الانحراف العقدي فقال في قوله تعالى ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾[البقرة:١٧٨]:»وفي قوله: «أَخِيهِ» دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر، لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.»[2]

ونص الشيخ السعدي -رحمه الله- ـ على أن كبائر الذنوب ـ ما عدا الشرك ـ لا تذهب الإيمان فقال: «إن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا، كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان، والأخوة الإيمانية، لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار، التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة.»[3]

ثانياً : رد العلامة السعدي على انحراف الخوارج ببيان أن حججهم حجة عليهم لا لهم :

وقد بين العلامة السعدي أن كل ما يحتج به الخوارج من آيات، أو أحاديث

(١) الفتاوى السعدية/ للسعدي/ ص١٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للسعدي/ ص٨٤

(٣) السابق/ للسعدي/ ص٨٠٠

صحيحة على قولهم الباطل لابد أن يكون فيها حجة عليهم لا لهم. فقال في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] قد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.»(١)

وساق العلامة السعدي ما احتج به الخوارج لنصرة انحرافهم العقدي مبيناً سقم فهمهم، وعطب تفكيرهم وما ترتب عليه من خلل فكري حتى صارت أدلتهم حجة عليهم لا لهم، ومن هذه الأدلة:

أولا: قوله ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٤] قال العلامة السعدي -رحمه الله- :» فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب. ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.»(٢)

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / للسعدي/ ص٥٧

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للسعدي/ ص١٧٠

[البقرة: ٢٧٥] قال العلامة السعدي: «في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان. وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، كغيرها من آيات الوعيد. فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل الإيمان من النار.»[1]

تعقيب:

وأخيراً باستقراء جهود العلامة السعدي -رحمه الله- في الرد على الخوارج نسجل هذه النقاط :

الأولى: يلاحظ مدى براعة العلامة السعدي في استخدام الحالة المناسبة من أحوال الجدل في رده على انحراف الخوارج في مسألة مرتكب الكبيرة، فقد أقام الدليل على خلاف ما أقام الخصم عليه الدليل، وهذا إبطال لمذهب المستدل بعين دليله.

الثانية: استخدام البرهان العقلي والاستنتاج المنطقي في رد دعوى الخصم، فقد أبطل العلامة السعدي انحراف الخوارج في مسألة حكم مرتكب الكبيرة مستنداً على الحجة والبرهان العقلي، فقال: في قوله تعالى﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤] وفيها أيضا، أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار، لأنه قال: «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافا للخوارج والمعتزلة.»[2]

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للسعدي/ ص١٧٠

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للسعدي/ ص٤٥

الثالثة : أن جهود العلامة السعدي في الرد على الخوارج وغيرهم من ذوي الأفكار الضالة من باب الامتثال لتعاليم الإسلام؛ إذ أن القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من النصوص القرآنية التي توجه المسلمين لأهمية الجدال والحوار في الدعوة للإسلام وكشف زيغ الباطل، مع التركيز على خلو الحوارات والمناظرات من المراء والمغالطة واللدود في الخصومة، والمكابرة والعناد، وهذا كله اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥]

الخاتمة

يمكن إبراز أهم ما توصل إليه البحث من نتائج فيما يلي :

١ـ التزام العلامة السعدي -رحمه الله- بالموضوعية واتصافه بالعدل والرحمة في ردوده على الفرق المنحرفة في العقيدة.

٢ـ شمولية منهج الشيخ السعدي -رحمه الله- في العقيدة ؛ إذ أن ردوده جاءت شاملة لكل من خالف عقيدة التوحيد، ولم تكن قاصرة على فرقة بعينها أو طائفة خاصة.

٣ـ إحاطة الشيخ السعدي -رحمه الله- بالتحديات التي تواجه العصر والتحذير منها، وبيان مدى انحرافها عن الصراط المستقيم، والمنهج القويم.

٤ـ يظهر من جهود العلامة السعدي في الرد على الجهمية النظر الثاقب، والتحقيق الدقيق في المسائل العلمية، والعمل الدؤوب على قمع البدعة، وبذل الجهد المتواصل في نشر عقيدة التوحيد الخالص، وإظهار ما خفي على كثير من الناس من انحراف الفرق في مسائل العقيدة.

٥ـ تميز منهج العلامة السعدي -رحمه الله- في ردوده على المخالفين بتنوع أساليب الرد والإقناع، فقد استخدم -رحمه الله- أسلوب الاستدلال بلازم كلام الخصم، فأفحم الجهمية بأن دعواهم تلزمهم القول بما لم يعترفوا به.

٦ـ يلاحظ مدى براعة العلامة السعدي في استخدام الحالة المناسبة من أحوال الجدل في رده على انحراف الخوارج في مسألة مرتكب الكبيرة، فقد أقام الدليل على خلاف ما أقام الخصم عليه الدليل، وهذا إبطال لمذهب المستدل بعين دليله.

٧ـ أن جهود العلامة السعدي في الرد على الخوارج وغيرهم من ذوي الأفكار

الضالة من باب الامتثال لتعاليم الإسلام؛ إذ أن القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من النصوص القرآنية التي توجه المسلمين لأهمية الجدال والحوار في الدعوة للإسلام وكشف زيغ الباطل.

التوصيات:

١ـ إفراد مقرر دراسي بالجامعات والمدارس عن العلامة السعدي ودوره العلمي،وجهوده الفكرية، وأثره في النهضة العلمية بالمملكة العربية السعودية.

٢ـ عقد دورات وورش عمل للمعلمين بمراحل التعليم المختلفة عن منهج العلامة السعدي العلمي والتربوي، وكيفية الاستفادة منها في إعداد النشء، وتأهيله التأهيل التربوي السليم الذي يجعله لبنة بناء في المجتمع.

المصادر والمراجع

١- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية/ ابن بطة العكبري/ تحقيق د عثمان عبدالله الأثيوبي / ط٢/ الرياض / دار الراية / ١٤١٥هـ.

٢- الإبطال لنظريه الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان/ بكر بن عبدالله أبوزيد/ ط٤/ وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية/ ٢٠١١م.

٣- الإلحاد/ عبدالرحمن عبدالخالق/ ط٢/ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد/ الرياض/ ١٤٠٤هـ.

٤- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين/ الشيخ عبدالرحمن السعدي / مكتبة المعارف- الرياض/ ١٩٨٢م .

٥- انتصار الحق/ الشيخ عبدالرحمن السعدي / الطبعة الأولى / مكتبة أضواء السلف / ١٩٩٨م.

٦- التجديد في الفكر الإسلامي / عدنان محمد أمامة/ الطبعة الأولى/ دار ابن الجوزي/ ١٤٢٤هـ.

٧- التطور روح الشريعة الإسلامية / محمود الشرقاوي/ المكتبة العصرية / ١٩٦٩م

٨- تلبيس إبليس/ ابن الجوزي / طبعة أولى / بيروت / دار الفلم / بيروت / ١٤٠٣هـ

٩- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع / الملطي/ تحقيق د محمد زينهم عزب/ ط١ / القاهرة / مكتبة مدبولي / ١٤١٣هـ

١٠- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيميّ في أغلاَلِه/ الشيخ عبدالرحمن السعدي/ ط٢/ دار ابن الجوزي/ ١٤٢٧هـ.

١١- توضيح الكافية الشافية/ الشيخ عبدالرحمن السعدي/ الطبعة الأولى / مكتبة أضواء السلف/ ٢٠٠٠م

١٢- تيارات اليقظة الإسلامية / محمد عمارة/ الطبعة الأولى/ مؤسسة دار الهلال/ د.ت

١٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للسعدي / تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق/ ط١ / طبعة مؤسسة الرسالة/ ٢٠٠٠م

١٤- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن/ الشيخ عبدالرحمن السعدي/ وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية/ الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٥- جامع الأصول في أحاديث الرسول / ابن الأثير / تحقيق عبد القادر الأرنوط / مكتبة دار البيان / ١٣٩٧ هـ

١٦- جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين / الشيخ عبدالرحمن السعدي/ دار ابن القيم للنشر والتوزيع/ ١٩٩١م

١٧- جهود علماء الدعوة السلفية بنجد تجاه النوازل العقدية/ د. عبد العزيز محمد آل عبد اللطيف/ مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ج ١٨، ع ٣٧، جماد الثاني ١٤٢٧هـ.

١٨- الحوار آدابه وضوابطه/ ليحي زمزمي/ الطبعة الأولى / دار التربية للتراث / ١٩٩٤م

١٩- حوار هادئ مع محمد الغزالي/ سلمان فهد العودة/ الطبعة الأولى/ ١٤٠٩ه

٢٠- درء تعارض العقل والنقل / ابن تيمية أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم / تحقيق د محمد رشاد سالم / ط٢/ الرياض / طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / ١٤١١هـ

٢١- الدرة البهية / الشيخ عبدالرحمن السعدي / الطبعة الأولى / مكتبة أضواء السلف/ ١٩٩٨ م

٢٢- دعوة التقريب بين الأديان / أحمد عثمان القاضي/ دار ابن الجوزي/ د. ت

٢٣- الرد على الجهمية / الدارمي / تحقيق زهير الشاويش / ط٤/ بيروت / المكتب الإسلامي / ١٩٨٢ م

٢٤- الرد على الزنادقة / ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي/ الطبعة الأولى / وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية/ ٢٠١١م

٢٥- الرد على الزنادقة والجهمية / إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن محمد بن حنبل / تحقيق دغش بن شبيب العجمي / طبعة أولى / الكويت / دار غراس / ١٤٢٦هـ
٢٦- الرد القويم على ملحد القصيم / عبدالله بن علي بن يابس/ الطبعة الأولى/ مطبعة الإمام - مصر / ١٩٤٧م
٢٧- الرياض الناضرة والحدائق الزاهرة في العقيدة / الشيخ عبدالرحمن السعدي/ الطبة الأولى/ المكتبة العصرية/ ٢٠٠٥م
٢٨- شرح أصول اعتقاد أهل السنة/ للالكائي هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري / تحقيق د أحمد بن سعد الغامدي / ط ٢/ الرياض / دار طيبة للنشر والتوزيع / ١٤١١هـ.
٢٩- الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة / عبدالرزاق البدر / ط٢/ مكتبة الرشد/ ١٩٩٣م
٣٠- العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب / محمد حامد الناصر / ط٢/ مكتبة الكوثر، الرياض/ ٢٠٠١م
٣١- الفتاوى السعدية / الشيخ عبدالرحمن السعدي/ ط٢/ مكتبة المعارف - الرياض/ ١٩٨٢م
٣٢- فتنة الدجال/ الشيخ عبدالرحمن السعدي/ تحقيق أحمد القاضي/ ط٢/ دار ابن الجوزي / ٢٠٠٦م
٣٣- فرق معاصرة / غالب بن علي عواجي / ط٤ / جدة / المكتبة العصرية الذهبية / ١٤٢٢هـ
٣٢- القضاء والقدر / عمر الأشقر / ط١٣ / عمان - الأردن / دار النفائس / ١٤٢٥هـ
٣٣- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: الندوة العالمية للشباب الإسلامي / الندوة العالمية للشباب الإسلامي/ ط٤/ دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع / ١٤٢٠هـ.
٣٤- المجددون / أمين الخولي/ الهيئة المصرية العامة للكتاب / د. ت

٣٥ـ مجموعة الرسائل والمسائل / ابن تيمية / لجنة التراث العربي / / د.ت

٣٦ـ مجموع الفتاوى / ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم / جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد القاسم / د ط / المدينة المنورة / طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف / ١٤٢٥ هـ

٣٧ـ المذاهب الفكرية المعاصرة / غالب عواجي / طبعة أولى / المكتبة العصرية / جدة / ٢٠٠٦م

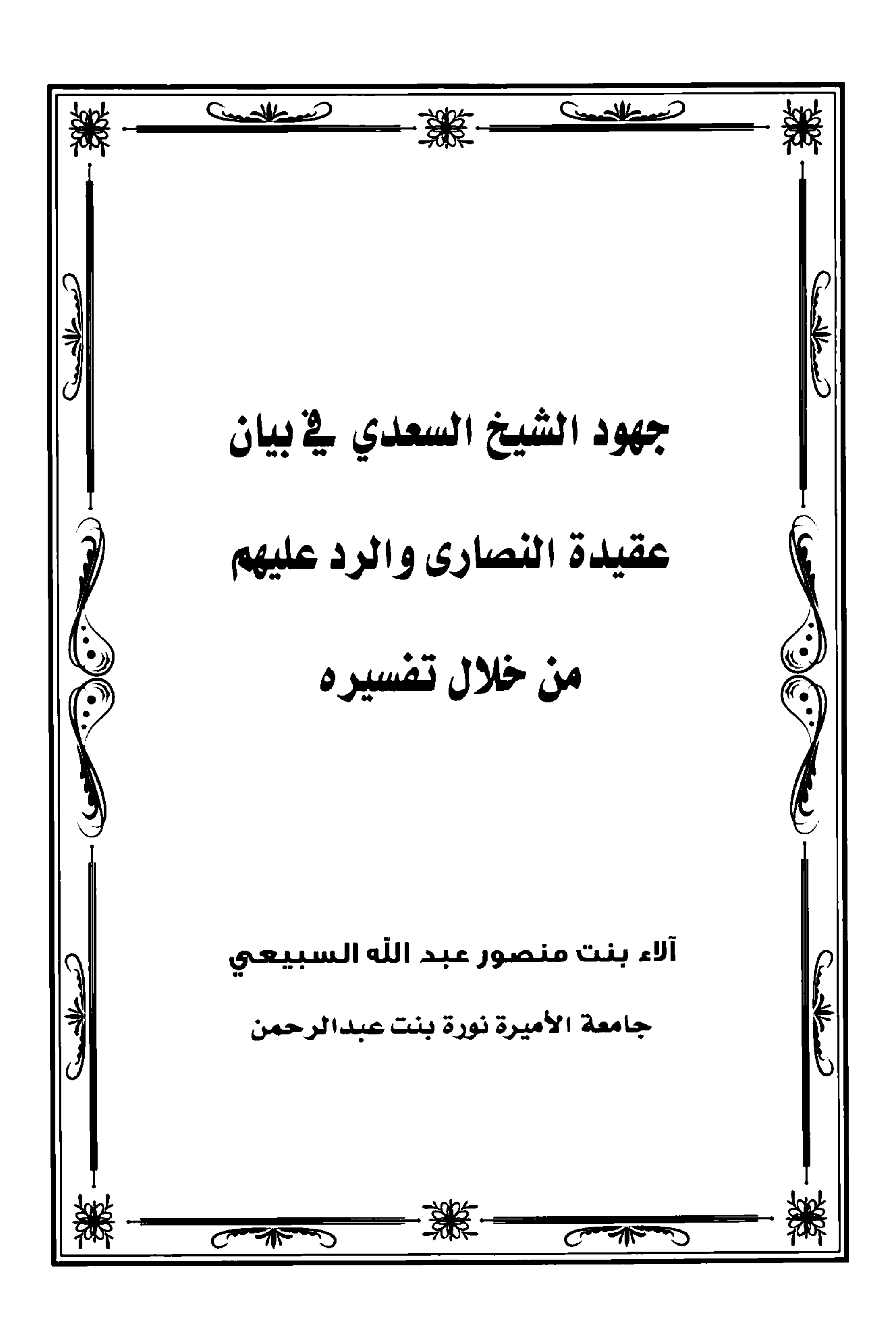
٣٨ـ المعتزلة بين القديم والحديث / محمد العبدة، وطارق عبدالحليم / الطبعة الأولى / دار الأرقم / ١٩٨٧م

٣٩ـ مقالات الإسلاميين / الأشعري / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / د ط / بيروت / المكتبة العصرية / ١٩٩١ م

٤٠ـ منهاج السنة النبوية / ابن تيمية / تحقيق محمد رشاد سالم / طبعة أولى / القاهرة / مؤسسة قرطبة / ١٤٠٦ هـ

٤١ـ هذي هي الأغلال / القصيمي / القاهرة / مطبعة مصر / ١٩٤٦م

٤٢ - وجوب التعاون بين المسلمين / ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن السعدي / مركز صالح بن صالح / عنيزة / ١٩٩٠م



جهود الشيخ السعدي في بيان عقيدة النصارى والرد عليهم من خلال تفسيره

آلاء بنت منصور عبد الله السبيعي

جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

المقدمة:

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه، واستنّ بسنته إلى يوم الدين، وبعد

فإن العلماء هم خيار الناس، وهم ورثة الأنبياء كما قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ((إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)).(١)

وإنهم أعلام الهدى، ومنارات الأرض، يدعون إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويصبرون على كل ضرر في سبيل الله محتسبين الأجر من عند الله، مرشدين من ضل إلى الهدى، فما أحسن أثرهم على الناس.

وإن من هؤلاء العلماء الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- المتوفى سنة ١٣٧٦هـ، وقد تناول الدارسون والباحثون علومه بالبحث والتنقيب والدراسة، ولا زالت علومه -رحمه الله- محط أنظار الباحثين، ومن خلال اطلاعي على تفسيره وجدت جهداً بارزاً في كشف عقائد النصارى ونقضها، بعباراتِ خبيرٍ مطلعٍ على تلك العقائد، مع ما حباه الله تعالى من إيجاز القول ومتانة المعاني، ولم أجد من بحث هذا الجانب، واخترت عنوان بحثي: (**جهود الشيخ السعدي -رحمه الله- في بيان عقيدة النصارى والرد عليهم من خلال تفسيره**) والله أسأل أن يغفر للشيخ ويرحمه ويجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم: (٢٢٣)، (١/ ٨١)، وأخرجه أبي داود في سننه برقم: (٣٦٤١)، (٥/ ٤٨٥)، وقال الألباني: صحيح. صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١/ ٩٢)

حدود البحث:

اقتصرت في هذا البحث على كتاب الشيخ السعدي -رحمه الله- في التفسير والموسوم بـ«تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ووقع الاختيار على الكتاب لوفرة المادة العلمية فيه والتي تناول فيها، النصارى وعقائدهم بكلام محرر، ولم أجد بعد البحث في بقية كتبه بيان لعقيدة النصارى كما هو في تفسيره، ولذلك اقتصرت على التفسير.

خطة البحث:

ويشتمل البحث على مقدمة، وحدود بحث، ومبحثين، وخاتمة.

المبحث الأول: جهود الشيخ السعدي في التعريف بالنصارى، وبيان سبب انحرافهم وصفاتهم، والتحذير من اتباع سبيلهم والتشبه بهم.

المبحث الثاني: جهود الشيخ السعدي في بيان فساد عقيدة النصارى والرد عليهم.

وأما الخاتمة فذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها خلال البحث.

منهج البحث:

سرت في هذا البحث وفق المنهج الاستقرائي التحليلي، مع مراعاة ما يلي:

١- جمعت أقوال الشيخ السعدي -رحمه الله- من خلال كتابه «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢- عزوت إلى تفسير الشيخ -رحمه الله- وذلك بذكر اسمه المختصر والمشتهر بـ"تفسير السعدي".

٣- نقلت كلام السعدي -رحمه الله- في النصارى بالخصوص، وكذلك ما اشترك فيه النصارى مع اليهود في الصفات والعقائد وغيرها، إذ المقصود إبراز ما لدى النصارى من عقائد، وقد قرن الله تعالى بينهما كثيرا.

٤- عزوت الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٥- خرجت الأحاديث النبوية، فما كان في الصحيحين فإني أكتفي بالعزو إليهما، وإلا خرجته من بقية مصادر السنة ذاكرة حكم بعض أهل العلم عليه صحة وضعفا.

المبحث الأول: جهود الشيخ السعدي في التعريف بالنصارى، وبيان سبب انحرافهم وصفاتهم، والتحذير من اتباع سبيلهم والتشبه بهم.

أولاً: التعريف بالنصارى:

تناول أهل العلم المصنفون في باب العقائد -وبالخصوص عند ردهم على النصارى- التعريف بهم، فمما ذكروه أن تسمية النصارى بذلك إنما هو نسبة إلى «ناصرة»، إذ كانت أمه من تلك القرية وهي في الأردن، وبها سميت النصرانية، وكل من اتبعه يسمى نصرانيا،(1) وقيل سموا نصارى؛ لأنهم نصروا عيسى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].(2)

وفي تعريفهم؛ قال بعض أهل العلم: إنهم أمة المسيح عيسى -عليه السلام- أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل خاصة، كتابهم الإنجيل.(3)

إلا أن النصارى غيروا وبدلوا في دينهم بعد عيسى -عليه السلام-، حتى تحولت النصرانية إلى ديانة شركية تتستر بغطاء التوحيد، وتحدث الشيخ السعدي في تفسيره عن النصارى في مواضع متفرقة، فذكر أن النصارى منتسبين لعيسى،(4) وأنه مرسل إلى بني إسرائيل، وكتابهم الإنجيل، فقال عند قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ

(١) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (٤/ ١٣٣-١٣٤)، (٥/ ٢٠٠)، انظر: هداية الحيارى لابن القيم (ص/ ٦٧)، وانظر: معجم البلدان للحموي (٥/ ٢٥١)

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ١٤٤)، وانظر: المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (٨٠٩)، وانظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤٨٣)، وانظر: تاج العروس للزبيدي (١٤/ ٢٢٩)

(٣) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٢٥)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥)

(٤) انظر: تفسير السعدي (١٣٢)

مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٧] (خص الله عيسى -عليه السلام-؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى -عليه السلام-، ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة...).[١] وقال في موضع آخر: (النصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل).[٢]

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى﴾ [آل عمران: ٤٩]. (أرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً).[٣]

ولفظ النصارى عند الشيخ السعدي -رحمه الله- -كما هو في كتاب الله تعالى- يشمل من كان متبعا حقيقة لعيسى -عليه السلام-، ومن هو مخالف له، فقال -رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]. (فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وصدقوا رسلهم، فإن لهم الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن...).[٤]

وفي هذا البحث سأتناول ما يتعلق بجهود الشيخ السعدي -رحمه الله- تجاه العقائد المنحرفة لدى النصارى، وسيتبين للقارئ خلال البحث التعرف على

---

(١) تفسير السعدي (٨٤٣)

(٢) المرجع السابق (١٣٤)

(٣) المرجع السابق (١٣١)

(٤) المرجع السابق (٥٤)

النصارى وعقائدهم.

ثانيا: بيان أسباب انحراف النصارى.

بحث العلماء عوامل انحراف النصارى عن دين المسيح -عليه السلام-، بشكل عام وذكروا عدة أسباب، ومن جملة علمائنا الذين أبانوا عن ذلك الشيخ العلامة السعدي -رحمه الله-، فقد تناول أسباب انحراف النصارى في عيسى -عليه السلام-، وفي عدم قبول رسالة محمد --صلى الله عليه وسلم-- من خلال تفسيره للآيات، فكان غالب ما ذكر يرجع إلى ما يلي:

الأول: اتباع النصارى لرهبانهم.

ينص الشيخ السعدي على أن من أسباب انحراف النصارى في عقائدهم عموما، وفي المسيح -عليه السلام- على وجه الخصوص، هو اتباعهم الأعمى للرهبان، ولو كانت تلك العقائد مضادة للعقل، فإنهم أبطلوا العقل مطلقا، ليتلقى الأتباع ما يشاء هؤلاء الرهبان. فيقول -رحمه الله-: (هذا -وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول- يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه، فإن لذلك سببا وهو أنهم:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ﴾ وهم علماؤهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ أي: العباد المتجردين للعبادة.﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] يحلون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها...).[١]

وسيأتي في البحث إن شاء الله عقيدة النصارى في رهبانهم وغلوهم فيهم.

الثاني: نقضهم للعهد

١/ يذكر الشيخ السعدي معنى الميثاق مبينا حال اليهود والنصارى، فقال عند

(١) تفسير السعدي (٣٣٥)

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧]

(الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك... وأما الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤا على محارم الله، وتهاونا بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنا قليلا، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق).[1]

٢/ ويؤكد الشيخ السعدي هنا أن من أسباب انحراف النصارى ونسيانهم للعلم، هو نقض العهد والميثاق، فقال عند تفسير قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤]

أي: (وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ لعيسى بن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاءوا به، فنقضوا العهد، ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ نسيانا علميا، ونسيانا عمليا).[2] ويقصد -رحمه الله- بالنسيان العلمي: إهمالهم لكتاب ربهم وعدم أخذهم به ولا تعلمه، ويقصد بالنسيان العملي: ترك العمل والاقتداء به، فلا غرو أن

---

(١) المرجع السابق (١٦٠)

(٢) تفسير السعدي (٢٢٦)

وصفوا بالضلال في قولـه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] فإن الضالين هم النصارى الذين تركوا الحق على جهل وضلال.(١)

الثالث: كتمانهم للحق

يؤكد الشيخ السعدي على أن النصارى يعلمون ولا يشكون في الحق الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا يرتابون في صحة التوحيد، والذي يصدهم عن الحق هو كتمان ما عندهم من البشارات وغيرها، فيقول إن الله تعالى أخبر: (...-وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتمون هذه الشهادة مع العلم).(٢) وقال: (يعرفون صحة التوحيد ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾[البقرة: ١٤٦]، أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصا البنين الملازمين في الغالب لآبائهم. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان).(٣)

وينص الشيخ هنا على أن كتمان الحق من أسباب انحراف النصارى، فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، (فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب

(١) انظر: المرجع السابق (٣٩)

(٢) المرجع السابق (٧٤)

(٣) المرجع السابق (٢٥٣)

علـى ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتـب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتى يؤثروه..).(1)

ولـم يكتـف هؤلاء الضـلال بكتمان الحق؛ بـل ضموا إليه إظهـار الباطل كما قـال تعالى عنهم وعن اليهـود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقـرة: ١٤٠]، قال السـعدي: (...جمعوا بين كتم الحق وعـدم النطق به، وإظهـار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظـم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة).(2)

الرابع: شهادتهم لأنفسهم بالنجاة، واغترارهم بأعمالهم

وقد صرح الله تعالى بأن هذا من أسباب انحرافهم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٤]

وأبان السـعدي عن سـبب الإعراض عن الحق من خلال هذه الآية وجعلهما سببين:

الأول: أمنهـم، وشـهادتهم الباطلة لأنفسـهم بالنجاة، وأن النار لا تمسـهم إلا أياما معدودة؛ حددوها بحسب أهوائهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم.

الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه؛ زين لهم الشـيطان سـوء عملهم، واغتروا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق.(3)

---

(١) تفسير السعدي (١٣٤)

(٢) المرجع السابق (٦٩)

(٣) انظر: المرجع السابق (٩٦٤)

ثالثا: بيان بعض صفات النصارى

ذكر الله جل وعلا في كتابه صفات النصارى، وبالنظر إلى ما ذكر من صفاتهم نجد أن النصارى على قسمين: قسم ذكرهم الله مثنيا عليهم مادحا لصنيعهم، وقسم ذمهم وحط عليهم، فأما الذين أثنى عليهم ومدحهم فهم الذين آمنوا بعيسى -عليه السلام- ولم ينحرفوا وآمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-. وأما الذين ذمهم فهم المبدلون لشريعته المكذبون لما بشرهم به نبيهم -عليه السلام- من نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم-، وإليك البيان:

١/ بيان الشيخ -رحمه الله- بعض صفات النصارى المؤمنين:

١- صفة المودة، والتواضع وعدم الكبر، قال الشيخ السعدي في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[المائدة: ٨٢] (ذكر تعالى لذلك عدة أسباب: ...منها: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر ومنها: أنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] محمد -صلى الله عليه وسلم-، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه...).[١] فلما عدد أسباب اتصاف النصارى بالمودة ذكر صفة التواضع وعدم الاستكبار وربطها الشيخ السعدي بالانقياد للحق، كما قال ابن القيم: (...أثنى الله سبحانه وتعالى على من عرف الحق منهم، ولم يستكبر عن اتباعه...).[٢]

ونقل ابن الجوزي أقوال العلماء في هل هذه الآية يشمل جميع النصارى أم

---

(١) تفسير السعدي (٢٤١-٢٤٢)

(٢) هداية الحيارى لابن القيم (١/ ٢٩٩)، وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٦٢٦)

أنها خاصة، فقال: (أما الذين قالوا إنا نصارى، فهل هذا عام في كل النصارى أم خاص؟ فيه قولان: أحدهما: أنه خاص، ثم فيه قولان: أحدهما: أنه أراد النجاشي وأصحابه لما أسلموا، قاله ابن عباس وابن جبير. والثاني: أنهم قوم من النصارى كانوا متمسكين بشريعة عيسى، فلما جاء محمد -عليه السلام- أسلموا، قاله قتادة. والقول الثاني: أنه عام. قال الزجاج: يجوز أن يراد به النصارى لأنهم كانوا أقل مظاهرة للمشركين من اليهود).(١)

وعند النظر إلى سياق كلام الشيخ السعدي فنجد أنه جمع بين الأقوال، وذلك عند قوله: (وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم. وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام).(٢)

٢- صفة الرحمة والرأفة، قال الشيخ عند تفسير قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧] (وهي نظير قوله تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢] الآيات. ثم قال: (ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوبا، حين كانوا على شريعة عيسى -عليه السلام-).(٣)

٢/ بيان الشيخ -رحمه الله- بعض صفات النصارى المكذبين الكافرين:

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٥٧٤-٥٧٥)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٦)

(٢) تفسير السعدي (٢٤٢)

(٣) المرجع السابق (٨٤٣)

وإيـراد هذه الصفات المذمومة لهم في كتاب الله تعالى لمن تأمل أكثر من تلك الصفـات التي امتدح الله بها من امتدح كما تقـدم وذلك لكثرة الهالكين منهم، فمن هذه الصفات:

١- صفة التفرق والاختلاف، وهذا من أكثر ما يميز النصارى، حتى قال بعض العلمـاء إنه لو اجتمع عشـرة من النصـارى لافترقوا على أحد عشـر قولا،[١] فمن ذلـك قولـه تعالـى﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة: ١٤]

قال الشـيخ السعدي في تفسير الآية: (سـلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشـرور والإحن ما يقتضي بغض بعضهم بعضا ومعاداة بعضهم بعضا إلى يوم القيامـة، وهذا أمر مشـاهد، فـإن النصارى لـم يزالـوا ولا يزالـون في بغض وعداوة وشـقاق).[٢] واستحقاقهم لهذا التفرق والاختلاف بسبب تركهم بعض ما أمروا به وعدم التحاكم إلى كتاب ربهم.[٣]

٢- تزكيـة النفـس كذبـا، قـال تعالـى﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائـدة: ١٨]، يقـول الشيخ السعدي مبينا معنى البنوة المقصود بها في الآية، ومنكرا عليهم تزكية أنفسهم بغيـر دليل: (الابن في لغتهم هو الحبيب، ولـم يريدوا البنوة الحقيقية، فإن هذا ليس

(١) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (٢/ ١٦٦)

(٢) تفسير السعدي (٢٢٦)

(٣) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (٢/ ٣٧٧)

من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح...).[1]

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]

قال الشيخ السعدي: (...حكموا لأنفسهم بالجنة وحدهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين...).[2] ولا أدل على كذبهم في هذا من كونهم لم يستطيعوا أن يقيموا بينة على ادعائهم هذا.

٣- صفة التولي والإعراض والعناد، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣]

يذكر الشيخ السعدي في تفسير الآية، قبح فعل أهل الكتاب بإعراض أبدانهم وقلوبهم عن أحكام كتاب الله تعالى، ويرى أن الآيات تتضمن تحذيرا لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- من الإعراض عن التحاكم إلى الكتاب، فيقول: (يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]...).[3]، ولما جاء النبي -صلى

(١) المرجع السابق (٢٢٧)

(٢) المرجع السابق (٦٢)

(٣) تفسير السعدي (١٢٦)

الله عليه وسلم- بالبينات التي تدل على نبوته كما بشرهم به نبيهم عيسى -عليه السلام- كذبوا وعاندوا.(١)

٤- صفة الهوى والحسد: إذ إن هذه الأمة النصرانية من أشد الأمم هوى، وحسداً لأهل الحق، فمنعهم هذا من قبوله، وكان سببا في انحرافهم وضلالهم، وقد ذكر الله تعالى هذا عنهم، قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة: ١١٣]

قال الشيخ السعدي: (وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضا، وكفر بعضهم بعضا، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم).(٢) وقد ذكر الله تعالى عنهم وعن غيرهم من أهل الضلال أن إيمانهم بالرسل والكتب يتبع أهواءهم بخلاف المسلمين الذين يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين وما أنزل عليهم وأما أولئك ومنهم النصارى (فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد -صلى الله عليه وسلم-، فإذا كذبوا محمدا، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم).(٣)

رابعـًا: التحذير من اتباع سبيل النصارى والتشبه بهم.

---

(١) انظر: المرجع السابق (٨٥٩)

(٢) المرجع السابق (٦٣)

(٣) تفسير السعدي (٦٧)

نهى الله عز وجل في كتابه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأمته، عن اتباع سبيل الكافرين والتشبه بهم ومنهم النصارى، ومما جاء في الكتاب النهي عن اتباع أهواء كل من ضل عن السبيل: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩]. والشاهد هو نهي الله عز وجل نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- عن اتباع كل من خالف شريعته التي شرعها الله له ومن هؤلاء النصارى، قال ابن تيمية: (وأهواؤهم: هو ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر، الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك، فهم يهوونه، وموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه، ولهذا: يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم ويسرون به، ويودون أن لو بذلوا عظيماً ليحصل ذلك...).(١) ومن المفاسد التي تنشأ من اتباع سبيل الكافرين والتشبه بهم: هي مشاكلتهم التي تقود إلى موافقتهم في الأعمال والأخلاق، حتى يرتفع التمييز بين المهتدين المرضي عليهم وبين المغضوب عليهم والضالين، وفي مخالفتهم ما يوجب الانقطاع عن موجبات الغضب ومسببات الضلال.(٢)

وعند الآيات المتعددة التي نهت عن اتباع سبيل النصارى وأهوائهم أو التشبه بهم؛ نجد أن الشيخ السعدي -رحمه الله- اهتم بإبراز تلك المعاني تحذيرا مما نهى الله تعالى عنه، مبينا الآثار السيئة المترتبة على اتباع سبيلهم؛ فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ

(١) اقتضاء الصراط لابن تيمية (١/ ٩٨)

(٢) انظر: المرجع السابق (١/ ٩٣)

مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٤٩]

قال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: (لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلا عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير) ... ثم قال عند قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ أي: إياك والاغترار بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه).(١) وقال عن أئمة النصارى: (وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة).(٢)

ولما أمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ آل عمران: ١٠٥] ومن العجائب أن اختلافهم ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾).(٣) فهنا يبين الشيخ -رحمه الله-

---

(١) تفسير السعدي (٢٣٤)

(٢) المرجع السابق (٢٤١)

(٣) المرجع السابق (١٤٢)

المضرة العظيمة من اتباع سبيلهم وهو ترك الحق والركون إلى الباطل، ومقتضى ذلك كله وجوب الرجوع إلى الحق والتمسك به.

وينص الشيخ السعدي -رحمه الله- على أن الآيات الناهية للنبي -صلى الله عليه وسلم- عن اتباع سبيل المشركين والتشبه بهم؛ إنما هي نهي للأمة كافة عن ذلك، ولا يختص به -صلى الله عليه وسلم-، وذلك لأن العبرة بعموم المعنى، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠] (فهذا فيه النهي العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).[1] وقال عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧] أي: (ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكماً عربياً، أي: محكماً متقناً، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون. ولهذا توعد رسوله -مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه).[2]

ومن أعظم ما نهى الله عنه موالاة أهل الكتاب، فإن هذا علامة الخذلان، إذ هو

(١) تفسير السعدي (٦٥)

(٢) المرجع السابق (٤١٩)

التجاء وركون إلى أعداء يسعون إلى مضرة المسلمين وتغيير ملتهم، فكيف يوالى هؤلاء وهذه حالهم؟

قال الشيخ السعدي ناهيا عن تولي اليهود والنصارى، ومبيناً حال من تولاهم في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]

(...فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئا فشيئا، حتى يكون العبد منهم).[1] ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة:٥٧]

قال الشيخ السعدي: (ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء يحبونهم ويتولونهم، ويبدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم..).[2]

وبعد هذا يتبين خطورة اقتفاء آثار النصارى وغيرهم، وخطورة التشبه بهم، والحكم العظيمة التي من أجلها نهى الله تعالى أمة النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك.

---

(١) المرجع السابق (٢٣٥)

(٢) تفسير السعدي (٢٣٦)

المبحث الثاني: جهود الشيخ السعدي في بيان فساد عقيدة النصارى والرد عليهم.

أولا: غلو النصارى في عيسى -عليه السلام- والرد عليهم.

حذر الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه من الغلو، عند قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[النساء: ١٧١] وقوله ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾[المائدة: ٧٧] ومما جاء عن النبي --صلى الله عليه وسلم-- أنه قال: ((يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)).[١]

وهذا الغلو كما قال ابن تيمية عند شرحه للحديث: (عام في جميع أنواع الغلو، في الاعتقاد والأعمال). وقال في تعريف الغلو، هو: (مجاوزة الحد بأن يزاد الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك).[٢]

وقد تناول الشيخ السعدي تعريف الغلو، موضحاً كيفية وقوع النصارى فيه عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[النساء: ١٧١]، فقال: «الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى -عليه السلام-، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم: (٣٠٢٩)، (٤/ ٢٢٨)، وأخرجه أحمد في مسنده، برقم: (٣٢٤٨)، (٥/ ٢٩٨)، قال الألباني: صحيح. الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٢٢)

(٢) اقتضاء الصراط (١/ ٣٢٨)، وانظر: تفسير الطبري (٩/ ٤١٦)، وانظر: الاعتصام للشاطبي (٢/ ١٧٠)

المنهيات، فالغلو كذلك..».[1]

ويقول الشيخ السعدي ذاكراً مقالة من غلا في حق عيسى برفعه فوق منزلته ومن ذمه وطعن في أمه، ومبينا أسباب ضلالهم: (اختلفوا في عيسى -عليه السلام-، فمن غال فيه وجاف، فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله. ومنهم من قال: إنـه ثالث ثلاثة. ومنهم من لم يجعله رسـولا، بل رماه بأنه ولد بغي كاليهود...وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسـدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشـبه الكاسدة، وكل هؤلاء مسـتحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [مريم: ٣٧]

بالله ورسـله وكتبـه، ويدخل فيهـم اليهود والنصـارى، القائلون بعيسـى قول الكفر...).[2] والشـيخ رحمـه وافق الطبري،[3] والبغـوي،[4] وغيرهم من علماء التفسير في نقل أقوال النصارى غير أنه لم يذكر الطوائف بأسمائها، بينما يرى بعض العلماء أن هذه الأقوال الثلاثة للنصارى كلهم، قال شـيخ الإسلام في تفسيره للآية: (النصـارى قالـت الأقـوال الثلاثة فذكر الله عنهـم هذه الأقوال لكن مـن الناس من يظـن أن هذا قـول طائفة منهم وهذا قول طائفة منهـم... والصواب أن هذه الأقوال جميعهـا قـول طوائف النصارى المشـهورة الملكيـة واليعقوبية والنسـطورية، فإن هـذه الطوائـف كلها تقول بالأقانيـم الثلاثة الآب والابـن وروح القدس، فتقول إن

---

(١) تفسير السعدي (٢١٦)

(٢) المرجع السابق (٤٩٣)

(٣) تفسير الطبري (١٨/ ١٩٨)

(٤) تفسير البغوي (٣/ ٢٣٣)

الله ثالث ثلاثة وتقول عن المسيح أنه الله وتقول أنه ابن الله ...).[١] وقد جاء في الأمانة المتفق عليها عندهم (نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل، خالق كل شيء، ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب ومن جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء ما في السماء وما في الأرض....).[٢]

قال السعدي منكراً عليهم: (ليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل...).[٣]

وقال عند قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، (وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟!).[٤] وهذا اختيار السدي فقد جاء عنه أنه قال: قالت النصارى: «هو والمسيح وأمه»، فذلك قول الله تعالى:

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (٢/ ١١)

(٢) مجموعة الشرع الكنسي (٢٤٦-٢٤٧)، وانظر: علم اللاهوت النظامي (١٧١) وقد نقد العلماء هذه الوثيقة، وبينوا ما فيها من تناقضات، وأمور لا يجيزها عقل ولا شرع، انظر: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل لابي البقاء الهاشمي (٢/ ٤٩٩)، وانظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٢٢٧).

(٣) تفسير السعدي (٤٩٣)

(٤) المرجع السابق (٢٤٠)

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]).[١]

ثم ذكر الشيخ الشبهة التي يتشبث بها النصارى، فقال: (يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ٧٢] بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية...).[٢] وقال في موضع آخر: (ذكر قول النصارى، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم، ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب...).[٣]

وللرد على هذه العقيدة الفاسدة، سأعرض الآيات التي تدل على بشرية عيسى -عليه السلام-، ونبوته، وتنزيه الله سبحانه وتعالى، وسأنقل أقوال الشيخ السعدي في تفسير هذه الآيات والتي ناقش فيها تلك العقيدة الخبيثة:

١- تناول الشيخ السعدي قصة حمل مريم عليها السلام بعيسى -عليه السلام-،[٤] وبين المعنى في «كلمة الله» فقال: (والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧] فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراده: كن فيكون، فمن تيقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب..).[٥]

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٨٣)، الدر المنثور للسيوطي (٣/ ١٢٣)، وانظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (٢/ ١٣)

(٢) تفسير السعدي (٢٤٠)

(٣) المرجع السابق (٢٢٦)

(٤) انظر: المرجع السابق (١٣٠) وما بعدها

(٥) المرجع السابق (١٣١)

فبين الشيخ -رحمه الله- معنى هذا القول، فقال: (وأنه ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ التي ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم. وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١]، أي: من الأرواح التي خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل -عليه السلام-، فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، بعيسى -عليه السلام-).(١) فهذا النقل يبين بجلاء لا لبس فيه أن عيسى ليس جزء من الله تعالى وليس ابناً له ولا صفة، وإنما هو مخلوق خلقه بكلمة منه، ولم يكن هو كلام الله ولا صفته، بل إضافته من قبيل إضافة التشريف.

٢- ويوضح الشيخ السعدي أن قول النصارى في عيسى ليس عليه دليل، وليس لهم فيه شبهه، بل هو اتباع لأهوائهم، فآدم -عليه السلام- خلق من غير أب ولا أم، فلم يستحق من أجل ذلك شيئا من الإلهية فضلا عن الربوبية، وكذا حواء؛ فقال: (فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل. مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم، وآدم أولى منه، خلق بلا أب ولا أم، فهلا ادعوا فيهما الإلهية كما ادعوها في المسيح؟ فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة).(٢)وقال في موضع آخر: (يخبر تعالى محتجا على النصارى الزاعمين بعيسى -عليه السلام- ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحدا لا يستحق المشاركة لله بوجه

(١) المرجع السابق (٢١٦)

(٢) تفسير السعدي (٢٢٦)

مـن الوجوه أولى، ومع هذا فآدم -عليه السـلام- خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق مـن أم بـلا أب من باب أولى وأحرى، فـإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسـيح، فادعاؤهـا في آدم من باب أولى وأحرى، فلهذا قال تعالـى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾ [آل عمـران: ٥٩ -٦٠]، أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح -عليه السلام- هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السـلام. ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك) ثم قرر قاعـدة عظيمـة يهتدي بها الباحث عن الحق، فقال: (وفي هـذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شـريفة وهو أن مـا قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسـائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شـبهة تورد عليه فهي فاسـدة، سـواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القـدح فيمـا علمه، لأن ما خالف الحق فهـو باطل، قال تعالى﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، وبهذه القاعدة الشـرعية تنحلّ عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبها المنطقيون، إن حلّها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه).[1]

٣- ويذكر الشيـخ السـعدي أن من صفـات الإله أن يكون غنيـا حميداً، وهذا الوصف لا ينطبق على عيسـى -عليه السـلام- وأمه، وذلك لطبيعته البشـرية، التي فيها احتياج وضعف، فيبطل القول بإلهية عيسـى وأمه، فقال عند تفسـير قوله تعالى ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا

(١) المرجع السابق (١٣٣)

يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥]، (قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد. ولما بين تعالى البرهان قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئا، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم).(١)

ويذكر الشيخ السعدي دليلا آخر على بطلان إلهية عيسى وأمه، فقال: (رد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١٧]

فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم، ولا قدرة لهم على ذلك دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك).(٢)

وكثيراً ما يحتج الشيخ السعدي على النصارى بتوحيد الأسماء والصفات، ويدلل على استحقاق الرب للألوهية دون من سواه بهذا النوع من التوحيد، فبالإضافة إلى ما تقدم يذكر الشيخ تنزيه الله عز وجل عن اتخاذ الولد، مستدلاً بقدرته عز وجل وعظمة ملكه ومشيئته النافذة، واتصافه بصفات الكمال، فقال: (قال تعالى -رادا

---

(١) تفسير السعدي (٢٤٠)

(٢) المرجع السابق (٢٢٦-٢٢٧)

عليهم وعلى أشباههم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[المائدة: ٧٣]، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟!! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا).[١]، وقال في تفسير قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]، أي: (ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه، ولدا؟! ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزه وتقدس عن الولد والنقص﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذا في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئا قال له: ﴿يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟!).[٢] وقال: (لا يليق ولا يكون ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضا، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي. ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٢ - ٩٣]، أي: ذليلا منقادا، غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع مماليك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمة ملكه؟!!).[٣]

فثبت من هذه الأدلة؛ أن عيسى -عليه السلام- بشر رسول متصف بصفات البشر، وأن كل قول يخالف هذا فهو باطل، قال الشيخ السعدي: (ذلك الموصوف

(١) المرجع السابق (٢٤٠)

(٢) تفسير السعدي (٤٩٣)

(٣) المرجع السابق (٥٠١)

بتلك الصفات، عيسى بن مريم، من غير شك ولا مرية، بل قول الحق وكلام الله، الذي لا أصدق منه قيلا، ولا أحسن منه حديثا، فهذا الخبر اليقيني عن عيسى -عليه السلام-، وما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكا من قائله لا علم له به...).[1]

٤- قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾[المائدة: ١٧] انفراد الله بالملك فالله تعالى هو المالك وغيره مملوك، ومن جملة مملوكاته عيسى -عليه السلام-، وهذا يدل على بطلان إلهية عيسى -عليه السلام- لأنه داخل في عموم ملكه، يقول الشيخ السعدي في تفسيره: (ومن الأدلة أن ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلها معبودا غنيا من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال...).[2] وقال: (تنزه وتقدس ﴿أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ﴾ لأن ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ﴾[النساء: ١٧١] فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد).[3]

٥-الاستدلال بإقرار عيسى -عليه السلام- بأنه عبد مخلوق وتبرؤه من عقيدة النصارى الباطلة في حقه، قال الشيخ السعدي عند قول عيسى -عليه السلام-: ﴿ إِنَّ

---

(١) المرجع السابق (٤٩٣)

(٢) تفسير السعدي (٢٢٧)

(٣) المرجع السابق (٢١٦)

﴿اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، (استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعما ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره -عليه السلام- بأنه عبد مدبر مخلوق..).(١)

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة: ٧٢]، (فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق).(٢)

٦-ويبين الشيخ السعدي تبرؤ عيسى -عليه السلام- مما قاله النصارى، ويذكر كمال أدبه في خطابه مع ربه وتنزيهه إياه أن يكون مشاركًا له في شيء من الربوبية؛ فقال في تفسير قوله تعالى﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧]

(وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى. فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك. ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول

(١) المرجع السابق (١٣٢)

(٢) المرجع السابق (٢٤٠)

شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، ...ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك...).(١)

٧-يذكر الشيخ السعدي قاعدة عامة متعلقة بالنهي عن القول على الله تعالى بلا علم، مبينا مرتبة عيسى وأمه، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[النساء: ١٧١]، (وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور. ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى -عليه السلام- نص على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح -عليه السلام- ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثوبات).(٢)، وهو يريد أن يوضح أن كل عقيدة باطلة في حق عيسى كرفعه فوق منزلته بادعاء الربوبية له فإنما هو قول على الله بلا علم.

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، أي: (هذا أيضا غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء. والصديقية،

---

(١) تفسير السعدي(٢٤٩)

(٢) المرجع السابق (٢١٦)

هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح.... فإذا كان عيسى -عليه السلام- من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلأي: شيء اتخذهما النصارى إلهين مع الله؟).[1]

ويحتج الشيخ بالآيات التي تؤيد نبوة عيسى -عليه السلام- عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: ٤٩]

فيقول: (وأي آية أعظم من جعل الجماد حيوانا، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان). ويذكر أيضا أنه جاء بجنس ما جاء به موسى -عليه السلام-، وهذه من علامات الصادق،[2] فكما أن هذه الآيات تدل على صدقه وترد على من كذبه؛ فهي كذلك تدل على بشريته وعبوديته إذ إنه مرسل من ربه، وبه يظهر وسطية أهل الإسلام بين غلو النصارى في المسيح -عليه السلام- وبين غلو اليهود في الطعن عليه وتكذيبه.

٨-وبعد إقامة الحجة والبرهان على العقيدة الصحيحة في حق عيسى -عليه السلام- وزيف دعوى النصارى فيه، لم يبق لكثير من النصارى إلا العناد، ولذلك جعل الله تعالى المباهلة على عبوديته وعدم استحقاقه للعبادة، كما قال تعالى

---

(١) تفسير السعدي (٢٤٠)

(٢) انظر: المرجع السابق (١٣١)

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]، لأنه لم يبق لمجادلته فائدة، فينتقل إلى مباهلته وملاعنته.(١)

ثانيًا: غلو النصارى في الرهبان واتخاذهم أربابا من دون الله

عظم النصارى الرهبان حتى اشتط القوم، فزاغوا عن الطريق وضلوا وأضلوا غيرهم، فأعطوا الرهبان الحق في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل، وجعلوا لهم الحق في غفران الذنوب، وغيرها من أنواع التعظيم والغلو، وهو مجاوزة الحد المشروع كما تقدم، وقال العلماء في تعريف الرهبان: جمع راهب؛ وهم عباد النصارى،(٢) وكذا قال الشيخ السعدي في تعريف الرهبان: (...الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد...). (٣) وقال عند قوله: ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أي: (العباد المتجردين للعبادة).(٤)

وأما عقيدة النصارى في رهبانهم فقد أوضحها الشيخ السعدي من خلال تفسيره، وبين طريقتهم في الغلو، ثم أشار إلى خطر الرهبان الذين صدوا عن سبيل الله وحذر منهم، وإليك بيان هذا:

١-الغلو فيهم باعتقاد استقلالهم بالتحليل والتحريم، ولم يكتفوا بطبيعة الحال بذلك حتى صرفوا لهم أنواعًا من العبادات، فقال تعالى مخبرا عن حال

---

(١) انظر: المرجع السابق (١٣٣)

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢١٦)، وانظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٥٧٥)

(٣) تفسير السعدي (٣٣٥)

(٤) المرجع السابق (٣٣٤)

النصارى مع رهبانهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، يقول الشيخ السعدي مبينا طريقتهم في الغلو، والمعنى المراد من جعل الأحبار والرهبان أربابا: (يحلون لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرَّعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها. وكانوا أيضا يغلُّون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والاستغاثة).(١) وقال: (يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾...وكغلوهم في بعض المشايخ، اتباعا لـ﴿أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ ﴾ أي: تقدم ضلالهم. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا ﴾ [المائدة: ٧٧]، من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذي هم عليه).(٢)

٢-ومن صور الغلو القبيح كذلك تقديمهم الأموال والنذر للرهبان مع الصد عن دينه، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٣٤]، يحذر الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية من الرهبان الذين يأكلون أموال الناس بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، وذلك بأن يعطوهم ليفتوهم أو ليحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الرهبان جمعوا بين أخذ أموال الناس وبين صدهم عن سبيل الله.(٣)

٣-وصنف آخر من الرهبان وأتباعهم يحذرنا منهم الشيخ، وهم الذين غلوا في العبادة حتى ابتدعوا عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا

---

(١) المرجع السابق (٣٣٥)

(٢) المرجع السابق (٢٤١)

(٣) انظر: تفسير السعدي (٣٣٥)

بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد: ٢٧]

قال السعدي: (فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم).(١)

ثالثاً: تحريف النصارى لكتابهم الإنجيل.

الإنجيل: هو الكتاب العظيم المتمم والمكمل المغير لبعض ما في التوراة،(٢) وأخبر الله تعالى عن تحريف النصارى لكتابهم الإنجيل في القرآن الكريم، وقد اهتم الشيخ السعدي في إبراز بيان معاني التحريف وذكر أنواعه والآثار المترتبة عليه، ثم أشار إلى الوعيد الشديد على من وقع في تحريف الكتب المنزلة من عند الله تعالى، ومن أنواع التحريف: لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق، وليّ اللسان، وكل هذا قد وقع من النصارى.

النوع الأول: لبس الحق بالباطل، وكتمان الحق، وكان هذا من أسباب ظلال النصارى كما سبق بيانه، عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٧١]

النوع الثاني: لي اللسان، ويقول الشيخ السعدي مبينا معنى لي اللسان في تفسير قوله تعالى:

---

(١) المرجع السابق (٨٤٣)

(٢) انظر: المرجع السابق (٢٣٣)، (٧٨٣)

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، (يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضا وإما تصريحا، فالتعريض في قوله ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ﴾ أي: يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا أعظم جرما ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك).(١) وهنا يبين الشيخ شناعة هذا النوع من التحريف، لأنهم يحرفون المعنى وهم يعلمون مراد الله جل وعلا في كتابه؛ لكنهم يثبتون خلاف ذلك

ومن الآثار المترتبة على تحريف كتاب الله، هي: عدم قبول الحق والإيمان به، فيقول الشيخ في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، (هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم لا تقتضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد

(١) تفسير السعدي (١٣٦)

الأشياء).(١) وفي قوله تعالى﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٧٩]، يذكر الشيخ الوعيد الشديد في هذه الآية لمن وقع في التحريف، فيقول: (توعَّد تعالى المحرِّفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ ﴾... فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق...).(٢)

---

(١) تفسير السعدي (٥٦)

(٢) المرجع السابق (٥٦-٥٧)



الخاتمة

الحمد الله الذي تتم بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على عبده، ورسوله محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

من خلال هذا البحث توصلت إلى النتائج التالية:

١- يفسر الشيخ السعدي -رحمه الله- الآيات المتعلقة بالنصارى وعقائدهم بعبارات واضحة ومجملة من غير تفصيل، فيستفيد منه المبتدئ، وكذلك غير المتخصص.

٢- اقتصار الشيخ -رحمه الله- في ذكر أسباب انحراف النصارى على ماورد في القرآن الكريم، مع اهتمامه بإبراز المعاني المتعلقة بهذا الجانب.

٣- القليل من تولي الكفار يجر إلى التولي التام الموجب إلى الانتقال إلى دينهم، فلذلك نهى الله عز وجل عن موالاة أهل الكتاب ومحبتهم.

٤- ينقسم المختلفون في عيسى -عليه السلام- إلى قسمين، منهم: عارف بالحق وصادف عنه؛ وهم اليهود، ومنهم: ضال عن الطريق لم يسع في معرفة الحق والصواب؛ وهم النصارى، وأما أهل الإسلام فتوسطوا فيه -عليه السلام- واعتقدوا أنه عبد ورسول؛ وهذا هو القول الحق والصواب.

٥- فساد عقيدة النصارى ناشئ عن أسباب عديدة منها: اتباع الهوى، فليس لهم فيما ذكروه شبهة ولا برهان.

٦- إقامة الحجج والبينات على النصارى، ومنها ما ذكره الشيخ في تفسيره، والتي تدل على بطلان ما هم عليه، ومن ذلك عقيدتهم في عيسى -عليه السلام-.

٧- خطورة اقتفاء سبيل النصارى الضالين أو التشبه بهم، وقد توعد الله من فعل هذا.



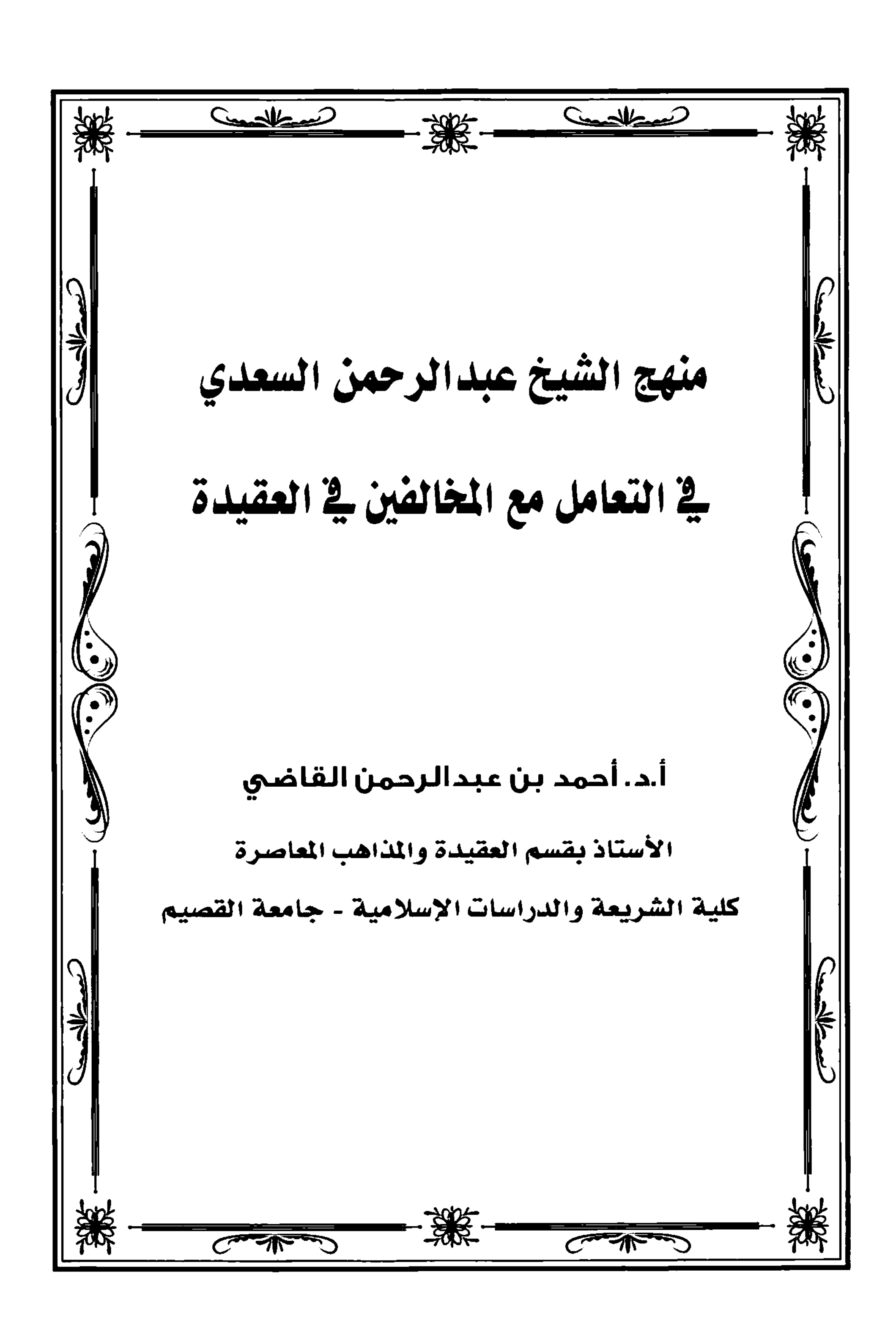
قائمة المصادر والمراجع

- الاعتصام، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: الجزء الأول: د. محمد بن عبد الرحمن الشقير، الجزء الثاني: د سعد بن عبد الله آل حميد، الجزء الثالث: د هشام بن إسماعيل الصيني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية
- تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري أبو البقاء الهاشمي، تحقيق: محمود عبد الرحمن قدح، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤١٩ه-١٩٩٨م
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م

- الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، الناشر: دار الفكر - بيروت
- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمد كامل قره بللي - عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
- سنن أبي داوود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين بن الحاج الألباني، المكتب الإسلامي
- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- علم اللاهوت النظامي، دار الثقافة المسيحية، دار الجيل، ١٩٧١ه
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
- لملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر الشهرستاني، مؤسسة الحلبي.
- مجموعة الشرع الكنسي أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة التي وضعتها المجامع المسكونية والمكانية المقدسة، تحقيق: حنانيا الياس كساب، منشورات النور - بيروت.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط -عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

- معالـم التنزيل في تفسـير القرآن، الحسـين بن مسـعود بن محمد بن الفـراء البغوي، تحقيـق: عبد الـرزاق المهدي، دار إحياء الـتراث العربي -بيـروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ
- معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية ١٩٩٥ م
- معجـم مقاييس اللغـة، أحمد بن فـارس بن زكريـاء القزويني، تحقيق: عبد السـلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- المفـردات في غريـب القرآن، الحسـين بن محمـد المعروف بالراغـب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشـامية - دمشـق بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢ هـ
- هدايـة الحيـارى في أجوبة اليهـود والنصارى، محمـد بن أبي بكر بن أيـوب ابن قيم الجوزيـة، تحقيق: محمد أحمد الحاج، دار القلم- دار الشـامية، جدة - السـعودية، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م





منهج الشيخ عبدالرحمن السعدي

في التعامل مع المخالفين في العقيدة

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

الأستاذ بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم. الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للأنام، وعلى آله وصحبه الكرام، ذوي النُهى والأفْهَام، وعلى التابعين لهم بإحسان، أُولِي العلم والعِرفان. أما بعد:

فلقد كان الشيخ الإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي، -رحمه الله-: نجمًا ساطعًا في سماء القرن الرابع عشر الهجري، وعلمًا شامخًا في بيداء الأمة العربية الإسلامية. وعاش أحوالًا جسامًا ألمت بالمسلمين، في منعطف تاريخي خطير، يمثل نقلة واسعة بين موروث الحضارة الإسلامية، وإرهاصات الحضارة المادية المدنية، وما صاحب ذلك من سجالات فكرية، ومنازلات عقدية، دارت رحاها، ولا تزال، بين دعاة الأصالة والتمسيك بالكتاب، وبين دعاة التحرر والانفلات، الراكضين خلف سراب الدنيوية (العلمانية) بفلسفتها المادية، وتجلياتها المدنية.

ورغم أن الشيخ، -رحمه الله-، عاش في بيئة نجدية مغلقة، تفتقر إلى وسائل الاتصال من جهة، وتحذر من التواصل مع المحيط، لدواعٍ شتى، إلا إن همّته سمت به إلى ارتياد الآفاق، كما أن اهتمامه بأمر المسلمين دعاه إلى مد الجسور، ومحاورة أهل زمانه من الموافقين والمخالفين، على اختلاف مراتبهم؛ قربًا وبعدًا.

إن تجربة الشيخ عبدالرحمن السعدي في التعامل مع نوازل زمانه، لا سيما النوازل العقدية، لجديرة بالدرس والتأمل، بشقيها؛ العلمي النظري، والعملي المسلكي. والحاجة لا تزال ماسة إلى فقه التعامل مع مختلف الفرقاء الذين تعج بهم الساحة العقدية والفكرية، وتعصف بعقول كثير من ذراري المسلمين، بفعل الانفتاح غير المسبوق بين الأمم. وذلك لتحقيق هدفين مشروعين:

أحدهما: صيانة الأمة من عاديات الفتن الداخلية والخارجية.

الثاني: اهتبال هذه الفرصة التاريخية في الانفتاح والحريات النسبية، للدعوة إلى الإسلام، وانفكاك البشرية من التخبط والتيه الذي علقت فيه، بالبينة الإلهية، كما قال تعالى﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾، [البينة: ١-٣].

لقد سار الشيخ عبدالرحمن السعدي في الغيهب المظلم، والبحر الخِضَمِّ، بنور من الله، مستهديًا بكتاب الله، وسنة رسول الله، مؤيدًا بنفس مطمئنة، وقلب مشفق ناصح، وخلق سمح كريم، فثبَّت الله به قلوبًا واجفة، ونفوسًا مضطربة. وكانت خطبه، ومؤلفاته بلسمًا شافيًا لجراحات غائرة، أحدثتها الهجمة المادية الإلحادية الغربية على بقايا الرابطة الإسلامية المتهالكة في القرن الرابع عشر الهجري. وما أشد انطباق هذا المثل القرآني البديع على سيرة هذا الإمام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ ،[الأنعام: ١٢٢].

وفي هذا البحث المعنون بـ(منهج الشيخ عبدالرحمن السعدي في التعامل مع المخالفين في العقيدة) سوف نستقرئ المعالم المنهجية التي تميز بها في مؤلفاته العلمية وتصرفاته العملية، عبر المباحث التالية:

١- التبين والتثبت.

٢- التعويل على الدليل.

٣- الإقناع العقلي.

٤- الرفق والنصح.

٥- الأدب وعفة اللسان.

٦- التغليظ على الملاحدة والباطنيين.

٧- العدل والإنصاف

٨- التماس العذر.

٩- الدعوة للحق وجمع الكلمة.

١٠- التأليف والنشر.

ونتبع ذلك بخاتمة. ولعل هذه المعالم الشرعية في التعامل أن تكون نبراسًا لمعاصريه من علماء الإسلام ودعاته، في وُجاه مخالفيهم من اليهود والنصارى والملحدين، وأهل الأهواء والبدع من المسلمين. رحم الله (ابن سعدي)، ورفع درجته في المهديين، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقًا.

المعلم الأول: التبين والتثبت.

أمر الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، وعباده المؤمنين بالعلم، الذي هو: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا، فقال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، [محمد: ١٩]، وذم اتباع الظن، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾، [النساء: ١٥٧]، وجعله قسيمًا للحق فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾، [الأنعام: ١٤٨]، وبيَّن عدم جدواه، فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾، [يونس: ٣٦]، ونهى عنه عباده المؤمنين نهيًا معللًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، [الحجرات: ١٢]، وجعله قرينًا للهوى، المناقض للهدى فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾، [النجم: ٢٣].

كما أمر عباده المؤمنين بالتبين عند الالتباس، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ

عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ﴾، [النساء: ٩٤]، قال السعدي، -رحمه الله-، في تفسيرها: (يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة. فإن الأمور قسمان: واضحة، وغير واضحة؛ فالواضحة البيِّنة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؛ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرور عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بداوتها قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي)[1].

وقال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ ﴾، [الحجرات: ٦]، قال السعدي، -رحمه الله-، في تفسيرها: (وهذا أيضًا، من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ؛ أي خبر: أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردًا، فإن في ذلك خطرًا كبيرًا، ووقوعًا في الإثم؛ فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل؛ حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال، بغير حق، بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبين؛ فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه؛ عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه؛ كذب ولم يعمل به؛ ففيه دليل على أن خبر الصادق

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (١/ ٣٣٩). عبدالرحمن بن ناصر السعدي. عناية: سعد الصميل. ط: دار ابن الجوزي. الأولى ١٤٢٢هـ.

مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه)[1].

وقد التزم الشيخ، -رحمه الله-، هذا المنهج فيما عرض له من حوادث ذات صلة بأمر العقيدة، وغيرها. ومن ذلك ما جرى في منتصف سنة ١٣٦٨ﻫ، من شغب حول شيخ أزهري، اسمه محمد الدناصوري، كان معلمًا في «المعهد العلمي السعودي»، في عنيزة، وكان يقرأ على جماعة مسجده من تفسير ابن كثير، ونسب إليه بعض الناس أنه يقول، إن أحاديث الآحاد لا تفيد اليقين، وأن القرآن ألفاظه قطعية، ومعانيه ظنية! فبيَّن، -رحمه الله-، كيف تعامل مع هذه الواقعة، قائلًا: (ولما قيل لي ذلك، عرفت أن النقل محرف، وأنه حصل سوء فهم من السامع، لما أعرفه من الرجل من الحزم والاحتراز عن كل ما ينتقد، فقلت للنافل: لا بد أن تكون على غير هذا الوضع، وعرفت أنه سيشاع ذلك من غير تثبت، فبادرت وذهبت بنفسي إلى الدناصوري مستفهمًا له عما وقع)[2] وذكر تمام القصة، وتبرؤه مما نسب إليه.

وهذه الحادثة تشير إلى ما يتمتع به الشيخ من أناة، وحسن تقدير وتدبير وتأنٍّ. فهو يزن الأقوال في سياقاتها، ويضع الاحتمالات المتعددة، ويمشي برجله، ويتحقق بنفسه، ليرفع الإشكال. وللقصة دلالات أخرى تتعلق بجوانب أخرى من هذه المعالم، نبينها في موضعها، إن شاء الله.

المعلم الثاني: التعويل على الدليل.

أحيا الله قلوب عباده المؤمنين ونوّرها بالوحي المبين، كما قال سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٤/ ١٦٨٩)

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. عناية وتعليق: هيثم الحداد. إشراف الشيخ: عبدالله بن عقيل. (ص: ٢٤٨)، ط: دار المعالي، ودار ابن الجوزي. الثانية ١٤٢٠ هـ.

بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، وأمر عباده بطاعته وطاعة رسوله، والرد إليهما وإلى عند التنازع، ليحمدوا العاقبة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء: ٥٩]. كما أن الله تعالى وجّه نبيه صلى الله عليه وسلم إلى النذارة بالقرآن، فقال: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾، [الأنعام: ١٩]، والجهاد به، فقال: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]

وعلى هذا المهيع الرشيد درج أئمة الإسلام في التعليم والبيان، وعند المحاجة والاختصام، فعصمهم الله، وثبّت أقدامهم. وقد ذكر الشيخ السعدي، -رحمه الله-، هـذا المعنى وكرره في مواطن كثيرة من كتبه وخطبه وفتاويه. ومن ذلك قوله في بيان طريقـة أهل السـنة والجماعة في القـول والعمل: (وذلك أن أهل السـنة والجماعة، يعتقـدون ويلتزمون أن لا طريق إلى الله وكرامتـه إلا بالعلم النافع والعمل الصالح. فالعلم النافع: هو ما جاء به الرسول من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فيجتهـدون في معرفة معانيها، والتفقه فيها، أصولًا وفروعًا. ويسـلكون جميع طرق الدلالات فيها؛ دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام. ويبذلون قواهم في إدراك ذلك بحسـب ما أعطاهم الله، ويعتقدون أن هـذه هي العلوم النافعة؛ هي وما تفرع عليها من أقيسة صحيحة، ومناسبات حُكميَّة)[1].

وقد سـار الشيخ، -رحمـه الله-، على هـذا المنهـج في سـجالاته، ومنازلاته للمخالفيـن علـى تفـاوت درجاتهـم، وعوَّل علـى الدليـل، واعتصم بـه، وزهد في الطرائق الكلامية المحدثة، والأساليب الفلسفية المزوقة. قال في تفسير قوله تعالى:

(١) أصول العقائد الدينية. (ص: ١٧-١٨)، ط: دار ابن الجوزي. الأولى ١٤٢٤هـ.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾، [هود: ١٢]: (وفي هذه الآيات إرشـاد إلى أنه لا ينبغي للداعـي إلى الله أن يصده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين. خصوصًا إذا كان القدح لا مسـتند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضيًا على أمره، مقبلًا على شأنه. وأنه لا يجب إجابـة اقتراحات المقترحين للأدلـة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السـالم عن المعارض، على جميع المسـائل والمطالب)[1]. وقد راج في زمن الشـيخ سوق الفلسـفة والعقلنـة، والزهد في الاسـتدلال بالكتاب والسـنة، والدعـوة إلى محاكاة الحضارة المادية الغربية، ومنهجها في التفكير.

جرَّد الشـيخ سـيف الحق البتار في منازلته الشـهيرة ضد الملاحدة التي سماها (الأدلـة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحديـن)، فبين مرارًا وتكرارًا مفرق الطريـق بين المؤمنيـن والملحدين، فقال في مقدمته: (إن الله بعث رسـله مبشـرين ومنذريـن، وجعلهم الهداة والأئمـة إلى كل علم صحيح نافع، ودين صحيح، وإلى كل صلاح وخير، وخصَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن جعله خاتمهم وإمامهم، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، فيهما الهدى والحق والنور ... وأعظم الناس انحرافًا عنهمـا ملاحدة الفلاسـفة، وزنادقة الدهريين، وهم أكبر أعداء الرسـل في كل زمان ومكان، وهم شـرار الخلق، الدعاة إلى الضلال والشقاء)[2]، ثم ساق ثلاثة وثمانين وجهًـا في نسـف أصول الملحدين، يعـول فيها على النص والدليـل، وما هدى إليه من الاستنباط والتعليل. ومن شواهد ذلك قوله: (الوجه السابع والأربعون: القرآن

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ٧٤١-٧٤٢).

(٢) الأدلـة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين. عبدالرحمن بن ناصر السـعدي. (ص٣) ط: مكتبة المعارف. ١٤٠٢هـ، وانظر مجموع مؤلفات السعدي: (٦/ ٧)، ط: الميمان ١٤٣٢هـ.

العظيم أكبر البراهين، والأدلة الدالة على وحدانية الله وكماله، وصدق رسله، بأنواع إعجازه؛ ببلاغته، وأسلوبه، وتأثيره، وإخباره بالغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، واتفاقه، وعدم اختلافه، وتشريعه، وإصلاحه جميع ما يحتاجه البشر)[1].

ولعمر الله! إنه لأصل يغفل عنه بعض المنافحين عن الدين، بدعوى أن المخالف لا يؤمن بالدليل، فيشتغل بالأدلة العقلية والنظرية، ويهجر النصوص الشرعية! وهذا مسلك مخالف لطريقة الأنبياء والمرسلين، وهدي السلف الصالح من العلماء الربانيين. فأي فائدة للوحي عندهم إذًا، إذا لم يوظف في أهم المهمات، ويحتج به على أصل الملة، وينذر به المدعو، ويجاهد به المخالف؟! ولكن الصواب جعل الأدلة الشرعية أصلًا، والاعتضاد ببقية الأدلة العقلية، والفطرية، والحسية، لتتوافر الأدلة في تحقيق المراد.

المعلم الثالث: الإقناع العقلي.

تذرع الشيخ عبدالرحمن السعدي، -رحمه الله-، في منازلاته للمخالفين في مسائل الاعتقاد بكافة الذرائع المقنعة للمخالف. ومن ذلك الأدلة العقلية، والبراهين النظرية المبثوثة في عديد من كتبه. وأفرد في ذلك كتابًا سماه: (البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله). قال في مقدمته: (وليس القصد في هذه المحاضرة ذكر الأدلة النقلية عليه؛ فإن الكتاب والسنة فيهما من البراهين والأدلة على ذلك ما لا يعد ولا يحصى، ولا يمكن استيفاء بعضه، وهي واضحة جلية، يعرفها الخواص والعوام، وبعض ذلك كافٍ وافٍ بالمقصود. ولكننا نريد في هذه المحاضرة أن نشير إشارة يسيرة إلى براهينها العقلية التي يشترك في معرفتها، والخضوع لها جميع العقلاء من البشر، ولا ينكرها إلا كل مكابر مستكبر، منابذٍ

---

(١) المرجع السابق: (ص ٤٨)، وانظر المجموع: (٦/ ٤٧).

للعقل والدين)[1]

واستعمل هذا الاحتجاج العقلي، بجانب الاستدلال النقلي، في العديد من كتبه، فقد عقد في (الرياض الناضرة) فصلًا في (الإشارة إلى البراهين العقلية والفطرية على ربوبية الله وإلهيته)، كما أن كتابه (الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين)، وكتابه: (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله)، طافحان بهذا اللون من الاستدلال مضمومًا إلى الأدلة الشرعية.

ومن بديع منهجه في الإقناع استعمال أسلوب المحاورة العقلية بين طرفي النزاع، كما صنع في رسالته اللطيفة (النصيحة الربانية في الرد على المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية) المعروفة اختصارًا بـ(انتصار الحق)، فقد قال في مستهلها: (هذه صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين، يدينان بالدين الحق، ويشتغلان في طلب العلم جميعًا. فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة، ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله، وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك؟ فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين، الذين يدعون إلى نبذ الدين، ورفض ما جاء به المرسلون، فحايله صاحبه، وقلبه لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب...الخ)[2]، ثم يدير، -رحمه الله-، رحى حوار مطمئن بين الناصح والمنصوح، بأسلوب رفيق، وإقناع ملزم، ينتهي بتراجع المنصوح، وانتصار الناصح.

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله. تحقيق : باسل الرشود. (ص: ١٦)، ط: دار ابن الجوزي. الأولى ١٤٢٩هـ.

(٢) نشرت هذه المحاورة في مجلة «المنهل» في أعداد متفرقة عام ١٣٧٦. وانظر: مجموع مؤلفات السعدي: (٦/ ٩٣-١١٦).

المعلم الرابع: الرفق والنصح.

امتن الله تعالى على نبيه، صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين بمنة عظيمة، فقال﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾، [آل عمران: ١٥٩]. وأمره، والمؤمنين من بعده، أمرًا صريحًا فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾، [النحل: ١٢٥]. وربَّى النبي، صلى الله عليه وسلم، أصحابه على هذا الخلق الرفيع، فعن عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: (دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ «متفق عليه[١] . وقال: (مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ)[٢]، وقال: (إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ)[٣]، وقال: (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)[٤].

وقد نهل الشيخ عبدالرحمن السعدي من هذا المشرب الصافي وتعلَّل،

---

(١) صحيح البخاري: رقم (٦٠٢٤)، صحيح مسلم. رقم (٥٦٥٦). ط: دار السلام. الثانية: ١٤٢١هـ.

(٢) صحيح مسلم. رقم (٦٥٩٨).

(٣) صحيح مسلم. رقم (٦٦٠١).

(٤) صحيح مسلم. رقم (٦٦٠٢).

فكان رفيقًا في شـأنه كلـه؛ في منطقه، وكتابته، وتدريسـه، وتعامله مع المخالفين من المسلمين. تشهد بذلك سيرته العطرة، وكتاباته الراقية.

وقـد قيَّـد فائدة عنـد قولـه تعالـى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾، [العنكبـوت: ٤٦]، فقـال: (فيهـا النهي عن المجادلة إلا بالطريقـة المثلى، والحكمـة العليا. وفيها: أنه ينبغي لمن ناظر غيره أن يؤسـس الأسـس التي يتفق عليها المتناظران، ثـم إذا حصل الاتفاق، وتم الالتئام، انتقل منه إلى المواضع المختلف فيها بلطف ولين وهدوء)[1].

ذكر الشـيخ محمد بـن عثمان القاضي، في ترجمة الشـيخ محمد بن عبدالعزيز المطوع، قاضي عنيزة، رحمهما الله، أنه قال: (كنت في مطلع عمري مع أخي وبعض المتشددين الإخوان، فانخرطت في سلكهم، وكنا نشدد في شرب الدخان، ونكفر من يعمل بالمعاصي، بلا دليل شرعي، ويحذرونني من القراءة على شيخنا عبدالرحمن بن سـعدي ... ويقول شيخنا عبدالرحمن بن سـعدي: إنه في بداية طلبه مع تلامذتي طلب مني المناقشـة في العقيدة، فخرجت معه للسـطح، فبحث معي مسـائل أجبته عليها، ولكنه لم يقتنع، وفي التدريج صار يحضر جلسـاتنا بصفة مسـتمع ثم شـارك الطلبة، وجدَّ في الطلب، وثابر عليه، وصار من أمثل الطلبة)[2]. فهكذا اسـتل الشيخ عبدالرحمن السـعدي سـخيمة قلب هذا الطالب النجيب، وعامله بالرفق والنصح والشفقه، حتى بلغ مراتب عليا في العلم والقضاء.

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد. عناية: سـعد الصميـل. ص: ٢٥٥، ط: دار ابن الجوزي. الأولى ١٤١٨هـ.

(٢) روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين. محمد بن عثمان القاضي. (٢/ ٣٠٦) . ط: الحلبي ١٤٠٣هـ.

المعلم الخامس: الأدب وعفة اللسان.

أدَّب الله عباده المؤمنين بجملة من الآداب القولية، فقال لبني إسرائيل: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، [البقرة: ٨٣]، وبذلك أمر هذه الأمة، وعلل أمره قائلًا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾، [الإسراء: ٥٣]. كما وصف عباده الذين اختصهم، وأضافهم إلى نفسه، فقال﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾، [الفرقان: ٦٣]، ثم أتبعه بمزيد وصف، فقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾، [الفرقان: ٧٢].

ويُجمع من عرف الشيخ وخالطه، على سمو أخلاقه، وعفة لسانه، وعذوبة منطقه وبيانه. وقد استعمل هذا المسلك مع المخالف فضلًا عن الموافق. ومن شواهد ذلك في مسائل الاعتقاد، أن سئل عن الأمور التي يحكم على الإنسان فيها بالردة والخروج عن الإسلام، فأجاب جوابًا مفصلًا، جاء فيه: (وكذلك المعتزلة والجهمية، معروف معاملة الأئمة لهم، وأنهم مع شدة إنكارهم لبدعهم، لم يخرجوهم من دائرة الإسلام، ويحكموا لهم بأحكام الكافرين، مع أن بدعهم مشتملة على تكذيب نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، ونفي صفات الله، وعلوه على خلقه، وما أشبه هذا من الأصول العظيمة التي قررها الكتاب والسنة. ومع إنكارهم وتحريفهم ومعاملتهم لأئمة أهل السنة تلك المعاملة القبيحة، لم يكفروهم، مع أنهم صرحوا أن مقالاتهم كفر، ومشتملة على الكفر، وذلك لأجل تأويلهم وجهلهم. وكذلك كثير ممن شاركوهم في كثير من أصولهم؛ كالأشعرية، والماتريدية، ونحوهم)[1].

(١) إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب بطريق مرتب على السؤال والجواب. ص: ١٦١ ط: دار أشبيليا.

وقد جرى في جوابه هذا مجرى أهل السنة في عدم تكفير المعين؛ الجاهل والمتأول، مع وصف المقالة بالكفر. إلا أن بعض معاصريه، من أهل العلم، خالفه وعنَّف عليه، فأشار الشيخ في بعض مكاتباته لتلميذه الشيخ عبدالله بن عقيل، -رحمه الله-، إلى هذه الواقعة بالعبارات التالية: (من مدة كم شهر، وصلني كتاب ....، وإنكاره في شدة عظيمة، فرددت كلامه بلطف، وأحلته بهذا التفصيل على كلام الشيخ[1]، وابن القيم، ولم أناقشه في شدته، ولا حاسبته على ألفاظه غير اللائقة، لأني ظهر لي أن البحث والتمادي معه ما له ثمرة ولا نتيجة. ثم جاءني كتاب أشد من الأول، ويزعم أن هذا التفصيل مخالف لمذهب الأمة، وأنه باطل متناقض، وأننا أتينا بمنكرات وطامات إلى آخر ما ذكر! كلام يعجب الإنسان كيف يصدر ممن ينتسب للعلم من دون أن يعرف ما عند صاحبه، ومن دون أن نقابله)[2].

(١) يريد شيخ الإسلام ابن تيمية، -رحمه الله-، كقوله: (وَمَنْ قَالَ: إنَّ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَكْفُرُ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنْ الْمِلَّةِ فَقَدْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ بَلْ وَإِجْمَاعَ الْأَئِمَّةِ = = الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِ الْأَرْبَعَةِ فَلَيْسَ فِيهِمْ مَنْ كَفَّرَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِنَّمَا يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِبَعْضِ الْمَقَالَاتِ) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٨)، وقوله: (وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ بِبَعْضِ التَّجَهُّمِ كَالْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ الَّذِينَ يَتَدَيَّنُونَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَهَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَا رَيْبٍ. وَكَذَلِكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ كَالْكُلَّابِيَة والكَرَّامِيَّة)، مجموع الفتاوى، (١٧/ ٤٤٨).

وقوله: (وَإِنْ كَانَ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِنَّهُ مَا مِنْ فِرْقَةٍ إِلَّا وَفِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ لَيْسُوا كُفَّارًا، بَلْ مُؤْمِنِينَ فِيهِمْ ضَلَالٌ وَذَنْبٌ يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْوَعِيدَ، كَمَا يَسْتَحِقُّهُ عُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ. وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، بَلْ جَعَلَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُمْ يَخْلُدُونَ فِي النَّارِ. فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يَنْبَغِي مُرَاعَاتُهُ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى السُّنَّةِ فِيهِمْ بِدْعَةٌ، مِنْ جِنْسِ بِدَعِ الرَّافِضَةِ وَالْخَوَارِجِ) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٤١).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ١١٦-١١٧).

فقد لزم الشـيخ كلمة التقوى، وترفَّع عن الخصومة والإسـفاف في القول، ولم يقابل الإساءة بمثلها، بل قابلها بالتي هي أحسن.

المعلم السادس: التغليظ على الملاحدة والباطنيين.

عاش الشيخ عبدالرحمن السعدي، -رحمه الله-، حقبةً عصيبة، اجتاحت الأمة الإسـلامية، تمثلت في الهجمة الاسـتعمارية على الأقاليم الإسـلامية، وما صاحبها من نشر للضلالات الفكرية والإلحاد، عزَّزه انبهار بالحضارة المادية والمخترعات الحديثـة، فزلـزت قلـوب، وزاغت أبصـار، وزلت أقـدام بعد ثبوتها. فاستشـرف، -رحمـه الله-، لكمـال نصحه، ووفور همتـه الآفاق، واسـتطلع الماجريات خارج إقليم نجد، واستجلب الكتب والمجلات السيارة، مهتمًا بأمر المسلمين. وصادف أطباقًـا من الموافقيـن والمخالفيـن، فميز بين كل طبـق، وأنزل النـاس منازلهم. ، وعامـل كل أحد بما يليق به. فبينما يغلب عليه اللطف والرفق بالمخالف في الأمور الاجتهادية، وما يسـوغ فيه الخلاف، نجده حدًّا صارمًا، ولسـانًا قاطعًا في تعامله مع الزنادقـة والملاحـدة والباطنيين. وبهـذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسـلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾، [التوبة: ٧٣].

وكان، -رحمـه الله-، يتعقـب هـذا الصنـف مـن المضلين، ويحـذر منهم في مواطنهـم كـي لا يضلـوا المسـلمين. وكان يقتني «مجلـة المنار» لصاحبها السـيد محمد رشـيد رضـا، -رحمه الله-، ويـودع أعدادها في «مكتبة عنيـزة الوطنية» التي أسسها في جامعها الكبير، ويراسل صاحبها.

وقـد كتب رسـالة مطولة، بل مقالة منشـورة في رجب سـنة ١٣٤٦هـ، اسـتهلها بالتحيـة والتودد لصاحـب المنار، والشـكر والثناء على المجلـة، وأتبعه بالاقتراح

قائلًا: (ثم إننا نقترح على جنابكم أن تجعلوا في مناركم المنير بحثًا واسعًا لأمر نراه أهم البحوث التي عليها تعولون، وأنفعها لشدة الحاجة، بل دعاء الضرورة إليه، ألا وهو ما وقع فيه كثير من فضلاء المصريين، وراج عليهم من أصول الملاحدة والزنادقة من أهل وحدة الوجود والفلاسفة، بسبب روجان كثير من الكتب المتضمنة لهذه الأمور، ممن يحسنون بهم الظن؛ ككتب ابن سينا، وابن رشد، وابن عربي، ورسائل إخوان الصفا، بل وبعض الكتب التي تنسب للغزالي، وما أشبهها من الكتب المشتملة على الكفر برب العالمين، والكفر برسله وكتبه واليوم الآخر، وإنكار ما علم بالضرورة من دين الإسلام. فبعض هذه الأصول انتشرت في كثير من الصحف المصرية، بل رأيت تفسيرًا طبع أخيرًا منسوبًا للطنطاوي، قد ذكر في مواضع كثيرة من تفسير سورة البقرة شيئًا من ذلك؛ ككلامه على استخلاف آدم، وعلى قصة البقرة، والطيور، ونحوها، بكلام ذكر فيه من أصول وحدة الوجود، وأصول الفلسفة المبنية على أن الشرائع إنما هي تخييلات، وضرب أمثال، لا حقيقة لها ... وكذلك يبحث كثير منهم في الملائكة والجن والشياطين، ويتأولون ما في الكتاب والسنة من ذلك؛ فيزعمون أن الملائكة هي القوى الخيرية التي في الإنسان، فعبر عنها الشرع بالملائكة! كما أن الشياطين هي القوى الشريرة التي في الإنسان، فعبر عنها الشرع بذلك! ولا يخفى أن هذا تكذيب لله ولرسله أجمعين ... وقد ذكر لي بعض أصحابي أن «مناركم» فيه شيء من ذلك)[1].

ولعله بذلك يشير، بهذا الكلام الأخير، إلى ما وقع من الشيخ محمد عبده، الشيخ محمد رشيد رضا، من مجازفات وتأويلات مغربة؛ كتأويل الملائكة بقوى الخير، والشياطين بقوى الشر، وتأويل سجود الملائكة لآدم بتسخير قوى الأرض للإنسان، وامتناع إبليس عنه بقوة إغراء الشر، وتأويل معصية آدم إلى أطوار البشرية

(١) مجلة المنار: ج ٢، م ٢٩، ص: ١٤٤. وانظر: مجموع مؤلفات السعدي: (٦/ ٨٥-٩٠).

من طفولة، تمييز ناقص، رشد، واستواء، وتأويل خلق عيسى، عليه السلام، باعتقاد قلبي قوي، وإحيائه الموتى بالإحياء المعنوي، ونفيه السحر، وتأويل النفاثات في العقد بالنمامين،، والطير الأبابيل بالبعوض والذباب، والحجارة من سجيل بجراثيم الجدري والحصبة![1].

وقف الشيخ، عبدالرحمن السعدي، -رحمه الله-، موقفًا حازمًا من هذه التأويلات الباطلة، التي راج سوقها إبان الانبهار بالمادية العقلانية الغربية التي دفّت على البلاد الإسلامية مطلع القرن الرابع عشر الهجري، ولم تأخذه في إنكارها لومة لائم، أو الإغضاء لمصلحة مزعومة، أو تأليف موهوم.

كما نجد نَفَسَ الشيخ عبدالرحمن السعدي، في رده على القصيمي، حادًّا، خلاف ما هو معهود عنه في كتاباته من اللين والرفق. وما ذاك إلا لاختلاف المقام. ودونك بعض العبارات التي وردت في رده المباشر عليه، ابتداءً بعنوانه: (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله) : (من نظر فيه وتأمله حق تأمله، عرف أنه ما كتب أشد وطأة، وأعظم عداوةً، ومحاربةً للدين الإسلامي، ومنفرًا منه، وأنه ما اجترأ أحد من الأجانب، وغيرهم بمثل ما اجترأ عليه هذا الرجل، ولا افترى مفترٍ على الدين كافترائه، ولا حرف أحد له نظير تحريفاته، وما صرح أحد بالوقاحة والاستهزاء والسخرية بالدين وأصوله وتعاليمه وأخلاقه وآدابه وحملته كاستهزائه وسخريته)[2]. ومن العبارات الغليظة التي استعملها في الرد عليه: (فيا ويحه، ما أخسر صفقته، وأقل حياءه! ... فكيف لا يستحي من هذه البهرجة والتناقض؟! أيظن الناس كالبهائم العجم التي لا تفهم شيئًا، أم سحر عقله فصار يهذي بالباطل، وبما يغلي به صدره من الغل والإلحاد؟! ... ومن تمويهاته الشنيعة ... ومن تأمل

(١) الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم. غازي التوبة. (ص: ٦٤- ٥٢)، ط: دار القلم.

(٢) تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله. مجموع مؤلفات السعدي: (٦/ ١٦٦)

كتـاب هذا المنحرف ... ومن بحوث هذا الكاتـب الخبيثة ... وكذلك من مباحث هـذا الكتـاب الضارة، التي بلغت في الفظاعة، ووصلـت في الخلاعة مبلغًا ... وهذا المفتري ... ومن تحريفاته التي تقشعر منها الجلود ... ومن جرأته العظيمة ... ومن انحرافاته الفظيعة ... ومن جملة مقالاته الشنيعة الفاضحة)[1].

ومـن عميق فقهـه في الرد على المخالفيـن، النظر إلى حـال المخاطبين بالرد، فتراه يعلِّق على كتاب الشيـخ محمد عبدالـرزاق حمزه، -رحمه الله-، في الرد على القصيمي، قائلًا: (وطريقته فيه أنه ينقل كلام القصيمي ويفنده، ويذكر عليه العبارات التـي اسـتقاها وأخذها مـن كتـب الملحدين، ورد بعـض الملحديـن على بعض، وتناقضهـم في الأمـور التي يزعمونها يقينية فضلًا عن غيرهـا. وإن صار الكتاب من هـذا الجنس فهو نافع جـدًا خصوصًا لأهل الأمصار الرايـج بينهم كلام الملحدين واصطلاحاتهم، وأما أهل نجد فهو صعب على أكثر الناس، وفايدته أقل)[2]، ولعمر الله إن ذلك لمن الفقه!

كمـا يبدو أن الشـيخ يتحفظ من نقـل كلام الملاحدة الغربيين منسـوبًا إليهم، فيقـول في رسـالة شـخصية لتلميذه ابن عقيـل: (وحقيقةً أننا ما تقصينـا جميع ما في «الأغـلال» مـن الانحرافـات، تركنا أمـورًا ثانويـة، إنمـا ذكرنا الشـيء الضروري والأصول العظيمة، وربما أن الشـيخ يشـير إلى ما ذكرنا عن القصيمي من جهة رأيه في مبدأ الإنسان، وأنه مقرر مذهب «دارون» الانقليزي، أن الإنسان الأول أوله قرد، وصاحـب الأغلال لم يذكر ويصرح بهذا المذهب وينسـبه لـدارون، ولكن تقريره في الأغـلال هـو حقيقة ذلـك المذهب بلا ريب ولا شـك. مع أن ذكـر «دارون» في

(١) المصدر السـابق: الصفحات على التوالي: (١٧٦، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٦).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ٢١١-٢١٢).

كتابنا من زيادة المصححين؛ الشيخ محمد عبدالرزاق، وأبي السمح. أنا ما أشك أن كلام القصيمي يذهب ذلك المذهب. وذكرت ما يحتوي عليه ذلك القول من تكذيب الكتب والرسل في أن الإنسان مبدأه آدم وحواء، وما أحب التصريح بالنقل عن هؤلاء الملاحدة؛ «دارون» والنقل الآخر الذي زادوه عن الفرنساوي الذي يقول: ما رأى التاريخ أعدل وأرحم فاتحًا من العرب، أو نحو ذلك. فذكر هذين الشخصين في كتابنا من اجتهاد المصححين. ولولا أن المعنى صحيح لنبهت على النسخ التي وصلت إلي، ولراجعت محمد عبدالرزاق. ولكن المعنى هو الحق، ومن طالع كتاب القصيمي عرف ذلك صريحًا)[1].

المعلم السابع: العدل والإنصاف

إن من أجلّ القيم التي ورد الشرع بتعزيزها :العدل» في جميع الأمور، ونبذ الظلم والحيف وغمط الحق. قال تعالى﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾، [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، [المائدة: ٨]، وقال: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾، [النساء: ١٣٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ١٥٧-١٥٩).

حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا)، رواه مسلم[1].

وأولى الناس باتباع هذا المنهج ورثة الأنبياء، من العلماء الربانيين. وهو منهج مطرد مع الموافق والمخالف. وقد قرر الشيخ هذا المعنى، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، [الأنعام: ١٥٢]: (﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾قولا تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾في قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على من تكره بالكلام فيه، أو في مقالته، من الظلم المحرم. بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبُعدها منه. وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين، في لحظه ولفظه)[2].

كما أنه التزمه في نفسه مع مخالفيه، فرغم بجاحة ما فاه به «القصيمي» من كفر وإلحاد، ونيل من أهل العلم وحملته، فقد أثبت الشيخ، -رحمه الله-، أنه قد يقول شيئًا صحيحًا، فقال: (ونحن لا ننكر ما في كلامه وكتابه من المعاني الصحيحة المطروقة، التي لم يزل أهل العلم يقولونها ويبدونها، من الحث على تعلم العلوم، وفنون الصنائع النافعة، وما فيه من ذم الجهل وآثاره الضارة، وما فيه من تأخر المسلمين في الفنون العصرية، وما فيه من وصف تفوق غيرهم في فنون المادة، فقد ذكر أهل العلم من هذه الأمور أكثر مما ذكر هذا الرجل، ولم يبين ما بينون، ولا

---

(١) صحيح مسلم. رقم (٤٧٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: (١/ ٥٢٤).

شرح الداء الذي أصاب المسلمين حقيقةً، ولا كيفية الدواء)[1].

المعلم الثامن: التماس العذر

إن من شأن المؤمنين التعاذر، والتغافر، والصفح، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ،[النور: ٢٢]، وقال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التغابن: ١٤]، ووصف التابعين بإحسان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ،[الحشر: ١٠]. وفي الصحيح: (لاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ، وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللهُ الجَنَّةَ) متفق عليه[2].

وقد تحلى الشيخ، عبدالرحمن السعدي، بهذه الحلية الإيمانية، فلم يدع قلبه مستودعًا للشحناء والحفيظة مع مخالفيه، بل كان يبادر إلى انتزاع الغل، وتنقية السرائر، وإحلال المودة في القلوب، وحمل المخالف على أحسن المحامل الممكنة.

ومن شواهد التماسه للعذر، وتصور حال المخالف، ما جرت الإشارة إليه آنفًا من تهجم أحد معاصريه عليه بكتابة غليظة، وتعنيف متكرر، قابله بلطف وبيان، ثم قال معلقًا على الحادثة: (لهذا ما أحببت أتمادى معه في البحث الطويل ... لأن الظاهر أنه - إن شاء الله - مهوب[3] كله هوى، لأني ما أعرفه ولا يعرفني، ولا جرى

---

(١) تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله. انظر مجموع مؤلفات السعدي: (٦/ ١٦٤-١٦٥)

(٢) صحيح البخاري. رقم (٦٨٤٦)، صحيح مسلم. رقم (٣٧٦٤).

(٣) لهجة عامية تعني: ما هو بكذا وكذا.

بيني وبينه قبل هذا أدنى مكاتبة، وإنما حمله على ذلك أنه انعقد في فكره هذا الذي يراه في تكفير جميع الجهمية والمعتزلة، من غير فرق بين المعاند وغيره، ولم يعرف كيف الطريق إلى إنكار ما اعتقده منكرًا، فجاء بهذه الطريقة التي ليس لها مقدمة، ولا جرى من صاحبه عناد يوجب له ما أوجب. نرجو الله أن يوفق الجميع لكل خير)[1].

وقد أورد فائدة تربوية في كتابه (مجموع الفوائد) عنون لها بـ (قصة طريفة لبعض أهل العلم) جاء فيها: (يعجبني ما وقع لبعض أهل العلم، وهو أنه كتب له آخر من أهل العلم والدين ينتقده انتقادًا شديدًا في بعض المسائل، ويزعم أنه مخطئ فيها، حتى إنه قدح في قصده ونيته، وقال: مع ذلك: إنه يدين الله ببغضه بناءً على ما توهم من خطئه، فأجاب المكتوب له:

اعلم يا أخي أنك إذا تركت ما يجب عليك من المودة الدينية، والأخوة الإسلامية، وسلكت ما يحرم عليك من اتهام أخيك بالقصد السيء، على فرض أنه أخطأ، وتجنبت الدعوة بالحكمة في مثل هذه الأمور؛ فإني أخبرك قبل الشروع في جوابي لك ما انتقدته عليَّ أني لا أترك ما يجب عليَّ من الإقامة على مودتك، والاستمرار على محبتك، المبنية على ما أعرفه من دينك انتصارًا لنفسي، بل أزيد على ذلك بإقامة العذر لك بقدحك في أخيك، أني أعرف أن الدافع لك على ذلك حسن قصد، لكن لم يصحبه علم يصححه، ولا معرفة تبين مرتبته، ولا ورع ورأي صحيح يوقف العبد عند حده الذي أوجبه الشرع عليه. فلحسن قصدك المتمحض، أو الممتزج بشيء آخر، قد عفوت لك عما كان منك إليَّ من الاتهام بالقصد السيء)[2].

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ١١٧ - ١١٨).

(٢) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد. عناية: سعد الصميل. (ص: ٤٣)، ط: دار ابن الجوزي. الأولى ١٤١٨هـ.

المعلم التاسع: الدعوة للحق وجمع الكلمة

أمر الله عباده المؤمنين بالاعتصام بحبله والائتلاف، ونهاهم عن التفرق والاختلاف، وامتن عليهم بذلك، فقال سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾، [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾، [الأنفال: ٦٣]. وذم أهل التفرق والشذوذ، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾، [آل عمران: ١٠٥]، وقال﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، [الأنعام: ١٥٩].

وقد أدرك العلماء الربانيون هذا المقصد الأصيل من مقاصد الشريعة، فنأوا عن اللغط، والشغب، والتحزب، والاختلاف، وغلّبوا جانب الوحدة والائتلاف ما وسعهم الحال. قال، -رحمه الله-، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾، [يونس: ٩٣]: (هذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح، وهو أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجَب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض ما هو قرة عين اللعين. وإلا؛ فإذا كان ربهم واحدًا، ورسولهم واحدًا، ودينهم واحدًا، ومصالحهم العامة متفقة، فلأي شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت

من دينهم، بسبب ذلك، ما يموت؟! فنسألك اللهم لطفًا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم، ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام)[1].

ومن شواهد ذلك، نقده، -رحمه الله-، ما كان يجري من بعض الغيورين في بلدته، من التحزب المذموم، الذي يلبس ثوب العقيدة والدين، كما جرى في قضية الدناصوري، آنفة الذكر[2]، فقال معقبًا: (أما أنا فقد بينت لكل من سألني عن القضية صورة الواقع، وأنه لا يحل الدخول في هذه الأحزاب الضارة، وبينت أن الواجب على الناس احترام مثال هؤلاء الذين لم نعثر منهم على ما ينتقد، وأنه لو فرض ذلك، لوجب نصيحتهم سرًا، ولم يحل السعي في السعايات الضارة التي تبرهن عن مقصود صاحبها، وتبرهن على أن الذي همه السعايات بمثل هذه الأمور؛ أنه أجبن الناس عن النصيحة والمشافهات، وأشجعهم في القول بما لا يعلم، والسعايات.

ولكن كثيرًا ممن دخلوا في هذا الحزب، وهم أصحابنا الذين نعترف بفضلهم، إذا نصحناهم تبعوا هواهم، ولم يقبلوا النصيحة، وبرروا موقفهم بشرح حالة الحزب الأول، فنقول لهم: لا تقابلوا الفاسد بالفاسد، فيزداد الأمر شرًا كما وقع. فنرجوا الله تعالى لنا ولهم ولجميع المسلمين الهداية والاستقامة، وأن يحفظنا وإياكم من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن. إنه جواد كريم)[3].

وطبَّق ذلك على نفسه، في حادثة مشهورة، جرت له سنة ١٣٥٩هـ، إثر تأليفه رسالةً في حقيقة يأجوج ومأجوج، فاستنكرها بعض المخالفين، وسعوا، دون مراجعة الشيخ ومباحثته في فحواها، لدى بعض المشايخ وولاة الأمر، وعظَّموا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٢/ ٧٣٠).

(٢) انظر ما تقدم: (ص: ٤).

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ٢٥٠).

الأمر، وشنعوا على الشيخ، فوردت برقية من الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود، -رحمه الله-، يطلب حضوره إلى الرياض، مصطحبًا تفسيره[1]. ووصف الشيخ تعاطيه مع هذه النازلة، وتعامله مع مخالفيه، برسالة مبسوطة لتلميذه الشيخ عبدالله بن عقيل، رحمهما الله، فقال: (ولابد بلغك سفرنا للرياض، وأسبابه، ونتائجه، وأنه باستدعاء مستعجل من الملك، لنحضر، ونحضر معنا التفسير؛ لا بد أحد معترض علينا، وفعلًا بادرنا للحضور، وإحضار التفسير، فرآه بعض المشايخ فاستحسنوه، ولم يحصل بحث في مسألة واحدة أصلًا. ولكن المشايخ، جزاهم الله خيرًا، حصل منهم من إكرامنا فوق ما يظن الظان، والملك قال بحضرة الجميع، قال: إنه ما بينك وبين المشايخ، من فضل الله، أقل اختلاف، وأنه لم يعترض عليه أحد من الحاضرين، ولا من غيرهم، فأبديت له الشكر، وأني ممنون؛ إذا رأى أحدٌ علي خطأ أن ينبهني، فإني ممنون بذلك من صغار الطلبة، فضلًا عن المشايخ الذين هم أُبْوَةُ[2] للعرب.

وحصل للناس انزعاج من سفري، وطلب الجماعة أنهم يراجعون فيَّ، أو يركبون معي، فمنعتهم وأخبرتهم أني لا أكره الحضور هناك، وأنه لابد أن يحصل فيه مصالح، فوقع، لله الحمد، كما ظننت، وحصل التعارف التام مع المشايخ، وأقمنا في الرياض ستة أيام، ثم رجعنا بصحبة الملك إلى الوطن، مسرورين، راجين المولى أن يتم نعمه على الجميع، وأن يحسن العواقب لنا ولكم في الدنيا والآخرة. أخبرتك بحاصل ذلك، خوفًا أن يصور على غير صورته)[3].

(١) انظر تفاصيل القصة في: (رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج) د. أحمد القاضي. (ص: ٤٦-٥٠)، ط: دار ابن الجوزي. الأولى ١٤٢٤هـ.

(٢) لهجة عامية، تعني: آباء.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ٩٨-٩٩).

ويذكر معاصروه أنه إثر رجوعه معززًا مكرمًا، برفقة الملك، عمد إلى أكبر مخالفيه الذين سعوا فيه، فزاره في بيته، ولاطفه، وقال له: كلانا مجتهد، وكلانا على خير، وليس في الخاطر شيء. وبلغه عن آخر، أن والده هجره بسبب سعايته، فقصد والده، وألحَّ عليه في الصفح عنه، وصلته.

وجاء في رسالة بعث بها الشيخ عبدالله بن محمد العوهلي، إلى زميله الشيخ عبدالله بن عقيل، رحمهما الله، وصادف قدوم الشيخ وجوده في الرياض، أن الملك عبدالعزيز -رحمه الله-، وجه الكلام للشيخ عبدالرحمن السعدي، في لقائه المعتاد بالمشايخ، يوم الخميس، قائلًا: (هذولا[١] إخوانك المشايخ، تراهم والله ما قالوا فيك ولا كلمة، وإنهم والله يمدحونك، وأفعالك جميعها جايزة لنا[٢]. وردد قوله: إن المشايخ ما قالوا فيك ولا كلمة؛ لا الحاضر منهم ولا الغايب، وأنهم يثنون عليك، ويحبونك. إلى أن قال: فقط، اتركوا البحث في يأجوج ومأجوج، لأنه فيه تشويش على الناس بلا فايدة. قال الشيخ: إني دعيت له[٣]، وقلت لا بأس، أنا قلت هذا اجتهاد مني، ولا ظنيت أنه يحصل فيه تشويش. والآن نترك البحث فيه؛ ولا هي مسألة حلال أو حرام، والأمر خفيف)[٤].

وهذه الحادثة تكشف عن المستوى الرفيع للعلماء والولاة في التعامل مع الخلاف، وحرصهم على رأب الصدع، وجمع الكلمة. وتكشف عن سعة أفق الشيخ عبدالرحمن السعدي، ورحابة صدره، وحسن تقديره للمصالح والمفاسد،

---

(١) لهجة عامية، تعني: هؤلاء.

(٢) لهجة عامية، تعني: محل قبولنا ورضانا.

(٣) لهجة عامية، تعني: دعوت له.

(٤) نقلاً عن: رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج. (ص: ٤٩).

ودفع ما يوجب الخلاف والتشويش بين المسلمين.

وقد صنَف، -رحمه الله-، رسالةً بعنوان (الحث على اجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف)، وظل يردد هذه المعاني في ثنايا كتبه، دون كلل أو ملل.

على أن الشيخ، -رحمه الله-، لا يقصد بجمع الكلمة، الاجتماع الصوري، بل الاجتماع المؤسس على التواصي بالحق والصبر، المثمر للتعاون على البر والتقوى، فلا يستدخل أصحاب الأهواء والبدع المحققة. قال، -رحمه الله-: (ومن أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل العلم، ألا يجعلوا الاختلاف بينهم في المسائل الدينية، التي لا يخرج المخالف فيها إلى البدع أو الشرك، سببًا وداعيًا إلى التفرق وتشتيت القلوب، وموجبًا للقدح والطعن بسببها، والموالاة والمعاداة عليها، فإن هذا ظلم وتعدٍ لا يحل بإجماع المسلمين، فما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين، فمن بعدهم يختلفون في مسائل الدين، ولا ينكر بعضهم على بعض، ولا يوجب بعضهم على بعض أن يتَّبعه وإلا ضلله! فإن هذه مرتبة لا تصلح إلا للرسل؛ فهم الذين يُضلل مخالفهم، وأما من عداهم فلم تضمن له العصمة)[1].

المعلم العاشر: التأليف والنشر

توفرت المطابع في القرن الرابع عشر الهجري، وجرى طباعة كثير من الكتب وتداولها في البلاد الإسلامية. وقد اغتنم الشيخ هذا الفتح الرباني في نشر علمه، ونفع المسلمين، رغم قلة ذات يده، وصعوبة المراسلات والاتصالات. وكان يتابع طباعة مؤلفاته ونشرها بنفسه. ومن جملة ما استعمله في الرد على المخالفين

---

(١) الحث على اجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف. تحقيق: عبدالله المسلم. (ص: ٣٣-٣٤)، ط: دار التوحيد. الأولى ١٤٢٩هـ. وانظر أيضًا: مجموع مؤلفات السعدي: ٢٦/ ٧٦) ط: الميمان.

المتمحضين للباطل، تأليف الردود المفحمة، في رد شبهاتهم وإلحادهم.

فحين نشر المرتد عبدالله بن علي القصيمي كتابه (هذه هي الأغلال)، أحدث دويًا في المنطقة العربية المتاخمة؛ مصر والشام ولبنان والعراق والجزيرة العربية، وطفق دعاة الإلحاد والشيوعية يبثونه في أوساط الناس، وضاقت صدور المؤمنين، سيما ومؤلفه ممن كان ينتسب للعلم والتوحيد، وله في ذلك صولات وجولات.

وكان السعدي، -رحمه الله-، يرى ضرورة (الأمن الفكري)، و (الحجر الصحي) لصيانة العقول من نشر دعايات الكفر والإلحاد، وأن ذلك من جملة الأحكام السلطانية، فقد قال، بعد تعريف بمضامين «الأغلال»: (فنؤمل أن حكومتنا يوفقها الله تعالى للمنع الصارم لتسرب نسخ هذا الكتاب للمملكة، وإن كان - ولله الحمد والمنة - في المشايخ والمتبصرين بركة بإيقاف الأغرار على ما في كتابه من الأمور الضارة في الدين، ولكن على كل حال، إبعاد مثل هذا الكتاب عن المملكة أهون شرًا، لأنه يوجد شبيبة لا رأي لهم، ويرغبون في الكتب العصرية، وقراءة الصحف، فخطره عظيم على أمثال هؤلاء. ونرجو الله أن يقمع الملحدين، وأن ينصر دينه وكتابه وعباده المؤمنين، إنه جواد كريم)[(١)]

غير أن الشيخ، -رحمه الله-، لم يكتف بالأسى والتهويل، بل امتشق قلمه، وسنَّه على القرطاس، وأخرج ردًا علميًا ماحقًا لشبهات القصيمي، سماه: (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله) ، ثم أردفه بكتاب آخر سماه: (الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين).

كما ألف رسائل أخرى في التحذير من النوازل العقدية والفكرية، مثل: (النصيحة الربانية في الرد على المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية) وتسمى

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ١٥٢-١٥٣).

أحيانًا: (انتصار الحق).

وكما كان الشيخ حريصًا على التأليف والطباعة، كان حريصًا على النشر، وإيصال الكتاب إلى ذوي الشأن في الآفاق؛ ففي رسالة بعث بها إلى تلميذه ابن عقيل، رحمهما الله، يقول: (أحسنت الإفادة عن كتاب الرد على القصيمي، وحنا[١] أرسلنا بعدك للشيخ محمد[٢] نسخةً، والبعض الأمراء على نسخة منه، ولا بقي من الذي عندنا إلا نسخةً جعلناها في المكتبة، لأني أرسلت لبريدة نسخةً للشيخ ابن حميد، ونسخةً لمكتبة بريدة. والشيخ محمد نصيف، جانا منه مراجعة، يقول إن الكتاب على وشك النفاد، أو قد نفد، لأنه فُرِّق في الخارج)[٣].

وقد كتب الله لتراث الشيخ، -رحمه الله-، القبول والانتشار، وقرئت كتبه في المساجد والمحافل، وشرحت في الدروس والدورات العلمية، وألفت الرسائل الجامعية، وغيرها، في جوانبها المختلفة. وما ذاك، والله أعلم، إلا لصدق نيته، وكمال نصحه وشفقته، واهتمامه بأمر المسلمين.

---

(١) لهجة عامية، تعني: ونحن.

(٢) يريد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مفتي الديار السعودية. -رحمه الله-.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة. (ص: ١٥٥- ١٥٦).

الخاتمة

لقد كان الشيخ الإمام عبدالرحمن بن ناصر السعدي، -رحمه الله-، مدرسة في العلم والتربية، معًا، يصدق فيه قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، [آل عمران: ٧٩]. استعمله الله تعالى في القرن الرابع عشر الهجري، الذي كان فترة مخاض عصيبة، ومنعطفًا خطيرًا في تاريخ الأمة الإسلامية، فهداه لأحسن القول والعمل. وقدم، -رحمه الله-، فقهًا دقيقًا، وفهمًا عميقًا لمواجهة النوازل العقدية، والتعامل مع المخالفين، على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم. كما يصدق عليه وصف شيخ الإسلام ابن تيمية، -رحمه الله-، حين وصف أهل السنة والجماعة، فقال: (وأئمة السنة والجماعة، وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة، سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج عنها- ولو ظلمهم- كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾، [المائدة: ٨]، ويرحمون الخلق، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يقصدون لهم الشر ابتداءً، بل إذا عاقبوهم، وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم، كان قصدهم بذلك بيان الحق، ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا)[١].

لقد جمع الشيخ عبدالرحمن السعدي كمالات إيمانية، وعلمية، وخلقية عدة، كما أنه التزم منهجًا صارمًا في تكييف النازلة العقدية؛ من حيث التثبت والتبين،

---

(١) الاستغاثة في الرد على البكري. شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق: محمد علي عجال. ط: مكتبة الغرباء. الأولى ١٤١٧هـ.

ومن حيث التعويل على النص والدليل، والرد إلى الكتاب والسنة عند التنازع، واعتضد بالحجة العقلية المقنعة، ثم أتبع ذلك بمنهج خلقي رفيع من حيث التعامل مع المخالف، فالتزم العدل والإنصاف، واستعمل الرفق والنصح، وتحلى بعفة اللسان، والبعد عن المهاترات، غير أنه نزل الناس منازلهم، فأغلظ على من يستحق الغلظة والمخاشنة. وكان أثناء ذلك يلحظ مقصدًا عظيمًا من مقاصد الشريعة؛ وهو جمع الكلمة، والبعد عن الفرقة، ثم توَّج جهوده هذه بالسعي، ما أمكنه، لطباعة كتبه ونشرها في الخافقين، ليحصل بها عموم النفع.

ولو أن طلبة العلم والدعاة تفطنوا لهذه المعالم العظيمة لاندفع شر عظيم، وارتفع بلاء مقيم، يقطع أوصال الأمة، ويحيلها شيعًا وأحزابًا. فنسأل الله، بمنه وكرمه، أن يغفر للشيخ عبدالرحمن السعدي، ويرفع درجته في المهديين، وينفع بعلمه ومنهجه سائر المسلمين. والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١. الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، عناية وتعليق: هيثم الحداد. إشراف الشيخ: عبدالله بن عقيل ، ط: الثانية، دار المعالي، ودار ابن الجوزي. ١٤٢٠ هـ.

٢. الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، عبدالرحمن بن ناصر السعدي. ط: مكتبة المعارف. ١٤٠٢هـ.

٣. إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب بطريق مرتب على السؤال والجواب، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ط: دار أشبيليا.

٤. الاستغاثة في الرد على البكري. شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق: محمد علي عجال. ط: الأولى، مكتبة الغرباء. ١٤١٧هـ.

٥. أصول العقائد الدينية، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل العقيل، ط: الأولى، دار ابن الجوزي، ١٤٢٤هـ.

٦. البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوه كماله، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق : باسل الرشود. ط: الأولى، دار ابن الجوزي. ١٤٢٩هـ.

٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، عناية: سعد الصميل، ط: الأولى، دار ابن الجوزي، ١٤٢٢هـ.

٨. الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، ط: الثانية، الرياض، دار السلام ، ١٤٢١هـ.

٩. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، مسلم ابن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري،ط: الثانية، الرياض، دار السلام، ١٤٢١هـ.

١٠. الحث على اجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالله المسلم، ط: الأولى، دار التوحيد. ١٤٢٩هـ.

١١. رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج، د. أحمد القاضي. ط: الأولى، دار ابن الجوزي. ١٤٢٤هـ.

١٢. روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين. محمد بن عثمان القاضي. ط: الأولى، مطبعة الحلبي، ١٤٠٣هـ.

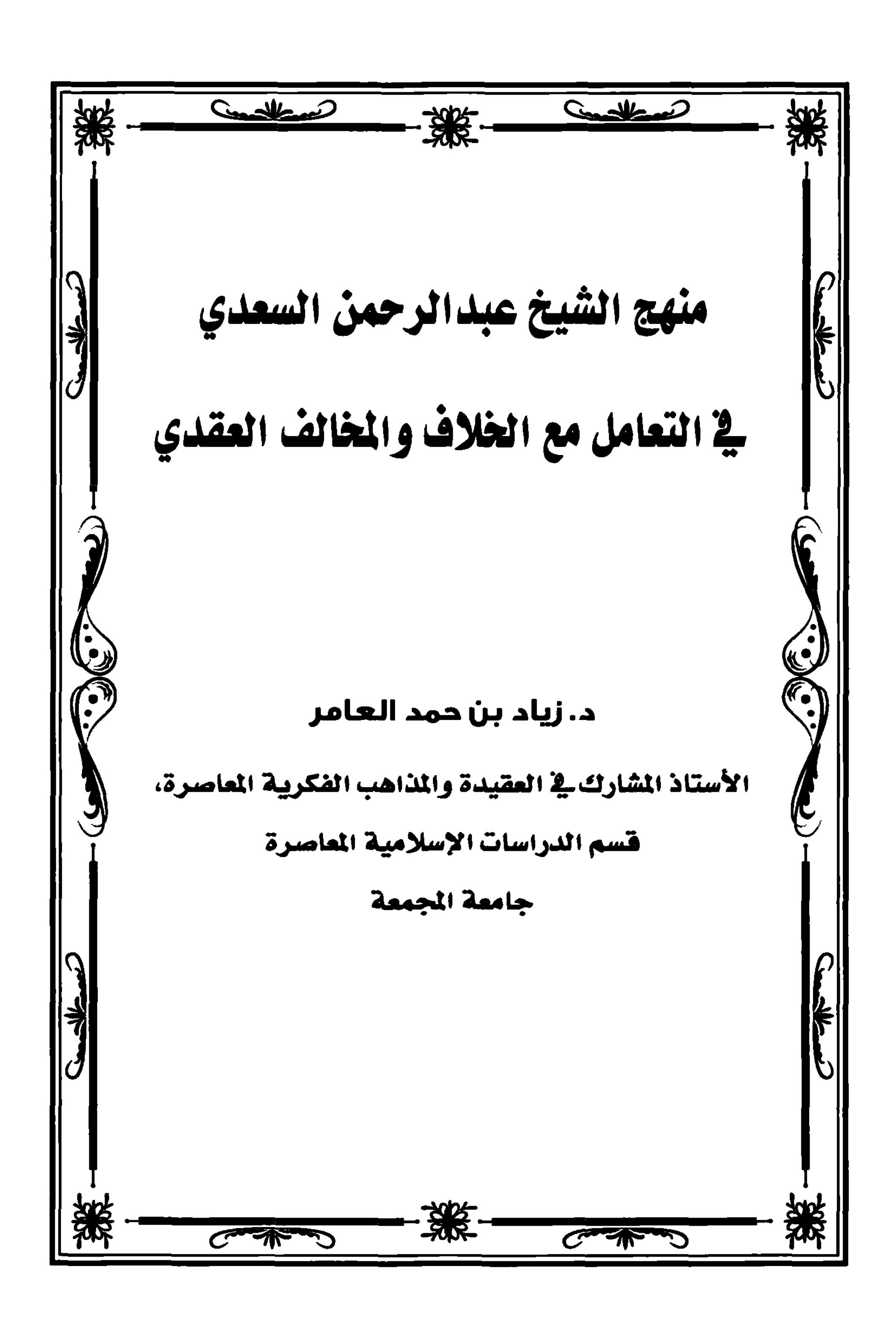
١٣. الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم. غازي التوبة. ط: الثالثة، دار القلم، ١٩٧٧هـ.

١٤. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ .

١٥. مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، عناية: سعد الصميل، ط: الأولى، دار ابن الجوزي، ١٤١٨هـ.

١٦. مجموع مؤلفات السعدي، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ط: الأولى، دار الميمان ١٤٣٢هـ.

١٧. مجلة المنار ، مجلد (٢٩)، جمادى الثانية ١٣٤٧هـ



منهج الشيخ عبدالرحمن السعدي

في التعامل مع الخلاف والمخالف العقدي

د. زياد بن حمد العامر

الأستاذ المشارك في العقيدة والمذاهب الفكرية المعاصرة،

قسم الدراسات الإسلامية المعاصرة

جامعة المجمعة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن من أكبر المسائل السابقة والمعاصرة التي كانت سبباً في جمع أو تفريق كلمة المسلمين هو فقه التعامل مع الخلاف العقدي، ذلك أن التقصير في معرفة درجة الخلاف ما يسوغ منه وما لا يسوغ، وكيفية التعامل معه، هو سبب لكثير مما يقع من جهل تارة، وبغي وظلم تارات، ومن أعلى ما يُجَلِّي أهمية فقه الخلاف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتضرع إلى ربه، ويسأله الهداية في مواطن الخلاف والنزاع، فقد كان إمام المهتدين عليه الصلاة والسلام يفتتح صلاته في الليل بقوله: (اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[1].

وممن كانت له جهود واضحة في بيان الموقف من الخلاف العقدي الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، فرغبت في بيان منهجه في ذلك، ولذلك كان هذا البحث بعنوان/ منهج الشيخ عبدالرحمن السعدي في التعامل مع الخلاف والمخالف العقدي

وقد انتظم سلك هذا البحث كما يلي:

* مقدمة.
* تمهيد: بيان مفردات عنوان البحث.
* المبحث الأول: بيان مراتب الخلاف العقدي.
* المبحث الثاني: منهج السعدي في التعامل مع المخالف من أهل السنة.

(١) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠).

* المبحث الثالث : منهج السعدي في التعامل مع المخالف من أهل القبلة.
* المبحث الرابع : منهج السعدي في التعامل مع المخالف من غير المسلمين.
* الخاتمة : وفيها أهم النتائج وتوصيات البحث.

هدف البحث :

يمكن إجمال هدف البحث في بيان منهج الشيخ عبدالرحمن السعدي في تحرير مراتب المخالفين والخلاف العقدي، ومنزلة كل مرتبة، وفقه التعامل مع كل مرتبة، وبيان ما يترتب على ذلك.

الدراسات التي لها علاقة بالموضوع :

لم أقف على دراسة خاصة في هذا الموضوع، وهناك دراسة عامة تتعلق ببيان جهود السعدي في توضيح أركان الإيمان، وهي رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة، بعنوان (الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة) للدكتور عبدالرزاق العباد، وهي مساهمة نافعة في بابها.

منهج البحث :

يقوم منهج هذا البحث على الاستقراء والتتبع لمنهج الشيخ عبدالرحمن السعدي في التعامل مع المخالف والخلاف العقدي، والاقتصار على بيان منهج الشيخ السعدي دون الدخول في تفاصيل المسائل عند أهل السنة، وذلك لموافقته منهجهم، ورغبة في الاختصار مراعاة للوفاء بشروط المؤتمر في عدد الصفحات، ثم قمت بصياغة هذا المنهج في مباحث متناسبة بحيث يُستفاد منها في تأصيل التعامل مع الخلاف العقدي والحكم عليه.

أسأل الله فيه التوفيق والسداد، وأن يكون إضافة علمية في الدراسات الشرعية، ونواة لدراسات أوسع في هذا الباب.

تمهيد : بيان مفردات عنوان البحث:

المراد بالمنهج : النون والهاء والجيم أصل يدل على الطريق الواضح البين [1]، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨]، وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: (... بينما أنا نائم، إذ أتاني رجل، فقال لي: قم، فأخذ بيدي فانطلقت معه، قال: فإذا أنا بجواد عن شمالي، قال: فأخذت لآخذ فيها، فقال لي لا تأخذ فيها فإنها طرق أصحاب الشمال، قال فإذا جواد منهج [2] على يميني، فقال لي: خذ ها هنا...)[3].

المراد بالخلاف : الخلاف هو التغاير وعدم الاتفاق.

وذلك أن (الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة: أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني خلاف قدام، والثالث التغير)[4].

والمراد هنا هو الأصل الثالث وهو التغير.

ولذلك يُقال : (خالفتَه مخالفةً وخلافاً وتخالف القوم واختلفوا إذا ذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضد الاتفاق، والاسم الخُلف بضم الخاء)[5].

المراد بالعقدي : العقدي والعقيدة بمعنى واحد، والعقيدة اسم فعيلة من عقد،

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٦/ ٤١)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٣٦١)، لسان العرب لابن منظور(٢/ ٣٨٣).

(٢) أي طريق واضح.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٤٨٤٢).

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٢١٠).

(٥) المصباح المنير للفيومي (١/ ٨٧١).

وهو الشد والربط والجزم.

قال ابن فارس : (العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها... وعقد قلبه على كذا، فلا ينزع عنه) [1].

وقال الفيومي : (اعتقدت كذا : عقدت عليه القلب والضمير، حتى قيل : العقيدة: ما يدين الإنسان به، وله عقيدة حسنة: سالمة من الشك) [2].

وذكر بعض أهل العلم أن لفظة العقيدة لم ترد في نصوص الكتاب والسنة [3]، ويمكن أن يُستدرك على ذلك [4] بحديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يعتقد قلب مسلم على ثلاث خصال، إلا دخل الجنة)، قال: قلت: ما هن؟ قال: (إخلاص العمل، والنصيحة لولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) [5].

والمراد بالعقيدة في هذا البحث العقيدة الإسلامية، ويمكن تعريفها بأنها (ما يشد ويربط الإنسان قلبه عليه من أصول الإيمان وما يلحق بها).

المراد الإجمالي لعنوان البحث : بناء على ما سبق يكون المراد الإجمالي لعنوان البحث هو :

(الطريقة الواضحة التي استخدمها الشيخ عبدالرحمن السعدي في التعامل مع الطوائف والمسائل التي حصل فيها تغاير وعدم اتفاق مما له تعلق بما يشد ويربط

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٧١٤).

(٢) المصباح المنير (٢/ ١٢٤).

(٣) ينظر : معجم المناهي اللفظية لبكر أبو زيد (ص ٦٦٦).

(٤) ينظر : الانتصار للشيخ عبد المحسن العباد (ص ٣٢).

(٥) أخرجه الدارمي في مسنده رقم (٥٣٢) وقال المحقق : إسناده صحيح .

الإنسان قلبه عليه من أصول الإيمان وما يلحق بها).

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا العناية بمراتب الخلاف العقدي عند أهل السنة، وذلك أن الأصول العقدية هي التي يترتب على مخالفتها التضليل، بخلاف المسائل غير الأصول، ومن الأصول التي يضلل فيها المخالف عامة مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، من أمثال تحريم تقديم غير أبي بكر الصديق عليه في الخلافة أو الفضل [1]، وكذلك (سائر الأمور المعلومة بالاضطرار عند أهل العلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان غيرهم يشك فيها أو ينفيها: كالأحاديث المتواترة عندهم في شفاعته، وحوضه، وخروج أهل الكبائر من النار، والأحاديث المتواترة عندهم: في الصفات، والقدر، والعلو، والرؤية، وغير ذلك من الأصول التي اتفق عليها أهل العلم بسنته كما تواترت عندهم عنه؛ وإن كان غيرهم لا يعلم ذلك، كما تواتر عند الخاصة - من أهل العلم عنه - الحكم بالشُّفْعة، وتحليف المدعى عليه، ورجم الزاني المحصن، واعتبار النصاب في السرقة، وأمثال ذلك من الأحكام التي ينازعهم فيها بعض أهل البدع، ولهذا كان أئمة الإسلام متفقين على تبديع من خالف في مثل هذه الأصول.

بخلاف من نازع في مسائل الاجتهاد التي لم تبلغ هذا المبلغ في تواتر السنن عنه: كالتنازع بينهم في الحكم بشاهد ويمين، وفي القسامة، والقرعة، وغير ذلك من الأمور التي لم تبلغ هذا المبلغ) [2]، وكذلك مسألة المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما [3]، (وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلي - ليست من

---

(١) مجموع الفتاوي لابن تيمية (٣/ ٣٥١، ٤/ ٥٢٤).

(٢) مجموع الفتاوي لابن تيمية (٤/ ٥٢٤).

(٣) مجموع الفتاوي لابن تيمية (٤/ ٥٢٤).

الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي « مسألة الخلافة »)[1].

(١) مجموع الفتاوي لابن تيمية (٣/ ٣٥١).

المبحث الأول : بيان مراتب الخلاف العقدي.

يتضمن الكلام في هذا المبحث أهمية النظر في الخلاف العقدي، ومراتب الخلاف العقدي والمخالفين، وما يترتب على ذلك، ومنهجية التعامل مع هذه المراتب.

وبناء على ذلك سيكون الكلام في هذا المبحث مرتباً في المطالب التالية:

المطلب الأول: بيان أهمية النظر في الخلاف العقدي وطرق الجواب عنه:

يقرر السعدي أن معرفة الخلاف العقدي، ومذاهب المخالفين لأهل السنة، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة، كل ذلك متضمن للفقه في الدين، ومصداق ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله بـه خيرا يفقهه في الدين) [١]، ولذلك كان (هذا الحديث من أعظم فضائل العلم، وفيه: أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأنّ الله أراد به خيراً.

والفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأحكام، وحقائق الإحسان. فإن الدين يشمل الثلاثة كلها،... فيدخل في ذلك التفقه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهراً وباطناً، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة) [٢].

ولذلك كان من معالم منهج السعدي أن بيان ضلال الكفار والمنافقين، وكذا

---

(١) أخرجه البخاري رقم (١٧)، ومسلم رقم (٧٣٠١).

(٢) بهجة قلوب الأبرار للسعدي (ص ٢٣).

المخالفين ولو كانوا مسلمين يعتبر من الجهاد في سبيل الله، (فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوْعَي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين)[1].

المطلب الثاني: مراتب الخلاف العقدي والمخالفين:

يتضح منهج السعدي في تعامله مع الخلاف العقدي في بيان مراتب الخلاف العقدي، وبيان مراتب المخالفين، وسيكون الكلام في هذا المطلب على جانبين:

الأول: مراتب الخلاف العقدي:

يتضح منهج السعدي في تعامله مع مراتب الخلاف العقدي بتقريره أنه نوعان :

الأول: خلاف سائغ ولا يُضلل المخالف فيه، كمسألة المفاضلة بين عثمان وبين علي رضي الله عنهما، ونحو ذلك من المسائل الخفيفة التي هي من جنس مسائل الاجتهاد.

الثاني: خلاف غير سائغ ويُضلل المخالف فيه، وذلك من جنس المخالفة في مسائل صفات الله والقدر والإيمان ونحوها.

ولذلك يقول رحمه الله : (الخلاف الكائن بين الأمة على وجهين:

أحدهما: الخلاف في الفروع والمسائل الاجتهادية التي إذا اجتهد فيها الحاكم من قاض ومفتٍ ومصنف ومعلم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

---

(١) تفسير السعدي (ص ٦٣٦).

الوجه الثاني: الخلاف في المسائل الأصولية، كمسائل صفات الباري والقدر والإيمان ونحوها، وهذا يضلل فيها المخالفون لما دل عليه الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

فمسألة الخلافة وتقديم علي على عثمان فيها يُعَدُّ من البدع التي من اعتقدها فهو في الغالب متشيع، وقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، كما قال ذلك غير واحد من السلف.

وأما التفضيل بينهما: فإنها مسألة خفيفة من جنس مسائل الخلاف في المسائل الاجتهادية)[1].

ومن معالم منهجه في بيان مراتب الخلاف العقدي: أن المخالفة الكفرية تستوجب البراء في الدين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الممتحنة:١] اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الممتحنة:١] أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعتها النصرة والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر وليـاً، عادم المروءة أيضا، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟! ومما يدعو المؤمن أيضا إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم،

---

(١) التنبيهات اللطيفة للسعدي (ص ٦١١).

وزعموا أنكم ضلال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول من رده وفساده)[1].

الثاني: مراتب المخالفين:

يتضح منهج السعدي في تعامله مع مراتب المخالفين بتقريره أن المنتسبين للإسلام على مراتب بحسب درجه إيمانهم بالقرآن، وذلك (أن المؤمنين بالقرآن على قسمين: كاملين، وناقصين.

أما الكاملون: فإنهم أقبلوا على القرآن فتفهموا معانيه، ثم آمنوا بها واعتقدوها كلها، وتخلقوا بأَخلاقها، وعملوا بما دل عليه امتثالًا لأوامره واجتنابًا لنواهيه، ولم يفرقوا بين نصوصه كحال أهل البدع الذين آمنوا ببعض دون بعض.

وأما الناقصون: فهم قسمان:

قسم مبتدعون، وقسم فاسقون ظالمون.

أما المبتدعون: فكل من ابتدع بدعة ترك لها شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله، وهؤلاء على مراتبهم في البدعة بحسب ما خالفوا فيه.

وأما الفاسقون فهم الذين عرفوا أنه يجب عليهم الإيمان بالكتاب والعمل به، فاعترفوا بذلك ولكن أعمالهم ناقضت أقوالهم فتجرؤوا على مخالفة الكتاب بترك كثير من واجباته والاقتحام على كثير مما نهى عنه من غير أن يجحدوا، ولكن نفوسهم الأمارة بالسوء غلبتهم واستولت عليهم.

---

(١) تفسير السعدي (ص ٥٥٨).

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن آمن بكتابه إيمانًا صحيحًا حتى نكون لجميع نصوصه معتقدين، ولأوامره ونواهيه خاضعين، إنه جواد كريم)[1].

ولذلك كان من معالم منهجه أن (المخالف الذي يترك الحق عن جهل أقرب للتوبة ممن يتركه عن معرفة به، فلهذا قال تعالى عنهم : ﴿ ﴾ [البقرة:١٨] أي: عن سماع الخير، ﴿بُكْمٌ﴾ [البقرة:١٨] أي: عن النطق به، ﴿عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨] عن رؤية الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨] لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعا منهم)[2].

وكان من معالم منهجه بيان أن بعض المخالفين مطبوع على قلوبهم فلا يهتدون إلى الحق ولو جاءتهم كل آية، ولذلك ذكر من الفوائد في خلاصات التفسير والجمع بين النصوص:

(فائدة: قد أخبر الله في عدة آيات بهدايته الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وتوبته على كل مجرم، وأخبر في آيات أُخر أنه: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:١٠٨].

فما الجمع بينها؟ فيقال: قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦]، هي الفاصلة بين من هداهم الله ومن لم يهدهم، فمن حقت عليه كلمة العذاب - لعنادهم، ولعلم الله أنهم لا يصلحون للهداية، بحيث صار الظلم والفسق وصفا لهم، ملازما غير قابل للزوال، ويعلم

---

(١) التنبيهات اللطيفة للسعدي (ص ٣٨).

(٢) تفسير السعدي (ص ٤٤).

ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق -، فهؤلاء يطبع الله على قلوبهم فلا يدخلها خير أبدا، والجرم جرمهم، فإنهم رأوا سبيل الرشد فزهدوا فيه، ورأوا سبيل الغي فرغبوا فيه، واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) [١].

المطلب الثالث: آثار التفريق بين مراتب الخلاف العقدي:

وبيان ذلك يكون بما يترتب على كل مرتبة مما تستحقه من الأحكام، ذلك أن من معالم منهج السعدي وزن الخلاف العقدي بميزان الشرع، فالخلاف في المسائل الاجتهادية الخفية لا ينبغي أن يكون سبباً للفرقة والاختلاف وتضليل المخالف، فإن (أكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلْغَى ويُبْنَى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية أو فروع خلافية يضلل بها بعضهم بعضا، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟) [٢].

وكان من معالم منهجه بيان أن المسائل المختلف فيها قسمان:

(١/ مجمع عليها، فتحتاج إلى تصور وتصوير، وإلى إقامة الدليل عليها، ثم يحكم عليها بعد التصوير والاستدلال.

٢/ وقسم فيها خلاف، فتحتاج - مع ذلك - إلى الجواب عن دليل المنازع.

(١) تيسير اللطيف المنان للسعدي (١/ ٨١٣).

(٢) تفسير السعدي (ص ١٤٦).

هذا في حق المجتهد والمستدل، وأما المقلد فوظيفته السؤال لأهل العلم...

فالقادر على الاستدلال عليه الاجتهاد والاستدلال، والعاجز عن ذلك عليه التقليد والسؤال، كما ذكر الله الأمرين في قوله تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}) [1].

ومن معالم منهجه العدل والتوازن في التعامل مع أخطاء أهل العلم، فإنه (لو فرض أن ما أخطأوا أو عثروا ليس لهم تأويل و لا عذر، لم يكن من الحق والإنصاف أن تُهدر المحاسن وتُمحى حقوقهم الواجبة بهذا الشيء اليسير، كما هو دأب أهل البغي والعدوان، فإن هذا ضرره كبير وفساده مستطير، أي عالم لم يخطئ وأي حكيم لم يعثر ؟) [2].

المطلب الرابع: منهجية التعامل مع الخلاف العقدي على اختلاف مراتبه:

يمكن بيان منهج السعدي في التعامل مع الخلاف العقدي من خلال ثلاث مراحل:

الأولى : قبل الخلاف العقدي :

وذلك ببيان أهمية السعي لجمع كلمة المسلمين، وتجنب البغي والعناد وغيرهما من أسباب الخلاف الذي هو سبب لتفرقهم، فمن معالم منهجه التحذير من الافتراق في الدين وأهله، ذلك أن الله توعدهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ

---

(١) رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه للسعدي ص ٧١١.

(٢) الرياض الناضرة للسعدي (ص ٦٩).

دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾ [الأنعام:١٥٩].

يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكلٌّ أخذ لنفسه نصيبا من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئا، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئا ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية.

وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم، فقال: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي﴾ [الأنعام:١٥٩] أي لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام:١٥٩] يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا﴾ [الأنعام:١٥٩]) (١).

وكان من معالم منهجه بيان أن من أسباب الخلاف المذموم هو البغي والعناد، والشك والارتياب، والظلم من العباد، واتباع الهوى، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾ [الشورى:١٤].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢٨٢).

(لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغترون بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيا وعدوانا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [الشورى:١٤] أي: بتأخير العذاب القاضي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤] ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ﴾ [الشورى:١٤] أي: الذين ورثوهم وصاروا خلفا لهم ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [الشورى:١٤] أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغيا وعنادا، فإن خلفهم اختلفوا شكا وارتيابا، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ [الشورى:١٥] أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه، من لم يقبله، ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ [الشورى:١٥] بنفسك ﴿كَمَآ﴾ [الشورى:١٥] أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالا لأوامر الله واجتنابا لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك)[١].

وكان من معالم منهجه التحذير من الخلافات التي لا ثمرة تحتها، ولا فائدة وراءها، ولذلك يقول في تفسير قوله تعالى: (﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ

---

(١) تفسير السعدي (ص ٥٥٧).

بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٢٢].

يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافا صادرا عن رجمهم بالغيب، وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم: من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم.

ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم.

وهذان القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانهما.

ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا -والله أعلم- الصواب، لأن الله أبطل الأولين ولم يبطله، فدل على صحته.

وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف:٢٢]، وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم. ﴿ فَلَا تُمَارِ ﴾ [الكهف:٢٢] أي: تجادل وتحاج ﴿ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ [الكهف:٢٢] أي: مبنيا على العلم واليقين، ويكون أيضا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إما أن يكون الخصم معاندا، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة، تضييعا للزمان، وتأثيرا في مودة القلوب بغير فائدة)[1].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٤٧٤).

الثانية: أثناء الخلاف العقدي:

وذلـك ببيـان المنهجية الصحيحـة في معالجة الخلاف العقـدي، ولذلك يقرر السـعدي بأن الخلاف العقدي له منهجية يجب السـير عليهـا للوصول إلى النتيجة التي ترضي الله سبحانه وتعالى، ويمكن إجمال المخرج من مأزق الخلاف العقدي بالالتجاء إلى الله في طلب الهداية، ثم فعل الأسـباب التي تقربه للحق وتبين سـبيله وطريقـه، وفي ذلـك يقول تعليقاً على أبيات من قصيدة ابن تيمية التائية في القدر، في بيان طريق النجاة من مخالفة القدر، وما ينجي المكلف من هذا المأزق الحرِج:

(هذه نصائح نفيسة من نصائح الشيخ، مسندة إلى الكتاب والسنة.

يقول: إذا كنت أيها العبد تريد نجاتك من عذاب الله والفوز بثوابه فاقصد ربك، متضرعا له آناء الليل والنهار، واسـأله أن يهديك الصراط المسـتقيم، ووطن نفسك للانقيـاد للحق، واقبله ممن قاله؛ وكن ممن يسـمعون القول فيتبعون أحسـنه، ودع عنك دين العادات، والاقتداء بأهل الغضب والضلال.

وأكْثِر من التدبر لكتاب الله وسـنة نبيه؛ ثم ما بان لك من الحق فاتبعه غير مبال بخلاف المخالفين.

واجعل كتاب الله وسـنة نبيه نصب عينيـك، وزن بهما أحوالك وأحوال غيرك؛ فإنهما الميزان العادل غير العائل، فإنك إذا فعلت ذلك، حصلت لك تباشـير الخير، وأمارات السعادة.

واتبـع ملة إبراهيـم حنيفا، مائـلا عن جميع الأديـان والبدع، إلـى دين محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن الله لا يقبل من أحد ديناً سوى الدين الذي ارتضاه لرسله وأتباعهم، حتى ختمهم بإمامهم وسـيدهم محمد صلى الله عليه وسلم؛ الذي جمع الله به وله من المحاسـن والكمالات، ما لم تجتمع في غيره وقد أخبر عن ربه أن من

اتبعه فهو المهتدي السعيد، ومن تولى عنه فهو الضال الطريد.

ثم قال: وهذا الذي بينته في هذه الأبيات؛ فيه الدلالة للحيران، والتفاصيل التي يحصل بها الفرقان، والهداية بيد الله؛ لكنه من أقبل على الله صادقا، وعمل بأسباب الهداية، فلا بد أن يقبله الله ويسلك به الصراط المستقيم)[1].

ومن معالم منهجه بيان المنهج الصحيح لأهل السنة والجماعة عند وقوع الخلاف، وأن طريقهم الكُلِّي في أخذ أصول الدين (أنهم سلكوا في ذلك الصراط المستقيم، والعصمة النافعة للكتاب والسنة، واتبعوا أعظم الناس معرفة وعلما واتباعا للكتاب والسنة، وهم الصحابة رضي الله عنهم عمومًا، والخلفاء الراشدون خصوصًا، فسلكوا إلى الله ذلك الطريق مستصحبين هذه الأصول الجليلة، وما جاءهم مما قاله الناس أو ذهبوا إليه من المقالات وزنوه بمعيار الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة؛ فاستقامت طريقتهم، وسلموا من بدع الأقوال المخالفة لما عليه الرسول وأصحابه في الاعتقادات، كما سلموا من بدع الأعمال، فلم يتعبدوا ولم يشرعوا إلا ما شرعه الله ورسوله)[2].

ومن معالم منهجه بيان أن المسائل المختلف فيها قسمان:

(١/ مجمع عليها، فتحتاج إلى تصور وتصوير، وإلى إقامة الدليل عليها، ثم يحكم عليها بعد التصوير والاستدلال.

٢/ وقسم فيها خلاف، فتحتاج - مع ذلك - إلى الجواب عن دليل المنازع.

هذا في حق المجتهد والمستدل، وأما المقلد فوظيفته السؤال لأهل العلم...

فالقادر على الاستدلال عليه الاجتهاد والاستدلال، والعاجز عن ذلك عليه

---

(١) الدرة البهية للسعدي (ص ٤٦).

(٢) التنبيهات اللطيفة للسعدي (ص ٨٢١).

التقليد والسؤال، كما ذكر الله الأمرين في قوله تعالى ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]) (١).

ومن معالم منهجه بيان أن سبيل الفصل عند الخلاف في أصول الدين هو الرد إلى الكتاب والسنة، ولذلك قال عند تفسيره لقوله تعالى: (﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٢١٣]وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق، يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يُرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه، وسنة رسوله، فصل النزاع، لما أمر بالرد إليهما.

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢١٣]من هذه الأمة {لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ}[البقرة:٢١٣]،فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطؤوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة {بِإِذْنِهِ}[البقرة:٢١٣]تعالى وتيسيره لهم ورحمته) (٢).

وذلك أن الله أنزل الكتاب ليحكم به الناس فيما يتنازعون فيه، كما قال

(١) رسالة لطيفة جامعة في أصول الفقه للسعدي (ص ٧١١).

(٢) تفسير السعدي (ص ٥٩).

تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥].

يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظًا في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشتملا أيضا على الحق، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس. وفي الآية الأخرى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام)[1].

ولذلك كانت آيات التحاكم تأمر بالحكم (بين الناس بالحق والقسط، هو الحكم بما أنزل الله، وهو الرد إلى الله ورسوله؛ فإن هذه الآيات يصدق بعضها بعضا؛ وتدل على أن الحق والعدل لا يخرج عما جاء به الرسول، وأن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام على الإطلاق، أي: أعدلها وأقومها وأصلحها وأحسمها للشرور، وأعظم أحكام توسل بها إلى تحصيل درء المفاسد، وأن رد مسائل النزاع والاختلافات الدينية والدنيوية إلى الله والرسول خير في الحال وأحسن عاقبة، وأن كلمات الله تمت وكملت من كل وجه صدقا في إخبارها، عدلا في أحكامها وأوامرها ونواهيها، فكل مسألة خارجة عن العدل إلى الظلم، وعن الصلاح إلى الفساد، فليست من الشرع، وقد جاء شرع الله محكم الأصول والفروع، موافقا

---

(١) تفسير السعدي (ص ٩٩١).

للمعقول الصحيح والاعتبار والميزان العادل)[1].

وتأكيد ذلك أن القرآن فيه البيان الذي يقطع كل اشتباه والتباس عند الخلاف، كما قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل:٧٦].

وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبين به الصواب من المسائل المختلف فيها.

وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مُشكِل كان أعظم نِعَم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر، ولهذا بين أن نفعه ونوره وهداه مختص بالمؤمنين)[2].

ومن معالم منهجه الأمر بالعدل مع المخالف في أصول الدين وفروعه ،كما قرر ذلك في كلامه على تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٨].

(﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ﴾ [النساء:٥٨]وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو.

والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من

---

(١) تيسير اللطيف المنان للسعدي (١/ ٣٦١).

(٢) تفسير السعدي (ص ٩٠٦).

الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به. ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨] وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه، لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى رسوله أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما.

فالرد إليهما شرط في الإيمان فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩] فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذَٰلِكَ﴾ [النساء:٥٩] أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩] فإن حكم الله ورسوله أحسن

الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم)[1].

ومن معالم منهجه في بحث الخلاف العقدي وجوب التسليم الكامل لحكم الله، وذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٤].

يخبر تعالى خبرا في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسلُ إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين تعظيم المطيع للمطاع.

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقا...

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمَن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها، فمَن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومَن تركه، مع التزامه فله

---

(١) تفسير السعدي (ص ٣٨١).

حكم أمثاله من العاصين)[1].

ومن معالم منهجه أنه إذا تبين الحق في المسألة فلا عبرة ولا مبالاة بكلام المخالفين فيها، ولذلك يقول: (وأكْثِر من التدبر لكتاب الله وسنة نبيه؛ ثم ما بان لك من الحق فاتبعه غير مبال بخلاف المخالفين)[2].

الثالثة: ما بعد حصول الخلاف العقدي وآثاره:

وذلك ببيان أن الخلاف الواقع بجميع أنواعه هو من تقدير الله، وبمشيئته وإرادته، حكمة بالغة، ولذلك لما أخبر الله (عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضا- بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال- ما اقتتلوا.

ولكن حكمته اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون)[3].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٤٨١).

(٢) الدرة البهية (ص ٦٦).

(٣) تفسير السعدي (ص ٣٥٩).

ومن معالم منهجه بيان مفاسد الاختلاف وما يترتب عليه من الضرر في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ﴾ [يونس:٩٣]

أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ﴾ [يونس:٩٣]من المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:٩٣]في الحق ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس:٩٣]الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:٩٣]بحكمة العدل الناشئ عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء، الذي يعرض لأهل الدين الصحيح.

وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرة عين اللعين.

وإلا فإذا كان ربهم واحدًا، ورسولهم واحدًا، ودينهم واحدًا، ومصالحهم العامة متفقة، فلأي شيء يختلفون اختلافًا يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم، بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم، لطفًا بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام)[1].

(١) تفسير السعدي (ص ٣٧٣).

ولذلك قال الله: {وَآتَيْنَاهُم}[الجاثية:١٧]أي: آتينا بني إسرائيل {بَيِّنَاتٍ}[الجاثية:١٧]أي: دلالات تبين الحق من الباطل {مِّنَ الأَمْرِ}[الجاثية:١٧]القدري الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رأوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[الجاثية:١٧]أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض والظلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية:١٧]فيميز المحق من المبطل والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره)[(١)].

ولبيان أثر التفرق بين المسلمين نتيجة الخلاف العقدي بجميع مراتبه، كان من معالم منهج السعدي تقرير أن من آثار الخلاف التفرق والمعاداة والاقتتال، كما بين ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ({وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [البقرة:٢٥٣] الموجبة للاجتماع على الإيمان {وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ}[البقرة:٢٥٣] فكان موجَب هذا الاختلاف: التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجَب، فلهذا قال: {وَلَكِنَّ

---

(١) تفسير السعدي (ص ٦٧٧).

اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيد}[البقرة:٢٥٣]فإرادته غالبة ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية)[١].

وذلك أن الله نهى (عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ}[آل عمران:١٠٥]ومن العجائب أن اختلافهم {مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ}[آل عمران:١٠٥]الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: {وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم}[آل عمران:١٠٥]) [٢].

ومن معالم منهجه تحذير المسلمين من مشابهة المشركين في تفرقهم في دينهم شيعاً، كما ذكر الله (حالة المشركين مهجنا لها ومقبحا، فقال: {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ}[الروم:٣٢]مع أن الدين واحد وهو إخلاص العبادة لله وحده وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود ومنهم نصارى.

ولهذا قال: {وَكَانُوا شِيَعًا}[الروم:٣٢]أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت على نصر ما معها من الباطل ومنابذة غيرهم ومحاربتهم.

{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ}[الروم:٣٢]من العلوم المخالفة لعلوم الرسل {فَرِحُون}[الروم:٣٢]به يحكمون لأنفسهم بأنه الحق وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير

---

(١) تفسير السعدي (ص ٩٠١).

(٢) تفسير السعدي (ص ٢٤١).

للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقا، كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد)[1].

ولذلك كان من معالم منهجه السعي في جمع كلمة المسلمين، وإزالة الأصل الباطل الذي كان سبباً في تفرقهم واختلافهم، (وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟)[2].

ومن معالم منهجه التذكير بأن الله هو الذي سيتولى الفصل بين العباد في خلافاتهم العقدية، كما قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [الزمر:٤٦] أي: خالقهما ومدبرهما. {عَالِمَ الْغَيْبِ}[الزمر:٤٦]الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، {وَالشَّهَادَةِ}[الزمر:٤٦]الذي نشاهده.

{أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون}[الزمر:٤٦]وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسووا فيك من لا يسوى شيئا، وتنقصوك غاية التنقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمأزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنى.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد}

(١) تفسير السعدي (ص ١٤٦).

(٢) تفسير السعدي (ص ١٤٦).

[الحج:١٧].

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ}[الحج:١٩] إلى أن قال: {إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}[الحج:٢٣].

وقال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[الأنعام:٨٢]، {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}[المائدة:٧٢] ففي هذه الآية، بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه بين عباده وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقه دال على علمه {أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك:١٤])[1].

(١) تفسير السعدي (ص ٦٢٧).

المطلب الخامس: منهجية الاستدلال في الرد على المخالفين عند السعدي:

سلك السعدي عدة طرق في تنوع الاستدلال عند تقرير مسائل الاعتقاد، أو الرد على المخالفين:

١) فمن معالم منهجه في التعامل مع استدلالات المخالفين: قلب الدليل على المخالف، وذلك أن (كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه)[١].

٢) ومن معالم منهجه محاججة المخالف طلباً للوصول إلى الحق وذلك أن (المحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها، أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت مماراة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت)[٢].

٣) ومن معالم منهجه بيان لازم قول المخالفين، ليتبين لهم شناعة قولهم، (وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَق الله الخَلْق لأجله، فضد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم

---

(١) تفسير السعدي (ص ٧٥).

(٢) تفسير السعدي (ص ٩٦).

يتضمن الاستهانة بآيات الله لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقا، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده)[1].

٤) ومن معالم منهجه القصد إلى العدل مع المخالف، والنظر في أدلته طلباً للهداية، وذلك أن على (الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحججُ والمقالاتُ، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضًا أن يبين ما لخصمه من الحجج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يُعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كِبْره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير)[2].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢١٠).

(٢) تفسير السعدي (ص ٥١٩).

المبحث الثاني : منهج السعدي في التعامل مع المخالف من أهل السنة.

ويقصد بهذا المبحث التمثيل على طريقة السعدي في التعامل مع المسائل العقدية التي يسوغ فيها الخلاف بين أهل السنة، من أمثال بعض فروع الاعتقاد كما سبق تقريره في المبحث السابق، فمن أمثلة المسائل العقدية التي يرى السعدي أنها مما يسوغ فيها الخلاف مسألة الشرك الأصغر هل يدخل في الذنوب التي هي تحت مشيئة الله في المغفرة ؟ أم أنه مثل الشرك الأكبر فلا يغفره الله ؟

فقال في ذلك:

(من لحظ إلى عموم الآية، وأنه لم يخص شركاً دون شرك، أدخل فيها الشرك الأصغر وقال: إنه لا يغفر بل لابد أن يعذب صاحبه، لأن من لم يغفر له لابد أن يعاقب.

ولكن القائلين بهذا لا يحكمون بكفره ولا بخلوده في النار وأنه يعذب عذاباً أبدياً - لأن هذا مذهب الخوارج المنحرفين - وإنما يقولون يعذب عذاباً بقدر شركه ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة.

وأما من قال إن الشرك الأصغر لا يدخل في الشرك المذكور في هذه الآية، وإنما هو تحت المشيئة، فإنهم يحتجون بقوله تعالى : {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}[المائدة:٧٢]، فيقولون كما إنه بإجماع الأئمة أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت هذه الآية التي حكم الله بها للمشرك بتحريم الجنة والخلود في النار فلا يدخل في تلك الآية، وكذلك لا يدخل في قوله تعالى : {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الزمر:٦٥]، لأن العمل هنا مفرد مضاف ويشمل الاعمال كلها، ولا يحبط الأعمال الصالحة كلها إلا الشرك الأكبر.

قالوا وإذا فارق الشرك الأكبر في تلك الأحكام السابقة بأنه لا يحكم عليه بالكفر والخروج من الإسلام ولا بالخلود في النار، فارقه في كونه مثل الذنوب التي دون الشرك، وأنه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه؛ ولان مشاركته للكبائر في أحكامها الدنيوية والأخروية أكثر من مشاركته للشرك الأكبر.

ويؤيد قولهم أن الموازنة واقعة بين الحسنات وبين السيئات التي هي دون الشرك الأكبر، لأن الشرك الأكبر لا موازنه بينه وبين غيره فإنه لا يبقى معه عمل ينفع.

وأما السيئات التي دونه فيقع بينها الموازنة مَنْ رجحت حسناته دخل الجنة بلا عذاب، ومن رجحت سيئاته على حسناته، استحق دخول النار بقدر ذنوبه، ومن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف الذين مآلهم إلى دخول الجنة.

ولكن الأولين قد يجيبون عن هذا: بأنه قد يُعذب صاحب الشرك الأصغر قبل الموازنة، إما في البرزخ، وإما قبل ذلك أو بعده في عرصات القيامة. فيقول الآخرون: وكذلك الكبائر قد يعذب صاحبها قبل الموازنة فتسقط الموازنة بها فلا يختص بذلك الشرك الأصغر، ومن تأمل الأدلة من الكتاب والسنة أمكنه أن يعرف الراجح من القولين) [1].

ومن تلك المسائل أيضاً الكلام عن الخضر هل هو نبي أم لا ؟

وقد اختار السعدي بأنه ليس نبياً وذكر أدلته على ذلك، ولم يشنع على المخالفين له من أصحاب القول الآخر، وذلك أن هذه المسألة مما يسوغ الخلاف فيه، ولذلك يقول رحمه الله في التفسير بعد ذكره لقصة الخضر في سورة الكهف:

---

(١) فتوى مخطوطة من السعدي إلى عبدالرحمن الحصين، عام ١٣٧٤ هـ بواسطة : كتاب الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في العقيدة (ص ١٩٤).

(وفي هـذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شـيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله...

ومنهـا: أن ذلـك العبـد الـذي لقياه، ليـس نبيا، بل عبـدا صالحـا، لأنه وصفه بالعبودية، وذكر منة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكر رسـالته ولا نبوته، ولو كان نبيا، لذكر ذلك كما ذكره غيره.

وأما قوله في آخر القصة: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}[الكهف:٨٢] فإنه لا يدل على أنـه نبي وإنما يدل على الإلهام والتحديث، كما يكـون لغير الأنبياء، كما قال تعالى {وَأَوْحَيْنَـا إِلَى أُمِّ مُوسَـى أَنْ أَرْضِعِيهِ}[القصص:٧]، {وَأَوْحَى رَبُّـكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُون}[النحل:٦٨])[1].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٢٨٤).

المبحث الثالث : منهج السعدي في التعامل مع المخالف من أهل القبلة[1].

ويقصد بهذا المبحث ذكر نماذج من تعاملات السعدي مع أهل القبلة، فتارة يبين خطأهم وضلالهم وفساد قولهم إجمالاً، وتارة يرد على استدلالاتهم مفصلاً.

فمن معالم منهجه في الموقف من المخالف من أهل القبلة هو بيان خطئه وضلاله فيما أخطأ فيه، ومن أمثلة ذلك قوله: (وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[الفاتحة:٤] وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعلٌ حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم} [الفاتحة:٦] لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك)[2].

وكذلك ما قرره في تفسيره لقوله تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}[مريم:٥٢].

({وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك.

وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا لمن أنكر ذلك، من الجهمية،

---

(١) المراد بأهل القبلة : هو من ظاهره الإسلام وهو (من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة، وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصي، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم). شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٢٤).

(٢) تفسير السعدي (ص ٤٠).

والمعتزلة، ومن نحا نحوهم)[1].

ومن أمثلة منهجه في بيان فساد قول المخالف من أهل القبلة، ما ورد في تفسيره لقول الله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُور}[البقرة:٢١٠]

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حُشي من الأهوال والشدائد والفظائع، ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحق به الجزاء السيء على المفسدين.

وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك وتعالى: {فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ} ليفصل بين عباده بالقضاء العدل.

فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهنالك يعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى، عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافا للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح

---

(١) تفسير السعدي (ص ٦٩٤).

في بيـان الله وبيان رسـوله، والزعم بـأن كلامهم هو الذي تحصل بـه الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسـنة، ظاهرها بـل صريحها، دال على مذهب أهل السـنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالتها على مذهبهم الباطل أن تُخرج عن ظاهرها ويُزاد فيها ويُنقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان) [١].

ومن أمثلة منهجه كذلك في الرد على المخالفين من أهل القبلة، وبيان خطئهم مـا ذكـره في قوله: (وفي قوله: {الَّتِـي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين}[آل عمـران:١٣١] ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السـنة والجماعـة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافا للمعتزلة، وفيها أيضاً أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار، لأنـه قـال: {الَّتِي أُعِـدَّتْ لِلْكَافِرِين}[آل عمـران:١٣١] فلو كان عصـاة الموحدين يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافا للخوارج والمعتزلة) [٢].

ويمكن ذكر مثال على خلاف أهل القبلة في مسـائل العقيدة التي لا تسـتوجب التكفيـر، بمـا يصنعه بعض أهـل القبلة من تسـليط التأويل علـى ظواهر النصوص الشرعية، كما يصنع ذلك الأشاعرة والماتريدية وغيرهم.

ومثال ذلك مسألة إثبات صفة (علو الله واستوائه على عرشه، وأن ذلك داخل في الإيمـان بـالله، وذلك لما حصل في هذه المسـألة من الاختـلاف والمخاصمات الطويلـة بين أهل السـنة والجماعة وبين طوائف الجهميـة والمعتزلة ومن تبعهم في هذه المسألة من الأشعرية ونحوهم.

فـإن مسـألة العلو صنفـت فيها المصنفـات المسـتقلة، وأورد أهل السـنة من

(١) تفسير السعدي (ص ٩٤).

(٢) تفسير السعدي (ص ٦٤).

نصوص الكتاب والسنة ما لا يمكن دفعه أو دفع بعضه، وحققوا ذلك بالعقل الصحيح، وأن الفطر والعقول معترفة بل ومضطرة إلى الإيمان بعلو الله، إلا من غَيرت فِطرته العقائدُ الباطلة) [1].

ومثال ذلك الخلاف مع الخوارج، فإن (من أصول أهل السنة والجماعة: أنه قد يجتمع في العبد خصال خير وخصال شر، وخصال إيمان وخصال كفر أو نفاق، ويستحق من الثواب والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك، وقد دلّ على هذا الأصل نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، فيجب العمل بكل النصوص، وتصديقها كلها.

وعلينا أن نتبرأ من مذهب الخوارج الذين يدفعون ما جاءت به النصوص: من بقاء الإيمان وبقاء الدين، ولو فعل الإنسان من المعاصي ما فعل، إذا لم يفعل شيئاً من المنكرات التي تخرج صاحبها من الإيمان، فالخوارج يدفعون ذلك كله، ويرون من فعل شيئاً من الكبائر ومن خصال الكفر أو خصال النفاق خارجاً من الدين، مخلداً في النار، وهذا مذهب باطل بالكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة) [2].

---

(١) التنبيهات اللطيفة للسعدي (ص ٥٧).

(٢) بهجة قلوب الأبرار للسعدي (ص ٦٢).

المبحث الرابع: منهج السعدي في التعامل مع المخالف من غير المسلمين.

كان منهج الشيخ عبدالرحمن السعدي واضحاً في الرد على غير المسلمين في مخالفتهم للدين الحق، وذلك من خلال عدة طرائق وأساليب فمن ذلك: بيان ضلالهم تارة، والرد عليهم تارة وإقامة الحجة عليهم، ومحاورتهم تارة أخرى، وتفصيل ذلك على ما يلي:

١ / الرد على الملاحدة في إنكارهم للغيبيات وبيان ضلالهم:

وذلك أنه قد ألف كتاباً في الرد على الملاحدة الذين ينكرون ما لا يدرك بالحواس من الغيبيات، وكان عنوانه «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين» وقد رد في هذا الكتاب على هؤلاء الملاحدة وبين ضلالهم من ثلاثٍ وثمانين وجهاً، ومن نماذج ردوده ومناقشته لهم في ذلك قوله:

(يقال لهؤلاء الملحدين المنكرين لأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله: لم أنكرتموها؟ فيجيبون بأنها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواس والتجارب. فيقال لهم: قدروا أنها لم تدخل في ذلك، فإن طرق العلوم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم فإنكم لا تزالون تبحثون وتُعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرات، فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها ويفترقون في مقدار الإدراك، فكيف تنفون بقية العوالم؛ عوالم السماوات، وعوالم الغيب، وما هو أعظم من ذلك من أوصاف رب العزة وعظمته، وأنتم لم يتصل شيء من علومكم بذلك؟ فإن هذا

النفي باطل بإجماع العقلاء، وإنما هذا مكابرة)[1].

٢ / التأليف في الرد على المرتدين وكشف تلبيسهم:

فقد كان من منهج الشيخ السعدي التأليف في الرد على المرتدين عن الإسلام وكشف تلبيسهم على أهل الإيمان، فمن ذلك ما جرى لعبدالله القصيمي وهو من المعاصرين للشيخ السعدي، حيث كان من المنتسبين للعلم عند أهل الإسلام، ثم إنه نكص على عقبيه وارتد عن الدين وأنكر الخالق، وتبرم من شرائع الدين واعتبرها أغلالاً، ثم إنه ألف كتاباً بعنوان «هذي هي الأغلال» يقصد أن أوامر الشريعة الإسلامية أغلالاً تُقيد الناس عن الحرية والتقدم والازدهار، فتصدى للرد عليه جماعة من أهل العلم منهم الشيخ السعدي في كتاب بعنوان «تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله»، وكان مما جاء فيه قوله:

(أما بعد:

فإني قد وقفت على كتاب صنفه عبد الله بن علي القصيمي سماه هذي هي الأغلال فإذا هو محتوٍ على نَبْذ الدين، والدعاية إلى نبذه، والانحلال عنه من كل وجه)[2]، ثم ذكر جملة من الردود عليه، إلى أن قال: (وقولٌ وصل إلى هذا الحد ليس بعده تقدم إلى الكفر، وإنما هو النهاية في الكفر والتعطيل، والجحود لرب العالمين، والخروج من الديانات السماوية كلها، وهو غاية الخروج من العقل والحس، فإن قضية الإيمان بالله ورسوله هي أكبر القضايا وأعظمها وأوضحها وأجلاها براهين وأدلة، وإثبات أنه هو الفعال لما يريد الخالق لكل شيء الذي يدبر

(١) الأدلة القواطع، للسعدي (ص ٤٢).

(٢) تنزيه الدين، للسعدي (ص ٢).

الأمور كلها)[1].

٣/ معالجة مشكلة الإلحاد عن طريق الحوار:

ذلك أنه ألف كتاب بعنوان «النصيحة الربانية في الرد على المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية»، وقد جرى فيه على طريقة حوار افتراضي بين شخص مسلم وهو الناصح وبين شخص متأثر بشبهات الإلحاد وهو المنصوح، ومما ورد في هذا الكتاب:

أن المتأثر بشبهات الإلحاد قال: (أريد أن توضح لي توضيحًا تامًّا بطلان ما عليه هؤلاء الملحدون، فإنهم يقيمون الشبه المتنوعة في ترويج قولهم ليغتر به من لا بصيرة له!

فقال له الناصح:

اعلم أن الحق والباطل متقابلان، وأن الخير والشر متنافيان، وبمعرفة واحد من الضدين يظهر حسن الآخر أو قبحه...)[2]، ثم شرع في بيان فساد حال الملحدين.

ومن أمثلة ردود السعدي على غير المسلمين قوله عند تفسير قول الله تعالى: ({الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}[البقرة:٣]حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد

(١) تنزيه الدين للسعدي (ص ٣١).

(٢) النصيحة الربانية للسعدي (ص ١٠٠).

إليه عقله وفهمه.

بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله)[1].

---

(١) تفسير السعدي (ص ٤٠).

الخاتمة وأهم التوصيات :

في ختـام هـذا البحث أحمد الله على ما وفق وأعان، وأشـير إلى أهم نتائج هذا البحث كما يلي :

١) موافقـة منهـج الشـيخ عبدالرحمن السـعدي لمنهج أهل السـنة في التعامل مع الخلاف العقدي.

٢) بيان جهود الشـيخ عبدالرحمن السـعدي في الرد على المخالفين مما لا يسوغ الخلاف فيه.

٣) بيان مراعاة الشـيخ عبدالرحمن السعدي لمراتب الخلاف العقدي، وما يترتب على ذلك من آثار.

٤) حرص الشيخ عبدالرحمن السعدي على جمع كلمة المسلمين ووحدة صفهم.

٥) تصـدي الشـيخ عبدالرحمن السـعدي لظاهـرة المذاهب الإلحاديـة في زمانه، وكشف شُبههم.

وأشير إلى التوصيات التالية :

١) الدراسة الموسعة في رسالة علمية لما يتعلق بمنهج وجهود الشيخ عبدالرحمن السـعدي في التعامـل مع مراتـب الخلاف العقـدي، ومراتـب المخالفين، وما يترتب على ذلك من آثار.

٢) أهمية ضبط حدود مراعاة حقوق المسلم للمخالفين من أهل القبلة.

٣) أهمية تمييز مراتب المخالفين، وإنزال أصحاب كل مرتبة في موضعهم.

٤) أهمية التصدي للظاهرة الإلحادية المعاصرة.

٥) الحـرص علـى جمع كلمة المسـلمين، ونبذ مـا يدعوا إلى فرقتهـم إلا ما دلت النصوص الشرعية على البراءة منه.



قائمة المراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، الطبعة: الأولى: ١٤٣٢ ه.

٣. الانتصار لأهل السنة والحديث في رد أباطيل حسن المالكي، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر، دار الفضيلة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الكريم بن رسمي ال الدريني، دار النشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.

٦. التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٧. تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ضمن مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، الطبعة: الأولى: ١٤٣٢ ه.

٨. تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث

العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٩. الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٠. شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

١١. الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في تقرير العقيدة، المؤلف: د عبدالرزاق البدر، الناشر: مكتبة الرشد، الطبعة: الثانية: ١٤١٤ ه.

١٢. صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣. صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٤. مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٥. مسند الدارمي المعروف بـ(سنن الدارمي)، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن

بـن الفضـل بن بَهرام بـن عبد الصمـد الدارمي، التميمـي السـمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسـين سليم أسـد الداراني، المغني للنشـر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٦. معجـم مقاييـس اللغـة، المؤلف: أحمد بن فـارس بن زكريـاء القزويني الرازي، أبو الحسـين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

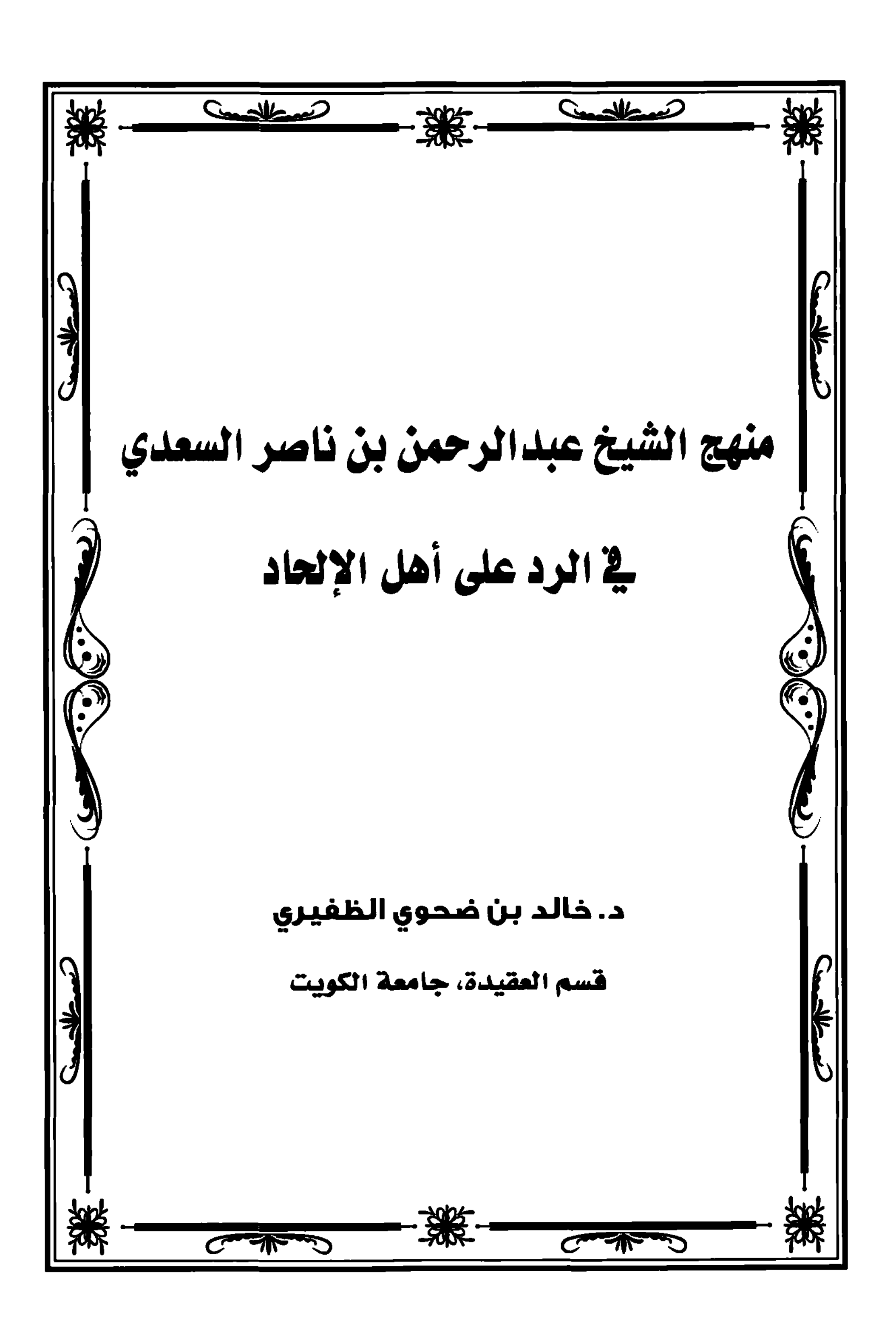
١٧. معجـم المناهي اللفظية وفوائـد في الألفاظ، بكر بن عبد الله أبـو زيد، (المتوفى: ١٤٢٩هـ)، دار العاصمة للنشـر والتوزيـع - الرياض، الطبعـة: الثالثة، ١٤١٧ هـ -١٩٩٦ م.

١٨. لسـان العرب، المؤلـف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضـل، جمال الدين ابن منظـور الأنصـاري الرويفعى الإفريقى (المتـوفى: ٧١١هـ)، الناشـر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

١٩. المصبـاح المنيـر في غريب الشـرح الكبيـر، أحمد بن محمد بن علـي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.

٢٠. النصيحـة الربانية في الرد على المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية (وله اسـم آخـر بعنـوان: انتصـار الحـق)، عبدالرحمن بن ناصر السـعدي، ضمـن مجموع مؤلفات الشـيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السـعدي، الناشـر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، الطبعة: الأولى: ١٤٣٢ هـ.





منهج الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي

في الرد على أهل الإلحاد

د. خالد بن ضحوي الظفيري

قسم العقيدة، جامعة الكويت

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

فخير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أمّا بعد:

فإن من أعظم أبواب الجهاد في سبيل الله تعالى هو جهاد القلم واللسان في الذب عن دين الرحمن، وملّة سيد الأنام محمد ﷺ، وتنزيه الإسلام وأهله من تأويلات الجاهلين وانتحال المبطلين، من أعداء الملة والدين، على شتى أنواعهم وأصنافهم، من ملاحدة هالكين، وأهل بدع منحرفين، وغيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبارات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين)[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٣١-٢٣٢).

وقال العلامة ابن القيم -رحمه الله-: (وأنت إذا تأملت تأويلات القرامطة والملاحدة والفلاسفة والرافضة والقدرية والجهمية، ومن سلك سبيل هؤلاء من المقلدين لهم في الحكم والدليل، ترى الإخبار بمضمونها عن الله ورسوله لا يقصر عن الإخبار عنه بالأحاديث الموضوعة المصنوعة، التي هي مما عملته أيدي الوضاعين وصاغته ألسنة الكذابين، فهؤلاء اختلقوا عليه ألفاظًا وضعوها، وهؤلاء اختلقوا في كلامه معاني ابتدعوها، فيا محنة الكتاب والسنة بين الفريقين! وما نازلة نزلت بالإسلام إلا من الطائفتين، فهما عدوَّان للإسلام كائدان، وعن الصراط المستقيم ناكبان وعن قصد السبيل جائران)، إلى أن قال: (فكشف عورات هؤلاء، وبيان فضائحهم، وفساد قواعدهم، من أفضل الجهاد في سبيل الله)[1].

ومن هذا الجهاد العلمي في الذب عن دين الله ما قام به العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- (ت:١٣٧٦هـ) من ردّ على أهل الباطل بأنواعهم خلال كتبه النفيسة، وقد حازت مؤلفاته على القبول عند أهل العلم، فتناقلوها وتدارسوها وحقّقوها وخدموها.

ومن تلك الكتب: ما ألفه -رحمه الله- في الردّ على أهل الإلحاد ونقض أصولهم ودفع شبهاتهم، بأسلوب راقٍ، مدجّج بالحجج الناصعة والبراهين الساطعة.

وذاك حين رأى انتشار الإلحاد وخطورته على الإسلام وأهله، يقول -رحمه الله-: (وصرنا في وقت القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر من كثرة الإلحاد والدعوة إليه وكثرة المعارضات الباطلة والميل بالكلية إلى الدنيا وزخارفها ورئاساتها، حتى صار كثير من الكتاب العصريين يدعون إلى عمارة الدنيا والإقبال بالقلب والقالب عليها ونسيان الآخرة، ويحرفون لذلك نصوص الكتاب والسنة،

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٠١، ٣٠٢).

فانحرفوا بهذا انحرافًا عظيمًا، وضلوا وأضلوا كثيرًا، وضلوا عن سبيل الله)[1].

والإلحاد مأخوذ من معناه اللغوي، وهو: الميل، فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط[2]. فحقيقة الإلحاد المقصود به هنا هو: ما تضمن جحد الخالق وجحد ربوبيته وأوصافه المقدسة، وذلك كفرعون ونحوه، وكالفلاسفة الذين يشتمل قولهم على جحد رب العالمين[3].

فظاهر قول الملاحدة هو إبطال الدين، ونقض الكتب والرسالات والبعث والجزاء والحساب[4]، ودعوةٌ إلى كلِّ خلق رذيل، بل الانحلال الكلي من الأخلاق، ودعوة إلى التبرج والسفور والفجور[5]، والانغماس في بحر الشهوات، وإطلاق السراح للنفوس، وأنه لا ينبغي أن تتقيد بشيء يصدّها عن تحصيل مآربها السفلية[6].

ودعوتهم إلى أنَّ الانسلاخ من الدين هو الحلّ الوحيد -في نظرهم- لرجوع الأمة إلى النهوض والرقي، قال السعدي في ردّه على القصيمي: (وهذا المفتري بعد المحاولة والمجادلة، وترديد الكلام والهذر الذي لا حاصل له زعم أنه انفرد بحلها، فاستنتج بعقله الجنوني وجراءته العظيمة أن حلَّها الوحيد، هو: أن ينبذ الناس الإيمان وراء ظهورهم، ويكونوا معانقين للطبيعة، منسلخين من الدين والشريعة

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٦٨).

(٢) التوضيح المبين (٦/ ٤٧١)، وقد نقله السعدي عن ابن القيم في بدائع الفوائد (١/ ١٦٩). وانظر: لسان العرب (٣/ ٣٨٩).

(٣) التوضيح المبين (٦/ ٤٧٩).

(٤) انظر: الرد على الزنادقة (٦/ ٨٦)، وتنزيه الدين (٦/ ١٦٦-١٦٧).

(٥) تنزيه الدين (٦/ ١٩٩).

(٦) تنزيه الدين (٦/ ١٨٦).

بالكليـة، وأنهم إذا فعلوا ذلك فقـد حلّوا هذا اللغز المعقد، وإن بقي عليهم بقايا من الإيمان فإنهم في قيود وأغلال قد تعذر عليهم النهوض والرقي)[1].

فأهـل الإلحاد هم أكبر أعداء الرسـل في كل زمان ومكان، وهم شـرار الخلق، الدعاة إلى الضلال والشقاء، فإنهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها، وزين لهم الشيطان علومهـم التي فرحوا بها واحتقـروا لأجلها ما جاءت به الرسـل[2]، وقوّضوا دعائم الخير والصلاح، واسـتبدلوا بها أصول الشر والفساد، والفوضى في العلوم والعقائد والأخلاق، ما لا منتهى لشره وضرره[3].

يقـول السـعدي -رحمـه الله-: (ومن أعجـب العجائب أن كثيـرًا من الكتاب العصريين والسياسـيين الذين يسـعون في معالجة كثير من مشـاكل الحياة ويطلبون حلها من جميع النواحي، ومشكلة الإلحاد الذي جرف بتياره أكثر الناشئة لم يسعوا في حلهـا ومداواتها بالرجوع إلى الإيمان الصحيح واليقين النافع والصلاح المطلق مـن جميع الوجوه، بل تركوهم في ضلالهم يعمهـون وفي غيهم يترددون، وازدادت المشـكلات التي يريدون حلها مشكلات أخرى تعذر حلها كما هو المأمول، فكل مشـكلات الحيـاة إذا لم تبن على الإيمـان والدين الصحيـح ازدادت تعقدًا وعظم ضررهـا وبعد خيرها، فلو أنهم أسسـوا معالجاتهم المتنوعة علـى الدين الصحيح، ووجهـوا النشء إلى عقيدته والتخلق بأخلاقه؛ لأثمرت مسـاعيهم كل زوج كريم، ولتوجهت الوجوه والأعمال إلى الخير والصلاح، وانصرفت عن الشـر والأضرار

(١) تنزيه الدين (٦/ ١٩٦).

(٢) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٧).

(٣) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ١٠).

والأعمال القباح، فالفساد لا يسود إلا إذا عدم الإيمان الذي ينافيه ولا يجامعه)[1].

بـل من خطـورة الإلحاد أنّه من أعظم معاول هدم الدوّل الإسـلامية، وتسـلّط الاسـتعمار الأجنبـي عليها، يقول السـعدي -رحمه الله-: (لما علم المسـتعمرون الملحـدون أن الإسـلام الحقيقـي والدين الإسـلامي أقوى حصن وأعظم سـلاح لمقاومتهـم، وقد عرفـوا ذلك من قديم الزمان، وحملوا حمـلات متنوعة، فرجعوا على أعقابهم مهزومين لم ينالوا خيرًا، وعرفوا حق المعرفة أنه من المحال السيطرة على الإسلام وعقائده وأخلاقه، فعملوا مؤامرات واسعة متنوعة، وساعدوها بالقوة، ودرسـوا الإلحاد في المدارس التي اغتفلـوا أهلها، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسـلام وما يدعو إليه من الأخلاق وما يحكم به من الأحكام، وقالوا: إنها رجعية ترجـع بالناس إلـى الوراء عن التقدم المطلوب، وأوجـدوا لهم من أرباب المطامع المأجوريـن ومـن البلهاء المغرورين من يسـتعينون به على مطلوبهـم، والتزهيد في الدين من كل وجه)[2].

وذكـر أن من أعظـم طرائق الملاحدة في تدمير الإسـلام هو تجنيـد أهله ممن يسـتجيب لهم؛ ليكونوا معاول هـدم للدين وبلدان المسـلمين، وكان هذا من أكبر النكبات التي أصيب بها المسلمون، ومن أكبر السلاح لأعداء الإسلام[3].

ولابد من معرفة أسباب تغلغل هذا الإلحاد في أهل الإسلام وانتشاره هذا الانتشار الخطير، فالوقوف على الأسـباب من أعظم أسباب العلاج والمواجهة لهذا الخطر الداهم، ويوضّح لنا العلامة السـعدي جملة من هذه الأسباب، أقتصر على بعضها:

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٣٨).

(٢) الأدلة القواطع (٦/ ٦٤-٦٥).

(٣) انظر: أصول الدين (٦/ ٨١٣).

١- الإعراض عن الدين.

لاشك أنّ كل البعد عن الدين، والجهل بالكتاب والسنة، من أعظم أسباب الانحراف، قال السعدي -رحمه الله-: (إن من أكبر أسباب الإلحاد الإعراض عن علوم الدين، وإلا فمن عرف ما جاء به الكتاب والسنة وعلم ما جاء به دين الإسلام ولو معرفة متوسطة استحال أن يقع معه الإلحاد جهلًا وضلالًا)[١].

٢- الصحبة السيئة.

قال على لسان الملحد المنصوح: (فقال له المنصوح: لقد صدقتَ فيما قلتَ، ولكن لي على هذا المذهبِ أصحابٌ مثقفون .. ولي على هذا الرأي شبيبة مهذبون. قد تعاقدتُ معهم على التمسك بالإلحاد واحتقار المستمسكين بدين ربِ العبادِ، قد أخذنا نصيباً وافرًا من اللذاتِ، واستبحنا ما تدعو إليه النفوسُ من أصنافِ الشهواتِ فَأَنَّى لي بمقاطعة هؤلاء السادة الغرر، وكيف لي بمباينتهم وقد اتصلت بهم غاية الاتصال؟! فالآن يتنازعني داعيان: داعي الحق - بعدما بان سبيلُه واتضح دليلُه - وداعي النفس والاتصال بهؤلاء الأصحاب المنافي للحق غاية المنافاة، فكيف الطريق الذي يريحني ويشفيني، وما الذي عن هذا الأمر يسليني؟)[٢].

٣- القصور في فهم الدين.

قال: (وأما قصور هؤلاء المتأخرين في علوم التوحيد والدين، مع مهارتهم في فنون الطبيعة، فهذا من آيات الله وبراهين قدرته؛ أن تجد أناسًا في غاية الذكاء والبراعة، وقد أدركوا من العلوم والفنون العصرية ما عجز عنه الأولون وحار فيه الآخرون، ثم هم مع هذه البراعة والذكاء المفرط في هذه الأشياء تجدهم في غاية

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٦٦).

(٢) النصيحة الربانية (٦/ ٩٨-٩٩).

الجهل والقصور العظيم والضلال البعيد عن العلم بالله وتوحيده، وما يستحقه من العظمة والجلال، وتجدهم يشاهدون من خوارق علم الإنسان ما تخبرهم به الرسل عن الله وأخباره وغيوبه وأحوال الجزاء، وهم مقيمون على الكفر والتكذيب؛ أفبِقُدْرة الإنسان يؤمنون، وبقدرة الملك العظيم يكفرون؟!)[1].

٤- الإعجاب بالنفس واحتقار غيره.

قال السعدي في بيان سبب من أسباب ضلال القصيمي: (فهنا يقف العاقل وقفة تعجب فيقول: هل ترى هذه السخريات والتهكمات الصادرة من هذا الرجل، الحامل عليها الإعجاب العظيم بالنفس واحتقار غيره؟ فإنه لا يستغرب؛ فإن الخيالات متى استحكمت في النفوس تجسَّمت وصارت لها السيطرة على عقل الإنسان، وعدم الإبقاء منه على مكانته بين الناس، فلا يستغرب بهذا أن ذكاءه وفطنته اضمحلت في ضمن هذه السيطرة حتى تلاشت، فلم يكن له إحساس بما يصدر منه، وأنه وصلت به الحال إلى ما يشبه الجنون وعدم الشعور)[2].

وقدّ نبه الشيخ -رحمه الله- تعالى على أهمية الردّ على أهل الإلحاد بل وجوبه على أهل العلم، فقال في ردّه على القصيمي: (ولكن لما كتب هذا الكتاب، وطبعه ونشره بين الناس، وجعله دعاية بليغة لنبذ دين الإسلام، بَلْه غيره من الديانات والمبادئ الخلقية، فكان هذا أكبر عداء ومهاجمة للدين وجب على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوي عليه كتابه من العظائم، خشية اغترار من ليس له بصيرة بكلامه)[3].

ومن هنا كانت الجهود الكبيرة والعظيمة للعلامة السعدي في الرد على الإلحاد

(١) تنزيه الدين (٦/ ١٩٣).

(٢) تنزيه الدين (٦/ ٢٠٦).

(٣) تنزيه الدين (٦/ ١٦٣).

وأهله، والتي تتمثل في الكتب التالية:

١- **الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين.** وقد اشتمل كتابه على ثلاث وثمانين وجهًا في نقض أصول الإلحاد، نقل بعض هذه الوجوه عن شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم رحمهما الله، وزاد عليها كثيرا من الوجوه، وأضاف جملة من التعليقات.

٢- **الرد على الزنادقة والقائلين بوحدة الوجود.**

٣- **النصيحة الربانية في الرد على المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية (انتصار الحق).**

٤- **تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله.** وأُلحق به في مجموع مؤلفاته عددٌ من الرسائل للشيخ السعدي حول القصيمي وضلاله، وما تضمنه كتابه.

٥- **البراهين العقلية على وحدانية الرب ووجوب كماله.**

٦- **أصول الدين.**

بالإضافة إلى كلمات وتقريرات متعددة في ثنايا كثير من كتبه، كالتفسير، والقول السديد، وغيرهما.

والشيخ السعدي في علاجه لظاهر الإلحاد ربط بين الملاحدة الأولين والملاحدة الآخرين المعاصرين، فبيّن أن ملاحدة العصر أظهروا الإلحاد بأساليب أخرى قد تنطلي على أحد من الجهال ومن لا خبرة له بأقوالهم، فكانت ردوده -رحمه الله- شاملة للإلحاد بجميع أصنافه وأهله.

سبب اختيار البحث وأهميته:

دعاني إلى اختيار هذا الموضوع هو:

١- ما للإلحاد من خطورة على المسلم، وعلى دينه.

٢- انتشار الإلحاد خصوصًا في عصرنا الذي تنوعت فيه وسائل التواصل الاجتماعي، فكان ذاك مرتعًا واسعًا لبث شبهات الملحدين، والدعوة إلى نبذ الدين.

٣- المكانة العالية للشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله-، ولمؤلفاته التي تتّسم بالقوة العلمية المقيدة بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة.

٤- تنبيه القارئ إلى أهمية دراسة الإلحاد وأصوله وشبهات أهله وكيفية الرد عليها.

ومما ينبغي الإشارة إليه: أن هذا الموضوع كثير الجوانب متعدد المباحث، فالشيخ السعدي -رحمه الله- قد ترك ثروة علمية ثرية وفذّة ومتميزة فيما يتعلق بموضوع البحث، فذكري لبعض هذه المسائل والأصول في الرد على الإلحاد إنما هو من باب الإشارة والتنبيه، ومحاولة مني لذكر بعض هذه الأصول وطرائق ردّها ومعالجتها، ومن أراد التوسّع فليرجع إلى الكتب المشار إليها، فهي كتب قيّمة،كثيرة الفائدة.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وأربعة مباحث:

المقدمة: حول الإلحاد وتعريفه وخطورته وانتشاره وأسبابه، وأسباب اختيار البحث، وخطة البحث، وإجراءاته.

المبحث الأول: منهج الشيخ السعدي في بيان الأدلة الشرعية في الرد على أهل الإلحاد.

المبحث الثاني: منهج الشيخ السعدي في بيان الأدلة العقلية في الرد على أهل الإلحاد.

المبحث الثالث: نماذج من منهج الشيخ السعدي في نقض أصول الإلحاد.

المبحث الرابع: نماذج من منهج الشيخ السعدي في نقض بعض شبهات أهل الإلحاد.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث.

إجراءات البحث:

١- لقد قمت أولاً بقراءة أغلب كتب الشيخ حول الإلحاد والرد على الملحدين، وتقييد المنهج الوصفي العلمي الاستقرائي لردود الشيخ ومعالجته لظاهرة الإلحاد.

٢- قسمت هذه التقييدات حسب تنوع الأدلة الشرعية والعقلية، مع ملاحظة وجود تداخل بينها، لأن العقل السليم لا يعارض النص الصحيح.

٣- ذكرت جملة من ردود الشيخ على أصول الإلحاد، وعلى بعض شبهاتهم، لتكون أنموذجًا يستفيد منه من يخوض غمار هذه الحرب الشعواء بين أهل الإسلام وأهل الإلحاد.

٤- عزوت كلام العلامة السعدي إلى مجموع مؤلفاته، فالجزء المذكور هو من مجموع مؤلفاته التي طبعت في دار الميمان للنشر والتوزيع.

فأسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث نافعًا مقبولاً عنده، إن ربي لسميع الدعاء، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: منهج الشيخ السعدي في بيان الأدلة الشرعية في الرد على أهل الإلحاد.

إن وجـود الله تعالـى وربوبيـة وألوهيته من أعظم المسـائل التـي اتفقت عليها الأدلـة وتنوعـت وتكاثرت، فليس هنـاك قضية أهم وأكبر وأنفـع وأوضح من هذه القضية، فبها أرسـلت الرسـل، ولأجلهـا أنزلت الكتب، ولها تقابـل الصفان الحق والباطل، ولأجلها جُرّدت سـيوف الحق، فسَردُ الأدلة على هذه القضية يحتاج إلى نقـل القرآن كله، وتدوين السـنة جميعها، فكلها دلائل وبراهيـن على إثبات ألوهية رب العالمين[1].

فمن جعل القرآن والسنة مرجعه، وسلّم أمره لله تسليما مطلقًا، فقد أسس بنيانه على أقوى الأسـس، ومن أعرض عن الأدلة الشـرعية النقلية فهو على شفى جرف هار ينهار به في نار جهنم، يقول السعدي: (قامت البراهينُ التي لا تنقض على أن كل شـيء أُسِّس على غيره فهو ضرر وخراب، وكل بناء بني على غير تعاليمه وأحكامه فآخره الانهيارُ والتباب، وكلُّ نظام استمد من غيره فعواقبه وخيمة؛ لأن الذي شرعه عالمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علمًا، ووسع كل شيء رحمة وبرًّا، وتكفّل لمن قام به واستقام عليه بالسعادة والفلاح، وضمن لمن تعبّد به ودان لله به الثواب والنجاح)[2].

وقد سلك العلامة السـعدي -رحمه الله- في ذكره للأدلة الشرعية مسلك أهل السنة، الذي استقاه من طريقة الكتاب والسنة، وفهم سلف الأمة، ومن هنا كان لزامًا التنبيـه على بعـض هذه المنهجية في الاحتجاج على بطـلان ضلالات أهل الإلحاد

(١) انظر: البراهين العقلية (٦/ ٧٢٣).

(٢) البراهين العقلية (٦/ ٧٤٨).

وتقريراتهم الباطلة.

فمن ذلك:

١ - بيان مناقضة الإلحاد لدين الله وللرسل جميعاً.

قال السعدي في الرد على أصل من أصول الإلحاد، وهو: البداية بمحو كل ما هو معلوم ثم الشك بكل شيء: (هذه الوصية تتضمن محو العلوم الصحيحة، والمعارف النافعة، والإيمان الصحيح، والاستبدال عن ذلك بأنواع الجهالات والضلالات والغي، ورفض الإيمان بالكلية)[1].

بل إنّ أهل الإلحاد أنفسهم جعلوا الدين والإيمان بالله وإثبات وجوده وربوبيته وأفعاله من أشكل المشكلات عندهم، مع أنها أصل الأمور وأوضحها وأجلاها براهين[2].

وبيّن أن أهل الإلحاد غرضهم الوحيد والحقيقي؛ هو: صدّ الناس عمّا جاءت به الرّسل، ومقاومة ذلك بكل طريق[3]، ولذلك نقل تصريح عبدالله القصيمي بأن الحلّ الوحيد هو أن ينبذ الناس الإيمان وراء ظهورهم، ويكونوا معانقين للطبيعة، ومنسلخين من الدين والشريعة بالكلية، التي يسميها الأغلال والقيود[4].

قال السعدي: (لقد صدق هذا الكاتب في أن الإيمان حبس لهم، ولكن عن التهتك في الأخلاق الرذيلة، وعن الانغماس في الفجور والفواحش الظاهرة والباطنة، وقيد لهم عن التجرؤ على الظلم للخلق، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم،

(١) الأدلة القواطع (٦/ ١٠-١١).

(٢) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٩٤).

(٣) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ١٤).

(٤) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٩٦).

وأن أهله لا يمكن أن يكونوا إباحيين ما داموا متمسكين به؛ لكن بتركه والإعراض عنه تنحل عنهم القيود الشرعية فيصيروا كالبهائم، وتكون أمورهم فوضى)[1].

٢- بيان إجماع الكتب والرسل على نقض الإلحاد والإيمان بالله تعالى.

قال السعدي: (أما الشرع: فجميع الكتب المنزلة من السماء وجميع الرسل جاءت بتقرير ما وضع الله في فطر الخلق؛ من الاعتراف بوحدانية الله وكماله المتنوع وصدقه وصدق رسله وتقرير الحق والحقائق النافعة في القلوب؛ اعتقادًا وتخلقًا وتصديقًا ودعوة إليها وهداية لها من جميع الوجوه. ومن المعلوم أن هذه الوصية الباطلة منافية لذلك غاية المنافاة، مادة للجهالات البسيطة والمركبة وأنواع الضلالات، وداعية إلى الشقاء في الدنيا والآخرة. ودلالة الشرائع على هذا الأمر أعظم وأوضح من أن تفصل، بل هذا روح الشرائع السماوية والشرائع النبوية)[2].

٣- بيان اللوازم الفاسدة لأصول الملاحدة.

بيّن العلامة السعدي -رحمه الله- لوازم أصلهم الفاسد في محو جميع العلوم، ومحو ما جاءت به الكتب، وأرسلت به الرسل، وأن يستبدل بذلك وساوس النفوس ووحي الشيطان[3]، فقال: (هذا الأصل الخبيث يعود إلى تسلسل محو ما يقع في القلوب من كل علم صحيح وفاسد، ومن كل معرفة حاصلة في القلب، فهو أعظم معول لهدم العلوم كلها؛ لأن لازم ذلك يوجب ألا يثبت في القلوب شيء من العلوم الصحيحة، بل لا تزال الشكوك والمكابرات تنفي ما يقع في القلوب حتى تنحل العلوم وتنحل الأخلاق، ويتدرج بذلك إلى مذهب الإباحية والانطلاق في الفوضى

---

(١) تنزيه الدين (٦/ ١٩٦-١٩٧).

(٢) الأدلة القواطع (٦/ ١١).

(٣) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ١١).

وأغـراض النفوس الخبيثة الضارة، ولا يبقى دون ذلك مانع علمي ولا مانع خلقي. وهذا أعظم معول للشيوعية المفسدة للدين والدنيا، وبهذه الطريقة فشا الإلحاد)[١].

ومـن لـوازم أصولهم التي يقررونهـا -كأصلهم الرئيس وهو عـدم الإيمان إلا بالمشاهد المحسوس- إنكار علوم الغيب كلها، ولذلك جحدوا ربوبية الله وأفعاله، وعطلـوه من أسـمائه وصفاته، إذ لـم يدخل ذلك تحت مداركهـم القاصرة[٢]. وأن هـذا الأصل قطع عليه الصلة بينهـم وبين الله تعالى وكتبه ورسـله، فحرموا الهداية الصحيحـة المثمرة لصلاح الظاهر والباطن وسـعادة الدنيا والآخـرة[٣]. واندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم إلى شهوات الغي وإعطاء النفوس منهاها، ولم تقف عند حدّ فاسـتباحت كل قول وفعل محـرم، ووقعوا في الإباحية المحضة، وصارت الحيوانات على نقصها أحسن حالاً منهم[٤].

قال السعدي: (أما هؤلاء الملحدون الماديون فعلى العكس من ذلك، فإن آثار علومهم وأعمالهم هبطت بالبشـر والإنسانية إلى أسـفل سافلين، وشقوا في دنياهم كما شقوا في دينهم وعقولهم)[٥].

وعند كلام السعدي -رحمه الله- عن التصريحات الإلحادية لعبدالله القصيمي بيّـن لوازم أقواله بل صريحها، من إنكار الله تعالى وأفعاله وصفاته، وإنكار عقوباته ومثوباته الدنيوية والأخروية، واستهزائه وتهكّمه بالمؤمنين من جميع طبقات الأمة،

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ١٢).

(٢) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ١٧).

(٣) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ١٩).

(٤) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٢٢).

(٥) الأدلة القواطع (٦/ ٢١).

وأوجب الكفر بهم وبعلومهم، وصرّح بتحقير الأنبياء تحقيرًا لم يصل إليه ملحدٌ[1].

وذكر اللوازم الفاسدة لبيان بطلان القول وخطورته؛ مسلك يتناوله العلماء كثيرًا في ردّهم على أهل الباطل، وكثيرًا ما كان يذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-[2].

٥- بيان مناقضة أقوالهم لأصل الإيمان بالقضاء والقدر.

لاشك بوجوب وأهمية الإيمان بالقضاء والقدر، وآثاره الحميدة على العبد المؤمن من الطمأنينة والراحة النفسية، فأهل الإلحاد سلكوا في إلحادهم نقض أصل الإيمان بالقضاء والقدر، فسلك السعدي في منهجه بيان ذلك، وأثره على أهل الإلحاد، فقال: (فهذا الأصل الكبير قرره الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، وهو أصل توحيد الربوبية، وقصد تقريره في القلوب، واعتقاده الكامل المثمر لكل خير. وهؤلاء الملحدون يريدون ويحاولون من الخلق أن يجحدوا قضاء الله وقدره، ويعتقدوا أنه لا حاجة إلى الاستعانة برب العالمين رأسًا؛ لأنهم جحدوه وعطلوا أفعاله بالكلية، واعتقدوا أن الأفعال كلها للطبيعة. وكفى بقول جهلًا وضلالًا أن يصل إلى هذا الحد الفظيع)[3].

٦- بيان فساد مصطلحاتهم العلمية.

قال السعدي: (ومن المنكر والزور تخصيصهم علومهم القاصرة باسم العلم، فحيث أطلقوا «العلم» أرادوا به علوم الفلسفة وما نتج عنها، ونفوا العلم عما سواها، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق، وإلا فالعلم الحقيقي الذي أثنى الله عليه

---

(١) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٦٧).

(٢) انظر مثلًا: الفتوى الحموية الكبرى (ص:٢٢٩).

(٣) الأدلة القواطع (٦/ ١٦-١٧).

في كتابه علوم الرسل وهداية الوحي المنزل من عند العليم الخبير، وما سواها فإما علوم ضارة، وإما قليلة النفع، وإما نافعة في أمور الدنيا دون أمور الدين. وقد نفخت روح الكبر في قلوب أصحابها واحتقروا لأجلها العلوم النافعة في الدين والدنيا، فما أضرها وأضر ثمراتها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع)[1].

٧- إظهار زيف مصطلحاتهم التي يزينونها ويزخرفونها.

من وسائل انتشار الباطل زخرفة أهله له، وإظهارهم للإلحاد وأصوله بأسماء زينوها أو ألبسوها الشرعية أو نسبوها إلى العقل، فمن منهج السعدي -رحمه الله- بيان حقيقة هذه المصطلحات، وإخراجها من الحُسن إلى القبح، ومن الحق إلى الباطل، وفي ذلك يقول السعدي: (إن هؤلاء الملحدين روجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصاف إذا سمعها الجاهل هالته واغتر بها وظن صدقها، وكل منصف عارف يعرف كذبها وبطلانها، فزعموها تجديدًا ورقيًّا وتقدمًا إلى الأمام، وما أشبه ذلك من العبارات التي يغتر بها الجاهلون. وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدم ورقي روحي ومادي فالدين قد أتى به على أكمل الوجوه وأسلمها من الضرر والفساد، فإن الدين كما أمر بإصلاح الدين فقد أمر بإصلاح الدنيا الإصلاح الحقيقي النافع، عاجلًا وآجلًا، عكس ما كذب عليه أعداؤه بأنه مخدر مفتر... ولولا أن الباطل قد زخرف وروج بالعبارات والدعايات المتنوعة، ونصرته الدول المنحرفة لم يقبله عاقل ولا أصغى إليه لبيب، ولعرف الناس أنه أعظم ظلمة من الليل وأضعف من كل ضعيف)[2].

وقد بيّن أهل العلم أنّ هذا من مسالك أهل الضلال، مكرًا وكيدًا بمن لا يعرف

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٢٠).

(٢) الأدلة القواطع (٦/ ٤٥-٤٦). وانظر: أصول الدين (٦/ ٨١٩).

حقائق الأمور، فتغره المسميات، فهو من تلبيس إبليس وأتباعه على أهل الإيمان، كما بينه العلامة ابن القيم -رحمه الله-[1].

٨- عقد المقارنات الشرعية لتبيين ضلال الملاحدة.

وهذا باب واسع أطنب فيه الشيخ السعدي أيّما إطناب، وعَقْدُ المقارنات المتنوعة بين الحق والباطل من أعظم الأسباب لإبراز جمال الحقِّ وحُسنه وبهجته، وإظهار قُبح الباطل وظلمته وتعاسته، قال السعدي: (اعلم أن الحق والباطل متقابلان، وأن الخير والشر متنافيان. وبمعرفة واحد من الضدين يظهر حسن الآخر أو قبحه. فأنبئك على وجه الإجمال والتنبيه اللطيف: إذا أردت أن تقابل بين الأشياء والمتباينات فانظر إلى أساسها الذي أسست عليه، وإلى قواعدها التي انبنت عليها. وانظر إلى آثارها ونتائجها وثمراتها المتفرعة عنها. وانظر إلى أدلتها وبراهينها التي بها ثبتت، وانظر إلى ما تحتوي وتشتمل عليه من الصلاح والمنافع ومن المفاسد والمضار. فعند ذلك إذا نظرت لهذه الأمور بفهم صحيح وعقل رجيح، ظهر لك الأمر عيانًا)[2].

وقد تنوعت هذه المقارنات في كلام الشيخ من أوجه كثيرة، ومن ذلك:

١/ مقارنة بين ميزان الحق وميزان الملاحدة[3].

٢/ مقارنة بين الملاحدة وبين ما جاء به العقلاء[4].

٣/ مقارنة بين الملاحدة وبين ما جاءت به الرسل[5].

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١١٢-١١٣).

(٢) النصيحة الربانية (٦/ ١٠٠).

(٣) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٣٦).

(٤) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٨).

(٥) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٢١، ٢٨)، وتنزيه الدين (٦/ ١٩١)، وأصول الدين (٦/ ٨١٦).

٤/ مقارنة بين الملاحدة وبين اليهود والنصارى[١].

٥/ مقارنة بين حال المؤمن وغير المؤمن عند المصائب[٢].

٦/ مقارنة بين من يكون في صفّ المؤمن ومن يكون في صفّ الملحد[٣].

٧/ مقارنة بين المؤمن والملحد في حلّ المشكلات[٤].

٨/ مقارنة بين المؤمن والملحد في الأخلاق[٥]، وعند معاشرة الخلق[٦].

٩/ مقارنة بين المؤمن والملحد في الظواهر والبواطن[٧].

١٠/ مقارنة إجمالية بين من تقيّد بالدين ومن لم يتقيّد به[٨].

٩- عرض نموذج مما يدعو إليه الإسلام وإبراز محاسنه.

إظهار محاسن الدين وعدله أصل في نقض الإلحاد[٩]، يقول السعدي: (إذا أردت أن تعلم علم اليقين أن أهل الإلحاد ليس عندهم عقل كما لا دين لهم، وأنه ليس عندهم إلا المكابرة والجحود في قدحهم في القديم أو العتيق، أو ما أشبه ذلك

---

(١) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٢٤).

(٢) انظر: النصيحة الربانية (٦/ ١٠٨).

(٣) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٥٠).

(٤) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٤٤).

(٥) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٥٨).

(٦) انظر: النصيحة الربانية (٦/ ١١٠).

(٧) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٥٩).

(٨) انظر: أصول الدين (٦/ ٨١٦-٨١٩).

(٩) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٦٩، ١٧٧).

من عباراتهم السخيفة كالرجعية وشبهها، فاعرض نموذجًا من تفاصيل ما يدعو إليه الدين ويحث عليه وما يحذر عنه تعرف بها أن المنكرين لها في فساد من عقولهم، وانعكاس من آرائهم، وسفاهة من علومهم وخسة من أخلاقهم، وأن كل قول أو عقيدة أو خلق أو عمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعًا وعقلًا وفطرة. ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء)[1].

١٠- ضرب الأمثلة والأقيسة في القرآن على إبطال الإلحاد وإثبات التوحيد.

قال السعدي: (إن الله ضرب الأمثال في كتابه لتقرير التوحيد وتقرير الرسالة والمعاد وإبطال قول من ينفيها أو يقدح في شيء منها، والأمثال أقيسة عقلية تنبه العقول والفطر على تقرير الحق والاعتراف به وإبطال الباطل، وكلها تبطل أقوال المشركين والمكذبين للرسل من مشركين وملحدين ومنحرفين كقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]. إلى غير ذلك من الأمثلة المقررة لهذه الأصول العظيمة المبطلة لأقوال المبطلين والمعطلين، وكذلك ما ضربه الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- من الأمثلة المقررة لأصول الدين)[2].

وقد ذكر هذه الأمثلة الكثيرة من القرآن العلامة ابن القيم -رحمه الله-، وبيّن

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٦٩-٧٠).

(٢) الأدلة القواطع (٦/ ٧٦).

أن المراد منها تقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر[1].

١١- بيان أضرار الإلحاد على أهل الإلحاد.

بيّن الشيخ -رحمه الله- في رده على أهل الإلحاد ضرره عليهم، وخطورته على من انتحله، وهذا مسلك سلكه الشيخ يظهر فيه بطلان الإلحاد، يقول السعدي: (ومن أعظم أضرارها وشرورها عليهم أنهم بها تكبروا على الحق وعلى الخلق، واحتقروا بها علومَ الرسل وأتباعهم؛ التي هي النافعة المزكية للقلوب، المطهرة للأخلاق، المصلحة للأمور كلها، الجالبة للخير والهدى، الدافعة للشرور كلها.

فهؤلاء الملاحدةُ ومن قلَّدهم علومُهم نفخت فيهم روحَ الكبرياء، وصيَّرتهم بطورٍ غير طورهم، ورأوا بها العبادَ أخسَّ من الحيوان البهيم، وهم في الحقيقة الأرذلون.

ومن أضرارها عليهم أنها -وإن رقَّت حضارتَهم ومدنيتهم- ولكنها حضارة ومدنية مادية محضة، مهددة كل وقت بالهلاك والتدمير.

فأي مدنيَّة وحضارةٍ روحُها الظلمُ والجشع واستعباد الضعفاء، والاستعداد بالأسلحة الفتاكة، المهلكة للحرث والنسل ونتائجها وثمرتها التطاحن بين أهلها؛ يصبُّ بعضهم على بعض العذابَ الفظيع؟)[2].

١٢- كل دليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد أو أثبت الرسالة أو قرر البعث فهو ردّ على الملاحدة.

من الكُليَّات الشرعية التي بيّنها الشيخ السعدي في نقضه الإلحاد: أنّ كلّ دليل

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٦٦).

(٢) البراهين العقلية (٦/ ٧٤٣).

شرعي هو ردّ على الإلحاد وأهله، فمن ذلك قوله: (إن كل برهان ودليل أبطل الله به الشرك وقرر به التوحيد فهو برهان على بطلان الإلحاد والجحود)[1]. وقوله: (إن البراهين الدالة على رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- ورسالة سائر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر البراهين على إبطال قول الملحدين وآيات الرسل عمومًا ومحمد خصوصًا - لا تعد ولا تحصى، متنوعة من كل وجه، توجب العلم الضروري بصدقهم وصحة ما جاءوا به، وهؤلاء الملحدون أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، فلا يجتمع الإيمان بالرسل مع اعتناق مذهب الماديين المنافي للرسالة وللعقول والفطر. والله أعلم)[2]. وقوله: (البراهين الدالة على البعث كلها تبطل أصول الملحدين...، وهذه أمثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكل واحد من هذه الأصول لو بسطت براهينه لبلغت شيئًا كثيرًا، فكل واحد منها قد وصل إلى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وهي تهدم أساس التعطيل والإلحاد، وتوجب على العباد الاعتراف بما خلقوا له من الإيمان بالله وكتبه ورسله، وعبادته وحده لا شريك له، ومن المعلوم أن الماديين الملحدين يباهتون وينكرون ذلك كله)[3].

وبين السعدي -رحمه الله- أن الله تعالى أيّد رسوله ﷺ بأمرين عظيمين كل واحد منهما مشتمل على براهين قاطعة كثيرة تدل على وحدانية الله وتنقض الإلحاد من أصله، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، فشهادته لرسوله وشهادة هذا القرآن، وفي ذلك يقول السعدي: (فمجرد وقوف الناظرين على هاتين الشهادتين

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٦٢).

(٢) الأدلة القواطع (٦/ ٦٢).

(٣) الأدلة القواطع (٦/ ٦٢-٦٣).

العظيمتين والتأمل بما اشتملتا عليه من البراهين القاطعة على ما لله من الوحدانية وصفات الكمال والجلال كله وعلى صدق ما جاء به الرسول، يكفي وحده في إبطال ما ناقضته من أقوال الملحدين)[1].

فهذه جملة من النقاط تبيّن المنهج العلمي الشرعي الذي سلكه الشيخ السعدي في ردّه على أهل الإلحاد، مما ينبغي أن يستفيد منه أهل العلم وطلابه، في مواجهتهم لهذه الحرب الضروس ضد الإلحاد وأهله.

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٤١). وانظر: (٦/ ٤٧، ٤٨، ٦٠).

المبحث الثاني: منهج الشيخ السعدي في بيان الأدلة العقلية في الرد على أهل الإلحاد.

إنّ طرق معرفة الله تعالى واسعة جدًّا وغير منحصرة في طريق واحد أو دليل واحد[1]، والمناظرة مع أهل الإلحاد نوعٌ، ومع من يقرّ بالكتاب والسنة نوعٌ آخر، لذلك لم يكثر الشيخ السعدي من الآيات والأحاديث، وركزّ على الأدلة العقلية، ولأن القرآن والسنة كله ردّ عليهم وعلى أصولهم[2].

وقد ألّف -رحمه الله- كتاباً مستقلاً في سرد البراهين العقلية على إثبات وجود الله تعالى وألوهيتة وربوبيته، قال في أوله: (ولكننا نريد في هذه المحاضرة أن نشير إشارةً يسيرةً إلى براهينها العقلية التي يشترك في معرفتها والخضوعِ لها جميعُ العقلاء من البشر، ولا ينكرها إلا كلُّ مكابر مستكبر منابذٍ للعقل والدين. وهذه المسألة أوضحُ وأظهر من أن يحتجَّ لها وتذكر براهينها، ولكن كلما عرف المؤمنُ براهينَها قوي إيمانه، وازداد يقينهُ، وحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر النعم وأجلها)[3].

وسأسرد هنا جملة من النقاط التي توضّح منهج الشيخ السعدي الذي سار عليه في ذكره للأدلة العقلية في الرد على الإلحاد وأهله.

١- إثبات أن البراهين العقلية متفقة على وجود الله.

قال: (وأما البراهين العقلية والفطرية فكلها متفقة على الاعتراف بالله، حتى المشركون الذين يجعلون معه مخلوقات يدعونها ويصرفون لها شيئًا من العبادة

---

(١) انظر: البراهين العقلية (٦/ ٧٣٢).

(٢) تنزيه الدين (٦/ ٢٠٧).

(٣) البراهين العقلية (٦/ ٧٢٣-٧٢٤).

معترفـون أن الله هـو الخالق الرازق المدبـر لجميع الأمور، وقد قالت الرسـل: أفي الله شـك؟)[1]. ونقـل -رحمه الله- عن شـيخ الإسـلام ابن تيمية مـا يبيّن أن جميع الملحدين خرجوا عن العقليات الصحيحة، وأنه ليس معهم إلا دعاوى باطلة[2].

٢- بيـان ضعـف وهزالـة أدلة الملاحـدة وبـأن تصورها يدل علـى مناقضتها للعقل والنقل.

كثيرًا ما يبيّن الشيخ السعدي في ردّه على الملاحدة ضعف حججهم وهزالتها، ومناقضتها للعقـل والنقل، مع ادّعائهم أنهم أهل العقول الرجيحة، ليوضح للقارئ أنهم بعيدون أشدَّ البُعد عن العقل السَّليم، ومحاربون أشدَّ المحاربة للنَّقل الصَّحيح، قـال -رحمه الله-: (وقد أصَّلـوا لباطلهم أصولاً يقلد فيهـا بعضهم بعضًا، وهي في غايـة الفسـاد، يكفي اللبيب مجرد تصورها عن إقامـة البراهين على نقضها، لكونها مناقضة للعقل والنقل، ولكنهم زخرفوها وروجوها فانخدع بها أكثر الخلق)[3].

بل نصّ السعدي -رحمه الله- على أن أقوالهم أقوال المجانين[4]، وأن أقوالهم مـن المحـالات التي لا يمكـن تصورها علـى الحقيقة، فيقـول: (إن محـو العلوم الصحيحـة والعقائد الحقة من القلوب وطلب الشـك فيهـا محال غير ممكن، ومن حـاول ذلك فهو مكابر، فالحقائق الصحيحـة المبنية على البراهين الحقة الواضحة لا يمكن إزالتها من القلوب بوجه)[5].

---

(١) تنزيه الدين (٦/ ١٩٥).

(٢) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٧٩).

(٣) الأدلة القواطع (٦/ ٧).

(٤) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٢٧).

(٥) الأدلة القواطع (٦/ ١٣).

٣- ربط أقوال الملاحدة بأقوال الفلاسفة الملاحدة القدامى.

من أعظم المسالك التي توضح بطلان القول وزيفه؛ أن تبيّن مصدره وأصله، وهذا المنهج سلكه الشيخ السعدي في ربط أقوال الملاحدة مع أقوال غيرهم من أهل الكفر والضلال، قال السعدي: (أعظمها عندهم أصل خبيث منقول عن معلمهم الأول «أرسطو» اليوناني المعروف بالإلحاد والجحد لرب العالمين والكفر به وبكتبه ورسله. وهذا الأصل الذي تفرع عنه ضلالهم أنه من أراد الشروع في المعارف الإلهية فليمح من قلبه جميع العلوم والاعتقادات، وليسع في إزالتها من قلبه بحسب مقدوره، وليشك في الأشياء ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه)[1]. وقال: (ألم يكن في آثار الأنبياء والمرسلين ما يستغنى به في أعظم المطالب وأشرف المعارف، عما يروون عن معلم المبدلة الصابئين الذين انتقلوا عن الحنيفية الثابتة بالعقل والدين وهو رأس هؤلاء الدهرية)[2].

وقال السعدي في بيان ما تلقّفه القصيمي في أباطيله عن النصارى: (وهذا بعينه قد أخذه من دعاة النصارى المفترين، الذين لما بهرهم ما جاءهم به محمد -صلى الله عليه وسلم- من الدين الحق والتعاليم العالية والرقي الكامل والفتوح الباهرة والآثار التي لم يحصل عشر معشارها لأحد من الخلق؛ طفقوا يموهون على الناس ويحللون حياته -صلى الله عليه وسلم- تحليل أحد رجال الطبيعة، يعني الذين لا يؤمنون بالله وملائكته وعالم الغيب من الأرواح والجن بل له الدار الآخرة، وما وراء المحسوسات والملموسات، فأخذ عنهم هذا المأخذ الخبيث، وأنكر الوحي والرسالة بهذا التحليل؛ ورمى النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه طبيعي لا يعرف الله

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٨).

(٢) الأدلة القواطع (٦/ ٨).

ولا يعرف الوحي، فلم ينزل عليه جبريل من عند الله، ولا كان يناجي الله ولا يعبده، ولا كان عند السياق إلا مشتاقًا إلى الطبيعة فقط)[1].

وفي رده على القصيمي أيضا ربط بين أقوال الملاحدة المعاصرين وأقوال زنادقة الدهريين واليهود والنصارى وأعداء الرسول ﷺ من المشركين[2].

٤- بيان أن قول الملاحدة يخالف قول جميع العقلاء.

حين يزعم الملاحدة أنهم أهل العقل الرجيح وجب بيان أن قولهم يخالف قول جميع العقلاء، قال السعدي: (إن جميع العقلاء الذين خبروا كلام أرسطو وذويه في العلم الإلهي قد علموا أنهم أقل الناس نصيبًا في معرفة العلم الإلهي وأكثر اضطرابًا وضلالًا)[3].

وقال: (وأما العقل: فإن أهل العقول الصحيحة متفقون على أن أفضل المغانم والمكاسب ما كسبته القلوب وحصلته من العلوم الصحيحة والمعارف النافعة والإيمان الصادق والأخلاق العالية، التي من اتصف بها صار من علية الخلق وأكملهم وأرفعهم درجة ومقامًا، فمن أوصى بترك ذلك ومحوه من القلوب والحث على الشك والتشكيك فقد جاء لأهل العقول بما لا يعرفونه، بل ينكرونه أشد الإنكار، ويرونه من فظائع المنكرات)[4].

٥- بيان تناقض أقوال الملاحدة في كثير من المسائل والدلائل.

إثبات التناقض في أقوال أهل الباطل من أعظم المسالك المهمّة التي يجب أن

(١) تنزيه الدين (٦/ ١٧٨).

(٢) انظر: جواب مجمل (٦/ ٢١٠-٢١١)، ونبذة جامعة (٦/ ٢٢٤).

(٣) الأدلة القواطع (٦/ ٩).

(٤) الأدلة القواطع (٦/ ١١-١٢)، وانظر: (٦/ ١٨، ٣٥، ٤٩، ٦١).

تسلك عند نقض الأقوال وإظهار زيف الدعوات الباطلة، وبذلك نقض السعدي -رحمه الله- أقوال الملاحدة، فقال: (رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم وتناقضت مقالاتهم ولم يثبتوا على مقالة واحدة، ولم يزالوا في خبط واختلاط وإحداث نظريات ونقضها واتفاق وافتراق)[1].

ولـمَّا رد على القصيمي أظهر كثيرا من تناقضاته ليظهر بطلان قوله، ومن ذلك حين أنكر القصيمي الملائكة والجن والأرواح، يقول السعدي: (شعر أن الناس لا بدَّ أن يقولوا: هذا كلام مكذب بالملائكة والجن والأرواح، فقال نفاقًا: «ليعلم بعد هذا أننا ممن يؤمنون بالأرواح والملائكة والجان وبما أخبر الله به...» إلى آخر ما قال. فانظر إلى هذا التناقض والبهرجة التي لا تخفى على من له أدنى عقل، ولكن من غروره بنفسه، يحسب أن الناس كالبهائم)[2].

٦- إثبات أن دعوة الرسل لا تخالف العقل السليم وباعتراف بعض منصفي الملاحدة.

حين تُثبت للخصم أنَّ قوله يعترف بضلاله وخطئه بعض منصفي قومه وشيوخه، فهذا من أقوى الأدلة عليه، وهذا ما سلكه السعدي في منهجه في الردّ، يقول: (ومن تأمل ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة وجدها شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها وثبوت نقيضها، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بما تعرفه العقول جملة وتفصيلًا، أو تعرفه جملة ولا تهتدي إلى تفصيله، أو تخبر بأمور لا تهتدي إليها العقول بمجردها لا جملة ولا تفصيلًا، ومحال أن تخبر بما

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٢٦)، وانظر: الأدلة القواطع (٦/ ٢٨، ٣٢، ٥٧)، وتنزيه الدين (٦/ ١٦٤)، والدرة البهية في شرح القصيدة التائية (٦/ ٧٨٠).

(٢) تنزيه الدين (٦/ ١٩٩).

تحيله العقول الصحيحة. وهذا يعرفه كل من له خبرة بالشريعة الإسلامية وخبرة بمقالات الأمم، وقد تتبع كبار العلماء وأساطين الحكماء وفحول أهل النظر ذلك فوجدوه كذلك في جميع الحقائق التي جاءت بها الرسل، وبرهنوا أن كل ما خالفها هو ضلالات وجهالات وخيالات، حتى باعتراف من أنصف من هؤلاء الملحدين فضلًا عن أولي الألباب والبصائر وأهل العقول الوافية المتغذية بالوحي والهداية النبوية، فإنهم علموا علم اليقين أن جميع ما جاءت به الرسل من أمور الغيب ومن الأحكام الشرعية والقدرية والجزائية هو حق اليقين فتيقنوه بقلوبهم وشهدت به ألسنتهم وهدوا به الخليقة)[1].

٧- إظهار النقص في علومهم.

من أعظم أوجه بطلان تقريرات وعلوم الملاحدة إثبات أنها علوم ناقصة، لا تكفي ضروريات الإنسان ولا حاجياته، وهذا له أمثلة كثيرة، ومن ذلك أنها لا تعالج تهذيب النفس، قال السعدي: (إنه ممتنع كل الامتناع، ومستحيل أن تتهذب النفوس وتكتسب الفضائل بعلوم المادة المحضة وأعمالها، والتجارب والمشاهدة أكبر برهان على ذلك، فإنها مع تطورها وتبحرها عجزت كل العجز عن تهذيب النفوس وإصلاحها الذي يتوقف عليه صلاح البشر، وإنما الذي يتكفل بهذا الإصلاح ويتولى هذا التهذيب الصحيح ويوجه الأفكار إلى العلوم الصادقة ويوجه الأعمال إلى الخير ويزجرها عن الشر هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للعقائد والأخلاق ومهذب للأفكار وحاثّ على الفضائل وزاجر عن الرذائل)[2].

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٢٩-٣٠).

(٢) الأدلة القواطع (٦/ ٤٧).

٨- الاستدلال بحيرة واضطراب وشك أهل الإلحاد.

مما يظهر بطلان قول الملاحدة كثرة اضطراب أهله، وهذه سمة بارزة لعموم أهل الضلال والأهواء، وهذا منهج لأهل العلم ساروا عليه في الرد على أهل الباطل، قال السعدي: (أهل الجحود والإلحاد لم يصلوا في علومهم إلا إلى جهل مركب أو جهل بسيط أو جحود مع العناد، لأن رؤساءهم وأساطينهم، أهل الذكاء والفطنة الذين أفنوا أوقاتهم في هذه البحوث، لم يصلوا إلى يقين تطمئن له قلوبهم، بل إما إلى حيرة وارتياب، وإما إلى اختلاف كثير واضطراب، وإما إلى مكابرة من هؤلاء الأحزاب، كما عرف ذلك من مقالاتهم. فإذا كان هؤلاء هم الرؤساء فكيف بمقلديهم الذين لم يبلغوا عشر معشارهم في الذكاء والفطنة والبحث؟)[١].

ولاشك أنّ الحيرة وعدم الثبات من سمات أهل الضلال والانحراف، فلا يثبتون على دين واحد وتغلب عليهم الشكوك، وهذه عادة الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنة، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[٢].

٩- قلب الدليل على الملحد.

من أصول الملاحدة التي يستدلون بها على ترك الإسلام بل حربه وحرب أهله، دعواهم أنه سببٌ للتَّخلف، واستدلوا بحال المسلمين مِن بُعدهم عن التَّطور المدني والرقي الصّناعي، ومن لطائف ردود الشيخ السعدي على هذا الملحد أن جعل هذا التخلُّف حجة على وجوب السعي في تقوية الإسلام وتطور بلدان المسلمين وليس تركه وحربه، فقال: (أليس ضعف المسلمين في هذه الأوقات يوجب لأهل البصائر والنجدة منهم أن يكون جدهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٨٠-٨١).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٥٧).

متضاعفًا، ويقوموا بكل ما في وسعهم لينالوا المقامات الشامخة ولينجوا من الهوة العميقة التي وقعوا فيها؟. أليس هذا من أفرض الفرائض وألزم اللازمات في هذه الحال؟ فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين فيه له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا على هذه الحالة التي وصفت؟ فإن الجهاد لا يمكن التعبير عن فضائله وثمراته.

ففي هذه الحال يكون الجهاد على قسمين:

أحدهما: السعي في تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم وتعليمهم العلوم النافعة، وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، وهذا أشق الأمرين وهو أنفعهما وأفضلهما.

والثاني: السعي في مقاومة الأعداء وإعداد جميع العدد القولية والفعلية والسياسية، الداخلية والخارجية، لمناوأتهم والسلامة من شرهم!

أفحين صار الأمر على هذا الوصف الذي ذكرت، وصار الموقف حرجًا تتخلى عن إخوانك المسلمين وتتخلف مع الجبناء والمخالفين؟ فكيف مع ذلك تنضم إلى حزب المحاربين؟! الله الله يا أخي، لا تكن أقل ممن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾[آل عمران: ١٦٧]. قاتلوا لأجل دينكم أو ادفعوا لأجل قومكم ووطنكم! لا تكن مثل هؤلاء المنافقين. فأعيذك يا أخي من هذه الحال التي لا يرضاها أهل الديانات ولا أهل النجدات والمروءات. فهل ترضى أن تشارك قومك في حال عزهم وقوة عددهم وعنصرهم، وتفارقهم في حال ذلهم ومصائبهم، وتخذلهم في وقت اشتدت فيه الضرورة إلى نصرة الأولياء ورد عدوان الأعداء؟ فهل رأيت قومًا خيرًا من قومك أو شاهدت دينًا أفضل من دينك؟)[1].

---

(١) النصيحة الربانية (٦/ ٩٤-٩٥).

وفي رده على القصيمي، ذكر أن القصيمي اعترف في مواضع من كتابه بانفراده عن الناس بكثير من تقريراته وأنه أدرك ما لم يدركه الرسل، وبين السعدي أن هذا مع ما فيه من العُجب والاغترار والكذب، اعتراف بالشذوذ ومخالفة العقلاء كلهم، فقلب مدحه لنفسهم إلى ذمّ في الحقيقة[1].

وقلب الدليل على المبطل من الأساليب التي يستخدمها العلماء في بيان زيف أقوال أهل الضلال، كما قال ابن القيم -رحمه الله-: (وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه)[2].

ومن أساليب الشيخ السعدي في الرد على أهل الإلحاد وعلاج ظاهرة الإلحاد: استخدام أسلوب المحاورة بين رجلين رفيقين مسلمين يطلبان العلم، غاب أحدهما عن صاحبه مدّة، فلما التقيا وجد صاحبه تبدّلت أحواله وأخلاقه، بسبب دعاية الملحدين، فحاول نصحه وإرجاعه فأعيته الحيلة، فعرف أنها علّة عظيمة، ومرض يفتقر إلى استئصال الدّا بأنفع الدواء، وبعد المناقشة والمحاورة يدعو الملحد إلى التوبة، بصورة الرّجل الذي اقتنع بما عليه من الضلال والانحراف، وشكره للناصح على بذله للنصيحة، وهذه المحاورة عنونها بالنصيحة الربانية في الرد على المغترين بدعاة الإلحاد والمدنية الغربية (انتصار الحق)[3].

كما نجده -رحمه الله- في معالجته لظاهرة الإلحاد يستخدم أحيانا اللين في الخطاب، وأحيانا الشدة والغلطة، وكل ذلك بحسب حكمته -رحمه الله- في معالجة هذه الظاهرة، ففي أسلوب المحاورة المذكور آنفًا، نجده لين العبارة،

---

(١) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٩٣).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٥٤)، وانظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ٢٩٢).

(٣) انظرها في: (٦/ ٩١) من المجموع.

رفيقـا في المنصـوح، وعند ردّه على القصيمي أو عند بيانه لبعض مآلات الإلحاد أو خطورة معتقداته؛ نجده شديدًا في العبارة، ومن أمثلة ذلك، قوله: (فنعوذ بالله من هذا الكـبر الذي هبط بصاحبه إلى هذه الدركات ومنعـه من الوصول إلى العلوم النافعة والسعادة والفلاح، وحسـن له ما هو عليه من العلوم الناقصة والأعمال القباح)[1]، وهـذه الشـدة لم يكن دافعها عداء شـخصي ولا انتصار للنفس بـل هي الغيرة على الديـن، والغضب لله رب العالمين، وفي ذلك يقـول: (ونحمد الله على ما نبهنا عليه في كتابه من الفظائع والشنائع التي لا يقولها إلا من انتهى إلحاده وكفره، لم نستعمل معه في خطابه الخاص إلا الرفق واللين اتباعًا للكتاب والسـنة في خطاب المحاربين المنحرفيـن أن يقال: قال فلان، وفعل فلان؛ وأما عند ذكر الأقوال الشـنيعة، فيذكر مـا احتوت عليه من الضرر والمناقضة للأديـان، ومرتبتها في البعد من الدين، وبيان مـا على قائلها من الضلال والغي، فيكون القدح فيـه موجهًا عليه من أقواله، ويبين ما على صاحبها من نقص الدين والعقل والرأي، وليس لنا غرض في شـخصية هذا الرجـل، ولكن لمـا اعتدى على ديننا الإسـلامي، وعلى قواعده وأصوله وأسسـه، وتهكـم به وبحملته، وفضّـل عليهم زنادقة الملحدين، وصنع مع المسـلمين أعظم من صنيع دعاة النصارى من المبشـرين، وجب على كل مسـلم مدافعته ودفع شـره وتبيين أمره، والتحذير من طريقته ودعايته بحسـب القدرة، وإلا فوالله إننا لنأسـف أشـد الأسـف على انقلاب هذا الرجل، ونعدّ ذلك من الخسـائر علينا، حيث فقدنا هذا الرجل الذي مضى له من المقامات ونصر الحق ما لا ينكر)[2].

وقد توسـع -رحمه الله- في بيان الدلائـل العقلية على وجود الله تعالى وكماله وألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته في كتابه النفيس: (البراهين العقلية على وحدانية

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٣٢).

(٢) تنزيه الدين (٦/ ٢٠٧).

الـرب ووجوه كماله)، فقد ذكر أكثر من عشـرين دليـلاً وبرهانًا على ذلك، وبين في مقدمته أن حدوث الأشياء له ثلاث أقسام عقلية: أحدها: أن توجد هذه المخلوقات بنفسها من غير محدث، وهذا محال وممتنع. والثاني: أن تكون خالقة بنفسها، وهذا أيضا محال وممتنع. فلم يبق إلا القسـم الثالث: وهو أن هذه المخلوقات لها خالق خلقها، وهو الله رب العالمين[1].

ومن الأدلة العقلية المذكورة في هذا الكتاب على وجه الإجمال:

١/ التفكر في خلق الإنسان.

٢/ رحمة الله العامة.

٣/ النظر في أحوال المضطرين.

٤/ إجابة الله للدعوات.

٥/ أيام الله ووقائعه.

٦/ ما عليه الأنبياء من الكملات، وما لهم من الآيات.

٧/ العواقب الحميدة للمؤمنين، والذميمة للكافرين.

٨/ إخبار الله ورسوله عن أمور الغيب.

٩/ الآثار الجليلة المترتبة على رسالة محمد ﷺ.

١٠/ إحكام الشريعة وصدق أخبارها واتفاق أحكامها.

كما ذكـر في هذا الكتاب جملة من الأمثلة والحكايات في الاسـتدلال على الله تعالى، بأسـلوب جميل، بدأ أكثرها بقوله: (بم عرفـت ربّك؟)، ذكر فيها ما يقارب ستة عشر مثالا[2].

---

(١) انظر: البراهين العقلية (٦/ ٧٢٤).

(٢) انظر: البراهين العقلية (٦/ ٧٣٣)

إلى غير ذلك من الأدلة النقلية والعقلية المتفقة على وجود الله تعالى وألوهيته وربوبيته، قال السعدي في آخره: (والحاصل أن جميعَ الموجودات، وجميعَ الحوادث والمعارف والحركات أدلةٌ وبراهين على وحدانية ربِّ الأرض والسموات)[1].

(١) البراهين العقلية (٦/ ٧٥٦).

المبحث الثالث: نماذج من منهج الشيخ السعدي في نقض أصول الإلحاد.

استخدم أهل الإلحاد كل وسيلة لنشر إلحادهم وترويجه على جهلاء الخلق، وقد بين الشيخ السعدي -رحمه الله- أن مجموع طرائق أعداء الدين تدور حول ثلاثة محاور:

الأول: نبذ الدين والإيمان.

والثاني: منابذة الدين ومقاومته وعداوته.

والثالث: التمويه والمخادعة للأغرار أن الدين يدعو إلى ما يقولون[1].

وبجانب بيانه أصول الإلحاد فقد وضح أن العلوم النافعة مدارها على أمرين:

الأول: أن يعرف ما أخبرت به الكتب والرسل عن الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وسائر الغيوب، وما جاءت به من الأحكام.

والثاني: معرفة براهين ذلك العقلية والسمعية والنظرية، والوقوف على أسرارها وحكمها[2].

وسأذكر في هذا المبحث عددًا من أصول أهل الإلحاد وجوانب من ردود الشيخ السعدي عليها.

الأصل الأول: أن من أراد الشروع في المعارف فليمح من قلبه جميع العلوم وليشك في الأشياء، ثم ليكتف بعقله وخياله ورأيه.

وهذا الأصل للملاحدة الذي أخذوه عن معلمهم الأول أرسطو هو الذي

(١) انظر: نبذة جامعة مختصرة في التحذير من كتاب «هذي هي الأغلال» (٦/ ٢٢١)، وتنزيه الدين (٦/ ١٦٦)، وجواب مجمل (٦/ ٢٠٩).

(٢) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ١٦).

لأجل نقضه كتب الشيخ السعدي كتابه: (الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين)، ونقل فيه جملة من الأوجه عن شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم، ورد فيه على هذا أصل من ثلاث وثمانين وجهًا. قال السعدي: (ومن أبلغ من تكلم عليها وأبطلها شرعًا وعقلًا شيخ الإسلام ابن تيمية، فإنه بين عدة وجوه في فسادها وبطلانها، كل وجه منها كافٍ في إبطالها، فكيف إذا اجتمعت؟ فننقل كلامه عليها ثم نتمم ذلك بما ييسره الله)[1].

ومن هذه الأوجه:

الأول: أن في آثار الأنبياء ما يغني في أعظم المطالب عن كلام غيرهم من الصابئة.

الثاني: أن جميع العقلاء علموا أن أرسطو وذويه من أقل الناس نصيبا في معرفة العلم الإلهي، وأكثر اضطرابا وضلالاً.

الثالث: أن هذا القول مخالف للفطرة الصحيحة التي خلق الله تعالى العباد عليها وهي الدين والإيمان بوجود الله وربوبيته.

الرابع: وجوب التسليم لما جاء به الرسول ﷺ والإيمان به.

الخامس: أن هذه الوصية تتضمن محو العلوم النافعة الصحيحة واستبدالها بالجهالات والشك والضلالات. إلى غير ذلك من الأوجه النافعة الكثيرة.

يقول السعدي: (عن هذا الأصل الخبيث الباطل حكموا حكمًا فظيعًا باطلًا، وهو أن الرجوع إلى الماضي رجعية فاسدة، وأنه يجب إهدار كل قديم. وهجنوا بعباراتهم المتنوعة كل قديم ليتصلوا بذلك للقدح فيما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، وقالوا: إن البشر لم يبلغوا سن الرشد إلا في هذا الوقت الذي طغت فيه

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٨).

علوم المادة وانحلت الأخلاق وشاعت الإباحية والفوضوية الضارة المهلكة، حتى تفاقم الشر وعم الطغيان واضمحل الخير)[1].

الأصل الثاني: ربط المعلومات بالمحسوسات فقط.

قال السعدي: (قاعدة من أخبث أو أخبث أصول الإلحاد وهي أن العلم الحقيقي عندهم ما يدرك بالحواس فقط، وما لم يدرك بالحواس فليس عندهم بعلم، ولا يعد من الحقائق الصحيحة، وهذه القاعدة الخبيثة خالفوا فيها جميع الأديان الصحيحة، بل خالفوا فيها جميع العقلاء؛ فإن مدارك العلم كثيرة متنوعة؛ مدركات الحس ومدركات العقل ومدركات الأخبار الصحيحة، والنوعان الأخيران مدركاتهما أعظم وأكمل وأوسع، فإذا نفيت لم يبق إلا المدركات التي تدرك بالحس وهي دائرة ضيقة توقع أهلها في المهالك، فأعظم آثارها وأبطلها إنكار علوم الغيب كلها)[2].

وقد بيّن العلامة السعدي -رحمه الله- تعالى تناقضهم في هذه القضية، وردّ عليهم من أوجه كثيرة، ومن ذلك:

الأول: أن طرق العلوم اليقينية كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم القاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها وليس بكلها باعترافكم، ويدلّ على ذلك أنكم لا تزالون تبحثون وتعملون التجارب التي تنجح مرة وتخفق مرة.

الثاني: أن رؤساءكم تضاربت أقوالهم وتناقضت ولم يثبتوا على مقالة واحدة فيما يثبتوه أو ينفوه.

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٢٠).

(٢) أصول الدين (٦/ ٨١٤).

الثالث: لو قدر على وجه الفرض اتفاقهم على الإنكار، فكيف يؤخذ بأقوال من لم يُعرف صدقهم، بل عُرف كذبهم وخطؤهم في ذلك.

الرابع: قد اتفقت الرسل والأنبياء وأتباعهم، وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تغيرها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله وبكل غيب[١].

الأصل الثالث: قياس الرب على المخلوق.

من أصول الإلحاد والإشراك بالله تعالى قياس المخلوق على الخالق، والخالق على المخلوق، وهذا ما ذكره السعدي في قوله: (أصل بلاء المشركين والملحدين قياس الرب العظيم بالمخلوق الناقص الحقير، ولم يعترفوا أن الله ليس كمثله شيء، وأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض، وأن له العظمة كلها والكبرياء كله والمجد والحمد والجلال، وأن ما للخلق من أولهم إلى آخرهم من قوة وعظمة وأوصاف فإنها تضمحل غاية الاضمحلال ولا يبقى لها نسبة بوجه من الوجوه إذا نسبت إلى عظمة الله وجلاله وكماله).

ثم رد عليهم ببيان عظمة الله تعالى، وجلاله وكماله في جميع أسمائه وصفاته وأفعاله، وبيّن أن الملاحدة لما لم تصل معارفهم إلى شيء من ذلك، وحصروها في بعض الأسباب، ولم ترتق إلى مسبب الأسباب، ظنوا أن ما وصلوا إليه هو غاية العلم ونهاية المعرفة جهلاً وضلالاً[٢].

الأصل الرابع: تحكيم العقل وتقديمه على النقل.

قال السعدي: (إن مدار هؤلاء الملحدين على تحكيم عقولهم، وعرض العلوم

(١) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٢٦)، أصول الدين (٦/ ٨١٤، ٨٢٤-٨٢٥).

(٢) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٣٠-٣١)، وتنزيه الدين (٦/ ١٨٩).

والحقائق عليها، فما وافقها قبلوه، وما ناقضها نفوه وأنكروه)[1].

وردّ -رحمه الله- على أصلهم هذا ببيان أنهم بذلك عارضوا بها عقول جميع العقلاء وعلوم الأنبياء، وأن عقول الملاحدة عرف فسادها وتناقضها، وأنهم بهذا الأصل المنهار المتهافت فتحوا للناس باب الفوضى في الآراء والنظريات، حتى صار كل جاهل يدّعي أن الصواب معه، حتى قدحوا بما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب[2].

قال: (فيا عجبًا لمن اغتر باحتمالات عقول قد تبين سفاهة أهلها وجراءتهم وهجومهم على أشرف العلوم وأعظم الحقائق فأبطلوها وأنكروها، ولا يغرنك كما غرهم مهارتهم في بعض علوم الهندسة والطبيعة والمخترعات الصناعية؛ فإنها لا تغني من الحق شيئًا ولا تدل على فضل أهلها الفضل الحقيقي ولا شرفهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. والله تعالى جعل للعقول حدًّا لا تتعداه ولا تتمكن من مجاوزته، وما أدركته وتدركه من المعلومات فهو قليل جدًّا في جانب ما لا تعلمه من هذه العوالم، فكيف تتجاوز هذه العوالم التي قصرت العقول عن إدراكها حتى تجحد الرب العظيم الذي هذه العوالم كلها داخلة في ملكه وتصريفه وتدبيره؟! ثم ترجع إلى هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث فتدعي أنها وليدة المصادفة من غير خالق خلقها ولا محدث أحدثها ولا حكيم ابتدعها ونظمها، سبحانك هذا بهتان وجرم عظيم: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٦٧).

(٢) انظر: الأدلة القواطع (٦/ ٦٧).

﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]. فكيف بمن جحده ونفاه بالكلية؟)[١].

الأصل الخامس: استدلالهم بأحوال المنحرفين.

من الأمور التي يستدلّ بها الملاحدة كثيرًا في الطعن على الدين، واتهام المسلمين، استدلالهم بأحوال كثير من الخرافيين والدجالين الذين ينسبون أفعالهم إلى الدين، والدين منهم ومن أفعالهم بريء.

قال السعدي في ردّه على القصيمي: (ثم إن هذا الكاتب بهرج على من لم يعرف الحقائق بالاستدلال بأحوال المنحرفين من الصوفية والخرافيين، ومن تسمّى بالدين وهو منه بريء، وأورد من خرافاتهم وخزعبلاتهم، ما يُظَنُّ أنه يروِّج به باطله، حيث نسبه إلى حملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الدين وأهله الذين هم أهله؛ هم أبعد الناس عن هذه الخرافات، وأعظم المنكرين لها، وأنهم يبرءون منها، وينزهون الدين الإسلامي عنها، فكيف لا يستحي أن يستدل بأحوال ابن عربي، وخرافات الشعراني، وشطحات المتصوفة على الدين وأهله، ويتوسل بذلك إلى القدح في الدين وحملة الدين، وهو يعلم حق العلم أن الإسلام بريء من هذه الأمور والشطحات والخرافات)[٢].

وكذلك ردّ على استشهاده بما قصه عن الرازي والآمدي وابن أبي الحديد وأمثالهم من الحائرين في معرفة الله، وإن كان بعضهم قد تراجع عن حيرته، ونسب هذه الحيرة إلى المسلمين، وتجاهل أنّ هذه الحيرة إنما تولدت لما رفضوا علوم الدين الصحيحة، وحكموا عقولهم في ذلك[٣].

---

(١) الأدلة القواطع (٦/ ٣٩).

(٢) تنزيه الدين (٦/ ١٨٠).

(٣) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٩٨).

الأصل السادس: استدلالهم بتراجع المسلمين وتخلفهم وتطور غيرهم من الأمم الكافرة.

وهـذا من أعظم مـا يحتج به ملاحدة العصر، حين ربطوا بين تأخر المسـلمين في العلوم التجريبية وبين ما يدينون به من دين الإسـلام، وهو ما أقام عليه القصيمي بحثـه، حيث كان مـدار بحثه على أمريـن: الأول: تأخر المسـلمين، والثاني: تطور غيرهـم، فكانـت النتيجة عنـده رفض مـا عليه المسـلمون، وإلصاق هـذا التراجع بالإسلام وعقائده وأخلاقه[1].

وقد بيّن -رحمه الله- الجواب عن هذا الأصل الخطير من أصولهم، من أوجه كثيرة:

أولاً: بإظهار محاسـن هذا الدين الإسلامي، وما يدعو إليه من العدل والرحمة والعلم والحكمة، وأنـه دين المدنية الزاهرة المبنية على صلاح القلوب والأرواح، وصلاح الدين والدنيا.

ثانيـًا: أن الديـن كما حثّ علـى تعلم العلـوم والفنون التي ترجـع إلى صلاح الديـن، حـثّ على تعلـم العلوم والفنون التـي تعين على قيام حيـاة الأمة وإصلاح أحوالها واسـتعدادها لمقاومـة الأمم الأخرى، فقد قال في جانـب مقاومة الأعداء: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال في جانب الدفاع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النسـاء: ٧١]، وكذلـك كلّ آيـة أو حديـث في الأمـر بالجهاد والحثّ عليه.

ثالثـًا: أن الديـن كما أمر بالاسـتعداد بالقوّة المادية فقد أمر بالاسـتعداد بالقوة

(١) انظـر: تنزيـه الديـن (٦/ ١٦٩-١٧٠، ١٧٦، ١٧٩)، أصـول الديـن (٦/ ٨٢٠-٨٢٢)، النصيحة الربانية (٦/ ٩٤)، وجواب مجمل (٦/ ٢١٥).

المعنوية، كأمره بالإيمان والتوكل على الله تعالى، وحثهم على تمرين النفوس على القوة والشجاعة.

رابعًا: أن الدين يخبرنا أن التوكل وحده بدون فعل الأسباب ليس بتوكل حقيقي، بل هو ضعف وعجز[١].

خامسًا: أن رقي الأمم الكافرة وسبقها لغيرها في الاختراعات والفنون الصناعية لم يكن إلا بعدما أدخلت عليها تعليمات هذا الدين، واقتبسوا أصل هذه الصناعات من المسلمين[٢].

سادسًا: بيان السبب الحقيقي لتأخر المسلمين، فليس في دين الإسلام أصل من الأصول أو فرع من الفروع يوجب على أهله التأخر بوجه من الوجوه، وإنما السبب الوحيد هو ترك الاستمساك بروح الدين ومقوماته[٣].

قال السعدي في بيان أن العبرة ليس في التقدم الدنيوي: (انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مرتابين، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون، كم هدموا من محاسن وفضائل، وكم أقاموا من شرور ورذائل! ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، ولا تغتر بما أعطيه هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء وفطنة وأعمال، فإن الذكاء وتوابعه إذا لم يصرف فيما خلق له العبد، وإذا أنكر صاحبه أوضح الأشياء وأحقها، كان ضررًا كبيرًا على صاحبه مآله الهلاك)[٤].

---

(١) انظر الوجوه السابقة في: تنزيه الدين (٦/ ١٧٠-١٧٢).

(٢) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٧٤).

(٣) انظر: تنزيه الدين (٦/ ١٧٥).

(٤) الأدلة القواطع (٦/ ٢٢).

المبحث الرابع: نماذج من منهج الشيخ السعدي في نقض بعض شبهات أهل الإلحاد.

لقد نبّه الشيخ السعدي -رحمه الله- على كثير من الشبهات التي عرضها الملاحدة للطعن في الإسلام وأهله، وكان -رحمه الله- يأتي عليها بالنقض الجلي الواضح، وسأعرض في هذا المبحث نماذج من هذه الاعتراضات ونقضه لها، خصوصًا عند ردّه على القصيمي الذي عرض في كتابه كثيرا من الشبه والاعتراضات.

أولاً: تحريفه لحديث: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به...**» إلى آخر الحديث[1]، فقال: إن الحديث يدل على أن العبد غير مقيد، وأنه لا يمتنع على قدرته شيء، وأنه لا حد يقف عنده علمه وقدرته.

الجواب:

أن هذا الإلحاد والتحريف لكلام الله وكلام رسوله لم يقل أحد ما يشبهه إلا الملاحدة من أهل وحدة الوجود، ومعنى الحديث معروف ولله الحمد بين المسلمين، أن ذلك يدل على تسديد الله وتوفيقه ومعونته الخاصة لعبده القائم بمحبوباته من الفرائض والنوافل[2].

ثانيًا: ما قاله على قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١]. حيث زعم أن علم الإنسان محيط بمبادئ خلق هذا العالم؛ فإنه يزعم أن الآية لا تنفي العلم، حيث قال: ما أشهدتهم، ولم يقل: ما أعلمتهم، وزعم أنهم كانوا عالمين وإن لم يكونوا مشاهدين.

الجواب: أن هذا لم يقله أحد من المفسرين. أما تفسيرها المعروف عند

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦١٣٧).

(٢) انظر: تنزيه الدين (٦/ ٢٠٠).

المسلمين، فهو أن الله أنكر على الكافرين به المكذبين لرسله، الذين زعموا أن أحدًا من المخلوقين يستحق من العبادة والخضوع ما يستحقه الله فكذبهم الله، وأخبر أن جميع الخلق ليس لهم مشاركة لله بوجه من الوجوه، فلم يشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، وهذا نفي لطرق العلم كلها، يعني فليس لهم سبيل إلى ذلك، فإنهم إذا لم يشهدوا ذلك، فهم لم يعلموه وإذا لم يعلموه فشهادتهم ودعواهم لاستحقاقها العبادة، دعوى في غاية البطلان والتقول على الله تعالى، وهي نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص:٤٤][1].

ثالثا: ومن تحريفاته التي تقشعر منها الجلود، على قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧]. أن المراد بذلك القرن الذي أنزل عليهم، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن معناها أن علومهم لم تصل إلى بواطن الأشياء، وإنما علمهم قليل جدًّا، وأنهم في ذلك الوقت في طور الطفولية، بل في طور قريب من طور الحيوانات، ولم يبلغوا رشدهم، وإنما الذين بلغوا رشدهم عنده ملاحدة هذا الزمان.

والجواب: أن الآية ولله الحمد واضحة لا إشكال فيها، وأن هذا وصف للكافرين المكذبين لمحمد -صلى الله عليه وسلم-، أخبر تعالى أن علومهم ظاهرة، يعلمون ظاهر الحياة الدنيا دون باطنها، وأنهم في غفلة عن الآخرة، فهذا السبب الذي أوجب لهم رد ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- وإلا فلو علموا ظاهرها وباطنها المقصود منها؛ لبادروا إلى الإيمان بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، كما فعله أهل العلم الحقيقي الذين بادروا لما رأوا الآيات البينات إلى الإيمان به، لكن هذا الرجل يطبّق هذه الآية على خيار الخلق، وأكمل القرون على الإطلاق، ويسخر من العالمين بباطن الدنيا المستعدين للآخرة، القائمين بعبودية الله، الجاعلين الدنيا وسيلة إلى الدين[2].

(١) انظر: تنزيه الدين (٦/ ٢٠١).

(٢) انظر: تنزيه الدين (٦/ ٢٠١-٢٠٢).

رابعًا: تفسيره لحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1]. بأن الفطرة هي الخبث والشر، وأن الإنسان بطبعه خلق شريرًا، وأن الفطرة معناها أنه مفطور على الشر.

الجواب:

١/ أن في هذا رفض جهارًا لتفسير أئمة الهدى لهذا الحديث، بأن معناه هو أن الله فطر عباده على قبول الخير علمًا وعملًا، وأن الله تعالى جعل في خلقتهم استعدادًا تامًّا لقبوله نعمة منه وفضلًا، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾[الروم: ٣٠-٣١]. الآية.

٢/ يلزم على قوله أن يُستَدْرَكَ على النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: «**فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**».

٣/ في نفس الحديث رد عليه حيث قال: «**كالبهيمة الجمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها**». أي: كالبهيمة التي تولد مجتمعة الخلق كاملة الأعضاء، حتى يجدعها الناس، بقطع الآذان أو بعض الأعضاء، كذلك الآدمي خلقه الله مفطورًا على الاستعداد لمعرفة الحق وقبوله، فلو ترك وفطرته ولم يعرض له ما يغيِّرها من التربية السيئة، لما اختار غير الدين الحق، فالقول بأنَّ الفطرة معناها الشر والهمجية، منافٍ للآية والحديث[2].

وذكر الشيخ -رحمه الله- جملة من هذه الشبهات المتهافتة التي تدل على ضعف في العلم والعقل، والحجة والبرهان.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٣١٩)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٥٨).

(٢) انظر: تنزيه الدين (٦/ ٢٠٢-٢٠٣).

الخاتمة

بعد عرض منهج الشيخ السعدي -رحمه الله- في ردّه على أهل الإلحاد يتبين لنا ما يلي.

أهم النتائج:

١- أن الشيخ السعدي من المدافعين عن الملة، وممن سلّ قلمه في الذب عن الدين، وخصوصا الرد على الملحدين.

٢- يظهر لنا جليا خطورة الإلحاد، وأنه مرتع وخيم لنبذ الدين ومنابذته وحربه وحرب أهله.

٣- أن الإلحاد انسلاخ من جميع الأخلاق والعادات الحسنة، وانحلال من كل المبادئ الإسلامية.

٤- أن على أهل العلم الاجتهاد في بيان ما عليه أهل الإلحاد، وبيان لوازم أقوالهم، ومآلات أحوالهم.

٥- أن الأدلة الشرعية والعقلية كلها تدحض ما يقوله أهل الإلحاد.

٦- أن الإلحاد له أصول فبإسقاطها يسقط الإلحاد وينهدم.

٧- أن منهج السعدي في الرد على أهل الإلحاد امتاز بكثير من المزايا، منها:

١- أسلوبه السهل الواضح في بيان حقيقة الإلحاد والرد عليه.

٢- قوّة حجته العلمية الشرعية المأخوذة من الكتاب والسنة.

٣- بيان الحجج العقلية الواضحة في نقض الإلحاد وأصوله.

٤- استخدام المقارنات التي توضح الدين الصحيح وتنقض الإلحاد والباطل.

٥- ربطه بين أقوال الملاحدة المتقدمين مع الملاحدة المعاصرين، وبيان أصولهم المشتركة.

توصيات:

١- أوصي نفسي وأهل العلم وطلابه بالاجتهاد في الكتابة في بيان ما يدعو إليه الإلحاد وأهله، خصوصا مع انتشاره بين شباب المسلمين.

٢- استغلال وسائل التواصل الاجتماعية الإلكترونية في الرد على الملحدين وبيان زيف أقوالهم.

٣- التأليف في أنواع الإلحاد المعاصر، وبيان مآلاته الخطيرة، ومفاسده، والرد عليه بالعقل والنقل.

٤- كتابة رسالة علمية واسعة حول: جهود الشيخ السعدي في بيان خطورة الإلحاد، ومنهجه في الرد عليه، وبيان أسباب الإلحاد، وكيفية معالجته، خصوصًا أن ما تركه الشيخ حول ذلك يعدّ ثروة علمية ثريّة.

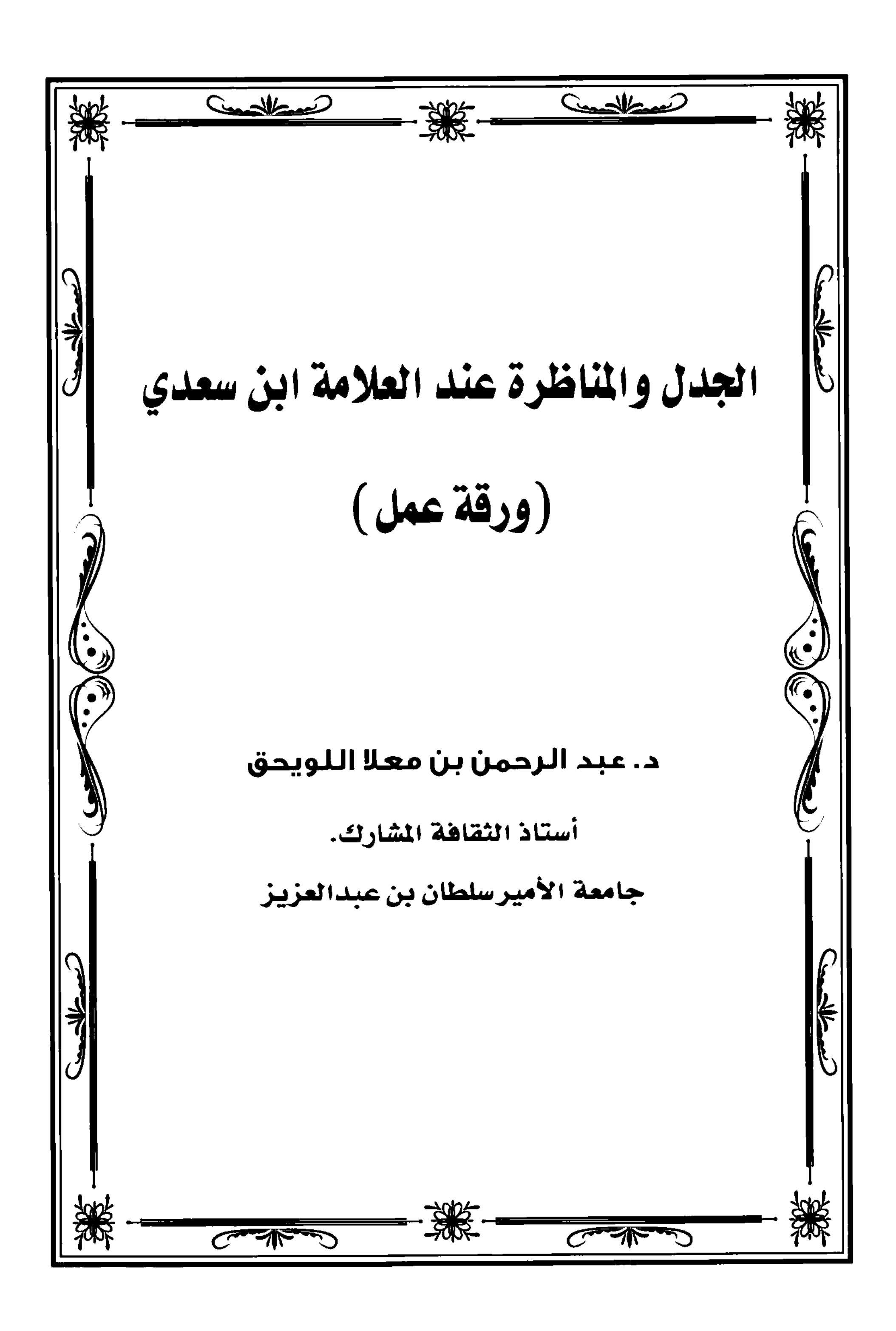
٥- دراسة أسباب انحراف عبدالله القصيمي وإظهارها من خلال كلام الشيخ السعدي، والربط بينه وبين الملاحدة المعاصرين.

٦- العناية بتحقيق وخدمة كتاب الشيخ السعدي: (الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين)، وتمييز أقواله عن نقولاته، والإحالة إلى ما ينقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم.

فهرس المراجع

- الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- أصول الدين، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تأليف: ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- جواب مجمل عمّا احتواه كتاب الأغلال من الضلال، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- الدرة البهية في شرح القصيدة التائية، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- الرد على الزنادقة والقائلين بوحدة الوجود، ضمن المجلد السادس من المجموع.
- صحيح البخاري، تأليف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار ابن كثيرأبيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.
- صحيح مسلم، تأليف: مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد.

- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تأليف: ابن القيم الجوزية، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٨هـ، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله.
- الفتوى الحموية الكبرى، تأليف: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية ، دار الصميعي - الرياض - ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : حمد بن عبد المحسن التويجري.
- لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر- بيروت ، الطبعة : الأولى.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف: أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.
- مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبع على نفقة مؤسسة الأميرة العنود بنت عبدالعزيز آل سعود، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، دار الميمان، الرياض.
- نبذة جامعة مفيدة مختصرة في التحذير من كتاب (هذي هي الأغلال).
- النصيحة الربانية في الرد على المغترين بدعاة الإلحاد والمدنيّة الغربية (انتصار الحق)، ضمن المجلد السادس من المجموع.



الجدل والمناظرة عند العلامة ابن سعدي

(ورقة عمل)

د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق

أستاذ الثقافة المشارك.

جامعة الأمير سلطان بن عبدالعزيز

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن من العلامات البارزة في شخصية الشيخ العلامة: عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله- سعة أفقه، وتواصله الكبير مع ثقافات متنوعة متعددة، ومشارب مختلفة بقراءات واسعة، وامتدادات علمية عبر أشياخه، وقد أثمر ذلك ثمرات منها: قدرته على الجدل، بل وإجادته لهذا الفن الذي عز نظيره في الظرف الزماني والمكاني الذي كان يعيشه.

وقد أحببت أن أشارك في هذ المؤتمر المباركة:(الشيخ العلامة: عبد الرحمن بن ناصر السعدي «آثاره ومنهجه في الاجتهاد والتجديد والدعوة») بهذا البحث:(الجدل والمناظرة عند العلامة ابن سعدي -رحمه الله-).

لأكشف من خلاله جانباً من جوانب هذه الشخصية التي أكن لها عظيم المحبة، واتصلت بها اتصالاً علمياً منذ بواكير عمري، عبر القراءة والعناية بمؤلفاته، وعبر الأخذ عن تلاميذه الكبار الذين ورثوا عنه علمه، وأساليبه في التعليم والعناية بالطلاب.

ومشكلة البحث التي أنشد كشفها: هل للشيخ ابن سعدي -رحمه الله- منهج مميز في الجدل والمناظرة؟ وكيف صاغ ضوابطه وحدوده؟ ومدى تأثير ذلك على طريقته في التأليف والتعليم.

وأبرز ما قصدته في هذا البحث:

١- تركيز الضوء على رؤية الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- ومنهجه النظري في

الجدل والمناظرة.

٢- إيضـاح طريقـة الشـيخ ابن سـعدي -رحمـه الله- ومنهجه العملـي في الجدل والمناظرة.

٣- فتح آفاق لطلبة العلم للاقتداء بالشـيخ ابن سـعدي -رحمه الله- في اتسـاع أفقه ورؤيته المميزة للجدل والمناظرة.

وهـذا البحـث يتألف من مقدمة، وخمسـة مباحث ضمنها مطالـب، وخاتمة، وفهارس وفق الخطة التالية:

- المقدمة.
- المبحث الأول: تعرف الجدل والمناظرة.
- المبحث الثاني: مقاصد الجدل والمناظرة.
- المبحث الثالث: حكم الجدل والمناظرة وحدودهما.
- المبحث الرابع: ضوابط الجدل والمناظرة، وآدابها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ضوابط الجدل والمناظرة.

المطلب الثاني: آداب المناظرة.

- المبحث الخامس: تطبيقات الجدل والمناظرة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التأليف.

المطلب الثاني: التعليم.

- الخـاتـمـة.
- فهرس المراجع.
- فهرس الموضوعات.

وإني لأرجو أن تكون هذه الورقات إسهاماً نافعاً في هذ المؤتر، محققة للتعريف بجانب حياة هذا العلم، تحدو شداة العِلم وطلابه أن يقتفوا أثره العلماء الأفذاذ: علماً وهدياً وسمتاً وخلقاً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

المبحث الأول: تعريف الجدل والمناظرة

أولاً: الجدل:

قال ابن فارس -رحمه الله-:(جدل: الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام)[١].

(وأصله الخصومة الشديدة؛ وسمي جدلاً لأن كل واحد منهما يحكم خصومته وحجته إحكامًا بليغًا على قدر طاقته تشبها بجدل الحبل، وهو إحكام فتله، يقال: جادله يجادله مجادلة وجدالا)[٢].

والمجادلة في الاصطلاح كما عرفها الفيومي-رحمه الله-:(استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فمذموم)[٣].

وقال الجرجاني-رحمه الله-:(دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة)[٤].

وعرفها عبد الوهاب الآمدي -رحمه الله- فقال:(المدافعة لإسكات الخصم؛ لأنه كلا من المجادلين يريد حفظ مقاله، وهدم مقال خصمه، سواء كان حقاً و

---

(١) معجم مقاييس اللغة:(١/ ٤٣٣) وانظر: ابن منظور: لسان العرب:(١١/ ١٠٣).

(٢) النووي: تهذيب الأسماء:(٣/ ٣٣١).

(٣) المصباح المنير:(١/ ٩٣).

(٤) التعريفات:(٧٤).

باطلاً)[1].

وعرفها ابن سعدي -رحمه الله- فقال:(المجادلة: بين اثنين فأكثر، تتعلق بالمسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما، يجتهد في إقامة الحجة على ذلك)[2].

ومراده -رحمه الله- هنا بيان المجادلة من حيث هي، وسيأتي مزيد بيان لمفهومه للمجادلة في مقاصد المجادلة[3].

ثانياً: المناظرة:

قال ابن فارس -رحمه الله-:(نظر: النون والظاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد، وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويتسع فيه. فيقال: نظرت إلى الشيء أنظر إليه، إذا عاينته)[4].

والمناظرة: لغة من النظير، أو من النظر بالبصيرة ويقال ناظر فلانا: صار نظيرا له، وباحثه وباراه في المحاجة، وناظر الشيء بالشيء جعله نظيرا له[5].

وفي الاصطلاح؛ عرفها الجرجاني -رحمه الله- فقال:(النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب)[6].

وعرفها عبد الوهاب الآمدي -رحمه الله- فقال:(تردد الكلام بين شخصين،

(١) شرح الرسالة الولدية:(٥٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٦٩).

(٣) انظر: صحيفة:(٥).

(٤) معجم مقاييس اللغة:(٥/ ٤٤٤).

(٥) انظر: الجرجاني: التعريفات:(٢٣١) و المعجم الوسيط:(٢/ ٩٣٢).

(٦) التعريفات:(٢٣٢).

يقصد كل منهما تصحيح قوله، وإبطال قول صاحبه؛ ليظهر الحق)[1].

وعرفها محمد عبد الحميد:(تردد الكلام بين شخصين فأكثر، يريد كل واحد منهما صحة قوله، وإبطال قول خصمه، مع رغبة كل واحد في إصابة الحق وإظهاره)[2].

(١) شرح الرسالة الولدية:(٥٧).

(٢) رسالة الآداب:(٦).

المبحث الثاني: مقاصد الجدل والمناظرة:

إن من سنَّة الله في الخلق: اختلافهم، فهم مختلفون باعتبارات متعددة، فمنهم: المستقيم على الحق علماً وعملاً، ومنهم: المغضوب عليهم الذين علموا الحق فعملوا بضده، ومنهم: الضالون الذين عملوا على جهل وضلال، والناس في ذلك ما بين مستقل ومستكثر.

والجدل بين الناس طريق لإظهار الحق، قال ابن سعدي -رحمه الله-:(ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه ..

ومن حكمته: أن في ذلك بيانا للحق، وتوضيحا له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه -حينئذ- يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون)[1].

وهذا الجدل يكون على مستويات مختلفة، ولكنه ليس عملاً فارغاً من القصد الصحيح، بل له غايات ومقاصد رفيعة، كما أنه ليس عملاً مقصوداً لذاته، ولا يراد منه سوءاً فالمقصد الرئيس للجدل والمناظرة عند ابن سعدي -رحمه لله-:(هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها)[2].

وإذا قصد المتجادلان ذلك إلى القول الحق الصواب الراجح؟ (إذا كان كل من المتناظرين ليس له قصد إلا معرفة الحق والراجح، وإيثاره ، فبذلك تتم المباحثة والمناظرة، ويحصل مقصودها)[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن:(٢٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٢٦٩).

(٣) المناظرات الفقهية:(٢٥٨-٢٥٩).

ومتـى ما تحققت هذه الغايـة لم يبق للجدل معنى فالمقصود من الجدال، بيان الحق من الباطل: ليهتدي الراشـد، ولتقوم الحجة على الغاوي، لذا (بعد ما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل)[1].

(فكل من جادل في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق عمله، فإنه غالط شـرعـاً وعقلاً)[2].

وقال -رحمه الله-:(بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهـل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشـاغبة والمغالبة، فهـذا لا فائدة في جداله، لأن المقصـود منها ضائع)[3].

فلما ظهر منهم مقصد المشـاغبة والمغالبة، فإننا لا نقابلهم بمثلها، بل نتوقف عن المجادلة.

وإذا كان القصد من المجادلة: الوصول للحق، فإن المجادل يقبل الحق، ولو كان في قول خصمه، يقول الشيخ -رحمه الله- في بيان القصد من المناظرة (أن يرد مـا مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه مـن الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً)[4].

وبهذا فإنه لا محل للجدال في القطعيات، وإنما يقع الجدل عند الاشتباه، يقول -رحمه الله- في تفسير قوله -عز وجل ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا

(١) تيسير الكريم الرحمن:(٧٥٥).

(٢) القواعد الحسان:(١٧٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن:(٦٣٢).

(٤) المصدر نفسه:(٦٣٢).

يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾[الأنفال:٦]:(الجدال محله وفائدته: عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان)[١].

وإذا سعى المتجادلان إلى تحقيق هذا المقصد صح عملهما، وأجرا جميعاً فـإذا كان الجدل قصده ترجيح ما رجحه الكتاب والسنَّة صار كلا المتناظرين (مأجورين على اجتهاداتهم، فالمصيب له أجران، والمخطئ له أجر واحد، وخطؤه معفو عنه)[٢].

وفي المناظرات والمجادلات التي ألفها الشيخ -رحمه الله- بين معالم في ذلك منها:

١ - أن من مقاصد المناظرة تربية المناظر على أن يخضع للحق الموافق للعقل والفطرة، حيث أورد -رحمه الله- في مسألة، زكاة الدين على لسان المستعين بالله قوله:(الآن ظهر قوة هذا القول ووضحانه، وأنه هو القول الموافق للشرع ، الموافق للعقل والفطرة، والحمد لله رب العالمين)[٣].

٢ - أن المناظرة تربي المتناظر على أن ينتصف للحق من نفسه ولا يتعصب بلا نور، ففي مسألة: الجدُّ مع الإخوة في الميراث، أورد -رحمه الله- على لسان المستعين بالله قوله:(لقد جزمت بضعفه في أول ما برهنت عليه قبل أن تستكمل بقية الأدلة، فواحد مما ذكرته كاف، والباقي نور على نور، والحمد لله على فضله وإحسانه)[٤].

---

(١) المصدر نفسه:(٣١٥).

(٢) المناظرات الفقهية:(١٩٤).

(٣) المصدر نفسه:(٢٢٩).

(٤) المناظرات الفقهية:(٢٥٢).

٣- أن المناظرة لا يشترط لها الانتصار لأحد القولين، فقد تتكافأ الأدلة فلا يرجح قولٌ على قول، فإذا كان مقصود المناظرة الوصول إلى الحق، وتكافأت الأدلة لم يكن لأحدٍ أن ينتصر لقول دون آخر[١].

٤- أن المناظرة تربي وتعلم المتناظرين على المنهجية العلمية في عرض الأدلة بشكل متين محكم[٢]، وعلى ذلك جرى في المناظرات التي ألفها قاصداً أن الواجب: العناية بالأدلة وأن يكون عرضُ كل لدليله وفق القواعد المقررة في علوم أصول الفقه وأصول التفسير ونحوها.

٥- أن المناظرات وإن كانت دالة على اختلاف العلماء، وتعدد أقوالهم إلا أنها تزيد من معرفة أقدار العلماء ووجوب توقيرهم، لا الانتقاص منهم (فإن أهل العلم لهم من الفضائل والمحاسن والمزايا ما لا يعرفها حق المعرفة إلا من شاركهم في طريقهم وأعمالهم .

وحاصل هذا أن نصرنا لقول على آخر لا يدل على انتقاصنا من كان يرى خلاف ما رأينا لاجتهاده، والحمد لله على هذه النعمة)[٣].

٦- أن على المناظر المنصف أن يتعلم كيفية أن يتنزل لمناظره ويستوضح منه ما أشكل عليه، ففي مسألة، إمامة العاجز عن شرط أو ركن أورد -رحمه الله- على لسان المتوكل على الله قوله:(أخبرني يا أخي: ما السبب الذي أوجب لي الجزم التام بالقول الذي كنت أقوله، وهذه الأدلة التي شرحتها تمر علي في كثير من أوقاتي، وأنا لم أزل حريصا على تلقي العلم الصحيح ، وهي في طي

(١) انظر: مسألة: العقود المعلقة بشرط: المناظرات الفقهية:(٢٣٣-٢٣٥).

(٢) انظر: كتابه:"المناظرات الفقهية" وكتابه:" انتصار الحق ".

(٣) المناظرات الفقهية:(٢٢٠).

الخفا، كأنها لم تمر علي؟)[1].

٧- أن علـى المناظر أن يعي الأسـباب الداعية إلى التعصـب للأقوال وعلاج ذلك والتي (من أبلغها: نشـوؤك على هذا القول، واعتقادك إياه اعتقادا رسـخ فيه، والاعتقاد الراسـخ في القـول -ولو كان خطأ- لا يزيلـه إلا علم قوي وبراهين جلية، إن صادفت إنصافا وعدم تعصب، وإلا فلا.

ومن الأسـباب: إخلادك إلى ترك الاسـتدلال وطلب البراهين، فإن من اعتاد الجـري علـى أقوال لا يبالـي أدل عليها دليل صحيح أو ضعيـف أو لم يدل، يخمد ذهنه ولا ينهض بطلب الرقي والاستزادة في قوة الفكر والذهن.

فاحرص يا أخي على معرفة المسـائل بأدلتها ومآخذها، والمقابلة بين الأقوال الخلافية، واستوعب كل دليل قيل فيها، فبذلك ترتقي إلى درج ومعارف وعلوم لا يوصل إليها إلا بهذا الطريق، فلتكن القواعد الشرعية والأصول الكبار نصب عينيك في جميع الصور والمسائل، فقل مسألة إلا وتبنى على قواعد كلية.

وخـذ نصيبا من أصول الفقه تحتاج إليه، بل تضطر إليه في هذا الطريق واسـأل الله مع هذا الإعانة، فمن بذل الجهود، وسلك الطريق المعهود، واستعان بالمعبود: نال المقصود)[2].

---

(١) المصدر نفسه:(٢٢٦).

(٢) المناظرات الفقهية:(٢٢٦-٢٢٧).

المبحث الثالث: حكم الجدل والمناظرة وحدودهما

الجدل والجدال منه ما يكون مشروعاً ممدوحاً، ومنه ما يكون باطلاً مذموماً؛ فإن كان للوقوف على الحق وتقريره ورفعه كان محمودًا، قال الله تعالى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل: ١٢٥].

وإن كان في مدافعة الحقِّ، أو كان جدالاً بغير علم كان مذمومًا؛ قال الله تعالى ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر:٤]،وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في مدح الجدال أو ذمِّه[1].

فمن النصوص الدالة على مشروعيته والإذن به:

١- قال تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية.

وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك.

وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع)[2].

---

(١) انظر: النووي: تهذيب الأسماء:(٣/ ٤٨) والأذكار:(٣٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٦٣٢).

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(قد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام، كل يدعى بالطريق التي تناسبه:

القسم الأول: المنقادون الملتزمون الراغبون في الخير، الراهبون من الشر، فهؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات، والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح، فقط يكتفى ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض.

والقسم الثاني: الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادَّة عن الحق، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب؛ لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعها، ولا تترك أغراضها الصادَّة لها عن الحق علما وعملا إلا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذكر ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة.

والقسم الثالث: المعارضون أو المعاندون المكابرون، المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل، فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن بحسب ما يليق بالمجادِل والمجادَل وبتلك المقالة وما يقترن بها.

وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماما فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التي حكاها في كتابه مع أممهم المستجيبين، والمعرضين والمعارضين، تجدها محتوية على غاية الحسن في كل أحوالها)[1].

٢- قال تعالى﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[النحل:١٢٥].

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحق

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن:(٣٥٤- ٣٥٥).

الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة)[1].

ومن النصوص الذَّامة له:

١- قوله تعالى ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[غافر: ٤].

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل)[2].

٢- قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[غافر: ٣٥].

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(ذكر وصف المسرف الكذاب ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾التي بينت الحق من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ ﴾أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلاً ﴿ كَبُرَ ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فالله أشد بغضًا لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة

---

(١) المصدر نفسه:(٣٥٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٧٣١).

لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه)[1].

٣- قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج:٣].

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(أي: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار)[2].

٤- قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج:٨].

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿ يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق ﴿ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ صحيح ﴿ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد ﴿ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوحيها إليه الشيطان)[3].

٥- وقال الله سبحانه ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ ﴾[آل عمران:٦٦].

(١) المصدر نفسه:(٧٣٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٥٣٣).

(٣) المصدر نفسه:(٥٣٤).

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به).

٦- وقوله تعالى﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧].

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصا الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصا عند النساء بحضرتهن.

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام.

والجدال وهو: المماراة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة)[1].

---

(١) المصدر نفسه:(٩١).

المبحث الرابع: ضوابط الجدل والمناظرة، وآدابها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ضوابط الجدل والمناظرة.

المطلب الثاني: آداب المناظرة.

المطلب الأول: ضوابط الجدل والمناظرة

للجدل والمناظرة ضوابط استخرجتها من كتابات الشيخ -رحمه الله- هذا إجمالها:

الضابط الأول: الإخلاص:

فعلى المناظر أن يكون مخلصاً متجرداً لله وأن يسأله -عز وجل-(الإعانة، فمن بذل المجهود، وسلك الطريق المعهود، واستعان بالمعبود: نال المقصود)[1].

وهذا يظهر ترابط مقامات الإيمان، فلا تكون الاستعانة بالمعبود إلا قرينة الإخلاص له، وقد نص أيضاً على أن المقصود من المجادلة:(هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها)[2].

والإخلاص لله يعني أن يكون مقصده رضا الله -عز وجل- لا العلو والغلبة على الناس، وإخلاص القصد يقتضي موافقة مقصود الشارع بهداية الخلق إلى الحق.

---

(١) المناظرات الفقهية:(٢٢٧) وانظر: الفتاوى السعدية:(٤٤٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٤٥٢).

يقـول ابن سـعدي -رحمـه الله-:(وأن لا يكون القصد منها مجـرد المجادلة والمغالبـة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهـل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع)[1].

يقـول -عـز وجـل- ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة:١٣٩] يقول ابن سعدي -رحمه الله-:(ففي هذه الآية، إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتماثلين، والفرق بين المختلفين)[2] .

وقـد يكـون المجادل مخلصـاً قاصـداً للحق، ولكـن مقابله معانـد ومع ذلك يجتهد المرء في إحسان مجادلته لإيصاله إلى الحق.

يقـول ابن سـعدي -رحمه الله- في ذكـر نوعٍ من المجادليـن:(المعارضون أو المعانـدون المكابرون، المتصدون لمقاومـة الحق ونصرة الباطل، فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن، بحسب ما يليق بالمجادِل والمجادَل وبتلك المقالة وما يقترن بها)[3].

وإذا أخلـص العبـد في المناظـرة لله -عـز وجـل- وأراد الوصـول للحق، فإن مناظرتـه تقوم على أحسـن الأخلاق، ومـن علامات الحق:(إحـداث الطمأنينة في القلب.

ومن علاماته: أنه يتتبع مصالح الخلق ومنافعهم ، فيبيح لهم كل ما فيه نفع خال

---

(١) المصدر نفسه:(٦٣٢).

(٢) المصدر نفسه:(٦٩).

(٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن:(٣٥٣- ٣٥٤).

من الضرر، أو نفعه أعظم من ضرره.

ومن علامات الحق: أنه يدفع الظلم والمكر والخديعة وسوء المعاملة بكل طريق)[1].

الضابط الثاني: أن تكون قاعدة المجادلة: « الحق »:

بأن تكون المناظر بالحق وبطرقه الحقيقية؛ لأنه السبب الوحيد للرشاد والإرشاد، فلا مجادلة ولا مناظرة (إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية)[2] .

والحق إنما هو في العلم الصحيح، فعلى المناظر أن يعلم أن (كل قول وعمل وحال تأسس على العلم وكان تابعا للعلم، فإنه مؤسس على التقوى، ثابت لا يتزعزع، مثمر لخير الدنيا والآخرة)[3].

وبهذا فإن المجادل لا يدعو إلى قوله، بل يدعو(المجادل إلى الحق، ويبين محاسن الحق ومضار ضده، ويجيب عما يعترض به الخصم من الشبهات)[4].

وأعظم ما تكون المناظرة به:«القرآن الكريم» فهو أصل الحق ومنبعه، فحجج القرآن أظهر الحجج، وآياته أبين الآيات، ففي القرآن من الاحتجاج على المبطلين في عقائدهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها وإقامة الحجج والبراهين على فساد قولهم شيء كثير، لا يأتي مبطل بقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان

---

(١) المناظرات الفقهية:(٢٣٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٦٣٢).

(٣) المناظرات الفقهية:(٢٥٨).

(٤) الدين الصحيح يحل كل المشكلات:(٣٥٧).

الجلي ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] [1].

وبهذا فإن المناظرة الصحيحة تكون بالحق: حججاً وأدلةً، وهي إلى الحق لا إلى مذهب خاص، ولا رأي ذاتي، فأكد ابن سعدي -رحمه الله- أن على المناظر دعوة مقابله إلى الاستدلال ليصل إلى الحق(فإن من اعتاد الجري على أقوال لا يبالي أدل عليها دليل صحيح أو ضعيف أو لم يدل، يخمد ذهنه ولا ينهض بطلب الرقي والاستزادة في قوة الفكر والذهن.

فاحرص يا أخي على معرفة المسائل بأدلتها ومآخذها، والمقابلة بين الأقوال الخلافية، واستوعب كل دليل قيل فيها، فبذلك ترتقي إلى درج ومعارف وعلوم لا يوصل إليها إلا بهذا الطريق، فلتكن القواعد الشرعية والأصول الكبار نصب عينيك في جميع الصور والمسائل، فقل مسألة إلا وتبنى على قواعد كلية.

وخذ نصيباً من أصول الفقه تحتاج إليه، بل تضطر إليه في هذا الطريق)[2].

ويستخدم المجادل المناهج الصحيحة الموصلة للحق، فالمناظرة تكون بالعلم الصحيح الذي (دل عليه الدليل، والنافع منه ما هو منقول عن الرسول .. والاجتهاد في تقرير المسائل وتصويرها، وتحريرها وبمعرفة أدلته ومآخذه وأصوله التي يرجع إليها، وبالمقابلة بين الأقوال المتباينة، والمسائل المتعارضة، فإن الحق عليه أدلة وبراهين، وشواهد يتميز بها عن ضده؛ وبضدها تتبين الأشياء)[3].

ويحتج بالنصوص الصحيحة، والقواعد العلمية المقررة، ففي حوار في المناظرات ساق -رحمه الله- على لسان أحد المتناظرين:(فنحن معنا نصوص

(١) ابن سعدي: القواعد الحسان:(٢٢٢-٢٢٣).

(٢) المناظرات الفقهية:(٢٢٦-٢٢٧).

(٣) المصدر نفسه:(١٩٤).

مجمع عليها، ومعنا الجري أيضا على القواعد المعلومة، وأنتم معكم قياس من أضعف الأقيسة -بل اتضح فساده- مقابل النص، فوجب عليكم - كما وجب علينا- الرجوع إلى ما دل عليه النص)[1].

ويبتعد عن الأقوال الضعيفة التي من خواصها:(وجود التناقض فيها، وعدم انبنائها على أصل متفق عليه، وصعوبة: فهمها، وصعوبة: العمل بها أو تعذره)[2].

وإذا كانت المناظرة للحق وبالحق، فإن المناظر يسلم للدليل السالم عن المعارض.

قال ابن سعدي-رحمه الله- في سياق مناظرة فقهية:(قال المتوكل على الله: فإن لم يكن عندك من الترجيح لقولك سوى ما شرحته، وهو كذلك، وجب عليك كما وجب علي اتباع القول الصحيح، فلست أقول لك: قل بقولي، واتبعني على ما قلت.

وإنما أقول: أنا وأنت: الواجب علينا واحد، اتباع ما رجحه الدليل السالم عن المعارض المقاوم.

فقال المستعين بالله: سمعا وطاعة للبراهين الشرعية المبنية على القواعد المرضية، وله الحمد على الإرشاد تعليما وتوفيقا للعمل)[3].

ويكون الحق قاعدة جداله، فمجادلة أهل الكتاب تكون (مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب

---

(١) المصدر نفسه:(٢١٩).

(٢) المناظرات الفقهية:(٢١١).

(٣) المصدر نفسه:(٢١١-٢١٢).

الإلهية، أو بأحد من الرسل ..

فإن بناء مناظرة أهل الكتاب، على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب، وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم قد بينتها ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام)[1].

إن (أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقا بهذا القرآن وبمن جاء به) [2].

وتكون المناظرة قائمة على العدل ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[الشورى:١٥] (ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل)[3].

مع الحذر من طريقة الجهال عند مناظرة الخصوم، فيقدحون (بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر)[4]، فقد نصَّ على أن القدح في كل قول دون تمييز بين الحق والباطل ظلمٌ وجورٌ.

وبهذا فإنه (ينبغي لمن ناظر غيره أن يؤسس الأسس التي يتفق عليها المتناظران؛ ثم إذا حصل الاتفاق وتم الالتئام انتقل منه إلى المواضع المختلف فيها بلطف ولين

(١) تيسير الكريم الرحمن:(٦٣٢).

(٢) المصدر نفسه:(٧٥٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن:(٧٥٥).

(٤) المصدر نفسه:(٦٣٢).

وهدوء)[1].

و (ليس لأحد أن يدفع ما كان علم يقينا بالظن، سواء كان ناظرا أو مناظرا، بل إن تبين له وجه فساد الشبهة وبينه لغيره كان ذلك زيادة علم ومعرفة، وتأييد في الحق في النظر والمناظرة وإن لم يتبين ذلك لم يكن له أن يدفع اليقين بالشك والله أعلم)[2].

وإذا كان مقصوده الحق، فإنه ينظر في الأدلة أكثر من نظره في القائلين، فالأئمة كلهم يقولون:(إذا صح الحديث فهو مذهبي)[3]، فعلى المناظر الاقتصار على الأدلة دون ذكر القائلين به من الأئمة الأعلام.

(ومن فوائد ذلك: أن الأقوال التي يراد المقابلة بينها، ومعرفة راجحها من مرجوحها أن يقطع الناظر والمناظر النظر عن القائلين، فإنه ربما كان ذكر القائل مغترا عن مخالفته، وتوجب له الهيبة أن يكف عن قول ينافي ما قاله)[4].

ومع المجادلة بالأدلة، فإن المناظر لا يسلم لقول نشأ عليه، بل يلتفت إلى الأدلة، وإذا ناظر أحداً، فإن على المناظر الفطن ملاحظة أن التسليم المجرد لقول نشأ عليه خصمه وتبناه على علاته مانع عن العلم والصواب (وهذا السبب من أعظم الموانع والحجاب للعلم، وإنما البصيرة وانطلاق الفكر، وارتقاء النظر إنما هو بالتفكير والتأمل بمآخذ الأقوال وبراهينها، ومقابلة بعضها ببعض والتصميم

---

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد:(٢٥٤-٢٥٥).

(٢) طريق الوصول إلى العلم المأمول:(٢/ ١٩٣-١٩٤).

(٣) انظر: حاشية ابن عابدين:(١/ ٣٨٥).

(٤) المناظرات الفقهية:(٢٥٨-٢٥٩).

التام على الانقياد لما ترجح عندك، ولله الحمد والمنة)[1].

وصاحب الحق المجادل بالحق منصور، وحجته ظاهرة، قال ابن سعدي -رحمه الله-:(وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره)[2].

وأما مجادل الحق فهو مخذول (فكل من خاصم الحق فُلِج وخصم كما أن كل من خاصم بالحق فَلَجَ وغلب﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١] فكل من نصر الباطل فهو من خصوم الله)[3].

ولا يكدر على هذا المقصد أن يعمد المناظر إلى التنزل مع خصمه، وقول قولٍ باطلٍ لا لأنه يعتقده، بل لإقامة الحجة على خصمه.

قال ابن سعدي -رحمه الله-:(والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة:

منها: أن المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليبني عليه حجته، وليقيم الحجة على خصمه، كما قال -يقصد: إبراهيم عليه السلام- في تكسيره الأصنام لما قالوا له ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾[الأنبياء: ٦٢]فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾[الأنبياء:٦٣] ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة، وقد حصلت.

فهنا يسهل علينا فهم معنى قوله:﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾[الأنعام:٧٦] أي: إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق

---

(١) المناظرات الفقهية:(٢٠٦-٢٠٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٨٣٦).

(٣) الدرة البهية:(١٥).

من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة)[1] .

المطلب الثاني: آداب المناظرة :

١- نزاهة اللفظ وحسن القول بـ(أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم)[2].

فـ(القول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح، فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره) و (إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما)[3].

٢- أن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، المتضمنة (دعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك)[4].

٣- والمجادلة بالتي هي أحسن تكون (بالعبارات الواضحة والبراهين البينة؛ التي تحق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة)[5].

٤- الفصاحة وحسن البيان: حيث يقول الشيخ -رحمه الله- فيما يحتاجه المناظر:(ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح

(١) تيسير اللطيف المنان:(١٩٨-٢٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن:(٥٧-٥٨).

(٣) المصدر نفسه:(٤٦٠).

(٤) المصدر نفسه:(٦٣٢).

(٥) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن:(٣٥٣- ٣٥٤).

الباطل وتهجينه لينفر عنه)[1].

٥- أن يلتزم المناظر بمضمون قوله تعالى﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦] فمن (مصالح ذلك: أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب)[2].

٦- على الإنسان اجتناب جميع المجالس المشتملة على كل قول وفعل محرم، كالخوض في الجدل الباطل لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة والخصومة[3] ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾[الفرقان: ٧٢].

٧- على المناظر أن يتحلى بسعة الصدر والحلم، يقول الشيخ -رحمه الله- عن المناظر: (الداعي إلى الله المرشد للخلق، خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان، يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه)[4].

٨- حسن الظن بالمخالف من أهل العلم، يقول الشيخ -رحمه الله- في المناظرات الفقهية على لسان المستعين بالله:(وبهذا وغيره استفدت فائدة نافعة:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن:(٥٠٤).

(٢) المصدر نفسه:(٥٥٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن:(٩١).

(٤) المصدر نفسه:(٥٠٤).

وهو زيادة معرفتي بمقادير أهل العلم، ووجوب توقيرهم .. وبهذا ونحوه، سلمت من اعتقاد من إذا بان له قول راجح قد خالفه غيره من أهل العلم وقع في قلبه نوع تنقيص لمقادير أهل العلم، وغمض فضلهم ، فإنها طريقة وخيمة، وصاحبها منقوص الحظ من التوفيق، فإن أهل العلم لهم من الفضائل والمحاسن والمزايا ما لا يعرفها حق المعرفة إلا من شاركهم في طريقهم وأعمالهم)[1].

٩- الحرص على معرفة أسباب الحق والصواب و(منها: حسن الفهم عن الله وعن رسوله، ونور الفهم والذكاء، وقوة الإخلاص والاستعانة بالله في الوصول إلى الصواب، وعدم التعصب لما يقوله، أو يقوله من يعظمه، وسرعة الرجوع إلى الحق عند اتضاح الصواب، والمقابلة بين الأقوال المتعارضة، واستيعاب ما أمكن من أدلة كل قول، ومأخذه ووزن الأدلة والمأخذ بالموازين العادلة وأصول الفقه المتفق عليها)[2].

١٠- الرجوع إلى الحق وقبوله: فقد قرر الشيخ -رحمه الله- هذا الأدب في المناظرات الفقهية بأسلوب بديع حيث قال على لسان أحد المتناظرين: (قد رجعت إلى قولك، وأحمد الله على ظهور البرهان وبيانه، كما أني أحمد الله أن وفقني للانقياد له، وأخبرك أيها الأخ أني وإن كنت أرى في الوقت الماضي القول الذي نصرته أولا فإني جازم - بحول الله وقوته- أنني مثاب على تقريره ونصرته؛ لأن هذا هو اعتقادي فيه سابقا، ومن كان معتقدا لقول ضعيف ثم تبين له بعد ذلك ضعفه، فإنه بمنزلة من كان يعمل على حكم ثم نسخ، فإنه مأجور على عمله السابق

---

(١) المناظرات الفقهية:(٢٢٠).

(٢) المصدر نفسه:(١٩٤-١٩٥).

واللاحق)[1].

١١- التوقف عند الجهل، فمن أعظم ما يجب على المتناظرين والمعلمين (أن يقولوا لما لا يعلمونه: الله أعلم، وليس هذا بناقص لأقدارهم، بل هذا مما يزيد قدرهم، ويستدل به على كمال دينهم، وتحريهم للصواب.

وفي توقفه عما لا يعلم فوائد كثيرة:

منها: أن هذا هو الواجب عليه.

ومنها: أنه إذا توقف وقال: الله أعلم، فما أسرع ما يأتيه علم ذلك من مراجعته أو مراجعة غيره، فإن المتعلم إذا رأى معلمه قد توقف جد واجتهد في تحصيل علمها وإتحاف المعلم بها، فما أحسن هذا الأثر .

ومنها: أنه إذا توقف فيما لا يعرف، كان دليلا على ثقته وأمانته وإتقانه فيما يجزم به من المسائل، كما أن من عرف منه الإقدام على الكلام فيما لا يعلم كان ذلك داعيا للريب في كل ما يتكلم به، حتى في الأمور الواضحة.

ومنها: أن المعلم إذا رأى منه المتعلمون التوقف فيما لا يعلم كان ذلك تعليما لهم وإرشادا لهذه الطريقة الحسنة ، والاقتداء بالأحوال والأعمال أبلغ من الاقتداء بالأقوال)[2].

---

(١) المناظرات الفقهية:(٢٠٤).

(٢) الفتاوى السعدية:(٤٥٢-٤٥٣).

المبحث الخامس: تطبيقات الجدل والمناظرة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التأليف.

المطلب الثاني: التعليم.

المطلب الأول: التأليف في الجدل والمناظرة

لقد عرف المسلمون الجدل في معناه، فجعلوه سلماً لإقامة الأدلة على الحق.

ويعد التأليف نمطاً من الحوار والجدل والمناظرة بين أهل العلم والفضل؛ حتى أصبح علماً مستقلاً بذاته.

قال النووي -رحمه الله-: (وقد صار الجدل علماً مستقلاً، وصنفت فيه كتب لا تحصى، وممن صنف فيه الشيخان صاحبا هذه الكتب أبو إسحاق، والغزالي، وكتاباهما معروفان. وأول من صنف فيه أبو علي الطبري)[1].

ومن تلك التآليف المتنوعة المطبوعة:

ما ذكره الإمام الشافعي(ت٢٠٤هـ) في بعض كتبه ككتاب:(الأم) من مناظرته للإمام محمد بن الحسن.

وكتاب:(المعونة في الجدل) لأبي اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت٤٧٦هـ).

وكتاب:(الجدل على طريقة الفقهاء) لأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي (ت٥١٣هـ).

وكتاب:(استخراج الجدال من القرآن الكريم) لأبي الفرج عبد الرحمن بن

(١) تهذيب الأسماء:(٣/ ٤٨).

نجم ناصح الدين ابن الحنبلي (ت٦٣٤هـ).

وكتاب:(تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل) لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨ هـ).

على أن بعض أهل العلم اختار طريقة مبتكرة في عرض المسائل من خلال اختلاق مناظرة ومحاورة بين شخصيتين وإبراز أدلة كل منهما لإظهار الحق وإبراز الراجح من الأقوال.

(وهذا النوع من عرض العلم فيه تشويق، وتيسير لمعرفة مأخذ القولين، وهو تنوع في عرض العلم)[١].

وضابط (هذا الاصطناع للمناظرات لا بد أن يكون من عادل منصف متجرد، لا يترك حجة ولا دليلاً لقول إلا وأظهره، ولا يجوز له أن يميل في عرضه لما يختاره)[٢].

وهذا النوع من المناظرات المتخيلة فعله ابن القيم -رحمه الله- في كتابه:(شفاء العليل) كقوله: (ذكر مناظرة بين جبريٍّ، وسُنِّي جمعهما مجلس مذاكرة)[٣] وقوله:(مناظرة بين قدريٍّ، وسُنِّي)[٤].

وكذلك في كتابه:(إعلام الموقعين) عقد مناظرات متخيلة في مسائل متنوعة كقوله:(فصلٌ: في عقد مجلس مناظرة بين مقلد، وبين صاحب حجة منقاد للحق حيث كان)[٥] .

---

(١) حمد العثمان: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة:(٣٤٩).

(٢) المصدر نفسه:(٣٥١).

(٣) شفاء العليل:(١٣٩).

(٤) المصدر نفسه:(١٥٢).

(٥) إعلام الموقعين:(٢/ ١٤٠).

ولقد سلك الشيخ العلامة ابن سعدي -رحمه الله- هذا السبيل في مجالين:

- المجال العقدي.
- والمجال الفقهي.

ففي المجال العقدي: سلك الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- مسلك الحوار والجدل المصنوع؛ لأجل إبانة الحق، والدعوة إليه، فكتب رسالة سمَّاها:(انتصار الحق) ولما كانت هذه المحاورة في أصل الأصول:«التوحيد» جاء اسم المناظرة مبيناً طبيعتها ومآلها.

وجعل الحوار فيها أسلوباً لمعالجة مشكلة الإلحاد بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين، فسمى الأول: الناصح، والثاني: المنصوح.

يقول -رحمه الله-:(هذه صورة محاورة بين رجلين كانا متصاحبين رفيقين مسلمين، يدينان بالدين الحق، ويشتغلان في طلب العلم جميعا، فغاب أحدهما عن صاحبه مدة طويلة ثم التقيا، فإذا هذا الغائب قد تغيرت أحواله وتبدلت أخلاقه، فسأله صاحبه عن ذلك فإذا هو قد تغلبت عليه دعاية الملحدين الذين يدعون لنبذ الدين ورفض ما جاء به المرسلون.

فحايله صاحبه وقلَّبه؛ لعله يرجع عن هذا الانقلاب الغريب فأعيته الحيلة في ذلك، وعرف أن ذلك علة عظيمة ومرض يفتقر إلى استئصال الداء، ومعالجته بأنفع الدواء)[1].

ثم نبه على أن الإلحاد كمرض عقدي فكري يحتاج علاجه إلى تمحيص في معرفة أسبابه، فقال -رحمه الله-:(وعرف أن ذلك متوقف على معرفة الأسباب التي حولته، والطرق التي أوصلته إلى هذه الحالة المخيفة، وإلى فحصها وتمحيصها

---

(١) انتصار الحق:(٤٠٣).

وتخليصها وتوضيحها، ومقابلتها بما يضادها ويقمعها على وجه الحكمة والسداد)[1].

وقد جاء سؤاله عن الأسباب مقترناً بإشعار المُحاوَر أن المقصود هو الوصول إلى الحق؛ حتى وإن كان عنده(فقال لصاحبه مستكشفا له عن الحامل له على ذلك: يا أخي، ما هذه الأسباب التي حملتك على ما أرى ؟ وما الذي دعاك إلى نبذ ما كنت عليه ؟ فإن كان خيرا كنت أنا وأنت شريكين، وإن كان غير ذلك فأعرف من عقلك ودينك وأدبك أنني وأنك لا ترض أن تقيم على ما يضرك)[2].

وكان أسلوبه في الحوار رفيعاً سلسلاً محكماً مشيراً إلى ضرورة اتباع الحق وداعيه، ورفض داعي النفس والهوى، ومن ذلك:(فقال له صاحبه الناصح: ألم تعلم أن من أوجب الواجبات وأكبر فضائل الرجل اللبيب أن يتبع الحق الذي تبين له، ويدع ما هو فيه من الباطل، وخصوصا عند المنازعات النفسية والأغراض الدنيوية ؟ وأن الموفق، إذا وقع في المهالك، طلب الوسيلة إلى تحصيل الأسباب المنجية ؟ أما علمت أن من نعمة الله على العبد أن يقيض له الناصحين الذين يرشدونه إلى الخير ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ويسعون في سعادته وفلاحه ؟ ثم من تمام هذه النعمة أن يوفق لطاعتهم ولا يتشبه بمن قال الله فيهم ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف:٧٩])[3].

وقرر أن رجوع الضال عن ضلاله فيه نفع له من جهة تأصيل الحق في قلبه ورسوخه فيه، فقال - رحمه الله-:(ثم اعلم أنه ربما كان الإنسان إذا ذاق مذهب

---

(١) المصدر نفسه :(٤٠٣).

(٢) المصدر نفسه:(٤٠٣).

(٣) المصدر نفسه:(٤٠٧-٤٠٨).

المنحرفين وشاهد ما فيه من الغي والضلال ثم تراجع إلى الحق، الذي هو حبيب القلوب، كان أعظم لوقعه وأكبر لنفعه! فارجع إلى الحق صادقا وثق بوعد الله﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[آل عمران:٩])[1].

ثم ضمن في ختام هذا الحوار منافعه ومقصده من الوفاء بحق الصحبة، ووصل حبل الود، وجلاء الضلال وإظهار الحق، بقول المنصوح:(والله لقد انجلى عني ما أجد في أول موضوع تلوته علي، وانزاح عني الباطل في شرحك الأول.

وإن مجلسك يا أخي ونصيحتك بهذه الطريقة النافعة تعدل عندي الدنيا وما عليها، فأحمد الله أولا حيث قيضك لي، وأشكرك شكرا كثيرا حيث وفيت بحق الصحبة، ولم تصنع ما يصنعه أهل العقول الذين إذا رأوا من أصحابهم ما يسوؤهم قطعوا عنهم حبل الوداد في الحال، وأعانوا الشيطان عليهم، فازداد بذلك الشر عليهم، وضاع بينهم التفاهم .

وإني لا أنسى جميل معروفك حيث رأيتني سادرا في المهامه مغرورا بنفسي معجبا برأيي، فأريتني بعيني ما أنا فيه، وأوقفتني بحكمتك على الهلاك الذي وقعت فيه، فالآن أستغفر الله مما مضى وأتوب إليه)[2] .

ومن الجدل في الجوانب العقدية: ردُّ الشيخ -رحمه الله- على القصيمي المعروف بـ:(تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله) وهي رسالة صغيرة رد فيها على: عبد الله بن علي القصيمي (الذي انتكس وألحد في آخر زمانه، فأصبح يعادي الإسلام وينابذ الدين ويدعو إلى الانحلال عنه من كل وجه، وألف في ذلك كتاباً أسماه «هذي هي الأغلال» ويعني بالأغلال شرائع الإسلام

---

(١) انتصار الحق:(٤٠٧-٤٠٨).

(٢) المصدر نفسه:(٤٢٠).

وأوامره ونواهيه، وأخذ يدعو في كتابه هذا إلى الإلحاد وإنكار وجود الله، وسخر فيه من الرسل - عليهم السلام - ومن الرسول ﷺ ومن الصحابة ومن علماء الإسلام وأنكر وجود الملائكة، إلى غير ذلك من الطامات والكفريات.

مما دفع الشيخ ابن سعدي إلى تأليف رسالته تنزيه الدين ليبين فيها ضلال هذا القصيمي وزيغه وانحلاله)[1] .

وفي رده على عبد الله بن علي القصيمي نجد بعضاً من منهجه في الرد والمناظرة، فمن ذلك أنه لا يتتبع كل كلام خصمه في الرد، بل يقتصر على مقاصده وغاياته فقط فيقول-رحمه الله-:(واعلم أن عباراته في هذه المواضيع التي نبهنا عليها كثيرة مكررة بعبارات متنوعة لم ننقلها خوف طول الكلام لغير فائدة، ولكننا أتينا بمقاصدها).

وهو في تتبع كلام خصمه يشير إلى ذلك الكلام ويحيل إليه بكل موضوعية ومنهجية رصينة في البحث العلمي، فيقول-رحمه الله-:(وأرشدنا لمن يحب الوقوف عليها إلى صفحاتها من كتابه «الأغلال» المطبوع).

ولا يكثر من ذكر الأدلة في الرد، بل يكتفي بما يفيد ويقيم الحجة على الخصم، فيقول-رحمه الله-:(كذلك في رسالتنا هذه لم نكثر من ذكر الآيات والأحاديث الرادة لقوله؛ لأن الكتاب والسنَّة كلها رد لقوله، لأنه نفى جميع أصول الكتاب والسنة وأراد قلعها من أساسها).

وأن لكل مُناظر مقامه ولكل كلام ما يستحق من إيراد الأدلة التي تناسبه، فيقول-رحمه الله-: (ولأن المقام يقتضي ذلك، فإن المناظرة مع من يعظم الكتاب والسنة نوع، ومع من لا يراهما نوع آخر).

---

(١) عبد الرزاق البدر: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة:(٤٧).

وأنه لا مجاملة للمعاند بل نظهر مقامه وما انتهى إليه حاله، فيقول-رحمه الله-:(ونحمد الله على ما نبهنا عليه في كتابه من الفظائع والشنائع التي لا يقولها إلا من انتهى إلحاده وكفره).

مع التأكيد على استعمال اللين في الخطاب مع المناظر، وبيان ضرر أقواله عليه قبل غيره، فيقول-رحمه الله-:(لم نستعمل معه في خطابه الخاص إلا الرفق واللين اتباعا للكتاب والسنة في خطاب المحاربين المنحرفين أن يقال: قال فلان وفعل فلان.

وأما عند ذكر الأقوال الشنيعة فيذكر ما احتوت عليه من الضرر، والمناقضة للأديان ومرتبتها في البعد من الدين.

وبيان ما على قائلها من الضلال والغي، فيكون القدح فيه موجها عليه من أقواله، ويبين ما على صاحبها من نقص الدين والعقل والرأي).

والتأكيد أن الغرض من المناظرة ليس ذات الشخص، بل حماية الدين وصيانته عن عبث العابثين فيقول-رحمه الله-:(وليس لنا غرض في شخصية هذا الرجل، ولكن لما اعتدى على ديننا الإسلامي وعلى قواعده وأصوله وأسسه، وتهكم به وبحملته، وفضل عليهم زنادقة الملحدين وصنع مع المسلمين أعظم من صنيع دعاة النصارى من المبشرين، وجب على كل مسلم مدافعته ودفع شره وتبيين أمره والتحذير من طريقته ودعايته بحسب القدرة)[1].

وأمّا الجدل الفقهي: فقد كتب فيه الشيخ -رحمه الله- كتابه:(المناظرات الفقهية).

وأصل الكلام في الجدل عند الفقهاء هو كلامهم في الخلافيات، يقول ابن

---

(١) انظر ما تقدم من نقول: انتصار الحق:(٤٧٤-٤٧٥).

خلدون -رحمه الله-: (كان هذا الصّنف من العلم يسمّى بالخلافيّات، ولا بدّ لصاحبه من معرفة القواعد الّتي يتوصّل بها إلى استنباط الأحكام، كما يحتاج إليها المجتهد إلاّ أنّ المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافيّات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلّته.

وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمّة وأدلّتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه)[1].

وقد كان العلماء يعتبرون الاختلاف العلمي ويرونه طريقاً للوصول إلى الحق، قال قتادة -رحمه الله-:(من لم يعرف الاختلاف لم يشم رائحة الفقه بأنفه)[2].

وهذا ما جرى عليه الشيخ -رحمه الله- ويلحظ أنه في المناظرات الفقهية اسماها باسم محايد غير دال على تعصب أو تسليم لرأي مسبق، بل حتى في تسمية المتناظرين جعل الأسماء معبرة عن قصد الحق، والاستعانة بالله على الوصول إليه فسمى أحدهما: المستعين بالله، والثاني: المتوكل على الله، وأورد على لسانهما الأدلة والمناقشة وأقوال أهل العلم، ثم ينتهي إلى الترجيح وقبول الطرف المرجوح قوله؛ برحابة صدر ما انتهت إليه المناظرة.

يقول -رحمه الله-: (لهذا أحببت أن أضع في هذا التعليق عدة مسائل من مسائل الفقه المختلف فيها بين العلماء، مما اشتهر به الخلاف، وكان الخلاف فيها له أهمية ، وأجعلها على صورة مناظرة بين : المستعين بالله ، والمتوكل على الله)[3].

وقد ذكر الشيخ السعدي -رحمه الله- تعليله لاختيار هذه الطريقة في عرض

---

(١) المقدمة:(١٩٨).

(٢) ابن عبد البر:جامع بيان العلم وفضله:(٢/ ٨١٤).

(٣) المناظرات الفقهية:(١٩٤).

المسائل في قالب المناظرات حيث يظهر فيها فوائد كثيرة:

منها: تيسير مأخذ القولين ووجودهما في محل واحد، وذلك من مقربات العلم[1].

ومنها: أن يعلم أن الخلاف في مثل هذه المسائل بين أهل العلم: لا يوجب القدح والعيب والذم، بل كما قال بعضهم:» نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه « بخلاف حال الجاهل ضيق العَطَن، الذي يرى أن من خالفه أو خالف من يعظمه قد فعل إثما عظيما، وهو معذور بل ربما كان الصواب معه؛ فهذه حالة لا يرتضيها أحد من أهل العلم، ونسأل الله العافية منها ومن كل ما لا يحبه الله ورسوله)[2].

ومنها:(أن الأقوال التي يراد المقابلة بينها، ومعرفة راجحها من مرجوحها أن يقطع الناظر والمناظر النظر عن القائلين، فإنه ربما كان ذكر القائل مغتراً عن مخالفته، وتوجب له الهيبة أن يكفَّ عن قول ينافي ما قاله)[3].

المطلب الثاني: التعليم

لقد كان -رحمه الله- حسن التعليم مبدعـًا في ذلك ومبتكراً لطرق فريدة[4].

ومن ذلك أنه كان يقيم المناظرات بين طلبته لكي يدفعهم للمنافسة والمثابرة في التحصيل، وشحذ أفكارهم، وصقل أذهانهم، وتعويدهم إقامة الحجة والبرهان، والاطلاع على الأدلة وكيفية توجيهها، كما أنه عند ذكره للمسائل الخلافيَّة يصوِّرها

---

(١) المناظرات الفقهية:(١٩٤).

(٢) المصدر نفسه:(١٩٥).

(٣) المصدر نفسه:(٢٥٩).

(٤) محمد بن عثمان القاضي: روضة الناظرين(١/ ٢٢٢).

للطلاب بين اثنين منهم، ثم يستدل لكل فريق ويناقش، ثم بعد عرضها - بكل أمانة ونزاهة - يتوسط حكماً بينهما، ويرجح ما يعضده الدليل[1] .

وأشار -رحمه الله- إلى ضرورة أن (يفتح المعلم للمتعلمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج، وأن يكون القصد واحدا، وهو اتباع ما رجحته الأدلة، فإنه إذا جعل هذا الأمر نصب عينيه وأعينهم، تنورت الأفكار، وعرفت المآخذ والبراهين، واتبعت الحقائق، وكان القصد الأصلي معرفة الحق واتباعه.

فالحذر الحذر من التعصب للأقوال والقائلين، وهو أن يجعل القصد من المناظرة والمباحثة نصر القول الذي قاله، أو قاله من يعظمه، فإن التعصب مذهب للإخلاص، مزيل لبهجة العلم، معم للحقائق، فاتح باب الحقد والخصام الضار، كما أن الإنصاف هو زينة العلم وعنوان الإخلاص والنصح والفلاح)[2].

وقد ذكر الشيخ السعدي -رحمه الله- الحكمة لاختيار هذه الطريقة في عرض المسائل في قالب المناظرات فقال: (لأن في جعلها على هذه الصورة فوائد كثيرة:

منها: تيسير مأخذ القولين ووجودهما في محل واحد، وذلك من مقربات العلم.

ومنها: التمرن على المناظرة والمباحثة، التي هي من أكبر الوسائل لإدراك العلم وثبوته وتنوعه.

ومنها: التمرن على الاستدلال، والرجوع إلى أصول المسائل ليصير للعبد

---

(١) انظر: محمد بن عثمان القاضي: روضة الناظرين(١/ ٢٢٢-٢٢٤) وعبد الرزاق البدر: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة:(٣٤) وعبد الله الطيار: أثر علامة القصيم:(٥).

(٢) الفتاوى السعدية:(٤٥٣).

ملكة تامة يحسن معها الاستدلال والمناظرة والنظر.

ومنها: أن يعود الإنسان نفسه سرعة قبول الحق إذا اتضح له صوابه وبان له رجحانه)[1].

وبهذا يظهر أن الشيخ ابن سعدي -رحمه الله- جعل المناظرة طريقة من طرق التعليم التي قصد منها:

١- تعويد طلبة العلم على الاستدلال.

٢- فتح آفاق طلبته لمعرفة مناهج الاستدلال، وطرق الترجيح.

٣- بيان أن اختلاف العلماء ليس اعتباطياً إنما هو عائد إلى أسباب، فمن ناظر غيره عرف سبب مخالفته وبانت له حجج المخالفين.

---

(١) انظر: المناظرات الفقهية:(١٩٤-١٩٥)

الخــاتــمــة:

وبعـد فهذه معالم من قول الشيخ العلامـة -رحمه الله- في كتبـه، وطريقته في تعليمه؛ دالة على منهجه في الجدل والمناظرة، وهو جارٍ في ذلك على سـنن العلماء الذين أوتوا: فقهـاً وخلقـاً.

جمع بين فقه النفس، وفقه الدرس والعلم، فليس أحدٌ ممن عاصره إلا وشـهد له بسعة العلم وعظيم الحلم.

وليـس أحـدٌ قرأ لـه إلا رأى العلم سـهلاً ممتنعـاً، سـهل العبارة متيـن البنيان، وتسهيل العبارة في الموضوعات العميقة دال على وفرة العلم.

ومـن جانب آخر فـإن اجتماع العلم والحلـم دالٌ على معرفـة الحق، ورحمة الخلق.

ومـن قرأ مـا حكي مـن المناظـرات الفقهية لبعـض الأعلام مـن الأمة؛ وجد لبابهـا التعصـب للمذهب -عند بعضهم-، فهـي مناظرة بيـن متمذهبين ينتصر كل منهمـا لمذهبه أصولاً وفروعـاً، يحامـي عن الأصول والقواعد، ويظهر عوار القول المخالف بناءً على ما أصَّل وقعد.

بينما وجدت الشـيخ -رحمه الله- جعل النصح للخلق لحمة قوله وسـداه، بل إنـه في المناظرات الفقهية كثيـراً ما نصر القول المخالف لمشـهور مذهب الحنابلة ومعتمدهم من الأقوال.

وجعل أصل ترجيحه: اعتماد الدليل في حسن لفظ وجمال خلق، ولعمر الحق أن ذلك لمدرسة تحتذى في التعامل مع الخلاف والمخالف.

ولـو درس صغار طلبة العلم كتابه:(المناظرات الفقهية) أول تفقههم؛ لعرفوا

الخلاف على حقيقته، ولفقهوا كيفية التعامل معه على وجازة المناظرات وعدم شمولها الفقه.

ولكن المنهج إذا صح في الذهن، ولو في أبواب؛ استقام لصاحبه؛ حتى يصبح قانون نظره وأساس تعامله في كل أبواب العلم.

ولئن ختمت القول في هذا البحث، فإني لا أملك إلا الدعاء للشيخ -رحمه الله-: اللهم إني أحببت الشيخ فيك، وأجللته إجلالاً للعلم الذي حمله، فاللهم اغفر له، وأجزه كفاء ما قدم، واجمعني به في جنتك، وألحقني به في الصالحين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

فهرس المراجع:

١- الآمدي: عبد الوهاب الحسين الآمدي (شرح الرسالة الولدية) تحقيق: عبد الحميد العيساوي، دار النور المبين، عمان - الأردن: ٢٠١٤م.

٢- ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي (مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر- بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣- ابن سعدي: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي:(انتصار الحق) عن موسوعة المؤلفات الكاملة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الجمعية الخيرية الصالحية بعنيزة، تطوير وتنفيذ: حرف.

٤- ابن سعدي:(تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

٥- ابن سعدي:(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٦- ابن سعدي:(الدرة البهية) عن موسوعة المؤلفات الكاملة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الجمعية الخيرية الصالحية بعنيزة، تطوير وتنفيذ: حرف.

٧- ابن سعدي:(الدين الصحيح يحل كل المشكلات) عن موسوعة المؤلفات الكاملة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الجمعية الخيرية الصالحية بعنيزة، تطوير وتنفيذ: حرف.

٨- ابن سعدي:(الفتاوى السعدية) عن موسوعة المؤلفات الكاملة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الجمعية الخيرية الصالحية بعنيزة، تطوير وتنفيذ: حرف.

٩- ابن سعدي:(القواعد الحسان لتفسير القرآن) مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة الأولى:

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠- ابن سعدي:(طريق الوصول إلى العلم المأمول) عن موسوعة المؤلفات الكاملة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الجمعية الخيرية الصالحية بعنيزة، تطوير وتنفيذ: حرف.

١١- ابن سعدي:(مجموع الفوائد واقتناص الأوابد) عن موسوعة المؤلفات الكاملة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الجمعية الخيرية الصالحية بعنيزة، تطوير وتنفيذ: حرف.

١٢- ابن سعدي:(المناظرات الفقهية) عن موسوعة المؤلفات الكاملة للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الجمعية الخيرية الصالحية بعنيزة، تطوير وتنفيذ: حرف.

١٣- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي(جامع بيان العلم وفضله) تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٤- ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (معجم مقاييس اللغة) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٥- ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (إعلام الموقعين عن رب العالمين) تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٦- ابن القيم:(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨ه.

١٧- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن منظور الأنصاري الإفريقي(لسان العرب) دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.

١٨- الجرجاني: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني(التعريفات) ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان،

الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٩- حمد إبرهيم العثمان:(أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة) دار ابن حزم، الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٢٠- عبد الله محمد الطيار:(أثر علامة القصيم الشيخ:" عبد الرحمن بن ناصر السعدي" على الحركة العلمية المعاصرة) من منشورات شبكة الألوكة: www.alukah.net

٢١- عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر:(الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة) مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٢٢- الفيومي: أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي: (المصباح المنير في غريب الشرح الكبير) المكتبة العلمية - بيروت.

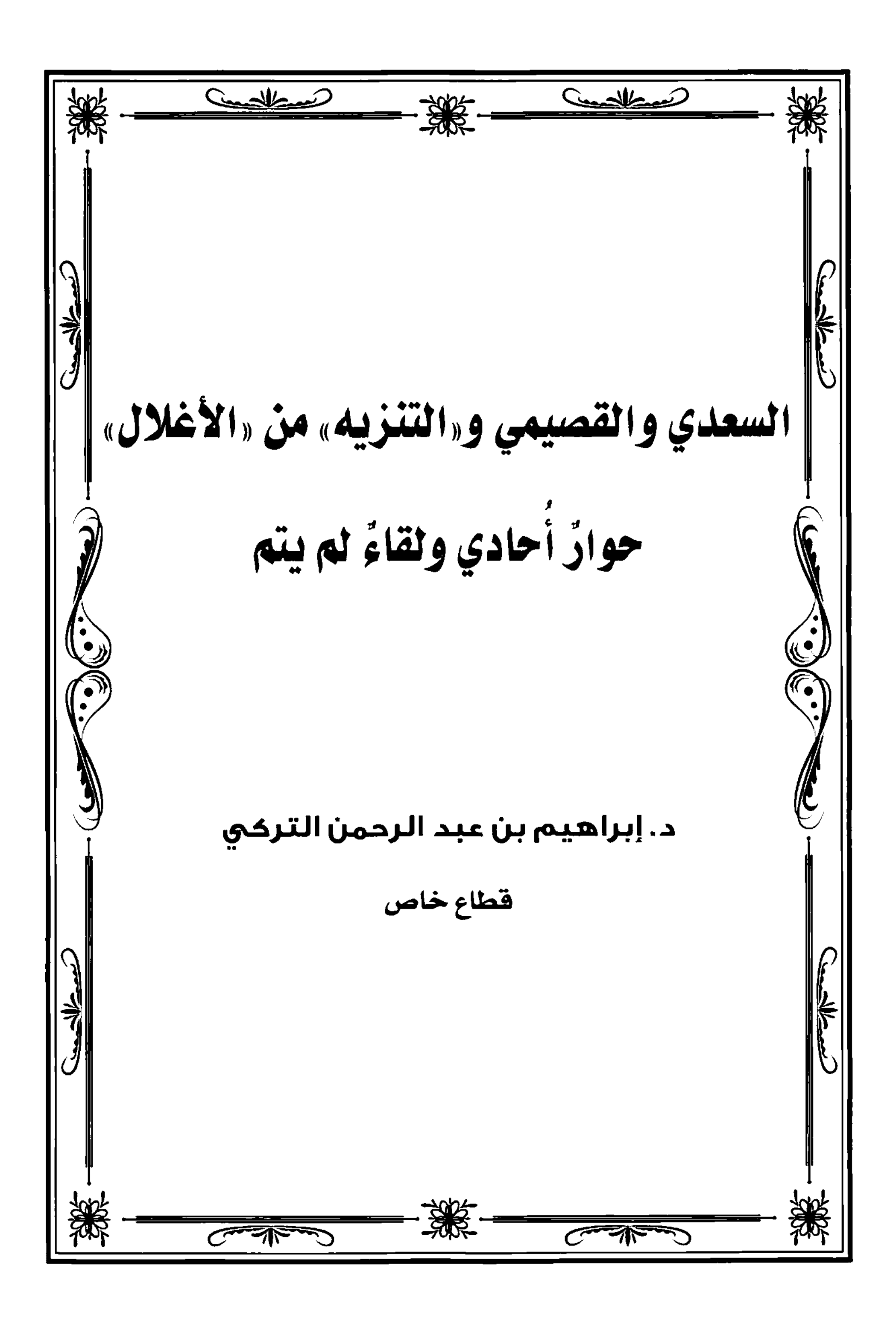
٢٣- مجمع اللغة العربية:(المعجم الوسيط) دار الدعوة - القاهرة.

٢٤- محمد بن عثمان بن صالح القاضي:(روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين) طبع بمطبعة الحلبي.

٢٥- النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي: (الأذكار النووية) تحقيق: محيي الدين مستو، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الثانية:١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٦- النووي:(تهذيب الأسماء واللغات) عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، يطلب من: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.





السعدي والقصيمي و«التنزيه» من «الأغلال»

حوارٌ أُحادي ولقاءٌ لم يتم

د. إبراهيم بن عبد الرحمن التركي

قطاع خاص

مدخل

يفصل الشيخ عبدالله القصيمي عن الشيخ عبدالرحمن السعدي ثماني عشرة سنة في الولادة تقدم بها السعدي ١٨٨٩م على القصيمي ١٩٠٧م،وتأخر القصيمي في وفاته ثمانية وثلاثين عامًا (السعدي ١٩٥٧م / القصيمي ١٩٩٥ م)، وهو ما يعني تقاربهما عمرًا، وإن امتدَّت حياة القصيمي حتى اثنين وتسعين عامًا ميلاديًا، في حين توفي السعدي عن ثمانية وستين عامًا ميلاديًا، والدلالة هنا مهمة في تثبيت موقف القصيمي، من طرحه التحولي في كتابه (هذي هي الأغلال) الصادر عام ١٩٤٦ م أي قبل وفاة السعدي بإحدى عشرة سنة حيث بقي كتاب الأغلال دون أن ينقضه القصيمي أو يتراجع عنه وإن لاذ بصمت تأليفي سبعة عشر عامًا أصدر بعدها مجلدين ضمَّا عددًا من كتبه وهي: «العالم ليس عقـ[ـلًا]» عام ١٩٦٣م وتبعه المجلد الثاني عام ١٩٦٧م وفيه ثلاثة كتب:» عاشق لعار التاريخ» و» صحراء بلا أبعاد» و «أيها العقل من رآك»،وفيها تجاوزٌ لمرحلة « الأغلال « بصورةٍ جلية نأت به عن موقف المجتهد الذي يبغي «خدمة الحق وأمته العزيزة - كما كتب في الأغلال - ويأمل أن يشفع له ذلك في اجتهاده لدى من يخالفه « في بعض المسائل والشروح والتفاصيل» مؤكدًا أنه «مؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر» وختمه بأن الله هو « المسؤول أن يلهم الصواب والحكمة، وأن يعين على بلوغ الغرض المنشود، وألا يجعل العمل باطلاً ولا الجهد ذاهبا»(١).

ولد السعدي في عنيزة، وقريبًا منه ولد القصيمي في " خب الحلوة"،غرب بريدة، وكلا المكانين في منطقة القصيم، وبينهما أقل من ثلاثين كيلومترًا، وحيث هاجر الفتى عبدالله القصيمي مبكرًا فلم يلتق بالشيخ عبدالرحمن السعدي في

---

(١) ص ٣٥٣ واحتواها الغلاف الأخير.

القصيم[1]، ولم يُؤثر أن السعدي قد كاتب القصيمي في مرحلته الإيمانية الأولى التي أصدر خلالها كتبًا في الدفاع عن السلفية، مثلما لم ير الباحث ذكرًا للسعدي فيما اطّلع عليه من تآليف القصيمي، وهو ما يجعل دراسة العلاقة بينهما محصورة في كتاب (هذي هي الأغلال) للقصيمي وكتاب : (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله) للسعدي، وهذا لا ينفي معرفتهما ببعضهما، وقد أشار الشيخ السعدي إلى اطّلاعه على كتب القصيمي المتقدمة على كتابه التحولي الجدلي الذي تبحث فيه الورقة.

كيف عرف السعدي عن كتاب القصيمي؟

لم يوثق الشيخ كيفية وصول كتاب (هذي هي الأغلال) إليه؛ إذ اكتفى -في مقدمة كتابه (تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله)- بالإشارة إلى أنه «وقف على كتاب صنفه عبدالله بن علي القصيمي سماه ...» ، وفي رواية شفهية لسبط الشيخ (الأستاذ مساعد بن عبدالله السعدي)[2] ما يرجح بعث الكتاب إلى السعدي من مكة المكرمة عن طريق تلميذه الشيخ عبدالله بن محمد العوهلي (١٣٢٥ - ١٤٠٨هـ)،وكان وصوله إليه بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٣٦٥هـ (١٠/ ١١/ ١٩٤٦م) بهدف الاطلاع عليه مع الإيحاء إليه بالرد، ووُجد في نسخة السعدي المحفوظة من كتاب القصيمي تهميشات بخط يده، وفيها ما يرجح نية الشيخ في الإجابة والمحاجة، ولو كان للقراءة المجردة لاكتفى بتصفحه وإهماله، أو وضع صيغة عامة على طرة الكتاب تحذر منه كما اتضح في هدف تأليفه الكتاب استقاءً من مقدمته، فليس مرجعًا يُحتاج إليه كي يضع تعليقاته التي شملت معظم

---

(١) غادر القصيمي خب الحلوة وهو في العاشرة من عمره إلى الرياض ثم لحق بوالده في الشارقة.

(٢) ستصدر في كتاب وفق إيضاح أ. مساعد.

صفحات الكتاب من ص ١٤ حتى ص ٣٢٨، وتؤكد هذا رسالته إلى تلميذه الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل (١٣٣٤ - ١٤٣٢هـ) الذي كتب:

«إنه سيبعث إليه من مكة بنسخة من الكتاب» فأجابه أنه « قد اطلع عليه..»، وثمة إشارة أخرى في «الرسالة التحذيرية من الكتاب» ضمَّنها رجاءً للحكومة ب» المنع الصارم لتسرب نسخ هذا الكتاب للمملكة» ص ٢٣١، وهو ما يوثق وصول الكتاب إلى الشيخ بصورة خاصة ولهدف محدد وهو الرد.[1]

لماذا رد السعدي على القصيمي؟

من يتابع كتابات الشيخ السعدي رحمه الله ورسائله يلاحظ اللغة الهادئة التي تعتمر معانيها ومبانيها، وكثيرًا ما تدخل الشيخ لحل قضايا بدت شائكة ومتشابكة فانتهت بهدوئه وحكمته، وهو ما سعى إليه في كتابه هذا دون أن نغفل الأسلوب الحادّ الغاضب الذي اتسمت به محتوياته؛ فأنصف تأريخ القصيمي السابق، وقال عنه : إنه كان "معروفًا بالعلم والانحياز لمذهب السلف الصالح وكانت تصانيفه السابقة مشحونةً بنصر الحق والرد على المبتدعين والملحدين، فصار له بذلك عند الناس مقام وسمعة حسنة ..."[2] «... « وبعدما كان في كتبه السابقة معدودًا من أنصار الحق انقلب في كتابه هذا ...».

---

(١) طبع كتاب التنزيه في نسخته الأولى على نفقة الشيخ محمد نصيف عن طريق دارإحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي وشركاه في مصر عام ١٣٦٦هـ في ٤٨ صفحة.

ماتزال نسخة الشيخ من كتاب الأغلال محفوظة لدى سبطه الأستاذ مساعد العبدالله السعدي وهي ملأى بتعليقات الشيخ، وبالرغم من تحذيره من الكتاب فلم يتلفه وبقي في مكتبته حتى وصل إلى سبطه.

الأجوبة النافعة على المسائل الواقعة ١٥١-١٨٣.

(٢) ص ١٦٣.

ويلاحـظ في تقديمه كتابه « التنزيه» اقتناعُ الشـيخ السـعدي بأن كتاب الأغلال قد نَسـخ وأبطل جميع ما كتبه عن الدين سـابقًا [١]، مثلما لم يُخفِ مفاجأته من هذا التحول الذي « أراع الناس»، ولم يشـأ التفصيل في الأسـباب التي دفعت القصيمي للتحـول، وإن عـدَّ منها الظنون التي تداولها الناس وتدل عليها القرائن: « ارتشـاؤه مـن بعض جهـات الدعاية الأجنبية غيـر الدينية »، أما ما حدا بالشـيخ لنقض منطق القصيمـي في أغلاله فهو «واجب رآه على كل من عنده علم أن يبين ما يحتوي عليه كتابه من العظائم، خشية اغترار من ليست له بصيرة بكلامه» وعزا ذلك إلى ما عُرف عن القصيمي من اتجاه مختلف قبل» ما طرأ عليه من الانقلاب» [٢] .

وقد أوضح السعدي أنماط مستقبلي كتاب الأغلال بثلاثةٍ لا خوف على اثنين منهم وهما:

مـن له بصيرة ومعرفـة وتفريق بين الحق والباطل ومعرفة بحقيقة الدين، ومن وقف على كتبه السـابقة، ثم على كتابه هذا ورأى ما فيها من الاضطراب والتناقض والتضارب وعدم الاستقرار، أما النمط الثالث الذي توجه إليه الكتاب -كما أوضح السـعدي- فهـم الذين لا بصيرة لهم يميزون بها بين الحـق والباطل ولا وقفوا على تناقضه وعدم استقراره على رأي واحد فإنهم - كما كتب السعدي - يُخشى عليهم من الاغترار بكلامه لأنهم يسمعون عبارات مزخرفة واستدلالات مموهة.. الخ [٣].

وأكد أن الكتاب أكبر دعايـة للإلحاد، ومقاومة الدين وأهله، وفيه من البهرجة

(١) نقـل الأسـتاذ عبـدالله عبدالجبار في التيارات عن أحد المشـايخ قوله بعد صـدور كتاب القصيمي: الصراع بين الإسلام والوثنية: لقد دفع القصيمي مهر الجنة ولن يضيرَه ما يعمله بعد ذلك فلا يطاوله رأس إلا رأس ابن تيمية.

(٢) ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٣) ص ١٦٤.

والتزويـر التـي جعلها في صورة نصر الدين ما يعد مـن أعظم النفاق والكيد والمكر للإسلام وأهله. الخ[1].

منهج السعدي في رده.

سـعى السـعدي في مقدمة كتابه إلى «عدم إنكار ما في كتـاب القصيمي وكلامه من المعاني الصحيحة المطروقة التي لم يزل أهل العلم يقولونها ويُبدونها من الحث علـى تعلم العلوم وفنون الصنائع النافعة وما فيه مـن ذم الجهل وآثاره الضارة، وما فيه من تأخر المسـلمين في الفنون العصرية وما فيه من وصف تفوق غيرهم في فنون المادة..»[2]، لكنه أشار إلى أن القصيمي مسبوق في هذه الأفكار، بل سبقه إليها أهل العلـم، وقالـوا أكثر مما قال، ولم يبين «هذا الرجـل» - كما وصفه[3] - ما بينوه ولا شرح الداء الذي أصاب المسلمين حقيقةً ولا كيفية الدواء ..

ومن الواضح أن غضب الشيخ تجلى شكلاً في وصفه ب» هذا الرجل « و « هذا القصيمـي» واعتماده الضمير الغائب حينًا مثل قوله: (واعلم أن مدار بحوثه الباطلة ...)[4] والمسـتتر حينًا كما في : (وقد سـلك أيضًا مسـلك الدهريين ..)[5] وتكرر هـذا في مواطـن كثيرة من الكتاب تقليلاً من شـأن القصيمي وترفعًـا عن تكرار ذكر اسـمه، كما تعددت أسـاليب الذم بحق القصيمي: (فيا ويح هـذا الكاتب القصيمي

---

(١) ص ١٦٦.

(٢) ص ١٦٤.

(٣) ص ١٦٥.

(٤) ص ١٦٩.

(٥) ص ١٧٣.

...)[1] وقولـه: (ومـلأ كتابه من هذه المواضيع الخبيثـة والوقاحة والجراءة التي لم يرتكبها غيره..)[2].

وقد يرى المحايدون في مثل هذا الأسـلوب خروجًا عن الموضوعية وإسـرافًا في الاسـتعداء والاسـتعلاء، لكن مقارنته بمـا صنعه معاصرو السـعدي والقصيمي وقت صدور كتاب الأغلال سـيجدون أن السـعدي كان أقلَّ حدةً وأكثر موضوعيةً ممن ردوا عليه من المشـايخ وعلماء الدين؛ فالشـيخ عبد الله بـن عبد الله ابن يابس ١٣١٣-١٣٨٩ هـ صـرح بموقفه الضدي عبر عنوان كتابه الصـادم والصارم في آنٍ واحد:

(الرد القويم على ملحد القصيم - مطبعة الإمام- عابدين- القاهرة- ١٩٤٧ م)

وكذا ورد في عناوين أخرى لمعظم من ردوا عليه من الجزيرة العربية تحديدًا، ومنها:

** بيـان الهدى من الضـلال في الرد على صاحب الأغلال - الشـيخ إبراهيم بن عبد العزيز السـويح النجدي ١٣٢٧-١٣٦٩هـ- المطبعة السـلفية - القاهرة - ١٩٤٩ م

** تشخيص أخطاء صاحب الأغلال الرئيسية وبيان ما دلت عليه من الإلحاد والمذاهب الإباحية مع قصائد للشـيخ راشـد بن خنين ١٣٤٤-١٤٣٥هـ والشـيخ صالـح بـن سـحمان ١٣١٩-١٤٠٢هـ والشـيخ صالـح العراقي» لم أجـد تأريخًا لمولده ووفاته» وتقريظ الشـيخ عبد العزيز بن باز ١٣٣٠-١٤٢٠هـ- مطبعة أنصار السنة المحمدية- القاهرة-١٩٥٠م.

---

(١) ص ١٧٤.

(٢) ص ١٧٦.

** الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال على ما فيه من زيغ وكفر وضلال: الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ١٣٠٨-١٣٩٢هـ- الناشر: عبد الله محمد بابا الشنقيطي.

وثمة ردود أخرى للشيخ محمد بن مانع ١٣٠٠-١٣٨٥هـ. والشيخ زيد بن فياض ١٣٥٠-١٤١٦هـ والشيخ عبد الظاهر أبي السمح ١٣٠٠-١٣٧٠هـ والشيخ تقي الدين الهلالي ١٣١١-١٤٠٧هـ» لعله كتبه خلال وجوده في مكة المكرمة والمدينة المنورة» وعنوانه: (مظهر الضلال في كتاب الأغلال) ولآخرين. (١)

ولعل ما يُحمد للسعدي عدم حكمه بكفر القصيمي -بعبارة صريحة متجهة نحو شخص القصيمي بصورة غير ملتبسة- وإن ضمَّن كتابه ما يوحي بكفر نصِّه، وجميل منه الفصل بين الشخص والنص، ولعله كان يأمل من عدم القطع بكفره أو إلحاده فتحَ الباب أمامه للمراجعة والتراجع، بل إنه دعا له بالهداية حيث كتب:

« .. وإلا فوالله إننا لنأسف أشد الأسف على انقلاب هذا الرجل، ونعد ذلك من الخسائر علينا، حيث فقدنا هذا الرجل الذي مضى له من المقامات ونصر الحق ما لا ينكر.... ونسأل الله أن يرده إلى الحق، وأن يعيده إلى الإسلام بالتوبة والتنصل مما وقع منه، وأن يكتب كتابًا في رجوعه عن هذه المباحث الخبيثة ...» (٢).

أبرز مواضع رد السعدي:

في مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (طباعة مؤسسة الأميرة العنود) المجلد السادس ورد مع كتاب " التنزيه " عدة ملحقات،

---

(١) (عبدالله القصيمي: حياته وفكره - عبدالله القفاري - مركز المحروسة - ط الأولى - ٢٠١٢م - ص ١٠٠

(٢) ص ٢٠٧.

وفيها رسائل صغيرة، وبينها: (كشاف للمسائل الخبيثة والمباحث الخطيرة في كتاب الأغلال) ضم سبعًا وسبعين ملاحظة أوجزها السعدي في رده على كتاب القصيمي، ابتدأت من صفحة ١٤ في "الأغلال" حتى صفحة ٣٢٨، واستغرقت الصفحات ٢٣٨-٢٤٨ في المجموع - الجزء السادس.

أما كتاب (هذي هي الأغلال) فقد جاء في ٣٥٣ صفحة - طبعة دار الجمل المصورة من نسخة قديمة تختلف في ترقيمها قليلاً عن إشارات السعدي في مجمل ملاحظاته.

ويلاحظ على الشيخ السعدي أنه لم ينقل كلام القصيمي بنصوصه الكاملة بل أشار إلى مضامينها والصفحات التي احتوتها بشكل مجمل، ولو أورد مقولات القصيمي كما جاءت وإجاباته عن كل منها لكان العمل أكمل، وقد لخص رؤيته عما طرحه القصيمي بقوله:

« .. فتراه في مطاوي كتابه يعتذر ويدعي أنه مؤمن بالله ورسوله وبريء من الإلحاد؛ أفيظن أن الناس يقيمون لاعتذاره وزنًا، وكيف تقع اعتذاراته الطفيفة التافهة في جانب حملاته الشديدة على الدين والحث البليغ على نبذه، وعلى سلوك طريق الملحدين؟ كيف يُقبل اعتذار من هو مجد مجتهد في هذه المواضيع الخبيثة الباطلة؟ فهل هذا إلا من باب السخرية والتمويه على الأغرار؟». ص ١٦٩.

وقد ركز الشيخ في ردوده على محاولة إبطال نظرية القصيمي ومدارها - كما كتب السعدي - أمرين:

الأول: تأخر المسلمين عن غيرهم في الفنون العصرية والاختراعات والصناعات الراقية وعلوم الطبيعة بأنواعها.

الثاني: أن غيرهم مَهر في هذه الأمور مهارة لا تتصورها الأفكار.

ولم يختلف السعدي عن القصيمي في صحة هاتين الفرضيتين في زمنهما، لكنه أخذ عليه إهماله تأريخ الأمة العريض الذي شهد بفضله المنصفون من الأمم الأخرى، ثم استنتاجه أن تغيير الوضع يتطلب « رفضَ ما عليه المسلمون من عقائد وأخلاق وعلوم وأعمال، وقرر في كتابه أن» الدين الإسلامي أغلال وقيود تقيد الإنسانية عن التقدم والارتقاء في مدارج الكمال ....» ص ١٦٩-١٧٠.

وعلى أي حال؛ فيمكن إيجاز ملاحظات الشيخ الواردة في ملحق «الكشاف» المطبوع ضمن الكتاب في مجموع مؤلفات الشيخ السعدي بما يلي:

- التهكم بالمصلحين الذين يقولون: إن رقي المسلمين ينحصر في الرجوع إلى تعاليم الدين.
- الحديث عن أعاصير رجعية مجنونة تهب على مصر وطلب منع هبوبها.
- قوله: إن كل الذين صنعوا الحياة، وصنعوا لها العلوم والأساليب المبتكرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين والتحلل منه.
- قوله: طبيعة المتدينين طبيعة فاترة، ولا تجد أعجز ولا أوهن من الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية.
- قوله: إن المسلمين يريدون كل شيء من السماء من الآلهة المتعددة.
- بهرجته - كما قال - في نقل كلام الزمخشري والرازي والآمدي وابن الحديد في حيرتهم ونسبة هذه الحيرة إلى الأمة الإسلامية كلها.
- تهكمه بمن يذم أرسطو وقوله: إنهم الذين وضعوا اللبنات الأولى للحضارة التي قامت عليها المدنيات ساقًا بعد ساق.
- تساؤله عن أسباب كفر الإنسان بإنسانيته وتبريره ذلك لأنه أراد أن يؤمن بالله الإيمان الذي تصور قيامه على التفريق بين الخالق والمخلوق أو بين الله وعباده.
- قوله: إن الديانات كلها مبنية على العبودية.

- تحريفه لحديث " كنت سمعه الذي يسمع به..".
- تحريفه لتفسير قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ - [الكهف]٥١.
- تحريفه مدلول حديث: "كل مولود يولد على الفطرة".
- إنكار عقوبات الله الدنيوية.
- تسخيفه الخطباء والعلماء والوعاظ وجميع رجال الدين لذمهم الإنسان، وأنه لا يترقى إلى مزاحمة رب العالمين ومنازعته في علمه وقدرته.
- وصفه الثقافة الدينية بالثقافة الخبيثة القاتلة، وقوله عن رجال الدين الذين يدعون إلى الكفر بالإنسان إنهم مجرمون.
- تفسيره الخاطئ لحديث: "من عرف نفسه عرف ربه".
- التهكم بمن روى عن النبي صلى الله عليه وسلم الإنكار على من قرأ كتب الأوائل.
- انتقاد قوله عليه الصلاة والسلام: " أكثر أهل الجنة البُله".
- إنكاره على المسلمين المحذرين من كتب ابن الهيثم وجابر بن حيان والرازي والكندي ونحوهم.
- رميه المسلمين بالتعصب.
- الانتقاص من صرف الوقت في العبادة مقابل الاشتغال بالعلوم.
- تفسيره الخاطئ لآية﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة ٢١٦].
- تفضيل عقول الملاحدة على عقول المسلمين.
- رأيه في المرأة ونقله لآراء المطالبين بسفورها.
- تكذيبه لأنس رضي الله عنه وغيره في طواف الرسول صلى الله عليه وسلم على نسائه بغسل واحد.

- حمله على المسلمين في نقل أحاديث الزهد الحاثة على الصبر والفقر.
- ندمه على أحواله الماضية حال الاستقامة.
- إنكاره العين والنظرة وحديثه عن الأرواح رغم إيمانه بها.
- تهكمه بحديث أنس: (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه).
- عجز المتدينين عن أن يهبوا الحياة شيئًا جديدًا أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة.
- التهكم بالآخرة.
- ثناؤه على أوربا.
- نقله عن بعض الفلاسفة الملحدين رأيهم في أن الإيمان أكبر نكبة على البشر، لأنه وقف بالحضارة عن التقدم مع أنه تبرأ من الإلحاد.
- قوله: إن المتدينين يفقدون الميزان الفكري ويصبحون أناسًا طيبين خيرين فاقدين لكل صناعة عقلية.

وقد تجاوز الباحث التفصيل في شرح هذه النقاط التي أسهب السعدي في شرحها وكانت مدار كتابه وملحقاته، كي لا يترهل البحث وبخاصة أنها مفهومة بخطوطها العريضة وكافية بعناوينها الرئيسة ولن يضيف إليها التفصيل تأصيلا.

وفي المحصلة؛ فمعظم ردود الشيخ تدور حول هذه النقاط ومشابهاتها على أنه في آخر فقرة في هذا المسرد (الكشاف) أشار إلى أن القصيمي قال عن الدين وأحسن بعض الإحسان ولكن هذا الاعتذار لا يفيده عند الناس شيئًا.

والملاحظ أن الشيخ مثلما رد في كتاب التنزيه، فقد سبقه ولحقه: (رسالة الشيخ السعدي إلى تلميذه ابن عقيل، وكشاف للمسائل الخبيثة والمباحث الخطيرة في كتاب الأغلال، وجواب مختصر عن حقيقة كتاب القصيمي، وجواب مجمل مطول عما احتواه كتاب الأغلال من الضلال، ونبذة جامعة مفيدة مختصرة

في التحذير من كتاب "هذي هي الأغلال"، وكذلك: مقدمة كتاب مظهر الضلال في الأغلال للشيخ تقي الدين الهلالي بخط الشيخ السعدي، وقد جمعت في كتاب حققه الشيخ عبد الرحمن بن يوسف الرحمة، وقدم له الشيخ عبد الله ابن عقيل، كما ضمها المجلد السادس من مجموع مؤلفات الشيخ السعدي في صفحات ١٦٣-٢٣٨) وكأنه كان معنيًا بإيصال تحذيرٍ شمولي لمن يقرأ الكتاب على اختلاف مستوياتهم العلمية والاجتماعية كي يكونوا على بينة مما فيه من " افتراءات" ، ولعل صدمة الشيخ بمن عهده شيخًا فاضلاً منافحًا عن السلفية فخرج عليها جعلته ينوع الردود فبدا " التنزيه " تنزيهات، والرد ردودًا، والحقيقة مطلبًا من جانبٍ واحدٍ، فلم يؤثر عن القصيمي بعد الأغلال أي كتابٍ زمن حياة السعدي.

هل صمت القصيمي فلم يرد؟

لم نجد للقصيمي ردودًا منشورةً على من تناولوا كتابه قدحًا، ومنهم الشيخ عبد الرحمن السعدي، وإن كان آخرون قد تولوا تقريظ كتاب «الأغلال»، والثناء عليه، والترويج له، وبخاصة من مصر ولبنان، وإن لم يخلُ من معارضين فيهما، ولعل مرد صمت القصيمي - في رأي الباحث - أربعة عوامل:

الأول: وقوفه حينها في منطقة ال» بين بين «؛ فبالرغم من انقلابه على سلفيته، إلا أنه لم يهدم الجسور معها، وهو ما دعا السعدي إلى عدم تكفير شخصه بشكل صريح ولم يصمه بالإلحاد كما ورد من سواه (الشيخ اليابس مثالا..).

الثاني: خشيته من ردة الفعل الحكومية «الرسمية» حيث قُطعت الإعانة عنه بأمر الملك عبد العزيز وأحيل مرتبه إلى الشيخ عبد الله اليابس» مكافأة له وتشجيعًا لمنافحته عن الدين ...».

الثالث: ما رُوي من إباحة دمه بفتوى من أحد أكبر المشايخ (لم أجد نصَّها)،

ويُتداول اسم شخصٍ سعودي معروف ذهب إلى مصر من أجل قتل القصيمي، والتقى به دون أن يعرفه ثم عاد عن عزمه بعد اللقاء[١].

الرابع: رفض الملك عبد العزيز محاولات التوسط للقصيمي ما لم يعد عن آرائه؛ « فمن المستحيل أن نرضى عن المذكور إلا إذا رجع إلى الصواب وخطّأ نفسه..» مع أن القصيمي رفع الكتاب « أي أهداه» إلى: « باعث العرب ومقيم دولتهم الملك عبد العزيز آل سعود»[٢].

ومن الثابت أن القصيمي لم يتراجع، لكنه مال إلى الصمت وجعل غيره في مصر ولبنان ينافحون عنه، ومنهم: (الشيخ محمود شلتوت، إسماعيل مظهر، عباس محمود العقاد، أحمد حسين، أمين الخولي، مصطفى عبدالرازق، حسن القياتي، أنسي الحاج وآخرون..) [٣]

وفي المجمل فقد توقف القصيمي عن التأليف، غير أنه كتب مقالات فلم يُعهد له مؤلَّفٌ مستقل حتى عام ١٩٦٣ م.

هل رفض السعدي الالتقاء بالقصيمي؟

أبعد القصيمي من مصر إلى لبنان بقرار سياسي أُلبس رداءً قضائيًا، فغادر القاهرة في صيف ١٩٥٤ م وتحديدًا في الثلاثين من شهر يوليو "تموز" الموافق (١/ ١٢/ ١٣٧٣ هـ) إبان وجود الشيخ السعدي هناك حيث قدم قبله بأقل من أربعة أسابيع وذلك في الثالث من شهر ذي القعدة عام ١٣٧٣م (٤/ ٧/ ١٩٥٤م)

---

(١) تنسب للشيخ محمد بن إبراهيم ١٣١١-١٣٨٩ هـ (١٨٩٣-١٩٦٩م).

قيل إنه الأستاذ فهد المارك ١٣٣٠-١٣٩٨ هـ (١٩١٠-١٩٧٨م).

(٢) (هذي هي الأغلال ص ٥)

(٣) (القفاري ص ١١٥-١٢١)

للاستشفاء في مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت وإقامته للنقاهة في "عاليه"، وقد تواصل القصيمي مع السعوديين هناك، بل إنه لجأ أول مقدمه إلى شاب من أهالي عنيزة كان يعمل في السفارة السعودية [1]، وهو الذي رتب له أمور سكنه ومعيشته الأولى، كما اتصل بآخرين ومنهم الشيخ إبراهيم الحسون (١٣٣٠-١٤٢٥هـ) كما ورد في سيرته المطبوعة (خواطر وذكريات)، ولم يكن غريبًا أن يعرف القصيمي بوجود السعدي، لكن الرواية الذائعة تؤكد أنهما لم يلتقيا، ولكن: هل تم ذلك قصدًا؟ وهل كان القصيمي يحتاج إلى استئذان، والكل مجمع على تواضع السعدي وبساطته، ومرافقاه اللذان قدما معه من المملكة هما ابنه محمد ورفيقه صالح العباد (أبو عبُّود) - وكان الشيخ يأنس به، ويصحبه في أسفاره - وثمة أصدقاءُ آخرون ارتادوا مقر إقامته هناك فلازموه- [2]وهل تهيب القصيمي لقاء الشيخ أو توسط ببعض من يعرف علاقتهم بالشيخ فاعتذر؟

الرواية المتداولة تفترض أن الشيخ اعتذر لا صدًا للقاء بل لأن مقامه هناك مخصص للعلاج لا أكثر، وعلى نفقة الدولة التي لم تكن راضيةً عن القصيمي كل الرضا وإن لان موقفها تجاهه في ذلك الوقت حتى إن السفارة السعودية عارضت نفيه إلى لبنان دون تبيان الأسباب (القفاري ص ١٢٧)، ولعل الشيخ - في مرضه - لم يكن يود تعكير صفو صحته التي تعاني من ارتفاع الضغط وتصلب الشرايين، والجدل في مثل حالته سيصيبها بانتكاسة، وهذا استنتاج من الباحث لم يسمعه قبلاً، والرواية صحيحة إجمالاً، إلا أنه لم يثبت أن القصيمي طلب الالتقاء بالسعدي، وما الظن أنه علم بوجوده هناك؛ فقد غادر الشيخ السعدي لبنان بعد عيد الأضحى وكان

(١) روي أنه الأستاذ صالح الحميدي

(٢) عد الشيخ منهم في رسالة لابن عقيل: عبدالعزيز العوهلي وزامل وعبدالعزيز العلي وعبدالرحمن المنصور وعبدالرحمن الحمد المنصور وعبدالعزيز الكعيد.

يتمنى مغادرتها قبل ذلك ليتمكن من أداء مناسك الحج، غير أن الطائرة الموكول إليها نقله إلى الوطن لم تتيسر وفق رسائل الشيخ السعدي التي بعث بها لتلميذيه الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز العقيل والشيخ عبدالله بن محمد العوهلي، وفيها وفي سواها ما يقرر أن الشيخ مكث في مستشفى الجامعة الأميركية خمسة أيام ثم أقام في «عاليه» شهرًا أو نحوه (لمتابعة العلاج وانتظار الطائرة) أي أن الأيام التي جمعت السعدي والقصيمي في لبنان - بما فيها من انتظار -لا تزيد على خمسة عشر إلى عشرين يومًا في الأرجح، و يبدو أن فكرة اللقاء نبعت من بعض أصدقاء الشيخ حين دار الحديث حوله، وربما اقترح بعضهم التقاءهما دون أن يعطي الشيخ الأمر أهمية؛ فقد جاء لهدف محدد وأيام مكثه المتبقية معدودة لاستعجال الشيخ العودة، وحرصه على أداء نسك الحج الذي حال دونه انشغال الطائرة خلال موسم مزدحم كما سلف، إضافةً إلى أنه لم يكن من المتوقع أن يحاوره الشيخ فقد قال مالديه في كتابه وملحقاته ولم يعهد عن الشيخ جدلياتٌ كتابية أو شفاهية، ويبدو أن كتابه عن القصيمي هو

الرد الوحيد الذي ألفه متجهًا نحو شخص معين باسمه ووسمه.[1]

---

(١) نشرت صحيفة البلاد في عددها الصادر يوم الخميس ١٨/ ٠١/ ١٣٧٤هـ/ ١٦ سبتمبر ١٩٥٤م ضمن أخبار أخرى من عنيزة: (عاد من لبنان بعد انتهاء علاجه هناك فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وكان قد سافر إليه منذ مدة للعلاج فنرحب بمقدم فضيلته.)، ونشرُ الخبر بهذا التأريخ لا يعني وصوله في التوقيت نفسه لتأخر النشر حينها أيامًا قد تصل إلى أسابيع، وربما توقف الشيخ قبل وصوله إلى عنيزة في الرياض أو الشرقية بعدما تعذرت عودته عن طريق جدة وقت الحج كما أوضح في بعض رسائله :(.. لعل يكون طريقنا على جدة إن صار معنا سعة وقت للحج، وناسب السفر إلى هناك أو على طريق الظهران على الرياض لأن البريد إليه متصل في الأسبوع مرتين ...) الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز ابن عقيل : سيرته الذاتية وأهم مراسلاته - الجزء الثالث - ص ١٠٧.



خاتمة

لو نشـر القصيمـي كتابه (هذي هي الأغـلال) في فترة متأخرة عن وقت نشـره (١٩٤٦م) لكانـت ردود الفعل أهدأ؛ إذ كثير من موضوعاته الخلافية أو الاختلافية مطروقـة اليوم بصورة لا تثير ضجيجًـا كالذي حصل له، وربما اقتصر الحوار حول تفسير بعض النصوص، وجزمِه بظنونه، واستهزائِه القاسي بالمتدينين، لتبقى قضايا دراسـة العلوم الحديثة والموقف من الفلاسفة والمتكلمين ونعيه تأخر الأمة وبحثه عن طرق الخلاص ونحوها قابلة للحوار الهادئ.

وقد بدا من رد السعدي عليه بضع نقاط مهمة يمكن إجمالها فيما يلي:

** لم يكفر السـعدي القصيمي بشخصه وإنما بنصوصه ودعا له بالهداية كما استعاد ماضيه الإيماني المستقيم.

** افترض السـعدي عمل القصيمي لصالح جهـات أجنبية، وهو افتراض لم يثبت في حينه ولا بعد ذلك.

** خشـي السعدي تأثير أفكار القصيمي على من ليس لديهم علم بالدين ولا بتأريخ القصيمي السلفي فحرر الكتاب وملحقاته.

** لم يكن السعدي هادئًا ولا مهادنًا في ردوده حين أبدى رغبته في عدم فسح الكتاب، كما كان إيرادُه لاسـم القصيمي غيرَ مجاملٍ ولأفكاره غيرَ مجادل لرفضه معظـم منطلقـات القصيمـي ورؤاه، غير أن مقارنته بردود سـواه تمنحه سـماحةً لا تسامحا.

** يتوقـع الباحـث أن لـو التقـى بعـض العلماء كالشـيخ السـعدي بالشـيخ القصيمـي وحاوروه بمنهجيـة وموضوعية وهدوء ولـم يكفره معظمهم ويسـتعدوا

عليه السلطة الدينية والسياسية ويتسببوا في حجب أعطياته وبعث من يغتاله لربما تغير نهج القصيمي أو توازن مساره، ولا سيما أنْ قد روت المديرة الإدارية بمستشفى فلسطين في القاهرة للصحافة قبيل موته أنه كان يقرأ القرآن الكريم سرًا ويتحدث عن مراقبة الله لمن في الأرض ودعائها لمن يسير عليها، وقد يوحي هذا – إن صح – بوجود صراعٍ داخل نفسه القلقة عادت به وقت شدته إلى فطرته ونشأته.

** يتساءل الباحث عن سبب صمت القصيمي عن الردود على معارضيه؛ فهل اكتفى بمن أيدوه في مصر ولبنان؟ أم خشي زيادة الغضب عليه وبخاصة أنه لم يستجب لطلب الرجوع عن آرائه كي تعاد استحقاقاته، مع أنه حكى عن تألمه من بعض الردود وبخاصةٍ رد الشيخ عبد الله اليابس الذي كان صديقه ومُساكنه أيام دراستهما في مصر، ومن ثم: هل تحتفظ الصحف اللبنانية والمصرية «تحديدًا» بما ينفي هذا الصمت؟

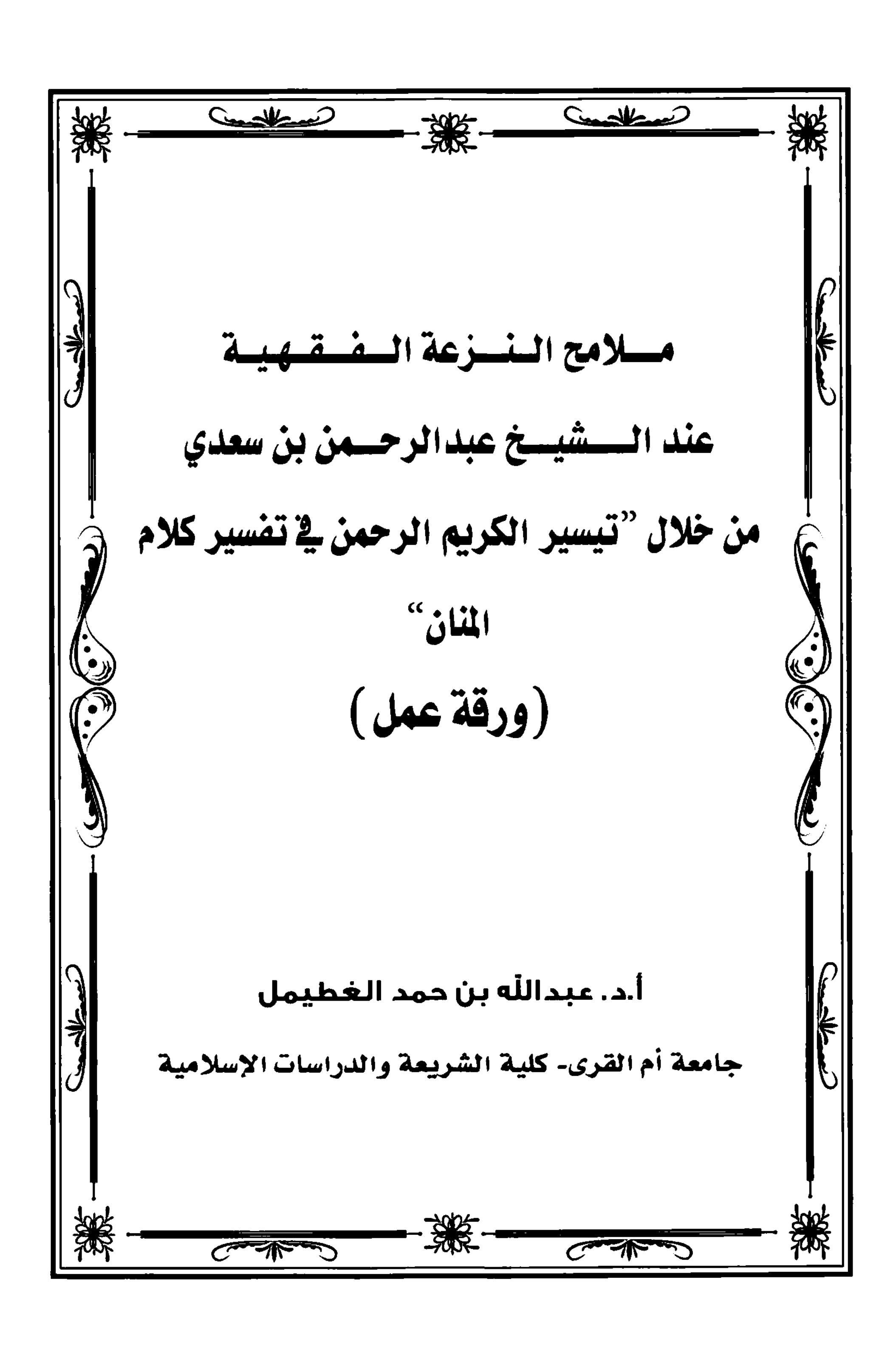
مصادر البحث [1].

- إبراهيم بن عبدالرحمن التركي، فواصل في مآزق الثقافة العربية ، مأزق الابتسار، ص ٢٩٩-٣٠٤، دار بيسان - لبنان، ٢٠١١م
- بلال بن محمود الجزائري، الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز ابن عقيل، سيرته الذاتية وأهم مراسلاته، الجزء الثالث،الرياض، دار الصميعي للنشر والتوزيع،١٤٣٢هـ
- عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، تنزيه الدين وحملته ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله، مجموع مؤلفات الشيخ ، المجلد السادس، ص ١٦١ -٢٤٨ ،مؤسسة الأميرة العنود بنت عبدالعزيز ابن مساعد، الرياض ، ١٤٣٢هـ١١ ٢٠ م.
- عبـدالله بن عبدالعزيز ابن عقيل، الأجوبة النافعة عن المسـائل الواقعة، دار ابن الجوزي، الرياض -١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- عبـدالله القصيمي ، هذي هي الأغلال ، منشـورات الجمل، كولونيا - ألمانيا- ٢٠٠٠م
- عبدالله بن سليمان القفاري، عبدالله القصيمي: حياته وفكره، مركز المحروسة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- أحاديث مع الأسـتاذ مسـاعد العبد الله السعدي مع بعض الأوراق والوثائق من مكتبته الخاصة.

---

(١) قراءات سابقة في كتابات حول الشيخين دون استشهادٍ مباشر، ومنها :
خمسون عامًا مع عبدالله القصيمي،إبراهيم عبدالرحمن،دار جداول-بيروت، ٢٠١٥م
خواطر وذكريات ، إبراهيم بن محمد الحسون،المكتبة المكية،مكة المكرمة، ٢٠٠٣م
القصيمي بين الأصولية والانشقاق، يورغن فازلا، دار الكنوز الأدبية - بيروت ٢٠٠١م
من حكايات الشيخ عبدالرحمن السعدي، إبراهيم التركي، دار بيسان- لبنان،٢٠٠٦ م





ملامح النزعة الفقهية عند الشيخ عبدالرحمن بن سعدي من خلال "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"

(ورقة عمل)

أ.د. عبدالله بن حمد الغطيمل

جامعة أم القرى- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، سخر لعباده علماء ورثة للأنبياء، نفروا فتفقهوا، ليدلوا العباد إلى الخير ويحذروهم من الشر، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[التوبة:١٢٢] والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين القائل: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، ثم أما بعد:

فلما عزمت جامعة القصيم ممثلة بكلية العلوم و الآداب بعنيزة، بالتعاون مع كرسي الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله-، على عقد مؤتمر تحت عنوان: **(الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي: آثاره ومنهجه في الاجتهاد والتجديد والدعوة)** تلقيت دعوة كريمة من سعادة وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي، للمشاركة في هذا المؤتمر، بورقة علمية عن أحد الجوانب العلمية لهذا الإمام، فوافق هذا هوى في نفسي، ورغبة ملحة في صدري منذ سنين، لإلقاء نظرة تأمل، وسبر عميق لتراث الشيخ - رحمه الله - العلمي في شتى الفنون، حيث أرى المجال خصباً لقيام أبحاث علمية أكاديمية في تراث هذا العلم، وكنت في وقت سابق قد زورت في نفسي جمع فقه هذا العلم من خلال تفسيره، وقد بدت لي هذه الفكرة البحثية من خلال قراءتي في تفسير الشيخ - رحمه الله-، ولكن المشاغل العلمية في الجامعة وخارجها حالت دون خوض غمار هذه الفكرة البحثية، فرأيت أن أحيلها إلى أحد طلاب الدراسات العليا، وأكون مشرفاً على إعدادها، لأحقق ما زورته في ذهني عن المنهج الذي يسير عليه البحث، والنتائج التي أطمع أن تخرج خدمة للباحثين، وإضافة علمية فريدة للمكتبة الإسلامية، فاستعنت بالله، فاقترحت الفكرة على طالب في مرحلة الماجستير وتم ولله الحمد والمنة تسجيل الموضوع

تحت عنوان: (الاختيارات الفقهية للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله- في كتابه: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - جمعًا وتوثيقًا ودراسة مقارنة بما استقر عليه مذهب الحنابلة).

وبعد أن عشت مع هذا السِفر العظيم أكثر من عام في الإشراف على بحث الطالب توازي المدة التي مكثها الشيخ - رحمه الله- في تأليفه له، كتبت هذه الورقة العلمية، وجعلتها في وقفات للدلالة على الاختصار والإيجاز، مبتغٍ في ذلك مبتغى من يريد من السوار و القلادة ما يحيط بالمعصم والعنق، فما هي إلا شذرات لتنبيه الباحثين إلى المكتنز بين دفتي هذا الكتاب، فإن يكن من قصور أو خلل فمن نفسي والشيطان واستغفر الله وأتوب اليه، وإن يكن صوابًا وفيه فائدة فمن نعمة الله علي أحمده وأشكره على سوابغ نعمه وعظيم آلائه، وصل اللهم وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

الوقفة الأولى

تأكيد النزعة الفقهية في تفسير الشيخ - رحمه الله-.

النظرة العجلى في تفسير الشيخ - رحمه الله- لا تبين حجم المسائل الفقهية المبثوثة في هذا السفر المبارك، لكن من قرأ بتدبر ليستقرئ استقراءً تاماً فسوف يقف على مسائل فقهية في غالب أبواب الفقه الإسلامي من الطهارة حتى الإقرار، ليظهر له: (**أن فقه الشيخ في تفسيره**) غفل عنه بعض من جمع فقه الشيخ - رحمه الله- من مختلف كتبه إلا التفسير فسبحان من لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن يتأمل يجد أن المسائل الفقهية في تفسير الشيخ -رحمه الله - تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مسائل فقهية ذكرها الشيخ - رحمه الله- على النسق الذي سار عليه الفقهاء في ذكر هذه المسائل في مظانها من الأبواب وهي من المسائل التي لا يكاد يخلوا منها كتاب فقهي، لكنها في تفسير الشيخ - رحمه الله- لا تخلو من إضافة فائدة، أو نكتة علمية في الغالب، ويكفي أن المسألة التي يذكرها الشيخ قد استدل لها بآية من كتاب الله .

القسم الثاني: مسائل فقهية يعز وجودها في كتب الفقه التي درج مؤلفوها على ذكر المسائل الفقهية حسب ما يخص كل باب، وإنما يكون مظنتها في كتب التفسير، وشروح الأحاديث، وكتب الفقه العام، وبعض هذه المسائل قد تكون ناتجة عن تدبر الشيخ - رحمه الله - في آي الذكر الحكيم فلا تجدها منصوصاً عليها في أبواب الفقه المعتادة في كتب الفقه، وقد لا تجدها في كتاب غيره، والله يؤتي الحكمة من يشاء، ولعل هذا ما عناه الشيخ - رحمه الله - بقوله: «.... وأن لا يكون المتدبر

مقتصراً على مجرد معنى اللفظ ... فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه .... وقد كان في تفسيرنا هذا كثير من هذا منَ الله به علينا»[1] ا.هـ.، وأحسب أن الشيخ - رحمه الله - قد فتح الله عليه في هذا الكتاب فتوح العارفين، وطرح له القبول في العالمين، جعله الله حجة له لا عليه، ورفعه به في عليين، وجمعنا به في مستقر رحمته مع النبين والشهداء والصالحين.

وهذا القسم من المسائل أرى أن تفسير الشيخ - رحمه الله- يصلح أن يكون منتجعاً خصباً للباحثين عن قول عالم مجتهد محقق من أمثال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي - رحمه الله-، في نازلة أو مسألة لم يأت على ذكرها العلماء في باب من أبواب الفقه، وحسبك أن مسائل الفقه في تفسير الشيخ - رحمه الله- جاوزت تسعمئة مسألة من القسمين السابقين قد يكون عدُّها على قدم المساواة، أو يزيد أحدهما وينقص الآخر قليلاً، وهذا العدُّ نتج عن استقراء تام في بحث الطالب المشار إليه آنفاً.

الوقفة الثانية

شهادة العلماء بأن كتاب الشيخ - رحمه الله - حافل بأحكام الشريعة

أولاً: قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - : "فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة: ...... منها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد، ومنها دقة الاستنباط فيما تدل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٣٢)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحِكَم وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة (ص)".[1]

ثانياً: قال الشيخ عبدالله بن عقيل - رحمه الله -: "..... اهتم الشيخ - رحمه الله - بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره".[2]

الوقفة الثالثة

تكامل الحكم الفقهي في المسألة الواحدة في آيات مختلفة

إذا وردت آية - متقدمة في ترتيب المصحف- فيها حكم مسألة من المسائل الفقهية فإن الشيخ - رحمه الله- يذكر حكم هذه المسألة، ثم إذا وردت نفس المسألة في آية أو آيات متأخرة، فإن الشيخ - رحمه الله- يذكر الحكم لكن بصيغة أخرى غير الصيغة الأولى وذلك بتغيير لفظ؛ أو حذف؛ أو إضافة؛ بما يناسب المقام، أو السياق، أو كون الآية مظنة ذكر حكم المسألة، وغالباً تكون في إحدى الصيغتين إضافة علمية على حكم المسألة، ولهذا يمكن أن يستدل لمسألة واحدة بأكثر من آية، وهذا يدل دلالة واضحة على قوة تدبر الشيخ رحمه الله مستعملاً القواعد الأصولية، وخصوصاً باب الدلالات في أصول الفقه من: مفهوم المخالفة، ودلالة

(١) انظر مقدمة صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -، لكتاب (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) (ص ١١)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر بتصرف: مقدمة صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل - رحمه الله- لكتاب (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) (ص ٩)، ط١- مؤسسة الرسالة.

الإشارة، والتنبيه ونحوها، وهذا يثري الأبحاث العلمية في أدلة المسائل الفقهية.

الوقفة الرابعة

تفقه الشيخ - رحمه الله - في آي الذكر

يذكر الشيخ - رحمه الله- حكماً لمسألة فقهية، أثناء تفسيره لآية لا يظهر للناظر فيها بادئ الرأي أنها تدل على هذا الحكم، وقد يستنبط حكماً من آية -يغلب على ظني- أنه لم يسبق إليه وإنما حصل له من التدبر- كما أشرت إلى ذلك في الوقفة الأولى - وفوق كل ذي علم عليم، ومن أمثلة ذلك لا على سبيل الحصر:

١- استدلاله - رحمه الله- لجواز البيع بصيغة المعاطاة «بدلالة التضمن» في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ [النساء:٢٩]، فقال: (تنعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل؛ لأن الله شرط الرضا فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد.[١]

٢- استدلاله - رحمه الله - على جواز بيع كلب الصيد «بدلالة الالتزام» في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾[المائدة:٤]، فقال: (فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد قال: لأنه لا يحصل إلا بذلك).[٢]

٣- استدلاله - رحمه الله - على جواز السلم بآية الدين في سورة البقرة آية (٢٨٢)، حيث قال: (تجوز جميع المداينات من سلم وغيره؛ لأن الله أخبر عن المداينة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٧٥)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٢١)، ط١- مؤسسة الرسالة.

التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها، ذاكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز).[1]

٤- استدلاله - رحمه الله - على صحة عقد الوكالة بقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾[الكهف:١٩]، فقال عند تفسير هذه الآية: (صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك).[2]

٥- استدلاله - رحمه الله - على عدم جواز الوكالة في الخصومة إذا علم أن الخصم مبطل بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾[النساء:١٠٥]، فقال: (لا تخاصم عن من عرفت خيانته؛ من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواءً علم ذلك أو ظنه، ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية، والحقوق الدنيوية)[3]، ثم أخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ [النساء:١٠٦]، جواز الوكالة عن المبطل، إذا لم يعلم الوكيل بحاله فقال: (يدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لا يعرف منه ظلم ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ﴾ إن صدر منك ما صدر).[4]

٦- استدلاله - رحمه الله - على عدم جواز أخذ الأجرة على القربات التي من شرطها الإخلاص، وكذلك عدم جواز أخذ الأجرة على عمل لم يقم بواجبه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨]، فقال - رحمه الله

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١١٨)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٤٧٢)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٠٠)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٩٩)، ط١- مؤسسة الرسالة.

- عند ذكره لحكم أكل المال بالباطل: (وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه). (١)

٧- ذكر الشيخ - رحمه الله - تعريف الميسر، وحكمه، والحكمة من تحريمه، وذلك في عدة مواضع، عند تفسير آية (٢١٩) من سورة البقرة، وعند تفسير آية (٩٠-٩١) من سورة المائدة، وهذه كما أشرنا في الوقفة الأولى من الأحكام التي يعز وجودها في كتب الفقه المرتبة على الأبواب.

٨- ذكر الشيخ - رحمه الله - بأن جواز أخذ الوالد من مال ولده رضي أولم يرض خاص بالأب دون الأم، مستدلاً لذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٣]، فقال: ودل قوله تعالى: (﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أن الولد لأبيه؛ لأنه موهوب له؛ ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضي أولم يرض بخلاف الأم). (٢)

٩- ذكر الشيخ - رحمه الله - حكم المال الناتج عن المعاملات المحرمة، واستدل له بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨]، فقال: (ولما كان أكلها نوعين: نوعا بحق، ونوعاً بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل قيده تعالى بذلك ويدخل في ذلك أكلها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة كعقود الربا، والقمار كلها فإنها من أكل المال بالباطل؛ لأنه ليس في مقابلة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٨)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٤٠)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

عوض مباح).[1]

١٠- استدلاله البديع - رحمه الله - على أن القتل من أعظم موانع الإرث بقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾[النساء:١١] حيث قال: (وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾وقد عُلم أن القاتل قد سعى لمورثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث. فعُلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٧٥] مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه».[2]

١١- استدلاله - رحمه الله- بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:٤٣] على أن حكم الدخول في الصلاة حال النعاس لا يجوز فقال: (يؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة حال النعاس المفرط الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل).[3]

١٢- استدلاله - رحمه الله- على فضل العلم بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٨)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٦٨)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٧٩)، ط١- مؤسسة الرسالة.

عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾[المائدة:٤] حيث قال: (فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم بسبب العلم يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده) وهذه لفتة فقهية لطيفة من لطائف الشيخ - رحمه الله-.

الوقفة الخامسة

اهتمام الشيخ - رحمه الله - بالتأصيل للقواعد الفقهية.

الاستدلال للقواعد الفقهية من كتاب الله، يحتاج إليه طالب العلم وفي تفسير الشيخ - رحمه الله- جملة من ذلك صالحة لتكوين بحث علمي يجلي قوة تدبر الشيخ - رحمه الله - وعمق فكره في استنباط دلالة الآيات على القواعد، ومن الأمثلة على ذلك:

١- استدلاله - رحمه الله - للقاعدة الفقهية: «الضرورات تبيح المحظورات» بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[البقرة:١٧٣] حيث قال: (وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات» فكل محظور اضطر إليه الإنسان، فقد أباحه له، الملك الرحمن).[1]

٢- استدلاله - رحمه الله - للقاعدة الفقهية: «يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما» بقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾[البقرة:١٩١] حيث قال: (ويستدل بهذه الآية على القاعدة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٢)، ط١- مؤسسة الرسالة.

المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما). [1]

٣- استدلاله - رحمه الله - بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٩- ٦٠] على قاعدة فقهية بقوله: (وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة وهي: أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه؛ لأن ما خالف الحق فهو باطل). [2]

٤- استدلاله - رحمه الله - على قاعدة: «العمل بالقرائن عند الاشتباه» بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف:٧٢]، قال - رحمه الله- : (ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصُّواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بينة شهادة ولا إقرار). [3]

٥- استدلاله - رحمه الله - لقاعدة «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه» بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص: ٣١- ٣٣]، فقال - رحمه الله- : (ومنها - أي مما يؤخذ من هذه الآيات -: القاعدة المشهورة «من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه» فسليمان - عليه السلام- عقر الجياد الصافنات

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٩)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٣٣)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٤٠٧)، ط١- مؤسسة الرسالة.

المحبوبة للنفوس، تقديما لمحبة الله، فعوضه الله خيرا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر، ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون). [1]

٦- استدلاله - رحمه الله - بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦] على قاعدتين فقهيتين ذكرهما بقوله: (فهذه الآية، تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر). [2]

٧- استدلاله - رحمه الله- بقوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)﴾[الكهف:٧١]؛ على قاعدة فقهية قررها بقوله: (ومنها - أي مما يؤخذ من هذه الآية - القاعدة الكبيرة أيضا وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير » كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غصب الملك الظالم). [3].

٨- استدلاله - رحمه الله- على قاعدة: (أن الأصل في الأعيان الإباحة أكلاً وانتفاعاً) بأكثر من آية عند تفسير آية (١٦٨ من سورة البقرة)، وعند آية (١١٨-١٢١ من سورة الأنعام)، وعند آية (٥٩ من سورة يونس).

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٧١٢)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٦٨)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٤٨٥)، ط١- مؤسسة الرسالة.

٩- استدلاله - رحمه الله- على قاعدة: (الضرورات تبيح المحظورات)، عند تفسير آية (١٧٣ من سورة البقرة). [1]

الوقفة السادسة

اهتمام الشيخ - رحمه الله - بذكر الخلاف في بعض المسائل، وبيان موقفه منه.

يستحضر الشيخ - رحمه الله - الخلاف بين الفقهاء في المسائل لكن لم يكن على وتيرة واحدة في هذا الشأن ولم يكن مكثراً من ذلك، إلا حينما يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد ومن فوائد ذكره للخلاف الذي وقفت عليه معرفة اختياره -رحمه الله- في المسألة بعد تحريرها، وإن لم يصرح -رحمه الله- بذلك إلا أنه قد يفهم ذلك من طريقة عرضه للقولين بدعم أحد القولين بالدليل وتنظير الآخر أو الإيراد عليه وعدم الجواب عن هذا الإيراد **ومن أمثلة ذكره الخلاف:**

١- عند قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤١-٢٤٢] قال - رحمه الله-: (أي: لكل مطلقة متاع بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً لخاطرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه المتعة واجبة على من طلقت قبل المسيس، والفرض، سنة في حق غيرها كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها، وقيل إن المتعة واجبة على كل مطلقة احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن القاعدة أن المطلق محمول على المقيّد، وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل الفرض

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨١)، ط١- مؤسسة الرسالة.

والمسيس خاصة)، [1] ونلحظ في هذا النص أن الشيخ - رحمه الله - ذكر القولين في المسألة وظهر لي ميله إلى القول الأول والله أعلم.

٢- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)﴾ [المائدة: ٩٤- ٩٥] ذكر - رحمه الله- في عقوبة من قتل صيداً في الحرم قولين للعلماء هل تشمل العقوبة العامد والمخطئ، أو يقتصر فيها على المتعمد دون المخطئ؟ فذكر القول الأول: أن الجزاء على المتعمد والمخطئ ثم قال: (وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ، كما هو القاعدة الشرعية - أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق؛ لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطئ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، هذا جواب الجمهور عن هذا القيد الذي ذكره الله وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد وهو ظاهر الآية، والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم) [2]، ونلحظ في هذا أن الشيخ - رحمه الله - ذكر القولين دون ترجيح لأحدهما على الآخر بلفظ صريح، لكن من يدقق النظر قد يظهر له ميل الشيخ - رحمه الله- إلى أحد القولين وهذا محل نظر والله أعلم.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٠٦)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٤٤)، ط١- مؤسسة الرسالة.

٣- ذكره - رحمه الله - خلاف الفقهاء في حكم الإحرام بالحج قبل أشهره فذكر القولين، ثم اختار قول الجمهور فقال: (قلت: لو قيل إن فيها - أي الآية - دلالة لقول الجمهور: بصحة الإحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً).[١]

٤- ذكره - رحمه الله - خلاف الفقهاء في مسألة القاتل عمداً هل يتعين قتله، أو يجوز العفو عنه؟ فذكر القولين ودليلهما ثم صحح جواز العفو عنه فقال: (وأما من فسر «العذاب الأليم» بالقتل فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول).[٢]

٥- ذكره - رحمه الله- حكم عتق الرقيق المعيب، عند الحديث عن كفارة القتل الخطأ وأشار إلى قولي الفقهاء بين الجواز وعدمه، ثم قال: (ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزئ عتق المعيب في الكفارة)، ثم أورد تعليلاً لطيفاً لهذا الاختيار فقال: (لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، وكان بقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزئ عتقه، مع أن في قوله «تحرير رقبة» ما يدل على ذلك، فإن التحرير «تخليص من استحقت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع لم يتصور وجود التحرير فتأمل ذلك فإنه واضح).[٣]

الوقفة السابعة

اهتمام الشيخ - رحمه الله - بصياغة القواعد الفقهية والاستدلال لها من الآيات، أو ذكر القواعد الفقهية والتفريع عليها.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٩١)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٤)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٩٢)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

اهتمام الشيخ - رحمه الله- بالتقعيد الفقهي ظاهر في تفسيره، سواء في ذلك القواعد المستقرة فيفرع عليها أو قواعد يرى أن في الآيات دلالة عليها فينبه على ذلك ويقوم بصياغتها، ومن الأمثلة على ذلك:

١- صياغة قاعدة فقهية من قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: ٧١]، حيث قال: (القاعدة الكبيرة أيضاً وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنه يجوز ولو بلا إذن، حتى لو ترتب على عمله إتلاف مال الغير). [١]

٢- قال - رحمه الله - القاعدة الكبيرة أيضا وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير» ثم أخذ بالتفريع عليها فمن ذلك : [٢]

أ- خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غصب الملك الظالم.

ب- لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير .

ج- لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

٣- قاعدة : «القرائن يعمل بها عند الاشتباه»، ذكرها الشيخ - رحمه الله- ثم فرع عليها كما يلي: [٣]

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٤٨٠)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٤٨٥)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٤٠٧)، ط١- مؤسسة الرسالة.

أ- لو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينة.

ب- لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة.

ج- العمل بالقافة في الأشباه والأثر، من هذا الباب .

د- شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ه- إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة.

و- وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد، حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه.

الوقفة الثامنة

اهتمام الشيخ - رحمه الله - بالتقاسيم الفقهية

فن التقاسيم الفقهية من فنون التأليف والتدريس التي برع فيها بعض العلماء في مصنفاتهم، وفائدتها تقريب المسألة لطالب العلم وتسهيل حفظها والإحاطة بحكمها، وقد برع الشيخ - رحمه الله - في هذا الفن، **ومن الأمثلة على ذلك:**

١- تقسيمه - رحمه الله - حكم مسألة ما اذا كان بين المسلمين وعدوهم عهد وميثاق، فهل يجوز نبذ العهد، فقرر - رحمه الله - أن ذلك ينقسم إلى ثلاث حالات وذكر حكم كل حاله. (١)

٢- تقسيمه - رحمه الله - للبدعة حيث قال: (البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٣٢٤)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

يشـرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شـرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة). [١]

٣- تقسيمه - رحمه الله- فيما يلزم من قتل صيداً في الحرم، وأنه مخير بين ثلاثة أمور ثم ذكرها. [٢]

٤- تقسيمه - رحمه الله- مراتب معاملة الجاني في العقوبة، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم، ثم عرف بكل مرتبة. [٣]

٥- ذكره - رحمه الله- أقسام عمارة المساجد عند تفسيره آية (٣٦- ٣٧ من سورة النور).

٦- تقسيمه - رحمه الله- أحكام قصر الصلاة إلى: (قصر عدد وصفه، وقصر عدد فقط، وقصر صفة، وبيان موضع كل قسم. [٤]

٧- تقسيمه - رحمه الله- المحرم إلى قسمين محرم لذاته، ومحرم لما عرض له. [٥]

٨- تقسيمه - رحمه الله - النساء اللاتي يباح نكاحهن. [٦]

*

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٨)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٤٣- ٢٤٤)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٧٦٠)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٩٧)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٨٠)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٢١)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

الوقفة التاسعة

اهتمام الشيخ - رحمه الله - بـــذكر الحـــكمة من شرع الأحـــكام

يندر أن تجد في كتابٍ فقهي إشارة إلى الحكمة من شرع الأحكام، وإن ذكرها بعض العلماء فلا أراه مطرداً، أما الشيخ - رحمه الله - فإنه قد اعتنى بذكرها،

ومن الأمثلة على ذلك:

١- ذكره - رحمه الله - الحكمة من تحريمه الميسر وذلك في عدة مواضع، عند تفسير آية (٢١٩) من سورة البقرة، وعند تفسير آية (٩٠-٩١) من سورة المائدة.

٢- ذكره - رحمه الله - للحكمة من مشروعية حد القذف. [١]

٣- ذكره - رحمه الله- للحكمة من مشروعية حد السرقة. [٢]

٤- ذكره - رحمه الله- للحكمة من شرع عقوبة قطاع الطريق والمفسدين في الأرض، وذلك بإقامة حد الحرابة عليهم، في موضعين، عند تفسير آية (٣٣-٣٤ من سورة المائدة) وعند تفسير آية (٦١ من سورة الأحزاب).

٥- ذكره - رحمه الله- الحكمة من مشروعية الصيام وفوائده للصائم. [٣]

٦- ذكره - رحمه الله - الحكمة من تحريم صيام أيام التشريق. [٤]

٧- ذكره - رحمه الله - الحكمة من تخصيص الذكر بعد صلاة الخوف. [٥]

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٥٦١)، ط١- مؤسسة الرسالة.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٣٠)، ط١- مؤسسة الرسالة.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٨٦)، ط١- مؤسسة الرسالة.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٩٣)، ط١- مؤسسة الرسالة.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٩٨)، ط١- مؤسسة الرسالة.

٨- ذكر - رحمه الله- الحكمة من تحريم أكل الميتة، عند تفسير (آية ٣ من سورة المائدة).

٩- ذكره - رحمه الله - الحكمة من تخصيص لحم الخنزير من بين سائر الخبائث عند تفسير (آية ٣ من سورة المائدة).

١٠- ذكر - رحمه الله- الحكمة من إباحة ذبائح أهل الكتاب دون غيرهم من الكفار(١)

الوقفة العاشرة

اهتمام الشيخ - رحمه الله - بذكر الحدود والفروق

يهتم الشيخ - رحمه الله- بالحدود، والفروق الفقهية، فيقوم بتعريف المصطلحات، ويذكر الفرق بين المسائل المتشابهة في الصورة المختلفة في المعنى، **ومن الأمثلة على ذلك:**

١- تعريفه الفقير، والمسكين، و ذكر الفرق بينهما، في أكثر من موضع عند تفسير آية (٦٠) من سورة التوبة، وعند آية (٧٩) من سورة الكهف، وعند آية (١٧٧) من سورة البقرة، وعند آية (٣٦) من سورة النساء، وعند آية (٣٨) من سورة الروم.

٢- ذكره - رحمه الله - المراد بالعاملين على الزكاة، عند تفسير آية (٦٠) من سورة النساء.

٣- تعريفه - رحمه الله - بالمراد في قوله تعالى: (وفي سبيل الله) عند تفسير آية (٦٠) من سورة التوبة، وكذلك (ابن السبيل) عند تفسير آية (١٧٧) من سورة البقرة، وعند آية (٣٦) من سورة النساء، وعند آية (٣٨) من سورة الروم، ثم فرق بين ابن السبيل المنقطع في السفر، وبين الذي في بلده.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٢١)، ط١- مؤسسة الرسالة.

٤- بيانه - رحمه الله- بالمراد بالسائلين، وذكر أنهم على قسمين وذلك عند تفسير آية (١٧٧) من سورة البقرة.

٥- بيانه - رحمه الله- معنى الخشوع في الصلاة بياناً كافياً وذلك عند تفسير آية (٢) من سورة المؤمنون).

٦- ذكره - رحمه الله- الفرق بين الخطأ والنسيان. [١]

الوقفة الحادية عشر

اهتمام الشيخ - رحمه الله- بنقل إجماع العلماء على حكم المسألة

حينما يذكر الشيخ مسألة فقهية لا خلاف فيها بين العلماء يعقبها بقوله: (وهو مجمع عليه بين أهل العلم) ونحوها ومن **الأمثلة على ذلك:** [٢]

١- عند تفسير قوله تعالى: (﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣٤] قال عند تعداده للفوائد المستنبطة من الآية: وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، **وهو مجمع عليه بين العلماء**). [٣]

٢- ذكره - رحمه الله- عند آيات المواريث في سورة النساء (١٢،١١): (هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات المواريث المتضمنة لها. فإنها مع حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما- الثابت في صحيح البخاري «أَلْحِقوا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٢٠)، ط١- مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر على سبيل المثال: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٦٦).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٠٤)، ط١- مؤسسة الرسالة.

الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر» - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور في ذلك. لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك).[1]

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ١٦٦)، ط١ - مؤسسة الرسالة.

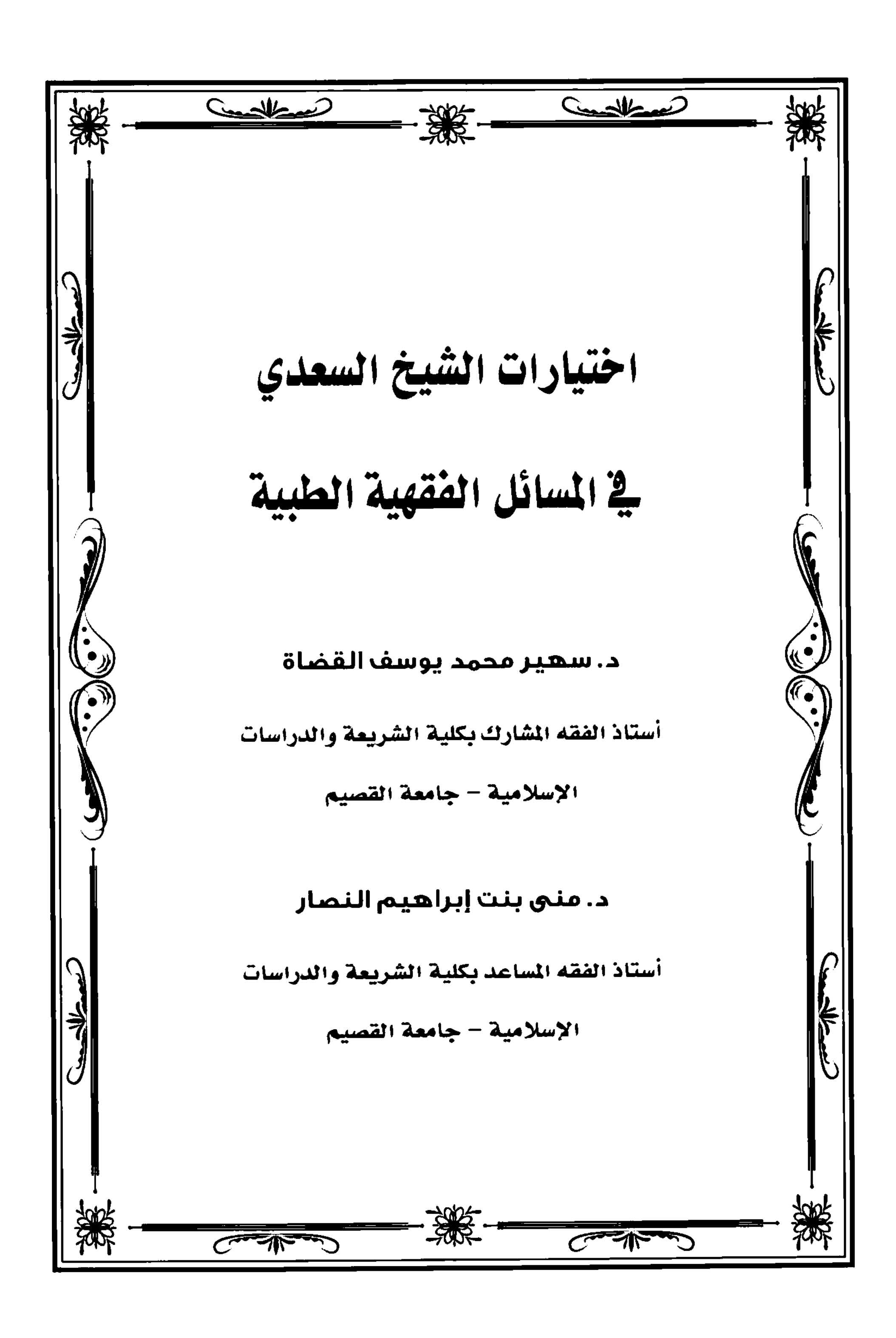
الخاتمة

الحمد لله الذي يسر لي إتمام هذه الورقة العلمية على تقصير مني، واسأله سبحانه كما أنعم علي بالتمام أن يمن علي بحسن الختام، وأعرض في هذه الخاتمة أبرز نتيجة، وأضيف توصية لهذا الملتقى المبارك كما يلي:

١- من يتأمل في تفسير الشيخ ابن سعدي - رحمه الله- ويمعن فيه النظر يجد أن غالب فقه الشيخ مكتنز في هذا التفسير، فهو مَعين لا ينضب للمسائل الفقهية المدعومة بالدليل من كتاب الله يجب ألا يغفل الباحثون والباحثات عن الرجوع إليه في أبحاثهم.

٢- أوصي الجامعات بتوجيه الباحثين والباحثات إلى تسجيل أطروحاتهم العلمية في الجوانب العلمية لهذا العلَم فإن له باعاً طويلاً في شتى فنون العلم في العقائد والمعاملات والأخلاق والتربية وغيرها وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





اختيارات الشيخ السعدي

في المسائل الفقهية الطبية

د. سهير محمد يوسف القضاة

أستاذ الفقه المشارك بكلية الشريعة والدراسات

الإسلامية - جامعة القصيم

د. منى بنت إبراهيم النصار

أستاذ الفقه المساعد بكلية الشريعة والدراسات

الإسلامية - جامعة القصيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

فلا شك أن الحديث عن العلماء والمصلحين والدعاة، ونشر سيرهم وتراجمهم وجهودهم العلمية له ثماره الكثيرة، ومصالحه العظيمة التي تعود على الأفراد والمجتمعات، لذا سيركز هذا البحث على جانب من جوانب الحياة العلمية لفضيلة عالم جليل وشيخ من المشايخ، ألا وهو فضيلة الشيخ العلاّمة عبد الرحمن بن ناصر السعدي وجهوده فيما يتعلق بالمسائل الفقهية الطبية.

أهمية الموضوع:

- تبرز أهمية هذا الموضوع بما يتميز به الشيخ السعدي في المسائل الفقهية الطبية التي كانت في عصره الذي احتوى على مستجدات تحتاج لرأي شرعي فيها، والنظر في منهجه لدراسة هذه المسائل.
- بيان ما يتميز به فضيلة العلاّمة من ملكة فقهية تميزه عن علماء عصره.

أهداف الموضوع:

- معرفة المنهج الذي اعتمده فضيلة الشيخ، وجهوده لإصدار فتاواه، وطرق تعامله مع المسائل الفقهية الطبية بحثاً وتحليلاً.
- معرفة المسائل الفقهية الطبية التي تناولها الشيخ واجتهد فيها.
- معرفة مدى تأثر الفقه وتأثيره بالجانب الطبي.

مشكلة الدراسة:

- ما هي أبرز المسائل الفقهية الطبية التي تناولها فضيلة الشيخ واجتهد فيها؟

- ما المنهج الذي اعتمده فضيلة الشيخ لإصدار فتاواه وطرق تعامله مع المسائل الفقهية الطبية؟

الدراسات السابقة:

لم نقف على دراسة سابقة تتناول هذا الموضوع.

منهج البحث:

سنتبع بإذن الله المنهج الوصفي، الاستقرائي، الاستنباطي، التحليلي.

خطة البحث:

المبحث الأول: مفهوم المسائل الفقهية الطبية، وبيان اهتمام علماء المسلمين بعلم الطب.

المطلب الأول: مفهوم المسائل الفقهية الطبية لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: اهتمام علماء المسلمين الأوائل بعلم الطب.

المبحث الثاني: اختيارات الشيخ السعدي في المسائل الفقهية الطبية.

المطلب الأول: اهتمام الشيخ السعدي بعلم الطب.

المطلب الثاني: اختيارات الشيخ السعدي في المسائل الفقهية الطبية.

الفرع الأول: الأحكام المتعلقة بالمرضى الجرحى.

الفرع الثاني: حكم التداوي بالإبر وحكم أخذ الإبر أثناء الصيام.

الفرع الثالث: حكم نقل الأعضاء.

الفرع الرابع: الأحكام المتعلقة بالمرأة الحائض والمرأة الحامل والمرأة النفساء.

الخاتمة.

المصادر والمراجع.

المبحث الأول: مفهوم المسائل الفقهية الطبية، وبيان اهتمام علماء المسلمين الأوائل -رحمهم الله- بعلم الطب.

المطلب الأول: مفهوم المسائل الفقهية الطبية.

الفرع الأول: مفهوم المسائل لغة واصطلاحاً.

سأل: سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤَالاً وسَآلَةً ومَسْأَلةً وتَسْآلاً وسَأَلَةً، قَالَ أَبو ذُؤَيْبٍ:

أَسَاءَلْتَ رَسْمَ الدَّار، أَم لَمْ تُسَائِل ... عَنِ السَّكْنِ، أَم عَنْ عَهْده بالأَوائِل؟

وسَأَلْتُ أَسْأَلُ وسَلْتُ أَسَلُ، والرَّجُلانِ يَتَسَاءَلانِ ويَتَسايَلانِ، وَجَمْعُ المَسْأَلَة مَسَائِلُ بِالْهَمْزِ، فإِذا حَذَفُوا الْهَمْزَةَ قَالُوا مَسَلَةٌ. وتَسَاءَلُوا: سَأَل بعضُهم بَعْضًا. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[1]، وقرئ: تَسائَلُونَ بِهِ[2].

اصطلاحاً: هي المطالب التي يبرهن عليها في العلم ويكون الغرض من ذلك العلم: معرفتها[3].

الفرع الثاني: مفهوم الفقهية لغة واصطلاحاً.

الفقهية لغة: من الفقه، وهو الفهم والفطنة بالعلم، وغلب في علم الشريعة وعلم أصول الدين.[4]

وفي الاصطلاح: العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة

---

(١) سورة النساء، الآية ١.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر-بيروت، ط٣، ١٤١٤ه، ج١١، ص٣١٨.

(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٢٩٦.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، ج٢، ص٦٩٨.

التفصيلية. [1]

الفرع الثالث: مفهوم الطبية لغة واصطلاحاً.

الطب في اللغة يطلق على معان، منها:

الطِّب: بالكسر المداواة، السحرُ وعلاج الجسم والنفس، وعلمُ الطب: علم بقوانين يعرف بها حالات الصحة والمرض وتأثير الأدوية. [2]

الطب في الاصطلاح: هو علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة، ليحفظ الصحة حاصلة، ويستردها زائلة. [3]

الفرع الرابع: مفهوم المسائل الفقهية الطبية كمصطلح مركب.

يقصد بها الأحكام الفقهية والقواعد الشرعية المتعلقة بالمهن الصحية والمرضى. [4]

---

(١) شرح زاد المستقنع في اختصار المقنع، محمد بن محمد المختار الشنقيطي، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء-الرياض-المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م، ج١، ص١٧.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ج١، ص٥٥٣، معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي، حامد صادق قنيبي، دار النفائس، ط٢، ١٤٠٨ه-١٩٨٨م، ج١، ص٢٨٨، التعريفات الفقهية: محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م) الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١٣٥.

(٣) القانون في الطب، لابن سينا، ج١، ص١٣.

(٤) موسوعة الفقه الطبي، مؤسسة الإعلام الصحي، السعودية ص٤٣.

المطلب الثاني: اهتمام المسلمين الأوائل بعلم الطب. [1]

حظي علم الطب باهتمام بالغ من المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، ولقي تشجيعاً كبيراً وعناية واسعة من خلفاء المسلمين وسلاطينهم على مر العصور الإسلامية؛ وذلك من منطلق أن الناس في مختلف العصور والأزمنة محتاجون إلى وجود طبيب يسعى في معالجة المرضى، وتختلف الحاجة إليه باختلاف الظروف والأحوال، وإذا لم تسد حاجة المجتمع من الأطباء والممرضين، فإن حياة الناس وأرواحهم ستكون مهددة بخطر؛ لذا فعلم الطب من فروض الكفاية، وقد نص فقهاء الإسلام في كتبهم على حكم فرضية تعلم الطب على الكفاية، بل لم يقف الأمر عند ذلك، وإنما تعداه إلى حث الهمم وتشجيعهم النفوس لتعلمه، حتى قال الإمام الشافعي: «لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب» [2]، وقال العز ابن عبد السلام: «الطب كالشرع، وضع لجلب مصالح السلامة والعافية، ولدرء مفاسد المعاطب والأسقام.» [3]

كما قرر الأئمة أنّ دراسة الطب من فروض الكفايات التي يلزم تعلمها على بعض المسلمين، وإلاّ لحق الإثم جميع الناس. [4]

قال الإمام النووي: «وأما العلوم العقلية فمنها ما هو فرض كفاية كالطب

---

(١) الفقه الطبي، الجمعية العلمية السعودية للدراسات الطبية الفقهية، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص١١-١٢.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه، للرازي، ج٤، ص٣٢١.

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام، دار الكتب العلمية-بيروت، ج١، ص٤. المفطرات الطبية المعاصرة دراسة فقهية طبية مقارنة، ص٥١.

(٤) المفطرات الطبية المعاصرة دراسة فقهية طبية مقارنة، ص٥١.

والحساب». [1]

ونقـل النووي عن الإمـام الغزالي قولـه: «إنّ الحرف والصناعـات التي لا بد للناس منها في معايشهم كالفلاحة فرض كفاية، فالطب والحساب أولى». [2]

وتجلّى ذلك في:

- الحـرص الكبير على إنشـاء دور التعليم التـي تعنى بتدريس العلـوم الطبية، وفي اختيـار الأطباء المبرزيـن للتدريس في هذه المراكز، والإشـراف عليها، حيث تعددت تلك المراكز وتنوعت، فدُرِّسَ علم الطب في المساجد ومنازل العلماء ومجالـس طبية عامة، وظهرت مدارس أنشـئت خصيصـاً لتدريس هذا العلم، لم يكن لها غرض آخر غير تدريس الطب، يشـرف عليها أساتذة متخصصون، ويدرس فيها رؤساء الطب المتميزون، ويطبّق فيها نظام تعليمي دقيق، مما كان له الأثر الواضح في تطور الدراسات الطبية وارتقائها. [3]
- إضافة الكثير من البحوث والابتكارات والتجارب الشخصية في الطب، وازدادت عناية المسـلمين في هذا العلـم وألّفوا فيه كتبـاً كثيـرة في مختلف التخصصات الطبيّة. [4] فمن ذلك:
- ممارسـة الطـب التجريبي، فقـد فحصوا البـول ورتبوا نتائـج الفحص من حيث لـون البـول وكميته ورائحتـه وقوامه وملمسـه وتعكره وصفاتـه ووجود الدم والترسـبات فيـه، وربطوا كل حالـة منه بأمـراض مخصوصة، وكذلـك كانوا

---

(١) روضة الطالبين، النووي، ج١٠، ص٢٢٣.

(٢) روضة الطالبين ، النووي ،ج١٠، ص٢٢٣.

(٣) الفقه الطبي، الجمعية العلمية السعودية للدراسات الطبية الفقهية، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص١١-١٢.

(٤) الفقه الطبي، ص١١-١٢.

يجرون فحص الغائط والبصاق والمني. [1]

- التوصل إلى حقائق طبيّة رائعة، حيث أجروا العمليات الجراحية، وعالجوا الحالات النفسية والمستعصية، واستخدموا الكلاليب على الجنين الميت في الولادات المعسرة، واستعملوا كيس الثلج على الرأس في الحمّيات الشديدة، ووصفوا أعراض التهاب السحايا، وأعطوا تشخيصاً للحصبة والجدري، وأجروا عملية الماء الأبيض على العين، ووصفوا الدورة الدموية الصغرى بشكلها الصحيح، وفرقوا بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي في الدماغ وعن سبب خارجي. [2]

(١) المفطرات الطبية المعاصرة دراسة فقهية طبية مقارنة، ص٥٢.

(٢) المفطرات الطبية المعاصرة دراسة فقهية طبية مقارنة، ص٥٢.

المبحث الثاني: اختيارات الشيخ السعدي في المسائل الفقهية الطبية.

المطلب الأول: اهتمام الشيخ السعدي بالجانب الطبي.

لقد تحدث السعدي -رحمه الله- عن الصحة [1] عند تفسيره للآيه الكريمة من سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾. [2]

يقول الشيخ السعدي -رحمه الله-: «اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاثة قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحمية عنها»، وقد نبه الله تعالى عليها في كتابه العزيز، أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذي، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وقد أشار السعدي في المثال الأول إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [3]، وأباح للمسافر والمريض الفطر حفظاً لصحتهما باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل وحماية للمريض عما يضره، وأما استفراغ المؤذي ، فقد أباح تعالى للمحرم المتأذي برأسه، أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها من البول والغائط والقيء والدم وغير ذلك، وقد أشار إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى

---

(١) منهج الشيخ السعدي في تفسيره تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، رسالة ماجستير، الطالب ناصر العبد سليم المرنخ، إشراف الدكتور عصام العبد زهد، الجامعة الإسلامية-غزة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٢٣٧.

(٢) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٣١.

مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾. (١)

كما نبه على ذلك ابن القيّم -رحمه الله- (٢)، وعند الاطلاع على فتاويه نلتمس حرصه على الجانب الطبي، وحرصه على معرفة الرأي الطبي ليبني عليه فتواه -رحمه الله-، وتتجلى جهوده في اختياراته الفقهية في المسائل الطبية.

المطلب الثاني: اختيارات الشيخ السعدي في القضايا الفقهية الطبية.

الفرع الأول: اختياره في الأحكام المتعلقة بالمرضى الجرحى.

* سئل الشيخ : عن المجروح إذا توضأ هل يجمع بين التيمم والمسح، أم يكفيه أحدهما، أم يفرق؟ (٣)

فأجاب -رحمه الله-: أن مراتب حكم العضو المغسول ثلاث: مرتبة وجوب غسله مع القدرة وعدم الضرر، فإن تعذر مسحه بالماء، وكفاه عن الغسل، ولم يجب عليه تيمم، فإن تعذر الأمران، فآخر المراتب التيمم، فعلى هذا: متى قدر على مسحَه (بفتح الحاء) بالماء، وجب المسح، ولم يشرع له مع ذلك تيمم، كما قال صلى الله عليه وسلم: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" (٤)، وقد نص أهل العلم من الأصحاب (٥) على ذلك، والله أعلم.

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٦.

(٢) الطب النبوي لابن قيم الجوزية ص١٠، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، ط١، ١٤١١ه، تيسير الكريم الرحمن، ج١، ص٣٥٣، القواعد الحسان، الشيخ السعدي ص٩٣.

(٣) فتاوى السعدي، ص١٣٠-١٣١، باب التيمم.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، باب في صلاة القاعد، ج٢، ص٢٠٨. أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، باب المريض يفطر ثم لم يصح حتى مات فلا يكون عليه شيء، رواية عبد الله بن عباس، ج٤، ص٤٢٣.

(٥) الإنصاف، المرداوي، تحقيق التركي، ج١، ص٣٧٨، الحاشية العثيمينية على زاد المستقنع، ص٣٩.

يستفاد من إجابته -رحمه الله- ما يأتي:

أن المجروح ينبغي أن يلتزم بمراتب حكم العضو المغسول، ألا وهي وجوب غسله مع القدرة وعدم الضرر، فإن تعذر مسحه بالماء وكفاه عن الغسل، فإن تعذر الأمران فعليه بالتيمم، عن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منّا حجر فشجّه في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصةً في التّيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصةً وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النّبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال: "قتلوه قتلهم اللّه ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنّما شفاء العي السؤال، إنّما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر -أو يعصب شكّ موسى- على جرحه خرقةً، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده" [1]، واستدل الشيخ السعدي -رحمه الله-، بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" [2]، ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده قدر الاستطاعة والقدرة، وانسدت عليه أبواب الحيل [3]، لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ [4]، وأشار -رحمه الله- في موطن آخر بأن كل واجب عجز عنه العبد فإنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه [5]،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، رقم الحديث ٣٣٦، ج١، ص٩٣.

(٢) سبق تخريجه. في هامش ٢٥.

(٣) تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ج١، ص١٩٥-١٩٦.

(٤) سورة النساء، الآية ٩٨.

(٥) تفسير السعدي، للشيخ السعدي، ج١، ص٨٦٨.

وقد ورد في المغني [1]، إذا لم يكن على الجرح عصاب فقد يغسل الصّحيح، ويتيمم للجرح. وقد روى حنبل، عن أحمد، في المجروح والمجدور يخاف عليه، يمسح موضع الجرح، ويغسل ما حوله. يعني يمسح إذا لم يكن عليه عصاب.

وقال الأثرم: سألت أبا عبد الله عن الجرح يكون بالرجل، يضع عليه الدواء، فيخاف إن نزع الدواء إن أراد الوضوء أن يؤذيه؟ قال: ما أدري ما يؤذيه! ولكن إذا خاف على نفسه، أو خوِّف من ذلك، مسح عليه. وروى حنبل عنه، في المجروح والمجدور يُخاف عليه: يمسح موضع الجرح، ويغسل ما حوله. [2]

وفي الحاشية العثيمينية على زاد المستقنع: بأنه إذا خاف باستعمال الماء أو طلبه ضرر بدنه أو رفيقه أو حرمته أو ماله بعطشٍ أو مرضٍ أو هلاكٍ - ونحوه -: شرع التيمم، ومن جرح: تيمم له، وغسل الباقي [3]، الضابط تعذر استعمال الماء؛ إما لفقده أو للتضرر باستعماله أو طلبه [4].

المنهج الذي اتبعه الشيخ -رحمه الله-:

التصور الفقهي للمسألة بمعرفة حقيقتها، وتشخيص صفاتها وتصورها الإنسان تصوراً تاماً بذاتها ومقدماتها ونتائجها.

ومن ثم تطبيقها على نصوص الشرع وأصوله الكلية، فإن الشرع يحل جميع المشكلات، مشكلات الجماعات والأفراد، ويحل المسائل الكلية والجزئية،

---

(١) المغني، ابن قدامة، ج١، ص٢٠٦.

(٢) الشرح الكبير على المقنع، ابن قدامة، ج١، ص٢٠٦، المغني، ابن قدامة، ج١، ص٣٩٦. الجامع لعلوم الإمام أحمد، خالد الرباط، ج٥، ص٢٢٩.

(٣) الحاشية العثيمينية على زاد المستقنع، ص٣٩.

(٤) الحاشية العثيمينية على زاد المستقنع، ص٣٩.

يحلها حلاً مرضياً للعقول الصحيحة والفطر المستقيمة، ويشترط أن ينظر فيه البصير من جميع نواحيه وجوانبه الواقعية والشرعية.

الفرع الثاني: اختياره في حكم التداوي بالإبر وأخذ الإبر أثناء الصيام.

* سئل -رحمه الله-: هل يجوز استعمال الإبر للدواء؟ (١)

فأجاب -رحمه الله-: أما استعمال الإبر، فهو كسائر الأدوية لا بأس بها، ولا حرج، ولو لم يعلم الإنسان مفرداتها، ولو تولاها كافر؛ لأنها من الأدوية المعروفة، وقد تنجح، وقد لا تنجح.

* سئل الشيخ: مسألة الإبرة في مدى تفطيرها للصائم؟ (٢)

فأجاب: الإبر على نوعين: إما الإبر المغذية، وهي التي ينفذ فيها الغذاء إلى البدن، ليستقيم مدة يستغني فيها عن الغذاء المعتاد للحاجة إلى ذلك، فهذا لا أشك أنه غذاء مفطّر، وأما الإبرة التي فقط تنفذ فيها الأدوية إلى العروق أو إلى الجوف كما هو الغالب، فهذه طريقتها طريقة الكحل ومداواة الجروح، معروف المذهب فيها أنها تفطر إذا علم وصولها إلى الجوف. (٣)

ويرى القول الآخر أنها لا تفطر؛ لأنه لم يصح الحديث في الكحل، ولا يمكن قياسها على الأكل والشرب، فحيث عدم النص الذي يصلح للاحتجاج، ولم تتم شروط القياس ترّجح القول بعدم التفطير مع أن هذا هو الأصل، والله أعلم.

---

(١) فتاوى السعدي، للشيخ السعدي، ص١٨٧.

(٢) فتاوى الشيخ السعدي، ص١٨٧.

(٣) الإقناع، الحجاوي، ج١، ص٣١٠، فقه الشيخ السعدي، لعبد الله الطيار وسليمان أبا الخيل ج٣، ص١٨١، الأجوبة السعدية، الشيخ عبد الله العقيل، ص٢٣٣.

ومما يفسد الصوم ويوجب الكفارة، الأكل، أو الشرب، أو الاحتقان [1]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لا فطر بالحقنة ..." [2]، و[هو] القول الراجح. [3]

أو الاكتحال بما يصل إلى حلقه، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إلى أن الكحل لا يفطر، ولو وصل طعم الكحل إلى الحلق، وقال: "إن هذا لا يسمى أكلاً وشربًا، ولا بمعنى الأكل والشرب، ولا يحصل به ما يحصل بالأكل والشرب، وليس عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثٌ صريحٌ يدل على أن الكحل مفطرٌ" [4]، وما ذهب إليه -رحمه الله- هو الصحيح.

أو أدخل إلى الجوف شيئًا من أي موضعٍ كان يلحق بالأكل والشرب أو ما كان بمعناهما؛ كالإبر المغذية التي تغني عن الأكل والشرب. [5]

يستفاد من إجابته -رحمه الله-:

- اعتبار الإبر من الأدوية فلا بأس من استخدامها للعلاج.
- إذا كانت الإبر مغذية فهي مفطرة للصائم؛ لأن الغذاء ينفذ فيها للبدن ليستقيم، فهو غذاء مفطر. [6]
- أما الإبرة غير المغذية تؤخذ عن طريق الوريد وتنفذ الأدوية إلى العروق أو إلى

---

(١) الاحتقان: هو إدخال الأدوية عن طريق الدبر، الحاشية العثيمينية، ص٢٠٥.

(٢) الفتاوى الكبرى ، ابن تيمية ،ج٥،ص٣٧٦، المسائل والأجوبة، ابن تيمية، ج١، ص١٧٥.

(٣) المغني، ابن قدامة، ج٣، ص١٢١.

(٤) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ج٥، ص٣٧٦، المسائل والأجوبة، ابن تيمية، ج١، ص١٧٥.

(٥) الحاشية العثيمينية، ص٢٠٥.

(٦) الفقه الميسر، د. عبد الله الطيار، د. عبد الله المطلق، د. محمد الموسى، مدار الوطن للنشر- الرياض، ١٤٣٢ه-٢٠١١م/ ١٤٣٣ه-٢٠١٢م، ج٣، ص٥٩.

الجوف، ما ذهب إليه الشيخ -رحمه الله- أنها لا تفطر، وهناك من ذهب إلى أنها تفطر؛ لأنها تختلط بالدم وتسير في البدن وتدخل العروق، والصنف الثالث من الإبر غير المغذية ولا تؤخذ عن طريق الوريد، وإنما تؤخذ عن طريق العضل فهذه الأحوط للإنسان أن يتركها إلى الليل وإن أخذها فلا تفسد صومه. (١)

- وقد ورد في الحاشية العثيمينية (٢)، لو أنه قطر في عينه وهو صائمٌ، فوجد الطعم في حلقه فإنه لا يفطر بذلك، أما إذا وصل طعمها إلى الفم وابتلعها فقد صار أكلاً وشربًا.
- فلو أن الإنسان أدخل منظارًا إلى المعدة حتى وصل إليها فإنه يكون بذلك مفطرًا، والصحيح: أنه لا يفطر إلا أن يكون في هذا المنظار دهنٌ -أو نحوه- يصل إلى المعدة بواسطة هذا المنظار ...،ولو أن الإنسان كان له فتحةٌ في بطنه وأدخل إلى بطنه شيئًا عن طريق هذه الفتحة؛ فعلى المذهب (٣): يفطر بذلك ...، والصحيح: أنه لا يفطر بذلك إلا أن تجعل هذه الفتحة بدلاً عن الفم بحيث يدخل الطعام والشراب منها لانسداد المريء أو تقرحه -ونحو ذلك-، فيكون ما أدخل منها مفطرًا كما لو أدخل من الفم، وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. (٤)

---

(١) طريق الإسلام، فتاوى الشيخ صالح الفوزان، islamway.net

(٢) الحاشية العثيمينية، ص٢٠٥.

(٣) الشرح الممتع على زاد المستقنع، الشيخ ابن عثيمين، ج٦، ص٣٧١.

(٤) الشرح الممتع على زاد المستقنع، الشيخ ابن عثيمين، ج٦، ص٣٧١.

المنهج الذي اتبعه الشيخ:

- التصور الفقهي للمسائل المستجدة بمعرفة حقيقتها، وتشخيص صفاتها وتصورها الإنسان تصوراً تاماً بذاتها ومقدماتها ونتائجها.
- ومن ثم تطبيقها على نصوص الشرع وأصوله الكلية، فإن الشرع يحل جميع المشكلات، مشكلات الجماعات والأفراد، ويحل المسائل الكلية والجزئية، يحلها حلاً مرضياً للعقول الصحيحة والفطر المستقيمة، ويشترط أن ينظر فيه البصير من جميع نواحيه وجوانبه الواقعية والشرعية.
- الرجوع إلى أهل الخبرة لتقرير رأيه في المسائل المستجدة.

الفرع الثالث: اختياره في حكم نقل الأعضاء.

سئل الشيخ: هل يجوز أخذ جزء من جسد الإنسان وتركيبه في إنسان آخر مضطر إليه برضى من أخذ منه؟ (1)

فأجاب: فنحن في هذه المسألة قبل كل شيء نقف على الحياد، حتى يتضح لنا اتضاحاً تاماً للجزم بأحد القولين:

فنقول: من الناس من يقول: هذه الأشياء لا تجوز؛ لأن الأصل أن الإنسان ليس له التصرف في بدنه بإتلاف أو قطع شيء منه أو التمثيل به؛ لأنه أمانة عنده لله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(2)، والمسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه (3).

أما المال، فإنه يباح بإباحة صاحبه، وبالأسباب التي جعلها الشارع وسيلة

(1) فتاوى السعدي، ص١٩٠-١٩١.

(2) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم الحديث ٢٥٦٤، ج٤، ص١٩٨٦.

لإباحة التملكات.

وأما الدم، فلا يباح بأي وجه من الوجوه، ولو أباحه صاحبه لغيره، سواء كان نفساً أو عضواً أو دماً أو غيره، إلا على وجه القصاص بشروطه، أو في الحالة التي أباحها الشارع، وهي أمور معروفة ليس منها هذا المسؤول عنه.

ثم إن ما زعموه من المصالح للغير معارض بالمضرة اللاحقة لمن قطع منه ذلك الجزء، فكم من إنسان تلف أو مرض بهذا العمل، ويؤيد هذا قول الفقهاء: من ماتت وهي حامل بحمل حي، لم يحل شق بطنها لإخراجه ولو غلب على الظن أو لو تيقنا خروجه حيّاً إلا إذا خرج بعضه حياً، فيشق للباقي، فإذا كان هذا في الميتة، فكيف حال الحي؟!فالمؤمن بدنه محترم حياً ميتاً

ويؤخذ من هذا أيضاً أن الدم نجس خبيث، وكل نجس خبيث لا يحل التداوي به، مع ما يخشى عند أخذ دم الإنسان من هلاك أو مرض، فهذا من حجج هذا القول.

ومن الناس من يقول: لا بأس بذلك؛ لأننا إذا طبقنا هذه المسألة على الأصل العظيم المحيط الشرعي، صارت من أوائل ما يدخل فيه وأن ذلك مباح، بل ربما يكون مستحباً.

واستدل أن الأصل إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار، فإن رجحت المفاسد وتكافأت، منع منه، وصار درء المفاسد في هذه الحال أولى من جلب المصالح، وإن رجحت المصالح والمنافع على المفاسد والمضار، اتبعت المصالح الراجحة، وهذه المذكورات مصالحها عظيمة معروفة ومضارها إذا قدرت، فهي جزئية يسيرة منغمرة في المصالح المتنوعة، ويؤيد هذا حجة القول الأول، وهي أن الأصل أن بدن الإنسان محترم لا يباح بالإباحة، متى اعتبرنا فيه هذا الأصل، فإنه يباح كثير من ذلك للمصلحة الكثيرة المنغمرة في المفسدة بفقد ذلك

العضو أو التمثيل به، فإنه يباح لمن وقعت فيه الأكلة التي يخشى أن ترعى بقية بدنه، يجوز قطع العضو المتآكل لسلامة الباقي، وكذلك يجوز قطع الضلع التي لا خطر في قطعها، ويجوز التمثيل في البدن لشق البطن أو غيره، للتمكن من علاج المرض، ويجوز قلع الضرس ونحوه عند التألم الكثير، وأمور كثيرة من هذا النوع أبيحت لما يترتب عليها من حصول مصلحة أو دفع مضرة.

وأيضاً فإن كثيراً من هذه الأمور المسؤول عنها، يترتب عليها المصالح من دون ضرر يحدث، فما كان كذلك، فإن الشارع لا يحرمه، وقد نبه الله تعالى على هذا الأصل في عدة مواضع من كتابه، ومنه قوله عن الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.[1]

فمفهوم الآية أن ما كانت منافعه ومصالحه أكثر من مفاسده وإثمه، فإن الله لا يحرمه ولا يمنعه، وأيضاً فإن مهرة الأطباء المعتبرين متى قرروا تقريراً متفقاً عليه، أنه لا ضرر على المأخوذ من جسده ذلك الجزء، وعرفنا ما يحصل من ذلك من مصلحة الغير، كانت مصلحة محضة خالية من المفسدة، وإن كان كثير من أهل العلم يجوزون، بل يستحسنون إيثار الإنسان غيره على نفسه بطعام أو شراب هو أحق منه، ولو تضمن ذلك تلفه أو مرضه ونحو ذلك، فكيف بالإيثار بجزء من بدنه لنفع أخيه النفع العظيم من غير خطر تلف، بل ولا مرض، ربما كان في ذلك نفع له إذا كان المؤثر قريباً أو صديقاً خاصاً، أو صاحب حق كبير، أو أخذ عليه نفعاً دنيوياً ينفعه، أو ينفع من بعده.

ويؤيد هذا أن كثيراً من الفتاوى تتغير بتغير الأزمان والأحوال والتطورات، وخصوصاً الأمور التي ترجع إلى المنافع والمضار.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٩.

ومن المعلوم أن ترقي الطب الحديث، له أثره الأكبر في هذه الأمور، كما هو مشاهد، والشارع أخبر بأنه ما من داء إلا وله شفاء، وأمر بالتداوي، خصوصاً وعموماً، فإذا تعيّن الدواء وحصول المنفعة بأخذ جزء من هذا، ووضعه في الآخر من غير ضرر يلحق المأخوذ منه، فهو داخل فيما أباحه الشارع، وإن كان قبل ذلك وقبل ارتقاء الطب فيه ضرر أو خطر، فيراعى كل وقت بحسبه. [1]

ويجيب الشيخ السعدي -رحمه الله- على كلام أهل العلم القائلين بأن الأصل في أجزاء الآدمي تحريم أخذها، وتحريم التمثيل بها؟

يقول: هذا يوم كان ذلك خطراً أو ضرراً، أو ربما أدى إلى الهلاك، وذلك أيضاً في الحالة التي ينتهك فيها بدن الآدمي وتنتهك حرمته، أما في هذا الوقت، فالأمران مفقودان: الضرر مفقود، وانتهاك الحرمة مفقود، وإن الإنسان قد رضي كل الرضى بذلك، واختاره مطمئناً مختاراً، لا ضرر عليه، ولا يسقط شيء من حرمته، والشارع إنما أمر باحترام الآدمي تشريفاً له وتكريماً، والحالة الحاضرة غير الحالة الغابرة، ونحن وإنما أجزنا ذلك إذا كان المتولي طبيباً ماهراً، وقد وجدت تجارب عديدة للنفع وعدم الضرر فبهذا يزول المحذور.

ومما يؤيد ذلك ما قاله فقهاء المسلمين ، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم: أنه إذا أشكل عليك شيء، هل هو حلال، أو حرام، أو مأمور به، أو منهي عنه؟ فانظر إلى أسبابه الموجبة، وآثاره ونتائجه الحاصلة، فإذا كانت منافع ومصالح وخيرات وثمراتها طيبة، كان من قسم المباح أو المأمور به، وإذا كان بالعكس كانت بعكس ذلك، طبق هذه المسألة على هذا الأصل، وانظر أسبابها وثمراتها، تجدها أسباباً لا محذور فيها، وثمراتها خير الثمرات، وإذا قال الأولون: أما ثمرتها، فنحن

---

(١) فتاوى السعدي، ص١٩٠-١٩١.

نوافق عليها، ولا يمكننا إلا الاعتراف بها، ولكن الأسباب محرمة كما ذكرنا في أن الأصل في أجزاء الآدمي التحريم، وأن استعمال الدم استعمال للدواء الخبيث.

ويجيب الشيخ بأن العلة في تحريم الأجزاء إقامة حرمة الآدمي ودفع الانتهاك الفظيع، وهذا مفقود هنا، وأما الدم، فليس عنه جواب، إلا أن نقول: أن مفسدته تنغمر في مصالحه الكثيرة وأيضاً ربما ندعي أن هذا الدم الذي ينقل من بدن إلى آخر، ليس من جنس الدم الخارج الخبيث المطلوب اجتنابه والبعد عنه، وإنما هذا الدم هو روح الإنسان وقوته وغذاؤه، فهو بمنزلة الأجزاء أو دونها، ولم يخرجه الإنسان رغبة عنه وإنما هو إيثار لغيره، وبذل من قوته لقوة غيره، وبهذا يخف خبثه في ذاته وتلطفه في آثاره الحميدة، ولهذا حرم الله الدم المسفوح وجعله خبيثاً، فيدل على أن الدماء في اللحم والعروق وفي معدنها قبل بروزها ليس محكوماً عليها بالتحريم والخبث، فقال الأولون: هذا من الدم المسفوح فإنه لا فرق بين استخراجه بسكين أو إبرة أو غيرها، أو ينجرح الجسد من نفسه، فيخرج الدم، فكل ذلك دم مسفوح محرم خبيث، فكيف تجيزونه ولا فرق بين سفحه لقتل الإنسان أو الحيوان، أو سفحه لأكل أو سفحه للتداوي به؟ فمن فرق بين هذه الأمور فعليه الدليل.

فقال هؤلاء المجيزون: هب أنا عجزنا عن الجواب عن حل الدم المذكور، فقد ذكرنا لكم عن أصول الشريعة ومصالحها ما يدل على إباحة أخذ جزء من أجزاء الإنسان لإصلاح غيره إذا لم يكن فيه ضرر[1]، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً[2]، ومثل المؤمنين في توادهم

(١) فتاوى السعدي، ص١٩٠-١٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم ٤٨١، ج١، ص٤٦٠.

وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد[1]».

فعموم هذا يدل على هذه المسألة، وأن ذلك جائز.

فإذا قلتم: إن هذا في التوادد والتراحم والتعاطف كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم، لا في وصل أعضائه بأعضائه.

قلنا إذا لم يكن ضرر، ولأخيه فيه نفع، فما الذي يخرجه من هذا؟ وهل هذا إلا فرد من أفراده، كما أنه داخل في الإيثار، وإذا كان من أعظم خصال العبد الحميدة مدافعته عن نفس أخيه وماله، ولو حصل عليه ضرر في بدنه أو ماله، فهذه المسألة من باب أولى وأحرى، وكذلك من فضائله تحصيل مصالح أخيه وإن طالت المشقة، وعظمت الشقة، فهذه كذلك وأولى.

ونهاية الأمر أن هذا الضرر غير موجود في هذا الزمن، فحيث انتقلت الحال إلى ضدها، وزال الضرر والخطر، فلم لا يجوز؟! ويختلف الحكم فيه لاختلاف العلة، ويلاحظ أيضاً في هذه الأوقات التسهيل ومجاراة الأحوال، إذا لم تخالف نصاً شرعياً؛ لأن أكثر الناس لا يستفتون ولا يبالون، وكثير ممن يستفتي إذا أفتي بخلاف رغبته وهواه، تركه ولم يلتزمه، فالتسهيل عند تكافؤ الأقوال، يخفف الشر، ويوجب أن يتماسك الناس بعض التماسك؛ لضعف الإيمان وعدم الرغبة في الخير، كما يلاحظ أيضاً أن العرف عند الناس أن الدين الإسلامي لا يقف حاجزاً دون المصالح الخالصة أو الراجحة، بل يجاري الأحوال والأزمان، ويتتبع المنافع والمصالح الكلية والجزئية، فإن الملحدين يموهون على الجهال أن الدين الإسلامي لا يصلح لمجاراة الأحوال والتطورات الحديثة وهم في ذلك مفترون، فإن الدين الإسلامي به الصلاح المطلق من كل وجه -الكلي والجزئي-، وهو

---

(١) اخرجه مسلم في صحيحه، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، رقم الحديث ٢٥٨٦، ج٤، ص١٩٩٩.

حلال لكل مشكلة خاصة أو عامة، وغير قاصر من جميع الوجوه.

كما يستفاد من إجابته:

- بيان حرمة دم المسلم وأي عضو منه وعصمته مما علم من الدين بالضرورة، سوى ما كان لموجب شرعي من حدّ أو قصاص في نفس أو طرف، أو بتر عضو مريض لمرضه حتى لا يسري إلى باقي بدنه.
- تأكيده على أن كثيراً من الفتاوى تتغير بتغير الأزمان والأحوال والتطورات، وخصوصاً الأمور التي ترجع إلى المنافع والمضار، والتطورات التي يشهدها المجال الطبي له دور كبير في ذلك.
- توقفه -رحمه الله- في الحكم على تشخيص الأطباء وثقته فيهم.
- ولا بد من الإشارة إلى أن عمليات نقل وزراعة الأعضاء الآدمية ليست أمرًا جديدًا، وليست وليدة القرن العشرين كما يتبادر إلى الذهن، وإنما هي قديمة قدم التاريخ كما أكد ذلك الأطباء وإن كانت البدايات فيها متواضعة وبدائية، ثم بدأ يتطور حتى تم بنجاح خلال القرن التاسع عشر الميلادي عمليات ترقيع الجلد ، ثم في القرن العشرين تم زرع قرنية العين ، وانتشر كذلك نقل الدم بصورة واسعة ، وبدأت محاولات لزرع الكلية ،وكانت تلك المحاولات تبوء بالفشل بسبب رفض الجسم للعضو المزروع فيه ، حتى ظهر عام ١٩٦٨م عقار طبي يعرف باسم (سيكلوسبورين) والذي فتح آفاقاً رحبة أمام زراعة الأعضاء ، وحقق نجاحاً طبياً في مشكلة رفض الجسم للعضو المزروع ، رافق ذلك تحسن وتطور الوسائل الطبية الأخرى ، مما جعل زراعة الكلى تحقق نجاحاً كبيراً ومطرداً في مختلف أنحاء العالم وفتحت مراكز متعددة لزراعة الكلى في أماكن متفرقة من العالم، ولقد عرف الإسلام زراعة الأعضاء

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم [1]، ففي حديث عرفجة بن أسعد -رضي الله عنه-، قال: "أصيبت أنفي يوم الكلاب [2] في الجاهلية فاتخذت أنفاً من ورق، فأنتن عليّ، فأمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أتخذ أنفاً من ذهب". [3]

- لما كان نقل الأعضاء من الشخص الميت أو الحي وزرعها في الإنسان الحي عملاً مستحدثًا في هذا العصر نتيجة للتقدم العلمي، لم يتحدث عنه الفقهاء المسلمون السابقون، ولم يعالجوه بصورة مباشرة في نصوصهم الفقهية [4].

- ذكره -رحمه الله- للرأي المخالف والأدلة التي استندوا إليها:

لا يخلوا نقل الأعضاء من صورتين:

*** الصورة الأولى:** نقل الأعضاء من إنسان حي إلى آخر.

*** الصورة الثانية:** نقل الأعضاء من إنسان ميت إلى آخر حي.

---

(١) الأحكام الفقهية لنقل الأعضاء الإنسانية ،د. عبدالمجيد بن محمد السبيل ، بحث منشور في مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز ، ص٩-١٠، الفقه الميسر، د. الطيار ود. المطلق ،د.الموسى ج١٢، ص٢٩.

(٢) الكلاب بالضم والتخفيف، اسم ماء، وكان به يوم معروف من أيام العرب بين البصرة والكوفة، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج٤، ص١٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، أبواب اللباس ، باب ما جاء في شد الأسنان بالذهب ، رقم الحديث (١٧٧٠) ، ج٤، ص٢٤٠، حديث حسن.

(٤) الفقه الميسر، د. عبد الله الطيار، د. عبد الله المطلق، د. محمد الموسى، مدار الوطن للنشر-الرياض، ١٤٣٢ه ج١٢، ص٣٠.، الاجتهاد في مناط الحكم الشرعي دراسة تأصيلية تطبيقية، تأليف: بلقاسم بن ذاكر بن محمد الزُّبيدي، أصل الكتاب: رسالة دكتوراه من قسم أصول الفقه بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، ١٤٣٥ه، إشراف: أ. د. غازي بن مرشد العتيبي، الناشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤ م، ج١، ص٦١١-٦١٢.

أما الصورة الأولى فقد اختلف الفقهاء المعاصرون في حكمها على قولين:

القول الأول: الجواز فلا مانع شرعًا من أخذ عضو من إنسان حي لزرعه في إنسان آخر محتاج إليه لإنقاذ حياته إذا اضطر إلى ذلك، وأمنت الفتنة في نزعه لمن أخذ منه، وغلب على الظن نجاح زرعه ممّن سيزرع فيه.

وقد صدرت فتاوى كثيرة من المجامع الفقهية [1] ودوائر الإفتاء والهيئات العلمية تبيح كلها نقل الأعضاء من إنسان حي إلى آخر بشروط هي:

- الضرورة القصوى للنقل، بحيث تكون حالة المريض سيئة للغاية، ولا ينقذه من ذلك إلا نقل عضو سليم إليه من إنسان آخر.
- أن يكون المأخوذ منه وافق على ذلك حالة كونه بالغًا عاقلاً مختارًا. [2]
- أن يكون نقل العضو محققًا لمصلحة مؤكدة للمتلقي، أو يغلب على الظن تحقيق هذه المصلحة.
- ألا يضر أخذ العضو من المتبرع به ضررًا يخل بحياته العادية، فلا يجوز مثلاً نقل الأعضاء المفردة كالكبد أو القلب من حي إلى مريض؛ لأن في ذلك هلاكًا للأول، والقاعدة الشرعية تقول: إن الضرر لا يزال بمثله، ولا بأشد منه؛ ولأن التبرع حينئذ يكون من قبيل الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وهو أمر غير جائز شرعًا.
- أن يكون هذا النقل بدون مقابل.
- ألا يكون العضو المنقول مؤديًا إلى اختلاط الأنساب [3] بأي حال من الأحوال، فلا يجوز نقل الخصية والمبيض منعًا لاختلاط الأنساب.

---

(١) قرارات مجمع الفقه الإسلامي في دورته السادسة، جدة-المملكة العربية السعودية، ١٧/ ٢٣ شعبان ١٤١٠هـ-١٤/ ٢٠ آذار (مارس) ١٩٩٠م.

(٢) الفقه الميسر، د. الطيار،د.المطلق ،د. الموسى ، ج١٢، ص٣٢.

(٣)() الاجتهاد في مناط الحكم، الزبيدي، ج١، ص٦١٦.

- صدور إقرار كتابي من اللجنة الطبية قبل النقل بالعلم بهذه الضوابط مع إعطائه لذوي الشأن من الطرفين، المنقول منه العضو والمنقول إليه قبل إجراء العملية الطبية، على أن تكون هذه اللجنة متخصصة ولا تقل عن ثلاثة أطباء عدول، وليس لأحد منهم مصلحة في عملية النقل.

وقد استدل أصحاب هذا القول، أي -المجيزون لنقل الأعضاء- بما فهموه من عموم قواعد الشريعة مثل: الضرورات تبيح المحظورات، والضرر يزال، وتحقيق أعلى المصلحتين، وارتكاب أخف الضررين، وإذا تعارضت مفسدتان تدرأ أعظمهما ضررًا بارتكاب أخفهما ضررًا، إلى غير ذلك من الأدلة.

القول الثاني: لا يجوز للإنسان أن يتصرف في أعضاء جسده ولو بالتبرع؛ لأن أعضاء جسد الإنسان هي جميعها ملك لله سبحانه.

وقد ذكر الشيخ الشعراوي في التفسير [1] أن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى، والقاعدة في ذلك: "من لا يملك التصرف لا يملك الإذن فيه". وممن ذهب إلى هذا القول من الفقهاء: سماحة الشيخ ابن باز[2]، والشيخ ابن عثيمين[3] وغيرهم من المعاصرين [4].

(١) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، ج١٠، ص٦٠٦١.

(٢) نور على الدرب، حكم نقل أعضاء جسم الكافر إلى المسلم، binbaz.org.sa، الأحكام الفقهية لنقل الأعضاء الإنسانية، د. عبد المجيد السبيل، ص١٠.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين ١٧/ ٤٥، الأحكام الفقهية لنقل الأعضاء الإنسانية، د. عبد المجيد السبيل، ص١٠.

(٤) الأحكام الفقهية لنقل الأعضاء الإنسانية، د. عبدالمجيد السبيل، ص١٠، وممن ذهب إلى هذا القول من الفقهاء: سماحة الشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والدكتور أنور محمود. انظر في =

واستدل الشيخ ابن عثيمين على ما قاله[1]: بأن جسم الإنسان أمانة عنده يجب عليه حفظه وحمايته من التلف والضرر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[3].

ومن المعلوم أن قطع عضو من أعضائه إتلاف لذلك العضو يترتب عليه فقدان منفعته في الجسم، وربما يُعْطبُ العضو الباقي فيفقد جنس هذه المنفعة كلية، وربما يتعلق بالعضوين وظائف دينية لا تقوم أو لا تكمل إلا بوجودهما جميعاً، فتتعطل تلك الوظيفة بفقد أحدهما، أو تنقص، وهذا ضرر على المرء. وهذه الحكمة ظاهرة جداً فيما إذا كان الأول حيًّا.» [4]، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، ولو أجزنا أخذ أعضائه لكان المُغسل، والمُكفن، والمُصلى عليه، والمدفون بعض الميت؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التمثيل بقتلى الكفار الحربيين مع ما في المثلة من مصلحة إغاظة الكفار التي جعلها الله تعالى من الأعمال الصالحة في قوله: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا

= ذلك، فتوى المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، الدورة الثامنة المنعقدة في مكة المكرمة في ٢٨/ ٤ إلى ٧/ ٥/ ١٤٠٥هـ وقرار هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية رقم ٩٩ في ٦/ ١٢/ ١٤٠٢هـ وفتوى مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي في مؤتمره الرابع المنعقد في مدينة جدة من ١٨-٢٣ جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ.

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين ١٧/ ٤٥.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٩.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، باب النهي عن كسر عظام الميت، رقم الحديث ١٦١٦، ج١، ص٥١٦. حكم الألباني صحيح.

يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١)

وأن تركيب العضو في الثاني قد ينجح، وقد لا ينجح، فكم من جسم رفض العضو الجديد لغرابته عليه أو غير ذلك من الأسباب، إذن فمفسدة قطع العضو للتركيب محققة، ومصلحة تركيبه غير محققة، ومن المعلوم شرعاً وعقلاً أنه يمتنع ارتكاب مفسدة معلومة، لمصلحة موهومة، ولذلك لو اضطر الحي لأكل الميت جاز ذلك على خلاف فيه، وذلك لتحقق المصلحة. (٢)

أما المنهج الذي اتبعه الشيخ فيما سبق:

- التصور الفقهي للمسائل المستجدة قبل كل شيء، فإذا تم معرفة حقيقتها، وتشخيص صفاتها وتصورها الإنسان تصوراً تاماً بذاتها ومقدماتها ونتائجها.
- ومن ثم تطبيقها على نصوص الشرع وأصوله الكلية، فإن الشرع يحل جميع المشكلات، مشكلات الجماعات والأفراد، ويحل المسائل الكلية والجزئية، يحلها حلاً مرضياً للعقول الصحيحة والفطر المستقيمة ويشترط أن ينظر فيه البصير من جميع نواحيه وجوانبه الواقعية والشرعية.
- ومن منهجه كذلك إخضاع المسائل للمعايير التي يقوم عليها فقه الموازنات، الذي يعتبر ميزاناً شرعياً وسبيلاً محكماً يبعد الإنسان المسلم عن اتباع الهوى ومضلات الفتن، وتجعل ما ينتهي إليه من قرار في تلك المتعارضات يكون موافقاً لشرع الله، ومحققاً للمصلحة في أفضل صورها ومزيلاً للمفسدة أو مخففاً لها إلى أقل قدر ممكن.

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٠.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين، ١٧/ ٤٥.

- الاستدلال بأقوال الأئمة ابن تيمية وابن القيم -رحمهما الله-.
- الرجوع إلى أهل الخبرة لتقرير رأيه في المسائل المستجدة.

الفرع الرابع: اختياراته في المسائل الفقهية الطبية المتعلقة بالمرأة الحائض والحامل والنفساء.

فيما يتعلق بالحيض:

- سئل الشيخ-: إذا بلغت المرأة سبعين سنة ودمها على حالته، فهل تجلس؟ [1]

أجاب: المرأة التي بلغت السبعين من عمرها، ودمها على حالته ما تنكره، فإنها تجلس فيه؛ لأن الصواب أن الحيض لا حد لأقل سنه ولا لأكثره، وحكم هذا الدم حكم الحيض من كل وجه.

- سئل -رحمه الله-: إذا اضطربت عادة المرأة في الحيض بتقدم أو تأخر، أو زيادة أو نقص، فماذا تفعل؟ [2]

فأجاب -رحمه الله-: أما ما ذكره الحنابلة أنها لا تنتقل إليه حتى يتكرر ذلك، فهو قول ليس العمل عليه، ولم يزل عمل الناس جارياً على القول الصحيح الذي قاله في "الإنصاف"، ولا يسع النساء إلا العمل به، وهو أن المرأة إذا رأت الدم جلست فلم تصل ولم تصم، وإذا رأت الطهر البيّن تطهرت واغتسلت وصلت، سواء تقدمت عادتها أو تأخرت، وسواء زادت، مثل أن تكون عادتها خمسة أيام وترى الدم سبعة، فإنها تنتقل إليها من غير تكرار، وهذا هو الذي عليه عمل نساء الصحابة -رضي الله عنهن- والتابعين من بعدهم، حتى الذين أدركنا من مشايخنا

(١) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٤.

(٢) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٥-١٣٦.

لا يفتون إلاّ به؛ لأن القول الذي ذكروا أنها لا تنتقل إلى ذلك إلا بتكراره ثلاثـًا، قول لا دليـل عليه، وهـو مخالف للدليل، وكذلك على الصحيح أنه لا حد للسـن الذي تحيض فيه المرأة ولو دون التسـع، ولو جاوزت الخمسـين سـنة، ما دام الدّم يأتيها فإنها تجلس؛ لأنه الأصل والاستحاضة عارضة.

يستفاد من أجوبته -رحمه الله- بما يتعلق بمسائل الحيض:

في البداية يمكننا التفريق بين الحيض والاستحاضة بما يأتي:

- أن الحيض دم طبيعة وجبلّة [1]، أو هو دم يرخيه الرحم إذا بلغت المرأة في أوقات معتادة [2]، قوله صلى الله عليه وسـلم: "هذا شـيء كتبه الله على بنات آدم" [3]، بينما الاسـتحاضة فهـو دم غالب ليس بحيض أو هو عـرق فهو غير طبيعي بل عارض لمرض [4]، عن عائشة -رضي الله عنها- أن امرأة مستحاضة على عهد

(١) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (المطبوع مع المقنع والشرح الكبير)، المؤلف: عـلاء الدين أبو الحسـن علي بن سـليمان بـن أحمد المَـرْداوي (ت ٨٨٥ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسـن التركي-الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعـة والنشـر والتوزيع والإعـلان، القاهرة-جمهورية مصر العربيـة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ج٢، ص٣٦٣. ، المقنع في فقه الإمام أحمد، ابن قدامة، ج١، ص٣٧.

(٢) المرجـع السـابق، ج٢، ص٣٦٣. رد المحتـار علـى الـدر المختار، ابـن عابدين، محمـد أمين بن عمـر بن عبـد العزيز، دار الفكر-بيروت، ط٢، ١٤١٢ه-١٩٩٢م، ج١، ص ٢٨٣. اللباب في شـرح الكتـاب، المؤلـف: عبد الغني بن طالب بن حمـادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشـقي الميداني الحنفي (ت ١٢٩٨هـ)، حققه، وفصله، وضبطه، وعلق حواشـيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشـر: المكتبة العلمية، بيروت-لبنان، ج١، ص٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الحيض، باب كيف كان بدء الحيض، ج١، ص٦٦.

(٤) الإنصاف، المرداوي، ج٢، ص٣٦٣.

النبي صلى الله عليه وسلم قيل لها: "إنه عرق عاند" [1]، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال: "إنما هو ركضة من الشيطان [2]".

- أما بالنسبة لجهة المكان فدم الحيض يخرج من قعر الرحم، بينما دم الاستحاضة يخرج من أعلى الرحم وأدناه.
- دم الحيض أشد سواداً يعرف بالسواد والحمرة الشديدة، بينما دم الاستحاضة لونه أحمر. [3]
- دم الحيض يتميز بأنه فيه ألم وحرارة ورائحته كريهة ويكون غليظاً ولاذعاً، بينما دم الاستحاضة لا يكون فيه الألم الموجود في دم الحيض ورائحته أخف من رائحة دم الحيض ويكون أخف غلاظة ولذوعة.
- بيّن الشيخ -رحمه الله- أن الحيض لا حد لأقل سنه ولا لأكثره فالمرأة في سن السبعين من عمرها ودمها على حالته ما تنكره فحكم هذا الدم حكم الحيض من كل وجه.
- بيّن الشيخ -رحمه الله- أن المرأة إذا اضطربت عادتها في الحيض بتقدم أو تأخر، أو زيادة أو نقص فالقول الصحيح المعمول به أن المرأة إذا رأت الدم لم تصل ولم تصم، وإذا رأت الطهر البيّن تطهرت واغتسلت وصلّت، سواء تقدمت عادتها أو تأخرت وسواء زادت أو نقصت فهذا الرأي الذي عليه عمل نساء الصحابة

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، باب ذكر اغتسال المستحاضة، رقم الحديث ٢١٣، ج١، ص١٢٢.

(٢) وجدت الرواية مذكورة في كتاب بحر المذهب (في فروع المذهب الشافعي)، المؤلف: الروياني، أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل (ت ٥٠٢هـ)، المحقق: طارق فتحي السيد، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٩م، ج١، ص٣١٦، لم أجدها في كتب متون الحديث.

(٣) المقنع، ابن قدامة ،ج١، ص٣٨، الحاشية العثيمينية على زاد المستقنع، أبو البهاء، حازم خنفر، ج١، ص٤٨.

-رضـي الله عنهـن- والتابعيـن مـن بعدهم وحتى المشـايخ لا يفتـون إلا به.

وتعـود الاضطرابـات التي تصيب المـرأة في مرحلة الحيـض لاضطرابات في الهرمونات من حيث عدم وجود توازن في مسـتوى الأستروجين إلى البروجسترون مـع نقـص نسـبي في هرمون البروجسـترون وعـدم التـوازن، مما يحـدث تغيرات بيوكيميائية في الجسم وتغيرات كيميائية في الدماغ، مما يتسبب بالشعور بتوتر وقلق وضيق واكتئاب تسـبق مجـيء الدورة الشـهرية مما يعود بالأثر السـلبي على حياة بعض الفتيات لدرجة تنعدم معها القدرة على التركيز مع حالة من الحزن والإحباط تتفاوت بين النساء.

المنهج الذي اتبعه الشيخ:

- التصور الفقهي للمسـائل بمعرفة حقيقتها، وتشـخيص صفاتها وتصورها تصوراً تامـاً بذاتها ومقدماتها ونتائجها، وتطبيقها على نصوص الشرع وأصوله الكلية.
- يذكـر آراء فقهـاء الحنابلـة مع بيان الراجـح وما كان معمول به زمـن الصحابة - رضوان الله عليهم-والتابعين من بعدهم.

فيما يتعلق بالكدرة والصفرة.

اختلف الفقهاء [1]، فمنهم من ذهب إلى أنهما ليسـا بحيض مطلقـاً، ومنهم من

(١) الشـرح الكبير على المقنع، شـمس الدين بن قدامة المقدسـي (ت ٦٨٢ه) ، تحقيـق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسـن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع-القاهرة، ط١، ١٤١٥ه-١٩٩٥م، ج٢، ص٤٤٩. التهذيـب في فقـه الإمـام الشـافعي، المؤلف: محيي السـنة، أبو محمد الحسـين بن مسـعود بن محمـد بن الفراء البغوي الشـافعي (ت ٥١٦هـ)، المحقق: عـادل أحمد عبد الموجود، علـي محمـد معـوض، الناشـر: دار الكتـب العلمية، الطبعـة: الأولـى، ١٤١٨هــ-١٩٩٧م، ج١، ص٤٥٨. المبسـوط، محمد بن أحمد السرخسـي (ت ٤٨٣ه)، دار المعرفة، الطبعة: بدون، نشر في ١٤١٤ه-١٩٩٣م، ج٣، ص٢٠٩.

ذهب إلى أنهما حيض مطلقاً نص عليه الإمام أحمد [1] والإمام الشافعي [2]، وقال أبو يوسف [3]: "لا يكون حيضاً؛ لأن الظاهر أنه من فساد الرحم أو الغذاء، إلا أن يتقدمه دم أسود"، وقالوا: "إنهما خارجان من الرحم رائحتهما كريهة فيأخذان حكم الحيض"، وقيل: "إن كان في زمن العادة فهما حيض" [4]، ودليلهم قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾. [5]

وعن أم عطية – رضي الله عنها– قالت: «كنا لا نعد الصفرة والكدرة بعد الطهر شيئاً[6]».

وجه الدلالة: أن هذا الدم إن كان قبل الطهر فهو حيض أي في أيامه، وما عداها فلا يكون حيضاً.

منهج الشيخ:

- التصور الفقهي للمسألة.
- بيان آراء الفقهاء مع ذكر الأدلة المؤيدة لذلك.

فيما يتعلق بالحمل:

---

(١) المقنع، ابن قدامة، ج١، ص٣٩، الحاشية العثيمينية على زاد المستقنع، أبو البهاء، حازم خنفر، ج١، ص٥٠.

(٢) المهذب في فقه الإمام الشافعي، الشيرازي، ج١، ص٧٩.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، ج١، ص٣٩.

(٤) المقنع، ابن قدامة، ج١، ص٣٩.

(٥) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٦) أخرجه أبو داوود في سننه، باب في المرأة ترى الكدرة والصفرة بعد الطهر، رقم الحديث ٣٠٧، ج١، ص١٠٦، صححه الألباني.

- سئل الشيخ: إذا تبين حمل المرأة، ثم رأت الدم على العادة، فهل يحكم بأنه حيض؟ (١)

أجاب: المرأة التي تبين لها أنها حامل، ثم رأت الدم على العادة فالخلاف مشهور، هل تحيض الحامل أم لا؟ فالمذهب (٢) أنها لا تحيض فيكون ما رأته دم فساد، لا تترك له العبادة، والرواية الثانية عن الإمام أحمد: "أنها قد تحيض"، وهي الصحيحة، وقد وجد ذلك كثيراً، فيكون على هذا دم حيض، يثبت له جميع أحكام الحيض، وهو الذي نختاره، والله أعلم.

وقد ورد في الحاشية العثيمينية بأنه ٣"لا حيض مع حملٍ.

الراجح: أن الحامل إذا رأت الدم المطرّد الذي يأتيها على وقته وشهره وحاله؛ فإنه حيضٌ تترك من أجله الصلاة والصوم -وغير ذلك-، إلا أنه يختلف عن الحيض في غير الحمل بأنه لا عبرة به في العدة؛ لأن الحمل أقوى منه.

- سئل: إذا تعورت الحامل، ولم يعلم هل سقط الولد، وهي تحيض، وقد شربت دواء أزال عنها العوار، فما الحكم؟ (٤)

أجاب: إذا علم حملها، فلا بد من اليقين أنه ليس في بطنها شيء إما بسقوط الولد، وإما بمضي مدة طويلة يتيقن أنه ليس فيها حمل، ومن العلماء من قال: "أربع سنين" وهو المذهب، ومنهم من قال: "لا بد من اليقين أربع سنين أو أقل أو أكثر"، وهو الصحيح، والله أعلم.

---

(١) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) المقنع، ابن قدامة، ج١، ص٣٧.

(٣) الحاشية العثيمينية على زاد المستقنع، أبو البهاء، حازم خنفر، ج١، ص٤٧.

(٤) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٧.

- سـئل: إذا تعوّرت الحامل، وخرج منها دم كثير، ولم يسـقط الولد، فما حكم هذا الدم؟ [1]

أجـاب: هذا الدم دم فسـاد، لا تـترك الصلاة لأجله، بل تصلـي، ولو كان الدم يجري، ولا إعادة عليها، ولكنها تتوضأ لكل وقت صلاة، والله أعلم.

- سئل: إذا رأت الحامل الدم في رمضان، وصامت، فما الحكم؟ [2]

أجـاب: هـذا مبني علـى أن الدم الذي يأتي المـرأة الحامل، دم فسـاد، كما هو المشـهور في المذهـب، فعليـه: لا تفطر، بل يجـب عليها الصيام والصـلاة، أو هو حيـض كما هو في الروايـة الثانية عن الإمام أحمد، وهي الصحيحة، فيكون حيضـاً، تترك له الصلاة والصيام، فإن صامت قضت، وهذا هو المختار، والله أعلم.

- سئل: هل يجوز شق بطن الميتة لإخراج الحمل الحي؟ [3]

أجاب: يجوز للمصلحة، وعدم المفسدة، وذلك لا يعد مثله، ولقد سئلت عن امـرأة ماتـت وفي بطنها ولد حي، هل يشـق بطنهـا ويخـرج أم لا؟ فأجبت: قد علم مـا قالـه الأصحـاب -رحمهـم الله-، وهو أنهم قالـوا: فإن ماتت حامـل وفي بطنها ولد حي، حرم شـق بطنها، وأخرجه النسـاء بالمعالجات وإدخال اليد على الجنين ممـن ترجـى حياته، فإن تعذر، لـم تدفن حتى يموت ما في بطنهـا، وإن خرج بعضه حياً شـق للباقي، فهذا كلام الفقهاء بناء على أن ذلك مثله بالميتة، والأصل تحريم التمثيـل بالميت، إلا إذا عـارض ذلك مصلحة قوية متحققـة، يعني إذا خرج بعضه حيـاً، فإنه يشـق للباقي لما فيه من مصلحـة المولود، ولما يترتب على عدم الشـق

(١) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٧ . ملتقى أهل الحديث، منتدى الدراسات الفقهية.

(٢) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي ص ٢٢٨.

(٣) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٨٩.

في هذه الحالة من مفسدة موته، والحي يراعى أكثر مما يراعى الميت، لكن في هذه الأوقات الأخيرة حين ترقى فن الجراحة، صار شق البطن أو شيء من البدن لا يعد مثله، فيفعلونه بالأحياء برضاهم ورغبتهم بالمعالجات المتنوعة، فيغلب على الظن أن الفقهاء لو شاهدوا هذه الحال، لحكموا بجواز شق بطن الحامل بمولود حي وإخراجه، وخصوصاً إذا انتهى الحمل، وعلم أو غلب على الظن سلامة المولود، وتعليلهم بالمثلة يدل على هذا، ومما يدل على جواز شق البطن وإخراج الجنين الحي، أنه إذا تعارضت المصالح والمفاسد قدم أعلى المصلحتين وارتكب أهون المفسدتين، وذلك أن سلامة البطن من الشق مصلحة، وسلامة الولد ووجوده حيّاً مصلحة أكبر، وأيضاً فشق البطن مفسدة وترك المولود الحي يختنق في بطنها حتى يموت مفسدة أكبر، فصار الشق أهون المفسدتين، ثم نعود فنقول الشق في هذه الأوقات صار لا يعتبره الناس مثلة ولا مفسدة، فلم يبق شيء يعارض إخراجه بالكلية، والله أعلم[1].

يستفاد من إجابته -رحمه الله-:

- إذا تبين حمل المرأة ثم رأت الدم على العادة فالخلاف مشهور، فالمذهب أنها لا تحيض فيكون ما رأته دم فساد، لا تترك له العبادة.

والرواية الثانية عن الإمام أحمد: أنها قد تحيض، وهي الصحيحة، وهي ما يرجحه الشيخ السعدي،

عن الأوزاعي[2] -في الحامل ترى الدّم- قال: "إذا رأت الحامل صفرة؛ توضأت وصلّت، وإن رأت دماً عبيطاً؛ اغتسلت".

---

(١) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، مكتبة المعارف، ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص١٩٠.

(٢) زوائد السنن على الصحيحين، العبادات، ج٢، ص٧٦، https//book.google.com.sa.

- إذا تعوّرت الحامل ولم يعلم سقط الولد، وهي تحيض، وقد شربت دواء أزال عنها العوار فلابد من اليقين أنه ليس في بطنها شيء إما بسقوط الولد وإما بمضي مدة طويلة يتيقن أنه ليس فيها حمل.
- أما إذا تعوّرت وخرج منها دم كثير، ولم يسقط الولد، فالدّم في هذه الحالة دم فساد، لا تترك الصلاة لأجله، بل تصلي، ولو كان الدّم يجري ولا إعادة عليها، ولكن ينبغي أن تتوضأ لكل وقت صلاة.
- وإذا رأت الحامل الدم في رمضان، فباعتبار الدم دم فساد فلا تفطر، بل يجب عليها الصلاة والصيام، أما باعتباره حيضاً على الرواية الثانية عن الإمام أحمد وهي الصحيحة، فيكون حيضاً فتترك له الصلاة والصيام، فإن صامت قضت وهذا الراجح عند الشيخ السعدي -رحمه الله-.
- جواز شق بطن الميتة لإخراج الحمل الحي للمصلحة وعدم المفسدة، فسلامة البطن من الشق مصلحة، وسلامة الولد ووجوده حيّاً مصلحة أكبر، وأيضاً فشق البطن مفسدة وترك المولود الحي يختنق في بطنها حتى يموت مفسدة أكبر، فصار الشق أهون المفسدتين، وفي هذه الأوقات أصبح الشق لا يعتبره الناس مثلة ولا مفسدة فلم يبق شيء يعارض إخراجه بالكلية.

منهج الشيخ:

- التصور الفقهي للمسائل بمعرفة حقيقتها، وتشخيص صفاتها وتصورها تصوراً تاماً بذاتها ومقدماتها ونتائجها.
- ومن ثم تطبيقها على نصوص الشرع وأصوله الكلية، فإن الشرع يحل جميع المشكلات، مشكلات الجماعات والأفراد، ويحل المسائل الكلية والجزئية، يحلها حلاً مرضياً للعقول الصحيحة والفطر المستقيمة ويشترط أن ينظر فيه البصير من جميع نواحيه وجوانبه الواقعية والشرعية.

- ومـن منهجه كذلك إخضاع المسـائل للمعايير التي يقوم عليهـا فقه الموازنات، الـذي يعتبر ميزانـاً شـرعيـاً وسـبيلاً محكمـاً يبعد الإنسـان المسـلم عن اتباع الهـوى ومضـلات الفتن، وتجعل ما ينتهي إليه من قـرار في تلك المتعارضات يكون موافقـاً لشرع الله، ومحققـاً للمصلحة في أفضل صورها ومزيلاً للمفسدة أو مخففـاً لها إلى أقل قدر ممكن.

- بيان آراء الفقهاء في المسائل مع ذكر الرأي الراجح.

فيما يتعلق بالنفاس:

- سئل الشيخ: إذا طهرت النفساء، وصامت قبل الأربعين، فهل يصح صيامها؟ (١)

أجـاب: صيامها تام؛ لأنـه إذا حصل الطهر ولو قبل الأربعين، صارت في حكم الطاهرات من كل وجه.

- سئل: إذا رأت النفساء الدم قبل الولادة بأكثر من ثلاثة أيام فما حكمه؟ (٢)

أجـاب: صريح كلام الفقهـاء -رحمهم الله-، أن ما رأته النفسـاء قبل الولادة بأكثـر من ثلاثـة أيام، فهو دم فسـاد لا يثبت له حكم النفاس ولو مـع وجود الأمارة وفي هـذا نظـر، فإن مبنى كلامهـم يرجع إلى ما عرف واعتيد، وليـس تحديد الثلاثة منصوصـاً عليه لا شرعـاً ولا عرفـاً، بل إذا نظرت إلى حد النفاس، وأن الدم الخارج بسـبب الـولادة المحتبس في مدة الحمل، عرفت أن مقدمـات الولادة قد تزيد على ثلاثة أيام كما هو الواقع، فالرجوع إلى الحد الذي ذكروه للنفاس وإلى العرف أولى من التقييد بما لا دليل عليه، والله أعلم.

- سئل: إذا أخذ المرأة "الطلق" فذهلت عن الصلاة يومين أو ثلاثة ولـم تصل تلك

---

(١) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي ص١٣٨. ملتقى أهل الحديث، منتدى الدراسات الفقهية.

(٢) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٨.

الأيام، ولم يخرج منها دم، فهل تقضي الصلاة، أم لا؟ (١)

فأجاب: نعم تقضي؛ لأن الذهول من مرض أو ألم أو نحوهما لا يسقط وجوب الصلاة، ولم يخرج منها دم ليكون نفاساً.

- سئل: إذا اغتسلت من نفاسها، ثم رجع الدّم عليها بعد الأربعين وهي تعرف أنه دم نفاس، فماذا تفعل؟ (٢)

أجاب: الذي نرى أنها تجلس فيه، ولا تصوم ولا تصلي؛ لأن الصحيح أن النّفاس لا حدّ له، والمذكورة ليست مستحاضة، فإذا كان دماً واضحاً ليس فيه كدرة ولا صفرة، فهي تجلس فيه، وحكمه حكم النفاس.

- سئل: قول الأصحاب في النفساء، فإن عاودها الدم، فمشكوك فيه هل هو وجيه، أم لا؟ (٣)

أجاب: ليس بوجيه، فالصواب أنه إذا عاودها فيه، فهو نفاس لا شك فيه، يثبت له أحكام النفاس كلها، وما الفرق بين قولهم في الحيض: من لها مثلاً عادة حيض عشرة أيام، ثم حاضت خمسة أيام، وانقطع عنها ثلاثة أيام، وعاد عليها في بقية العشرة: أنه حيض لا شك فيه، فهذه نظيرها من كل وجه، مع أن إثبات الحكم الذي ذكروا أنها تصوم وتصلي وتقضي الواجب، مخالف لما هو المعروف من الشرع، وإن الشارع لم يوجب على أحد العبادة مرتين، إلا لتقصيره وتفريطه فيما وجب فيها من الشروط والواجبات، وهذه وشبهها لا تقصير فيها فلا يمكن أن تضاف إلى الشرع، وهذا القول الذي صححناه هو أحد القولين للأصحاب -رحمهم الله- وجزاهم عنا وعن المسلمين أفضل الجزاء.

(١) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٦. ملتقى أهل الحديث، منتدى الدراسات الفقهية.

(٢) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٦.

(٣) فتاوى السعدي، الشيخ السعدي، ص١٣٦-١٣٦.

يستفاد من ذلك:

- النفاس: هو الدم الخارج عقيب الولادة[1]، لا حد لأقله.[2]
- الذهول الذي قد يصاحب الإحساس بالطلق ولم يخرج دم حتى يكون نفاساً خلال هذه المرحلة وتسبب في ترك المرأة الصلاة فعليها القضاء؛ لأن الذهول من مرض أو الم أو نحوهما لا يسقط وجوب الصلاة.
- إذا اغتسلت النفساء ثم رجع الدم عليها بعد الأربعين، فإذا كان هذا الدم واضحاً ليس فيه كدرة ولا صفرة فحكمه حكم النفاس، فلا تصلي ولا تصوم؛ لأن الصحيح أن النفاس لا حد له.
- إذا طهرت النفساء وصامت قبل الأربعين فصيامها تام؛ لأنه إذا حصل الطهر ولو قبل الأربعين صارت في حكم الطاهرات من كل وجه.
- الدم الذي تراه الحامل قبل الولادة بثلاثة أيام دم فساد لا يثبت له حكم النفاس.

المنهج المتبع:

- التصور الفقهي للمسائل بمعرفة حقيقتها، وتشخيص صفاتها وتصورها تصوراً تاماً بذاتها ومقدماتها ونتائجها.
- ومن ثم تطبيقها على نصوص الشرع وأصوله الكلية، فإن الشرع يحل جميع المشكلات، مشكلات الجماعات والأفراد، ويحل المسائل الكلية والجزئية، يحلها حلاً مرضياً للعقول الصحيحة والفطر المستقيمة ويشترط أن ينظر فيه البصير من جميع نواحيه وجوانبه الواقعية والشرعية.
- الأخذ بما هو معمول به عرفاً.
- الاستدراك على الفقهاء وبيان الرأي الراجح.

(١) المبسوط، السرخسي، ج٣، ص٢١٠.

(٢) منتهى الإرادات، تقي الدين ابن النجار، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ج١، ص١٣٢.

الخاتمة

وتبرز أهم النتائج التي تم التوصل إليها:

- كمال الشريعة الإسلامية، وصلاحيتها لكل مكان وزمان، وشمولها لكثير من الأحكام الفقهية للنوازل في شتى المجالات ومنها المجال الطبي.
- اعتبار الفقه الطبي من فروع الفقه الإسلامي، وإبراز اهتمام علماء المسلمين الأوائل بعلم الطب، وإبراز اختيارات الشيخ في المسائل الفقهية الطبية والتي تتجلى في:

أ) أن المجروح ينبغي أن يلتزم بمراتب حكم العضو المغسول، ألا وهي وجوب غسله مع القدرة وعدم الضرر، فإن تعذر مسحه بالماء وكفاه عن الغسل، فإن تعذر الأمران فعليه بالتيمم.

ب) أما حكم استعمال الإبر، فهو كسائر الأدوية لا بأس بها، ولا حرج، ولو لم يعلم الإنسان مفرداتها، ولو تولاها كافر؛ لأنها من الأدوية المعروفة، وقد تنجح، وقد لا تنجح.

ج) أما ما يتعلق بالإبر ومدى تفطيرها للصائم على نوعين: إما الإبر المغذية، وهي التي ينفذ فيها الغذاء إلى البدن ليستقيم مدة يستغني فيها عن الغذاء المعتاد للحاجة إلى ذلك، فهذا لا شك أنه غذاء مفطّر، وأما الإبرة التي فقط تنفذ فيها الأدوية إلى العروق أو إلى الجوف كما هو الغالب، فهذه طريقتها طريقة الكحل ومداواة الجروح معروف المذهب فيها أنها تفطر إذا علم وصولها إلى الجوف ، ويرى القول الآخر أنها لا تفطر؛ لأنه لم يصح الحديث في الكحل، ولا يمكن قياسها على الأكل والشرب، فحيث عدم النص الذي يصلح للاحتجاج ولم تتم شروط القياس ترّجح القول بعدم التفطير مع أن هذا هو الأصل، والله أعلم.

- حرمة دم المسلم وأي عضو منه وعصمته مما علم من الدين بالضرورة، سوى ما كان لموجب شرعي من حدّ أو قصاص في نفس أو طرف، أو بتر عضو مريض لمرضه حتى لا يسري إلى باقي بدنه. وغيرها من الاختيارات التي ذكرناها في البحث .

أ) إبراز ثقة الشيخ بنفسه ومواقفه القوية عند ذكر رأيه في المسائل وما يستند إليه من حجج، وحرصه وعنايته على ذكر الرأي الراجح.

ب) إبراز حرصه في عرض المسائل والأحكام على تصورها وتحريرها وتفصيلها وتفسيرها، وإذا لزم الأمر يجتهد في النوازل، ثم يسعى في إدراك ما بنيت عليه من أدلة وحجج والتعليل الراجح، وحرصه على ترتيب المسائل حسب أبواب الفقه عند الحنابلة، ولما بلغ سماحة الشيخ مبلغ العلماء وأخذ يجتهد ويرجح كاتب علماء الأمصار ومفكري الآفاق في المسائل المستحدثة حتى أصبح لديه جرأة على محاولة دراسة المسائل دراسة تطبيقية.

التوصيات:

- حث الباحثين على جمع آراء الفقهاء وفتاويهم حول القضايا الفقهية الطبية وخاصة المستجدة منها، واستقصاء ما قيل حول كل منها، والعمل على ضبط الفتاوى، وإبراز جهود الشيخ السعدي في هذا الجانب وتميزه -رحمه الله-.
- توعية الأفراد والمجتمعات والأقليات المسلمة بالقضايا الفقهية الطبية، وإبراز جهود الشيخ -رحمه الله-وتميز فتاواه على علماء عصره.
- عمل ندوات وملتقيات تجمع بين الفقهاء والأطباء لعرض كل ما يتعلق بالقضايا الفقهية الطبية وإبراز جهود الشيخ -رحمه الله- فيها.

المصادر والمراجع:

١) القرآن الكريم.

٢) آداب الشافعي ومناقبه، الرازي، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ)، كتب كلمة عنه: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، قدم له وحقق أصله وعلق عليه: عبد الغني عبد الخالق، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (المطبوع مع المقنع والشرح الكبير)، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان بن أحمد المَرْداوي (ت ٨٨٥هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي-الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة-جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٤) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: موسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا (المتوفى: ٩٦٨هـ)، المحقق: عبد اللطيف محمد موسى السبكي، الناشر: دار المعرفة بيروت-لبنان.

٥) الاجتهاد في مناط الاجتهاد في مناط الحكم الشرعي، دراسة تأصيلية تطبيقية، تأليف: بلقاسم بن ذاكر بن محمد الزُّبيدي، أصل الكتاب: رسالة دكتوراه من قسم أصول الفقه بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، ١٤٣٥هـ، إشراف: أ. د. غازي ابن مرشد العتيبي، الناشر: مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٦) الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، وهي مراسلات العلاّمة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في الفترة ما بين (١٣٦٧ه-١٣٧٤ه)، دراسة وتحقيق:

د. وليد بن عبد الله المنيس، راجعها: الشيخ عبد الله العقيل، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ط١، الكويت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٧) الأحكام الفقهية لنقل الأعضاء الإنسانية، د. عبد المجيد بن محمد السبيل، بحث منشور في مجلة العلوم الشرعية واللغة العربية بجامعة الأمير سطام بن عبد العزيز.

٨) بحر المذهب، الروياني، أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٩م.

٩) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني (ت ٥٨٧هـ)، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٠) التهذيب في فقه الإمام الشافعي، أبو محمد الحسين بن سعود البغوي الشافعي (ت ٥١٦هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١١) تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٢) التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان البركتي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٣) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (ت ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم.

١٤) التعريفات ، اعلي محمد الشريف لجرجاني (١٤٢٨)،تحقيق المرعشلي ط٢، دار النفائس _بيروت .

١٥) رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، دار الفكر-بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٦) روضة الطالبين، يحيى بن شرف أبو زكريا، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

١٧) السنن الكبرى للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٨) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي -مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

١٩) السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي، (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٠) سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت ٢٧٥هـ)، المحقق: شعَيب الأرناؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٢١) سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، محمَّد كامل قره بللي، عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٢٢) شرح زاد المستقنع في اختصار المقنع، محمد بن محمد المختار الشنقيطي، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض-المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٣) الشرح الكبير على المقنع، شمس الدين بن قدامه المقدسي (ت ٦٨٢هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر-القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٢٤) الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح العثيمين (١٤٢١هـ) دار ابن الجوزي، ط١٤٢٢هـ-١٤٢٨هـ.

٢٥) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة

عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٦) الجامع لعلوم الإمام أحمد، خالد الرباط، سيد عزت، دار الفلاح للبحث العلمي، جمهورية مصر العربية، ط١، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.

٢٧) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت.

٢٨) المهذب في فقه الإمام الشافعي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت٤٧٦ه)، دار الكتب العلمية-بيروت.

٢٩) المغني، أبو محمد موفق الدين عبد الله المقدسي(٦٢٠ه)، مكتبة القاهرة، ط بدون، ١٣٨٨ه-١٩٦٨م.

٣٠) المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الإمام موفق الدين أبي محمد ابن قدامه المقدسي (ت ٦٢٠ه)، تحقيق محمود الأرناؤوط، ياسين الخطيب ١٤٢١ه-٢٠٠٠م.

٣١) المفطرات الطبية المعاصرة (دراسة فقهية طبية مقارنة)، عبد الرزاق بن عبد الله صالح بن غالب الكندي، دار الحقيقة الكونية، ط١، ١٤٣٥ه-٢٠١٤م.

٣٢) المسائل والأجوبة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (٧٢٨ه)، تحقيق أبو عبد الله عكاشة، الفاروق للطباعة والنشر.

٣٣) الطب النبوي، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية (ت ٧٥١ه)، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الهلال-بيروت.

٣٤) فتاوى مجمع الفقه الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي، الدورة الثامنة المنعقدة في مكة المكرمة.

٣٥) الفتاوى السعدية، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف-الرياض، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨ه-١٩٦٨م، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ه-١٩٨٢م.

٣٦) فقه الشيخ ابن السعدي -رحمه الله-، د. عبد الله بن محمد الطيار، د. سليمان بن

عبد الله أبا الخيل، دار العاصمة للنشر والتوزيع.

٣٧) الفقه الميسر، د. عبد الله الطيار، د. عبد الله المطلق، د. محمد الموسى، مدار الوطن للنشر-الرياض، ١٤٣٢ه-٢٠١١م.

٣٨) الفتاوى الكبرى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (٧٢٨ه)، دار الكتب العلمية ،١٤٠٨ه_١٩٨٧م.

٣٩) الفقه الطبي، الجمعية العلمية السعودية للدراسات الطبية الفقهية، ١٤٣١ه-٢٠١٠م.

٤٠) القواعد الحسان لتفسير القرآن، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (ت ١٣٧٦هـ)، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٤١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العزبن عبدا السلام، بيروت، دار الكنب العلمية.

٤٢) القانون في الطب، المؤلف: الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس (ت ٤٢٨هـ)، المحقق: وضع حواشيه محمد أمين الضناوي.

٤٣) اللباب في شرح الكتاب، عبد الغني بن طالب الغنيمي الدمشقي الحنفي (ت ١٢٩٨ه)، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المكتبة العلمية، بيروت-لبنان.

٤٤) لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر-بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٤٥) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس القزويني، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.

٤٦) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة.

٤٧) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي، حامد صادق قنيبي، دار النفائس، ١٩٨٨م.

٤٨) منهج الشيخ السعدي في تفسيره، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، رسالة ماجستير، الطالب ناصر العبد سليم، إشراف: د. عصام العبد زهد، الجامعة الإسلامية-غزة، ١٤٢٣ه-٢٠٠٢م.

٤٩) المبسوط، محمد بن أحمد السرخسي (ت ٤٨٣ه)، دار المعرفة، الطبعة: بدون، نشر في ١٤١٤ه-١٩٩٣م.

٥٠) منتهى الإرادات، تقي الدين ابن النجار، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩ه-١٩٩٩م.

٥١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن -دار الثريا، الطبعة: الأخيرة، ١٤١٣ه.

٥٢) النهاية في غريب الحديث والأثر المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)،الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ،تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

المواقع الإلكترونية:

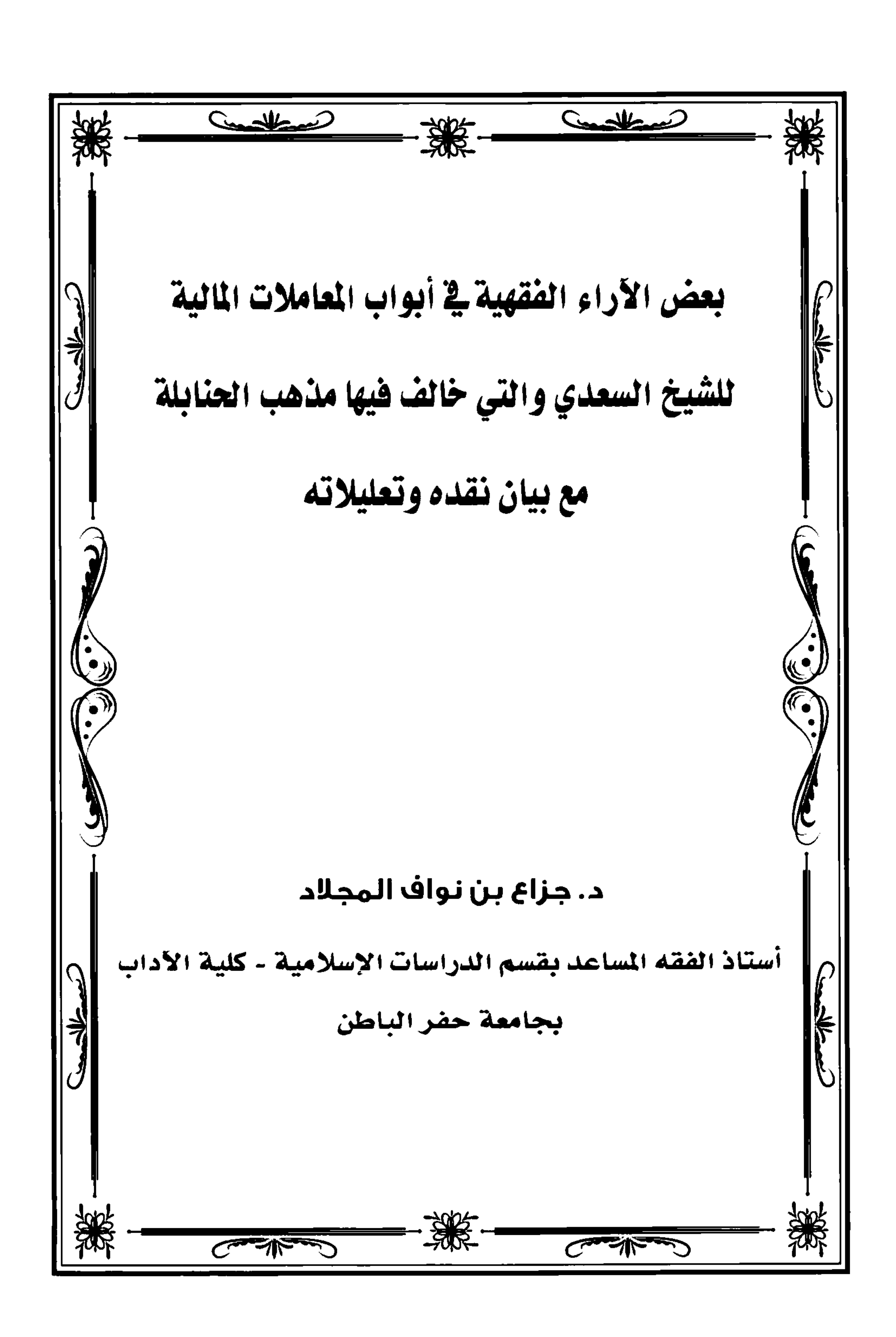
_ الملتقى الفقهي، بإشراف الدكتور عبد العزيز الفوزان.
www.figh.islammessage.com

_ملتقى أهل الحديث، منتدى الدراسات الفقهية.

_ نور على الدرب، كم نقل أعضاء جسم الكافر إلى المسلم، binbaz.org.sa.

_ زوائد السنن على الصحيحين، العبادات.، http / /book.google.com.sa

_طريق الإسلام islamway.net



بعض الآراء الفقهية في أبواب المعاملات المالية للشيخ السعدي والتي خالف فيها مذهب الحنابلة مع بيان نقده وتعليلاته

د. جزاع بن نواف المجلاد

أستاذ الفقه المساعد بقسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب

بجامعة حفر الباطن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فإنَّ من أبرز علماء القرن الرابع عشر الهجري علامةَ القصيم الفقيه الأصولي المفسر الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله-، والذي كان له صيت واسع في زمانه علما ورسوخا فيه، كما قد اشتهر عنه فضائل وأخلاق حميدة تدل على ما منَّ الله به عليه من واسع فضله العظيم في أبواب العلم والفضائل، التي هي حقيقة الرفعة في الدارين، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا۟ الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وكان من حق أهل العلم الذين توفاهم الله على طلابهم أنْ يسعوا في نشر علومهم، وإخراج كنوزهم، وتوضيح ما امتازوا به عن غيرهم، وقد كان من جملة الجهود المبذولة في هذا الباب، ما قامت به كلية العلوم والآداب بعنيزة، بجامعة القصيم، وبالتعاون مع كرسي الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- للدراسات الشرعية، حيث دعت لعقد مؤتمر يعنى بتراث الشيخ السعدي في عدة مجالات، فجزاهم الله خيرا، وشكر الله سعيهم، وبارك في جهودهم، وكان من ضمن مجالات المؤتمر مجال الفقه، فتشجعتُ لهذا المجال لتعلقه بعالم محقق ومدقق في الفقه، فقلَّبتُ النظر في مصنفاته الفقهية أبحث عن موضوع يساهم في نشر علمه ويبرز قدره، حتى وقع اختياري على بحث موضوعُه: جمع المسائل الفقهية التي اختار فيها الشيخ -رحمه الله- قولا على خلاف المذهب، لأسباب وتعليلات توضح منهجه في الفقه، وطريقةَ ترجيحه، وتعليلاته، ومناقشاتِه، واستقلالَه في رأيه، وخروجَه عن التقليد، ولما كان هناك دراسة عُنيت بأقوال الشيخ في أبواب العبادات[1]،

---

(١) عنوانها (فقه الشيخ السعدي -رحمه الله-) لكل من الأستاذين الفاضلين: الدكتور عبدالله بن محمد

أحببتُ أنْ يكون بحثي قاصرا على فقه الشيخ في أبواب المعاملات المالية، مع بيان وجه قوله وترجيحه، ونقده للأصحاب في المذهب، وحيث كانت مسائل البحث كثيرة لا يتوافق جمعها كلِّها مع مثل هذه البحوث القصيرة في المؤتمرات العلمية، فقد اقتصرت على بعض المسائل[1]، واتبعت في ذلك المنهج التالي:

أولا: أقوم بتوضيح المسألة إذا احتاجت لتوضيح.

ثانيا: أذكر المذهب فيها، مع بيان جميع تعليلاته التي أقف عليها من كتب الأصحاب بحسب الإمكان.

ثالثا: أذكر اختيار الشيخ السعدي -رحمه الله-.

رابعا: أذكر أدلة الشيخ وتعليلاته، واتبعها بنقده ومناقشته لتعليلات المذهب وأدلته -إن وجدت-.

خامس: استخلص ما يتميز به منهج الشيخ في فقهه، بعد كل مسألة من المسائل، وبهذا تظهر مكانة الشيخ في الفقه، ويتحقق -إن شاء الله تعالى- الغرض من هذا البحث.

سادسا: اذكر من سبق الشيخ إلى هذا القول من علماء المذهب.

وأسأل الله تعالى بوجهه الكريم أنْ يجعله بحثا مباركا ونافعا في الدارين، والحمد لله رب العالمين.

الطيار، والدكتور سليمان بن عبدالله أبا الخيل، طباعة دار العاصمة (١٤١٦هـ-١٩٩٦م)، وقد اعتنى الكتاب باختيارات الشيخ التي استدرك فيها على الأصحاب، وفتاواه، ومناظراته، والأصول والقواعد الفقهية.

(١) اخترت منها أشهر المسائل الخلافية في الباب، والمسائلَ التي للشيخ فيها باع طويل من النقد للقول الآخر، ومناقشته، والترجيح والتعليل ليتحقق الغرض من البحث، وهو إبراز فقه الشيخ وتحقيقه للمسائل ومنهجه الفقهي.

خطة البحث:

جعلت هـذا البحث في مقدمة، وخمسـة أبواب، وخاتمـة، وفهارس، وفي كل باب عدد من المسائل:

الباب الأول: باب البيع، وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: حكم بيع المصحف.

المسألة الثانية: بيع المعلوم مع المجهول في عقد واحد.

المسألة الثالثة: استثناء معلوم غير مشاع من مبيع مجهول القدر.

الباب الثاني: باب القرض، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تأجيل القرض.

المسألة الثانية: الواجب في بدل القرض.

الباب الثالث: باب الرهن، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ما يصح جعله رهنا.

المسـألة الثانيـة: الزيادة في الديـن الموثق برهـن، وجعلُ الرهـن ضمانا لكلا الدينين.

الباب الرابع: باب الصلح، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الصلح عن الدين المؤجل ببعضه حالاً.

المسألة الثانية: الصلح عن حق الشفعة والخيار.

الباب الخامس: باب الشركة والسبق، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: رأس مال شركتي المضاربة والعنان.

المسألة الثانية: إذا تسابق اثنان، وأخرج كلٌّ واحد منهما عوضا يدفعه لصاحبه إذا سبقه، فهل يجوز؟

الباب الأول: باب البيع، وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: حكم بيع المصحف.

المذهب في هذه المسألة:

أنَّه لا يجوز بيع المصحف، ولا يصح، سواء كان البيع لمسلم أو كافر(١).

دليل المذهب وتعليله:

١- قول ابن عمر -رضي الله عنهما- «وددت أن الأيدي تقطع في بيعها»(٢) يعني المصاحف.

٢-ولأنَّ تعظيمه واجب، وفي بيعه ابتذال له وتركٌ لتعظيمه(٣).

٣-ومن أدلة الأصحاب ما يُروى عن الإمام أحمد أنه قال: (لا أعلم في بيعه رخصة)(٤).

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ السعدي -رحمه الله- جواز بيعه وشرائه إذا لم يكن في ذلك امتهان، وقلة احترام للقرآن الكريم(٥)، وقيَّد الجواز إذا كان البيع لمسلم(٦).

(١) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي: (٤/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٤/ ٢٨٧).

(٣) كشاف القناع للبهوتي: (٣/ ١٥٥)، الكافي في فقه الإمام أحمد لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٢/ ٦).

(٤) الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (١١/ ٣٩)، كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي: (٣/ ١٥٥).

(٥) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٤٢).

(٦) الفتاوى السعدية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلد الفتاوى: (ص١٩٦).

دليل الشيخ وتعليله:

١- أنَّ الأصل في البيع هو الحل، لقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فجميع الأعيان من عقار وحيوان وأثاث وغيرها، يجوز إيقاع البيع عليها إذا تمت شروط البيع[1].

٢-أنَّ الحاجة داعية إلى ذلك، وما كان بهذه المثابة لم يحرمه الشرع[2].

وتعقب تعليل الأصحاب في كون بيعه ابتذالا له، فقال: «والصحيح أنَّه يصح، ولا يحرم بيع المصحف للمسلم لعموم الحاجة، والمنهيُّ عنه ترك تعظيمه مطلقا»[3]، قلتُ: يريد بذلك أنَّ عدم تعظيم القرآن هو المحرم مطلقا، سواء كان ذلك بالبيع أو غيره، لا أنَّ مجرد البيع يعتبر امتهانا للقرآن، وعليه فلو عُرض القرآن للبيع مع آلات الملاهي والمعازف حرم لعدم التعظيم، ولذلك حمَلَ الشيخُ قولَ ابن عمر -رضي الله عنهما- السابقَ على من كان يمتهن المصحف في بيعه ولا يحترمه[4].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: استصحابه للأصول حتى يثبت خلافها، فالأصل في البيع الحل، ويندرج فيه بيع المصحف.

ثانيا: حسن توجيهه لعلل الأصحاب، حيث عدُّوا البيع امتهانا، وليس الأمر

---

(١) منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٣٩)؟

(٢) المرجع السابق.

(٣) الفتاوى السعدية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلد الفتاوى: (ص١٩٦)

(٤) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٤٢)

كذلك عنده، والامتهان بمجرده سبب للتحريم مطلقا.

ثالثا: بعد نظره في تصور الشريعة ومقاصدها، حيث رأى بيع المصحف حاجةً قائمةً، وما كان كذلك لا تحرمه الشريعة.

واختيارُ الشيخ رواية في المذهب، ذكرها صاحب الإنصاف[1].

المسألة الثانية: بيع المعلوم مع المجهول في عقد واحد.

المذهب في هذه المسألة:

من شروط البيع المتفق عليها في الجملة العلمُ بالمبيع[2]، فلو باع معلوما مع مجهول في عقد واحد، فلا يخلو من حالين على المذهب:

الأولى: أنْ يتعذر العلم بالمجهول، مثل: لو باعه هذه الفرسَ وما في بطن الأخرى، ولم يقل: كُلٌّ منهما بكذا بطل البيع.

الثانية: ألاَّ يتعذر العلمُ بالمجهول، كما لو قال: بعتك هذا الثوب وثوبا آخر -غيرَ معين يقدر على إحضاره[3]- بكذا، صحَّ البيعُ في المعلوم بقسطه من الثمن[4].

دليل المذهب وتعليله:

١- دليل بطلان البيع في الحالة الأولى: أنَّ المجهول لا يصحُ بيعُه لجهالته، والمعلومَ مجهولُ الثمن ولا سبيل إلى معرفته، لأنَّ معرفة الثمن في هذه الحال إنَّما تكون بتقسيطه بين المعلوم والمجهول، والمجهول لا يمكن تقييمه، بخلاف ما لو قال:

(١) الإنصاف للمرداوي: (١١/ ٣٩)

(٢) الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (١١/ ٩٤)

(٣) حاشية الروض المربع لابن قاسم: (٤/ ٣٦٧).

(٤) المغني شرح مختصر الخرقي لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ١٧٨)، دقائق أولي النهى لشرح المنتهى للبهوتي: (٢/ ٢٠)

كلٌّ منهما بكذا صح في المعلوم بثمنه، لأنَّ ثمن المبيعِ المعلومِ منصوصٌ عليه[1].

٢- ودليل الصحة في الصورة الثانية: أنَّ المعلومَ يمكن معرفة ثمنه بتقسيط الثمن بينه وبين المجهول[2].

اختيار الشيخ السعدي:

وتعقَّب الشيخ السعدي -رحمه الله- المذهب في الصورة الثانية فقال: «فيه نظر»، واختار عدم صحة البيع[3].

دليل الشيخ وتعليله:

لم يسلِّم الشيخ لتعليل المذهب في الصورة الثانية، وانتقده بقوله: «فإنَّ عدمَ العلم بالمجهول وقت العقد يصيِّرُ المعلوم مجهولا، وهذا محذور ظاهر، فإنهم -يعني الأصحاب- يمنعون من بيع ما هو أهونُ منها جهالةً، كما هو ظاهر»[4].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: إبطاله للعقد بناء على ما يتضمنه أثناء إبرامه من جهالة، ولم يعتبر في هذه المسألة ما سيؤول إليه العقد من العلم بالمبيع المجهول، ثم تقسيط الثمن بين

---

(١) المغني شرح مختصر الخرقي لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ١٧٨)، دقائق أولي النهى لشرح المنتهى للبهوتي: (٢/ ٢٠)

(٢) دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ٢٠).

(٣) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٤٤).

(٤) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٤٤)

المعلوم والمجهول، فمنَع الشيخُ من هذا اعتمادا على الجهالة المتحققة أناء العقد، فزمن العقد هو محل الحكم الشرعي.

قلتُ: ووجه قوله ظاهر: فإنَّ الثوب الغائب مجهولُ المقدار، وهو المعقود عليه مع الثوب الحاضر، والغائب يحتمل الزيادة والنقصان، وهذا يؤدي إلى الخصام، وشرطُ العلم بالمبيع إنما وُضع لدفع الخصام.

ثانيا: رده على المخالف من حيث عدم طرده لقاعدته على جميع الصور المتشابهة، حيث ذكر أنَّ الأصحاب يمنعون صورا أقلَّ جهالةً من هذه المسألة، قلت: ومن هذه الصور المسألة التالية.

ثالثا: خبرته بالمذهب الحنبلي، واستحضاره لمسائله عند ورود ما يشبهها.

رابعا: سعة الفقه بإدراج المسائل المتشابهة تحت باب واحد تنتظم فيه، كمسائل الجهل بأحد العوضين.

ولم أجد قائلا باختيار الشيخ من علماء المذهب.

المسألة الثالثة : استثناء معلوم غيرِ مشاع من مبيع مجهول القدر.

قال الشيخ -رحمه الله- «وهل من هذا الباب استثناء معلومٍ غيرِ مشاع من مبيع مجهول القدر، كاستثناء صاع أو عدة أوزان من هذه الشجرة، أو قفيز من هذه الصبرة؟»[(١)].

صورة المسألة وتوضيحها:

أنْ يبيعه ثمرَ شجرةٍ يراها، أو صبرةَ طعام يراها، فيصح البيع، ولو لم يُعلم قدرُ الآصع والقفزان اكتفاءً بالمشاهدة، فهذا معنى كون المبيع مجهولَ القدر، وإلاَّ لو كان مجهولا حقيقةً لم يجز البيع من أصله[(٢)]، فإذا استثنى من ثمر الشجرة صاعا، أو من الصبرة قفيزا، فهل يصح البيع؟

المذهب في هذه المسألة:

أنَّه لا يصح البيع إذا استثنى معلوما غير مشاع من مبيع مجهول، ويصح البيع لو استثنى مشاعا معلوما كالثلث والربع[(٣)].

دليل المذهب وتعليله:

أما دليل صحة البيع إذا استثنى معلوما غير مشاع من مبيع مجهول فهو:

---

(١) الإرشاد إلى معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٤٩٠)، والصاع والقفيز مكاييل يكال بها الطعام وغيره، ومقدار الصاع بالوزن الحديث = ٢,٠٤كيلو جرام تقريبا، والقفيز = ٩٨ كيلو جرام تقريبا، (تهذيب اللغة للأزهري: ٩/ ٣٢٨، المكاييل والموازين الشرعية للدكتور علي جمعة: ص٣٧، ص٣٩).

(٢) الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (١١/ ١١٨).

(٣) المغني لموفق الدين ابن قدامة: (٤/ ٧٧) ، المبدع لبرهان الدين بن مفلح: (٤/ ٣٠).

١ - أنَّ استثناء المعلوم من المجهول يصير المعلوم مجهولا[١].

٢ -ولأنَّ المبيع معلوم بالمشاهدة لا بالمقدار، فاستثناء معلوم منه يخرجه عن كونه معلوما إلى مجهول[٢].

وأما دليل الصحة إذا استثنى مشاعا معلوما ،كالثلث والربع، فهو:

أنَّ هذا الاستثناء لا يؤدي إلى جهالة المستثنى ولا المستثنى منه، وتوضيحه: أنَّ معنى (بعتُك هذه الصبرة إلا ثلثها) هو (بعتُك ثلثيها)[٣].

اختيار الشيخ السعدي:

اختار الشيخ -رحمه الله- صحة البيع مع استثناء معلوم غير مشاع من مبيع مجهول المقدار[٤].

دليل الشيخ وتعليله:

١ - أن هذه الصورة داخلة في حديث عن جابر -رضي الله عنه- أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الثنيا إلا أنْ تُعلم[٥]، وهذا المستثنى معلوم فيصح

---

(١) المبدع لبرهان الدين بن مفلح: (٤/ ٣٠)، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ١٦).

(٢) الممتع في شرح المقنع لابن المنجَّى: (٢/ ٤٠١)، الكافي لموفق الدين بن قدامة: (٢/ ٢١).

(٣) المغني لموفق الدين ابن قدامة: (٤/ ٧٧).

(٤) الإرشاد إلى معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٤٩٠)>

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في سننه في كتاب البيوع، باب ما جاء في المخابرة: (٣/ ٢٦٢، برقم:٣٤٠٥)، والترمذي في جامعه في أبواب البيوع، باب ما جاء في المخابرة والمعاومة: (٣/ ٥٧٧، برقم: ١٢٩٠) وصححه، وأصل الحديث في مسلم: (٣/ ١١٧٥، برقم:١٥٣٦) من غير قوله:

البيع[1].

٢- عدم التسليم بأنَّ هذا الاستثناء يصير المعلوم مجهولا[٢].

قلتُ: ويوضحه أنَّ بيع الصبرة أصلا جاز بالمشاهدة مع الجهل بالمقدار، فلو استثنى أو لم يستثنِ فلا فرق مادامت الصبرة مشاهدةً.

٣- أنَّ استثناء المعلوم كالقفيز من الصبرة، والصاعِ من ثمر الشجرة أهونُ من استثناء المشاع كالثلث والربع[3].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: استحضاره للنصوص الشرعية، ومعرفته للصور الداخلة في عمومها.

ثانيا: عدم التقليد للمذهب، وعدم التسليم للعلل التي تعارض النص.

ثالثا: دقة فقه الشيخ حيث جعل استثناء المعلوم كالقفيز من الصبرة، والصاعِ من ثمر الشجرة أهونَ من استثناء المشاع كالثلث والربع، والأصحاب عكسوا حيث صححوا البيع مع استثناء المشاع.

وتوضيح دقة الشيخ -والله أعلم-: أنَّ استثناء المشاع يُخل بالمشاهدة أكثر من استثناء الصاع والقفيز، لأنهما معلوماً المقدار تحديدا، بخلاف المشاع إذ يترتبُ على المستثنى منه، وهو مجهول المقدار، وعليه فاستثناء الصاع والقفيز

(إلا أن تعلم).

(١) الإرشاد إلى معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٤٩٠).

(٢) المرجع السابق، وقد ذكر هذا التعليل شمس الدين بن قدامة في الشرح الكبير: (١١/ ١١٨).

(٣) الإرشاد إلى معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٤٩٠).

أولى بالصحة من استثناء المشاع.

رابعا: استخدامه قياس الأولى، حيث جعل استثناء المعلوم كالقفيز والصبرة أولى بالجواز من استثناء المشاع.

قلتُ: نُقل عن بعض الأصحاب قياسُ استثناء الصاع والقفيز على استثناء المشاع لعدم الفرق، فيصح البيع في الكل[1]، والشيخ -رحمه الله- جعله من قياس الأولى كما سبق.

قلتُ: وللشيخ -رحمه الله- في هذا الباب تأصيلٌ، وبعد نظر، حيث يقول في سياق كلامه عن الغرر: «ومنها ما تكون جهالته يسيرة قد يُدخلها بعضُهم في الغرر ويمنعها، ولا يدخلها آخرون فيبيحونها ... ونحوها مما تختلف فيه أنظار العلماء مع اتفاقهم على أصل القاعدة، لكنَّ الخلافَ في الصور المعينة، هل تنطبق عليها القاعدة أو لا؟ وأولاهم بالصواب فيها من وافق الواقع الذي هي عليه في عرف الناس ومعارفهم»[2].

قلتُ: ويؤخذ من كلامه دررُ فقهٍ تضاف لما سبق، تدل على منهجه المتوازن:

أولها: سعةُ اطلاعه، وتمكنُه من استيعاب خلاف العلماء، ومعرفته بمآخذ أقوالهم.

ثانيها: ردُّه أقوالَ الفقهاء في اختلافهم في تحريم بعض صور البيع إلى قواعد التحريم المسلَّمة عند جميعهم، فمسائل هذا الباب جميعُها تعود إلى الجهل بالمبيع.

---

(١) نقله ابن مفلح عن ابن الجوزي في المبدع في شرح المقنع: (٤/ ٣٠).

(٢) الإرشاد إلى معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٤٩٠).

ثالثها: إعذاره للعلماء حيث اتفقوا على الأصل، وأن داعي الاختلاف بينهم إنما هو لاختلاف جهات أنظارهم التي ينظرون للمسألة من خلالها، فمن نظر إلى جهة خفيت عليه الجهة الأخرى التي نظر الآخر من خلالها.

رابعها: أنَّ إصابة الحق بعينه تعود إلى موافقة الواقع الذي عليه صورة المسألة في العرف المشاهد.

قلتُ: وهذه الأخيرة هي خاصية الفهم، بحسن تجريد النظر إلى الواقعة من حيث هي، ومن حيث واقعها التي عليه، مع اعتبار العرف الذي يحيط بها، وهذا محض توفيق من الله سبحانه وتعالى، وهي من معاني قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال:٢٩]، نسأل الله العظيم من فضله.

واختيار الشيخ قولٌ في المذهب:

قال في المبدع: وعنه: يصح لأنَّه -عليه الصلاة والسلام- نهى عن الثنيا إلا أن تعلم[١]، وهذه معلومة[٢].

كما قوَّى هذا القولَ صاحبُ الإنصاف[٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) المبدع لبرهان الدين بن مفلح: (٤/ ٣٠).

(٣) الإنصاف للمرداوي: (١١/ ١١٨).

الباب الثاني: باب القرض، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تأجيل القرض.

أصل القرض هو: دفع المال إلى الغير لينتفع به ويرد بدله[1]، فلو اقترض من شخص مالا واتفقا على أجل محدد للوفاء، فهل يلزم التقيد بهذا الموعد؟ أو يعتبر الدين حالاً وللمقرض المطالبةُ به متى شاء؟

المذهب في هذه المسألة:

أنَّه لا يتأجل، بل هو حالٌّ، وللمقرِض المطالبة به، وعلى المقترض ردُّ بدله، والتأجيلُ الذي عيَّناه لايلزم[2].

دليل المذهب وتعليله:

١- القياس على المتلفات، والجامع بينهما: وجوب ردِّ المثل في المثليات في الكل، فيجب حالاً في القرض كما هو الحال في بدل المتلفات[3].

٢- ولأنَّ الحقَّ يثبت حالاً، والتأجيلُ تبرعٌ ووعدٌ فلا يلزم الوفاءُ به، كما لو أعاره شيئا[4].

---

(١) المبدع في شرح المقنع لبرهان الدين بن مفلح: (٤/ ١٩٤).

(٢) الكافي لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٢/ ٧٠) ، المحرر في الفقه لعبد السلام بن تيمية: (١/ ٣٣٤)

(٣) الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (١٢/ ٣٣٢) ، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ١٠٢)

(٤) المرجع السابق.

٣- ولأنَّه عقد مُنع فيه التفاضلُ فمُنع فيه الأجلُ كالصرف[١].

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ لزومَ الوفاء بالأجل المتفق عليه، وأنَّ المُقرِضَ لا يملك المطالبةَ قبل حلول الأجل[٢].

دليل الشيخ وتعليله:

وقد بيَّن الشيخ وجه اختياره بقوله: «لأنَّ الله تعالى أمر بالوفاء بالعقود، وأمر بالوفاء بالوعد، ولأنَّ عدمه من صفات المنافقين»[٣]، قلت: يريد بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة:١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤]، وقولَ النبي -صلى الله عليه وسلم-: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» متفق عليه[٤] من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: عنايته بالدليل الشرعي، وتقديمه على علل الفقهاء.

---

(١) دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ١٠٢).

(٢) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه:(٢/ ١٥٠)، الفتاوى السعدية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلد الفتاوى: (ص:٢٥٢).

(٣) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٠)

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق: (١/ ١٦، برقم: ٣٣)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق: (١/ ٧٨، برقم:١٠٧)

ثانيا: نظرته العامة للدليل، ومراعاة شمول لفظه للفروع الفقهية.

واختيار الشيخ هو اختيار شيخِ الإسلام ابن تيمية، نقله عنه صاحب الإنصاف وصحَّحه[1].

المسألة الثانية: الواجب في بدل القرض.

من أعطى مالا قرضا، ثم أراد المقترضُ أنْ يرده إليه، فهل يجب أنْ يردَّ له مثلَه أو قيمتَه؟[2].

المذهب في هذه المسألة:

المذهب أنَّه يجب ردُّ المثل في المثليات (المكيلات والموزونات)،وفي غير المثليات وجهان:

الأول: يردُّ القيمة، لأنَّ ما أوجب المثلَ في المثليِّ أوجبَ القيمةَ في غيره كالإتلاف.

والثاني: يرد بدله[3]

(١) الإنصاف للمرداوي: (١٢/ ٣٤٠)، وانظر الفروع لابن مفلح:(٦/ ٣٤٩)

(٢) أصل المثل في اللغة هو: المساوي للشيء وشبيهُه، ومثْلُ الشيء هو: الذي يسدُّ مسدَّه، فهذا هو المثلي في الأصل، والقيمي عكسه وهو ما ليس له مثيل فيُعوض بقيمته. (لسان العرب لابن منظور: ١١/ ٦١٠، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: ٢/ ٥٢٠)، ويبحث الفقهاء في المثلي والقيمي لتحقيق العدل في التعويض عن ثمن مبيع ظهر استحقاقه للغير، أو عوضا عن متلف، ونحوهما كبدلِ القرض -وهو محلُّ البحث- والمثلي عند الحنابلة هو: كل مكيل أو موزون لا صناعة فيه مباحة، يصح السلم فيه، والقيمي ماعداه. انظر التعريف وشرحه في: دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ١٠١)

(٣) انظر القول والوجهين في: المغني لشمس الدين بن قدامة: (٤/ ٢٣٩)، والمحرر في الفقه لعبد السلام بن تيمية (١/ ٣٣٥)

دليل المذهب وتعليله:

أما دليله في وجوب رد المثل في المثليات فهو: أنَّ المثلَ هو الواجب عوضا عن المتلفات، ففي القرض أولى.

وأما في غير المثلي، فدليل الوجه الأول هو: أنَّ ما أوجب المثلَ في المثليِّ أوجبَ القيمةَ في غيره كالإتلاف، ودليل الوجه الثاني هو: حديث أبي رافع -رضي الله عنه- أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- استسلف من رجل بكرة، فقدمت عليه إبلٌ من إبلِ الصدقة، فأمر أبا رافع أنْ يقضيَ الرجلَ بكرةً، فرجع إليه أبو رافع، فقال: لم أجد فيها إلا خيارا رباعيا، فقال: «أعطه إياه، إنَّ خيار الناس أحسنهم قضاء»[1].

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ السعدي -رحمه الله- وجوبَ رد المثل مطلقا[2].

دليل الشيخ وتعليله:

١- أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ضمَّن إحدى أمهات المؤمنين لـمَّا كسرت صحفةَ الأخرى بصحفةٍ مثلها وقال: (إناء بإناء)[3].

٢- ولأنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أمرَ عبدَالله بن عمرو -رضي الله عنه- أنْ

---

(١) انظر الأدلة في المرجع السابق، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساقاة، باب: من استسلف شيئا فقضى خيرا منه (٣/ ١٢٢٤، برقم: ١٦٠٠).

(٢) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٠)

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه في أبواب الأحكام، باب ما جاء فيمن يُكسر له الشيء ما يُحكم له من مال الكاسر؟: (٣/ ٦٣٢، برقم: ١٣٥٩) وقال: حديث حسن صحيح، وأصله في البخاري من غير لفظ: «إناء بإناء».

يستسلف على إبل الصدقة[1].

٣- ولأنَّ المثل يحصل فيه المقصودان: مقصودُ القيمة، ومقصودُ حصول ذلك الشيء الـمُقرَض.

٤- أنَّ هذا هو مقتضى عقد القرض.

٥- ولأنَّه لو وجبت القيمة لكان العقد من أصله عقدَ معاوضة، وهو مخالف لموضوعه فإن القرض عقد إرفاق[2].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: مراعاته لمقتضيات العقود ومقاصدها، والحكمة من تشريعها، ثم انسجام الأحكام الشرعية للفروع الفقهية مع هذه المقتضيات والمقاصد، وهذا باب عظيم من أبواب المقاصد، وللشيخ منه نصيب كبير.

فالقرض مقتضاه رد المثل، وكذلك هو إحسان، وتعاونٌ بين المؤمنين، وجزاءُ الإحسان هو الإحسان، والمثلُ أقرب للإحسان من القيمة، ومن جهة أخرى: فإنَّ إيجاب القيمة يخرج القرض عن موضوعه الذي هو الإرفاق، إذ القيمة محلها المعاوضات. والله أعلم

---

(١) حديث السلف على إبل الصدقة أخرجه أبو داود في كتاب البيوع في (باب الرخصة في ذلك) بعد (باب في الحيوان بالحيوان نسيئة): (٣/ ٢٥٠، برقم: ٣٣٥٧) ونصّه: «أنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلَم- أمره أنْ يُجهز جيشا فنفدت الإبل، فأمره أن يأخذ في قِلاص الصدقة، فكان يأخذ البعير بالبعيرين إلى إبل الصدقة»، والحديث ضعَّفه ابنُ القطان وغيرُه لاضطراب في إسناده، وجهالة في بعض رواته، ذكره الزيلعي في نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية: (٤/ ٤٧).

(٢) انظر أدلة الشيخ في المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٠).

ثانيا: مراعاته لعلل المخالفين، وتنبيهُهم باندراجها تحت أدلة قوله وعلله، حيث أفْهَمَ أنَّ القيمة تحصل بالمثل تبعا.

ثالثا: دقةُ استنباط الأحكام من الأدلة، حيث قاس بدل القرض على الإناء المتلف الذي وجب فيه رد المثل كما في حديث تضمين الإناء، وكذلك استدلَّ بسلف النبي -صلى الله عليه وسلم- إبلا على إبل الصدقة، فردهم على إبل الصدقة ولم ينتقل للقيمة مع أنَّ القيمة أسهل[1].

رابعا: ملاحظته لعموم الحكم، وعدم قصره على بدل القرض، فهو يشمل جميع المتلفات وحكمُ القرض مثلُها.

خامسا: تفريقه بين أبواب الفقه العامة، والتي تتضمن فروعا فقهية منتظمة على نسق واحد، فعقود الإرفاق في الجملة تختلف عن عقود المعاوضات، ويستند على هذا التفريق في اختيار القول المناسب لمسألة الباب.

واختيار الشيخ قولٌ لبعض الأصحاب:

قال في الفروع: « وإليه ميلُه في الكافي والمغني والشرح، وهو ظاهر كلامه في العمدة، قلت: ويعضده كون النبي -صلى الله عليه وسلم- استسلف بكرا فرد خيرا منه، ولم يعطه القيمة، والله أعلم»[2].

(١) قلتُ: يشكل على الاستدلال بهذا الحديث أمران، الأول: ما قيل في ضعفه، وقد سبق توضيحه في الحاشية، والثاني: حمله على أنَّه بيع مع تأخير الثمن، وليس قرضا، والبيع معاوضة، كما جاء في رواية الدارقطني (كتاب البيوع: ٤/ ٣٥، برقم: ٣٠٥٢) أنه قال لعبد الله بن عمرو: «اشتر لي إبلا بقلائص من الصدقة إذا جاءت حتى تؤديها إليهم: ، فاشتريت البعير بالاثنين والثلاثِ قلائص حتى فرغت، فأدّى ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من إبل الصدقة»، ولذلك بحث العلماء في معارضة هذا الحديث مع أحاديث النهي عن بيع الحيوان بالحيوان. والله أعلم.

(٢) الفروع لابن مفلح: (٦/ ٣٥٢).

الباب الثالث: باب الرهن، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ما يصح جعله رهنا.

الرهن هو: المال الذي يجعل وثيقة بالدين، ليُستوفى من ثمنه إن تعذر استيفاؤه ممن هو عليه[١]،وعليه فما هو المال الذي يصح جعله رهنا لتوثقة الدين وسداده منه عند الحاجة لذلك؟

المذهب في هذه المسألة:

أنه يختص بالأعيان دون الديون والمنافع[٢].

دليل المذهب وتعليله:

أنَّ المقصود من الرهن توثقةُ الدين للتوصل إلى استيفائه من ثمن الرهن إن تعذر استيفاؤه من ذمة الراهن، وهذا يتحقق في الأعيان دون المنافع والديون[٣].

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ -رحمه الله- جواز رهن الأعيان والديون والمنافع[٤].

---

(١) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٢/ ٧٤)، ولفظ الرهن يُطلق على عقد الرهن نفسه، وعلى العين المرهونة أيضا.

(٢) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ٢٥٣)، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ١٠٣)

(٣) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (/ ٢٥٣)، العدة شرح العمدة لأبي البهاء المقدسي: (ص:٢٧٣)

(٤) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٠)، الإرشاد في معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٥٠٢)، الفتاوى السعدية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلد الفتاوى: (ص: ٢٥٧)

دليل الشيخ وتعليله:

١- عمومات الأدلة.

قلتُ: يريد بذلك العموماتِ الواردة في إيجاب الوفاء بالعهود والعقود، كما يظهر من سياق حديثه مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة:١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء:٣٤]، وبيان وجه الدلالة منها: أنها أدلة تقتضي الوفاء بما اتفقا عليه ورضيا به، فإنَّ الأمر للمتداينين، فما داما رضيا بكون الرهن دينا، أو منفعة، لزمهما الوفاء به، حيث لا مانع من ذلك.

٢- أن صاحب الحق في الرهن هو المرتهن، فإذا رضي بتوثقةٍ أخفَّ، كالدين والمنفعة فالأمر إليه، وقد رضي به.

٣- لا دليل على المنع، والأصل هو الحل.

٤- أن الغرر الذي يُمنع منه، محلُّه في عقود المعاوضات، بخلاف عقود التوثقات فهي أهون.

٥-حاجة الناس إلى التوثقة بالدين والمنفعة[1].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: اعتباره لعمومات الأدلة التي يجب عدم مخالفتها في الفروع الفقهية.

ثانيا: اعتباره رضى صاحب الحق مؤثرا في الحكم الشرعي، فلو رضي صحَّ، وإذا لم يرض لم يصحَّ، ولم يصرح بالثاني ولكنه مفهوم.

---

(١) انظر أدلة الشيخ في المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٠)، الإرشاد في معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٥٠٢).

ثالثـا: بناؤه الأحكام على القواعـد المتفق عليها، مثل: (الأصل في المعاملات الحل).

رابعـا: بعـد النظـر في التفريـق بين أبـواب العلم جملـةً، حيث تختـص عقود المعاوضـات -كالبيع والإجارة والسـلم ونحوها- بـمزيد مـن التوثيق، لأنَّ الحق فيهـا بين الطرفين، وكل واحد منهمـا يطمع في عوض الآخر، بخلاف ما عليه عقود التوثقـات -كالرهن والكفالـة والضمان- فإنَّها أخف، من جهـة أنَّ صاحب الحق فيهـا طرفٌ واحدٌ وهو صاحب الدين، فإذا رضي بـأيِّ نوع من التوثقات فالأمرُ له، كما أنَّ له أنْ يتنازل عن أصل العقد، فيداين من غير رهن ولا ضمان ولا كفالة.

وقد حُكي اختيارُ الشيخ في جواز توثقة الدين بالدين قولا في المذهب، من غير نسبته لأحد من علماء المذهب[1].

المسألـة الثانيـة: الزيـادة في الدين الموثـق برهن، وجعلُ الرهـن ضمانا لكلا الدينين.

إذا اسـتدان رجل من آخر مائةً، ورهنه عينـاً قيمتُها مائة وخمسـون، ثم استدان منه خمسين على أنْ يكون الرهن لجميع الدين (المئة والخمسين).

المذهب في هذه المسألة:

أنَّ ذلـك لا يجـوز، حتـى ولو كانت قيمة الرهن تسـاوي أو تزيـد عن مجموع الدينين[2].

دليل المذهب وتعليله:

---

(١) حكاه الزركشي في شرح مختصر الخرقي: (٤/ ٢٥)

(٢) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ٢٦٠) ، الإنصاف للمرداوي: (١٢/ ٣٦٤).

أنَّ الرهن انشغل بالدين الأول، فلا ينشغل بالثاني لأنَّ المشغول لا يُشغل[1].

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ -رحمه الله- أنَّ ذلك جائز[2].

دليل الشيخ وتعليله:

أنه لا محذور في هذه الصورة، فلا وجه للمنع ولا دليل عليه، والأصل هو الحل، وناقش الأصحاب في تعليلهم بأنَّ المشغول لا يشغل: فجعل محله: إذا رهنه عند زيدٍ مثلاً فلا يرهنه عند عمرو، وأما الزيادة في دينه فلا بأس بها، وإنما هو زيادة استيثاق في الدين الأخير[3].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

حسن توجيهه للقواعد الفقهية، فإنَّ قاعدة (المشغول لا يشغل)[4] يدخل في ظاهر لفظها ما منع منه الأصحاب من زيادة الدين، ولكنْ بعد التأمل لا يمتنع ذلك، حيث يستمر الرهن في توثيق دين المرتهن فهو زيادة الشغل الأول، بخلاف ما لو

---

(١) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ٢٦٠)، الإنصاف للمرداوي: (١٢/ ٣٦٤).

(٢) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٢)، وانظر أيضا: الفتاوى السعدية، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي / مجلد الفتاوى: (ص:٢٥٩).

(٣) انظر أدلة الشيخ ومناقشته في المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٢)، وانظر أيضا: الفتاوى السعدية: (ص:٢٥٩)

(٤) انظر القاعدة في المنثور في القواعد الفقهية للزركشي بدر الدين الشافعي: (٣/ ١٧٤) وذكر من فروع القاعدة ما يوافق توجيه الشيخ فيما يظهر، فقال: (كما لو رهن على دين ثم أراد أن يرهنه على آخر لا يجوز).

جعله رهنا لدين من آخر فهو شغلٌ لمشغول.

واختيار الشيخ هو اختيارٌ لابن قيم الجوزية[1]، كما نقله صاحب الإنصاف عن صاحب الروضة[2].

---

(١) الفروسية لابن قيم الجوزية: (ص: ٣٥٦)

(٢) الإنصاف للمرداوي: (١٢/ ٣٦٤)

الباب الرابع: باب الصلح، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الصلح عن الدين المؤجل ببعضه حالًّا.

أصـل الصلح أنَّه عقـد يُتوصل به إلى الإصلاح بيـن المختلفين في الأموال[1]، فيتصالحـان بما يتفقان عليه مما لا يترتب عليه محرم، كالربا والغرر والضرر، ومن صوره التي اختلف فيها العلماء: لو كان لرجل على آخر دين مؤجل، فصالحه على أنْ يعطيه بعضَ الدين حالاً، ويسقط عنه البعضَ الآخر، فيستفيد الدائنُ حلولَ السداد ويتنازل عن البعض، ويستفيد المدينُ سقوطَ بعض الدين ويتنازل عن الأجل.

المذهب في هذه المسألة:

عدم الجواز[2].

دليل المذهب وتعليله:

١ - أنَّه يتضمن بيعا للأجل، فالقدر المتنازل عنه من المال سقط مقابل تعجيل المؤجـل، وبيـع الحلـول والتأجيل لا يجوز قياسـا علـى: ما لو أعطاه عشـرةً حالةً بعشرين مؤجلة فهو ربا[3].

قلتُ: وقد وضَّح الشيخ تعليل الأصحاب بقوله:

« ووجـه المنـع: أنَّه قياس على تأجيل ما حلَّ بأكثر منه مؤجلا، وهو الربا الذي أجمع المسلمون على منعه، لأنَّه جعلَ الزيادةَ في مقابلة زيادة المدة، فنظيرُها إسقاط

---

(١) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ٣٧٥)

(٢) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ٣٦٧) ، المحرر لعبد السلام بن تيمية: (١/ ٣٤٢).

(٣) المرجع السابق.

الزيادة في مقابلة المدة»[1].

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ -رحمه الله- جواز الصلح على هذه الصورة[2].

دليل الشيخ وتعليله:

١- ما أخرجه الدارقطني والحاكم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- حين أمر بإخراج بني النضير من المدينة جاءه أناس منهم فقالوا: إنَّ لنا ديونا لم تحل، فقال: «ضعوا وتعجلوا»[3].

٢- أنه لا دليل على تحريمها، والأصل هو الحل، قلتُ: وهذا يتضمن عدم تسليمه بأنها ربا.

٣- أنها تحقق مصلحةً للمتصالحين، فقد يحتاج من عليه الحق إلى الوفاء قبل حلوله، وقد يحتاج صاحب الحق إلى حقه لعذر من الأعذار، وفي تجويز هذا مصلحة ظاهرة، خصوصا في الدَّين على الميت إذا مات ولم يمض من الأجل إلا

---

(١) المناظرات الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٢٤٢).

(٢) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٤)، المناظرات الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٢٤٢)، الإرشاد في معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٥٠٦)، منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٤٤)

(٣) السنن للدارقطني ،كتاب البيوع (٣/ ٤٦٦، برقم: ٢٩٨٢)، المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب البيوع: (٢/ ٦١، برقم: ٢٣٢٥)، وتعقب الذهبيُ الحاكمَ في تصحيحه لأجل راويين فيه، أحدهما مجهول، والثاني ليس بثقة: (انظر مختصر تلخيص الذهبي لابن الملقن: ١/ ٥٦٢).

شيء قليل، فإننا بين أمرين:

الأمر الأول: إما أن نقول: إنَّ دينَه يحل كلُّه إذا لم يكن هناك توثقة لصاحب الحق، وفي هذا ظلمٌ، لأنَّ البيع المؤجل يجعل الثمن في مقابلة السلعة ومقابلة الأجل معا، فإذا باعه سلعة تساوي مائة بمائة وعشرين مؤجلة ولم يمض من الأجل إلا بعضه -وقيل بحلول المائة والعشرين- كان هذا ظلما منافيا للعدل، فصار من العدل النظر في مقدار ما مضى من الأجل ويُجعل له من حصته من الثمن، ويحصل بذلك براءة ذمة الميت.

والأمر الثاني: أنْ يُعلَّقَ دينُه إلى أجله، وقد يعتري التركة في هذه المدة خطر[1].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: درايته التامة بالمذهب وتعليلات الأصحاب.

ثانيا: حسن توضيحه وسهولة عبارته، يتضح ذلك من عرضه لتعليل المنع في المذهب، حيث ساقه بأوضح عبارة، وأسهل أسلوب، فيؤخذ منه الإنصاف في عرض قول المخالف.

ثالثا: اعتماده على الأصول المسلمة والقواعد الفقهية والأصولية.

رابعا: إبطال القول بما يترتب عليه من محاذير، كما ذكره في الميت الذي عليه دين مؤجل.

خامسا: تنزيل الأقوال على الواقع لتأملها وتصورها، كما مثلَّه بالميت الذي

---

(١) انظر أدلة الشيخ في: المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٤)، المناظرات الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٢٤٢)، الإرشاد في معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٥٠٦).

عليه دين مؤجل.

سادسا: يقينُه الكامل بما يختاره من أقوال، ويؤخذ هذا من استبعاده التام لقياس الأصحاب المسألةَ على الربا.

سابعا: تمييزه بين المتشابهات في الجملة، وتوضيح دقائق الفروق، فإنَّ القارئ لمقدمة الأصحاب: بأنَّ بيع الأجل محرم كما في قلب الدين، يظن أنَّ عكسَه -وهو مسألة الباب- صحيحٌ، بجامع وجود عوضٍ مقابلَ أجل، ففرَّق بين الصورتين بما لا يجعل بينهما شبها أصلا، فرحمه الله رحمة واسعة وسائر علماء المسلمين.

واختيار الشيخ روايةٌ في المذهب[1]، اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية[2].

المسألة الثانية: الصلح عن حق الشفعة والخيار.

حق الشفعة هو: استحقاق الشريك انتزاعَ حصة شريكه المنتقِلةِ عنه من يد من انتقلت إليه[3].

والخيار معناه: طلب خيرِ الأمرين من إمضاء البيع ونحوه أو فسخه[4].

فهذان حقان ثابتان لكل من الشريك والمتعاقدين، فإذا ما أراد الشريك انتزاع حصة شريكه التي انتقلت للغير، أو أراد أحدُ المتعاقدين فسخ العقد في مدة الخيار، وكان للطرف الآخر مصلحة في عدم إمضاء الشفعة والفسخ، فهل يصح أنْ يبذل عوضا -على سبيل الصلح- للشفيع والمختارِ للفسخ ليُسقطا حقهما؟

---

(١) المغني لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٤/ ٣٦٧).

(٢) ذكره ابن مفلح في الفروع: (٦/ ٤٢٣)، والمرداوي في الإنصاف: (١٣/ ١٣١).

(٣) المغني لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٥/ ٢٢٩).

(٤) دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ٣٥).

المذهب في هذه المسألة:

المذهب أنَّ ذلك لا يصح[١].

دليل المذهب وتعليله:

أنَّ كلاً من الشفعة والخيار لم يُشرعا لاستفادة المال، بل شرُع الخيارُ للنظر في الأحظِّ والأصلح، وشرعت الشفعةُ لإزالة الضرر عن الشريك[٢].

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ -رحمه الله- جواز الصلح عنهما[٣].

دليل الشيخ وتعليله:

استدل الشيخ بحديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرَّم حلالا، أو أحلَّ حراما»[٤]،ويدخل فيه كل صلح لا محذور فيه، ولا ربا، ولا

(١) دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ١٤٥) ، الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة: (١٣/ ١٦٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٤) ، القواعد والأصول والجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة: (ص:٥٤)

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه، وصححه، في أبواب الأحكام، باب ما ذُكر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الصلح بين الناس: (٣/ ٦٢٦ ، برقم:١٣٥٢)، وابن ماجه في سننه في كتاب الأحكام ، باب الصلح ، (٢/ ٧٨٨ ، برقم: ٢٣٥٣)، وكثير بن عبدالله ضعفه الحافظ (تقريب التهذيب: ٤٦٠، برقم: ٥٦١٧)، ورماه غيره بالكذب، قال عنه الإمام أحمد: (منكر الحديث ليس بشيء) تهذيب الكمال للمزي: (٢٤/ ١٣٧، برقم: ٤٩٤٨)، وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عند أحمد في المسند: (١٤/ ٣٨٩، برقم: ٨٧٨٤) وأبي داود في السنن: (٣/ ٣٠٤، برقم: ٣٥٩٤).

يسقط واجبا، والصلح عن حق الشفعة والخيار كذلك[1].

ثم بيَّن رده على تعليل الأصحاب فقال: « وقولهم في تعليل المنع من الصلح عنهما: إنهما لم يشرعا لاستفادة مال بل للأحظ من الأمرين، فنعم كذلك، ولكن قد يرضى الإنسان بإسقاط حقه من الشفعة، أو بإسقاط خياره إذا بُذِل له مال، ولا يرضى بدون ذلك، ولم يُشرعا في الأصل إلا لأجل أنْ يَنظر صاحبُهما أيَّ الأمرين أحظ له من جهة المال؟، فإذا ترجح الإسقاط بالمال المبذول فيه، فهذا وافق القواعد والأصول، ولا دليل ظاهر على المنع »[2].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

عدم تسليمه للعلل التي لا يعضدها دليل، ولو اشتهرت في المذهب، قلت: وبهذا يتميز الفقيه المستقل من الفقيه المقلد، ومن هؤلاء الفقهاء المستقلين المجتهدين شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وله اختيارات فقهية خالف فيها المشهور من المذهب، حيث وهبه الله تعالى حجة في الاستدلال، ودقة في تمييز أدلة الفقهاء وعللهم، وقد تأثر الشيخ السعدي به كثيرا.

ولم أجد أحدا من علماء المذهب سبق الشيخ إلى هذا القول، قال صاحب الإنصاف عن الشفعة: «أما الصلح عنها بعوض فلا يصح قولا واحدا، قاله الأصحاب»[3]، وقال في حاشية الروض: (فلم يصح الصلح عنهما بعوض بلا نزاع)[4].

---

(١) المختارات الجلية من المسائل الفقهية: (٢/ ١٥٤)، القواعد والأصول والجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة: (ص:٥٤).

(٢) المرجع السابق: (٢/ ١٤٦).

(٣) الإنصاف للمرداوي: (١٥/ ٤٠٤).

(٤) حاشية الروض المربع لابن قاسم: (٥/ ١٤٧).

الباب الخامس: باب الشركة والسبق

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: رأس مال شركة المضاربة والعنان.

عقد الشركة يجمع بين اثنين يشتركان في ماليهما ويعملان فيه جميعا، على أنْ يكون الربح بينهما، فهذه شركة العنان، وإن كان المال من أحدهما فقط، والعملُ من الآخر فهذه شركة المضاربة[١].

وفي كلا الشركتين دفعُ مالٍ للعمل به، فهل يجوز أن يكون هذا المال المدفوع في شركة العنان والمضاربة عروضا؟ أو لابد أنْ يكون من النقدين؟

المذهب في هذه المسألة:

أنَّه يشترط أنْ يكون مال شركة العنان والمضاربة من النقدين (الدراهم والدنانير)، وأما العروض فلا يجوز أن تكون رأس مال الشركة[٢].

دليل المذهب وتعليله:

أما دليل جوازه في النقدين:

١-فلأنَّهما قيم الأموال، وأثمان المبيعات.

٢- ولأنَّ الناس يشتركون بهما من لدن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأما دليل منعه في العروض فهو:

---

(١) الكافي لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (٢/ ١٤٦، ١٥١)، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ٢٠٨).

(٢) المغني لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٥/ ١٢-١٣، ٢٠)، الإنصاف للمرداوي: (١٤/ ١١، ٦٤).

أنه لو كان المال المدفوع في شركة العنان والمضاربة عرضا، لكانت الشركة تقع على عين العرض، أو قيمتِه، أو ثمنِه، وهذا كلُّه فيه محاذير:

أمَّا عين العرض، فإنَّ الشركة تقتضي عند الفسخ الرجوعَ برأس المال أو مثله، والعرض لا مثل له، وأمَّا القيمة فإنَّها غير محددة القدر فيفضي إلى التنازع، وقد يُقوَّم الشيء بأكثر من قيمته، وأما ثمنُ العروض فإنه معدوم عند العقد حيث لم يتم بيعه بعد[1].

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ -رحمه الله- صحة شركة العنان والمضاربة بالعروض[2].

دليل الشيخ وتعليله:

١- أنه لا دليل يدل على المنع، والأصل الحل.

٢- أن الحاجة تدعو إلى ذلك.

٣- أن المشاركات أوسع من عقود المعاوضات[3].

وتعقب تعليل الأصحاب بقوله:

«والتعليلُ بأنَّهما قيم المتلفات وأثمان المبيعات، هذا في الغالب، وإلا فقد

(١) انظر أدلة المذهب في المغني لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٥/ ١٣)، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ٢٠٨).

(٢) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٧)، الإرشاد في معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٥٠٦)

(٣) انظر أدلة الشيخ في المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ١٥٧)

تكون العروض قيما في المتلفات، وأثمانا للمبيعات، فعلى هذا القول الصحيح تُقوَّمُ وقتَ العقد بأحد النقدين، ويرجع إلى هذا التقويم عند المحاسبة»[1].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

١- ما سبق ذكره من تفريقه بين أبواب الفقه، كالمعاوضات والتوثيقات والمشاركات، إذْ كل باب منها له أحكامه العامة التي تنتظم أفرادَه.

٢- تفريقه بين ما يكون غالبا فلا يصلح علةً للحكم، وبين العلة الحقيقية التي تكون دائمة ومطردة، فكون النقدين قيماً للمتلفات، وأثمانا للمبيعات ليس عائدا لكونهما نقدين فيختص الحكم بهما، بل هذا هو الغالب، وقد يقوم غيرُهما مقامها، كما لو باع عرضا بعرض، أو عوَّضه عن متاعه الذي أتلفه بعرض يساويه في القيمة.

٣- فطنته لما يحتاج لكشف مما ينبني على اختياره، فلو كان رأس المال عرضا، ثم أراد المتشاركان معرفة رأس مال كل واحد منهما، فإنه يتم تقييم العرض وقتَ العقد، ويُعتمد هذا التقييمُ للحساب، والتصفية، وتوزيع الأرباح وغيرها.

واختيار الشيخ -رحمه الله- رواية في المذهب[2]، وصوبها في الإنصاف[3].

المسألة الثانية: إذا تسابق اثنان، وأخرج كل واحد منهما عوضا يدفعه لصاحبه إذا سبقه، فهل يجوز من غير محلِّل؟

أصل المسابقة جائز بغير عوض، كالمسابقة على الدواب، والأقدام، والسفن وغيرها، وأما إذا كانت بعوض فيشترط في جوازها كونُها مسابقة في أشياء مخصوصة، وهي الواردة في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه

(١) المرجع السابق

(٢) المغني لموفق الدين بن قدامة المقدسي: (٥/ ١٣).

(٣) الإنصاف للمرداوي: (١٤/ ١٤)

وسلم- قال: «لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر» رواه أبو داود والترمذي[1] فحينئذ تجوز بعوض بشروطها المعتبرة، ولا يخلو العوض حينئذ من حالين:

الحالة الأولى: أنْ يكون العوض من غير المتسابقين، كالإمام أو غيره، فإذا تسابقا، فمن سبق فله العوض، وهذا جائز.

الحالة الثانية: أنْ يكون العوض منهما جميعا، فمن سبق أحرز عوض صاحبه مع عوضه، وهذه الصورة هي محل الخلاف[2].

المذهب في هذه المسألة:

أنه غير جائز إلا بوجود محلل، وهو دخول متسابق ثالث بينهما لا يُخرج عوضا، ويكون مكافئا لهما في آلةِ سباقِه، سهمِه أو فرسِه أو بعيرِه[3].

دليل المذهب وتعليله:

١- لو كانت المسابقة من غير محلل، كان كلٌّ واحد منهما لا يخلو من أنْ يغنم أو يغرم، وهذه حقيقة القمار وهو محرم، بخلاف ما لو كان معهما محلل.

٢- ويدل على جوازها مع وجود المحلل حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من أدخل فرسا بين فرسين، وهو لا يأمن أنْ يسبق فليس بقمار، ومن أدخل فرسا بين فرسين، وقد أمِنَ أنْ يسبق فهو قمار»[4].

(١) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد، باب في السبق: (٣/ ٢٩، برقم:٢٥٧٤)، والترمذي في جامعه في أبواب الجهاد في باب ما جاء في الرهان والسبق: (٤/ ٢٠٥، برقم: ١٧٠٠).

(٢) الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (١٥/ ٥-١٩)، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ٢٧٧-٢٧٩)

(٣) الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (١٥/ ٢٢)، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ٢٧٩)

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في المحلل: (٣/ ٣٠، برقم: ٢٥٧٩)، وضعفه الحافظ ابن=

اختيار الشيخ السعدي:

واختار الشيخ -رحمه الله- جواز ذلك من غير محلل[1].

دليل الشيخ وتعليله:

١- أنَّ حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- السابق: «لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر» ليس فيه اشتراط المحلل، ولو كان المحلل شرطا لذكره لشدة الحاجة إليه.

٢- المسابقات الجارية في وقت الخلفاء الراشدين -على كثرتها واعتناء المسلمين بها- لم يثبت اشتراطهم فيها للمحلل.

وتعقب الأصحاب في استدلالهم بحديث: (من أدخل فرسا...) بأنه حديث ضعيف ولا يصلح أن يعارض الأحاديث الصحيحة، كما ردَّ على الأصحاب في كونه يلزم منه القمار، بأنَّ الشارع صرَّح باستثناء هذا النوع، وهو أخذ العوض في مسابقة الخيل والإبل والسهام لعظم مصلحته وإعانته على تعلم الرماية، والركوبِ المعين على الجهاد الذي هو أكبر العبادات وأنفع الطاعات، فهو وإن كان فيه مفسدة يسيرة من جهة القمار، فمصلحته تربو على مضرته بأضعاف مضاعفة، وهذا شأن الأحكام الشرعية: أنَّ ما كان مصلحته ترجح على مضرته، فإن الشارع يبيحه

= حجر في بلوغ المرام: (ص:٤٩٢ ، برقم:١٣١٧) ، وضعفه الألباني في إرواء الغليل: (٥/ ٣٤٠ ، برقم: ١٥٠٩)، وانظر أدلة المذهب في الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة المقدسي: (١٥/ ٢٢) ، دقائق أولي النهى للبهوتي: (٢/ ٢٧٩)

(١) المناظرات الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٢٤٨) ، الإرشاد في معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٥١٨)

ويأمر به، وأيضا فإن المحلل لا يخرج المسألة عن المحذور فلا يزال كل واحد منهما إما يغنم أو يغرم فلا فائدة من المحلل[1].

ما يتميز به منهج الشيخ في الفقه:

أولا: عناية الشيخ بالأحاديث وما تدل عليه، وتقديمه ما صح منها على الضعيف، ودرايته بالأحاديث الضعيفة التي لا تصلح للاحتجاج.

ثانيا: أنه يعضد قوله بما عليه العمل في عهد الخلفاء، فإنهم يحكون المذاهب والأقوال عرفهم.

ثالثا: إدراكه لمقاصد الشرع في تحليل ما رجَحت مصلحتُه على مفسدته، كما هو الحال في أخذ السابق للعوض من الآخر في مسابقة الخيل والإبل والسهام، لأنها تحقق مصالح القوة للمسلمين، وهي تربو على مفسدة الغرم الذي لحق الخاسر.

رابعا: دقة النظر في النقد، حيث إنَّ دخول المحلل لا يجعل المتسابقين سالمين من احتمال الغنم أو الغرم، فعلة القمار باقية لم تزل.

واختيار الشيخ هو اختيار لشيخ الإسلام ابن تيمية، نقله عنه صاحب الإنصاف[2].

وبهذا انتهى ما قصدت جمعه من المسائل، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر أدلة الشيخ في المرجع السابق

(٢) الإنصاف للمرداوي: (١٥/ ٢١)

الخاتمـــــة

أحمد الله سبحانه وتعالى على إتمام هذا البحث، وأسأله -سبحانه- كما يسره أن يبارك فيه، ويجعله ذخرا لي عند لقائه إنه جواد كريم، وبعد تعمق في اختيارات سماحة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي وتعليلاته اتضح لي أبرز ما يتميز به منهجه الفقهي، الذي يظهر لكل فقيه قرأ في مؤلفاته المباركة المحررة، وقد أجملت منهجه، ورتبته في أربعة أبواب:

الباب الأول: في أصوله التي يبني عليها اختياراته:

١- اعتماده على الدليل من الكتاب والسنة.

٢- تقديم الأحاديث الصحيحة، ورد الأحاديث الضعيفة.

٣- الأخذ بعمومات الأدلة، والعمل بها، مع كونها أعم من مسألة الباب، وهذا يدل على فقه تكامل الشريعة، وربط أدلة الآداب بالأحكام.

٤- العمل بالقياس، استدلالا به، واستنباطا له.

٥- العمل بالقواعد الفقهية.

٦- اعتبار مقتضيات العقود وحِكَمِها.

٧- اعتبار مقاصد الشرع.

٨- سلامته من التقليد.

٩- تقوية اختياره بالعرف.

الباب الثاني: في تحقيقه للمسائل، ودقة فقهه:

١- اعتباره زمن إبرام العقد محلا للحكم الشرعي، دون ما سيؤول إليه، فلا بد من

توافر شروط الصحة عند إبرامه.

٢- إدراجه للمسائل المتشابهة تحت باب واحد بحكم عام على جميع أفرادها.

٣- تمييز الصور التي تندرج في النص عن غيرها.

٤- تفريقه بين أبواب الفقه العامة، والتي تتضمن فروعا فقهية منتظمة على نسق واحد، فعقود الإرفاق في الجملة تختلف عن عقود المعاوضات، ويستند على هذا التفريق في اختيار القول المناسب لمسألة الباب.

٥- اعتباره لرضى صاحب الحق في العقود التي تكون مصلحتها من طرفه فقط، فتصح إذا أسقط حقه.

٦- اعتبار حاجة الناس وواقعهم العرفي في اختيار الحكم الذي شرعه الشارع أصلا لمصلحتهم مالم يتضمن محذورا من وجه آخر.

٧- تنزيل المسائل على الواقع قبل اختيار قول فيها، ثم تأملها وتصورها ليتضح الحكم.

الباب الثالث: في رده على المخالفين ومناقشتهم:

١- فحصه وتأمله لعلة المخالف التي بنى عليها الحكم:

فإن كانت علة صحيحة تقتضي الحكم، لزم تحققُّها في صورة المسألة، كما في تعليل الأصحاب لتحريم بيع المصحف بأنه امتهان له، فسلَّم أنَّ الامتهان حرام مطلقا، ولم يسلم بأنَّ مجرد بيعه امتهان.

وإن كانت غير صحيحة بيَّن وجه بطلانها، كما في تعليل الأصحاب بأنَّ النقدين هما قيم الأموال، وأثمان المبيعات، فلا يصح غيرهما رأسَ مال في شركة العنان والمضاربة، فبيَّن أنَّ العلة يجب اطرادها، وليس الواقع كذلك، فقد يكون العرض قيمة وثمنا.

٢- إبطاله لقول المخالف لعدم اطراد قاعدته التي بنى عليها الحكم في سائر الصور المشابهة للمسألة محل الخلاف، أو الأولى منها بالعلة، كما في اختياره صحة البيع مع استثناء معلوم غير مشاع من مبيع مجهول.

٣- توضيحه لضعف علة المخالف التي افترضها لتحقيق مصلحة الحكم، بأن المصلحة متحققة في اختياره الذي ذهب إليه، كما في اختياره لوجوب ردِّ المثل مطلقا في القرض.

٤- توجيه القواعد الفقهية التي اعتمد عليها المخالف التوجيه الصحيح، من ظاهر لفظها إلى حقيقة معناها، كما في قاعدة (المشغول لا يُشغل).

٥- إبطال القول بما يترتب عليه من محاذير، كما ذكره في الميت الذي عليه دين مؤجل.

٦- إبطاله لشرط المخالف إذا كان شرطه لا يحقق الغرض المقصود من اشتراطه، كما في اشتراط الأصحاب للمحلل ليسلم المتسابقان من القمار، والواقع أنهما لا يسلمان.

الباب الرابع: في صفاته الفقهية:

١- خبرته بالمذهب الحنبلي، أقواله، وعللها، وأصحابه، وكتبه.

٢- إعذاره للعلماء في اختلافهم.

٣- سهولة العبارة ووضوحها.

٤- قوة الحجة، واليقين بما يختاره.

٥- تأثره بالعلماء المحققين خصوصا شيخ الإسلام بن تيمية، وتلميذه ابن القيم.

٦- توضيح ما ينبني على قوله المختار من غموض.

التوصيات:

كما تبين لي أثناء البحث في علم الشيخ السعدي مسيسُ الحاجة إلى بعض الأمور، والتي أوصي طلاب العلم عموما، والمعتنين بفقه الشيخ خصوصا ببحثها وإظهارها:

الأولى: وهي من أهم التوصيات- فأقول: الشيخ السعدي -رحمه الله- له تحقيق وتدقيق في مسائل الفقه على المذهب الحنبلي، وله اختيارات مبنية على نصوص الشرع، وقواعده ومقاصده، فيلزمنا في هذا العصر إبراز فقهه، واختياراته، وتعليلاته، ومناقشاته، وهي كثيرة جدا، وفي تقديري -والله أعلم- أنها لو وُضعت كحاشية على كتاب الروض المربع فسوف تكون مرجعا مهما جدا للفقهاء المعاصرين ومن بعدهم، لا سيما وأن كتابه الاختيارات الفقهية هو استدراكات على الروض المربع، وهذه التوصية بالخصوص يظهر لي -والله أعلم- أنها رغبة عند الشيخ -عليه رحمة الله-، حيث يقول في مقدمة الاختيارات الجلية: «فإنه قد تكرر السؤال من بعض الأصحاب على وضع كتاب في فقه أصحابنا من الحنابلة على وجه يتضح به ما نختاره ونصححه من المسائل الفقهية، ونشير إلى شيء من مآخذها وأدلتها فلم تمكني فرصة لأداء هذا المطلب...»[1] ولذلك ألف كتابه المختارات الجلية، ولا يزال هذا الكتاب قليلَ الشهرة لعدم طباعته كحاشية على الروض المربع.

الثانية: بحث اختيارات الشيخ السعدي وعلاقتها بالقواعد الفقهية وأصول الفقه.

الثالثة: بحث اختيارات الشيخ السعدي وعلاقتها بمقاصد الشريعة.

(١) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، مجلدات الفقه: (٢/ ٨٧)

وأخير أسأل الله تعالى أنْ يغفر للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وأن يجزيه خير الجزاء على ما قدمه من خدمة للعلم عموما، وللفقه خصوصا، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

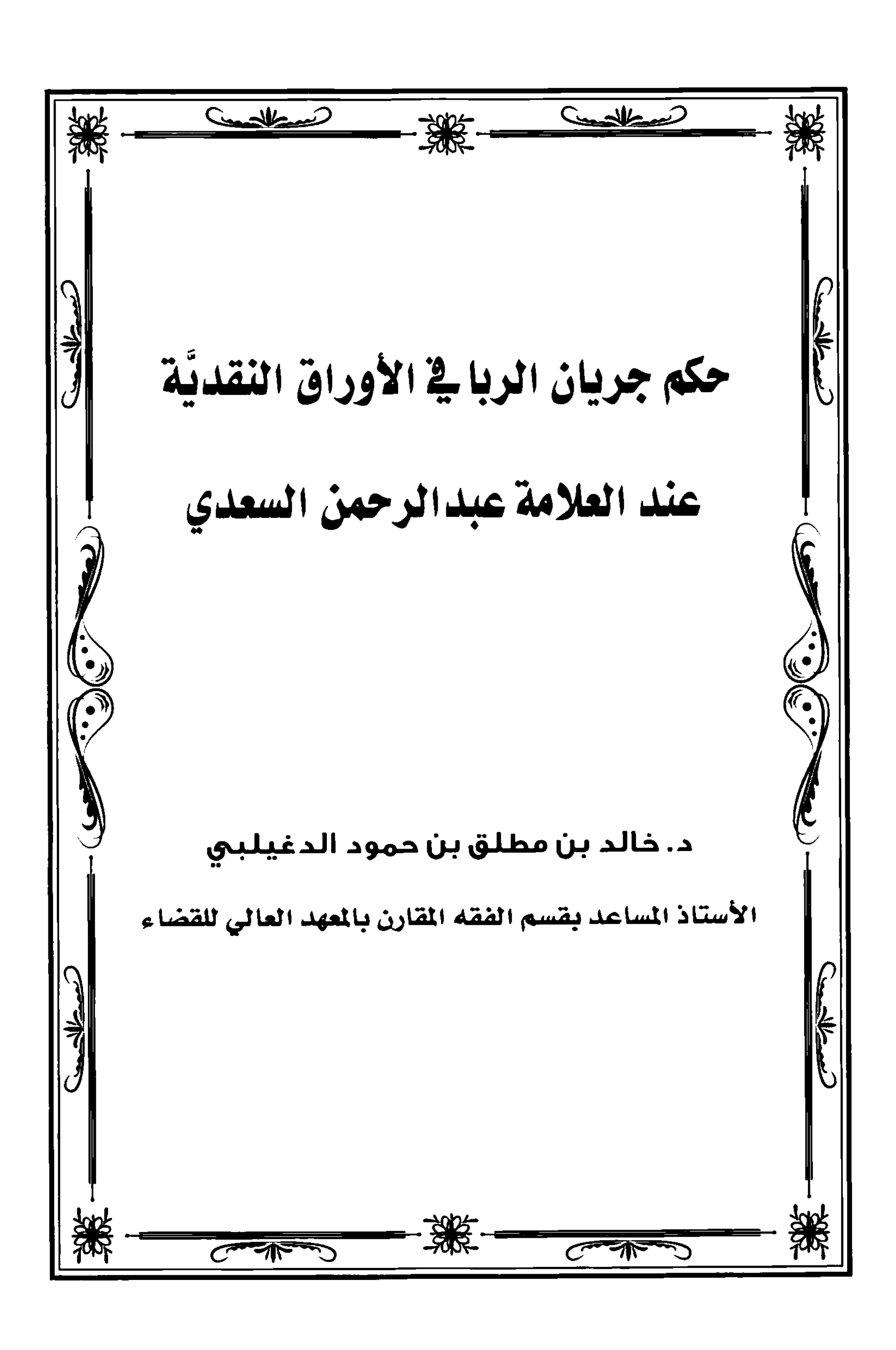
قائمة المراجع والمصادر

- الإرشاد إلى معرفة الأحكام ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٠م، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، السعودية.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، الألباني، محمد ناصر الدين، ط٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، المكتب الإسلامي، بيروت
- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (المطبوع مع المقنع والشرح الكبير)، المرداوي، علاء الدين علي بن سليمان، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، هجر للطباعة، مصر
- تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، دار الرشيد، سوريا.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، أبو الحجاج المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- تهذيب اللغة، الأزهري، محمد بن أحمد، ط١، ٢٠٠١م، دار إحياء التراث، بيروت
- حاشية الروض المربع، ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد، ط١، ١٣٩٧هـ، (د.ن)، (د.م)
- دقائق أولي النهى لشرح المنتهى، البهوتي، منصور بن يونس، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، عالم الكتب، (د.م)
- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، (د.ط)، (د.ت)، المكتبة العصرية، بيروت
- سنن الترمذي، جامع الترمذي، الترمذي، محمد بن عيسى، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر
- سنن الدارقطني، الدارقطني، علي بن عمر، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، مؤسسة

الرسالة، بيروت

- شرح الزركشي على مختصر الخرقي، الزركشي، محمد بن عبدالله، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار العبيكان، السعودية
- الشرح الكبير على المقنع (المطبوع مع المقنع والإنصاف)، المقدسي، شمس الدين عبد الرحمن بن أحمد بن قدامة، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، هجر للطباعة، مصر
- صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل، ط١، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة، (د.م)
- صحيح مسلم، مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج، (د.ط)، (د.ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- العدة شرح العمدة، المقدسي، بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم، (د.ط)، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، دار الحديث، القاهرة
- الفتاوى السعدية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٠م، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، السعودية
- الفروع (المطبوع مع تصحيح الفروع)، ابن مفلح، محمد بن مفلح، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، مؤسسة الرسالة، (د.م)
- الفروسية، ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، دار الأندلس، السعودية
- كشاف القناع عن متن الإقناع، البهوتي، منصور بن يونس،(د.ط)، (د.ت)، دار الكتب العلمية، (د.م)
- الكافي في فقه الإمام أحمد، المقدسي، موفق الدين عبدالله بن أحمد، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، (د.م)
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، عبدالله بن محمد، ط١، (د.ت)، مكتبة الرشد، ط١، الرياض

- المبدع في شرح المقنع، ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت
- المحرر في الفقه، ابن تيمية، عبد السلام بن عبدالله، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، مكتبة المعارف، الرياض
- المختارات الجلية من المسائل الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٠م، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، السعودية
- مختصر استدراك الحافظ الذهبي على مستدرك الحاكم، ابن الملقن، عمر بن علي، ط١، ١٤١١هـ، دار العاصمة، السعودية
- المغني شرح مختصر الخرقي، المقدسي، موفق الدين عبدالله بن أحمد، (د.ط)، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، مكتبة القاهرة، مصر
- الممتع في شرح المقنع، ابن المنجى، زين الدين المنجَّى بن عثمان، ط٣، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة
- المناظرات الفقهية ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٠م، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، السعودية
- المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي، محمد بن عبدالله، ط٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، وزارة الأوقاف الكويتية
- منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٠م، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، السعودية
- نصب الراية لأحاديث الهداية (مع حاشيته بغية الألمعي)، الزيلعي، عبدالله بن يوسف، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، مؤسسة الريان، بيروت



حكم جريان الربا في الأوراق النقديَّة عند العلامة عبدالرحمن السعدي

د. خالد بن مطلق بن حمود الدغيلبي

الأستاذ المساعد بقسم الفقه المقارن بالمعهد العالي للقضاء

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإنَّ الشيخ العلامة المجتهد عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ، ممن كان له الأثر البالغ في الحياة العلمية في العالم الإسلامي، ولازال علمه موردًا عذبًا للواردين، ومنهلاً رويًّا للراغبين، ولقد أقبل شُداة العلم وطلابه على مؤلفاته، لما تميزت به من سلاسة العبارة، وحُسن البيان، وجودة التصنيف، وتنوع الفنون؛ فتارة يُفسر كتاب الله تعالى(١)، وتارة يؤلف شرحًا في السنة النبوية(٢)، وأخرى يضع كتابًا على هيئة سؤالٍ وجواب(٣)، وتارةً في صورة مناظرة(٤)، أو على هيئة النظم والشرح(٥)، وهكذا يتفنن في إيضاح العلم وتيسيره على الناس، وقد كان له عناية فائقة بالمسائل المستجدة والنوازل الحادثة في زمنه.(٦)

---

(١) كما في كتاب: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وكتاب تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن.

(٢) كما في كتاب: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.

(٣) مثل كتاب: سؤال وجواب في أهم المهمات في العقيدة، وكتاب إرشاد أولي البصائر والألباب لنيل الفقه بأقرب الطرق والأسباب.

(٤) مثل كتاب: المناظرات الفقهية.

(٥) مثل كتاب: منظومة القواعد الفقهية وشرحها.

(٦) كُتب في آراء الشيخ عبد الرحمن السعدي في المسائل المستجدة عدة رسائل؛ منها: اختيارات الشيخ عبد الرحمن السعدي في المسائل الفقهية المستجدة لعبد الرحمن بن خالد السعدي، وهو

وقد أحببت أن يكون لي مشاركة في خدمة علم هذا الجهبذ العَلَم، وقد وقع اختياري لدراسة وبيان رأي الشيخ عبد الرحمن السعدي في مسألة الأوراق النقدية وجريان الربا فيها، وذلك لما يلي:

١- أنَّ الشيخ ابن سعدي له عناية بهذه المسألة، فقد ذكرها في عدة مواضع من كتبه ومراسلاته، كما عقد مناظرةً علميةً افتراضية بين ثلاثة من الأقوال في هذه المسألة.

٢- أنَّه قد نُقل عن الشيخ ابن سعدي عدة آراء في ماهية الأوراق النقدية، مما يستوجب بيان الرأي الصحيح للشيخ في هذه المسألة.

٣- أنَّ بعض من يقول بجواز الربا الواقع في بعض المصارف اليوم يحتج بأن الشيخ ابن سعدي يُجيز ذلك.

وقد استعنت بالله تعالى وجمعت كلام الشيخ السعدي في هذه المسألة من كتبه ومراسلاته، وأيضًا ما نقله عنه تلاميذه؛ فإنهم أكثر الناس فهمًا لكلامه، وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس، على النحو التالي:

المقدمة: وتحتوى على الاستهلال وأسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث، ومنهج البحث.

التمهيد: ويحتوى على أربعة مطالب:

المطلب الأول: ترجمة مختصرة للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

بحث تكميلي للماجستير في المعهد العالي للقضاء، واختيارات الشيخ عبد الرحمن السعدي في قضايا فقهية معاصرة لمها بنت عبد الله السياري، وهي رسالة ماجستير في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وأما منهج البحث: فقد اعتمدت في ذلك على المنهج العلمي المعتمد في الدراسات والبحوث الأكاديمية، ومن ذلك:

١ - كتابة البحث وفق قواعد البحث العلمي، والإملاء الحديثة.

٢- جمع المادة العلمية وتوثيق النقول من مصادرها الأصلية.

٣- أترجم للأعلام الوارد ذكرهم في البحث باختصار ما عدا كبار الصحابة، والأئمة الأربعة إن وجد.

٤ - أختصرت في البحث قدر الإمكان، محاولاً التركيز وتجنب الاستطراد.

هذا وأسأل الله تعالى الإعانة والسداد، والصدق والإخلاص في القول والعمل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد: وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: ترجمة مختصرة للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي[1]:

هـو الشـيخ العلامة المفسِّـر الفقيه أبو عبـد الله عبد الرحمن بـن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سـعدي الناصري التميمي الحنبلي، وُلد في مدينة عُنيزة في الثاني عشر من شهر محرم سنة سبعٍ وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، توفي والداه وهو صغير، فكفلته زوجة والده، ثم انتقل إلى منزل أخيه الأكبر (حمد)، فنشأ نشأةً صالحةً، فحفظ القرآن قبل البلوغ، ثم اشتغل بطلب العلم، فحفظ عددًا من الكتب، كما قرأ على علماء بلده، ومن أبرزهم: الشيخ العلامة صالح بن عثمان القاضي[2]، والشـيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع[3]، والشـيخ المحدِّث علي بن ناصر

---

(١) مصادر ترجمته:

- الأعلام للزركلي ٣/ ٣٤٠.
- مشاهير علماء نجد وغيرهم لآل الشيخ ص ٢٥٦.
- علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام ٣/ ٢١٨.
- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ١/ ٢٢٠.
- الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير ٢/ ١٢٠٧.
- مقدمة مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبعة دار الميمان.

(٢) هـو الشـيخ العلامـة صالـح بن عثمـان بن حمد بـن إبراهيم بـن عبـد الرحمن القاضـي التميمي، قاضـي عنيزة وعالمها في زمانه، له من المؤلفات: حاشـية على دليل الطالب، وحاشـية على رياض الصالحين، ومجموعة خطب. توفي في عنيزة سنة (١٣٥١هـ). انظر: مشاهير علماء نجد ص ٢٢١.

(٣) هـو الشـيخ العلامـة محمد بن عبد العزيز بن محمد بـن عبد الله الوهيبي التميمـي، عالمٌ فقيه، ولد

بن وادي[1]، وغيرهم.

وقد كان -رحمه الله- حاد الذكاء، سريع البديهة، جيد الفهم، مما ساعده - بعد توفيق الله - على الجلوس للتدريس في سن الثالثة والعشرين، فكان يتعلّم ويُعلّم في نفس الوقت حتى صار من أبرز علماء زمنه في القصيم، وسار ذكره في الآفاق، وانكبَّ عليه الطلاب ينهلون من علومه ومعارفه، ومن أبرز تلاميذه الآخذين عنه: الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين[2]، وهو الذي خلفه في التدريس وإمامة الجامع الكبير في عنيزة، والشيخ العلامة عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل[3]، والشيخ

ونشأ في عنيزة، ورحل وجدَّ في طلب العلم، من مؤلفاته: مختصر عنوان المجد في تاريخ نجد، وسبل الهدى في شرح شواهد شرح قطر الندى، وإرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب، وغيرها. توفي في بيروت سنة (١٣٨٥هـ). انظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢٠٩.

(١) هو الشيخ المحدث علي بن ناصر أبو وادي النجدي الحنبلي، ولد في بريدة ونشأ بها، وسافر إلى الهند لطلب العلم، ثم رجع إلى عنيزة وأم الناس بها ستين سنة إلى أن توفي فيها سنة (١٣٦٠هـ). انظر: تسهيل السابلة ٣/ ١٨١٦.

(٢) هو الشيخ العلامة الفقيه محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عثيمين التميمي، عضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية، ولد ونشأ في عنيزة، تولى الإمامة في الجامع الكبير بعد وفاة شيخه ابن سعدي، ومن كتبه: الشرح الممتع على زاد المستقنع، والقول المفيد على كتاب التوحيد، وتسهيل الفرائض، وغيرها كثير. توفي في جدة، وصُلي عليه في المسجد الحرام بمكة المكرمة ودُفن بها سنة (١٤٢١هـ). انظر: الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين لوليد الحسين، لقاءات الباب المفتوح ١/ ٩.

(٣) هو الشيخ العلامة القاضي عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل بن عبدالله آل عقيل، ولد في عنيزة ونشأ بها في بيت علم، ولازم الشيخ ابن سعدي حتى توفي، وكان من خاصة طلابه، ولي القضاء في عدد من مدن المملكة العربية السعودية، من مؤلفاته: تحفة القافلة، وإحياء التراث، كشكول ابن عقيل، وغيرها. توفي بالرياض سنة (١٤٣٢هـ). انظر: مجموعة الشيخ العلامة عبدالله بن عقيل العلمية ١/ ٣٧.

العلامة عبد الله بن عبدالرحمن البسام[1] ، والشيخ العلامة محمد بن سليمان البسام[2]، وغيرهم كثير.

ومع اشتغاله بالإمامة والتعليم إلا أنّه كان له عناية بالغة بالتأليف والتصنيف، وقد جاوزت مصنفاته أكثر من خمسين مصنفًا ما بين كتبٍ، ورسائل، وشروحٍ للمتون العلمية، تميزت بسلاسة الأسلوب، وجودة التصنيف، وسهولة العبارة، مع تنوعها في فنون العلم بين عقيدةٍ، وتفسيرٍ، وفقهٍ، وحديثٍ، وآدابٍ، ونحوٍ، وغيرها، ومن أبرزها:

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، والتنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة، والقول السديد في مقاصد التوحيد، والمختارات الجلية من المسائل الفقهية، ومنهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين، والقواعد الفقهية (المنظومة وشرحها)، والإرشاد إلى معرفة الأحكام، وبهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، وغيرها.[3]

---

(١) هو الشيخ العلامة القاضي عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح آل بسام التميمي، لازم ابن سعدي في بداية حياته العلمية، ثم انتقل إلى مكة وأخذ عن علمائها، من مؤلفاته: توضيح الأحكام شرح بلوغ المرام، وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون، وغيرها. توفي في مكة المكرمة سنة (١٤٢٣هـ). انظر: تيسير العلام ١/ ١١.

(٢) هو الشيخ الفقيه محمد بن سليمان بن عبدالعزيز بن محمد آل بسام التميمي، ولد في عنيزة ونشأ بها، وعمل مدرسًا في المعهد العلمي بها، ثم انتقل إلى مكة ودرَّس بالمسجد الحرام فترة طويلة. توفي في مكة المكرمة سنة (١٤٣١هـ). انظر: الحنابلة خلال ثلاثة عشر قرنًا ١٢/ ٣٦٥.

(٣) وقد طُبعت مؤلفاته كاملةً في ستةٍ وعشرين مجلدًا، بإشراف أبنائه عام ١٤٣٢هـ، بدار الميمان للنشر والتوزيع بالرياض.

توفي -رحمه الله- قبيل فجر الخميس الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام ستة وسبعين وثلاثمائة وألف في عنيزة عن تسعٍ وستين سنةً رحمه الله تعالى، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المطلب الثاني: تعريف الربا لغةً واصطلاحًا:

أولاً: الربا لغةً:

الزيادة والنَّماء والعلو، قال ابن فارس[1]: (الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه يدل على أصلٍ واحدٍ؛ وهو الزيادة والنَّماء والعلو. تقول من ذلك: ربا الشيء يربو، إذا زاد، وربا الرابية يربوها، إذا علاها)[2] وفي المصباح المنير[3]: (الربا: الفضل والزيادة وهو مقصور على الأشهر).

ثانيًا: الربا اصطلاحًا:

ذكر الفقهاء رحمهم الله للربا تعريفاتٍ مختلفةٍ تبعًا للاختلاف في تحديد مفهومه[4]، فقد عرَّفه الحنفية: بأنَّه الفضل الخالي عن العوض المشروط في البيع.[5]

---

(١) هو العلامة اللغوي أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي المالكي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب، من مصنفاته: مقاييس اللغة، والمجمل في اللغة، وغيرها، توفي سنة (٣٩٥هـ). انظر: وفيات الأعيان ١/ ١١٨، سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٠٣.

(٢) مقاييس اللغة ٢/ ٤٨٤ مادة (ربى).

(٣) ص ٢١٢.

(٤) انظر: الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية لعمر المترك ص ٣٩ وما بعدها.

(٥) انظر: المبسوط للسرخسي ١٢/ ١٠٩، أنيس الفقهاء ص ٧٧.

وعرَّفه المالكية: بأنّه الزيادة في البيع التي لا تبيحها الشريعة من زيادة في المال الذي لا يجوز فيه التفاضل أو زيادة تقع فيه بالتأخير أو زيادة تقع في السلف وشبهه.[1]

وعرَّفه الشافعية: بأنّه عقدٌ على عوضٍ مخصوصٍ غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما.[2]

وعرَّفه الحنابلة: بأنه تفاضلٌ في أشياء ونساء في أشياء ومختص بأشياء ورد الشرع بتحريمها.[3]

ويمكن استخلاص تعريفٍ جامعٍ لأنواع الربا من خلال ما تقدم من التعاريف، فيقال: إنَّ الربا هو الزيادة في أشياء خاصة والزيادة على الدين مقابل الأجل مطلقًا.[4]

وينبغي التنبيه إلى أنَّ بعض العلماء جعل اسم الربا يُطلق على كل بيعٍ فاسدٍ، أو محرَّمٍ شرعًا، قال ابن نجيم الحنفي[5]: (وعلى هذا سائر أنواع البيوع الفاسدة من قبيل الربا)[6]، وقال ابن العربي المالكي[7]: (إنَّ الله أحلَّ البيع مطلقًا، وحرَّم

---

(١) انظر: مشارق الأنوار للقاضي عياض ١/ ٢٨٠، بداية المجتهد ٣/ ١٤٨.

(٢) انظر: تحفة المحتاج ٤/ ٢٧٢، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٢/ ٢٧٨.

(٣) انظر: الإقناع ٢/ ١١٤، منتهى الإرادات ٢/ ٣٤٧.

(٤) انظر: الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية ص ٤٣.

(٥) هو العلامة زين الدين بن إبراهيم بن محمد ابن نجيم المصري الحنفي، فقيه أصولي، اشتهر بجودة التصنيف، منها: الأشباه والنظائر، البحر الرائق، والرسائل والفتاوى الزينية. توفي سنة (٩٧٠هـ). انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٦٤.

(٦) البحر الرائق ٦/ ١٣٥.

(٧) هو الحافظ أبو بكر محمد بن عبدالله بن أحمد المعافري الأشبيلي المالكي، المعروف بابن العربي، عالمٌ متفنن، له تصانيف مشهورة؛ منها: أحكام القرآن، والمحصول في أصول الفقه، وعارضة

الربا، وهو كل بيعٍ فاسدٍ لا يجوز بأي وجه دخل فيه الفساد)[1]، وقال ابن حجر الشافعي[2]: (ويطلق الربا على كل بيع محرم)[3]، وقال ابن رجب الحنبلي[4]: (الربا الذي حرمه الله يشمل جميع أكل المال مما حرمه الله من المعاوضات، كما قال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة:٢٧٥]، فما كان بيعًا فهو حلال، وما لم يكن بيعًا فهو ربا حرام؛ أي: هو زيادة على البيع الذي أحله الله، فدخل في تحريم الربا جميع أكل المال بالمعاوضات الباطلة المحرمة)[5]، وقد استدلوا على ذلك بآثارٍ عن السلف رحمهم الله تعالى.[6] والله أعلم.

الأحوذي في شرح الترمذي، توفي سنة (٥٤٣هـ). انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٦، تاريخ الإسلام ١١/ ٨٣٤.

(١) عارضة الأحوذي ٥/ ٢٣٧.

(٢) هو العلامة الحافظ المحدِّث أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني المصري الشافعي، شهاب الدين المعروف بابن حجر؛ وهو لقب لبعض آبائه، من علماء الإسلام الكبار، وصاحب التصانيف الكثيرة النافعة، ومنها: فتح الباري شرح صحيح البخاري، وتقريب التهذيب، وبلوغ المرام، والإصابة في تمييز الصحابة، وغيرها كثير. توفي سنة (٨٥٢هـ) انظر: الضوء اللامع للسخاوي ٢/ ٣٦، البدر الطالع للشوكاني ١/ ٨٧.

(٣) فتح الباري لابن حجر ٤/ ٣١٣.

(٤) انظر: هو العلامة الحافظ المحدِّث أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي، زين الدين، له مؤلفات نافعة جدًا؛ منها: فتح الباري شرح البخاري ولم يُتمه، وتقرير القواعد وتحرير الفوائد، وذيل طبقات الحنابلة، ولطائف المعارف، وجامع العلوم والحكم، وغيرها. توفي سنة (٧٩٥هـ). انظر: الدرر الكامنة ٣/ ١٠٨، الجوهر المنضد ص ٤٦.

(٥) فتح الباري لابن رجب ٣/ ٣٥٦.

(٦) انظر: فتح الباري لابن رجب ٣/ ٣٥٦، الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية ص ٤٤.

المطلب الثالث: تعريف النقود لغة واصطلاحًا:

أولاً: النقود لغةً:

النقود لغةً جمع نقدٍ، والنقد يرجع معناه في اللغة إلى إظهار الشيء وبروزه،[1] كما يُطلق على خلاف النسيئة، وتمييز الدراهم بعضها من بعض.[2]

ثانيًا: النقود اصطلاحًا:

الفقهاء رحمهم الله يُطلقون كلمة (النقود)، ويريدون بها عدة إطلاقات:

الإطلاق الأول: يُطلقون كلمة (النقود) يريدون بها الذهب والفضة مطلقًا؛ أي سواءً كانا مسكوكين أم غير مسكوكين.[3]

والإطلاق الثاني: يريدون به المضروب من الذهب والفضة كالدراهم والدنانير.[4]

والإطلاق الثالث: إطلاق كلمة (النقود) على جميع ما تتعامل به الشعوب من ذهب، فضة، وما يقوم مقامهما في المعاملات والمبادلات.[5]

---

(١) انظر: الصحاح للجوهري ٢/ ٥٤٤، مقاييس اللغة ٥/ ٤٦٧.

(٢) انظر: القاموس المحيط ص ٣٢٢.

(٣) انظر: تبيين الحقائق ١/ ٢٨٨، ، تحفة المحتاج ٤/ ٢٧٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٣/ ٢٨ ، الروض المربع ص٢٠٧.

(٤) انظر: الشرح الكبير للدردير ٣/ ٢٨، تحرير ألفاظ التنبيه ص ١١٤، المطلع ص ٣١٨، القاموس الفقهي ص ٣٥٨.

(٥) انظر: المعاملات المالية المعاصرة لمحمد شبير ص١٤٨، التضخم النقدي للمصلح ص٤٨، إصدار النقود في الاقتصاد الإسلامي والوضعي ص ٣٧، المعاملات المالية المعاصرة للزحيلي ص ١٤٧.

وعلى هذا الإطلاق الأخير سار الفقهاء المعاصرون، فذكروا تعريفاتٍ عدةً للنقود، وهي في حقيقتها راجعة إلى هذا الإطلاق، فمن ذلك قولهم: النقود (هي كل شيء يكون مقبولاً قبولاً عامًا كوسيط للتبادل ومقياس للقيمة).[1]

المطلب الرابع: تعريف الأوراق النقدية:

الأوراق النقدية لم تكن معروفةً عن الفقهاء المتقدمين؛ بل قد تأخر ظهورها إلى القرن السابع عشر أو الثامن عشر الميلادي، وقد اختلف العلماء في تعريفها بحسب تصورهم لها، أو بحسب الأطوار التي مرت بها الأوراق النقدية، ولذا يقول الشيخ عطية سالم[2]: (من المعلوم أن التعامل بالورق بدلاً عن الذهب والفضة أمرٌ قد حدث بعد عصور الأئمة الأربعة، وعصور تدوين الفقه الإسلامي، وما انتشرت إلا في القرن الثامن عشر ميلاديًّا، ولهذا لم يكن لأحد الأئمة رحمهم الله رأي فيها، ومنذ أن وجدت وعلماء المسلمين مختلفون في تقييمها، وفي تحقيق ماهيتها، ما بين كونها سندات عن ذهب أو فضة، أو عروض تجارة، أو نقدٍ بذاتها).[3]

وقد قيل في تعريفها: إنَّ الأوراق النقدية (هي قطع من ورق خاص، تزين بنقوش خاصة، وتحمل أعدادًا صحيحة، يقابلها في العادة رصيد معدني بنسبة

(١) انظر: الورق النقدي لابن منيع ص ٢٠، المعاملات المالية المعاصرة لمحمد شبير ص ١٤٨، قاعدة المثلي والقيمي في الفقه الإسلامي ص ١٤٧.

(٢) هو العلامة القاضي الشيخ عطية محمد سالم وُلد ونشأ في مصر، ثم انتقل إلى المدينة النبوية ودرس على علمائها، ولازم العلامة محمد الأمين الشنقيطي، وكان من أخص تلاميذة، وكان له دروس في المسجد النبوي حتى وفاته، ومن مؤلفاته: تتمة أضواء البيان، والرسائل المدنية، وغيرها، وقد طبعت مجموع مؤلفاته في ثمان مجلدات. توفي بالمدينة النبوية ودُفن بها سنة (١٤٢٠هـ). انظر: علماء ومفكرون عرفتهم للمجذوب ٢/ ٢٠٢.

(٣) تتمة أضواء البيان ٨/ ٢٩٢.

خاصة يحددها القانون، وتصدر إما من الحكومة أو من هيئة تبيح لها الحكومة إصدارها ليتداولها الناس عملةً). [1]

وقيل: (هي التي يتم التبادل بها بدلاً عن الذهب والفضة، وتعد بمثابة حوالة مصرفية على المصرف المركزي للدولة بما يعادلها ذهباً من الرصيد الذهبي المخزون الذي يغطي العملة المتداولة). [2]

وقيل: (هي تعهد مصرفي بدفع مبلغ من النقود المعدنية عند الطلب). [3]

وقيل غير ذلك من التعريفات التي كان يُلاحظ فيها أن النقود الورقية تُعد حوالةً على المصرف المركزي، أو أنَّه يقابلها في العادة رصيد من الذهب أو الفضة، أو غير ذلك بحسب التكييفات أو الأطوار التي مرت بها النقود الورقية كما تقدم ذلك قريبًا، ولعل أفضل ما يُقال في تعريفها أن النقود الورقية: **(عبارة عن أوراق تُطرح للتداول، وتُستخدم في تبادل السلع والخدمات وسائر المعاملات).** [4]

---

(١) انظر: زكاة الأسهم والسندات والورق النقدي ص ٢٨.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته ٣/ ١٨٣٣.

(٣) انظر: الأوراق النقدية في الاقتصاد الإسلامي ص ١١٥، وانظر: أحكام الأوراق النقدية للجعيد ص ١٤٢.

(٤) انظر: التضخم النقدي ص ٥٢، المقدمة في فقه العصر ٢/ ٧٦٧.

المبحث الأول: نشأة الأوراق النقدية، والتكييف الفقهي لها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: نشأة الأوراق لنقدية:

تقدَّم أنَّ بعض الفقهاء يُطلق اسم (النقود) على المضروب من الذهب والفضة، أو ما يقوم مقامهما في المعاملات والمبادلات، وهذا الأمر معروفٌ منذ القِدم، فمن ذلك: قول الإمام مالك بن أنس: (لو أن الناس أجازوا بينهم الجلود حتى تكون لها سكة وعين لكرهتها أن تباع بالذهب والورق نظرة)[1]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: (وأما الدرهم والدينار فما يعرف له حد طبعي ولا شرعي، بل مرجعه إلى العادة والاصطلاح؛ وذلك لأنه في الأصل لا يتعلق المقصود به؛ بل الغرض أن يكون معيارا لما يتعاملون به، والدراهم والدنانير لا تقصد لنفسها، بل هي وسيلة إلى التعامل بها، ولهذا كانت أثمانا؛ بخلاف سائر الأموال فإن المقصود الانتفاع بها نفسها؛ فلهذا كانت مقدرة بالأمور الطبعية أو الشرعية، والوسيلة المحضة التي لا يتعلق بها غرض لا بمادتها ولا بصورتها يحصل بها المقصود كيفما كانت)[3]، وأما الأوراق النقدية التي بين أيدينا اليوم فلم تكن معروفةً لديهم، كما أنها لم تظهر طفرةً واحدةً، بل مرت بمراحل متعددة حتى وصلت

---

(١) انظر: المدونة ٣/ ٥.

(٢) هو شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحرَّاني الدمشقي الحنبلي، أحد أكابر علماء المسلمين، كان آيةً في العلم والمعرفة، متفننٌ في العلوم، شهد له بذلك المؤرخون، له مؤلفات نافعة محررة؛ فمن مؤلفاته: منهاج السنة النبوية، والجواب الصحيح، والصارم المسلول، والاستقامة، وغيرها. ابتُلي وسجن عدة مرات، وتوفي في السجن بدمشق سنة (٧٢٨هـ) انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي ٤/ ١٩٢، والجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٥١.

للشكل الذي استقرَّت عليه الآن[1]، وكان بداية ذلك في منتصف القرن السابع عشر الميلادي في إنجلترا، وذلك لانتشار عادة الاحتفاظ بالنقود المعدنية كودائع لدى بعض التجار أو الصيارفة، بسبب تعرّض الانتقال بالنقود المعدنية لكثير من المخاطر والسرقة والضياع، وكانت هذه الجهات تعطي صاحب الوديعة سندًا أو صكًا يبين فيه كمية النقود التي أودعت لديه، وكان هذا الصك اسميًا في أول الأمر، ثم لما حصلت الثقة بهذا السند أو الصك استقر هذا العمل على أن تقبل هذه السندات كوسيط للمبادلة، واكتسبت صفة النقود، ولم يعد يُكتب اسم صاحب السند عليه، وإنما يُكتب لحامله، وكانت تُسمى هذه الأوراق (البنكنوت)، ولما كانت هذه الأوراق لا تُعد نقودًا حقيقةً؛ وإنما مجرد أوراقٍ تنوب عن النقود الحقيقة المودعة في البنوك سُميت بالنقود الورقية النائبة[2].

ثم لما شاع قبول النقود الورقية النائبة، وثقة الناس بها دون الرجوع إلى صرفها واستبدالها بالنقود المعدنية، أغرى ذلك الجهات المصدرة لهذه الأوراق، فتوسعت في إصدار النقود الورقية دون أن تكون مغطاة تغطية كاملة، فصارت هذه النقود الورقية نقوداً بذاتها، وأدّى هذا التطور والتحول النوعي في إصدار النقود الورقية إلى تدخل الحكومات في إصدار النقود الورقية؛ لضبط ذلك وجني المكاسب الناتجة من إصدارها، ومن هنا أصبح إصدار هذه الأوراق النقدية من أعمال المصرف المركزي في الدول؛ بل إنَّ ذلك يُعدُّ من أهم وظائف البنوك المركزية وأعمالها، وصارت الأوراق النقدية تستمد قوتها وقبولها من القانون والإلزام الحكومي بها، ولهذا أُطلق عليها النقود الإلزامية أو القانونية.[3]

(١) انظر: الربا والمعاملات المصرفية لعمر المترك ص ٣١٩، إصدار النقود ص ٥٩.

(٢) انظر: النقود والمصارف لكمال شرف وهاشم أبو عراج ص ١٤.

(٣) انظر: النقود والمصارف لكمال شرف وهاشم أبو عراج ص ١٦، التضخم النقدي ص٥٣، إصدار النقود ص١٤٩.

ثم توسعت البنوك المركزية في إصدار النقود الإلزامية القانونية، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى مع تواصل الانخفاض في غطائها من الذهب شيئاً فشيئاً، فلما قامت الحرب العالمية الثانية وطالب الناس بما تمثله هذه الأوراق النقدية من رصيدٍ ذهبي لم تفِ جهات الإصدار بدفع ذلك، وأدى هذا إلى قيام الدول بوضع شروط صعبة أمام التحويل بغية عرقلته، بل بالغت بعض الحكومات ومنعت تحويل الأوراق النقدية إلى ذهب بتاتًا، كما فعلت ذلك الحكومة البريطانية عام ١٩٣١م، إلى أن كان آخر ذلك وقف الحكومة الأمريكية لالتزام تحويل الدولار إلى ذهب عام ١٩٧١م، وألزمت الدول الأفراد بقبول هذه الأوراق، فأصبحت تستمد قيمتها من القانون، وكذلك من ثقة الناس بها وقبولهم لها وسيطاً في التبادلات والتعاملات[١].

فأضحت بعد ذلك جميع النقود الورقية في الوقت الحاضر من قبيل النقود الورقية غير القابلة للتحويل إلى الذهب مطلقًا.

المطلب الثاني: التكييف الفقهي للأوراق النقدية:

تقدم أنَّ الأوراق النقدية لم تُعرف عند الفقهاء المتقدمين؛ وإنما ظهرت في الأزمان المتأخرة مما جعل العلماء يختلفون في تكييفها على أقوال متعددة بحسب تطورها، أو بحسب مداركهم ونظراتهم[٢]، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (الأوراق النقدية هذه تعرفون أنها حدثت أخيراً، وأنها لم تكن تُعرف فيما سبق، فاختلف العلماء في شأنها)[٣]، وقد قيل فيها أقوال متعددة أوصلها بعض أهل العلم

(١) انظر: المعاملات المالية المعاصرة لشبير ص ١٦٠، فقه الربا والصرف والقروض والنقود ص ٢٠٠، التضخم النقدي ص٥٤ ، إصدار النقود ص ١٥٢، النقود في الاقتصاد الإسلامي ص١٦.

(٢) انظر: الربا والمعاملات المصرفية ص ٣١٩.

(٣) انظر: لقاءات الباب المفتوح ٢/ ١٨٨.

إلى ثمانية أقوال[1]، وهي:

الأول: أن الأوراق النقدية نقد قائم بذاته كالذهب والفضة.

الثاني: أن الأوراق النقدية بدل عن الذهب والفضة.

الثالث: أن الأوراق النقدية نقد خاص.

الرابع: أن الأوراق النقدية كالفلوس.

الخامس: أن الأوراق النقدية من عروض التجارة.

السادس: أن الأوراق النقدية سند بدين.

السابع: أن الأوراق النقدية سند بدين خاص.

الثامن: أن الأوراق النقدية مستند ودائع.

واستيعاب أدلة هذه الأقوال، ومناقشتها، والرد على المناقشات مما يُطوِّل البحث ويُخرجه عن مقصوده، إلا أنَّه يُمكن تقسيم هذا الأقوال إلى قسمين[2]:

القسم الأول: التكييفات الفقهية التي زال موجب القول بها بعد تطور الأوراق النقدية، وهذه التكييفات هي:

أولاً: تكييف الأوراق النقدية بأنها سند بدين.

ثانياً: تكييف الأوراق النقدية بأنها سند بدين خاص.

---

(١) انظر: أحكام الأوراق النقدية للجعيد ص ١٤٤-١٩٦، الربا والمعاملات المصرفية ص ٣١٩، تيسير العلام ٢/ ٩٩، الورق النقدي لابن منيع ص ٤٥-٨١، المعاملات المالية المعاصرة لشبير ص١٦٣-١٦٧، التضخم النقدي ص٦٣، فقه المعاملات المالية المعاصرة للخثلان ص ٦٣، نوازل الزكاة للغفيلي ص١٥١، المعاملات المالية أصالة ومعاصرة للدبيان ١٢/ ٤٤، أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦١-٨٢.

(٢) انظر: التضخم النقدي ص ٧٢.

ثالثاً: تكييف الأوراق النقدية بأنها مستند ودائع.

رابعاً: تكييف الأوراق النقدية بأنها عروض تجارة.

خامساً: تكييف الأوراق النقدية بأنها بدل عن الذهب والفضة.

القسم الثاني: التكييفات الفقهية التي يمكن تخريج الأوراق النقدية عليها بعد ما جرى عليها من تطور، وهذه التكييفات هي:

أولاً: تكييف الأوراق النقدية بأنها نقد قائم بذاته كالذهب والفضة.

ثانياً: تكييف الأوراق النقدية بأنها نقد خاص.

ثالثاً: تكييف الأوراق النقدية بأنها كالفلوس.

وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن السعدي - رحمه الله - أربعة أقوالٍ منها في كتبه[1]، وهي:

القول الأول: أنَّ الأوراق النقدية سند بدين.

القول الثاني: أنَّ الأوراق النقدية كعروض التجارة.

القول الثالث: أنَّ الأوراق النقدية بدل عن الذهب والفضة.

القول الرابع: أنَّ الأوراق النقدية كالفلوس.

وبناءً عليه فإني سأكتفي - بإذن الله - بذكر أبرز أدلة هذه الأقوال الأربعة، وأضيف لها قولاً خامسًا، وهو القول بأنَّ الأوراق النقدية نقدٌ قائمٌ بذاته؛ وذلك لأنَّه قول أكثر العلماء المعاصرين، وبه صدرت قرارات أبرز المجامع الفقهية والهيئات الشرعية، فأقول مستعينًا بالله:

(١) انظر: الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥١، الأجوبة النافعة، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٥/ ٤٧، الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٥/ ٢٧٦، التعليقات على عمدة الأحكام ص ٤٣٧.

القول الأول: أنَّ الأوراق النقدية سند بدين، وهو قول جماعة من الفقهاء، واختاره ابن بدران الدمشقي[1]، ومحمد الأمين الشنقيطي[2] رحمهما الله، واستدلوا على هذا بأدلةٍ منها:

١- تعهد الجهة المصدرة لها، والمسجل على كل ورقة منها بدفع قيمتها لحاملها عند طلبه[3].

ونوقش: بأنَّ هذا تعهد صوري لا حقيقي، وإن كان حقيقيًا في بداية استعمالها[4].

٢- وجوب تغطيتها بالذهب والفضة مما يدل على أنهما المقصودان، والأوراق

---

(١) انظر: العقود الياقوتية ص ٢١١، وابن بدران هو: عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم، الدُّومي، الدمشقي، المعروف بابن بدران، فقيه حنبليٌّ أصوليٌّ، عاش وتوفي بدمشق، له مؤلفات كثيرة، منها: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، نزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر، وجواهر الأفكار ومعادن الأسرار في التفسير، وغيرها. توفي سنة (١٣٤٦هـ). انظر: الأعلام للزركلي ٤/ ٣٧، تسهيل السابلة ٣/ ١٧٨١.

(٢) انظر: أضواء البيان ١/ ٣٠٣، والشنقيطي هو: العلامة المفسر الأصولي محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد الجكني الشنقيطي، ولد في موريتانيا، ودرس على علمائها، ثم انتقل إلى المدينة النبوية وأقام بها، ودرَّس في المسجد النبوي طويلًا، وعُيِّن عضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية في أول تشكيلٍ لها. من مؤلفاته: أضواء البيان في إيضاح القرآن، والمذكرة في أصول الفقه، ودفع إيهام الاضطراب، وغيرها. توفي بمكة المكرمة ودُفن بها سنة (١٣٩٣هـ). انظر: تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان لابن باز ص ٥٥، مقدمة أضواء البيان ط. عالم الفوائد ص ١٩.

(٣) انظر: الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٥، أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦١.

(٤) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦١، الربا والمعاملات المصرفية ص ٣٢٠.

سندٌ بهما[1].

ونوقش: بأنَّ هذا خلاف الواقع حيث أنه يتم تغطية جزء محدود منها، ويبقى جزء كبير بلا تغطية[2].

القول الثاني: أنَّ الأوراق النقدية كعروض التجارة: وذهب إليه بعض الفقهاء[3]، واستدلوا بأدلة منها:

أنَّ الورق النقدي مالٌ متقوم مرغوب فيه ومدخر ويُشترى، وليس ذهبًا ولا فضة، وتُخالف ذاته ذات الذهب والفضة. [4]

ونوقش: بأنَّ في هذا فتحًا لباب الربا على مصراعيه، وإسقاطًا للزكاة في هذه الأموال - مهما بلغت - مادامت لم تُعد للتجارة، وفي هذا فسادٌ ظاهر. [5]

القول الثالث: أنَّ الأوراق النقدية بدل عن الذهب والفضة، وهو اختيار الشيخ عبد الرزاق عفيفي[6]، وقد استدلوا على ذلك بأدلةٍ منها: إنَّ الأوراق النقدية إنما تكتسب قيمتها من استنادها إلى غطاء الذهب أو الفضة، فهي بدلٌ عنهما، البدل له حكم المبدل. [7]

---

(١) انظر: المعاملات المالية للدبيان ١٢/ ٤٤، نوازل الزكاة ص ١٥٠.

(٢) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦١، نوازل الزكاة ص ١٥١.

(٣) انظر: فتح العلي المالك ١/ ١٦٤.

(٤) انظر: الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥١، أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦٦.

(٥) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦٧، تيسير العلام ٢/ ٩٩، الورق النقدي لابن منيع ص ٦٢.

(٦) انظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد(٣١)، ص ٣٨١.

(٧) انظر: الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٣، نوازل الزكاة ص ١٥٥.

ونوقش: بأنَّ هذا عندما كانت الأوراق النقدية مغطاة تغطية كاملة بذهب أو فضة، وهذا إنما كان في مرحلة من تاريخها، وأما واقعها الآن فهذا الغطاء قد ألغي منذ زمن بعيد، ولم يعد إصدار الأوراق النقدية وقبولها مستندًا إليه، وإنما تستمد قوتها من قوة اقتصاد الدولة المصدرة لها.[١]

القول الرابع: أنَّ الأوراق النقدية كالفلوس[٢]، وذهب إليه جماعة من الفقهاء منهم الشيخ عبدالله البسام[٣]، واستدلوا بأدلة منها: إن الأوراق النقدية عملة رائجة تُقوَّم بها الأشياء، وليست ذهبًا ولا فضة، وأقرب الأشياء إليها الفلوس، فكلاهما نقدٌ اصطلاحي فتلحق بها.[٤]

ونوقش: بأنَّ هذا قياس مع الفارق، فإنَّ الأوراق النقدية تفارق الفلوس من عدة أوجه؛ منها أنَّ الأوراق النقدية أكثر قبولاً ورواجًا في المعاملات من الفلوس، وأن الأوراق النقدية ليس لها قيمة في ذاتها، بخلاف الفلوس، فإنها لو أبطلت ثمنيتها فلها قيمة في نفسها كسائر العروض.[٥]

القول الخامس: أنَّ الأوراق النقدية نقد قائم بذاته كالذهب والفضة، وهذا قول غالب العلماء المعاصرين، وهو رأي هيئة كبار العلماء في المملكة العربية

---

(١) انظر: المعاملات المالية للدبيان ١٢/ ٥٨.

(٢) الفلوس: جمع فلس، وهي قطع معدنية صغيرة، مضروبة من معدن سوى الذهب والفضة من نحاس أو غيره، وهي عند الفقهاء من أدنى أنواع المال. انظر: تحرير ألفاظ التنبيه ص ١٩٥، الدر النقي ٢/ ٤٩١، معجم لغة الفقهاء ص ٣٥٠، الموسوعة الفقهية الكويتية ٤١/ ١٧٣.

(٣) انظر: تيسير العلام ٢/ ٩٩.

(٤) انظر: الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٤٩، أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦٩، نوازل الزكاة ص ١٥٤.

(٥) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٧٠، نوازل الزكاة ص ١٥٤.

السعودية[1]، ومال إليه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ،[2] وصدر بهذا الرأي قرار مجمع الفقه الإسلامي بجدة[3]، وكذلك المجمع الفقهي بمكة المكرمة[4]، واستدل أصحاب هذا القول بأدلةٍ منها[5]:

١- أنَّ الأوراق النقدية تؤدي وظائف النقدين (الذهب والفضة)، فهي أثمان الأشياء ورؤوس الأموال، وبها يتم البيع والشراء.

٢- أن النقدية في الذهب والفضة ليست مقصورة عليهما، بل هي ثابتة لكل شيء يتخذه الناس مما يؤدي وظائف النقود.

٣- حصول الثقة من قبل الناس بهذه الأوراق النقدية، واعتمدتها الدول في التعامل.

---

(١) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٨٨-٩٣.

(٢) هو الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب التميمي، ولد في الرياض ونشأ بها، وتعلَّم على علمائها، فتعلَّم العلوم الشرعية، وقد كُفَّ بصره وهو صغير، وكان حاد الذكاء، شديد الدهاء، ذا رأيٍ سديد، تولى أعمالًا كثيرة منها رئاسة القضاة، والإفتاء، ورئاسة الجامعة الإسلامية، وغيرها. توفي سنة (١٣٨٩هـ). انظر: فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ١/ ١٠ وانظر رأيه في ٧/ ١٧٣.

(٣) انظر: فقه النوازل للجيزاني ٣/ ٢٠.

(٤) انظر: مجلة المجمع الفقهي العدد الأول ص ١٩٣.

(٥) انظر: أحكام الأوراق النقدية للجعيد ص ١٩٠، الربا والمعاملات المصرفية ص ٣٣٦، المعاملات المالية المعاصرة لشبير ص ١٦٥، التضخم النقدي ص ٧٢.

المبحث الثاني: جريان الربا في الأوراق النقدية:

من المعلوم أنَّ الربا محرمٌ شرعًا، وهو معدودٌ من كبائر الذنوب، وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع على تحريم الربا، فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة:٢٧٥]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٦]، وقوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]، وقوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران:١٣٠].

ومن السنة: قول النبي ﷺ: **((اجتنبوا السبع الموبقات))** قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: **((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزَّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات))**[١] وفي الحديث الآخر: ((أن رسول الله ﷺ لعن آكِلَ الربا ومؤكلَه وكاتبَه وشاهديه. وقال: "**هم سواء**"))[٢].

وقد أجمع المسلمون على تحريم الربا في الجملة.[٣]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٠ برقم (٢٧٦٦) في كتاب الوصايا، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، ومسلم في صحيحه ١/ ٩٢ برقم (١٤٥) في كتاب الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٢١٩ برقم (١٥٩٨)، كتاب المساقاة، باب: باب لعن آكل الربا ومؤكله، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٣) انظر: مراتب الإجماع لابن حزم ص ٨٩، المغني ٤/ ٣، شرح صحيح مسلم ١١/ ٩.

وقد قسم الفقهاء الربا إلى قسمين[1]:

القسم الأول: ربا الديون: وهو كل زيادة مشروطة على رأس المال في القرض، وكل زيـادة مقابل الأجل عند كل تأجيل لاحق للدين بعد حلوله[2]، فهو لا يختص بمال دون مال، وقد أجمع على تحريمه الفقهاء.[3]

القسم الثاني: ربا البيوع: وهو خاص بالأموال الربوية[4]، وهو نوعان[5]:

الأول: ربا الفضل: وهو الزيادة في أحد الربوين الحالين المتحدي الجنس.

والثاني: ربا النسيئة: وهو تأخير القبض في أحد الربويين اللذين اتفقا في علة ربا الفضل.

وبنـاءً على ما تقدم من أنَّ ربا القروض يجري في كل مالٍ، لذلك فهو يجري في الأوراق النقديـة قولاً واحدًا، فربا القـرض لا يختص بمال دون آخر، بل كل منفعة مشروطة، أو متعارف عليها يأخذها المقرض على المقترض فهي من الربا المجمع

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٥٦٤، بداية المجتهد ٣/ ١٤٨، مغني المحتاج ٢/ ٣٦٣، كشاف القناع ٣/ ٢٥١، المعاملات المالية للدبيان ١١/ ٦١، المختصر في المعاملات للمشيقح ص ٦٣.

(٢) انظر: الاستذكار ٦/ ٥١٦، فقه المعاملات المالية لنزيه حماد ص ٢١.

(٣) حكى الإجماع ابن عبدالبر في التمهيد ٤/ ٦٨، والعيني في عمدة القاري ١٢/ ٤٥، وابن تيمية كما في الفتاوى ٢٩/ ٣٣٤، وغيرهم، وانظر: الربا والمعاملات المصرفية للمترك ص ١٧٩-١٩١.

(٤) وهـي الأصناف التي وردت السـنة بالنص عليها، وهي: الذهب، والفضة، البر، والشـعير، والتمر، والملـح، وقـاس جمهور العلماء عليهـا غيرها. انظر: المغني ٤/ ٤، شـرح صحيح مسـلم للنووي ١١/ ٩، مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٩/ ٤٧٠.

(٥) انظـر: الربا والمعامـلات المصرفية ص ٥٣، ١٣١، والمختصـر في المعاملات ص ٦٤، وضوابط الربا ص ٨٨.

على تحريمه.[1]

وأما ربا البيوع - وأعني به ربا الفضل وربا النسيئة - فقد اختلف الفقهاء في جريانه في الأوراق النقدية؛ وذلك بحسب التكييف الفقهي للأوراق النقدية كما تقدم، وحاصل ذلك ثلاثة أقوال:

القول الأول: **أن الأوراق النقدية يجري فيها ربا الفضل والنسيئة**، فلا يجوز بيع بعضها ببعض إلا مع التماثل والتقابض، ويدخل في هذا القول الأقوال التالية:

أولاً: القائلون بأن الأوراق النقدية بدلٌ عن الذهب والفضة؛ لأنَّ البدل له حكم المبدل، فما كان منها متفرعًا عن الذهب فله حكم الذهب، وما كان منها متفرعـًا عن الفضة له حكم الفضة.[2]

ثانيًا: القائلون بأن الأوراق النقدية نقدٌ قائم بذاته؛ لأنَّ الأوراق النقدية تؤدي وظائف النقدين، ولأنَّ المعاني التي من أجلها حرم الربا في الذهب والفضة هي بعينها موجودة في الأوراق النقدية.[3]

القول الثاني: **أنَّ الأوراق النقدية لا يجري فيها الربا مطلقًا** - أي ربا البيوع - وهذا قول من جعل الأوراق النقدية من عروض التجارة؛ لأنَّها ليست ذهبًا ولا فضة وليست مكيلة ولا موزونة، وإنما هي أعيان معتبرة القيمة ليس لها جنس تُلحق به، وما كان كذلك لا يجري فيه الربا،[4] ويدخل في هذا القول من جعل الأوراق النقدية

---

(١) انظر: المعاملات المالية للدبيان ١٢/ ٤٣.

(٢) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٧٢، نوازل الزكاة ص ١٥٣.

(٣) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٧٧ ، الربا والمعاملات المصرفية ص ٣٣٦.

(٤) انظر: التضخم النقدي ص ٧١.

كالفلوس باعتبار أن الفلوس عنده من العروض.[1]

القول الثالث: يجري فيها ربا النسيئة دون ربا الفضل، فلا يُشترط فيها التماثل، ويشترط فيها التقابض، وهو قول من جعل الأوراق النقدية كالفلوس باعتبار أنَّ الفلوس ليست من العروض،[2] فألحقها بالنقدين في جريان ربا النسيئة؛ للإجماع على حرمته، ولأنَّ حرمته أشد من ربا الفضل، وأجاز ربا الفضل؛ لأنه محرم تحريم وسائل، ولكونها غير نقود حقيقة، وللحاجة.[3]

بقي أن يُقال إن هناك من منع المبادلة بين الأوراق النقدية مطلقًا لا لأجل الربا، وإنما لأمرٍ آخر، وهم القائلون بأن الأوراق النقدية تُعتبر سندات بدين؛ وذلك لأنَّ هذا من قبيل بيع الدَّين وهو لا يجوز.[4]

---

(١) انظر: نوازل الزكاة ص ١٤٩.

(٢) انظر: تيسير العلام ٢/ ٩٩.

(٣) انظر: أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٧٠.

(٤) انظر: أضواء البيان ١/ ٣٠٣، أبحاث هيئة كبار العلماء ١/ ٦٢، المعاملات المالية المعاصرة لشبير ص ١٦٣.

المبحث الثالث: موقف الشيخ عبد الرحمن السعدي من الأوراق النقدية، وجريان الربا فيها:

تحدث الشيخ السعدي عن الأوراق النقدية في عددٍ من المواضع من كتبه وبيَّن رأيه فيها، إلاَّ أن الباحثين اختلفت أقوالهم في رأي الشيخ السعدي، فذكر بعضهم أنَّه يجعلها في حكم العروض[1]، ورأى آخرون أنَّه يجعلها كالفلوس[2]، وقال هو في موضعٍ إنَّ حكمها حكم السكة التي ضُربت هذه الأوراق بالنيابة عنها في جميع الأحكام،[3] ومنهم من رأى أن السعدي يقول بأنه لا يجري الربا فيها مطلقًا[4]، ومنهم من ذكر أنَّ الشيخ السعدي يقول بجريان ربا النسيئة دون ربا الفضل[5]، فما هو رأي الشيخ السعدي في هذه المسألة؟

قبل الجواب عن هذا السؤال ينبغي أن نعرف أن علماء الأصول يكادون يجمعون أنَّه لا يمكن أن يقول المجتهد في مسألةٍ واحدةٍ قولين مختلفين في وقتٍ واحدٍ بالنسبة لشخصٍ واحدٍ.[6]

فإن وقع ذلك فقد اعتذر له العلماء بأنَّ مراده نقل الآراء في المسألة، أو بيان

---

(1) انظر: نوازل الزكاة ص ١٤٩، الحواشي السابغات ص ٣٦٧.

(2) انظر: تيسير العلام ٢/ ١٠٠.

(3) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ السعدي ٢٤/ ٢٤٠ و ٢٥/ ٢٧٦.

(4) انظر: التعليق على الروض المربع لابن عثيمين ١/ ٦٤٣.

(5) انظر: تيسير العلام ٢/ ٩٩-١٠٠.

(6) انظر: تحرير المقال فيما تصح نسبته للمجتهد من أقوال ص ٨٥، تيسير الوصول للفوزان ص ٤٦٩.

الأقوال الممكنة أو القوية فيها وأن ما عداها باطل.[1]

وأما أن يقول المجتهد في المسألة الواحدة قولين مختلفين في وقتين، فهذا ممكن وواقع في كلام الأئمة بلا خلاف، فإن علم التاريخ فقوله الأخير، وإلا فقوله ما كان أشبه بقواعده وأصوله.[2].

وقد أورد الشيخ السعدي بعض الأقوال السابقة في الأوراق النقدية، وكان موقفه منها على النحو التالي:

أولاً: القول بأنها سندات بدين، وعبر عنه الشيخ بقوله: ((فمنهم من أجراها مجرى الصكوك وبيعها وبيع الديون التي في الذمم، فمنع المعاملة بها رأسًا)) ثم نقد هذا القول، وضعَّفه بقوله: ((وهذا مع ما فيه من الضيق والحصر الذي لا تأتي به الشريعة، ليس له دليل صحيح، ولا مأخذ قوي))[3].

وقال أيضًا: ((أن منع المعاملة بها، وجعلها بمنزلة بيع الدين بحيث لا تحل مطلقًا مع أنه قولٌ لا دليل عليه، ففيه من الحرج والضيق، بل عدم الإمكان والتعذر، ما يوجب أن نعلم علمًا جازمًا أن الشرع لا يأتي به، ويضيق عليهم ما هم مضطرون إلى المعاملة فيه مع سعة الشريعة ويسرها، وكونها صالحة لكل زمان ومكان، فإنه لا يخفى أن جميع أقطار الدنيا إلا النزر اليسير منها، كل معاملاتهم في هذه الأوراق التي تسمى الأنواط، فلو حكم لها بأحكام السندات والديون لتعطلت المعاملات في هذا الوقت الذي تقتضي الأحوال وظروفها أن يخفف فيه غاية التخفيف، وأيضًا فمع هذا الضيق يقع التجرؤ والتوثب على المحرم والمعاملات الخبيثة؛ لأن الذي

---

(١) انظر: تحرير المقال ص ٨٧.

(٢) انظر: تحرير المقال ص ٨٧، تيسير الوصول للفوزان ص ٤٧٤.

(٣) الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٤٨.

يتدين بالشريعة إذا ظن واعتقد أن الشريعة تدل على تحريم المعاملة بها، ومع ذلك يـرى ضرورته وضرورة غيـره داعية، بل ملجئة إلى هـذه المعاملات لم يصبر على هـذا الضيق والشـدة، وخلع من نفسـه خلعة الـورع، فتجرأ على هـذا الذي يعتقده محرمًـا، وانجـر به إلى عـدة محرمـات، لأن المعاصي آخذٌ بعضهـا برقاب بعض، وهـذا معلوم بالحـس والتجربة))[1]. وختـم الكلام عن هذا القـول بقوله: ((وأما القـول بأن حكمه حكم بيـع الديون في الذمم، فقد اتضح ضعفـه))[2]، وقال أيضًا: ((هذه الأنواط لم تُستعمل إلا أخيرًا، واختلـف فيها المتأخرون على ثلاثة أقوال: **أحدها: أنها كالسندات**؛ لأنَّه متى يطلب من هي في يده العدد المرقوم عليها من تلك الحكومة أو وكلائها سلم له، وعلى هذا القول فيحرم التعامل بها؛ لأنها لا يجوز بيع ما في الذمة، لما فيه من الغرر، ولا يعلم هل يقدر على قبضه أم لا، فيدخل في الميسر والغـرر، فيحرم التعامل بها، وفي هذا من الضرر والحرج مافيه))[3]، وهذا الكلام في غاية الوضوح والبيان بما لا مزيد عليه.

ثانيًـا: أن الأوراق النقدية بدلٌ عن الذهب والفضة، وقد ذكر الشيخ السـعدي هذا القول تارة مقويًا له وتارةً مضعفًا له، فقد جاء في التعليقات على عمدة الأحكام الـذي كُتب بين عامي ١٣٤٧هـ و١٣٤٩هـ: ((هذه الأنواط لم تُستعمل إلا أخيرًا، واختلف فيها المتأخرون على ثلاثة أقوال)) ثم قال: ((**القول الثالث: وهو أوسـط الأقوال وأقربها للقياس، وهو أن حكمها حكم أصلها**، فعددها بقدر ما كتب عليها، ولا يجوز شراء نوط الذهب بذهب إلا بعدد ما رقم عليه، وأن يكون يدًا بيد، كما لو باع ذهبًا بذهب، ومثله نوط الفضة، ولا يشـتري نوط الربيات بالريالات، ويشـتري

(١) الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٢.

(٢) الفتاوى السعدية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٧.

(٣) التعليقات على عمدة الأحكام ص ٤٣٧.

نوط الفضة بالذهب، ونوط الذهب بالفضة، ولا يشترط فيه إلا القبض قبل التفرق، فحكم كل نوطٍ حكم مبدله)) ا.هـ[1].

وكذلك جاء في الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية في رسالة مكتوبة في ٦ شـوال ١٣٥٨هـ: **((وإجمال ذلك أن النوط حكمه حكم السـكة التي ضرب بالنيابة عنها في جميع الأحكام))**[2].

وقد ذكر الشيخ السعدي رحمه الله تعالى لهذا القول عددًا من الأدلة في المناظرة التي عقدها بين من يقول إن الأوراق النقدية عرض لها حكم سـائر العروض، ومن يقول: إنها نقدٌ له حكم سـكته، ومن يقول: إنها سـند وبيع دين. وقد أورد على هذه الأدلـة بعـض الاعتراضات، ولم يجزم بهذا القول هنا، بل رجَّح غيره - كما سـيأتي بـإذن الله - ولعله كان قولاً قديمًا للشـيخ السـعدي رحمه الله فقد ضعَّفه الشـيخ في موضـعٍ آخـر، وقال عنه: ((وهذا القول عند التأمل يتضح ضعفه))[3]، وقد اسـتدل على ضعفه بأمور، منها[4]:

١ - أنَّه لا يتحقق فيه الشـرط الشـرعي، وهو الوزن والتماثـل إذا بيع الورق النقدي بعضه ببعض، أو بمثله من النقدين.

٢ - أنَّ فيه ضيقًا شديدًا ينافي ما جاء به الشرع.

٣- أنَّ الأوراق النقديـة ليسـت ذهبًـا ولا فضةً لا لغةً ولا شـرعًا، فكيـف تثبت لها أحكامهما؟

---

(١) التعليقات على عمدة الأحكام ص ٤٣٧.

(٢) الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٥/ ٢٧٦.

(٣) الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٥/ ٢٨٤.

(٤) انظر: الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٥/ ٢٨٤-٢٤٩.

ثالثًا: أنَّ الأوراق النقدية بمنزلة العروض، وقد ذكر الشيخ هذا القول في التعليقات على عمدة الأحكام الذي كُتب بين عامي ١٣٤٧هـ و١٣٤٩هـ: ((**القول الثاني: مقابل هذا القول، وأنها بمنزلة السلع، فلا يجري فيها الربا**، ويجوز شراؤه بأي نوع كان، ويجوز أن يشتري مثلاً النوط[١] المرقوم عليه عدد عشرة بتسعة أو أقل أو أكثر، ولا يدخله الربا على هذا القول بحال))[٢]، إلا أنه رجح غيره كما تقدم، وقد ذكر الشيخ السعدي رحمه الله تعالى لهذا القول عددًا من الأدلة في المناظرة التي عقدها بين من يقول إن الأوراق النقدية عرض لها حكم سائر العروض، ومن يقول: إنها نقدٌ له حكم سكته، ومن يقول إنها سند وبيع دين، وقد أورد على هذه الأدلة بعض الاعتراضات، ولم يجزم بهذا القول هنا، بل رجَّح غيره - كما سيأتي بإذن الله-، وقال في موضعٍ آخر بعد أن أورد القولين السابقين: ((ونهاية الأمر أن يُحكم عليها أحكام الفلوس المعدنية...ثم قال: وهذا القول هو الذي تكثر عليه الدلائل))، ثم ساق الأدلة المرجحة لهذا القول وأنها كالفلوس، ثم قال في ختام المسألة: ((فحيث تقرر وعلم لكل أحدٍ أن الأنواط ليست بنفسها ذهبًا ولا فضة، وأنه لا يمكن أن يتحقق فيها ما شرطه الشارع في الذهب والفضة من جهة الوزن، تعين القول بأنها **بمنزلة العروض وبمنزلة الفلوس المعدنية**، وأنه لا يضر فيها وفي المعاملة بها الزيادة والنقص والقبض في المجلس أو عدمه، مع ما في هذا القول من التوسعة على الخلق، والمشي على أصول الشريعة المبنية على اليسر والسهولة، ونفي الحرج، وتوسيع ما يحتاج إليه الخلق في عاداتهم ومعاملاتهم، نعم الذي لا يجوز شيء واحد، وهو أنه لا يحل أن يبيع مثلا مائة منها حاضرة بمائة وعشرين

---

(١) النوط هو الورق النقدي، وجمعه أنواط.

(٢) التعليقات على عمدة الأحكام ص ٤٣٧.

مؤجلة، كما لا يجوز ذلك في الفلوس المعدنية على أصح الأقوال، والله أعلم)).[1]

فإيراد كلمة ((العروض)) هنا جعل بعض الباحثين ينسب إلى الشيخ السعدي أنه يرى أن الأوراق النقدية كالعروض، وهذا الفهم غير صحيح، ويدل عليه أمور:

١- أن الشيخ السعدي صرح باختياره في أكثر من موضع، وأنه يرجح أن حكم الأوراق النقدية حكم الفلوس، كما سيأتي في القول الرابع بإذن الله.

٢- أنَّ الشيخ السعدي أراد أن الأوراق النقدية تُلحق بالفلوس وبالعروض في ربا الفضل فقط، دون ربا النسيئة، لأنه بين بعد ذلك حكم ربا النسيئة، فذكر أنه لا يجوز كما في الفلوس المعدنية في أصح الأقوال.

٣- أنَّ كبار تلاميذ الشيخ السعدي ضعَّفوا هذا القول - وهو أن الأوراق النقدية بمنزلة العروض - مع نسبتهم للشيخ قولًا آخر غيره.

قال الشيخ العلامة عبدالله البسام رحمه الله بعد أن ذكر أن من العلماء من يرى أنها بيع سندات، ومنهم من يرى أنها عروض:((وهذان القولان في غاية الضعف، فأما الأول: ففيه تشديد وحرج وضيق، وطبع ديننا السماح، واليسر، خصوصاً في العادات والمعاملات، والثاني: فيه فتح لباب شر كبير، وهو الربا بأنواعه، مع أنه لا يستند إلى شيء من تعليل صحيح))، ثم قال: ((وأحسن الأقوال في ذلك وأعدلها وأقربها للصواب، هو أن نجعل حكمها حكم الفلوس))، ثم قال: ((ولشيخنا عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي رسالة في هذا البحث، نشرت في الصحف، ونشرت أيضا وحدها برسالة مستقلة، وهو يرجح القول الأخير)).[2]

ووصف الشيخ العلامة محمد بن عثيمين رحمه الله هذا القول بأنه شديد

---

(١) الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٠.

(٢) تيسير العلام ٩٩-١٠٠.

النكارة، بعيد عن روح الشريعة الإسلامية التي نزلت من لدن حكيم خبير،[1] وقال عنه في موضع آخر: ((ولا شك أن هذا القول باطل ولا عبرة به))[2]، ونسب للشيخ السعدي قولاً آخر يأتي بيانه بإذن الله، وقال ابن عثيمين عن هذا القول أيضًا: ((هذا القول لا أظن أن قدم عالم تستقر عليه، لما يلزم عليه من هذا اللازم الباطل، ألاَّ ربا بين الناس اليوم؛ لأن غالب تعاملهم بالأوراق النقدية، وألا زكاة على من يملك الملايين من هذه الأوراق ما لم يعدها للتجارة)).[3]

والخلاصة: أنه لا تصح نسبة القول بأن الأوراق النقدية كالعروض للشيخ السعدي رحمه الله تعالى، نعم قد يُقال: إنه يرى جواز التفاضل في بيع بعضها ببعض، فتكون كالعروض في هذه المسألة، لا أن تُجعل كالعروض من كل وجه فهذا غير وارد. والله أعلم.

رابعًا: أن الأوراق النقدية بمنزلة الفلوس، وهذا القول ذكره الشيخ، وانتصر له في عددٍ من كتبه ومراسلاته، فمن ذلك ما جاء في الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة في رسالة مؤرخة في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠هـ: ((صار هذه الأيام بحث من جهة النوط، وبسبب أن العلماء السابقين لا يوجد لهم فيه كلام لحدوثه أحببنا أن نتنهي في البحث فيه إلى أقصى ما نقدر عليه، فسوينا مناظرة[4] بين من يراه عرضًا

(١) انظر: رسالة الربا لابن عثيمين ص ٢٢.

(٢) لقاءات الباب المفتوح ٢/ ١٨٨.

(٣) الشرح الممتع ٦/ ٩٣، وانظر: التعليق على صحيح مسلم لابن عثيمين ٨/ ١٧١.

(٤) وهي الموجودة في الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٥/ ٢٧٦، وقوله: ((هالأيام)) دليل على أنَّ هذه المناظرة كُتبت عام ١٣٦٠هـ لأنه لا يوجد عليها تاريخ، بل لم يُذكر التاريخ في الفتاوى السعدية كاملة؛ لأنها جُمعت وطبعت بعد وفاة الشيخ السعدي رحمه الله تعالى، انظر: مقدمة مجموع مؤلفات السعدي ١/ ١٨٥.

لـه حكـم العروض في كل أحواله، ومن يراه نقدًا في جميع أحواله، ومن يراه بيعًا لما في الذمـة، بمنزلـة بيع الصكـوك، وأوردنا لكل قـولٍ حجته التي يمكـن أن تقرر به.

فكان منتهى ما وصل إليه علمنا فيه، **التفصيل في حكمه، وأنه يجوز بيعه يدًا بيدٍ مطلقًا، سـواء كان نوط فضة أو ذهب، متماثلاً أو متفاضلاً بالجنس أو غيره، وأنه لا يجوز بيع بعضها ببعض إلى أجل، سواء اتفق الجنس أو اختلف، كما كان هذا قولنا في بيـع القـروش بأحد النقدين، أو بيـع بعضهما ببعض**؛ أنه لا يجوز نسـاء، ويجوز حاضـرًا إذا لم يكن فيه مدة، وعرضنا هذه المناظرة على الإخوان، فقر نظر الجميع على هذا التفصيل، ولولا أنها طويلة تبلغ تقريب خمس صحائف لنقلتها لك، وربما عند الفرصة ننقلها)) ا.هـ[1].

وقال أيضًا في الفتاوى السعدية: ((الصواب هو القول الثالث؛ وهو أنَّه لا يحكم لهـا بأحكام النقدين، ونهايـة الأمر أن يحكم عليها أحكام الفلـوس المعدنية، يمنع فيهـا أن يبـاع حاضر بمؤجل، وما سـوى ذلك فإنه جائـز))[2]، ووصف هذا القول بأنه الذي تكثر عليه الدلائل، وبه يحصل التعامل والتوسعة فيها،[3] ثم قال في ختام المسـألة: ((فحيث تقرر وعلم لكل أحدٍ أن الأنواط ليسـت بنفسـها ذهبًا ولا فضة، وأنه لا يمكن أن يتحقق فيها ما شـرطه الشـارع في الذهب والفضة من جهة الوزن، تعيـن القول بأنها **بمنزلة العروض وبمنزلة الفلـوس المعدنية**، وأنه لا يضر فيها وفي المعاملة بها الزيادة والنقص والقبض في المجلس أو عدمه، مع ما في هذا القول من التوسـعة على الخلق، والمشـي على أصول الشـريعة المبنية على اليسر والسهولة،

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٤٩.

(٢) الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٠.

(٣) انظر: الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٠.

ونفي الحرج، وتوسيع ما يحتاج إليه الخلق في عاداتهم ومعاملاتهم، نعم الذي لا يجوز شيء واحد، وهو أنه لا يحل أن يبيع مثلا مائة منها حاضرة بمائة وعشرين مؤجلة، **كما لا يجوز ذلك في الفلوس المعدنية على أصح الأقوال**، والله أعلم)).[1]

كما ذكر رأيه في المسألة في رسالة وجهها لأحد تلاميذه مؤرخة في ٩ شعبان ١٣٧٤هـ قال فيها: ((الورق التي هي الأنواط لا يجري فيها الربا لا في الزيادة ولا في النقص، فيجوز الأخذ عن مائة ريال دراهم تسعين أو مائة وعشرة، لكن الذي لا يجوز منها مسألة وهي أن يبيع مثلاً مائة بمائة وعشرين إلى أجل، هذا الذي لا يجوز))ا.ه.[2]

كما رجح هذا القول واستدل له في المناظرة الافتراضية التي جعلها بين الأقوال الثلاثة المتقدمة، وجعل هذا القول قولاً رابعًا، وهو التفصيل فيها فجعل لها حكم النقدين في بيع النسيئة، وأجاز بيع بعضها ببعض حاضرًا ويدًا بيد، سواء تماثلت أم لا، كما هو الحال في بيع الفلوس.[3]

وقد استدل على جواز ربا الفضل بما يلي[4]:

١- أنَّ الأصل في البيوع والمعاملات الحل، كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة:٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[النساء:٢٩]، وهذا شامل لكل بيع وتجارة جارية بين الناس، فمن منع شيئًا من ذلك فعليه الدليل، ولا دليل على المنع في هذه المسألة.

٢- أنَّ الأوراق النقدية ليست ذهبًا ولا فضةً لا لغةً ولا شرعًا ولا عرفًا، فكيف

---

(١) الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٠.

(٢) أسئلة حمد المقبل للشيخ السعدي، ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٥٤٥.

(٣) انظر: الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٧.

(٤) انظر: الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٤٩، ٢٥٨.

تثبت لها أحكامهما؟

٣- أن تحريم ربا الفضل إنما كان لأجل أنه وسيلة إلى ربا النسيئة.

٤- أن ربا الفضل أبيح منه ما تدعو الحاجة إليه كمسألة العرايا.

٥- شدة الحاجة إلى بيع بعضها ببعض، بل الاضطرار إليها في كثير من الأقطار.

واستدل على منع النسيئة فيها بما يلي[١]:

١- أنَّ بيع الأوراق النقدية ببعضها إلى أجل هو بعينه الربا الداخل في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

٢- أنَّ المفسدة التي حرَّم الشارع الربا لأجلها خصوصًا ربا النسيئة لا يمكن من له أدنى ملكة من عقل وتمييز أن ينكر وجودها بأكملها في بيع الأوراق النقدية بعضها ببعض، أو بأحد النقدين نسيئة، وتكاد تكون من الضروريات.

والخلاصة: أن الشيخ السعدي رحمه الله يرى إلحاق الأوراق النقدية بالفلوس، كما يذهب إلى جواز بيع بعضها ببعض متماثلا ومتفاضلاً - أي أنه لا يجري فيها ربا الفضل - سواءً تم القبض أم تأخر، فإن تأخر القبض بسبب التأجيل حرم ذلك لأنه من ربا النسيئة[٢]، والله أعلم.

---

(١) انظر: الفتاوى السعدية ضمن مجموع مؤلفات السعدي ٢٤/ ٢٥٧.

(٢) انظر: الشرح الممتع ٦/ ٩٥، التعليق على السياسة الشرعية ص ٢٢١، المعاملات المالية للدبيان ١٢/ ٥٠.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا على توفيقه، وعلى ما يسـر من إتمام هذا البحث، وأسأل الله القبول والسداد، وقد ظهر لي من خلال هذا البحث عدة نتائج، أجملها في النقاط التالية:

١- أنَّ الربا هو الزيادة في أشياء خاصة والزيادة على الدين مقابل الأجل مطلقًا، كما يُطلق الربا على كل بيعٍ فاسدٍ، أو محرَّمٍ شرعًا.

٢- أن الفقهاء رحمهم الله يُطلقون كلمة (النقود)، ويريدون بها تارة الذهب والفضة مطلقًا، وتارة يريدون بها المضروب من الذهب والفضة كالدراهم والدنانير، وتارة يطلقونها على جميع ما تتعامل به الشعوب من ذهب وفضة، وما يقوم مقامهما في المعاملات والمبادلات.

٣- أن النقود الورقية: عبارة عن أوراق تُطرح للتداول وتُستخدم في تبادل السلع والخدمات وسائر المعاملات.

٤- أن الأوراق النقدية لم تكن معروفة عند الفقهاء المتقدمين، كما أنها لم تنشأ طفرةً واحدة، بل مرت بمراحل متعددة حتى وصلت إلى المرحلة التي هي عليها اليوم.

٥- أن التكييف الفقهي للأوراق النقدية اختلف فيه العلماء على ثمانية أقوالٍ.

٦- أنَّ ربا القروض يجري في كل مالٍ، لذلك فهو يجري في الأوراق النقدية قولًا واحدًا.

٧- أن ربا البيوع اختلف الفقهاء في جريانه في الأوراق النقدية؛ وذلك بحسب التكييف الفقهي للأوراق النقدية.

٨- أن الشيخ السعدي رحمه الله يرى إلحاق الأوراق النقدية بالفلوس، كما يذهب

إلى جواز بيع بعضها ببعض متماثلا ومتفاضلًا سواءً تم القبض أم تأخر، فإن تأخر القبض بسبب التأجيل حرم ذلك لأنه من ربا النسيئة.

كما أوصي بالمزيد من الدراسات حول الأوراق النقدية، والإشكالات الفقهية المتعلقة بها، وكذلك تحرير عدد من المسائل المتعلقة بها، كعلة التحريم في الأموال الربوية، وتحرير القول في مسألة جريان الربا في الفلوس، وغير ذلك.

وفي الختام هذا جهد المقل، وبضاعة العاجز، فإن كان صوابًا فمن الله الواحد المنان، وإن كان خطأً فمن نفسي والشيطان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- أبحاث هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، طبع ونشر رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ.
- أحكام الأوراق النقدية والتجارية في الفقه الإسلامي، تأليف: ستر بن ثواب الجعيد، رسالة ماجستير في جامعة أم القرى ١٤٠٥هـ.
- أحكام القرآن، تأليف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.
- أحكام صرف النقود والعملات في الفقه الإسلامي، تأليف :د.عباس أحمد محمد الباز ، دار النفائس، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ.
- الاستذكار، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.
- إصدار النقود في الاقتصاد الإسلامي والوضعي، تأليف: زيد ياسين سليمان الكونباكي، دار الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكيني الشنقيطي، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ.
- الأعلام، تأليف: خير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر: ٢٠٠٢م.
- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، المحقق: مكتب البحوث والدراسات - دار الفكر، بيروت.
- الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، تأليف: موسى بن أحمد الحجاوي، المحقق: عبد اللطيف محمد موسى السبكي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

- أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، تأليف: قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي، تحقيق: يحيى حسن مراد، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: ١٤٢٤هـ.
- الأوراق النقدية في الاقتصاد الإسلامي، إعداد: أحمد حسن، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ه.
- البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لزين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم الحنفي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، الطبعة: الثانية - بدون تاريخ.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تأليف: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، الناشر: دار الحديث - القاهرة، تاريخ النشر: ١٤٢٥هـ.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣ م.
- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، المؤلف: فخر الدين الزيلعي الحنفي، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣١٣ هـ.
- تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مطبوع مع أضواء البيان، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ .
- تحرير ألفاظ التنبيه، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، المحقق: عبد الغني الدقر، الناشر: دار القلم - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨.
- تحرير المقال فيما تصح نسبته للمجتهد من الأقوال، تأليف: أ.د. عايض بن نامي السلمي، دار ابن تيمية، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ.
- تحفة الإخوان بتراجم بعض الأعيان، تأليف: سماحة الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار أصالة الحاضر، الطبعة الثانية: ١٤٣١هـ.

- تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لأحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، روجعت وصححت: على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، عام النشر: ١٣٥٧ هـ.
- تذكرة الحفاظ، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.
- تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة، تأليفك صالح بن عبد العزيز بن علي آل عثيمين، تحقيق: بكر بن عبد الله أبو زيد الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٢ هـ.
- التضخم النقدي في الفقه الإسلامي، تأليف د.خالد بن عبدالله المصلح، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ.
- التعليق على الروض المربع، تأليف: فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين،من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، عنيزة، الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ.
- التعليق على السياسة الشرعية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، الناشر: مدار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.
- التعليقات على عمدة الأحكام للشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، جمعها ولخصها: الشيخ عبدالله بن محمد العوهلي، تحقيق: عبدالرحمن بن سالم الأهدل، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ.
- تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، تأليف: عبدالله بن عبدالرحمن البسام، دار الميمان، الرياض، الطبعة الثانية: ١٤٣٠هـ.
- تيسير الوصول إلى قواعد الأصول ومعاقد الفصول، شرح: عبدالله بن صالح الفوزان، دار ابن الجوزي، الطبعة الخامسة: ١٤٣٢هـ.
- الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين، تأليف: وليد بن أحمد الحسين، مجلة الحكمة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، المؤلف: محمد عزيز بن شمس وعلي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائ، الطبعة: الثانية، شوال ١٤٢٢ هـ.
- الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد، تأليف: يوسف بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، حققه وقدم له وعلق عليه: الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ.
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، المؤلف: محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، الناشر: دار الفكر، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، مطبوع مع الشرح الكبير للدردير.
- الحنابلة خلال ثلاثة عشر قرناً تأليف: أ.د. عبدالله بن محمد بن أحمد الطُريقي، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ.
- الحواشي السابغات، تأليف:أحمد بن ناصر القعيمي، دار أسفار، الكويت، الطبعة الأولى: ١٤٣٩هـ.
- الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي، يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي المحقق: رضوان مختار بن غربية، الناشر: دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، الطبعة الثانية: ١٣٩٢هـ.
- الربا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية، تأليف: معالي الشيخ الدكتور عمر بن عبد العزيز المترك، دار العاصمة، الطبعة الثالثة: ١٤١٨هـ.
- الروض المربع شرح زاد المستقنع، للشيخ منصور بن يونس البهوتى الحنبلى، خرج أحاديثه: عبد القدوس محمد نذير، الناشر: دار المؤيد - مؤسسة الرسالة.
- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، تأليف: محمد بن عثمان القاضي، مطبعة الحلبي، الطبعة الثالثة: ١٤١٠هـ.

- زكاة الأسهم والسندات والورق النقدي، المؤلف: أ. د صالح بن غانم السدلان، الناشر: دار بلنسية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثالثة: ١٤١٧ هـ.
- سير أعلام النبلاء، تأليف: محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، التحقيق بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة: ١٤٠٥ هـ.
- الشرح الممتع على زاد المستقنع، تأليف: فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٠٧ هـ.
- صحيح البخاري وهو الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم وهو المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تأليف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الناشر: منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ضوابط الربا، تأليف: أ.د. سليمان بن سليم الرحيلي، دار الميراث النبوي، الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ.
- عارضة الأحوذي بشرح الترمذي، للحافظ ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- العقود الياقوتية
- علماء ومفكرون عرفتهم، تأليف: محمد المجذوب، دار الشواف، الرياض، الطبعة

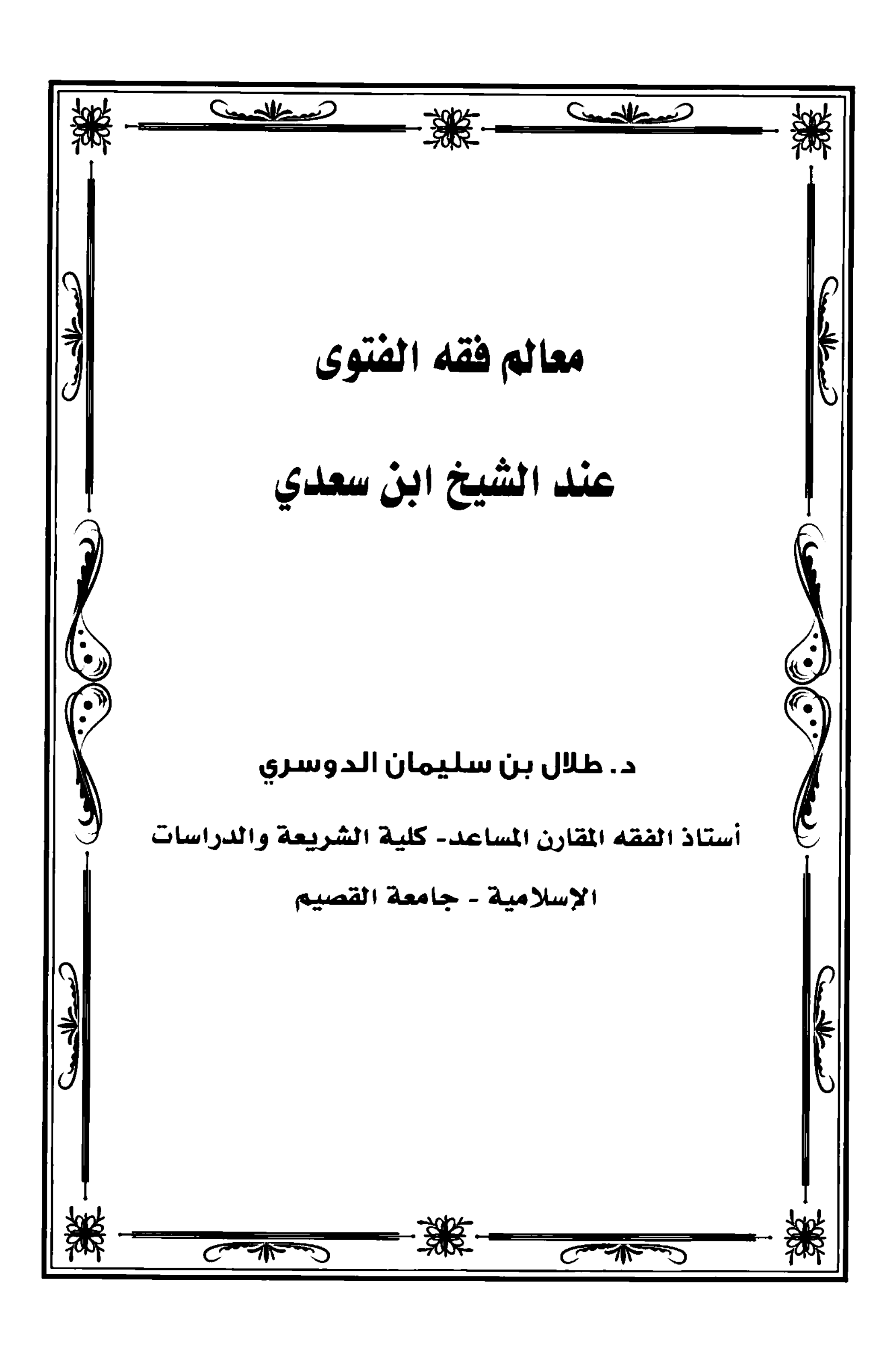
الرابعة، ١٩٩٢.

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المؤلف: محمود بن أحمد بن موسى العينى، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- فتاوى نور على الدرب، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ.
- فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، جمع وترتيب وتحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، الناشر: مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩ هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية، الطبعة الأولى: ١٤١٧ هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.
- الفقه الإسلامي وأدلته، تأليف: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة.
- فقه الربا، تأليف: عبدالوهاب عبدالسلام طويلة، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى: ١٤٣٧هـ.
- فقه المعاملات المالية المعاصرة، تأليف: الدكتور سعد بن تركي الخثلان، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ.
- فقه النوازل، تأليف: محمد بن حسين الجيزاني دار ابن الجوزي الرياض الطبعة الثالثة:١٤٢٩هـ.
- في فقه المعاملات المالية والمصرفية المعاصرة، تأليف: الدكتور نزيه حماد ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية: ١٤٣١هـ.

- قاعدة المثلى والقيمى في الفقه الإسلامي، تأليف:د.علي محي الدين علي القره داغي، دار الناشرون العرب الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ.
- القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، المؤلف: الدكتور سعدي أبو حبيب، الناشر: دار الفكر. دمشق - سورية، الطبعة الثانية: ١٤٠٨ هـ.
- كشاف القناع عن متن الإقناع، المؤلف: منصور بن يونس البهوتى، الناشر: دار الكتب العلمية.
- لقاءات الباب المفتوح، لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، إصدارات مؤسسه الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة الأولى: ١٤٣٨ه.
- المبسوط، تأليف: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ.
- مجلة المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، تصدر عن رابطة العالم الإسلامي.
- مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، تصدر عن منظمة المؤتمر الاسلامي بجدة.
- مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، جمع الشيخ: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ.
- مجموعة الشيخ العلامة عبدالله ابن عقيل العلمية، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ.
- مجموعة مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، دار الميمان، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.
- المختصر في المعاملات،تأليف: أ.د. خالد بن علي المشيقح، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ.
- المدونة لمالك بن أنس، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ.

- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، المؤلف : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار تأليف: عياض بن موسى اليحصبي ، المكتبة العتيقة ودار التراث.
- مشاهير علماء نجد وغيرهم، المؤلف: عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى: ١٣٩٢هـ.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، تأليف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.
- المطلع على ألفاظ المقنع، المؤلف: محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي، المحقق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.
- المعاملات المالية أصالة ومعاصرة، تأليف: دبيان الدبيان، الطبعة الثانية ١٤٣٢ه.
- المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي، تأليف: د.محمد عثمان بشير، دار النفائس، الأردن، الطبعة السادسة.
- المعاملات المالية المعاصرة، تأليف: أ.د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.
- معجم لغة الفقهاء، المؤلف: محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنيبي، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ.
- المغني، المؤلف: موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، الناشر: مكتبة القاهرة.
- مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
- المقدمة في فقه العصر، المؤلف: د. فضل بن عبد الله مراد، الناشر: الجيل الجديد ناشرون - صنعاء، الطبعة الثانية: ١٤٣٧ هـ.

- منتهى الإرادات، المؤلف: تقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي الشهير بابن النجار، تحقيق: عبد الله بن عبدالمحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.
- الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الطبعة: ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ.
- موسوعة القضايا الفقهية المعاصرة والاقتصاد الإسلامي، تأليف: أ.د.علي أحمد السالوس، دار الثقافة قطر، مكتبة دار القران، الطبعة التاسعة: ١٤٢٧ه.
- الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيري، وآخرون، الناشر: مجلة الحكمة، مانشستر - بريطانيا، الطبعة الأولى: ١٤٢٤ هـ.
- النقود والمصارف، تأليف: كمال شرف وهاشم أبو عراج، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٣ه.
- نوازل الزكاة، تأليف:الدكتور عبدالله بن منصور الغفيلي، دار الميمان، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ.
- الورق النقدي، تأليف: عبدالله بن سليمان بن منيع، مطابع الفرزدق التجارية الرياض، الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.



معالم فقه الفتوى

عند الشيخ ابن سعدي

د. طلال بن سليمان الدوسري

أستاذ الفقه المقارن المساعد- كلية الشريعة والدراسات

الإسلامية - جامعة القصيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل زمان بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى وينهونه عن الردى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى وبسنة رسول الله - ﷺ - أهل الجهالة والردى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن آثارهم على الناس[1]، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنه «ليس تنزل بأحد نازلة إلا والكتاب يدل عليها نصاً أو جملة[2]»، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، غير أن استنباط أحكام الله سبحانه من كتابه وسنة رسوله ﷺ وتنزيلها على ما يناسبها من الوقائع جنساً وأفراداً: رتبة منيفة لا يقوم بها إلا الصفوة من الناس الذين استكملوا العلوم والأدوات المؤهلة لهم، فبان أثرهم وعظم في الناس نفعهم، «هم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب[3]»، فلا غرو أن يشبههم النبي ﷺ بالغيث أصاب أرضاً نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا

---

(١) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، ١/ ٣٤٢.

(٢) الرسالة، ص ١٩. وينظر: الأم، ٧/ ٣١٣. وقال ابن رشد الجد: «فلا نازلة إلا والحكم فيها قائم من القرآن إما نص، وإما بدليل علمه من علمه، وجهله من جهله...»، فتاوى ابن رشد، ٢/ ٧٦٢.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم ١/ ٨.

وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مَثَلُ من فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"[1].

وإن من الفقهاء المتأخرين الذين نفع الله بهم وبعلومهم الأمة الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦)، وآثاره العلمية شاهدة بعلو كعبه وتقدم رتبته في علوم الشريعة عامة وفي الفقه خاصة، وإن مما يستوقف الناظر فيها وبالأخص ما حفظ من فتاويه ومراسلاته الفقه العالي منه -رحمه الله- في الفتوى، ولذا يأتي هذا البحث المقدم لمؤتمر (الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي «آثاره ومنهجه في الاجتهاد والتجديد والفتوى»)، محاولاً استجلاء معالم فقه الفتوى عند الشيخ رحمة الله عليه.

مشكلة البحث:

تتلخص مشكلة البحث -في الجملة- في الآتي:

١- ما معالم فقه الفتوى عند الشيخ عبد الرحمن بن سعدي؟

٢- ما شواهد معالم فقه الفتوى عند الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في كلامه؟

٣- ما شواهد ذلك عند الفقهاء السابقين؟

أهمية الموضوع:

تتجلى أهمية الموضوع فيما يلي:

١. أهمية فقه الفتوى من حيث هي.

٢. مكانة الشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله-، وعلو كعبه في الفقه والفتوى.

---

(١) رواه البخاري، ١/ ٢٧، ح (٧٩)، ومسلم ٤/ ١٧٨٧، ح(٢٢٨٢).

أهداف البحث:

١- بيان معالم فقه الفتوى عند الشيخ عبد الرحمن بن سعدي.

٢- بيان شواهد معالم فقه الفتوى عند الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في كلامه.

٣- بيان شواهد ذلك عند الفقهاء السابقين.

منهج البحث:

يأخذ البحث بالمنهج الاستقرائي في تتبع معالم فقه الفتوى عند الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، والمنهج التحليلي والمقارن في دراستها.

خطة البحث:

جاء هذا البحث في: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، كالآتي:

المقدمة، وفيها: مشكلة البحث، وأهميته، وأهدافه، ومنهجه، وخطته.

تمهيد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ترجمة موجزة للشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-.

المطلب الثاني: المراد بفقه الفتوى.

المطلب الثالث: أهمية فقه الفتوى.

المبحث الأول: معالم فقه الفتوى المتعلقة بمسائل الفتوى من حيث العموم، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: ملاحظة الفرق بين مقام الفتوى للناس وغيره من المقامات.

المطلب الثاني: ملاحظة تعلق المسألة بأكثر من طرف وإفتاء كل طرف بما يخصه

المطلب الثالث: التحقق من مآخذ الفتاوى السابقة قبل تنزيلها على الوقائع المتجددة.

المطلب الرابع: مراعاة تغير الزمان في التسهيل في الفتاوى ما لم تخالف نصاً.

المبحث الثاني: معالم فقه الفتوى المتعلقة بسؤال المستفتي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تصحيح السؤال للمستفتي.

المطلب الثاني: الاستفصال من المستفتي عما له أثر في الحكم.

المطلب الثالث: ترك الفتوى في المسائل القضائية.

المبحث الثالث: معالم فقه الفتوى المتعلقة بتنزيل الفتوى، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: اعتبار الفتوى السائدة وعدم إظهار المخالفة خاصة إذا كان المخالف لن يعمل بفتواه عامة الناس.

المطلب الثاني: التوقف عن إظهار الفتوى التي يرى صحتها في نفسها لئلا تُتخذ سلماً للتلاعب.

المطلب الثالث: الفتوى بالعمل بالمفضول وترك الفاضل للمصلحة.

المطلب الرابع: مراعاة الخلاف في المسائل.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

والله المسؤول التوفيقَ إلى الصواب والرَّشَد في القول والعمل، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

المطلب الأول: ترجمة موجزة للشيخ عبدالرحمن السعدي -رحمه الله-[1].

اسمه ونسبه: أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من بني العنبر، من بني عمرو، أحد أفخاذ بني تميم، وأخواله آل عثيمين، ومنهم تلميذه الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

ولادته ونشأته: ولد -رحمه الله- في مدينة عنيزة في القصيم، في (١٢/ ١/ ١٣٠٧ هـ)، وتوفّيت أمّه سنة (١٣١١ هـ) وعمره أربع سنين، ثم توفّي والده سنة (١٣١٤ هـ) وعمره سبع سنين، فنشأ يتيم الأبوين في حجر زوجة والده حتى شبّ، ثم انتقل إلى بيت أخيه الأكبر حمد فنشأ في رعايته.

طلبه للعلم ومشايخه: لمّا تجاوز سنّ التمييز، شرع في حفظ القرآن، فأتمّ حفظه وعمره اثنا عشر عامًا على المقرئ الشيخ سليمان الدامغ، وتتلمذ على جملة من الشيوخ منهم:

١- الشيخ العلامة: صالح بن عثمان القاضي، قاضي عنيزة (ت١٣٥١)، وقد لازمه الشيخ نحوا من عشرين سنة حتى توفّي.

٢- الشيخ المحدّث: إبراهيم بن حمد الجاسر (ت ١٣٣٨)، درس عليه الشيخ مدّة قضائه في عنيزة، من (عام ١٣١٨ هـ) إلى (عام ١٣٢٤ هـ).

---

(١) عدت في هذه الترجمة الموجزة إلى: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي كما عرفته، لتلميذه الشيخ عبدالله ابن عقيل، وعلماء نجد خلال ثمانية قرون، لتلميذه الشيخ عبدالله البسام، ٣/ ٢١٨-٢٧٢. مقدمة مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ١/ ٣٥-٣٥١.

٣- الشيخ المحدّث: علي بن ناصر أبو وادي (ت١٣٦١)، الذي أخذ عن مشايخ الهند، وقد أجاز الشيخ بمروياته، وغيرهم.

تلاميذه: أخذ عنه العلم طائفة كبيرة من طلبة العلم، عد الشيخ عبدالله البسام منهم (١٤٨)، ومن أبرزهم:

١- الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١).

٢- الشيخ العلامة عبدالله بن عبدالعزيز العقيل (ت ١٤٣٢).

٣- الشيخ العلامة عبدالله بن عبدالرحمن البسام (ت ١٤٢٣).

مكانته العلمية: للشيخ -رحمه الله- مكانته العلمية العالية التي تنبؤ عنها مؤلفاته في كثير من الفنون، إضافة إلى مراسلات كثير من علماء عصره معه حتى من خارج قطره، وفيها استفتاؤه في كثير من المسائل المشكلة، وفيها كلامه المحرر في جملة من النوازل الفقهية، التي كان هو من أول أو أوائل من تكلموا فيها.

مؤلفاته: شرع الشيخ -رحمه الله- في التأليف مبكّرًا، وقد ألّف في كثير من الفنون، وزادت مؤلفاته عن خمسين مؤلَفاً ومن أشهرها:

١- تفسيره المشهور الذي سمّاه: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان)، وهو أول عالم من علماء نجد فسّر القرآن كاملا.

٢- بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار.

٣- منهج السالكين وتوضيح الفقه في الدين.

٤- المختارات الجليّة في الفقه.

٥- القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة.

وقد جُمعت مؤلفاته -رحمه الله- في ٢٦ مجلدا.

وفاته: أصيب الشيخ في آخر حياته بمرض ضغط الدم وتصلّب الشرايين، ولمّا

زاد عليه اضطر للسفر إلى لبنان عام (١٣٧٣ هـ)، فعالجه الأطباء ونصحوه بالراحة، ثم عاد إليه المرض إليه أشدّ ممّا كان، وفي ليلة الأربعاء: (٢٢ / ٦ / ١٣٧٦) بعد أن صلى بالناس صلاة العشاء، أصيب بإغماء، لم يفق منه إلا فترة بسيطة، طَمْأَنَ فيها الحاضرين من أهله، وهوّن عليهم الأمر، ثم عاد إليه الإغماء، وفاضت روحه سَحَرَ ليلة الخميس: (٢٣/ ٦/ ١٣٧٦)، فرحمه الله برحمته الواسعة.

المطلب الثاني: المراد بفقه الفتوى.

تعريف الفقه:

في اللغة: الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح، يدل على إدراك الشيء والعلم به، والفقه هو: الفهم، والفعل منه: فَقُهَ يَفْقُهُ إذا صار فقيهاً، وفَقِهَ يَفْقَهُ أي فهم، وفَقَهه: إذا غلبه في الفقه، يقال: فَاقَهَهُ فَفَقَهَهُ، أي غلبه في الفقه[١].

في الاصطلاح: هو: «العلم بالأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية بالاستدلال[٢]»، ويطلق الفقه أيضاً على الأحكام الشرعية نفسه أيضاً، ولذا قال البهوتي (ت ١٠٥١) في تعريفه: «معرفة الأحكام الشرعية الفرعية بالفعل أو القوة القريبة أو الأحكام المذكورة نفسها[٣]».

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ٥/ ٢٦٣، مقاييس اللغة، لابن فارس ٤/ ٤٧٣-٤٧٤، تاج العروس، للزبيدي، ٣٦/ ٤٥٦-٤٥٧.

(٢) المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح، ١/ ١٧. وينظر: الإبهاج في شرح المنهاج، للسبكي، ١/ ٢٨، البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، ١/ ٣٤.

(٣) كشاف القناع، ١/ ١٧.

تعريف الفتوى:

في اللغـة: من (فتى) والفاء والتاء والحـرف المعتل أصلان: أحدهما يدل على طـراوة وجدة، والآخـر على تبيين حكم، وهـو الفتيا ويقال منه فتـوى وفتيا، يقال: أفتى الفقيه في المسـألة، إذا بين حكمها. واسـتفتيت، إذا سـألت عن الحكم، وقيل بأنهما أصل واحد فالفتيا تبيين المشـكل من الأحكام، أصله من الفتي، وهو الشاب الحدث الذي شب وقوي فكأنه يقوي ما أشكل ببيانه، فيشب ويصير فتيا قويا[1].

في الاصطلاح: عُرفت الفتوى بأنها: «تبيين الحكم الشرعي للسائل عنه والإخبار بلا إلزام[2]»، وعرفت: بأنها: «الإخبار بالحكم الشـرعي لا على وجه الإلزام سـواء كانت بكُتب أو إخبار[3]».

المراد بفقه الفتوى: الفقه المتعلق بتنزيل الحكم الشرعي على الوقائع الخاصة وما يحتف به.

المطلب الثالث: أهمية فقه الفتوى.

تظهـر أهمية فقـه الفتوى من أهمية الفتوى في نفسـها وما تحتاجـه الفتوى من متطلبات لا بد للمفتي من استكمالها قبل مباشرته للفتوى.

أمـا أهمية الفتوى نفسـها فتظهر من كون الشـريعة إنما نزلـت لأجل أن يُعمل بهـا وتُحكّم على أفعال المكلفين، قال الشـاطبي (ت٧٩٠): «الشـرائع إنما جاءت

(١) ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري، ٥/ ٢٣٤، مقاييس اللغة، لابن فارس ٤/ ٤٤٢.

(٢) ينظر: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، للرحيباني، ٦/ ٤٣٧.

(٣) ينظر: شـرح مختصر خليل، للخرشـي، ٣/ ١٠٩. وللتوسـع ينظر: العدول عـن القول الراجح في القضاء والفتيا، د.عاصم المطوع، ص ٦١-٦٩.

لتحكم على الفاعلين من جهة ما هم فاعلون[1]»، وقال أيضاً: «ولو فرض ارتفاع هذا الاجتهاد لم تتنزل الأحكام الشرعية على أفعال المكلفين إلا في الذهن[2]»، والفتوى هي السبيل لتنزيل أحكام الشريعة على الوقائع حتى تكون كلها محكومة بالشريعة، والمفتي من هذه الجهة قائم مقام النبي ﷺ وحسبك به من مقام! قال الشاطبي (ت٧٩٠): «فالمفتي مخبر عن الله كالنبي، وموقع للشريعة على أفعال المكلفين بحسب نظره كالنبي[3]».

ومن جهة أخرى تظهر أهمية الفتوى من كونها لا تتأتى إلا عن اجتهاد، حتى لو كان مناطها مجمعاً عليه فإن تحقيقه على الواقعة مسألة مستجدة لا يتأتى فيه التقليد[4].

وأما ما تحتاجه الفتوى من متطلبات لا بد للمفتي من استكمالها قبل مباشرته للفتوى[5]، فإن المفتي يحتاج إلى نوعين من الفقه:

١- فقه يمكنه من استخراج الأوصاف المؤثرة وتحريرها، وهذا هو نظر الفقيه من حيث هو فقيه، فيحتاج المفتي من هذه الجهة لما يحتاجه الفقيه من متطلبات وأدوات.

٢- فقه آخر يمكنه من تنزيل تلك الأوصاف المؤثرة على الوقائع الخاصة، وهذا من المفتي قدر زائد في النظر على نظر الفقيه، يشترك فيه مع القاضي غير أن القاضي يزيد عليه بتدقيق النظر في صورة المسألة التي ينزل عليها الحكم بطلب

(١) الموافقات، ٣/ ٢٣٢.

(٢) الموافقات، ٥/ ١٧. وينظر: ٣/ ٢١٧، ٥/ ٢٥٧.

(٣) الموافقات، للشاطبي، ٥/ ٢٥٧. وينظر: فتاوى السبكي، ٢/ ٥٤٣.

(٤) ينظر: الموافقات، ٥/ ١٧.

(٥) ينظر: نشر العرف في بعض الأحكام المبنية على العرف، لابن عابدين، ضمن رسائله، ٢/ ١٢٩.

البينات، ولا يسلم بذلك للمدعي كما هو شأن المفتي مع المستفتي[1].

قال السبكي (ت٧٥٦): «وظيفة العلماء في الكتب ذكر المسائل الكلية، ووظيفة المفتي تنزيل تلك الكليات على الوقائع الجزئية فإذا علم المفتي اندراج ذلك الجزئي في ذلك الكلي أفتى فيه بالحكم المذكور في الكتب..[2]».

ويقول في كلام فيه تفصيل لكلامه السابق: «واعلم يا أخي أن العلماء الكاملين المبرزين يجيئون من الفقه على ثلاث مراتب:

إحداها: معرفة الفقه في نفسه، وهو أمر كلي؛ لأن صاحبه ينظر في أمور كلية وأحكامها كما هو دأب المصنفين والمعلمين والمتعلمين، وهذه المرتبة هي الأصل.

الثانية: مرتبة المفتي وهي النظر في صورة جزئية وتنزيل ما تقرر في المرتبة الأولى، فعلى المفتي أن يعتبر ما يُسأل عنه وأحوال تلك الواقعة ويكون جوابه عليها؛ فإنه يخبر أن حكم الله في هذه الواقعة كذا بخلاف الفقيه المطلق المصنف المعلم لا يقول في هذه الواقعة بل في الواقعة الفلانية وقد يكون بينها وبين هذه الواقعة فرق، **ولهذا نجد كثيراً من الفقهاء لا يعرفون أن يفتوا**، وأن خاصية المفتي تنزيل الفقه الكلي على الموضع الجزئي وذلك يحتاج إلى تبصر زائد على حفظ الفقه وأدلته، ولهذا نجد في فتاوى بعض المتقدمين ما ينبغي التوقف في التمسك به في الفقه ليس لقصور ذلك المفتي معاذ الله بل؛ **لأنه قد يكون في الواقعة التي سئل عنها ما يقتضي ذلك الجواب الخاص**، فلا يطرد في جميع صورها وهذا قد يأتي في بعض المسائل، ووجدناه بالامتحان والتجربة في بعضها ليس بالكثير، والكثير أنه

---

(١) ينظر: المطلب الثاني من المبحث الثاني.

(٢) ينظر: فتاوى السبكي، ١/ ٢١٣.

مما يتمسك به فليتنبه لذلك، فإنه قد تدعو الحاجة إليه في بعض المواضع فلا نلحق تلك الفتوى بالمذهب إلا بعد هذا التبصر.

المرتبة الثالثة: مرتبة القاضي وهي أخص من رتبة المفتي؛ لأنه ينظر فيما ينظر فيه المفتي من الأمور الجزئية وزيادة ثبوت أسبابها ونفي معارضتها، وما أشبه ذلك، وتظهر للقاضي أمور لا تظهر للمفتي فنظر القاضي أوسع من نظر المفتي ونظر المفتي أوسع من نظر الفقيه، وإن كان نظر الفقيه أشرف وأعم نفعا[1]».

وقال ابن عرفة (ت٨٠٣): «حال الفقيه من حيث هو فقيه كحال عالم بكبرى قياس الشكل الأول فقط، وحال القاضي والمفتي كحال عالم بها مع علمه بصغراه، ولا خفاء أن العلم بها أشق، وأخص من العلم بالكبرى فقط، وأيضاً فقها القضاء والفتوى مبنيان على إعمال النظر في الصور الجزئية، وإدراك ما اشتملت عليه من الأوصاف الكائنة فيها، فيلغي طرديها، ويعمل مستعيرها[2]؛ ولذا ذكر ابن الرقيق أن أمير إفريقية استفتى أسد بن الفرات في دخوله بجواريه الحمام دون ساتر له ولهن، فأجاب بجوازه؛ لأنهن ملكه، فأجابه أبو محرز بمنع ذلك قائلاً له: لأنه إن جاز لك نظرهن كذلك، ونظرهن إليك كذلك؛ لم يجز لهن نظر بعضهن بعضاً كذلك، فأغفل أسد إعمال كمال النظر في هذه الصورة الجزئية، فلم يدرك حالهن فيما بينهن، واعتبره أبو محرز فأصاب[3]».

وقد ذكر الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) احتياج الفقيه من حيث قيامه بالإفتاء

---

(١) ينظر: فتاوى السبكي، ٢/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) كذا، ولعل الصواب: معتبرها، كما يدل عليه النقل في المراجع المذكورة في هامش ٢.

(٣) المختصر الفقهي لابن عرفة، ٩/ ٩١-٩٢. وينظر: مواهب الجليل، للحطاب، ٦/ ٨٧، منح الجليل، لعليش، ٨/ ٢٥٦.

إلى الأخذ بطرف من العلوم بصورة لا يضاهيه فيها غيره، وفي هذا يقول: «واعلم أن العلوم كلها أبازير الفقه، وليس دون الفقه علم إلا وصاحبه يحتاج إلى دون ما يحتاج إليه الفقيه؛ **لأن الفقيه يحتاج أن يتعلق بطرف من معرفة كل شيء من أمور الدنيا والآخرة**، وإلى معرفة الجد والهزل، والخلاف والضد، والنفع والضر، وأمور الناس الجارية بينهم، والعادات المعروفة منهم، فمن شرط المفتي النظر في جميع ما ذكرناه ...[1]»، وفي المعنى نفسه يقول ابن الجوزي (ت٥٩٧): «إن الفقه يحتاج إلى جميع العلوم، فليأخذ من كل شيء منها مهماً[2]».

وبناء على ما سبق: فإنه لا تلازم بين الحذق في الفتوى والحذق في الفقه أو القضاء، وهذا أمر مدرك ومشهود في الواقع، قال إياس بن معاوية (ت١٢٢) : «إن أردت الفقه فعليك بمعلمي ومعلم أبي الحسن بن أبي الحسن، فإن أردت الفتيا فعليك بعبد الملك بن يعلى، وإن أردت القضاء فعليك بعباد بن منصور[3]»، وقال عامر الشعبي (ت ١٠٤) مفاضلا بين مسروق وشريح: «مسروق أعجبهما إليّ فتيا، وشريح أعجبهما إلى قضاء[4]».

ولذا فإن الحذق في الفتوى يحتاج إلى خبرة وممارسة، لا ينال بدونهما مهما علا كعب المرء في الفقه، وتقدمت فيه مرتبته، وكثير من الخطأ الواقع في بعض الفتاوى ليس منشؤه قصوراً معرفياً بل هو ناشئ عن الخطأ في التنزيل الذي قد ينتجه نقص الخبرة وقلة الممارسة.

---

(١) الفقيه والمتفقه، ٢/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) صيد الخاطر، ص٤٥٨.

(٣) أخبار القضاة، لوكيع، ١/ ٣٤٩-٣٥٠.

(٤) أخبار القضاة، لوكيع، ٢/ ٢٤٧.

قال أيوب بن سليمان (ت ٣١٠): «الفتيا دربة»، وكثيراً ما كان أبو عبد الله بن عتاب (ت ٤٦٢) يقول: «الفتيا صنعة»[١]، وقال بعض الحنفية: «لو أن الرجل حفظ جميع كتب أصحابنا لا بد أن يتتلمذ للفتوى حتى يهتدي إليها[٢]»، وهذا أبو الأصبغ بن سهل (ت ٤٨٦) يحكي تجربة فيقول: «لولا حضوري مجلس الشورى مع الحكام[٣] ما دريت ما أقول في أول مجلس شاورني سليمان بن أسود وأنا أحفظ المدونة والمستخرجة الحفظ المتقن، ومن تفقد هذا المعنى من نفسه ممن جعله الله إماماً لجأ إليه ويعول الناس في مسائلهم عليه وجد ذلك حقاً وألفاه ظاهراً وصدقاً ووقف عليه عياناً وعلمه خبراً، والتجربة أصل في كل فن، ومعنى مفتقر إليه في العلم[٤]».

ومن مجموع الأمرين السابقين (أهمية الفتوى في نفسها وما تحتاجه الفتوى من متطلبات وأدوات) تظهر أهمية فقه الفتوى ولزوم العناية به؛ لأجل أن تأتي الفتوى ملاقية للمسألة على الوجه الصحيح محققة لمقصود الشارع، وتتأكد العناية بفقه الفتوى في هذا العصر عصر الاتصال والتواصل من جهتين:

١- سرعة انتشار الفتوى ومن ثم اتساع دائرة الانتفاع بها، حتى في غير بلد المفتي والمستفتي.
٢- اتساع دائرة المستفتين بالنسبة للمفتي، فلا يقتصرون على بلده أو ما جاوره، بل ربما أفتى في يوم واحد لمستفتين من جميع القارات!

(١) ينظر في النقلين السابقين: الإعلام بنوازل الأحكام، ص: ٢٤، وينظر: الفتوى في الشريعة الإسلامية، لابن خنين، ١/ ١٨٤.

(٢) نشر العرف في بعض الأحكام المبنية على العرف، لابن عابدين، ضمن رسائله، ٢/ ١٢٩.

(٣) في الإعلام: «وأول حضوري في مجالس الحكام..» والتصويب من تبصرة الحكام، ١/ ٢.

(٤) الإعلام بنوازل الأحكام، ص: ٢٤، وينظر: الفتوى في الشريعة الإسلامية، لابن خنين، ١/ ١٨٤.

وهذا يؤكد ضرورة العناية الفائقة بفقه الفتوى؛ إذ أثر الخطأ حينئذ أعم.

كما يظهر مما تقدم أهمية النظر في مسالك الفقهاء المبرزين في الفتوى -كالشيخ السعدي -رحمه الله- ومناهجهم فيها واستجلاء معالم فقههم في الإفتاء، وتقريب ذلك للمسترشدين.

المبحث الأول: معالم فقه الفتوى المتعلقة بمسائل الفتوى من حيث العموم.

المطلب الأول: ملاحظة الفرق بين مقام الفتوى للناس وغيره من المقامات.

ملاحظة الفرق بين مقام الفتوى للناس وغيره من المقامات كالمناظرة والمذاكرة والتعليم أمر في غاية الأهمية للمفتي؛ إذ إن ما يقرره المرء في مسألة ما في مقام التعليم -مثلاً- لا يلزم أن يفتي به في واقعة للمسألة نفسها، فقد يرى المفتي التوقف والامتناع عن الفتوى، وقد يرى الأخذ بقول آخر لاعتبار صحيح.

وهذا المعنى حاضر في تراث الشيخ -رحمه الله-، ومن ذلك:

١- قوله مقرراً هذه القاعدة ومبيناً مأخذها: «الكلام في المناظرة والمذاكرة والتعلم والتعليم له حال، وهو النظر إلى الأدلة والتراجيح بقطع النظر عن الأمور الأخر. والكلام في الفتوى كما تراعى فيه التراجيح، فيراعى أيضا فيه حالة الوقت وعمل الناس ومراعاة المصالح وسد المفاسد..[1]». وقد جاء كلامه السابق في مسألة الرمي قبل الزوال تعليقاً على رسالة الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود (ت١٤١٧)، فمع تقوية الشيخ لقوله وصحة تقريره، إلا أنه لم ير الإفتاء به؛ لما سبق ولغيره مما يأتي، كما أنه في كلامه بيّن ما يتعلق به النظر في مقام الفتوى، وكذا في المقامات الأخرى.

٢- وفي مسألة أخرى وهي مسألة الطلاق الثلاث يقول الشيخ -رحمه الله- مبيناً تفريقه بين مقام الفتوى وغيره من المقامات: «وأما الإفتاء بها، فنحن وإن قررنا

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ٣٣٤.

كلام الشيخ وصححناه، فإنا نمسك عن الفتوى فيها لملاحظ متعددة[1]».

هذا، والتفريق بين مقام الفتوى وغيره من المقامات ملاحظ عند أهل العلم من جهات عدة، ومن ذلك تفريقهم بين الفتوى والتصنيف من جهة الاختصار في الفتوى[2]، وفي وصية أبي حنيفة (ت١٥٠) لتلميذه أبي يوسف (ت١٨٢): «وإن استفتوك المسائل فلا تناقشهم في المناظرة والمطارحات[3]».

وكذلك الشأن في بقية المقامات من حيث مراعاة اختصاص بعضها ببعض الأمور، ومن ذلك الخلاف الوارد في المناظرة ذكر بعض العلماء أنه لا ينبغي نقله إلا إذا تحقق استقراره عليه؛ لأنه واقع في موضع ضرورة وقد يكون صاحبه في مهلة النظر، ومثلوا لذلك بأمثلة[4].

المطلب الثاني: ملاحظة تعلق المسألة بأكثر من طرف وإفتاء كل طرف بما يخصه.

من معالم فقه الفتوى عند الشيخ -رحمه الله- ملاحظة تعلق بعض المسائل بأكثر من طرف وإفتاء كل طرف بما يخصه، ومن شواهد ذلك في كلامه -رحمه الله-:

١- قوله جواباً لسؤال حول تعدد الجمعة: «وعندي أن الخطاب في هذا الباب

---

(١) الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية، ص ٦٣.

(٢) ينظر: آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، للنووي، ص: ٦٥، صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لابن حمدان، ص: ٦٠.

(٣) ينظر: الأشباه والنظائر، لابن نجيم، ص ٣٧٠.

(٤) ينظر: المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي، ٢/ ١٤٠. وللتوسع في التفريق بين المقامات ينظر: المجالس الفقهية، د. هيثم الرومي، ص ٣٣ وما بعدها.

على وجهين: وجه يوجه لولاة الأمور الذين يتولون شؤون البلاد وتصدر تدابيرها عن أمرهم وإرادتهم. فمن هذا الوجه يتعين عليهم جمع الناس في مسجد واحد إذا حصلت به الكفاية، ويزيدون بقدر الكفاية فقط اقتداء بالنبي ﷺ وخلفائه وأصحابه، إذ هو كالاتفاق على أن يوم الجمعة يجتمع أهل البلد في مسجد واحد. وقد زاد بعض الخلفاء في بعض المدن الواسعة عند الحاجة، وأيضا لتحصيل المقصود من الجمعة، وهو اجتماع أهل البلد أو ما أمكن منهم في مسجد واحد، فهؤلاء هم الذين يوجه عليهم اللوم إذا تعددت الجمعات من دون حاجة.

وأما الوجه الآخر الذي يوجه للمصلين من أهل البلد، فإنه متى تعددت الجمعات لغير حاجة فلا حرج عليهم ولا يوجه إليهم لوم[1]».

٢- وقال: «وأما مسألة أنّ ذلك من شروط الجمعة وأنها لو تعدّدت لغير حاجة بطلت، **فقد ذكرت لكم سابقا من مدّة سنتين أننا نرى أنّ مسألة وجوب التوحيد لها منوط بمن له الأمر، وأما المصلون فلا نرى بطلان جمعتهم وإن أثم غيرُهم[2]**».

٣- وقال أيضاً في المسألة ذاتها: «إذا صار في البلد جمعات متعددة لغير حاجة، ووقعت معاً، أو جهل السابق منها، أعادوها على المذهب، **والذي أرى أن التبعة في التعدد لغير حاجة على من له أمر واقتدار فيها، وأما صحة الصلاة وعدمها فلا دخل له في ذلك[3]**».

٤- بل إن الشيخ -رحمه الله- أفتى من استفتاه بتولي الخطابة فيها! وفي هذا يقول:

---

(١) من رسالة للشيخ محمد السليمان الجراح ضمن الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، ص٢١٠-٢١١.

(٢) من رسالة للشيخ محمد السليمان الجراح ضمن الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، ص ٢٣٠.

(٣) الفتاوى السعدية، ص ١٢٩.

« فرأيي لجنابكم إذا كانت هيئة الأوقاف قد قررت الجمعة في المسجد الذي أنتم تصلون فيه أن توافقهم عليه؛ لأن امتناعك لا يغير الوضع الواقع عندكم، ويعلم الله من نيتكم أن لو كانت الأمور تحت إرادتكم لاقتصرتم على قدر الحاجة[1]».

٥- وفي مسألة أخرى تتعلق بصرف هيئة رسمية للأوقاف لريع أوقاف على معينين، بوضع مفروشات في المساجد يقول:« .. أما الصلاة في تلك المساجد التي وضعت فيها هذه المفروشات، فالذي أرى أنه لا حرج فيها على المصلين سواء كان المنفذون لها مصيبين أو مخطئين، فالتبعة بتقدير الخطأ على المنفذين، أما المصلون فنهاية الأمر أن يكون شبهة في حقهم، والشبهة لا إثم فيها، وعند الحاجة إلى الصلاة تخف الشبهة، كما نص العلماء على أن كل مكروه احتيج إليه تزول الكراهة[2]».

٦- ومما يشبه هذا المقام: تفريق الشيخ -رحمه الله- بين تعلق العمل به وتعلقه بغيره، وفي هذا يقول: «وعلى كل حال فمسائل الخلاف إن تعلقت بالإنسان وصار ملزوما بتنفيذها بنفسه فعليه أن يعمل بالقول الذي يعتقده، وإن كانت منوطة بغيره فيسعه السكوت عنها؛ لأن العاملين بها ربما لهم تأويلات، وإنما الذي يجب إنكاره مع القدرة مسائل الإجماع[3]».

(١) من رسالة للشيخ محمد السليمان الجراح ضمن الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، ص ٢١٦.

(٢) من رسالة للشيخ محمد السليمان الجراح ضمن الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، ص ١٧٧.

(٣) من رسالة للشيخ محمد السليمان الجراح ضمن الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، ص ١٧٨.

المطلب الثالث: التحقق من مآخذ الفتاوى السابقة قبل تنزيلها على الوقائع المتجددة.

التحقق من مآخذ الفتاوى السابقة قبل تنزيلها على الوقائع المتجددة أمر في غاية الأهمية للمفتي، سواء في بيان رأيه الذي يستأنس فيه بمن سبقه، أو حينما يُسأل المفتي عن مذهب معين في مسألة من المسائل.

ومن شواهد ذلك عند الشيخ- رحمه الله-:

١- ما أجاب به من سأله: «قول الأصحاب[١] في شركة العنان والمضاربة: لا يشترط كون المالين من جنس، فهل هو مطلقًا، أو فيه تفصيل؟»، إذا إنه بيّن الفرق الذي يمنع من تنزيل كلامهم على إطلاقه في هذا العصر، وفي هذا يقول: «قول الأصحاب -رحمهم الله- في شركة العنان، وكذا المضاربة إذا كانت من متعددين: ولا يشترط أن يكون المالان من جنس واحد، فيصح أن يخرج أحدهما دنانير، والآخر دراهم، وعند التراجع كل منهما بما أخرج، ويقسمان الباقي، هذا بناء منهم على ثبات النقدين وبقائهما بقاء مستمرًّا بسعر واحد لا يزيد ولا ينقص كما هو في الأوقات الماضية؛ إذ كانت الدراهم والدنانير قيم الأشياء، ونسبة بعضها لبعض لا تزيد ولا تنقص. **وأما في هذه الأوقات، فقد تغيرت الأحوال، وصار النقدان بمنزلة السلع، تزيد وتنقص وليس لهما قرار يربطهما، فهذا لا يدخل في كلام الأصحاب قطعًا. وأما في هذا الوقت، فيتعين إذا أخرج أحدهما ذهبًا والآخر فضة، أن يجعل رأس ماليهما متفقًا، إما ذهب تقوَّم به الفضة، أو فضة يقوُّم به الذهب، فهذا هو العدل.**.[٢]».

---

(١) يعني الحنابلة.

(٢) ولكلامه تتمة مهمة. ينظر: الفتاوى السعدية، ص ٢٨٧-٢٨٨.

فيلاحظ في الفتوى السابقة أن الشيخ -رحمه الله- بيّن مأخذ الحنابلة في هذه المسألة، وأوضح تغيّر هذا المأخذ في هذا العصر عمّا كان عليه، على وجه لا يصح معه تنزيل قولهم على المسألة في هذا العصر.

٢- وفي مثال آخر سُئل الشيخ -رحمه الله- عن امرأة ماتت وفي بطنها ولد حي: هل يشق بطنها ويخرج، أم لا؟

فأجاب: «قد علم ما قاله الأصحاب -رحمهم الله- وهو أنهم قالوا: فإن ماتت حامل وفي بطنها ولد حي: حرم شق بطنها، وأخرج النساء بالمعالجات وإدخال اليد على الجنين من ترجى حياته، فإن تعذر لم تدفن حتى يموت ما في بطنها، وإن خرج بعضه حيًّا شق للباقي.

فهذا كلام الفقهاء بناءً على أن ذلك **مُثْلَةٌ بالميتة، والأصل تحريم التمثيل بالميت؛ إلا إذا عارض ذلك مصلحة قوية متحققة**، يعني: إذا خرج بعضه حيًّا فإنه يشق للباقي؛ لما فيه من مصلحة المولود، ولما يترتب على عدم الشق في هذه الحالة من مفسدة موته، والحي يراعى أكثر مما يراعى الميت، **لكن في هذه الأوقات الأخيرة حين ارتقى فن الجراحة صار شق البطن أو شيء من البدن لا يعد مُثْلَةً، فيفعلونه بالأحياء برضاهم ورغبتهم للمعالجات المتنوعة، فيغلب على الظن أن الفقهاء لو شاهدوا هذه الحال؛ لحكموا بجواز شق بطن الحامل بمولود حي** وإخراجه، وخصوصاً إذا انتهى الحمل وعلم أو غلب على الظن سلامة المولود، وتعليلهم بالمثلة يدل على هذا...[(١)]».

٣- ويقول في الاستدلال لجواز نقل الأعضاء: «نجيب عن كلام أهل العلم القائلين بأن الأصل في أجزاء الآدمي تحريم أخذها وتحريم التمثيل بها؛ فيقال: هذا يوم

---

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، ص٥٤-٥٦، وينظر: الفتاوى السعدية، ص ١٣٧.

كان ذلك خطراً وضرراً، وربما أدى إلى الهلاك، وذلك أيضاً في الحالة التي يهتك فيها بدن الآدمي وتنتهك حرمته، فأما في هذا الوقت؛ فالأمران مفقودان: الضرر مفقود بوجه، وانتهاك الحرمة مفقود؛ فإن الإنسان قد رضي كل الرضى بذلك، واختاره. وبذلك[1] مختاراً مطمئناً لا ضرر عليه ولا سقوط شيء من حرمته، والشارع إنما أمر باحترام الآدمي تشريفاً له وتكريماً، والحالة الحاضرة غير الحالة الغابرة، ونحن إنما أجزنا ذلك إذا كان المتولي لذلك طبيباً ماهراً وقد وجدت تجارب عديد للنفع وعدم الضرر؛ فبهذا يزول المحذور ... ونهاية الأمر أنّ هذا الأمر غير موجود في أول هذه الأمة لخطره وضرره في ذلك الوقت؛ فحيث انتقلت الحال إلى ضدها وزال الضرر والخطر لِـمَ لا يجوز ويختلف الحكم فيه لاختلاف العلة؟[2]».

فيلاحظ في كلام الشيخ السابق: أنه -رحمه الله- لحظ مآخذ كلام أهل العلم في هذه المسائل قبل تنزيله على الوقائع المتجددة لها، وأنتج ذلك أنه لم يراه جارياً عليها؛ نظراً لتخلف مآخذ الحكم وتغيرها، يستوي في ذلك بيانه لرأيه الذي يستأنس فيه بمن سبقه -كما في المسألتين الثانية والثالثة- أو حينما يُسأل المفتي عن مذهب معين في مسألة من المسائل كما في المسألة الأولى.

المطلب الرابع: مراعاة تغير الزمان في التسهيل في الفتاوى ما لم تخالف نصا.

من الفقه في الفتوى أن يراعي المفتي في فتواه تغير الزمان والحال، ومن ذلك التسهيل في الفتاوى ما لم تخالف نصاً، وهذا مما ينبني على معرفة الواقع وتنزيل

---

(١) لعلها: وبذله. كما أشار إلى ذلك المحقق.

(٢) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، ص٩٣-٩٦. وينظر: الفتاوى السعدية، ص ١٤٠-١٤٢.

الحكم الشرعي عليه بشكل صحيح -كما تقدمت الإشارة إلى ذلك-.

ومن شواهد ذلك في تراث الشيخ -رحمه الله-:

١- قوله: «ويلاحظ أيضاً في هذه الأوقات التسهيل ومجاراة الأحوال إذا لم يخالف نصًا شرعيًّا؛ لأن أكثر الناس لا يستفتون ولا يبالون، وكثير ممن يستفتي إذا أفتي بخلاف رغبته وهواه: ترك الْتزامَ ذلك، فالتسهيل عند تكافؤ الأقوال يخفف الشرَّ، ويوجب أن يتماسك الناس بعض التماسك؛ لضعف الإيمان، وعدم الرغبة في الخير أو نقصها، كما يلاحظ أيضاً أن يعرف الناس أن الدين الإسلامي لا يقف حاجزاً دون المصالح الخالصة أو الراجحة، بل يجاري الأحوال والأزمان ويتتبع المنافع والمصالح الكلية والجزئية، فإن الملحدين يموهون على الجهال أن الدين الإسلامي لا يصلح لمجاراة الأحوال والتطورات الحديثة، وهم في ذلك مفترون فإن الدين الإسلامي به الصلاح المطلق من كل وجه: الكلي والجزئي، وهو حلاَّل لكلِّ مشكلة خاصة أو عامة، وغيره قاصر من جميع الوجوه[1]».

قال الشاطبي (٧٩٠): « المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور؛ فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال.

والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة؛ فإنه قد مر أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين: خرج عن قصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، ص٩٦-٩٧. وينظر: الفتاوى السعدية، ص ١٤٢.

المذهب الوسط مذموماً عند العلماء الراسخين[1]».

هـذا، ومن فقه المفتي تفريقه بين عمله في نفسه وبين ما يفتي به الناس، وكذا تفريقه بين عمله في نفسه وبين الفتاوى المعمول بها مع عدم صحتها في نظره، يقول الشيخ -رحمه الله-: «مسائل الخلاف إن تعلقت بالإنسان وصار ملزوماً بتنفيذها بنفسه فعليه أن يعمل بالقول الذي يعتقده، وإن كانت منوطة بغيره فيسعه السكوت عنها؛ لأن العاملين بها ربما لهم تأويلات، وإنما الذي يجب إنكاره مع القدرة مسائل الإجماع[2]».

وتفريق المفتي بين عمله في نفسه وبين ما يفتي به الناس، وأخذه نفسه بالعزيمة: مأثور عن السلف، فهذا: ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ت١٣٦) يقول: «لا يكون الرجل فقيها حتى يتقي أشياء لا يراها على الناس ولا يفتيهم بها[3]»، وهذا تلميذه الإمام مالك (ت١٧٩) فيما نقل عنه كان يعمل في نفسه بما لا يلزمه الناس ولا يفتيهم به، ويقول: «لا يكون العالم عالماً حتى يعمل في خاصة نفسه بما لا يلزمه الناس ولا يفتيهم به، بما لو تركه لم يكن عليه فيه إثم[4]».

---

(١) الموافقات، ٥/ ٢٧٦.

(٢) من رسالة للشيخ محمد السليمان الجراح ضمن الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، ص ١٧٨.

(٣) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، ٢/ ٣٣٩.

(٤) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، ٢/ ٣٤٠.

المبحث الثاني: معالم فقه الفتوى المتعلقة بسؤال المستفتي.

المطلب الأول: تصحيح السؤال للمستفتي.

من فقه الفتوى عند الشيخ -رحمه الله- تصحيحه لسؤال المستفتي إذا بان له بأن السائل لم يحسن التعبير عما يريد في سؤاله.

ومن شواهد ذلك عند الشيخ -رحمه الله-:

١- أنه -رحمه الله- سُئل: إذا تزوج معيبة غير عالم بعيبها، ولم تكن عاقلة، وحلف وليها أنه لا يعلم العيب، أو كانت عاقلة، والعيب باطن، فحلفت هي ووليها أنهما لا يعلمان، فماذا نفعل؟

فقال: «مراد السائل بسؤاله بعد الدخول، لأنه قبل الدخول الأمر واضح ...» ثم ذكر الجواب[1].

٢- وفي مسألة أخرى، سأله تلميذه الشيخ عبدالله العقيل -رحمه الله- عن رجل اشترى سلعة وادعى أن بها عيباً قديماً، وأنكره البائع وأراد ردها، وفي أثناء ذلك زادت قيمتها الضعف، فأراد المشتري قبولها بعيبها، وأراد البائع الفسخ بالعيب، أيهم أحق بها؟ ومثل ذلك لو تلفت في هذه الحال؟

فأجابه الشيخ -رحمه الله- عن مسألته تلك ثم قال: «ويغلب على ظني أنك أردت في سؤالك مسألة غير ما صرحت به في السؤال، وهي: إذا باعه شيئاً مثلا بمئة درهم، ثم بان بعد ذلك عيب في المبيع، وقد نقصت قيمته، بحيث صار ما يسوى إلا خمسين مثلاً، واختار المشتري رده ليقبض الثمن الذي هو المائة، واختار البائع أن

---

(١) الفتاوى السعدية، ص ٣٥٦.

يقبله المشتري بأرشه، وهو مثلاً عشرون، ويقول البائع إنك لم تردّه لأجل العيب، إنما رددته لنقص القيمة»، وأجاب عن تلك المسألة وختم جوابه بقوله: « والظاهر أنك تريد هذه الصورة بسؤالك، لكن مع العجلة ما أعدت النظر في السؤال[1]».

هذا، وتصحيح السؤال للمستفتي أمر في غاية الأهمية، وذلك لأن المستفتي ربما عمل بفتوى من أفتاه في مسألته التي لم يحسن الإبانة عنها مع أن الفتوى وإن كانت ملاقية لسؤاله الذي صرح به إلا أنها غير ملاقية لمقصوده الذي ظن أن سؤاله معبر عنه.

وقريب من ذلك مما يحقق جنس ما يحققه تصحيح السؤال للمستفتي: ما يذكره أهل العلم من تفصيل المفتي للمسألة ذات الأقسام وإن كان سؤال المستفتي خالياً منها، ذلك أن المستفتي ربما أجمل سؤاله لظنه أن حكم الأقسام واحد، مع أن الأمر ليس كذلك، قال الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣): «ومتى كانت المسألة ذات أقسام لم تُفصل في السؤال، لم يجز أن يضع جوابه على بعضها فقط والقسم الآخر عنده بخلافه، بل يجب عليه أن يقسم المسألة، فيقول: إن كان كذا فالحكم فيه كذا، أو إن كان كذا فالحكم فيه كذا[2]»، واستشهد بحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن فأرة وقعت في سمن، فماتت، فقال: (إن كان جامداً، فخذوها، وما حولها، ثم كلوا ما بقي، وإن كان مائعاً، فلا تأكلوه[3])، فذكر النبي ﷺ قسمي المسألة مع إجمال السؤال.

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ١٨٢-١٨٤

(٢) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، ٢/ ٣٩٩.

(٣) رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده ١٢/ ١٠١، ح(٧١٧٧)، وأصله في الصحيحين بغير هذا اللفظ عن ميمونة رضي الله عنه، وقد صوب البخاري وابن أبي حاتم رحمهما الله أنه من حديث ميمونة لا من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما، ينظر: تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي، ٤/ ٨٢.

قال ابن القيم (ت٧٥١): «ومن تأمل أجوبة النبي ﷺ رآه يستفصل حيث تدعو الحاجة إلى الاستفصال ويتركه حيث لا يحتاج إليه، ويحيل فيه مرة على ما علم من شرعه ودينه من شروط الحكم وتوابعه ...[1]».

المطلب الثاني: الاستفصال من المستفتي عما له أثر في الحكم.

من الفقه في الفتوى أن يستفصل المفتي من المستفتي عما له أثر في الحكم وإرجاء الفتوى إلى حين ذلك، ومن شواهد ذلك في تراث الشيخ -رحمه الله-

١- ما جاء في رسالته لتلميذه الشيخ عبدالله ابن عقيل (ت١٤٣٢): «في طيه ورقة سؤال عن وقف تحبون أخذ رأينا فيه، والسؤال مهيب عادتك مجمل، ما فيه بيان أصلاً، لا بيان أنه وقف عمومي، ولا أهلي خصوصي، ولا ذكر الجهة التي وقف عليها، وتعرف أن الجواب يتوقف على ذلك، وتجده معاد عليكم بطيه، فلا بدكم تعيدون السؤال إن كانت المسألة إلى الآن ما بت فيها ولا اتضحت لكم[2]».

وأهمية الاستفصال من المستفتي عما له أثر في الحكم ناشئة عمّا تقرر من إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والقصور في التصور أو الخطأ فيه موجب للخطأ في الحكم ولا بد سواء كان تقريراً عاماً أو فتوى خاصة، والناظر فيما وقع من أغلاط في البحوث والفتاوى سيجد أن «أكثر أغلاط الفتاوى من التصور[3]»، ولذا لزم الفقيه والمفتي والقاضي تحصيله بشكل صحيح.

---

(١) إعلام الموقعين، ٤/ ١٤٩.

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ٢٢٤، وفي الرسالة ألفاظ عامية لأنها رسالة خاصة.

(٣) الفكر السامي، ٢/ ٥٧١.

وبما أن الفتوى تنزيل للحكم الشرعي على واقعة خاصة بلا إلزام: فإن معرفة الواقعة وتصورها وما يحتف بها يستقى بالدرجة الأولى من المستفتي نفسه، ويأتي في هذا السياق قول العز بن عبدالسلام (ت ٦٦٠): «المفتي أسير المستفتي، والحاكم أسير الحجج الشرعية والظواهر[1]»، «فإن القاضي يفحص ويستكشف من أسباب الحكم ما لا يستكشفه المفتي[2]». ومع ذلك فإن المفتي ينبغي أن يتحقق من المستفتي في تصويره للواقعة ودقة تعبير سؤاله عن مراده بشكل صحيح كما تقدم.

وبقدر حاجة المفتي إلى الفهم والمعرفة الشرعية الكافية والآلة المحصلة لذلك: يحتاج إلى معرفة وفهم للواقع؛ ذلك أن الفقه على حد تعبير ابن القيم (ت ٧٥١) «تنزيل المشروع على الواقع[3]».

ولو أردنا استجلاء المتطلبات التي لا بد منها للفقيه المفتي: لوجدناها ثلاثة متطلبات رئيسية، وهي:

١) معرفة المشروع.
٢) معرفة الواقع، ويكفي في هاتين المعرفتين تحصيلهما بغلبة الظن، فإذا غلب على ظنه أنه حقق ذلك: جاز له حينئذ تنزيل المشروع عليها، لا يُكلّف في ذلك أكثر من غلبة الظن؛ «فإن معظم متمسكات الفقه ظنون، فلا محاشاة[4]».
٣) القدرة على تنزيل المشروع على الواقع بشكل صحيح.

يقول ابن القيم (ت ٧٥١) بشأن هذين الفهمين -فهم الشرع وفهم الواقع،

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٢/ ٩١-٩٢. وينظر: المجالس الفقهية، ص ١٠١.

(٢) فتاوى السبكي، ٢/ ٥٤٤.

(٣) ينظر: زاد المعاد، ٥/ ٤٢٢.

(٤) نهاية المطلب في دراية المذهب، ٧/ ٥٢٦.

والقدرة من تنزيل أحدهما على الآخر- «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبّق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله[1]».

وقريباً من هذا قوله: «الحاكم محتاج إلى ثلاثة أشياء لا يصح له الحكم إلا بها: معرفة الأدلة والأسباب والبينات، فالأدلة تعرفه الحكم الشرعي الكلي والأسباب تعرفه ثبوته في هذا المحل المعين أو انتفاءه عنه، والبينات تعرفه طريق الحكم عند التنازع ومتى أخطأ في واحد من هذه الثلاثة أخطأ في الحكم وجميع خطأ الحكام مداره على الخطأ فيها أو في بعضها.

مثال ذلك: إذا تنازع عنده اثنان في رد سلعة مشتراة بعيب، فحكمه موقوف على العلم بالدليل الشرعي الذي يسلط المشتري على الرد، وهو إجماع الأمة المستند إلى حديث المصراة[2] وغيره، وعلى العلم بالسبب المثبت بحكم الشارع في هذا البيع المعين، وهو كون هذا الوصف عيباً يسلط على الرد أم ليس بعيب، وهذا لا يتوقف العلم به على الشرع، بل على الحس أو العادة أوالعرف أو الخبر ونحو ذلك، وعلى البينة التي هي طريق الحكم بين المتنازعين، وهي كل ما تبين له صدق

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/ ٦٩.

(٢) رواه البخاري، ٣/ ٧٠، ح(٢١٤٨)، ومسلم، ٣/ ١١٥٨، ح(١٥٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولفظ البخاري: (لا تصروا الإبل والغنم، فمن ابتاعها بعد فإنه بخير النظرين بعد أن يحتلبها: إن شاء أمسك، وإن شاء ردها وصاع تمر).

أحدهما يقيناً أو ظناً من إقرار أو شهادة[1]».

وكلام ابن القيم وإن كان وارداً في حكم الحاكم إلا أنه يصدق على المفتي لأن كلاً منهما ينزّل الحكم على واقعة معينة، غير أن المفتي لا يحتاج إلى معرفة البينات كما هو شأن القاضي؛ لأنه إنما يخبر عن الحكم دون إلزام، وعليه فهو يحتاج إلى معرفة شيئين من الثلاثة، وهي ما سماها بالأدلة والأسباب، ويقابلهما في كلامه السابق المنقول من إعلام الموقعين: فهم الواجب في الواقع (معرفة المشروع) وفهم الواقع، وإن كانت معرفة الأسباب أخص من معرفة الواقع أو فهمه، وذلك من جهة دركها للوصف المؤثر في الواقعة المستجلب لحكمه.

وإذا تقرر أهمية الاستفصال من المستفتي عما له أثر في الحكم، فإن المفتي يمكنه أن يرشد المستفتي إلى ما ينبغي ذكره مما له أثر في الحكم، ذلك أن المستفتي من شأنه أن يخفى عليه ما يؤثر في الحكم من أوصاف الواقعة وما لا يؤثر، وربما نشأ عن ذلك تركه لما ينبغي ذكره، وقد يكون ذلك لا لقصد العماية على المفتي، كما أنه قد يذكر جراء ذلك ما لا أثر له في الحكم، ولذا يلاحظ في رسالة الشيخ السابقة لتلميذه الشيخ عبدالله ابن عقيل (ت١٤٣٢): أن الشيخ في استفصاله منه أوضح له بعضاً مما ينبغي بيانه في المسألة المستفتى فيها، فيقول: «والسؤال مهيب عادتك مجمل، ما فيه بيان أصلا، لا بيان أنه وقف عمومي، ولا أهلي خصوصي، ولا ذكر الجهة التي وقف عليها، وتعرف أن الجواب يتوقف على ذلك...[2]».

---

(١) بدائع الفوائد، ٤/ ١٣١٨. وينظر: الموافقات، للشاطبي، ٣/ ٢٣١-٢٣٢، الفتوى في الشريعة الإسلامية، للشيخ عبدالله بن خنين، ٢/ ١٤.

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ٢٢٤، وفي الرسالة ألفاظ عامية لأنها رسالة خاصة.

المطلب الثالث: ترك الفتوى في المسائل القضائية.

من معالم فقه الفتوى عند الشيخ -رحمه الله- ترك الفتوى في المسائل القضائية، ويلاحظ امتناعه -رحمه الله- من الفتوى فيها حتى مع كون المستفتي من القضاة وطلبة العلم كما هو الظاهر من مراسلاته وفتاويه بهذا الشأن، كما يلاحظ أن ترك الفتوى في المسائل القضائية منهج مطرد لدى الشيخ -رحمه الله-، ومن شواهده:

١- جاء في إحدى مراسلاته: «وأما عن سؤالكم عن المسألة الأخرى وهي عقد الشركة في.. [1] فلا أرغب أفتي فيها لا بإثبات أنها لازمة ولا بنفي ذلك، **لأن المسائل التي يحصل فيها خصومات عند القضاة كلها ساد الباب عن الفتوى فيها**، ليكن هذا معلوما[2]».

وترك الفتوى في المسائل القضائية لا يقتصر عند الشيخ -رحمه الله- على الوقائع المنظورة لدى القضاة فحسب، بل يشمل مسائل الاختلاف التي يتعلق فيها أكثر من طرف ويفصل فيها القضاء، وإن كان يتأكد عنده -فيما يظهر- ترك الفتوى في المسائل القضائية في حالتين:

١- المسائل المنظورة والمحكوم فيها.

يقول الشيخ -رحمه الله- في إحدى المسائل مبيناً عذره في ترك الإفتاء فيها: «... وإنما القصد أن المسألة التي يحكم فيها، فليس الجوابُ والإجابةُ عنها محمودًا بل مذموم؛ لأن الحكم قد صدر، والجواب يصير ضرره أكثر من نفعه.

وأيضًا المسائل التي يحكم بها ليست أسئلة مجردة، وإنما هي واقعة بين شخصين، قد يطلع الحاكم بينهما على أحوال وأمور تخفى على الفقير، فهذا النوع

---

(١) كذا في المطبوع.

(٢) من رسالة للشيخ ناصر العبري ضمن الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية، ص ١٠٧-١٠٨.

عذر الإنسان فيه واضح، ولو أن الإنسان جازم جزمًا لا تردد فيه بغلط من يحسن الظن به مثل جنابك ما تركنا المناصحة، ولكن من شرط النصيحة عن الأغلاط أمران: تيقن الناصح بغلط الحاكم تيقنًا لا شك فيه، وأنه لا يترتب على ذلك مفسدة...[1]».

٢- المسائل التي اختلف فيها قضاة البلد.

يقول الشيخ -رحمه الله- في مسألة دخول أولاد البنات في الوقف على الأولاد مبينًا عذره في ترك الإفتاء فيها: «وحيث المسألة اختلف فيها قضاة نجد، منهم من يدخل أولاد البنات ومنهم من يخص الوقف بأولاد الذكور ولا يدخل أولاد البنات، فأنا معتذر لكل من يستفتيني في ذلك فلا أحب أن أفتي فيها بنفي ولا إثبات؛ للسبب الذي ذكرت لك؛ لأن المسائل التي مردها ومرجعها إلى القضاة **ولو أن المباشر للاستفتاء ما يحب رفعها للقضاء فمحبك لا يحب الإفتاء فيها**، حبيت أذكر لك السبب لتفهم عذري..[2]».

ومما سبق من كلام الشيخ -رحمه الله- يتضح مأخذه في ترك الفتوى في المسائل الفقهية، ويمكن تلخيصه في أمرين:

١- انتفاء المصلحة في الإفتاء فيها لعدم ترتب عمل عليها، بل ربما نشأ عن الإفتاء فيها مضرة.

٢- أن المسائل التي تمثل واقعة بين طرفين، قد يطلع الحاكم بينهما على أحوال وأمور مؤثرة في الحكم تخفى على المفتي.

ومن شواهد إمساك الفقهاء عن الفتوى في المسائل القضائية ما نقل عن سحنون

---

(١) من رسالة للشيخ عبدالعزيز العبدالله السبيل ضمن مجموعة مراسلات نادرة، مجموع المؤلفات، ٢٥/ ٥٦٩-٥٧٠.

(٢) أسئلة علي الحمد المقبل للشيخ السعدي ضمن مجموع مؤلفاته ٢٠/ ٥٤٤.

-رحمه الله- أنه إذا أتاه رجل يسـأله عن مسـألة من مسائل الأحكام لم يجبه، وقال هذه مسـألة خصومة، إلا أن يعلم أنه رجل متفقه فيسـأل على جهة التعليم أو يسـأل عن مسائل الوضوء أو الزكاة[1].

هذا، وقد ذكر القرافي -رحمه الله- (ت٦٨٤) ضابط المسائل التي تفتقر لحكم الحاكم، ورد ذلك إلى ثلاثة أساب:

السبب الأول: كـون ذلك الحكـم يحتاج إلى نظـر وتحرير، وبـذل جهد من عالم بصير حكم عدل في تحقيق سـببه ومقدار مسببه، **ومثل له بأمثله**، منها: الطلاق بالإعسار؛ لأنه يفتقر إلى تحقيق الإعسار.

السبب الثاني: كون تفويضه لجميع الناس يفضي إلى الفتن والشحناء، والقتل والقتال، وفسـاد النفـس والمال، **ومثل له بأمثلـه**، منها الحدود، فمـع انضباطها في أنفسها بحيث لا تفتقر إلى تحرير مقاديرها، غير أنها لو فوضت لجميع الناس: لنشأ عن ذلك من المفاسد العظيمة ما ينشأ، فلا يستقيم أمرها إلا بقصرها على الحكام.

السبب الثالث: قـوة الخلاف مع تعـارض حقوق الله تعالـى وحقوق الخلق، فوجـب افتقـار ذلك للحاكم، **ومثل لـه بأمثله**، منها من أعتق نصـف عبده لا يكمل عليه بقيته إلا بالحكم.

ثم ذكر أن المسـائل من حيث التقسيم السابق تنقسـم إلى ثلاثة أقسام، منها ما يفتقـر لحكم للحاكم إجماعـاً، ومنها مـا لا يفتقر إجماعـاً، ومنها ما اختلف فيه هل هو من القسم الأول أو من القسم الثاني، وتتردد المسائل بين ذلك بحسب اشتمالها

(١) ينظر: الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام، للفاسي، ١/ ٢٨،تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، لابن فرحون، ١/ ٤٢.

وينظر في بعض الشـواهد من الفتاوى المعاصرة: الخطأ في الفتوى أسـبابه وآثاره: دراسة فقهية تأصيلية، د. أحمد المطرودي، مجلة العلوم الشرعية-جامعة القصيم، مج ١٠ ، ع ٤، ص ١٩٤٩-١٩٥٢.

للأسباب السابقة وقوة تحققها بها[1].

وفي مقابل امتناع المفتي عن الفتوى في المسائل القضائية يذكر بعض أهل العلم امتناع القاضي عن الفتوى في المسائل القضائية[2]، وعن عطاء بن السائب (ت ١٣٦) قال: «سألت شريحاً عن رجل جعل داره حبساً على الآخر فالآخر من ولده فقال: **إنما أقضي ولست أفتي** قال: فناشدته فقال: لا حبس على[3] فرائض الله[4]»، وقد علق السرخسي (ت ٤٨٣) بقوله: «وهذا فصل تكلم فيه العلماء - رحمهم الله -، فمنهم من يقول: في العبادات لا بأس بأن يفتي، وفي المعاملات لا يفتي لكي لا يقف الخصم على مذهبه؛ فيشتغلوا بالحيل على مذهبه، ومنهم من يقول: لا يفتي في مجلس القضاء، وله أن يفتي في غير مجلس القضاء لأنه لو اشتغل بها في مجلس القضاء - وكل واحد منهما أمر عظيم - فربما يتمكن الخلل في أحدهما، وهو متعين للقضاء فيشتغل بما تعين له ويدع الفتوى لغيره...[5]».

وروي عن أبي يوسف (ت١٨٢): في رجلين تقدما إلى القاضي في أمر، فظن القاضي أنهما إنما تقدما إليه ليعلما ما يقضي به في ذلك: «أقامهما من عند نفسه، لأنه نصب لفصل الخصومات لا لتلقين الخصوم وتعليم المخارج[6]».

---

(١) ينظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ص: ١٥١-١٦١.

(٢) ينظر: المبسوط، للسرخسي، ١٢/ ٥١-٥٢، النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، لابن أبي زيد القيرواني، ٨/ ٤٧، الذخيرة، للقرافي، ١٠/ ٦٨، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، لابن فرحون، ١/ ٤٢.

(٣) كذا في المطبوع، ولعل الصواب : «عن». وهو كذلك في الأصل لمحمد بن الحسن ، ٣/ ٣٦٢.

(٤) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار، ٤/ ٩٦. ورواه محمد بن الحسن في الأصل، ٣/ ٣٦٢.

(٥) المبسوط، ١٢/ ٥١-٥٢.

(٦) المحيط البرهاني في الفقه النعماني، ٨/ ٢٨.

المبحث الثالث: معالم فقه الفتوى المتعلقة بتنزيل الفتوى

المطلب الأول: اعتبار الفتوى السائدة وعدم إظهار المخالفة خاصة إذا كان المخالف لن يعمل بفتواه عامة الناس.

من فقه الفتوى اعتبار المفتي للفتوى السائدة وعدم إظهار المخالفة لها، خاصة إذا كان المخالف لن يعمل بفتواه عامة الناس، وإنما ينشأ عن فتواه المخالفة التشويش فحسب!

ومن شواهد ذلك في تراث الشيخ -رحمه الله-:

١- قوله في سياق حول فتوى أحد المفتين مع تقوية لقوله: «فلو أن صاحب الرسالة لم يفت وينشر فتواه التي رجّحها واعتقدها لكان أولى فيما يظهر لي، وذلك لأنه حصل فيها ضجة كبيرة لم تسفر إلا عن نوع اعتراضات كثيرة، وأمور تقع في القلوب وخوض العالم وغير العالم، ومخالفة الرأي العام في الفتوى، وكون فتواه مع ذلك - فيما يظهر - لا يكون لها عمل إلا في أفراد من الناس. فالفتوى أن يراعي فيها جميع النواحي ، فكم توقف كثير من أهل العلم عن الإفتاء فيما يعتقدون لأغراض من جنس ما ذكرته[1]».

٢- وفي موضع آخر يقول -رحمه الله-: « أما عن سؤالك عن الراجح في مسألة الطلاق الثلاث بكلمة أو بكلمات؟

فقد تقرر وتكرر أننا نعتقد صحة ما رجحه شيخ الإسلام فيها للوجوه الكثيرة

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ٣٣٤. وينظر ص ٩٠.

التي بينها الشيخ[1] وابن القيم، ولكننا لا نفتي في المسألة إثباتاً ولا نفياً؛ لأننا نرى المصلحة لنا ولغيرنا ترك الفتوى فيها، وليس المحذور فقط مخالفة كثير من المشايخ...[2]». فبين في الكلام السابق أن مخالفة ما عليه الفتوى محذور معتبر.

وقد روي أن زيد بن بشر المالكي (ت٢٤٢هـ) كان يسأل عن مسائل في المغرب فكان يأبى أن يجب ويقول: «عليكم بأئمة بلدكم[3]»، وإن كان لذلك بعداً آخر، وهو أن عالم البلد أعلم بوقائع بلده وما يحتف بها مما هو مؤثر في حكمها من غيرها، فكانت إحالة الفتوى إليه أولى.

ومن جنس ذلك: الإمساك عن الفتوى في المسائل التي ينشأ عن الفتوى فيها مفسدة ظاهرة، قال الآجري (ت٣٦٠) : «وإذا سئل عن مسألة فعلم أنها من مسائل الشغب ومما يورث الفتن بين المسلمين استعفى منها، ورد السائل إلى ما هو أولى به[4]».

المطلب الثاني: التوقف عن إظهار الفتوى التي يرى صحتها في نفسها لئلا تُتخذ سلماً للتلاعب.

من فقه الفتوى توقف المفتي عن إظهار الفتوى التي يرى صحتها في نفسها لئلا تُتخذ سلماً للتلاعب!

ومن شواهد ذلك عند الشيخ -رحمه الله-:

١ - تعليله في أحد المواضع تركه الفتوى بما يراه في مسألة الطلاق الثلاث: «ولكننا

(١) المراد به شيخ الإسلام ابن تيمية كما هو مصطلح متأخري الحنابلة.

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ٩٠.

(٣) التسمية والحكايات، للسرقسطي، ص ١٣٣.

(٤) أخلاق العلماء، للآجري، ص ٥٤، وينظر: الفتوى في الشريعة الإسلامية، للشيخ عبدالله بن خنين، ١/ ٦٣.

لا نفتي في المسألة إثباتاً ولا نفياً؛ لأننا نرى المصلحة لنا ولغيرنا ترك الفتوى فيها، وليس المحذور فقط مخالفة كثير من المشايخ، بل مع ذلك ما نحب تهاون الناس وتلاعبهم بالطلاق، وأن يجعلوا فتوانا سلماً لهم إلى تلاعبهم، فرأينا سد الباب عن الفتوى فيها أولى، وأن يتولاها غيرنا طلباً للعافية والحمد لله على نعمه[1]».

هذا، ومن الشواهد لتوقف المفتي عن إظهار الفتوى التي يرى صحتها في نفسها لئلا تُتخذ سلماً للتلاعب ما رواه الخطيب البغدادي عن الربيع بن سليمان، قال: «كان الشافعي يرى أن الصناع لا يضمنون إلا ما جنت أيديهم ولم يكن يظهر ذلك كراهية أن يجترئ الصناع[2]».

وهذا ينبني على أن الحق لا ينبغي إظهاره في بعض الأحوال كإظهاره لمن عُلم أنه يحمله على باطل.

وقد ذكر القرافي (ت٦٨٤) بعض الذرائع التي يتوصل بها بعض المستفتين في إعمال الفتاوى في غير ما وردت عليه، ثم قال: «ونحو هذه الذرائع ينبغي أن يكون المفتي متفطناً لها، فرب حق أريد به باطل ... وإذا قصد الناس أن يجعلوه سلماً للوصول للمحارم فلا يساعدهم على ذلك، بل ينبغي أن يكون كالمجتهد المتحيل على وقوع الحق في الوجود حسب قدرته[3]».

قال الشاطبي (ت٧٩٠): «ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره وإن كان من علم الشريعة ومما يفيد علماً بالأحكام، بل ذلك ينقسم، فمنه ما هو مطلوب

---

(١) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ٩٠.

(٢) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، ٢/ ٤١٦.

(٣) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ص ٢٤٢.

النشـر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص[1]».

وقال: «وقد فرض العلماء مسائل مما لا يجوز الفتيا بها وإن كانت صحيحة في نظر الفقه، كما ذكر عز الدين بن عبد السـلام في مسـألة الدور في الطلاق، لما يؤدي إليه من رفع حكم الطلاق، بإطلاق وهو مفسدة[2]».

والضابط في إظهار الفتوى من عدمه كما يذكر الشاطبي (ت٧٩٠) هو: «أنك تعرض مسـألتك على الشـريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسـبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فـإن قبلتها، فلـك أن تتكلم فيها إما علـى العموم إن كانت ممـا تقبلها العقول على العمـوم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسـألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية[3]».

المطلب الثالث: الفتوى بالعمل بالمفضول وترك الفاضل للمصلحة.

قد يعرض للمفضول ما يصيّره فاضلاً، وللمرجوح ما يصيره راجحاً، ومن فقه المفتي في فتواه مراعاة ذلك والتنبه له، ومن شواهد ذلك في فتاوي الشيخ -رحمه الله-:

١- قوله: «أما ما سألت من جهة وقوع جمعتين في «أبو عريش»، على الذي وصفت، وأنه من قديم وهم على هذه الحال.

فالظاهر أنه ما يخلو من مشقة وحاجة إلى وقوعها في محلين لبعد المسافة بين

(١) الموافقات، ٥/ ١٦٧. وله تتمة مهمة.

(٢) الموافقات، ٥/ ١٧١.

(٣) الموافقات، ٥/ ١٧٢.

الجامعين وشـدة الحر والرمضاء، والمنع ما فيه نص صريح يجب المصير إليه ولو شق الأمر، بل لم يزل العمل جاريا من قديم الزمان في الأمصار وجميع الأعصار من غير اعتبـار ضرورة، بل يكتفون بمطلق الحاجة، وأصحابنا نصوا على جواز التعدد لحاجة كضيق وبعد وخوف فتنة وما أشبه ذلك.

والـذي أرى في مسـألتكم، إقرار الحال علـى ما هو عليه، خصوصا وللشـارع تشـوق عظيم إلـى كل ما يجمع القلوب ويؤلف بين النـاس [ويوجب القالة]، ولما هـم ﷺ ببناء الكعبة على قواعد إبراهيم، قال لعائشـة: (لو لا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة وجعلتها على قواعد إبراهيم وجعلت لها بابين؛ بابـاً يدخل منه النـاس، وبابـاً يخرجون منـه[1]). والحديث في الصحيـح، فامتنع من هذا الأمر الذي ظهرت مصلحته وموافقته للشرع، لأجل قالة الناس وتنفيرهم.

والفقهـاء اتفقوا على هـذا الأصل؛ وهو أنـه قد يعرض للعمـل المفضول من المصالح ما يصيره أفضل من الفاضل، وقد يعرض للعمل الفاضل من ضد ذلك، ما يكون غيره أولى منه، مراعاة للمصالح الشرعية ودفع المفاسد.

وأرجـو الله تعالـى أن تجعـل هـذا الأصـل المبارك نصـب عينيـك في الأمور المتعلقة بالناس، فإن المصالح الكلية والقواعد الشـرعية العامة تترك لها المصالح الجزئيـة، ومع النية الصالحة يدرك العبد بنيتـه العملين جميعـاً، هذا بفعله، والآخر بقصده الجازم لولا المانع[2]».

وكلام أهل العلم في الفتـوى بالعمل بالمفضول وترك الفاضل للمصلحة كثير متوافر[3].

---

(١) رواه البخاري، ١/ ٣٧، ح(١٢٦)، ومسلم، ٢/ ٩٦٩، ح(١٣٣٣).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، ص ٧٠-٧١.

(٣) للتوسع ينظر: العدول عن القول الراجح في القضاء والفتيا، د. عاصم المطوع، ص ١٧٧ وما بعدها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨) في مسألة الصلاة بعد الأذان الأول يوم الجمعة واعتقاد بعض الناس استحباب ذلك بخصوصه ضمن جواب طويل له: «وإن كان الرجل مع قوم يصلونها، فإن كان مطاعاً إذا تركها - وبين لهم السنة - لم ينكروا عليه بل عرفوا السنة: فتركها حسن، وإن لم يكن مطاعاً ورأى أن في صلاتها تأليفا لقلوبهم إلى ما هو أنفع أو دفعاً للخصام والشر لعدم التمكن من بيان الحق لهم وقبولهم له ونحو ذلك: فهذا أيضا حسن. **فالعمل الواحد يكون فعله مستحبا تارة وتركه تارة باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه بحسب الأدلة الشرعية. والمسلم قد يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحته** كما ترك النبي ﷺ بناء البيت على قواعد إبراهيم وقال لعائشة: (لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لنقضت الكعبة ولألصقتها بالأرض ولجعلت لها بابين، باباً يدخل الناس منه وباباً يخرجون منه) والحديث في الصحيحين[١]. فترك النبي ﷺ هذا الأمر الذي كان عنده أفضل الأمرين للمعارض الراجح وهو حدثان عهد قريش بالإسلام؛ لما في ذلك من التنفير لهم فكانت المفسدة راجحة على المصلحة. ولذلك استحب الأئمة أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل إذا كان فيه تأليف المأمومين، مثل: أن يكون عنده فصل الوتر أفضل بأن يسلم في الشفع ثم يصلي ركعة الوتر وهو يؤم قوماً لا يرون إلا وصل الوتر فإذا لم يمكنه أن يتقدم إلى الأفضل كانت المصلحة الحاصلة بموافقته لهم بوصل الوتر أرجح من مصلحة فصله مع كراهتهم للصلاة خلفه، وكذلك لو كان ممن يرى المخافتة بالبسملة أفضل أو الجهر بها وكان المأمومون على خلاف رأيه، ففعل المفضول عنده لمصلحة الموافقة والتأليف التي هي راجحة على مصلحة تلك الفضيلة: كان جائزاً حسناً. وكذلك لو فعل خلاف الأفضل لأجل بيان السنة وتعليمها لمن لم

(١) رواه البخاري، ١/ ٢٧، ح(١٢٦)، ومسلم، ٢/ ٩٧١، ح(١٣٣٣).

يعلمها كان حسناً مثل أن يجهر بالاستفتاح أو التعوذ أو البسملة ليعرف الناس أن فعل ذلك حسن مشروع في الصلاة كما ثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب جهر بالاستفتاح فكان يكبر ويقول: (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك)، قال الأسود بن يزيد: صليت خلف عمر أكثر من سبعين صلاة فكان يكبر ثم يقول ذلك رواه مسلم في صحيحه[1]. ولهذا شاع هذا الاستفتاح حتى عمل به أكثر الناس. وكذلك كان ابن عمر وابن عباس يجهران بالاستعاذة، وكان غير واحد من الصحابة يجهر بالبسملة. وهذا عند الأئمة الجمهور الذين لا يرون الجهر بها سنة راتبة: كان ليعلم الناس أن قراءتها في الصلاة سنة ...[2]».

المطلب الرابع: مراعاة الخلاف في المسائل.

من فقه الفتوى مراعاة المفتي للخلاف المعتبر في فتواه، ويتأكد ذلك في الفتوى في المسائل بعد وقوعها، وهذا حاضر في فتاوي الشيخ -رحمه الله-، ومن شواهده في فتاويه:

١- قوله: «وينبغي للمفتي والعامل في مسائل الخلاف أن يتحرز غاية التحرز في الخروج من الخلاف، وأن يسلك طريق الاحتياط في فتواه وعمله، إلا إذا كان الخلاف ضعيفا جدًّا لا ينظر إليه، وليس له حظ من النظر. هذا في ابتداء الأمر، وفي الأمر الذي يمكن تلافيه، فأما إذا مضى الأمر، وحصل العمل بقول مفت، والمسألة خلافية، والخلاف فيها قوي له حظ من النظر والدليل، فينبغي عدم الحكم بنقضه وإبطاله؛ لأن الأمور لها أحوال وقت الابتداء وإمكان التدارك، وأحوال إذا تعذر ذلك[3]».

---

(١) رواه مسلم، ١/ ٢٩٩، ح(٣٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى، ٢٤/ ١٩٤-١٩٦. وله تتمة مهمة.

(٣) الفتاوى السعدية، ص ٧٥، وينظر: مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، ص ٣٧.

٢- وقريب من هذا الباب رغبة الشيخ في ترك التنبيه على الأخطاء في كتب بعض أهل العلم لمّا سُئل عن ذلك؛ لما لهم من فضل لولا انتشارها بين الناس، وفي هذا يقول: «ولولا أن هذه الكتب موجودة بين الناس لكان للإنسان مندوحة عن الكلام فيه؛ لأنه من أكابر أهل العلم وأفاضلهم، وهو معروف بالدين والورع والنفع، ولكن لكل جواد كبوة، نرجو الله أن يعفو عنا وعنه. وفي «صيد الخاطر» أيضاً أشياء تُنتقد عليه، ولكنها دون كلامه في الصفات، مثل كلامه عن أهل النار، وفي الخوض في بعض مسائل القدر، وأشياء يعرفها المؤمن الذكي، وإننا نأسف على صدورها من قِبَل هذا الرجل الكبير القدر[١]».

هذا، ومع مشروعية مراعاة الخلاف إلا أنه ليس كل خلاف ينبغي مراعاته، بل ذكر أهل العلم شروطاً لمراعاة الخلاف، وهي:

١- ألاّ يوقع مراعاته في خلاف آخر.

٢- ألاّ يخالف سنة ثابتة.

٣- أن يقوى مدركه بحيث لا يعد هفوة[٢].

وما سبق في كلام الشيخ -رحمه الله- من تفريق المفتي في مسائل الخلاف بين حصول العمل بقول مفت، والمسألة خلافية الخلاف فيها له حظ من النظر، وعدم ذلك، تفريق مشهور عند أهل العلم

ومن شواهد ذلك أن الإمام مالك (ت١٧٩) سئل فقيل له: «امرأة ابن أخي أرضعت بلبنه جارية ثم تزوجها، فقال: أفي الصغر؟ فقال له: نعم، فقال له: أرى

(١) الفتاوى السعدية، ص٥٧

(٢) ينظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبدالسلام، ١/ ٢٥٣-٢٥٤، الأشباه والنظائر، للسبكي، ١/ ١١١-١١٧، المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي، ٢/ ١٢٨-١٤٢، الأشباه والنظائر، للسيوطي، ص: ١٣٦. وينظر: الموافقات، للشاطبي، ٥/ ٢١٠.

نكاحها مفسوخـاً؛ لأن لبن الفحل يحرم، وهذا لبن الفحل، فالرضاعة تحرم ما تحرم الولادة، وما أرى نكاحك إلا مفسوخا، **وأما إذا تزوجت فارجع إلي إن شئت**». قال ابن رشـد الجد (ت ٥٢٠) معلقـاً عليه لما نقله: « فأراد، والله أعلم، بقوله للسـائل والله أعلم: وأما إذا تزوجت فارجع إلي إن شـئت، أن يسـأله كم أرضعت الجارية؟ وهـل كان رضاعهـا في الحوليـن أو بعد الحولين؟ ... فلو اتفقت هذه الأسـباب لم يفرق بينهما، والله أعلم، لأن الخلاف كان يقوى في المسـألة لدخوله فيها من وجوه شتى، وبالله التوفيق[1]».

(١) ينظر: البيان والتحصيل، لابن رشد، ٤/ ٣٥٢. وينظر: العدول عن القول الراجح في القضاء والفتيا، د. عاصم المطوع، ص ٦٠٤-٦٠٥.

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث أوجز بعد -حمد الله سبحانه والثناء عليه- أبرز نتائجه، كما يلي:

أ- أهمية فقه الفتوى والعناية به.

ب- من أبرز معالم فقه الفتوى عند الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-:

١- ملاحظة الفرق بين مقام الفتوى للناس وغيره من المقامات.

٢- ملاحظة تعلق المسألة بأكثر من طرف وإفتاء كل طرف بما يخصه

٣- التحقق من مآخذ الفتاوى السابقة قبل تنزيلها على الوقائع المتجددة.

٤- مراعاة تغير الزمان في التسهيل في الفتاوى ما لم تخالف نصا.

٥- تصحيح السؤال للمستفتي.

٦- الاستفصال من المستفتي عما له أثر في الحكم وإرجاء الفتوى إلى ذلك.

٧- ترك الفتوى في المسائل القضائية.

٨- اعتبار الفتوى السائدة وعدم إظهار المخالفة خاصة إذا كان المخالف لن يعمل بفتواه عامة الناس.

٩- التوقف عن إظهار الفتوى التي يرى صحتها في نفسها لئلا تُتخذ سلماً للتلاعب.

١٠- الفتوى بالعمل بالمفضول وترك الفاضل للمصلحة.

١١- مراعاة الخلاف في المسائل خاصة بعد وقوعها.

هذا، ويوصي الباحث بأهمية استجلاء فقه الفتوى عند الأئمة المبرزين في الفتوى من خلال فتاويهم وسائر تراثهم؛ لما لذلك من عائد كبير على الفتيا المعاصرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإبهاج في شرح المنهاج، علي بن عبد الكافي السبكي، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤.

٢- الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية، اعتنى بها وعلق عليها: هيثم بن جواد الحداد- د. وليد بن عبدالله المنيس، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٦.

٣- الأجوبة السعدية عن المسائل الكويتية، دراسة وتحقيق: د. وليد بن عبدالله المنيس، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٤٢٣.

٤- الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (رسائل الشيخ السعدي لتلميذه الشيخ عبدالله بن عقيل)، اعتنى بها وعلق عليها: هيثم بن جواد الحداد، دار المعالي، عَمان، ط٢، ١٤٢٠.

٥- الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٤١٦.

٦- أخبار القضاة، لوكيع: محمد بن خلف بن حيان، عالم الكتب، بيروت.

٧- أخلاق العلماء، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ، قام بمراجعة أصوله وتصحيحه والتعليق عليه: إسماعيل بن محمد الأنصاري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٣٩٨.

٨- آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٨.

٩- الأشباه والنظائر، زين العابدين إبراهيم الشهير بابن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥.

١٠- الأشباه والنظائر، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣.

١١- الأشباه والنظائر، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: عادل

عبدالموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١.

١٢- الأصل، محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق وَدرَاسَة: الدكتور محمَّد بوينوكالن، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٣٣.

١٣- إعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبو بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١.

١٤- الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي، تحقيق: د. نورة التويجري، ط١، ١٤١٥.

١٥- البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي، دار الكتاب الإسلامي، ط٢.

١٦- البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

١٧- بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٥.

١٨- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في المسائل المستخرجة، لأبي الوليد ابن رشد، تحقيق محمد العرايشي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠٥.

١٩- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٢٠- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٤٠٦.

٢١- التسمية والحكايات عن نظراء مالك وأصحابه وأصحاب أصحابه، أبو العباس الوليد بن بكر السرقسطي، دراسة وتحقيق: رضوان بن صالح الحصري، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب.

٢٢- تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي

الحنبلي، تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله وعبد العزيز بن ناصر الخباني، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٨.

٢٣- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٤- الجامع الصحيح، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، مصورة دار المعرفة الطبعة العامرية، بيروت.

٢٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، عناية محمد زهير الناصر، مصورة دار طوق النجاة عن طبعة بولاق، بيروت، ط١، ١٤٢٢.

٢٦- الخطأ في الفتوى أسبابه وآثاره: دراسة فقهية تأصيلية، د. أحمد المطرودي، مجلة العلوم الشرعية-جامعة القصيم، مج ١٠، ع ٤.

٢٧- الذخيرة، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط، ١٩٩٤ م.

٢٨- الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، تصوير: المكتبة العلمية، بيروت.

٢٩- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، الرسالة، بيروت، ط١٥، ١٤٠٧.

٣٠- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، حمص، ط١، ١٣٩٤.

٣١- شرح مختصر خليل، محمد بن عبد الله الخرشي، دار الفكر.

٣٢- شرح معاني الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٩.

٣٣- شرح ميارة على التحفة (الإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام)، محمد بن أحمد الفاسي، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٤- صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، أحمد بن حمدان الحرّاني الحنبلي، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٣٩٧.

٣٥- صيد الخاطر، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، عناية: حسن المساحي سويدان، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٥.

٣٦- طبقات الحنابلة، أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، دار المعرفة، بيروت.

٣٧- العدول عن القول الراجح في الفتيا والقضاء، د. عاصم بن عبدالله المطوع، دار الميمان، الرياض، ط١، ١٤٣٩هـ.

٣٨- علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن البسام، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤١٩.

٣٩- فتاوى ابن رشد، لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، تحقيق: د. المختار بن الطاهر التيلي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧.

٤٠- فتاوى السبكي، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، دار المعارف، بيروت.

٤١- الفتاوى السعدية، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، ط٢، ١٤١٢.

٤٢- الفتوى في الشريعة الإسلامية، عبد الله بن محمد بن خنين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٩.

٤٣- الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، ١٤٢١.

٤٤- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي

الفاسي، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦.

٤٥- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤١٤.

٤٦- كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس البهوتي، تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢.

٤٧- المبدع في شرح المقنع، إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح الحنبلي أبو إسحاق، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠.

٤٨- المبسوط، شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت.

٤٩- المجالس الفقهية، د. هيثم بن فهد الرومي، تكوين للدراسات والأبحاث، ط١، ١٤٣٧.

٥٠- مجموع الفوائد واقتناص الأوابد، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تقديم عبد الله بن عبد الرحمن البسَّام، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض.

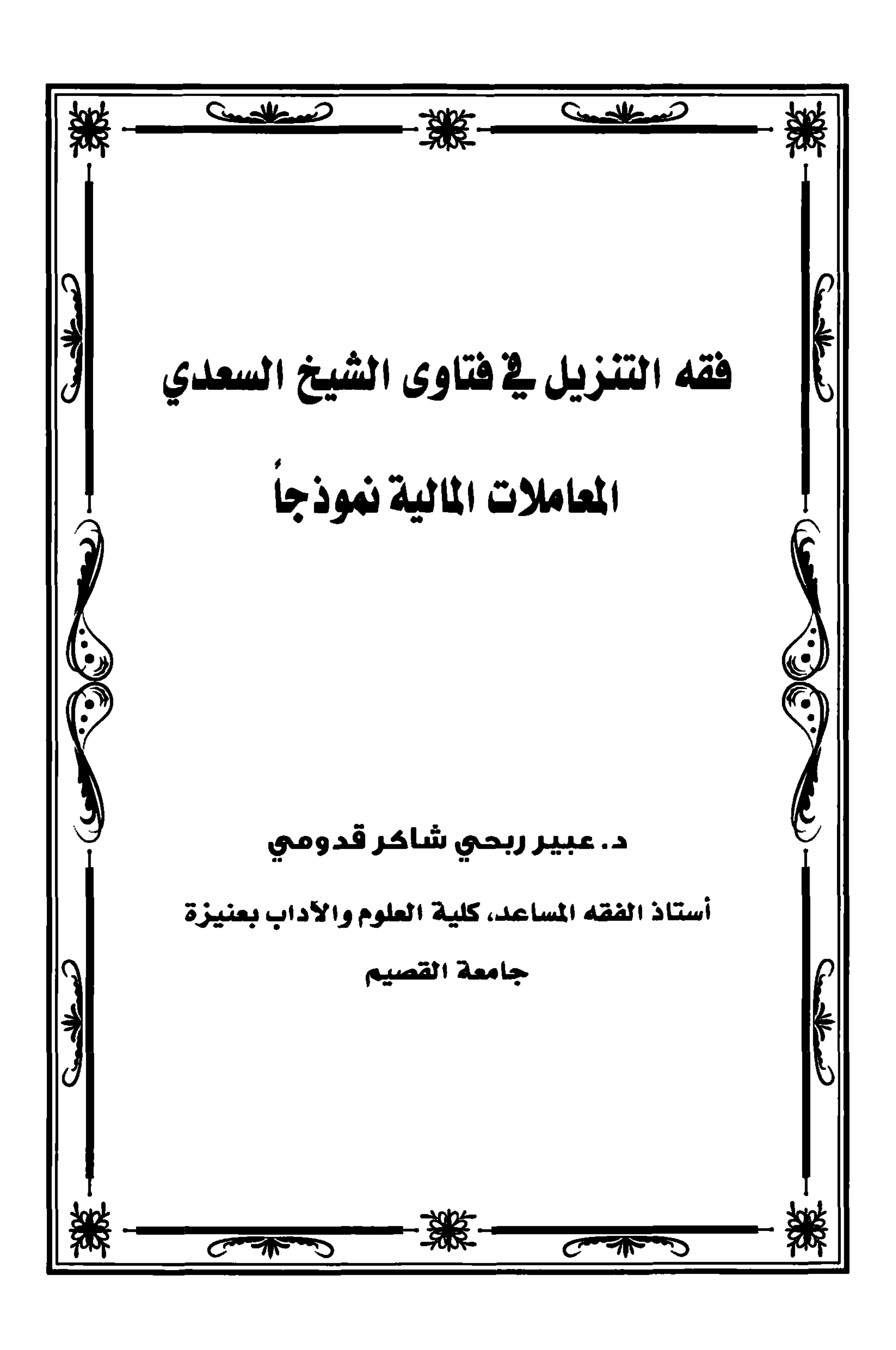
٥١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد، مصورة دار عالم الكتب، ط١، ١٤٢٣.

٥٢- مجموع مؤلفات العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، إشراف ومتابعة محمد بن عبدالرحمن السعدي وآخرين، طبع على نفقة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف في قطر.

٥٣- المحيط البرهاني في الفقه النعماني، لأبي المعالي محمود بن أحمد بن عبدالعزيز بن عمر بن مَازَةَ البخاري الحنفي، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤.

٥٤- المختصر الفقهي، محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، تحقيق: د. حافظ عبد الرحمن محمد خير، الناشر: مؤسسة خلف أحمد الخبتور للأعمال الخيرية، ط١، ١٤٣٥.

٥٥- المسند، أحمد ابن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.
٥٦- مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبدة الرحيباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٤.
٥٧- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصورة دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١.
٥٨- المنثور في القواعد، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، تحقيق: د. تيسير فائق أحمد محمود، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط٢، ١٤٠٥.
٥٩- منح الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن أحمد بن محمد المعروف بعليش، دار الفكر، ١٤٠٩.
٦٠- الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرّج أحاديثه: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية، ١٤٢٤.
٦١- مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، محمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالحطاب، دار الفكر، ط٣، ١٤١٢.
٦٢- نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف، لابن عابدين، ضمن رسائله.
٦٣- نهاية المطلب في دراية المذهب، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، حققه وصنع فهارسه: أ. د/ عبد العظيم محمود الدّيب، دار المنهاج، جدة، ط١، ١٤٢٨.
٦٤- النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد القيرواني، تحقيق: الدكتور عبد الفتّاح محمد الحلو وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.



فقه التنزيل في فتاوى الشيخ السعدي

المعاملات المالية نموذجاً

د. عبير ربحي شاكر قدومي

أستاذ الفقه المساعد، كلية العلوم والآداب بعنيزة

جامعة القصيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سار على هديه إلى يوم الدين، وبعد

فإن العلماء لما كانوا ورثة الأنبياء وكانت سيرة الأنبياء مبثوثة في كتاب الله يُستنار بها في حياة الفرد حُكماً وحِكمة، علماً وعملاً، دينا ودنيا؛ فإن تدارس سيرة العلماء وإعادة النظر والتأمل فيما بثوه من فوائد وفرائد أراه من حاجيات العصر، خصوصاً عند من عُلم عنهم الثبات على الأصل والوقوف عند الحدود.

ومن هنا جاءت الرغبة في دراسة تأملية لجانب من فقه الشيخ السعدي -رحمه الله- وهو المدرسة التي تتلمذ على يده أعلام وعلماء أناروا بهداهم الطريق إلى ما لا يعلمه إلا الله من البشر.

وإن الوقوف على مظاهر فقه التنزيل عند الشيخ السعدي في الآراء المبثوثة في صريح كتب الفتاوى، وضمنيّ كتب الفقه، ليعين على تحديد المنهج الذي سار عليه الشيخ والذي عُرف عنه بوقوفه عند الدليل منطوقاً ومقصوداً، كيف لا وهو المفسر الفقيه المفتي الأديب الأريب.

وهذه الدراسة تستعرض فقه التنزيل تأصيلاً أصولياً من حيث المفهوم والأدوات، وتُؤصل على ما قرره الإمام ابن القيم من أن المفتي لا يتمكن من الحكم بالحق إلا بفقه الأحكام الشرعية، وفقه في نفس الوقائع، ثم فقه في التنزيل.

ثم تُسقط على هذا الأصل ما جاء في فتاوى الشيخ في جملة الأجوبة السعدية عن المسائل القصيمية، والفتاوى الكويتية، ثم كتاب الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، وتستعرض ما جاء في ثنايا كتب فقهه الأخرى وذلك مما كان في باب المعاملات المالية حيث معقولية المعنى تفتح المجال لتصور المنهج الذي اتبعه الشيخ.

والله أسأل أن يعيننا على توضيح ما جاء في فتاوى الشيخ من خير، وأن يجعل ذلك خالصا لوجهه، واصلاً أجره بأصله، إنه نعم المولى ونعم النصير.

أولاً: أهمية الدراسة:

تبرز أهمية هذه الدراسة بعد استجلاء معايير فقه التنزيل والوقوف على مضمونه للدارس والباحث في مجال الاجتهاد الفقهي عموما والمفتي خصوصا، ثم التنبيه على أركانه التي ينبغي تحقيقها وملاحظتها لكل مجتهد، أقول تظهر كذلك بالكشف عن نماذج من التطبيق العملي التي التزم فيها الشيخ السعدي تحقيق هذه المعايير أثناء مكاتباته ومراسلاته في الأسئلة التي وُجهت له من أصحابٍ وأعلام في جهات مختلفة داخلية وخارجية، ثم التأمل في بُعد باع الشيخ في فهم الفقه وتنزيله بحسب المقاصد ومراعاة المآلات، وتنوع ضبطه للفتوى بين المعايير الموضوعية والشخصية والتي هي موجهات الفقه التنزيلي.

ثانياً: أهداف الدراسة:

١-الوقوف على فقه التنزيل تأصيلا وتحديدا لأبعاده وأدواته وأهميته في تحقيق المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية من تحقيق العدل والحق وجلب المصلحة.

٢-تعميق الفهم النظري لفقه التنزيل بالتطبيق العملي لنماذج من فتاوى الشيخ السعدي والتي بُنيت على هذه الأصول، فيما ما صُرح أحيانا فيها للموجّه التنزيلي، وغاب في كثير منها إلا من إشارات اجتهدت في ربطها بالأصول التي اعتمدتها في هذه الدراسة والتي أسأل الله أن تكون صائبة.

ثالثاً: منهج الدراسة:

تتبع هذه الدراسة بحسب موضوعها المنهج الاستقرائي التطبيقي؛ وذلك بتتبّع فتاوى الشيخ في باب المعاملات المالية من مظانّها، ثم الربط تطبيقا بين أصول

الفقه التنزيلي وقواعده وبين ما بدا لي من معانٍ لفتاوى الشيخ بحسب السياق الذي جاءت فيه، والجهة الموجهة إليها.

رابعاً: خطة البحث:

تقع هذه الدراسة بحسب موضوعها في ثلاثة مباحث رئيسة وجملة من المطالب والفروع:

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات الدراسة من الفقه والتنزيل، وأدلة اعتباره:

المطلب الأول: الفقه لغة واصطلاحا، والمقصود بالتنزيل لغة واصطلاحا، ثم التعريف بفقه التنزيل كاسم علم

المطلب الثاني: أدلة اعتبار التنزيل وحقيقة أنه جوهر التدين.

المبحث الثاني: أدوات التنزيل في فقه الشيخ السعدي:

المطلب الأول: تحقيق المناط وتطبيقاته عند الشيخ السعدي.

الفرع الأول: المقصود بتحقيق المناط لغة واصطلاحا.

الفرع الثاني: استظهار دور تحقيق المناط في تنزيل الحكم على الوقائع، ونماذج من فتاوى الشيخ على هذا المعنى

المطلب الثاني: النظر في المآلات وعلاقته بسد الذرائع.

الفرع الأول: التعريف بالمآلات واعتبارها من خلال مبدأ سد الذرائع.

الفرع الثاني: أثر اعتبار المآلات في ضبط الاجتهاد التنزيلي، ونماذج من فتاوى الشيخ على هذا المعنى

المطلب الثالث: مراعاة المقاصد بمراتبها إبّان تنزيل الحكم الشرعي.

الفرع الأول: المقاصد برتبها وقيمتها كجوهر للأحكام الشرعية.

الفرع الثاني: ضـرورة ملاحظة المقاصد أثناء عملية التنزيل الفقهي، ونماذج من فتاوى الشيخ على هذا المعنى.

المبحـث الثالث: نمـاذج من التقعيد الفقهي عند الشـيخ في أبواب المعاملات المالية:

الخاتمة وأهم التوصيات.

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات الدراسة من الفقه والتنزيل، وأدلة اعتبار فقه التنزيل:

لما كان الحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ فإني أبدأ بتوضيح مصطلحات الدراسة العامة وذلك في المطلب التالي:

المطلب الأول: الفقه لغة واصطلاحا، والمقصود بالتنزيل لغة واصطلاحا:

الفرع الأول: الفقه لغة واصطلاحا:

١- يعرف الفقه لغة: بما هو من الفاء والقاف والهاء والتي هي أصل واحد صحيح: يدل على إدراك الشيء والعلم به، تقول: فقهت الحديث أفقهه. ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام: فقيه، وأفقهتك الشيء، إذا بينته لك [1]

٢-ويعرف الفقه اصطلاحا بأنه: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها التفصيلية بالاستدلال [2]

شرح التعريف:

-الأحكام الشرعية: هي المأخوذة من الشرع بطريق السمع دون المأخوذة من العقل، وهي تتنوع بين حكم شرعي تكليفي وآخر وضعي.

-ويقصد بالفرعية: العملية التي تتعلق بأفعال الناس في عباداتهم ومعاملاتهم وسائر أحوالهم الحياتية، لا المسائل العقدية.

-أدلتها التفصيلية: النصوص الخاصة بالموضوع مما جاء في الكتاب والسنة،

(١) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ٤/ ٤٤٢

(٢) نجم الدين الطوفي، شرح مختصر الروضة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٧هـ، ١/ ١٣٣

لا الأدلة الإجمالية والتي هي مدار العمل في أصول الفقه.

-وأما الاستدلال: فيطلق على ما أمكن التوصل به إلى معرفة الحكم[1]

الفرع الثاني: التنزيل لغة واصطلاحا:

١- ويعرف التنزيل لغة: النون والزاي واللام كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء ووقوعه، والتنزيل: ترتيب الشيء ووضعه منزله [2]

٢-ويقصد بالتنزيل اصطلاحا كمرحلة ثانية من مراحل الاجتهاد الفقهي : صيرورة الحقيقة الدينية التي وقع تمثلها في مرحلة الفهم العميق إلى نمط عملي تجري عليه حياة الناس في الواقع[3]

فآليات الفهم للمراد الإلهي أصبحت تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع، بدل أن تكون أداة تيسير وفهم، وانقلبت إلى حواجز تحول دون القدرة على الاغتراف من الكتاب والسنة، وأصبح التدين في حفظها وترديدها وليس القدرة على إعمالها[4].

وإن أول خطوات التنزيل تظهر بتصور الواقع واستيعابه؛ ويُقصد بالواقع ما تجري عليه حياة الناس في مجالاتها المختلفة من أنماط في المعيشة، وما تستقر عليه من عادات وتقاليد وأعراف وما يستجد من نوازل وأحداث[5]

وعليه فإن مصطلح فقه التنزيل كاسم علم يقصد به: إعمال العقل من ذي

---

(١) الطوفي، شرح مختصر الروضة، ١/ ١٣٣ - عمر الأشقر، المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، دار النفائس، عمان، ط٢، ١٤٣٣هـ، ص ٣٤

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٥/ ٤١٧

(٣) عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، كتاب الأمة، ٢/ ٢٩

(٤) المرجع السابق، ١/ ١٣

(٥) المرجع السابق، ١/ ٢٢٢

ملكة راسخة متخصصة في إجراء حكم الشرع بمدركه على وقائع فردية وجماعية وأوضاع واقعة أو متوقعة تحقيقا لمقاصد الشارع وتبصرا بمآلات تنزل أحكامه[1]

وهو ما عقله الشيخ -رحمه الله- وحققه عمليا في فتاواه؛ فلم يقف إدراك الشيخ لمكنون فقه التنزيل ومراعاته عمليا إبان إصداره للفتوى؛ بل صرح بأهميته وضرورة اعتبار مكوناته لضمان صحة الفتوى؛ حيث قال في أحد مراسلاته: (ولقد سرني ما شرحت من اعتنائك في القضايا في فهم الواقع والحال الذي تقع عليه الدعاوى، ثم إذا تصورتها بحسب القدرة نزلتها على الواجب وهو الحكم الشرعي، فبهذه الأمور يتم القضاء)[2]

ثم فصّل -رحمه الله- في أدوات التنزيل فقال: (وتمام **الأول**: معرفة أهل البلد ومعرفة الأشخاص ومراتبهم في الخير والشر، ومعرفة قرائن الأحوال المحتفّة بالقضية المعينة. وتمام **الثاني**: المعرفة التامة بالأمور الشرعية الكلية وتحقيقها وتحققها وإطباقها على القضايا، وعند معارضات الأمور تقديم الأصول والظواهر والقرائن والمرجحات، ثم معرفة الأحكام الشرعية حكماً حكماً على وجه التفصيل تحريرا وتصويرا واستدلالا، فإذا جعل الإنسان همّه الكلي والجزئي في ذلك واستعان بالله وأخلص له العمل، أعانه الله ويسر له كل عسير)[3]

وقد ظهر فهم الشيخ السعدي جليا لفقه التنزيل في مجموعة المراسلات التي وقع البحث فيها، وذلك ابتداء من التقارب اللغوي بينه وبين الموجه له الخطاب،

(١) بشير جحيش، فقه التنزيل وعلاقته ببعض المصطلحات، من أعمال ندوة مستجدات الفكر الإسلامي الحادية عشر، وزارة الأوقاف، الكويت، ٢٠١٣م، ص ١٩

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، دار الميمان، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ ٢٥/ ٢٨

(٣) المرجع السابق، ٢٥/ ٢٨- ٢٩

حيث استخدم في كتاباته عددا من الألفاظ باللهجة المحلية، وهي التي لم تظهر مطلقا في كتاباته العلمية الأخرى.[1]

وهو ما يبرز المعيار الشخصي الذي راعاه الشيخ إبان تنزيل الحكم الشرعي وذلك بالالتفات إلى حال المستفتي[2] وما يُقرّب إليه المضمون العلمي مدار السؤال، عدا عن الألفة والتقارب الذي يشعر به السائل إن وقع الكلام في ما يفهم من لغته المحلية، وقد جاء هذا بعد عبارات الترحيب والدعاء بالخير وصلاح الحال وهي جميعا من منظومة التأليف القلبي الأدعى للقبول.

وعلى هذا فإن معادلة فقه التنزيل تتلخص في: وجود المجتهد الذي يقع عليه عبء التنزيل، ثم النص محل الاستنباط، مع الإحاطة بمحل الواقعة فهماً ودراية لتنزيل الحكم المناسب عليها، وأخيراً المنهجية العلمية التي تحكم العملية برمّتها.[3]

وبهذا فإن فقه التنزيل يعد حلقة الوصل بين النص والواقع[4]، فهو استنباط من النص واستنباط لمدى ملائمة الواقعة لروح النص ومقصده والذي محله الفقه التنزيلي.

ولبيان أهمية فهم الواقع لضمان سلامة التنزيل يقول ابن القيم: (ومعرفة الناس أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم، فإن لم يكن فقيها فيه فقيها في الأمر والنهي

---

(١) انظر مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٧٥، ١٥٢، ٢٩٤، ٣٢٩، ٣٦٤

(٢) صفاء شاهين، الضوابط المعيارية في تنزيل الأحكام الشرعية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩، ص ٥٤

(٣) ماهر حصوة، فقه التنزيل، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية، مج ١٣-ع١، يونيو٢٠١٦، ص ٢٤١

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤١

ثم يطبق أحدهما على الآخر، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح، فإنه إذا لم يكن فقيهاً في الأمر له معرفة بالناس تصور له الظالم بصورة المظلوم وعكسه، والمحق بصورة المبطل وعكسه، وراج عليه المكر والخداع والاحتيال، وهو لجهله بالناس وأحوالهم وعوائدهم وعرفياتهم لا يميز هذا من هذا، فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال، وذلك كله من دين الله) [1]

ومفاتيح معرفة الواقع الإجابة عن الأسئلة الخمسة التالية: ماذا ولماذا وأين ومتى وكيف؟ فالأول عن الماهية، والثاني عن العلة والسبب، والثالث عن المكان، والرابع عن الزمان، والخامس عن الحال والخبر[2]

(ويكفيك من ذلك أن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدتها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعدادا لا تنحصر، ومع ذلك؛ فلكل معين خصوصية ليست في غيره ولو في نفس التعيين).[3]

وأختم هذا الباب في توضيح ماهية فقه التنزيل وأهميته كقرين للدليل وفهمه، بما أصّله الشاطبي في ذلك، حيث يقول: (والمقصود من وضع الأدلة تنزيل أفعال المكلفين على حسبها، وهذا لا نزاع فيه؛ إلا أن أفعال المكلفين لها اعتباران:اعتبار من جهة معقوليتها، واعتبار من جهة وقوعها في الخارج؛ وبيان ذلك أن الفعل المكلف به أو بتركه أو المخير فيه يعتبر من جهة ماهيته مجردا عن الأوصاف الزائدة عليها واللاحقة لها؛ كانت تلك الأوصاف لازمة أو غير لازمة، وهذا هو

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ٤/ ١٥٧

(٢) ماهر حصوة، فقه التنزيل، ص ٢٤١

(٣) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، دار ابن عفان، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ٥/ ١٤

الاعتبار العقلي. ويعتبر من جهة ماهيته بقيد الاتصاف بالأوصاف الزائدة اللاحقة في الخارج، لازمة أو غير لازمة، وهو الاعتبار الخارجي)[1]

والمعنى أن النظر في النصوص واستصحاب الأدلة لتبين مراد الله تعالى في خطابه، يلزم معه معرفة الواقع كما هو على حقيقته، ومعرفة الوقائع بحيثياتها وخصوصياتها وملابساتها، ليتسنى استنباط الحكم الشرعي المناسب لها، ثم تبين مدى إمكانية تنزيل الحكم على هذا الواقع من خلال تحقيق المناط، ومن ثم يمكن تنزيل الأحكام بكيفيات تحقق مقاصد التشريع وقِيَمه، وذلك باستكناه الحقائق الاجتماعية واكتشاف القانون الاجتماعي الخاص وليس نظرا عاما للواقع مجردا عن ظروفه وملابساته وخصائص مكانه وزمانه.[2]

وأورد هنا قاعدة التنزيل عند الشيخ السعدي في مسائل الخلاف:

(ينبغي للمفتي في مسائل الخلاف أن يتحرز غاية التحرز في الخروج من الخلاف، وأن يسلك طريق الاحتياط في فتواه وعمله، إلا إذا كان الخلاف ضعيفا جدا لا يُنظر إليه، فأما إذا مضى الأمر وحصل العمل بقول مفتٍ والمسألة خلافية والخلاف فيها قوي له حظ من النظر والدليل فينبغي عدم الحكم بنقضه وإبطاله، لأن الأمور لها أحوال وقت الابتداء وإمكان التدارك، وأحوال إذا تعذر ذلك).[3]

ومن جميل التنزيل عند الشيخ -رحمه الله- أنه يعطي الحكم ويذكر تصحيحه، أو أنه يذكر حكم الواقعة وينبه في ما إذا تمت فالحكم كذا، وإن لم تقع فالمخرج الشرعي لها كذا؛ من ذلك:

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٣/ ٣١٧ - ٣١٨

(٢) بشير جحيش، فقه التنزيل وعلاقته ببعض المصطلحات، ص ١١

(٣) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢١/ ٤٣٢

سأله أحدهم في واقعة حصلت له ورفيقه ونصها:(إنك إذا أعطيته عن الطلب الذي له عليك، طلب لك دين تمر وعيش في أصل قليب، وأنتم لا تعلمون الحكم؛ فقال الشيخ: إن تم القبض ولم تبق علائق فيعفو الله عما مضى وأن عليك أن تستغفر وتتوب لأنه بيع دين بدين وهو لا يجوز، أما إن كان الشيء لم يُقبض فالطريق إلى حصول المقصود أنك توكله بقبض الدين - التمر والعيش - فيكون نائبا عنك، فإذا قبضه على كيسك فيستوفي حقه منه).[1]

المطلب الثاني: أدلة اعتبار التنزيل وحقيقة أنه جوهر التدين:

وأتناول في هذا المطلب جملة من الموجهات العامة من أدلة الكتاب والسنة ومن المعقول، يظهر للمتأمل فيها أن مبدأ تنزيل الحكم على الوقائع ملحوظ لأهميته في الاستثمار الأمثل بل والتام للنص .

أولا : القرآن الكريم :

١-قال تعالى﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾[النساء: ٨٣]

وجه الدلالة: في الآية تأنيب من الله تعالى لعباده عن فعلهم غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردوه إلى أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو أن مضرته

---

(١) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٨٦

تزيد على مصلحته، لم يذيعوه.[1]

فالعلماء هم الأقدر على معرفة مراد الشارع من النص، وهم الأعلم بمناسبته مع الواقع الذي يحقق غايته وقصده، وأن التطبيق دون دراية لفحوى النص ومواءمته للواقع كان مدار اللوم في الآية لآثاره المناقضة للمصالح الشرعية.

٢ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

وجه الدلالة: المراد بالإكمال أنه شمل وضعه لهم في الطاعات كلها من دين وإيمان وإسلام[2]، فالمراد بالإكمال كلياتها، فلم يبق للدين قاعدة يحتاج إليها في الضروريات والحاجيات أو التكميليات إلا وقد بينت غاية البيان [3]

فالآية الكريمة نص على اكتمال النص الشرعي الموجه للأمة، ولكن حوادث الدنيا وأحوالها لا تكتمل إلا بانتهاء الدنيا وقيام الساعة، ومن هنا كان لزاماً البحث والتنقيب في النصوص الشرعية لفظا ومعنى، وأن النص الشرعي لابد أن يشمل بحكمه ما وقع وما سيقع، وهذه مهمة المجتهدين في كل عصر بالنظر في الأدلة وتطبيقها على الواقع.

ثانيا: من السنة النبوية:

١ -عن جابر رضي الله عنه قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟

(١) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ١/ ١٩٠

(٢) أبو عبد الله محمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ، ٦/ ٦٣

(٣) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ، ص ٨١٦

فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي -صلى الله عليه وسلم- أُخبر بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال »[1]

وجه الدلالة: إن تنزيل الفتوى لما لم تصادف محلها بحسب ظروف الواقعة وما احتف بها من ظروف؛ أدى الأمر إلى مآل ممنوع، حتى وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم قتلوه؛ لأن (كل تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو باطل)[2]وما يؤدي إليه باطل.

٢-عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «يا عائشة، لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت، فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، بابا شرقيا، وبابا غربيا، فبلغت به أساس إبراهيم»[3]

وجه الدلالة: أن النبي عليه الصلاة والسلام وازن بين المصالح والمفاسد المترتبة على هدم الكعبة وإعادة بنائها، وقدم درء المفسدة على جلب المصلحة وهو من تنزيل الحكم بالنظر إلى مآله بمراعاة مصالحه التي شرع ابتداء لتحقيقها، (ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد، حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع ولا نص ولا قياس خاص، فإن فهم نفس

---

(١) أبو داود سليمان السجستاني، السنن، المكتبة العصرية، بيروت، ١/ ٩٣ -ح ٣٣٦. قال الألباني: حسن

(٢) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ٢/ ١٤٣

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢/ ١٧٤ - حديث ١٥٨٦

الشرع يوجب ذلك)[1]

٣-عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نضر الله امرأ سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»[2]

وجه الدلالة: في قوله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه دليل على كراهة اختصار الحديث لمن ليس بالمتناهي في الفقه؛ لأنه إذا فعل ذلك فقد قطع طريق الاستنباط والاستدلال لمعاني الكلام من طريق التفهم، ثم إن الحديث تضمن وجوب التفقه والحث على استنباط المعاني واستخراج المكنون من سره.[3]

٤-ومن فقه التنزيل اختلاف الجواب النبوي على السؤال الواحد، إدراكا للقيمة المراد تقديمها في هذا الموطن نظرا إلى ذات السائل[4]

ثالثا: من المعقول:

(ولو فرض ارتفاع هذا الاجتهاد لم تتنزل الأحكام الشرعية على أفعال المكلفين إلا في الذهن؛ لأنها مطلقات وعمومات وما يرجع إلى ذلك، منزلات على أفعال مطلقات كذلك، والأفعال لا تقع في الوجود مطلقة، وإنما تقع معينة مشخصة؛ فلا يكون الحكم واقعا عليها إلا بعد المعرفة بأن هذا المعين يشمله ذلك المطلق أو ذلك العام، وقد يكون ذلك سهلا وقد لا يكون، وكله اجتهاد)[5]

---

(١) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ٢/ ١٨٩

(٢) أبوداود، سنن أبي داود، ٣/ ٣٢٢- حديث ٣٦٦٠. وحكم الألباني: صحيح.

(٣) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، معالم السنن، المطبعة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ، ٤/ ١٨٧

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ١/ ١٤- حديث ٢٦، ٣/ ١٤٤- حديث ٢٥١٨، ٤/ ١٤ - حديث ٢٧٨٢

(٥) الشاطبي، الموافقات، ٥/ ١٧

المبحث الثاني: أدوات التنزيل في فقه الشيخ السعدي:

يقول ابن القيم (ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان نبيه في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرا؛ فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ... إلى أن قال: ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم)[1]

وبناء على هذا التوجيه العام فإن أدوات التنزيل والتي يمكن استخلاصها من العبارة السابقة يمكن تحديدها في ما يلي:

المطلب الأول: تحقيق المناط وتطبيقاته عند الشيخ السعدي:

لما كان الغرض من تنزيل الحكم الشرعي عبر تحقيق مناطه هو إصابة مقصد الشارع، وذلك من خلال أصل التحقيق في حصول المقاصد الشرعية، والذي يقتضي فهم الواقع عبر آليات الفهم المختلفة والمتجددة، وفهم حكم الله فيه، كان لابد من الوقوف عند تحقيق المناط وأثره في عملية تنزيل الحكم الشرعي[2]. ويتضح ذلك من خلال العرض في الفروع التالية:

الفرع الأول: المقصود بتحقيق المناط:

١-لغةً: التحقيق من حقق، وأصله حق: الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل

---

(١) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/ ٦٩

(٢) فتحي الدريني، بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٤٢٩هـ، ١/ ١٢٠-١٢٣

على إحكام الشيء وصحته، ويقال حققت الأمر وأحققته، أي كنت على يقين منه[1]

والمناط من النوط: والنون والواو والطاء أصل صحيح يدل على تعليق شيء بشيء. ونطته به: علقته به. والنوط: ما يتعلق به أيضا، والجمع أنواط [2]

٢-اصطلاحاً: تحقيق المناط هو إثبات مضمون القاعدة العامة أو الأصل الكلي أو العلة في الجزئيات [3] بمعنى : النظر في معرفة وجود العلة في آحاد الصور بعد معرفتها في نفسها وسواء كانت معروفة بنص أو إجماع أو استنباط[4]، أو هو أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي لكن يبقى النظر في تعيين محله [5].

وتوضيحه:(أن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدتها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعداداً لا تنحصر، ومع ذلك فلكل معين خصوصية ليست في غيره ولو في نفس التعيين، وليس ما به الامتياز معتبراً في الحكم بإطلاق، ولا هو طردي بإطلاق ... فلا يبقى صورة من الصور الوجودية المعينة إلا وللعالم فيها نظر سهل أو صعب، حتى يحقق تحت أي دليل تدخل) [6]

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢/ ١٥- ١٩

(٢) المرجع السابق ، ٥/ ٣٧٠

(٣) فتحي الدريني، بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله، ١/ ١١٩

(٤) أبو الحسن سيد الدين علي الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، المكتب الإسلامي، بيروت، ٣/ ٣٠٢ – موفق الدين بن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، مؤسسة الريان د، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٢/ ١٤٥ - محمد بن علي بن الدهان، تقويم النظر في مسائل خلافية ذائعة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ، ١/ ٩٦

(٥) الشاطبي، الموافقات، ٥/ ١٢

(٦) المرجع السابق ، ٥/ ١٤- ١٥

الفـرع الثاني: استظهـار دور تحقيق المنـاط في تنزيل الحكم علـى الوقائع، ونماذج من فتاوى الشيخ على هذا المعنى:

يعـد فقـه التنزيل فقها عمليا تتجلى فيه غاية الشـريعة الإسـلامية ومقاصدها العامة من السـماحة واليسـر ورفع الحرج وجلب المصالح ودفع المفاسد وغيرها من المطالب العالية، ويشـكل المرحلة الأساسـية لتفعيل أحكام الشـريعة في واقع المكلفين، ذلك لأن أحكام الشـريعة تحتـاج في التعامل معها إلى مرحلتين، مرحلة الفهم والإدراك والتفسير البياني للنصوص، ومرحلة التطبيق وربط المناط بالمحل[1]

(وتظهـر فضيلة الفقيه إذا حَدَثَـتْ حادِثَة أن يتفطن لاندراج هذه الحادثة تحت الحكـم العام الذي يعلمـه هو وغيره، أو يمكنهـم معرفته بأدلتـه العامة نصـاً أيضـاً واستنباطـاً، فأما الحكم فمتقرر قبل تلك الحادثة)[2]

ويعتـبر الاجتهـاد في تحقيق مناط الحكم أول خطوة يسـلكها المجتهد لتنزيل الحكـم علـى الواقـع، فتنزيل الأحكام هـو ثمرة اجتهـاد العقل في تحقيـق الأفعال الواقعيـة في إطـار النوع ثم في إطار التشـخيص، ويظهر هنا تميز مـن يمارس عملية الإفتـاء بخلفية أصولية عميقة[3]

وعن أهميته عبر الشاطبي بقوله: (فالحاصل أنه لا بد منه بالنسبة إلى كل ناظر وحاكم ومفت، بل بالنسبة إلى كل مكلف في نفسه؛ فإن العامي إذا سمع في الفقه أن الزيادة الفعلية في الصلاة سـهوا من غير جنس أفعال الصلاة أو من جنسها إن كانت يسـيرة فمغتفـرة، وإن كانت كثيرة فلا، فوقعت له في صلاته زيـادة؛ فلا بد من النظر

---

(١) إعلان ندوة فقه التنزيل وعلاقته بالنوازل فقها وتأصيلا، المغرب، ٢٠١٦

(٢) تقي الدين بن تيمية، إقامة الدليل على إبطال التحليل، دار المعرفة ، بيروت، ص ٢١٧

(٣) عمر عبيد حسنة، مقدمات فقه التنزيل، موقع إسلام ويب

فيها حتى يردها إلى أحد القسمين، ولا يكون ذلك إلا باجتهاد ونظر، فإذا تعين له قسمه تحقق له مناط الحكم؛ فأجراه عليه، وكذلك سائر تكليفاته، ولو فرض ارتفاع هذا الاجتهاد لم تتنزل الأحكام الشرعية على أفعال المكلفين إلا في الذهن؛ لأنها مطلقات وعمومات وما يرجع إلى ذلك)[1]

ومما بدا لي على هذا المعنى من تحقيق المناط في التنزيل عند الشيخ السعدي المسائل التالية:

١- مخالفته للقول المشهور في المذهب من أن خيار الغبن لا يثبت إلا في ثلاث صور هي تلقي الركبان والاسترسال والنجش[2]، إلى القول أن الخيار يثبت في كل غبن وعدم اقتصاره على الثلاثة[3]

٢- قال في مسألة نقص السعر هل يُضمن في المغصوب؟ الصحيح أنه يضمن نقص السعر، وكيف يغصب شيئا يساوي ألفا وكان مالكه بصدد بيعه بسعره، ثم نقص السعر نقصا فاحشا فصار يساوي خمسمائة[4]،وأراه في ذلك راعى أن اليد الغاصبة معتدية من كل جانب في العين وقيمتها.

٣- من عامل محجورا عليه جاهلا بالحجر عليه فهذا معذور ومن عذره العدل أن لا يكون ما باعه يدلي به أحد من الغرماء الذين لا تعلق لهم بما باع بوجه من الوجوه[5].

(١) الشاطبي، الموافقات، ٥/ ١٦- ١٧

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ١٣/ ٨

(٣) المرجع السابق ، ٢٥/ ٣٢٨

(٤) المرجع السابق، ٢٤/ ٣٤١

(٥) المرجع السابق، ٢٥/ ٢٤٤

وعليه: فمن وجد عين ما باعه جاهلا بالحجر فله الرجوع فيها، فإن استهلكها المحجور عليه فلا يُشارك الغرماء [1] ويمكن إدراج ذلك في باب تنقيح المناط كخطوة سابقة لتحقيقه.

٤-و من تحقيق المناط ما قاله الشيخ في مسألة بيع المشتري للثمار التي اشتراها بعد بدو صلاحها وقبل قطفها: الأصل في جميع ما ملكه الإنسان إباحة التصرف فيه ومنه بيع ما اشتراه مما بدا صلاحه قبل جذه؛ لأنه لم يدخل في محذور من المحاذير لا من الربا ولا من الغرر، وإن وقعت جائحة فعلى البائع ومع ذلك فضمانه لا يدل على منع التصرف فيه، لأنهما غير متلازمين. [2]

٥- السؤال في تفسير المثلي في القرض وهل منه الطاقة - اللفة من القماش- ، وما الصحيح في ما لو نقصت قيمته؟ قال: تجب قيمته وقت القرض، فيصير بيعا لتلك الطاقة، ولو أنهما متشارطان أنها قرض وأنه يرد بدلها وأن المقرض لها لا رغبة له في بيعها، ونقص القيمة لا يعتبر في باب القرض وفي باب الغصب إذا نقصت قيمته.

ثم إن بين القرض والغصب فرق؛ فالأول عقد إرفاق، والثاني حالة من التعدي. [3]

وبالتأمل في هذا المثال يظهر لنا أن الشيخ -رحمه الله- خرج عن المنصوص عليه في المذهب لعمل الناس؛ كاللفة من القماش(وجاءت في السؤال بلفظ الطاقة) فعلى المذهب أن المثلي هو كل مكيل وموزون، لكنه وسع مناطه ليشمل كل ما له مثال لا يتفاوت فيه، وهذه الفتوى في الواقع أقرب إلى العدل وإلى فحوى معنى المثلية من الوقوف عند حد المثلية بالكيل أو الوزن مع وجاهتهما في الاحتياط في

(١) المرجع السابق، ٢٥/ ٢٤٥

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٤٣

(٣) المرجع السابق، ٢٥/ ١٠٩

الحكم، إلا أن مناط المثلية في ما يوجد أمثاله مما لا ينقطع ولا تفاوت بين آحاده أولى والله أعلم.

٦- وفي تفريق جميل بين العارية والوديعة وذلك في مسألة ضمانهما: أتى الشيخ بالضابط الفقهي : وهو أن كل أمين - وهو من صار مال غيره بيده بإذنه ورضاه- لا ضمان عليه إلا بالتعدي أو التفريط، هذا من حيث الأصل إلا إن شُرِط الضمان في العارية فالمؤمنون على شروطهم، وهو شرط نافع صحيح.

أما في الوديعة فإذا شرط ضمانها فهذا مناف لموضوع العقد، ومناقض للإحسان الذي قام عليه العقد؛ فالمستودع محسن محض، ولا مصلحة دنيوية له فشرط تضمينه مناف لذلك.[1]

ولكن الشيخ -رحمه الله- رجح أن ضابطه: كل شيء له مثيل وشبه أو مقارب؛ فيدخل فيه المكيلات والموزونات والمنسوجات التي لا تختلف[2]، والواجب رد المثلي أو المقارب تحصيلا لمقصود المقرض من تلك العين ومن القيمة لأنه متضمن للقيمة ولتلك العين[3]، والقرض أولى بالمثلية من التعدي وهو بهذا يفتح بابا للمعونة بين الناس ؛ إذ أن المقرض لو علم أن عين ماله سيذهب منه أحجم عن الخير خوفا على ماله[4] وفي ذلك إفساد.

---

(١) المرجع السابق، ٢٥/ ٢٧٦ - ٢٧٧

(٢) المرجع السابق، ٢٥/ ١٠٧

(٣) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ١٠٨

(٤) المرجع السابق، ٢٥/ ١٠٨

المطلب الثاني: النظر في المآلات وعلاقته بسد الذرائع:

(النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى المفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها) [١]

(ولما كانت التكاليف مشروعة لمصالح العباد، ومصالح العباد إما دنيوية وإما أخروية، أما الأخروية، فراجعة إلى مآل المكلف في الآخرة ليكون من أهل النعيم لا من أهل الجحيم، وأما الدنيوية، فإن الأعمال -إذا تأملتها- مقدمات لنتائج المصالح، فإنها أسباب لمسببات هي مقصودة للشارع والمسببات هي مآلات الأسباب، فاعتبارها في جريان الأسباب مطلوب، وهو معنى النظر في المآلات) [٢]

ومن النظر المقاصدي عند الشيخ السعدي والذي يترتب على القول به سد الذريعة: ما جاء في مسألة أن خيار البائع والمشتري يبطل مطلقا بتلف مبيع وبإتلاف مشترٍ إياه؛ فكان الرد : بأن العمومات الدالة على إثبات الخيار لا تفرق بين التلف والبقاء، وإنما يهم الأمر بهما من حيث القول في الرجوع بنفس العين أو بدلها، ويُقوّي هذا ما إذا كان التلف من المشتري فإنا إذا لم نثبت للبائع الخيار ربما تحيل

(١) الشاطبي، الموافقات، ٥/ ١٧٧

(٢) المرجع السابق ، ٥/ ١٧٨

المشتري على إتلافه لإسقاط الخيار وفي ذلك إضرار ولغيره من المقاصد [1]

الفرع الأول: التعريف بالمآلات واعتبارها من خلال مبدأ سد الذرائع:

أولاً: التعريف بالمآلات:

١ - المآل لغة: من أَوَلَ، والهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه[2]، وهو هنا من المعنى الثاني.

ومبدأ سد الذرائع متفرع عن أصل النظر في مآل التطبيق، حتى إذا أفضى الأمر إلى نتائج تناقض مقصد الشارع عادت عليه بالنقض ومنع من تنفيذ الحكم؛ لأنه أضحى وسيلة إلى مقصد غير مشروع، ولا عبرة بالوسائل إذا لم تحقق مقاصدها[3]، لأن للوسائل أحكام المقاصد[4]

ومبدأ الاستحسان متفرع أيضا عن أصل النظر في مآلات الأفعال؛ بما هو استثناء للمسألة من حكم القاعدة العامة، لتُعطى حكما جديدا هو ألصق بالمصلحة والعدل وبناء على دليل أقوى من القاعدة نفسها ا[5]

وعليه فإن الاستحسان بما هو ضرب من الاجتهاد في الرأي يعالج غلو القياس وذلك بما يُفضي إليه تطبيق القواعد العامة على ما يندرج تحت حكمها من وقائع من نتائج غير مقصودة للشارع، أو لما شابها من الضرر، فإنه بذلك يتأكد لنا أن

(١) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٧٥

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١/ ١٥٨

(٣) فتحي الدريني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، الشركة المتحدة، دمشق،ط٢، ص٦

(٤) ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ١/ ٥٣

(٥) الدريني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، ص٦

الاجتهاد في التطبيق لا يقل خطرا عن الاجتهاد في الاستنباط الفقهي المجرد؛ وذلك لتعلقه بالثمرات الواقعية، والآثار العملية في حياة الأمة، وهي غاية التشريع[1]

ومن تطبيقات هذا الأصل عند الشيخ السعدي -رحمه الله- مخالفته مشهور المذهب لوجه معقول ولقياس صحيح:

وذلك عندما سئل عن وجاهة القول بصحة البيع واشتراك البائع والمشتري في الزيادة الحاصلة في ما إذا باع خشبا فشب وطال وقد شرط قطعه؟ فكان رده بذكر الأقوال في المذهب ورجح منها أن البيع ينفذ والزيادة للبائع مخالفا بذلك القول المشهور في أنها للمشتري، ثم علق بأن القول بأن الزيادة لهما على المذهب ضعيف جدا.[2]

ثانيًا: أدلة اعتبار النظر في المآلات في فقه التطبيق:

وتظهر من خلال جملة من الاجتهادات للصحابة رضوان الله عليهم:

١ - ما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- من أنه لما توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر -رضي الله عنه-: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله ، فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . قال عمر رضي الله عنه فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق «[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٦

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٧٦

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ٢/ ١٠٥ - ١٣٩٩

والشاهد من الأثر: أن في قتال أبي بكر الصديق لمانعي الزكاة مخالفة لظاهر النص في النهي عن قتال المسلم، إلا أنه إعمال لمقصده؛ ذلك أن حق لا إله إلا الله هو التزام أداء أوامره بالأركان كلها، وأن منع الزكاة في واقعه يؤول إلى نقض حقيقة التوحيد.

٢- ويؤكد هذا التعقل لمقصد الحكم ما ترتب على قرار عمر بن الخطاب من إيقاف سهم المؤلفة قلوبهم بوضعه في ما هو آكد بمصلحته ومنعه فيما انتفت مصلحته بحسب الواقع لتغير الأحوال؛ من ذلك ما جاء في سنن البيهقي عن مهاجر أبي الحسن قال: أتيت أبا وائل وأبا بردة بالزكاة وهما على بيت المال فأخذاها، ثم جئت مرة أخرى فوجدت أبا وائل وحده، فقال: ردها فضعها مواضعها، قلت: فما أصنع بنصيب المؤلفة قلوبهم قال: «رده على آخرين»[١]

٣-وجمع عثمان بن عفان المسلمين على مصحف واحد ونشره وحرق ما عداه، وورّث زوجة من طلق زوجته للفرار من إرثها[٢]

وهي المسألة التي عنون لها ابن أمير حاج بقوله: إذا رجح قياس متأخر لتأخر شرعية حكم أصله عن نص على نقيض حكمه[٣]، لو علم الحكم منوطا بمصلحة علم ارتفاعها فهو من قبيل انتهاء الحكم لانتهاء علته؛ كسقوط سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة[٤]

---

(١) أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ ٧/ ٣٢ - حديث ١٣١٩٠ - عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة، عن الطبعة ٨ لدار القلم، ص ٨٦

(٢) خلاف، علم أصول الفقه، ص ٨٦

(٣) أبو عبد الله شمس الدين المعروف بابن أمير حاج، التقرير والتحبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ ٣/ ٧٠

(٤) المرجع السابق، ٣/ ٧١

الفرع الثاني: أثر اعتبار المآلات في ضبط فقه التنزيل، ونماذج من فتاوى الشيخ على هذا المعنى:

ولتوضيح أهمية مراعاة فقه الواقع ومآله إبان تنزيل الحكم الشرعي والذي هو أخطر أدواره، يمكن تقريب الصورة من خلال ما عرضه الفقهاء في باب القواعد الفقهية من حيث أنها حكم أغلبي أكثري لا كلي، ذلك أن المستثنيات من القاعدة لمّا لم يتحقق فيها مناط القاعدة وغاية تطبيقها، فإن الحكم يستثنى من هذه القاعدة فيخرج منها ليدخل في دائرة قاعدة أخرى تحقق مناطها فيه بصورة أظهر، وهو الأمر الذي يؤكد أن الأحكام في الشريعة مغيّاة في تشريعها ومآل تطبيقها، وفي تحقيق المصالح التي قصدها الشارع في بابها.

وهو جوهر التعسف في استعمال الحق بما هو من مناقضة قصد الشارع في تصرف مأذون فيه بحسب الأصل، فيُمنع الفعل المشروع لما لازم تطبيقه من حياد عن المقصد الخاص بالحكم، وأضحت نتيجة التطبيق خروج عن كليات الشريعة في جملة التصرف، وهو ما يؤكد أن التطبيق الآلي للأحكام لا محل له في ما كان من الأحكام الاجتهادية المعقولة في معناها، وأن الابتلاء بالالتزام يشمل تحديد النص في الواقعة مدار البحث ثم التثبت من صحته فيما كان من باب الظني، وأخيرا اختبار تحقيقه لغاياته أثناء تنزيله على واقعته أو ما شابهها مما اشترك معها في المناط.[1]

ومن النماذج العملية التي تكشف مراعاة الشيخ لمبدأ النظر في المآلات وما يستلزمه من سد الذرائع:

١-أن الوكيل في العقارات لا يقبض ثمن العقارات والمبيعات الكبار، والغالب

(١) ماهر حصوة، فقه التنزيل، ص ٢٤٩

أن يقبضها الموكل[1] ؛ أقول وذلك سدا لذريعة الطمع في مال الموكل وقطعا للمنازعة.

٢-ومن مراعاة ديمومة الوقف والخوف من مآل اندثاره أو ضياعه ؛ جاءت فتوى الشيخ في مسألة وقعت في مساقاة نخل موقوف؛ والمساقاة عقد لازم، ولا يلزم المساقي أن يعمرها، ولم يكن للوقف غلة، فإذا رأوا أن المصلحة أن يشتركا في عمارتها؛ هذا ينتفع بحفظ أصل الوقف، والمساقي ينتفع بماله من زرع أو ثمر باقي سنينه[2]

٣-ومما وقفت عليه من فتاوى الشيخ والتي لم أجد مبررا للجمع فيها بين أثرين متضادين للعقد ؛ مسألة القبض في العقد الفاسد: نُعمل الأمرين نحرمه ونؤثمهما على نفس العقد، وننفذ التصرفات بعد ذلك.[3]

وهذا الحكم أراه خروجا عن القواعد والأصول إذ كيف يجمع العقد بين نتيجتين متضادتين، وكان تعليل الشيخ أن ترجيعه وترجيع التصرفات بعد المدة الطويلة في غاية الصعوبة.[4]

المطلب الثالث: مراعاة المقاصد بمراتبها إبان تنزيل الحكم الشرعي:

تنقسم المقاصد بحسب محل صدورها ومنشئها إلى قسمين: مقاصد الشارع، ومقاصد المكلف، وباعتبار قوة الحاجة إليها إلى ضرورية، وحاجية، وتحسينية،

---

(١) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ١١١

(٢) المرجع السابق، ٢٥/ ١٧٧

(٣) المرجع السابق، ٢٥/ ٩٩

(٤) المرجع السابق، ٢٥/ ١٠٠

ومجمـوع الضـروريات خمسـة، وهي: حفـظ الدين، والنفس، والنسـل، والمال، والعقل، وهي مراعاة في كل ملة.[1]

هـذا والدين كلـه مبني على مقاصـد تنتظم جميع أحكامه وتشـريعاته، ومن هـذه المصالح مـا هو منصوص عليه علـى وجه الوضوح نصا يشـمل به كل أفعال الإنسـان بحيث يكون أصلا لها تنبني عليـه جميعا؛ كرفع الضرر في حديث لا ضرر ولا ضرار، وإما نصا يجمع به نوعا معينا من الأفعال مثل رفع الغرر[2]

وأعرض فيما يلي تفصيلا في أهمية المقاصد ومراعاتها ودورها في توجيه تنزيل الحكم الشرعي.

الفرع الأول: المقاصد برتبها وقيمتها كجوهر للأحكام الشرعية :

ضبط قواعد الفقه التـي يعتبرها الفقيه عند تنزيله الأحكام على الواقع، موازية لتلك التي يعتبرها عند فهمه للدين من أصوله، ومن أبرز الأبواب التي كرست لفقه التدين هو باب المقاصد[3].

فلكل حكم شـرعي مقصـد؛ لأن الأحكام إنما هي وسـائل لغايات ومقاصد، وعلى المفتي أن يراقب إبان إعطائه الحكم الشرعي تحقيق الانسجام والتوافق بين المقصد ووسيلته والظروف المحتفة به.

ولقد تقرر أن الوسـائل من حيث هي وسـائل غير مقصودة لأنفسها، وإنما هي تبع للمقاصد بحيث لو سـقطت المقاصد سـقطت الوسائل، وبحيث لو توصل إلى

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٢/ ١٧

(٢) عبد المجيد النجار،في فقه التدين فهما وتنزيلا، ١/ ٢٠٩

(٣) المرجع السابق، ١/ ٦٥

المقاصد دونها لم يتوسل بها.[1]

ومن هنا جاءت القاعدة تنص على أنه يغتفر في الوسائل ما لا يغتفر في المقاصد[2] وأن التمييز بين ما هو مقصد للحكم الشرعي مما هو وسيلة إليه له أهمية كبيرة في الاجتهاد؛ لأن المقصد يتصف بالثبات والدوام، والوسائل قد تتغير بتغير البيئة أو العصر أو العرف أو غير ذلك من المؤثرات.[3]

ومن الفتاوى التي تظهر فقه الشيخ لهذا المعنى - أن الوسيلة تبع للمقصد- قوله في مسألة من كان له أولاد وكان أحدهم قائما بأعمال والده فأراد الأب أن يخصه بمبلغ يكتبه في ورقة يُثبت حق الولد العامل بالزيادة. فكان رد الشيخ بأن الزيادة المقطوعة لا تجوز لأنه لا يدري هل هو مقدار استحقاقه أو أكثر أو أقل، وهو في نفس الوقت وسيلة إلى المحاباة وأن يُنسب إلى الحيف، وكان المخرج بعقد إجارة بين الأب وولده بمبلغ محدد مقابل عمله كما لو استأجر عاملا من الناس.[4]

الفرع الثاني: ضرورة ملاحظة المقاصد أثناء عملية التنزيل الفقهي ونماذج من فتاوى الشيخ على هذا المعنى:

من الثابت أصوليا أن درجة الاجتهاد إنما تحصل لمن اتصف بأمرين؛ أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها، والثاني: التمكن من الاستنباط بناء على

(١) الشاطبي، الموافقات، ٢/ ٣٥٣

(٢) عبد الرحمن السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ ١/ ١٥٨ - وهبه الزحيلي، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢/ ٦٨٧

(٣) بشير جحيش، في الاجتهاد التنزيلي، ص ٩٤

(٤) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٨٧

فهمه فيها[١].

(ولقد ثبت بالاستقراء التام أن المصالح على ثلاث مراتب، فإذا بلغ الإنسان مبلغا، فهم عن الشارع فيه قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها فقد حصل له وصف هو السبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي صلى الله عليه وسلم في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله)[٢]

(وأما الثاني: فهو كالخادم للأول؛ فإن التمكن من ذلك إنما هو بواسطة معارف محتاج إليها في فهم الشريعة أولا، ومن هنا كان خادما للأول، وفي استنباط الأحكام ثانيا، لكن لا تظهر ثمرة الفهم إلا في الاستنباط؛ فلذلك جعل شرطا ثانيا، وإنما كان الأول هو السبب في بلوغ هذه المرتبة؛ لأنه المقصود والثاني وسيلة)[٣]

(نعم يبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولا إلى نظر المجتهد، فإن قاعدة الاجتهاد أيضا ثابتة في الكتاب والسنة، فلابد من إعمالها، ولا يسع الناس تركها). [٤]

نماذج عملية من اعتبار المقاصد عند التنزيل في فتاوى الشيخ السعدي:

١- ومن النماذج العملية التي تؤكد ذلك ما ذهب إليه الشيخ من أن العِينة إذا باعها بذهب فهل يجوز أن يشتريها منه بائعها بفضة؟ ليس بوجيه لأن الذهب والفضة معانيهما ومقاصدهما متفقة ، وتجويز مثل هذه المعاملة فتح لباب

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٥/ ٤١- ٤٢

(٢) الشاطبي، الموافقات، ٥/ ٤٣

(٣) المرجع السابق

(٤) الشاطبي، الاعتصام، ص ٨١٧

الربا، والمطلوب سد أبوابه.[1]

٢-ومن تحكيم الشيخ للمصلحة ما جاء في جوابه لما سئل عما إذا وقع الصلح على بقاء الغصن بعوض فهل من الوجاهة القول بعدم الجواز ؟ وكان رده في بعده المقاصدي نظرا إلى مضمون الصلح وأنه أوسع العقود ومع ما يتضمنه في جوهره من المسامحة وجلبا للمصلحة لجميع الأطراف[2]، إذ أن تحصيل المصلحة مقصود لذاته، ودفع المفسدة لغيره، وهو ما يعرض من الضرر بسبب تلك المفسدة[3]

إن علاقة فقه التنزيل بالمقاصد تأخذ عدة أبعاد، منها: أن العلم بالمقاصد له أثر كبير في توجيه النازلة بما يحقق مقاصدها، التي من أجلها شرع حكمها. وذلك بتشخيص المناط ومدى تعرض هذا المناط للتغير من حال إلى آخر بسبب العوارض المكانية والزمانية والإنسانية.[4]

لكن تغير مناط الحكم الشرعي بتغير ظروف النازلة بسبب هذه العوارض قد يجعل الحكم الشرعي لا يترتب عليه حكمته ومقصده، الذي من أجله شرع حين تطبيق هذا الحكم على النازلة الجديدة، فيلجأ المجتهد إلى الحكم بعدم التنزيل ويلجأ إلى التأجيل إلى حين توفر الشروط وانتفاء الموانع؛ لأن تطبيق الحكم دون مراعاة لهذه العوارض قد يسفر عن نتائج تكون معاكسة لقواعد الشريعة ومقاصدها من تشريع الحكم.[5]

(١) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٥٢

(٢) انظر تفصيل المسألة: مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٦٦

(٣) الطوفي، شرح مختصر الروضة، ١/ ٣٧٣

(٤) عمر عبيد حسنة، مقدمات فقه التنزيل، موقع إسلام ويب

(٥) المرجع السابق

٣-ومـن ملامح مراعـاة مقصد حفـظ المال؛ جاءت فتوى الشـيخ بـأن الكفارات والنفقات والزكوات ونحوها من النوائب المالية تجب على العاقل والمجنون لأنها من حقوق المال لا من حقوق البدن[١]

٤- وجاء جواب الشـيخ معللا بمراعاة المصالح وذلك في سـؤال عن رأيه في وقوع جمعتين في منطقة واحدة؛ فقال:(قد يعرض للعمل المفضول من المصالح ما يصيّـره أفضل من الفاضـل، وقد يعرض للعمل الفاضل من ضد ذلك ما يكون غيره أولى منه مراعاة للمصالح الشرعية ودفع المفاسد، والمطلوب جعل هذا الأصل نصب عينيك في الأمور المتعلقة بالناس، فإن المصالح الكلية والقواعد الشرعية العامة تترك لها المصالح الجزئية، ومع النية الصالحة يدرك العبد بنيته العملين جميعا) [٢]

٥- وفي سؤال عن رأي الشيخ في الأوراق النقدية وسماها النوط، وقال المعلق على الكتاب لعله البنكنوت:

يقـول (لما كان العلماء السـابقين لا يوجد لهم فيـه كلام، فأحببنا أن ننتهي في البحـث فيـه إلى أقصى ما نقدر عليه فسـوينا مناظـرة بين من يـراه عرضا وله حكم العـروض في كل أحوالـه، وبين من يراه نقدا في جميع أحوالـه، ومن يراه بيعا لما في الذمـة بمنزلـة بيع الصكوك؛ وكان منتهى ما وصل إليـه علمنا فيه: أنه يجوز بيعه يدا بيد مطلقا سـواء كان نوط ذهب أو فضة، متماثلا أو متفاضلا بالجنس أو غيره، وأنه لا يجـوز بيـع بعضها ببعض إلى أجل سـواء اتفـق الجنس أو اختلـف كما كان هذا قولنا في بيع القروش بأحد النقدين، أو بيع بعضهما ببعض أنه لا يجوز نساء ويجوز

---

(١) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٤٨

(٢) المرجع السابق، ٢٥/ ٣١

حاضرا إذا لم يكن فيه مدة، وعرضنا هذه المناظرة على الإخوان فقرّ نظر الجميع)[1]

وهـو بذلك يراعي أصل الثمنية فيهما وباتحـاد علتهما يحرم التأجيل في قبض أحدهمـا، أما المفاضلـة بينهما فإن كانا على القول بأنهما جنسـان فجاز، وإلا فهما أشبه بالعروض والله أعلم.

٦-وفي مسـألة البيع المسـتعمل والمسـمى ببيع الخيار؛ بأن يبيـع داره بمائتين مدة سـنتين وينتفع هذا بالدراهم وهذا بسكنى الدار، ومتى شاء رد عليه داره وأخذ دراهمه[2]

قال الشـيخ: هذا هو القرض الذي يجر نفعا بلا شـك، وليس هو بيع حقيقة بل من الربا الصريح،. ورفض الشيخ التعليل بعموم البلوى وقال: (إن الشيء إذا ثبت تحريمـه ودلت النصـوص على منعه ، صار الواجب المتعيـن العمل بما دلت عليه النصـوص، كائنـا في ذلك من الضيق ما كان، وليس ذلك مـن الاضطرار الذي يبيح المحظور)[3]

وعلـل في موضع آخـر بمناقضة هـذه المعاملة للإرفاق الحاصـل في القرض، وبـأن المعاملـة لا يصدق عليها أنها من بيع الخيار الحقيقي والذي قُصد فيه التروي ومراجعة عزم أحد المتعاقدين المضي في البيع أم الفسخ[4]

وعنـد التأمـل يظهر لنا بُعـد النظر المقاصدي عند الشـيخ -رحمـه الله-، وأن

---

(١) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٤٧

(٢) وهو المسمى ببيع الوفاء عند الحنفية، انظر الأقوال فيه وتعليل من أجازه : عثمان بن علي الزيلعي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ط١، ١٣١٣هـ/٥/ ١٨٣

(٣) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٢- ٢٣

(٤) المرجع السابق، ٢٥/ ٣٨

رتبة الحاجيات لا تبيح ما ثبت تحريمه بالنص القاطع، وحيث لا يستلزم الواقع الترخص المبيح، وأن تضييق الإنسان على نفسه وتشبثه بما عرفه هو سد لأبواب الرزق الواسعة[1]

وهو من النظر العميق في المآلات ومراعاة المصالح الأشد على الأخف، و لما عُلم من أن كل مصحة راجحة تُستجلب يقابلها مصلحة مرجوحة تُستدفع؛ وذلك لأن المصالح والمفاسد مختلطة، فلا مصلحة محضة ولا مفسدة محضة.

٧- ومن باب الموازنة بين المصالح والمفاسد وسد الذريعة للخصومة امتناع الشيخ عن الرد في ما ينظره القضاء؛ وتلك حصافة من الشيخ ووقوف عند حدود التنظيمات، ودرء للمفاسد بترك الأمر لأهل الحل والعقد فيه، وأن يتوكل هو أمر الفتوى في ما يحتاج إلى بيان في ما كان من اختيار العاقد لا ما كان أمره تخصصي وموكل للقضاء

من جميل قول الشيخ : وأما سؤالكم عن مسألة عقد الشركة فلا أرغب أن أُفتي فيها بإثبات أنها لازمة ولا بنفي ذلك لأن المسائل التي يحصل فيها خصومات عند القضاة كلها ساد لباب الفتوى فيها[2]

---

(١) المرجع السابق

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٢٩٢

المبحث الثالث: نماذج من التقعيد الفقهي عند الشيخ في أبواب المعاملات المالية:

وأختم هذه الدراسة بجملة من الفوائد والقواعد والضوابط التي بثها الشيخ -رحمه الله- في ثنايا تعليلاته والتي ظهر لي خيرها الممتد بما هي أصول تجمع المتفرقات، وتعين على فهم وضبط الحوادث في المستقبليات، وأذكر منها:

١- أن كل مكروه احتيج إليه تزول معه الكراهة[1]

وكأن القاعدة تنزل درجة عن قاعدة أن الحرام إن اضطر إليه تزول معه الحرمة، فكذا المكروه إن وقعت للناس فيه حاجة.

٢-الوقف إلى الجهات القصد فيه النفع العمومي، وأما الوقف على الأشخاص فإن الغرض تمليكه أولئك المعينين بوصف أو عمل من الأعمال[2]

ويترتب عليه التفريق بين حقوق الوقف إن كان لجهة نفع عام؛ ومسائل انعدام الغلة وتهدمه وعمارته واستبداله، وبين ما إذا كان الوقف لجهة خاصة.

٣-مسائل الخلاف إن تعلقت بالإنسان وصار ملزوما بتنفيذها بنفسه فعليه أن يعمل بالقول الذي يعتقده، وإن كانت منوطة بغيره فيسعه السكوت عنها.[3]

لأن العاملين بها ربما لهم تأويلات، وإنما الذي يجب إنكاره مع القدرة مسائل الخلاف.

٤- باب الرخص والتسهيلات يكون العبد فيه مخير يختار ما هو أسهل عليه.[4]

---

(١) المرجع السابق، ٢٥/ ٣٩٤

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

(٤) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢٥/ ٤٠٣

٥-ما نهى عنه من العقود ونحوها لحق الغير إذا عفا صاحب الحق نفذ العقد وصار صحيحا، وما كان فيه علقة خيار ونحوه لصاحب الحق يكون عقدا غير لازم[١]

٦-ضابط: من أخذ مالا ظنا أنه له فظهر أنه لغيره فهو ضامن[٢]

٧-الإجارة تنفسخ إذا تعذر الانتفاع على أي وجه كان.[٣]

٨-العرف في الشرع جارٍ مجرى اللفظ.[٤]

٩- يثبت الرد في المعاوضات: بالعيوب، وفقد الصفات المشروطة لفظا أو عرفا، وبالتدليس.[٥]

١٠-إن العقد إذا كان محرما لحق الله -كالبيع في المسجد- فإنه غير صحيح، وإذا كان محرما لحق آدمي محض - كالنجش- فإنه لا يلزم الحكم بالفساد بل يزال الضرر عن الآدمي - بخيار الغبن- ويحصل بذلك المقصود.[٦]

(١) المرجع السابق، ٢١/ ٣٧

(٢) المرجع السابق، ٢٥/ ١٨١

(٣) المرجع السابق، ٢٤/ ٣٣٠

(٤) المرجع السابق، ٢٤/ ٣٥٥

(٥) المرجع السابق، ٢١/ ٤٣٤

(٦) المرجع السابق، ٢٥/ ٢٧٦

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة السريعة في فقه التنزيل عند الشيخ السعدي -رحمه الله-، نخلص إلى النتائج التالية:

- إن ديمومة الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان استلزم القول به البحث في كيفية استثمار النص الشرعي في كل ما يحتاجه الناس في أمور معاشهم من معاملات وعادات، وهو الذي جاءت الأحكام في بابه بصورة قواعد كلية وإجمالية لتحقيق هذه الغاية.
- القول باستثمار النص الشرعي كموجه عام للأحكام يستلزم البحث في أدوات تنزيل النص من أفقه النظري إلى واقع التطبيق العملي، وهو الذي لا يثبت على حال بل يتجدد مع الزمن بتجدد الأحوال وتغير الحاجات، وتنوع المصالح فيما كان من النصوص من ظني الدلالة.
- يظهر من خلال الفتاوى العملية وتعليلاتها أحيانا أن الشيخ السعدي - -رحمه الله- - وهو المفسر الواعي لغايات التشريع ومقاصد النص، والذي أبدع في بابه من خلال كتابه القواعد الحِسان؛ ظهر للمتتبع أنه امتلك أدوات التنزيل والتي تقوم أساسا على عنصري ثبوت الدليل والوقوف على غاياته، ثم تبُنى على وعيٍ صادق للواقع وحاجياته، والتفات متعقل لمآلات تطبيقه، وتمحيص لتفاصيله بعيدا عن التعميم الذي لا يصيب حاجة السائل.

التوصيات:

-توصي الباحثة بضرورة تفعيل فقه التنزيل في المقررات الدراسية لمواد أصول الفقه، ثم ربطها بالأمثلة العملية لمواد الفقه المعاصر من الفقه الطبي والمعاملات المالية المعاصرة والعقوبات التعزيرية، وصولا بالطالب من

المتلقي إلى المشخّص الفاعل والقادر على تفهم روح الاجتهاد وإدراك أدواته وملاحظة محالّه.

-وتوصي الباحثة كذلك بضرورة ربط الطلبة بأعلام وفقهاء البلد لا بالمعرفة النظرية فقط، ولكن بقراءة نصية تطبيقية لكتبهم وذلك في مواد المقررات الدراسية المختلفة، والارتقاء بالبحث الفقهي من التجريد إلى التحليل والتطبيق والربط بالمعاصر.

-وتقترح الباحثة على طلبة الدراسات العليا أن يتناولوا القواعد والضوابط التي صاغها الشيخ في كتبه بالدراسة والبحث ثم التطبيق العملي في باب من أبواب الفقه.

وختاما أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه، وأن يكتب للشيخ -رحمه الله- الأجر الموصول بالعلم الذي يُنتفع به ، وأن يقبل منه كل ما خلّفه من علم نافع، وندعو له بما دعا به هو لغيره بأن يضاعف الله له الأجور ويغفر له القصور[1] ، وأن يتحقق في علمه قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]

(١) مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، ٢١/ ١٧٩

ثبت المراجع:

- إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الاعتصام**، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ
- إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الموافقات**، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ
- ابـن قيم الجوزيـة، محمد بن أبي بكر، **إعلام الموقعين عـن رب العالمين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ
- أبو الحسـن سيد الدين علي الآمدي، **الإحكام في أصول الأحكام**، المكتب الإسلامي، بيروت
- أبوداود، سليمان بن الأشعث ، **سنن أبي داود**، المكتبة العصرية، بيروت
- أبـو عبد الله شـمس الديـن المعروف بابـن أمير حـاج، **التقرير والتحبيـر** ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ
- أبـو عبد الله محمد بن أحمـد القرطبي، **الجامع لأحكام القـرآن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ
- أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ
- أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، دار الفكر، ١٣٩٩هـ
- بشـير جحيش، **فقه التنزيل وعلاقته ببعض المصطلحات**، من أعمال ندوة مسـتجدات الفكر الإسلامي الحادية عشر، وزارة الأوقاف، الكويت، ٢٠١٣.
- بشير جحيش، **في الاجتهاد التنزيلي**، كتاب الأمة، ٢٠٠٣، عدد ٩٣
- تقي الدين بن تيمية، **إقامة الدليل على إبطال التحليل**، دار المعرفة ، بيروت
- الخطابـي، أبو سـليمان حمد بن محمد، **معالم السـنن**، المطبعـة العلمية، حلب، ط١، ١٣٥١هـ
- صفـاء شـاهين، **الضوابط المعيارية في تنزيل الأحكام الشـرعية**، أطروحـة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٩
- عبد الرحمن السـعدي، **تيسـير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ

- عبد الرحمن السيوطي، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ
- عبد المجيد النجار،في فقه التدين فهما وتنزيلا، كتاب الأمة
- عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة، عن الطبعة ٨ لدار القلم
- عثمان بن علي الزيلعي، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ط١، ١٣١٣هـ
- العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة
- عمر الأشقر، المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، دار النفائس، عمان، ط٢، ١٤٣٣هـ
- عمر عبيد حسنة، مقدمات فقه التنزيل، موقع إسلام ويب
- فتحي الدريني، بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢، ١٤٢٩هـ
- فتحي الدريني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، الشركة المتحدة، دمشق،ط٢
- ماهر حصوة، فقه التنزيل، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية، المجلد ١٣ - العدد١، يونيو٢٠١٦
- مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي، دار الميمان، الرياض، ط١، ١٤٣٢هـ
- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ
- محمد بن علي بن الدهان، تقويم النظر في مسائل خلافية ذائعة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ
- موفق الدين بن قدامة المقدسي، روضة الناظر وجنة المناظر، مؤسسة الريان د، ط٢، ١٤٢٣هـ
- نجم الدين الطوفي، شرح مختصر الروضة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٧ه
- وهبه الزحيلي، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ